كولن ولسون

رحلة نحو البداية

ترجمة ذاتية ذهنية

ترجمة

سامي خشبه

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة

١٩٨٨

مقدمة الترجمة

هناك مثل انجليزي يقول : « كلما كثر كلامك ، كثرت أخطاؤك » . ومن الصعب أن يكون هناك كلام أكثر تعرضاً للخطأ من الكلام عن الذات ، الكلام الذي يبدأ بكلمة « أنا » ، خصوصاً إذا كان الفعل التالي في صيغة الماضي . إنك لن تحكي قصة حياتك بموضوعية أبداً . ولهذا السبب رفض فولتير أن يكتب قصة حياته ؛ وكتبها روسو في صيغة اعترافات لكي يلزم نفسه بالصدق ؛ وفضل ديكنز ودستويفسكي وجوركي وجويس أن يكتبوا « عن » حياتهم على اعتبار أنها حياة أشخاص آخرين حتى يتيحوا لأنفسهم فرصة فحص « بعض » لحظات هذه الحياة وتحليلها بموضوعية أكبر ، وبانفعال أقل ، وحتى يتيحوا لقرائهم فرصة الانفعال الصادق ، دون أن يدفعوهم دفعاً مقصوداً اليه .

ولكن من البديهي أن يكون لكل مفكر الحق في أن يحكي قصة حياته . ومن البديهي كذلك أن يكون من حقه أن يختار الزاوية الخاصة التي سينظر إلى قصة حياته منها . وكولين ويلسون يقول إنه اختار الزاوية التي كان من المفروض أن يختارها وينظر منها كل مفكر ينوي أن يكتب ترجمته الذاتية . ويقول إنها الزاوية – بالتحديد – التي أهملها كل المفكرين الذين كتبوا قصص حياتهم . إنها زاوية « التربية الفكرية » الذاتية . الزاوية التي تتشكل من الاجابة على السؤال : كيف استطعت أن أكون عقليتي بهذا الشكل حتى أصبح لي هذا الموقف بالتحديد ؟ أي انه قرر منذ اللحظة الأولى أن يحكي لنا ترجمة ذاتية لذهنه ، وهذا هو ما يوحي به العنوان الفرعي للكتاب ، علاوة على أنها ترجمة « ذهنية » وثقافية . وإذا تحدث مثقف ، أو مفكر ، عن ذهنه ، فغالباً سيظن أنه يملك أحسن وأعمق عقل ولدته البشرية . وهذا هو ما حدث !

وبصرف النظر عن مقدار ما في اتهام ويلسون للمفكرين الآخرين – كتاب تراجمهم الذاتية – من حقيقة ، فلقد حاول هو أكثر من مرة في هذا الكتاب أن يلخص حياته في « عبارة واحدة » . كانت حياته في نظره أحياناً محاولة مستمرة لاثبات الذات والخروج – عن طريق الكتابة – من كهف الحياة الخانق (حياة الطبقة العاملة التي خرج منها) ؛ وكانت حياته في أحيان أخرى سلسلة مترابطة من البحث عن المعنى في الوجود والحياة ، أو بالعكس ، محاولة للافلات من عبثية الحياة ولا معناها . وفي أحيان ثالثة كانت حياته هي الاجابة العملية على تحديات العقل التي طرحتها عليه قراءاته وتجاربه المبكرة في « العلم » و « الفلسفة » . وهو يرى حياته في مرة رابعة باعتبارها الحياة النموذجية التي يمتزج فيها « الحسي » بـ « الذهني » ، تجارب الحياة اليومية العادية بـ « الأفكار » . وهو في كل محاولة من هذه المحاولات في سبيل إعطاء حياته معنى كلياً يشملها من بدايتها حتى لحظة تأليف الكتاب ،

يمنحنا الإحساس بأن هذا المعنى كان قائماً كهدف معروف وعاه منذ البدء وعمل على تحقيقه . ولكنه يقرر بصراحة ما معناه أن « الهدف » الذي شرع يكرس له نفسه والذي يكتب هذه الترجمة الذاتية لكي يعلنه ، قد « طرأ » أو « تراءى » له فجأة وهو يلقي محاضرة عن الفلسفة الوجودية في أسلو ، العاصمة النرويجية . أي أن الهدف الذي يمكن أن يلخص حياته في « عبارة واحدة » لم يكن قائماً منذ البداية في وعيه ، ولم يكن يراه حتى بعد أن شرع يكتب كتبه الفلسفية وينشرها رغم أن « الهدف » النهائي الذي يعلنه هو تشييد فلسفة خاصة به .

لقد ظهر له في تلك اللحظة المعنى الحقيقي للخطوات الفكرية العملية التي كان قد خطاها في كتابيه الأولين : « اللامنتمي » و « الدين والمتمرد » (١) ، واكتشف أنه كان — دون أن يدري — بسبيل خلق فلسفة جديدة ، وجودية النزعة . ولكنه لم يكف منذ تلك اللحظة عن اكتشاف أشياء مشابهة : اكتشف أن عليه أن يقدم مفهوماً جديداً عن الفلسفة (ثم اكتشف أن الفلسفة هي محاولة لتعميم العلم وتحويل الفكر المجرد إلى علم أيضاً ، وبذلك تعود الفلسفة ، التي كانت علم العلوم إلى ما كانت عليه ، لأنه لن يعتمد على قوانين العلم في صياغة فلسفته ، وإنما سيحاول تركيب مقولات فلسفية يصفها بأنها هي « العلم ») ؛ واكتشف أن عليه أن يقدم مفهوماً جديداً عن الدين (ثم قدم اكتشافه الجديد للدين باعتباره الصورة الطبيعية لعلاقة الإنسان بالكون ، وهذا هو بالتحديد ما تبدأ به أي فلسفة دينية عادية منذ مجمع نيقية المسيحي ومنذ قانون المحنة الإسلامي) ؛ واكتشف أن عليه أن يقدم رؤية جديدة للسيكولوجية الإنسانية (وبدأ برفض فرويد والتحليل النفسي) ولكنه وصل إلى أن السيكولوجية الإنسانية يحكمها دافع واحد (لم يكتشفه حتى الآن) يجعلها تدفع الإنسان نحو « التحقق » ، (فإذا تذكرنا أن فكرة الدافع الواحد موجودة في التحليل النفسي بالفعل — انه الجنس الذي يقاوم غريزة تدمير الذات عند فرويد ؛ وهو إرادة التفوق عند أدلر ؛ وإرادة الحياة عند يونج) إذا تذكرنا ذلك ، فلن يفاجئنا أن ويلسون بعد رفضه لفرويد والتحليل النفسي برمته لم يحدد سوى صورة واحدة من صور التحقق الإنساني ، وهي بالذات — ويا للغرابة — الجنس، الذي يعبر عند الذكر عن التفوق والانتصار والغزو ، وعند الأنثى عن الاستسلام والانفتاح والخضوع ، وليس هناك فرويدي يمكن أن يزيد على ذلك كثيراً .

قد لا يكون من المجدي في هذا التقديم القصير أن نشغل أنفسنا بمحاولة « مطاردة » كولين ويلسون في تناقضاته الكثيرة مع نفسه ، وفي صور « قبوله » المستتر لأفكار كان قد رفضها بصراحة وقوة منذ قليل ، وفي صور اعلانه الجريء لأنه « أول من فكر في كذا وكذا » أو « أول من اكتشف كيت وكيت » ؛ بينما تكفينا أقل المعلومات في تاريخ الفلسفة الغربية التي يعرفها ويلسون جيداً ويمدنا بوضوح بالخط الفكري الذي اختاره لنفسه من خطوطها الكثيرة لكي يتأثر به ويقتبس عنه (وسنتحدث عنه حالا) لكي نعرف من هو أول من فكر في كذا وكذا أو اكتشف كيت وكيت حقاً وصدقاً !

إنما سنهتم هنا أساساً بعرض ، ومناقشة أصول ، كتلة الأفكار التي قدمها ويلسون في هذا الكتاب . وهي كتلة تلخص أصلا مجموع أفكاره التي قدمها في الواحد والعشرين كتابا التي

---

١ وهو الذي ترجم إلى العربية بعنوان « سقوط الحضارة » .

« حققها » من قبل ، كما يقول هو نفسه . ولكننا مضطرون في البداية إلى تحديد نوع التناقض بين تصوره عن نفسه وبين الحقيقة التي يكشفها عن نفسه أيضاً .

فبعد القراءة الأولى للكتاب ، سنكتشف هذا التناقض الفكري الغريب : إنه يقول بأنه يبدأ حياته الفكرية من خلال تعرفه على ديكنز وويلز وبرنارد شو . ويقول إنه يعتبر نفسه الامتداد الطبيعي لرؤية ديكنز الإنسانية وفكر ويلز العلمي وموقف شو الاجتماعي . ولكننا سنكتشف قبل نهاية الكتاب بقليل أن أقوى مؤثراته التي يكثر من الاقتباس منها والاستشهاد بها قد جاءت من اتجاه آخر تماماً : فمن أفلاطون يقفز ويلسون قفزة كبيرة لكي يصل إلى ويليام بليك ثم إلى ويليام جيمس ، وكيركجارد وهايدجر وسارتر ، وبرجسون ونيتشه وهوسرل ؛ ويتوقف عند « محطات » أساسية : ييتس وجيمس جويس وإليوت وإزرا باوند وبروست .

والنتيجة الحقيقية التي يصل اليها ، هي تركيبة لم يتم تمثلها بعد ، تجمع بالفعل بين شذرات متفرقة من أفكار مجموعة معينة من المفكرين والفلاسفة (سنحدد صورة جمعه بينهم حالا). ويمكن تلخيص هذه التركيبة في النقاط التالية :

* المشكلة الحقيقية للفكر هي اخضاع العالم للوعي ، وتحرير الإنسان من سيطرة اللاوعي . والوعي ليس نتيجة للمعرفة ولا نتيجة للتأثير الاجتماعي ، وإنما نتيجة لـ « تطور » ما ، لم يحدده ويلسون ولم يحدد مجاله ، يتزايد معدل سرعته ، ويحقق لعقل الإنسان القدرة على استشراف المستقبل في الزمان ، وغير المنظور في المكان ، وغير المحسوس في ذاته الحية . وهذا التطور ينتج أصلا من طفرة حيوية في الذهن ، تتحقق إذا تحرر الإنسان من سيطرة الاحتياجات الحسية عن طريق تحقيق أقصى اشباع لكل هذه الاحتياجات .

* ليس الوعي هنا وعي الجماعة البشرية ، ولا وعي أمة من الأمم أو طبقة من الطبقات ، ولا هو وعي « كل » فرد إنساني على حدة ، وإنما هو وعي أفراد معينين ، حبتهم الطبيعة أصلا بنوع من القدرة الفذة على تحقيق وعيهم بتحررهم والاحتياجات الحسية بعد اشباعها المطلق ، فيصبحون قادرين على تحقيق الطفرة الحيوية المطلوبة التي تحقق التطور النشوئي المقصود ، ويستطيعون بناء على هذا أن ينفذوا ببصائرهم إلى أعماق ذواتهم وإلى أعماق العالم ، حيث يرون « الحقيقة » ..

* هؤلاء الأفراد المعدودون الموهوبون ، لا صلة تربط أحدهم بالآخر . وإنما هم يعملون كل على حدة من أجل تحقيق الوعي بالتحرر الحسي ، وتحقيق الطفرة الحيوية والتطور النشوئي والنفاذ إلى أعماق وجودهم (ووجود كل منهم يساوي في نظر نفسه وجود العالم ؛ فالنظر إلى العالم الخارجي ، اليومي ، العادي ، لا أهمية له . إنه مكون من « التوافه » التي تشغل حواس « الموهوب » وتعطل عقله وتحجب عنه « موضوع » النظر الحقيقي : أعماق الذات) رغم أن تحقيق التحرر من الاحتياج الحسي يحتاج أولا إلى اشباع هذا الاحتياج اشباعاً كاملا ومستمراً : بالجنس والطعام والمسكن . فالقضية بالنسبة لهم هي قضية تحررهم كأفراد ، واشباع احتياجاتهم هذه من أجل افساح الطريق لإنشاء هذا النوع الإنساني الفذ الذي يجب أن تقبل البشرية كل شيء من أجل إنشائه .

* وعي هؤلاء الأفراد الموهوبين ليس وعياً « عمدياً » ، فانهم لا يتعمدون حصولهم عليه ، ولا يتعمدون اسقاطه على أغراض معينة ، أي لا يتعمدون فحص ذواتهم به ، وإنما هو وعي «تلقائي»

يظهر فجأة في لحظات معينة . و « وظيفة » الفلسفة الجديدة التي تهدف إلى « تعميم العلم » هي تحويله من تيار متقطع لحظي يحدث فجأة ، إلى تيار مستمر ، دائم يحدث ارادياً . فالوعي قادر على تحقيق « التجربة الفذة » إرادياً (وهي تجربة تخطي حدود الزمان والمكان والذات) رغم انه وعي تلقائي ، يوجد عند أصحابه بالفطرة ، وعليهم بـ « الفلسفة الجديدة » أن يدربوا أنفسهم على استخدامه بشكل منظم لكي يستمروا في حالة « التجربة الفذة » أطول وقت مستطاع ، لكي يكشفوا عن أكبر مساحة ممكنة وليصلوا إلى أبعد عمق ممكن من الحقيقة ، في العالم وفي ذواتهم .

* الهدف النهائي لهذه العملية هو تحقيق امتزاج الإنسان (عن طريق هؤلاء الموهوبين) بالكون ، وبالطبيعة ، والناس والتاريخ والمستقبل : بالزمان كله وبالمكان كله والآخرين جميعاً ؛ هذا الامتزاج الذي لا يعطله إلا قصور الوعي الحالي المؤقت وهذا القصور الذي لا يستمر إلا لانشغال الناس بتوافه الحياة اليومية .

* * *

من هذه النقاط التي حاولنا ما وسعنا الجهد أن نجعلها تصويراً أميناً لكتلة أفكار كولن ويلسون أو ما يفترض أنها أفكاره في كتابه الذي نقدمه الآن لقراء العربية ، من هذه النقاط نستطيع أن نكتشف حقيقة « ثقافية » ممتعة وجديرة بالاهتمام : فهذه الأفكار في الحقيقة ، نتيجة مباشرة لعملية انتقاء دقيقة ، وإعادة ماهرة لصياغة الكثير من الأفكار القديمة الشائعة في الفلسفات الغربية الحديثة والمعاصرة . وأحياناً لا يقدم كولن ويلسون الفكرة المستعارة كما هي ، وإنما يقدمها « مقلوبة » أو معكوسة إلى وجهها الآخر لكي تتلاءم مع الاتجاه العام للثوب الفكري الذي يريد ويلسون الطموح أن ينسجه ، وأن يجعل منه فلسفة جديدة خاصة به .

وقبل أن نقدم تحليلنا لهذه « الاستعارات » ولكيفية « لحمها » إحداها بالأخرى ، نحب أن نشير منذ البدء إلى أن ويلسون في الحقيقة لا يقف عند حدود الاستعارة ، ولا يهدف إلى مجرد اصدار كتاب يحمل اسمه . إنه يملك هدفاً ثقافياً محدداً أعلن عنه بالفعل منذ كتابه الأول « اللامنتمي » هو العمل على خلق تيار جديد للفلسفة الغربية الفردية والمثالية يمدها بقوة جديدة وقدرة جديدة على البقاء . ولعل سر الاهتمام الأمريكي على المستوى الجامعي به ، هو اكتشاف الجامعيين الأمريكيين لأهمية مفكر ما زال شاباً ، يحمل لواء القيم الثابتة في الفلسفة المثالية الفردية الغربية ، ويتمتع في الوقت نفسه بجماهيرية « المفكر الشعبي » الذي يقبل عليه القراء اقبالا معقولا جداً بالنسبة لنوعية كتبه غير « الشعبية » . ولعله من المهم أيضاً أن نشير إلى امكانية المقارنة بين موقف الجامعيين الأمريكيين الرسميين من فيلسوف « أمريكي » مثل هربرت ماركوز ، يرفض الأسس السياسية والاجتماعية والفكرية للحضارة الغربية المعاصرة ، ويحاول أن يقدم منظوراً فلسفياً جديداً (في تواضع جدير بفيلسوف ودون أن يزعم أنه « قرر » أن يخلق فلسفة جديدة) للمجتمع الغربي يجمع فيه بين المواقف النقدية الفلسفية الكبرى : الكانتية والماركسية والفرويدية ؛ وبين موقف هؤلاء الجامعيين الرسميين من مفكر مثل كولن ويلسون يعلن « عدم اهتمامه » بمشاكل « الحياة اليومية » ، ويعلن تفسيره « الذهني » لكل مظاهر التفسخ الجماعي والتمرد الفردي والجماعي في المجتمعات الغربية ، ويعلن أن ما ينقص هذه المجتمعات ، وعلى رأسها المجتمع الامريكي نفسه هو « فيلسوف وجودي » يقف على أرض « التكيف » مع الفلسفات غير النقدية ، التأملية ، في سبيل تحقيق « تكيف » الإنسان الغربي المتمرد ، اللامنتمي ، مع المجتمع الغربي بوضعه الراهن . وجدير بنا أيضاً أن نشير إلى امكانية المقارنة بين الاستقبال الثقافي الضخم الذي لقيه ويلسون عند

بداية ظهوره في انجلترا عام ١٩٥٦ ، وبين ما انتهى اليه المثقفون البريطانيون (الواقعون تحت تأثير حركات الشباب الجديدة في بريطانيا وفي غرب أوروبا بوجه عام) من لامبالاة تكاد تكون كاملة بما يكتبه ويلسون أو بما يفعله ، مع تزايد اهتمام الجامعيين الأمريكيين به ، وفي مقابل هذا تناقص ارتباطه بانجلترا ، وطنه ، وتزايد اهتمامه بـ « ما تهيؤه له أمريكا » من فرص « التحرر من الاحتياجات الحسية » عن طريق تحقيق الاشباع الكامل لهذه الاحتياجات .

هذه كانت إشارات عابرة ، لتأكيد أهمية ويلسون ، في كتابه هذا على وجه الخصوص على الأقل ؛ هذه الأهمية المستمدة من محاولته نفسها التي يبذلها من أجل مد الفلسفة الغربية غير النقدية بدماء جديدة . ولكن لعله من المناسب الآن أن نبحث عن مدى « جدة » الدماء التي قرر ويلسون أن يدفعها في الشرايين القديمة المتصلبة . ولنبدأ بالبحث عن مصادر أفكاره .

* * *

* إن تحديد المشكلة الأساسية للفكر بأنها اخضاع العالم للوعي وتحرير الإنسان من سيطرة اللاوعي (وهي سيطرة تتجسد في شكل رغبات حسية أساساً) ليس سوى « الاعتراض التكميلي » المباشر لفكرة مدرسة التحليل النفسي عن سيطرة اللاوعي على الوعي في ذهن الإنسان . ولكن الاعتراض هنا مستمد من الموضوع المطلوب دحضه بتعبير المناطقة . ولكن بدلا من الزاوية « الوصفية » التي يتخذها التحليل النفسي ، يتخذ ويلسون موقف « البناء » . إنه يسعى إلى بناء « نسق » فكري من لبنات مستعارة كثيرة ولا يسعى إلى وصف « عقل » الإنسان كما يسعى التحليل النفسي . ولذلك فان الاعتراض الايجابي ، الذي يستكمل فكرة التحليل النفسي بضدها ، يمتزج مباشرة باستعارة صريحة من فكرة برجسون عن الطفرة الحيوية وعن الفلسفة النشوئية حول تطور وجدان الإنسان .

ولكن برجسون كفيلسوف كلاسيكي ، كان يتحدث عن الإنسان « المطلق » وويلسون يتحدث عن إنسان محدد ، يتحدث عن نفسه ، ويقدم ذاته باعتبارها موضوع « تجربته » العلمية التي استخلص منها نتائجه . إنه يقدم ذاته كنموذج لنوع معين من البشر ، لم يصادف أياً من أفراده حتى الآن (سواه هو نفسه بالطبع) ولكنه يدعو إلى « صناعة » هذا النوع باللجوء إلى « فلسفته » الجديدة .

ولذلك فهو يخصص في الخطوة التالية التعميم الذي سبق أن استعاره من التحليل النفسي ومن فكرة برجسون النشوئية عن الطفرة الحيوية . وتخصيصه لا بد أن يعتمد على « مصدر » آخر ، ويسعفه كيركجارد هذه المرة بالمصدر المطلوب . . إن صوفية الفيلسوف الوجودي المؤمن تجد مكانها هنا بالحديث عن « التحرر من الاحتياج الحسي » باشباعه وبالوعي بهذا الاشباع كنتيجة له . والحق أن ويلسون لا يأخذ عن كيركجارد مباشرة ، وإنما يأخذه ملوناً بتفسيرات هايدجر وجابرييل مارسيل عن « الغريزة الخاصة » التي يسميها ويلسون « البصيرة » أو القدرة على الاستبصار ، دون اشارة إلى مصدرها الأصلي . إن الطفرة الحيوية لا تحقق التطور النشوئي لوجدان البشرية عموماً كما هي عند برجسون ، وإنما هي موهبة خاصة منحتها القوى الكونية لأفراد بعينهم . أحدهم ، والوحيد الذي يعرفه ويلسون من بينهم ، هو ويلسون نفسه (لأن النماذج الأخرى التي يقدمها بنفسه من أصحاب البصيرة تصور أشخاصاً غير واعين بموهبتهم ، ولذلك ظلت مواهبهم مطمورة بشكلها الخام لا نفع لها إلا في بعض الممارسات اليومية العادية التي تختلط أحياناً بالشعوذة حتى في نظر أصحابها) .

وهنا يتقدم سارتر ، وأرنولد توينبي ، كل من ناحيته ، ليساهم بنصيبه في حديث ويلسون عن « عزلة » الموهوبين . إن عزلتهم هنا ليست عزلة المتصوف الذي يتنصل من المسؤولية ، إنما هي عزلة النبي ، والوجودي ، التي تهيىء له فرصة اكتشاف رسالته ، وتؤكد مسؤوليته . فويلسون يقدم « نموذجاً » للآخرين ، ولا يقدم « حالة » شاذة . ولذلك ، ولكي يتسق البناء كله ، لا بد أن يتحدث ويلسون عن المسؤولية المفترضة للموهوب ، باعتباره مسؤولا ، لا عن موقفه الخاص كما يقول سارتر : إنه لا « يختار » ولا تنبع مسؤوليته من اختياره وإلا لتساوى كل البشر في القدرة على الحصول على الحرية ؛ وإنما تنبع مسؤوليته من موهبته ، من تفرقه الفطري . وهنا يستمد ويلسون من نيتشه بصراحة – ولكن دون تصريح – حين يتحدث عن مسؤولية هذه القلة السامية من الموهوبين عن مصير التطور النشوئي العقلي للبشرية.فرغم عملهم كل على حدة ، فانهم يعملون من أجل « ريادة » البشرية في طريق هذا التطور الصعب .

وهنا يصبح من الضروري الاستفادة بالمصدر المنتظر : هوسرل والفلسفة الظاهراتية . فإذا كان وعي هذه القلة وعياً فطرياً ، فإن العملية التي تنتجه عملية تلقائية وليست عملية عمدية كما يقول هوسرل . وتظل فكرة هوسرل عن « استحالة وجود موضوع دون ذات » ، ولكن الفكرة التالية ينبغي أن تنعكس لكي يستقيم الاتجاه العام عند ويلسون . فالذات توجد أيضاً إذ تعي نفسها ، وليس قبل ذلك ، ومن لا يعي ذاته يستوي وجوده مع وجود « الدودة الغارقة في قطعة الجبن » . والمزج هنا واضح بين الفكرة الظاهراتية وبين جزئية أخرى مستمدة من الوضعية المنطقية حين يصبح الوعي هو شرط الوجود ، ولا وجود لـ « الوجود » نفسه دون وعي أبداً . إن ما لا يراه ويلسون لا وجود له . ولكن الوقوف عند هذه النتيجة سيقلب « النسق كله » رأساً على عقب ، وسينتهي بالفيلسوف الجديد إلى القبول بفلسفة قديمة – هي الوضعية المنطقية ، وهو ما لا يريده – ولذلك تعكس الجزئية الوضعية أيضاً لكي تسير في الاتجاه العام . فالوعي المقصود هنا ليس وعي الناس أو الأفراد ، وإنما هو الوعي المكون الذي يتمتع به الموهوبون ، والذي يتخطى حواجز الحواس التي تسوي بين كل البشر والتي يقول بها الوضعيون . فالموهوبون يستخدمون « راداراً » شبيهاً برادار الخفاش أو الطيور أو الأسماك المهاجرة . والوعي أساس الوجود ، هذا صحيح ، ولكن مصدر الوعي ليس هو الحواس أو المدركات الحسية ، وموضوع الوعي ليس هو ما ألمسه لمساً مباشراً بإحدى الحواس ، وإنما هو ما يمكن أن « أتصوره » وراء المكان الحالي والزمان القائم والأصدقاء الذين أجلس بينهم .

ولما لم يكن لأحد من الناس – المعروفين لويلسون على الأقل – كل هذه القدرات ، إذن ، فلتتحول تجربته الخاصة – التي علينا أن نصدقها كلها أو نكذبها برمتها – لتتحول هذه التجربة إلى « أمل » للبشرية ، أمل تحقيق هذا النوع من الوعي باستخدام هذا النوع من الوسائل ، من أجل تحقيق العثور النهائي على طريقة الامتزاج بالكائن المطلق ، أو الله ، أو الوجود في ذاته ... إلى آخر ما يمكن أن يمده به علم النفس الديني والتومائية الكاثوليكية الجديدة .

* * *

ليس كولن ويلسون هو أول المفكرين الانتقائيين ولن يكون آخرهم . وقد كان من الطبيعي أن تنتهي كل المواقف الفكرية التلفيقية إما إلى الافلاس الكامل وغوص أصحابها تحت مياه النسيان الكثيفة الراكدة ، وإما إلى تطور أصحابها إلى مواقف أكثر تحديداً وأصالة تؤدي بهم إلى أن يقوموا بأنفسهم بدفن مواقفهم التلفيقية الأولى .

وليس ما يهمنا هنا هو التنبؤ بما سينتهي اليه كولين ويلسون ، رغم أنه يعد في نهاية كتابه وعداً يرجح بنفسه أنه لن يستطيع الوفاء به إلا إذا عاش مئة سنة أخرى حياة نشيطة ومنتجة . وهو الوعد بأن يكتب « فلسفته » الخاصة الجديدة ، كفيلسوف وجودي يتقدم لينقذ الفكر الغربي من الافلاس الذي يعلنه بنفسه .

إن ما يهمنا حقاً ، هي المحاولة التي يبذلها ويلسون هنا ، من أجل عرض نموذج على درجة عالية من الواقعية – رغم ما يذهب اليه المؤلف في تقييم نفسه أو تصنيف كتابته – لحياة مثقف انجليزي ، عاش حياة متسعة ومتنوعة ، على المستوى الفكري وعلى مستوى العلاقات اليومية العادية ، في الفترة التي سبقت الانفجارات الفكرية والاجتماعية الأخيرة في الغرب الانجلواميركي.

ولحسن الحظ ، فان ويلسون عاش هذه الفترة قبل أن يكتشف في نفسه ذلك الفيلسوف المنتظر ، منقذ الفلسفة الغربية من الافلاس ، وقبل أن يقرر اعتزال الحياة اليومية اعتزالا فعلياً في انجلترا ، حينما رحل عن لندن لكي يعيش في كوخ منعزل على شاطىء البحر ، أو اعتزالا روحياً وعقلياً حينما تحول إلى أستاذ زائر – بمرتب ضخم ومسكن مجاني مريح – في الكليات العليا والجامعات الأميركية .

عاش ويلسون هذه الفترة « شاباً » ، وعاشها متجولا بين المدن والشوارع والمنازل المؤجرة والمهن والعلاقات ، والأفكار . ولذلك فلا شك أنه عاشها بعمق ، وإن كان قد عجز عن فهمها فهماً اجتماعياً وسياسياً صحيحاً . وكان ذلك لأنه عاشها كما تعيش الذات الفردية ، التي يمنحها الضعف الناشىء من وحدتها حساسية نافذة ؛ وتمنحها الوحدة والرغبات الكبيرة شعوراً بأن عليها أن تغزو العالم بمهارتها وبموهبتها في وقت واحد : المهارة تتيح لها امكانية التغلب على المصاعب اليومية في السكن والعمل والحب والحصول على اعجاب الآخرين والنفاذ إلى المجتمعات المغلقة ؛ والموهبة تتيح لها أن تحقق لنفسها – بالاستثمار المفيد للطاقة وبالاجتهاد الدؤوب والمركز في اتجاه واحد – مكاناً في الحياة الثقافية والفكرية لمجتمع شحيح في عطائه للفقراء . ولكن الحساسية تهيء لها أن تعيش تجربتها بعمق ، وإن حرمها شعور « الغازي » من فهم هذه التجربة على النحو الإنساني الصحيح .

لقد عرف ويلسون تجمعات الشبان الثقافية والفكرية والفنية التي نمت داخلها نزعات التمرد والرفض والتجديد الحديثة . وعرف التجمعات الفكرية – الدينية والسياسية – التي خلفتها انفجارات القرن الماضي والحربين العالميتين ، ثم تحولت إلى تجمعات جنينية – بالمعنى السوسيولوجي – تضم « أجنة » فكرية ونفسية عجزت منذ البداية عن العثور على الطريق الصحيح للنمو ، ففضلت على الدوام أن تظل في قلب « الرحم – الجماعة » الذي يضم أجنة كثيرة ترفض أن تولد وترفض أن تموت . وكان لهذين النوعين من التجمعات (الجماعات الفنية والفكرية للشبان ، وجماعات المتدينين والفوضويين وغيرهم) أثرهما الحقيقي على تكوين الموقف الفردي الاستفزازي عند كولين ويلسون (حين كان يكتشف على الدوام أنه لا يصح أن يتحول إلى « جنين » محروم من الولادة وغير مستسلم للموت مثل بقية أعضائها وأن عليه أن يكتسب خبراتهم أو أحسن علاقاتهم ثم يهجرهم على الفور) ولكنه استطاع أن ينقل من خلال خبرته بهذه الجماعات الصورة الحقيقية لها من الداخل ، واستطاع أن ينقل لنا « المادة » الكافية لكي نتصور نحن من خلالها الدور الذي لعبته هذه التجمعات في « تخمير » عجينة انفجار الشباب في الغرب الأميركي بعد ذلك بنحو عشر سنوات .

وليس من المستغرب أن يتحول ويلسون إلى « ناقد أخلاقي » للطبقة العاملة التي خرج من وسطها ، بمثل مـا يتحول إلى ناقد « ذهني » للمجتمع الذي يقهر هـذه الطبقة . فان موقفه من طبقته ليتطابق تماماً مع رغبته في تحقيق « التكيف » مع الفكر التأملي ، غير النقدي ، للمجتمع الغربي ، أي مجتمع الطبقات القاهرة ، رغم أن جوهر موقفه من هـذا المجتمع هو « التحدي » وليس الرفض . إنه يتحداهم أن يرفضوه أو أن يستغنوا عنه . ومن المؤكد أن قوة كتبه في « السوق » تؤكد أنـه « يتحدى » كتاب الصحف المتحدثين بلسان هذا المجتمع والذين يتجاهلونه ، يتحداهم من موقع القوة التي يستمدها من مشتري كتبه المنتمين إلى نفس هـذا المجتمع . ولذلك فان هؤلاء الكتاب يكتفون الآن بتجاهله ، ولا يجرؤون على رفضه ، بينما تستمر الصحافة الشعبية في معاملته كنجم تستحق حياته الخاصة أن تسجل وأن تلتقط لها الصور في المناسبات الهامة .

لقد استطاع ويلسون أن يخرج من كهف الحياة الخانقة للطبقة العـاملة ، اعتماداً على مهارته وعلى موهبته . ولذلك فانه يشعر أن من حقه أن ينظر اليه باعتباره « فرداً متفوقاً » وأن تنظر اليـه الطبقات العليـا وأجهزة أعلامها باعتباره نداً لهـا بل وباعتبارها في حاجة اليه ، فكرية واجتماعية .

ولو نظرنا اليه من هذه الزاوية ، لاكتسبت كل تحليلاته ومواقفه الفكرية والاجتماعية اتساقها المفقود . إنه مفكر ذاتي رغم كل جهده التأملي لموضعة أفكاره . وربما كان اعتماده الكثير على التجارب المستمدة من حياته الشخصية مدفوعاً برغبته في تأكيد القيمة الفذة لتجربة خروجه من مستوى العامل الأجير العادي ، نصف المتعلم ، إلى مستوى « البورجوازي » المحترم ، الذي ينتزع فتاة « بورجوازية محترمة » من عائلتها قسراً ، ويشتري منزلا في الريف ، وتهتم به الصحافة وبنبـأ ولادة ابنته ، وتهتم بـه الجامعات الأجنبية ، وتترجم كتبه إلى لغات كثيرة غريبة . إنه يصر على أن يحصل رسمياً على اعتراف « المتفوقين بحكم المولد والتعليم » بتفوقه هو ، الذي يعتبره أكثر قيمة من تفوقهم ، لأنه حقق تفوقه بمجهوده الفردي ، بمهارته وبموهبته ، بينما لا يحصلون هم على « الاعتراف بالتفوق » إلا لأنهم هكذا ولدوا ، متفوقين « اجتماعياً » بحكم قوة المال أو النفوذ . ويتماثل هذا مع اصراره على اعتراف المثقفين « المعترف بهم اجتماعياً » ، الذين يتجاهلونه الآن أو لا ينظرون اليه بجدية ، أو لا يعتبرونه « الفيلسوف المنتظر » كما يجب أن ينظر اليه ، عن طريق عملية تشبه « المباهاة » بما يشتريه من كتب أو اسطوانات تسجيلية ، أو بما يصله من خطابات ، أو بما يحدثه كلامه من تأثير .

ليس من الضروري اذن أن ننظر إلى « الترجمة الذاتية الذهنية » التي كتبها كولين ويلسون باعتبارها كتاباً في الفلسفة ، يضع فيه مقدمة لمذهبه الفلسفي أو يشرح فيه حياته (كنموذج) على ضوء هذه الفلسفة . لقد كان هذا نوعاً من الطموح لم ينجح ويلسون في تحقيقه لأسباب كثيرة . ومع هذا تظل للكتاب قيمة كبرى : إنه المادة الواقعية التي قـد تساعدنا على فهم فلاسفة آخرين ، والأهم من هـذا ، إنها تساعدنا بالفعل على تصور واقع معاصر لنـا ، نحن في أشد الحاجة إلى فهمه !

سامي خشبه

الفَصلُ الأوّل

الأهداف والدوافع

إن ما أرمي اليه في هذه الصفحات هو أن أوضح ، بقدر ما يمكنني من الامانة ، أهداف عملي الأساسية ودوافعه ، وأن أربطها بأحداث معينة من حياتي الخاصة حيث تقوم بينهما مثل تلك الرابطة ، وليس المقصد من هذا الكتاب أن يكون ترجمة ذاتية عادية أو رسمية ؛ فإن أحداث حياتي لا تثير لدي ما يكفي من الاهتمام لكي تدفعني إلى محاولة شيء من هذا القبيل ، إلا حيثما يمكن أن تستخدم لتصوير فكرة معينة . وهذا بالاضافة إلى أن الأدب القصصي هو المكان الصحيح للترجمة الذاتية . وقد حدث ذات مرة أن سأل صديق لي إرنست هيمنجواي عن شعوره إزاء كتاب معين كان قد كتبه حول باكورة حياته حينما كان يعمل مخبراً صحفياً في كانساس سيتي . وأجاب همنجواي قائلاً : « انه كتاب مقزز . لقد كنت أنوي أن أستخدم كل تلك المادة في كتبي ، وها هي الآن قد ضاعت وأهدرت » . وهذا هو ما يعبر عن موقفي الخاص من الترجمة الذاتية .

هناك مشكلة معينة لا تكف عن إزعاجي والالحاح علي ، وهي مشكلة

طالما أزعجتني بصورة أو بأخرى . وهذه هي : ففي ناحية يوجد العالم ، وهو مكان جميل ومعقد وهائل ، ممتلىء بما يكفي من المشاغل لكي يشغل الإنسان مليوناً من الأعوام . وفي الجانب الآخر يبدو ذلك، الضيق والقصور الذي يتميز به الوعي الإنساني . إننا نشبه الجياد المغماة ؛ ونحن لا نكاد نشعر بشيء أو ندرك شيئاً إلا الدقيقة التي نعيشها ، أو الحجرة التي يتصادف أن نكون جالسين فيها . لماذا ؟ لماذا وضعت الطبيعة هذا الغماء على الإرادة الإنسانية ؟ لماذا يموت الكثيرون منا وقد ملأهم الضجر وأرهقتهم الخيبة في سن السبعين ، متشكين من أننا قد استهلكنا العالم كله وعرفناه عن ظهر قلب ؟

كانت واحدة من أقدم الحكايات التي تعلمتها في المدرسة تسمى حكاية « العجوز التي تسكن في زجاجة الخل » . وهي تحكي قصة الجنية الطيبة التي كانت تطير فوق أحد الأخصاص ذات مرة حينما سمعت صوتاً واهناً يشكو همومه : « آه ياني ! آه ياني ! » . وتحرت الجنية عن مصدر الصوت فوجدت امرأة عجوزاً تسكن في قنينة كبيرة من قناني الخل وتشكو من ضيق مسكنها . وبحركة من يدها حولت الجنية قنينة الخل إلى كوخ صغير جميل ؛ وتشكرها العجوز وتطير الجنية . وبعد شهور قليلة تمر الجنية بالكوخ فتدخل لكي ترى كيف تستمتع العجوز ببيتها الجديد . وكان أول ما سمعته هو نفس الصوت الشاكي يقول : « آه ياني ! آه ياني » . فأدوات الحمام غير ملائمة ، والبئر بعيدة جداً عن المنزل ، والسقف المتشقق يجعل قطرات المطر تتسلل الى الداخل ، وهكذا . وتحرك الجنية الطيبة يدها فتنقل المرأة العجوز إلى منزل فخم تمتد اليه كل الوسائل الصحية ، والماء الساخن والماء البارد يجريان في صنابير الحمام . وبعد شهور قليلة تأتي الجنية مرة اخرى لزيارة العجوز ، فتجدها ما تزال تئن « آه ياني ! آه ياني » . فالخدم غير أمناء ، وضجة الطريق تحرمها من النوم طول الليل ، والتجار في الحي لا يحترمون أحداً ... وهكذا تحرك الجنية

يدها مرة ثالثة ، ويتحول المنزل إلى قصر رائع . وتمر عدة شهور ، وتأتي الجنية مرة أخرى ، ولكنها تجد أن العجوز ما زالت تئن وتشكو . فالمكان واسع أكثر من اللازم وبارد ، وتدفئة الحجرات مسألة صعبة مع الاحتفاظ بنظافتها باغلاق النوافذ ، وخدم المطبخ لا يكفّون عن السرقة ، والمنظر في الخارج لا يبدو بالصورة التي كانت ترجوها . وهكذا ، ففي زفرة غضب أخيرة تحرك الجنية يدها وتنقل العجوز لتعيدها من جديد إلى قنينة الخل .

وبالنسبة لي ، ترمز هذه الحكاية إلى الطبيعة البشرية ــ إنها قوية الرمز إلى درجة تقرب بينها وبين قصة سقوط الإنسان . ففي كل يوم أتبين أن ثمة طبيعة ساخرة قد منحتنا كل ما يمكن أن نشتهيه ــ ثم تعمدت أن تمتنع من إعطائنا القدرة على التمتع بما وهبناه . ولقد رأيت ما يثبت هذا أخيراً في حالة والدي . لقد قضى حياته كلها يعمل عملاً شاقاً في المصانع ، دون أن يتمتع بأجازة ما باستثناء يوم واحد كل فترة طويلة يقضيه على شاطىء البحر . إنــه يحب الريف ، ويقضي عطلاته الاسبوعية في صيد السمك أو في البحث عن نبات عش الغراب أو التوت البري الأسود . وحينما بدأت في الحصول على المال عن طريق الكتابة استأجرت كوخاً في مقاطعة كورنول ، وكانت الأسرة تأتي بانتظام لتمضية أجازتها الطويلة ، وقد سعد أبـي في هذا الكوخ وازداد مرحه . كان يستيقظ عند الفجر في كل يوم ويخرج حاملاً أدوات صيد السمك أو فخاخ صيد الأرانب أو باحثاً عن نبات عش الغراب . وكان في الماضي قد اعتاد أن يقول إنه لو استطاع أن يعيش في كوخ في الريف له حديقة خلفية جميلة ، لمـا احتاج إلا القليل من المال لأمور حياتــه . وفي النهاية انتهت مدة عقد إيجار الكوخ ، فقررت أن أبحث عن مكان أكثر اتساعاً يكفي للاحتفاظ بكتبي وأسطواناتي الموسيقية . وعثرنا عــلى منزل ريفي واسع من طابق واحد مزود بهكتارين من الأرض وبيت زجاجي ضخم للنباتات . وبـــدا

هـذا المنزل كما لو كان الفرصة المثالية لوالدي ، مكتملاً ونموذجياً من جميع الوجوه ، وهكذا فقد دعوت الأسرة للانتقال اليه . وجاءت أمي مع أبـي ومعها شقيقتي الصغرى ذات السنوات العشر سوزان ، جاءوا جميعاً من لايسستر ، وانتقلنا إلى المنـزل الجديد في وسط صيف جميل .

وبدا والدي الذي واجهته إجازة لا نهاية لها ، منزعجاً وقد أخـذه الضيق . وبدلاً من الاختفاء كل صباح للبحث عن الأرانب وعن نبات عش الغراب،فإنه كان يفضل القيام باجتثاث الحشائش أو زراعة أنواع أخرى لبضع ساعات قليلة في الحديقة ، ثم يسير متجهاً إلى الحانة القريبة . ولم يكن هذا بدافع من أي احتياج حقيقي إلى قدح من البيرة ، وإنما لمجرد قتل الوقت . وتوقفت رحلات صيد السمك . وكان من الواضح أن الضجر قد تملكه وأنه قد وصل إلى نهاية قدرته على الاحتمال . وبعد ستة شهور من هذا الضيق ، قررت أمي أنه قد آن للأسرة أن تعود إلى لايسستر . وعاد ابـي متردداً . فرغم أنه قد وجد ان الحياة في الريف أقل متعة مما كان يتوقع ، فإنـه لم يشعر بأي حماس للعودة إلى العمل في المصنع . ولكنهم ذهبوا إلى هناك ، ووجد أبـي صعوبة في التكيف ثانية مع المصنع وحياة المدينة تماثـل الصعوبة التي واجهته في التكيف مع حيـاة الريف . فأصيب بالسرطان ، وكان عليه أن يقضي عدة شهور في أحد المستشفيات .

حقاً إن أبـي يواجه وضعاً سيئاً لا ميزة فيه حينما يصل به الأمر إلى مواجهة مشكلة الحرية . إنه من صنف الرجل العملي تماماً ، الذي يحب أن يكون لديه ما يصنعه بيديه . إنه يقرأ الصحف ولكنه لا يقرأ كتاباً أبداً . فإذا كان لديه من الوقت ما يقتله فإنه يفضل أن يفعل ذلك في إحدى الحانات ، يتحدث مع صديق وأمامها قدحان من البيرة المرة أو

يلعبان دوراً من الضرمينو . ولكن إلى أي مدى يستطيع أحدنا أن يزعم أنه في وضع ممتاز حينما نصل إلى مناقشة وقت الفراغ ؟ إنني منذ خمسة عشر عاماً لم أكن أريد شيئاً سوى أن يكون لي منزل هادىء مزدحم بالكتب والأسطوانات الموسيقية . وأنا الآن أحيا على بعد ميل كامل من أقرب قرية وعلى بعد عشرة أميال من أقرب مدينة . وإذا بدأت الاستماع باستمرار إلى مجموعتي من التسجيلات الموسيقية منذ الليلة لاستلزم الأمر شهرين من الاستماع المتواصل لكي أصل إلى آخر هذه التسجيلات ؛ وإذا استطعت أن أنقطع لقراءة كل ما في المنزل من كتب بمعدل كتاب واحد كل يوم لتطلب الأمر عشر سنوات لكي أفرغ من القراءة . وعلى الرغم من هذا فإنني كثيراً ما أجد نفسي خالياً من كل عمل حبيساً في فترة من الجمود الذهني : إن وعيي في ضيق ثقب المفتاح ، وليس هناك كتاب أو تسجيل موسيقي في المنزل يستطيع أن يخرجني من حالة السبات والبلادة الكاملة . في هذه الحالة لا أستطيع أن أكتب ولا أستطيع أن أقرأ ، ولا تكون بي رغبة في رؤية الأصدقاء أو في الأكل ولا حتى في الشراب . فكيف لي أن أزعم أنني أقل من أبي شبهاً بالعجوز ساكنة قنينة الخل ؟

* * *

هذه هي المشاكل التي يبدو لي أنها لم تذكر أبداً في أية ترجمة ذاتية . كما لم تذكر أية مشكلة من المشكلات التي تشغل انتباهي باستمرار . إن هذا لأحد التحديات الدائمة التي أواجهها . لماذا لا تذكر هذه التحديات ؟ هل لدينا سبب ما يدفعنا إلى أن نفضل تجنب ذكرها ؟ أم أننا لا نراها ولا نشعر بها ؟ ام أننا نراها ونشعر بها ثم لا نعزو اليها ظلاً من أهمية ؟ إذا كان التفسير الأخير هو الاجابة الصحيحة فنحن بلهاء وحمقى ؛ لأن هذه المشكلات من النوع القاتل المميت . وتجاهلها إنما

يشبه تجاهل التعليمات التي تقضي بضرورة غلي الماء الملوث أو تعقيم لبن البهائم المصابة بالسل .

وفي معظم المسائل التكنيكية تتطلب حضارتنا أن نقوم بوضع التحديدات والتعريفات الدقيقة . فكل عالم يعرف أهمية تصنيف كل جزء من أجزاء مادته ؛ وكل رجل أعمال يعرف أهمية حفظ أوراقه وملفاته في نظام وترتيب . وحتى فلسفتنا ونقدنا الأدبي يتحولان إلى الطابع العلمي ، فيُحمّلان بالمصطلحات والتعريفات في نفاد صبر من الغموض ونفوراً من عدم التحديد . ولكن الحياة وعملياتها السيكولوجية ما يزالان خاضعين لقانون « دعه يعمل » ، قانون اللامبالاة . إننا لا نسعى وراء أي تحديد للأهداف والأغراض والقواعد الحاكمة الأساسية . ورغم أن الحياة لا تشبه شيئاً قدر ما تشبه سباقاً لتخطى الموانع حيث يزداد ارتفاع هذه الموانع خطورة ، وهي موانع غير مرئية أصلاً ، فإننا نواجه كل يوم جديداً بنفس الروح التجريبية وعلى أساس نفس الغموض .

أسمحوا لي أن أقدم مثالاً لما أعنيه . لقد قرأت في اليوم السابق رواية كتبها آرتسيباشيف [1] تسمى « المليونير » وعلى عكس روايته السابقة « سانين » كانت هذه الرواية الجديدة بالغة الرداءة بالتأكيد ، إنها تدور حول مليونير شاب ووسيم ، لا يستطيع أن يخلص نفسه من إحساس باللاجدوى وفقدان الهدف . إنه يشعر بأنه لا يوجد من يخلص له ، لأنه مليونير . وهو ضجر أيضاً لأنه يستطيع أن يفعل ما يحب بماله ، ولكنه لا يريد أن يفعل شيئاً معيناً بالتحديد . ولا يقع الكثير من الأحداث ،

---

١ آرتسيبا شيف (١٨٧٨ – ١٩٢٧) ، كاتب روائي ومسرحي روسي ، اشتهر بأكبر أعماله الروائية « سانين » وهو شبيه بزميله الكاتب الروسي أندرييف في الأسلوب والموقف الفكري ، وإن كان أقل منه قيمة وانتاجاً . لا يعتبره النقاد الروس من دعامات الواقعية في الأدب الروسي. (م . ه)

باستثناء أنه يتشاجر مع عشيقته ومع أفضل أصدقائه ، ويحاول دون نجاح أن يتوسط لحل مشكلة اضراب يقع في المصنع الذي يملكه ، وينتهي بالانتحار .

لقد أنهيت هذا الكتاب في حالة من السخط العميق . ما الذي كان آرتسيباشيف يحاول أن يقول ؟ ان الحياة كثيبة جهمة حتى بالنسبة للمليونير ؟ ليس هذا بالأمر المحتمل ، خاصة وأن « سانين » رواية تتميز بما تفيض به من استبشار ودفء . ان من الأفضل لك أن تكون فقيراً على أن تكون مليونيراً ؟ أشك في أن يكون المؤلف على هذه الدرجة من السذاجة . كلا ، إن مشكلة الكتاب الحقيقية هي أن المؤلف كثير الشبه بمليونيره السأمان الضجر إلى حد بعيد وهو أيضاً لا يستطيع أن يرى السبب الذي يجعل الحياة شيئاً مضجراً للغاية إذا كان المرء يملك من المال ما يكفي لجعل حياته إجازة متصلة لا عمل فيها .

ولو أن آرتسيباشيف كان كاتباً أكثر عظمة – وأكثر أمانة – إذن لكان قد بدأ روايته بقوله : « والآن أيها السادة ، فلنرسم ميزانية لحساب الحياة . إننا إذا لم نكن نعاني من بعض الأمراض ، وإذا لم نكن نموت من الجوع أو نعذب عذاباً شديداً ، فلن يكون هناك سبب مادي يمنعنا من الاستمرار في الحياة . إن قدرة الجسد على الاستمتاع والتلذذ قدرة كبيرة . واحتمالات العالم وامكانياته بالنسبة لرجل يمتلك ذهناً حياً هي احتمالات وامكانيات هائلة . ومع هذا فإن أمامنا مليونيراً ، يتمتع بصحة جيدة وشكل جذاب ، ولكنه يجد ان الحياة كثيبة كآبة لا تطاق . لماذا ؟ هل الحياة كثيبة حقاً إلى هذه الدرجة ؟ ما هي تلك القوى الخفية التي تجبره في النهاية على الانتحار ؟ »

وبدلاً من محاولته تحديد تلك القوى ، بالطريقة التي يستخدمها عالم البيولوجيا في عزل جرثومة غير مرئية حتى يستطيع أن يراها تحت المجهر ،

فإن آرتسيباشيف يستمر في وصف تفاهات حياة مليونيره الجنسية ، ويظل منغمساً تماماً في تلك المتاهة حتى النهاية .

* * *

مثال آخر : لقد أشرف سومرست موم ذات مرة على تحرير مجموعة من مختارات الأدب الحديث ، وكتب ملاحظة قصيرة يقدم بها كل فقرة من فقرات المجموعة . وكان تعليقه على بعض الكتاب المشهورين يتميز بنغمة صارمة بعض الشيء ؛ كان هنـــاك هنري جيمس ، ت. س. إليوت ، جيمس جويس ، و. ب. ييتس وقد دمغوا جميعاً بأنهم مغرورون أو مولعون بالاسهاب والثرثرة أو يبعثون الملل . ولكنك مثلما قال إدموند ويلسون لن تستطيع أبداً أن تخمن من خلال ملاحظات موم أن جويس وييتس قد كانا يتمتعان بمستوى يختلف تمامـــاً مع مستوى ميشيل آرلان وكاترين براش اللذين كانت لهما بعض الأعمال في المجموعة أيضاً . ومن المؤكد أنك قـــد تفترض أن مستر موم نفسه كان يتمتع بمستوى أكبر بكثير من كتّاب مملين ومضجرين من أمثال ييتس وإليوت . مرة أخرى أقول ان الأشياء الهامة قد تركت دون أن تذكر : وإن قارئـــاً متفتح الذهن يأتي إلى مستر موم لكي يتعلم منـــه شيئاً عن الأدب الحديث ، سينصرف عنه بأفكار متداخلة مشوشة وتصورات لا معنى لها .

يبدو لي إذن أن مهمة الكاتب هي أن يمنح للأفكار شكلاً وتحديداً وتعريفاً بأن يذكر هذه الأفكار ويقررها بوضوح .

ويمكنني أن أذكر اللحظة التي طرأت علي هذه الفكرة فيها لأول مرة . كنت في الثانية عشرة من عمري في ذلك الحين . وكان معنا في الصف صبي يدعى سمبسون لم يكن ماهراً أو بارزاً بصورة ملحوظة . وفي ذات يوم سألني إن كان يستطيع أن يستعير مني قلم الحبر . ورفضت أنا زاعماً

أن سن القلم قد أصبح متلائماً مع درجة ميل يدي في الكتابة . وعلى الفور قال سمبسون : « ليس هذا هو السبب . لو أن فلاناً قد طلبه منك ، لكنت قد أعرته إياه دون أن تهتم بحكاية السن » . وكان هذا الفلان صبياً ذا شخصية قوية وكان يتمتع باعجاب الجميع . وكان سمبسون على حق بالطبع . ولكن ما أدهشني هو تفسيره النفسي في تجاهل العذر الذي اختلقته متعللاً بالسن ، ونفاذه مباشرة إلى قلب المشكلة — هو أنني لن أحصل على أية ميزة خاصة إذا ما أعرته قلمي ، وإنما سأكون سعيداً لو أنني أعرته لشخص أحترمه وأحبه . وربما يبدو أن هذه الملاحظة ليست ملاحظة عميقة بصورة خاصة . ولكن تلاميذ المدارس مخلوقات لا تتمتع بالبصيرة النفاذة إلى درجة عجيبة ، والتحليل الذاتي ليس من نقاط قوتهم البارزة . وقد أدهشني سمبسون مرات عديدة بملاحظات أثبتت لي أنه مدرك للدوافع التي قد تكون خفية وغير ظاهرة بالنسبة لأكثر التلاميذ . وقد بدأت أحاول أن أكون مثله . وما زال بإمكاني أن أتذكر كيف كانت السعادة التي شعرت بها حينما طرأت علي ذات يوم فكرة أن الشخصية هي شيء مرن ومتلون إلى درجة غريبة ، هذه الصفات التي تعتمد تماماً على الشخصيات الأخرى المحيطة بها . إنك تتحدث إلى شخص ما فتشعر بالضعف ، وتتحدث إلى شخص آخر فتشعر بالقوة . وإن شخصاً معيناً يجعلك تشعر بأنك ايجابي وجسور بصورة رجولية ، ويجعلك شخص آخر تشعر بأنك سلبي مستسلم وأنثوي . وتلك هي أكثر ظلال هذا الموضوع بساطة ، وأكثر درجاته التي يمكن التعبير عنها بسهولة . ولكن كل شخص أيضاً ينتج لديك رد فعل متميزاً ومتفرداً يتمرد على التحديد والتعريف تماماً مثلما يرفض شذى الوردة أن يُعرّف أو أن يُحدد . إنك قد تجد شخصاً ما مزعجاً بصورة عجيبة،ومع هذا فإنك تظل عاجزاً عن أن تفهم السبب ؛ إنك قد لا ترى هذا الشخص لمدة خمس سنوات ، فتنسى رد فعلك تماماً . ثم تلتقي به مرة أخرى ، وعلى

الفور يعود الانزعاج القديم ، دون أي تغير أو تعديل .

وقد قال برناردشو ذات مرة عن أوسكار وايلد : « لقد جاء ليتحدث معي ، وهو ينوي بوضوح أن يكون عطوفاً علي بصورة خاصة . وبرز كل منا للآخر وقد ملأه الخوف من زميله ، وقد استمرت هذه العقبة قائمة بيننا حتى النهاية ، حتى حينما لم نعد صبياناً مبتدئين وبعد أن أصبحنا رجالاً على دراية واسعة بالعالم نمتلك الكثير من مهارة الخوض في العلاقات الاجتماعية » . ولا يبذل شو أية محاولة لتحديد طبيعة العقبة التي يقصدها ، والاحتمال الوحيد هو أنها كانت غير قابلة للتحديد بأي شكل . لقد انتج الاحتكاك أو الاتصال بين هذين المركبين الكيماويين نتائج غريبة ؛ ومن الممكن أن تفسر بعض تلك النتائج بأن نضع في اعتبارنا ما كان شو يتمتع به من جدية ذهنية وعقلية مع افتقار وايلد إلى هذه الجدية ، ولكن هذا التفسير فج فجاجة العمليات الكيميائية التي كان يقوم بها كورنيليوس أجريبا [1] .

إننا لا نملك لغة ، ولا نملك علماً يصلحان للتعامل مع تلك المشاكل . وقد أدركت هذا في سن الثالثة عشرة ، حينما حاولت أن أكتب مقالاً حول الطريقة التي يؤثر بها الناس في شخصيات بعضهم البعض وحول تقييم الناس لذواتهم . وأعتقد أنني كنت أحاول أن أخلق مصطلحاً لتلك المشاكل منذ ذلك الحين .

* * *

وأعتقد أن هذا هو المكان الملائم لذكر « مصطلحاتي الخاصة » ، وهي نموذج خاص من الاختزال أستخدمه دائماً في مذكراتي وكراسات

---

[1] كورنيليوس اجريبا ويطلق عليه أيضاً اسم « أجريبا فون نيتسهايم » ، ١٤٨٦ – ١٥٣٥ . فيلسوف ألماني غريب الأطوار احترف الكيمياء والسحر وكتب عدداً من المؤلفات في علاقة المواد العضوية بالروح . (هـ . م)

ملاحظاتي . فمنذ حوالي اثنتي عشرة سنة ، وفي عصر أحد أيام الآحاد الحارة حدث ان كنت على الطريق الرئيسي شمالي لندن أطلب توصيلة توفر علي مشاق السير . كان الجو مترباً بغير رياح ، وكنت منقبض النفس . لم يكن هناك سوى القليل من السيارات العابرة ، وكانت التوصيلات التي حصلت عليها قصيرة ومتباعدة . وجاءت لحظة كنت أشير فيها باصبعي لسيارات الشحن دون أن أتوقع حقاً أن تتوقف إحداها لتحملني ، ودون أن أهتم تقريباً بما إذا كانت ستتوقف أم لا . كنت في طريقي لمقابلة والدي صديقتي ، ولم أكن أتوقع أن أكون موضع الترحيب .

وتحطمت سيارة شحن كانت تقلني ، ولكني كنت أكثر ضجراً من أن أهتم بذلك . وهكذا ، فحينما جلست آخر الأمر في سيارة شحن صاخبة أخرى تسير بالزيت الأسود وتقعقع في طريقها إلى بيتربورو بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة ، تبينت أنني لم أكد أشعر بشيء على الاطلاق : لا إحساس بالارتياح للحصول على التوصيلة ، ولا توقع للسعادة في المكان الذي أقصده ، لا رغبة خاصة في أن أكون هناك أو في أي مكان آخر . ثم تساءلت عما يكون عليه شعوري لو أن هذه الشاحنة أيضاً قد تحطمت ؛ وتبينت أنني كنت سأظل على لامبالاتي أو عدم اهتمامي بما قد يحدث . وبدأت استعرض في ذهني مختلف الكوارث الممكنة ، حتى وصلت إلى كارثة أثارت لدي نوعاً من الاستجابة . ثم اجتاحتني فكرة أن الجنس البشري أو الكائنات الإنسانية يمكن أن تتردى في حالة نفسية من اللامبالاة حيث لا تملك اللذة قدرة على الاغراء ، وحيث لا يستطيع أن يتخلل الضجر سوى الألم أو القلق الشديد . وتصادف أن كنا نعبر مدينة سانت نيوتس في تلك اللحظة ، ولكي أستطيع أن أحتفظ بالفكرة في رأسي حتى أصل إلى مكان يمكنني فيه أن أكتب عنها ، فقد كتبت بخط رديء فوق قطعة من الورق عبارة :

« محنة سانت نيوت » . ولو انني كنت قد كتبت ببساطة : محنة اللامبالاة ، لكان لتلك العبارة الأخيرة نفس القدرة على تذكيري بما أردت أن أتذكره (مع تحفظ واحد ، وهو أنه ما دامت الفكرة تحتاج إلى نوع من التحديد على أية حال ، فقد كان من المستحسن أن أضع كلمة لا تفسر نفسها بنفسها بصورة مخادعة) .

وفي السنوات العشر الأخيرة وجدت نفسي أعود المرة بعد المرة الى فكرة محنة سانت نيوت . لماذا يبدو الوعي الإنساني بهذه الدرجة من الضيق ؟ أليس هذا إسماً آخر لفكرة الخطيئة الأصلية ؟ لماذا لا يشعر البشر بالامتنان لما يمتلكونه من حياة ؟ والأكثر أهمية من كل ذلك ، كيف يمكننا أن نحقق السيطرة على الآلية التي تعمل بها فكرة محنة سانت نيوت لكي نتخلص من الإحساس بالضجر والافتقار إلى الهدف ولكي ننفي هذا الإحساس عن الحياة ؟

ما زال لدي تعليق آخر ، وأكون قد انتهيت من الفرضيات الأولية . فحينما يكون عقلي في أكثر حالاته صفاء وحينما أعمل بصورة جيدة ، فإنني أصبح مدركاً بغموض لنوع معين من المعرفة قد يؤدي إلى حل المشكلة كلها .

ولكن هذه المعرفة تروغ من الوعي وتتملص من قبضته ؛ بيد أنه لا يخالجني الشك في صدقها وحقيقتها . ولقد عبر المصور الفنان ريتشارد سيدون عن هذه المعرفة حينما كتب يقول : « من المؤكد أن الفنان يحدس شيئاً يكمن وراء متناول الادراك العقلي الإنساني » . وربما كان من الخطأ أن ندعو هذا « الشيء » معرفة أو نوعاً من المعرفة ، لأنه يبدو كما لو كان شيئاً حقيقياً وصلباً ، ولا يزيد في تجريديته عن علبة من السردين المحفوظ .

ولكنني إذا حاولت أن أركز عليه — أي أن « أراه » وأن أحدده

وأطلق عليه تعريفاً ذهنياً — فإنني أتوقف على الفور عن إدراك الشيء نفسه ، ثم أظل أدور في فلك التصورات أو المفهومات التي قد تحدده أو تعرفه ، تماماً مثلما يحـــدد الضوء الظلال من حوله . إنني أصبح مدركاً لانعدام الهدف الغريب الذي نعيش كلنا في ظله ، إن محاولة تحديده أو تعريفه لتشبه محاولة تأليف رواية بلغة لم توجد بعد أو لم ينطق بها بشر .

الفصل الثاني

حوض ديوجينيس ![1]

أريد أن أتحدث في الأساسيات وحدها : وأكثر الحقائق أساسية في طفولتي هي أنني كنت طفلاً فاسداً ومدللاً . ورغم أن أمي لم تكن أصغر بنات اسرتها ، فقد كانت أول أشقائهـا وشقيقاتها السبعة في تقديم حفيد لوالديها ، حينما ولدتني في السادس والعشرين من حزيران (يونيه) عام ١٩٣١ . وبعد ثمانية عشر شهراً وصل أخي باري ، وفي خلال تلك المدة كان عدد كبير من الأحفاد قد ولدوا ، فقد كان أخوالي وخالاتي

---

١ ديوجينيس Diogenes فيلسوف يوناني شكاك بارز (حوالى ٤١٢ – ٣٢٢ ق. م.) قال عنه الفيلسوف الروماني سينيكا ، إنه كان يعيش في حوض قديم للاستحمام ، على سبيل احتقار متع الحياة الجسدية واحتقار المدنية ، وتحكى عن ديوجينيس حكايات كثيرة ، ربما كان أشهرها هو خروجه في وضح النهار حاملا مصباحاً ، فلما سئل عن ذلك قال إنه يبحث عن إنسان . وقيل إن الاسكندر الأكبر ذهب لرؤيته فقدم نفسه اليه قائلا : أنا الاسكندر الملقب بالأكبر ، فأجابه الفيلسوف بقوله : وأنا ديوجينيس الملقب بالكلب . فقال الاسكندر : ألا أستطيع أن أقوم لك بخدمة ؟ فأجاب ديوجينيس : أجل ، ابتعد حتى لا تمنع عني أشعة شمسي ! (هـ . م)

مشغولين بنفس العمل خلالها . ولكنني كأول حفيد حظيت بتدليل الجميع باستثناء خالتي «مود» التي تشاجرت مع الاسرة فيما بعد بسببي ،وقطعت كل علاقة لها بهم . وباعتباري أكبر الأحفاد سناً تعودت ان أكون اكثرهم قوة وأن أمارس عليهم وعلى أخي الصغير نوعاً من السيطرة والسطوة ؛ وقد مال جداي لسبب ما إلى اعتباري طفلاً متميزاً أيضاً ، وانتقل اعتقادهما هذا إلي بالتالي . لقد قيل لي إنني وسيم وجميل وذكي ، وكان هذا القول يتجسد في الكثير من الملاطفة والتقبيل ؛ ولكنني كرهت شدة اهتمام الآخرين بي (وهذا الاهتمام كان يعني في بلدة لايستر أن يسلقوني) ويمكنني أن أذكر كيف كنت أصارع بقوة لكي أهرب من القبلات الكثيرة .

ولم يحدث إلا منذ خمس سنوات فحسب أن تبينت لأول مرة أهمية هذا الاهتمام الشديد بي والالتفات إلي في سنوات عمري الاولى . كان أحد أصدقائي الموسيقيين يحدثني عن افتقاره إلى الثقة بنفسه وعن حيائه الشديد . وكنت في هذا الوقت أكتب كتاباً يدعى « عصر الهزيمة The Age of Defeat» * وهو هجوم على « زيف الافتقار إلى المغزى » والإحساس بالسقوط والفشل ، والبعد عن التواضع أو الترفع عنه ، هذه المظاهر التي طغت على أدب القرن الماضي طغياناً شديداً . وكان من الواضح أن اختلاف وجهات نظرنا كان اختلافاً بين الأمزجة وليس بين الأفكار . وقد حاولت أن أحدد هذا الاختلاف . فرغم أنني أحمل في داخلي « قلقا » جوهرياً متعلقاً بالكون والخوف منه ومن احتمال أن تتكشف الحياة عن أضحوكة أو مزحة مرعبة ، فإنني أبدو لنفسي كما لو كنت مقتنعاً اقتناعاً أساسياً بأن الحياة والحظ مقبلان علي وأنهما يعنيان بأمري . (وقد اقتبست بهذا

---

* أطلق على هذا الكتاب في أمريكا اسم « قامة الإنسان » The stature of man هـ. المؤلف
وأطلق عليه في الترجمة العربية اسم « سقوط الحضارة » .

الصدد وفي تعاطف قصة حكاها إكرمان عن جدته . فحينما كانا يتناقشان في مسألـــة القدر والتفاؤل أشار أحدهم لجوته قائلاً إن قـــدر كان إلى جانبه ، ولكن بفرض أنه كان قد ولد سيء الحظ ، فما الذي كان يحدث ؟ فقال جوته : « لا تكن غبياً . أتظنني على هذه الدرجة من الغباوة حتى أولد سيء الحظ ؟ »)

وسأل صديقي : « ولكن . لماذا ؟ » وفي محاولتي للاجابة عليـــه بدهني الحل أو طرأ على ذهني . لأنني كنت أول من ولدوا من أحفاد الأسرة وحظيت بمزيد من تدليل جديّ وحسد أبناء عمومتي وخئولتي ، وطالما حكت لي أمي أنني قد « ولدت محظوظاً » . إن أحدى غرائب متناقضات هذا العالم هي أن خصائص تجربة من تجارب الحيـــاة الحقيقية لا تشترك في شيء على الاطلاق مع خصائص قصة تحكى من الذاكرة . وإن حياة الناس الآخرين قد تكون « قصة » وقد تحمل بعض المميزات أو الخصائص الملحمية أو الرومانتيكية . ولكن الجلوس هنـــا ، الآن ، والنظر من النافذة أو القراءة في كتاب ، يختلف عن ذلك ، فكل إنسان يعرف أن الحاضر الخاص به ليس لحظة في قصة من القصص ، إنه فقط « قائم » ، « كائن » . إننا لا ندرك حقاً فكرة أن حياة كل فرد من الناس قد كانت على هذا النحو : كتلـــة مصمتة من الحاضر وصلبة ، وهي كتلة كالحصان لا يمكن كسرها ، ترفض ان تكشف عن أسرارها ، مهما ضغطت عليها الأسنان أو الكسارات . والوسيلة المعتـادة للتغلب على هذه المشكلة هي التخلي عن الحصاة والتراجع عن الواقع الحقيقي لكي نحيا في حلم من الأحلام . وهكذا فإن العالم قد صُنع في معظمه من نوعين من الناس : الأقوياء ، الذين يتمسكون بالواقع الحقيقي والذين يسلمهم هذا التمسُّك إلى حالة من الاحساس بالبلاهة والافتقار إلى الهدف ؛ والمتهوسين النزقين ، الذين يخدعون أنفسهم ، الضعفاء ، الذين يستمدون إحساسهم بالمعنى من الرفض والانسحاب المتعمد من عالم الواقع . أما الفئة الثالثة ، المكونة من

أولئك الذين صمموا على استبقاء نوع من الإحساس بالهدف دون أن يسه
في خداع ذواتهم ، فعددهم بالغ الضآلة حتى يكادوا لا يوجدون .

ولكن لكي يكون للحياة معنى فلا بد لها أن تصبح قصة . أي أنه ينبغي لكل لحظة، بما أنها حلقة في سلسلة من عمليات الوعي ، أن تكون مرتبطة بالحلقات التي مضت من قبلها . وهكذا فإن الحياة تبدو دائماً كمحاولة كتابة خطاب بينما المذياع يصخب والأطفال يصرخون والمنزل تلتهمه النيران . إن الواقع الحقيقي يطرق رؤوسنا مثلما تطرق أذننا آلة مصنع دوارة ذات ألف مطرقة ، لكي يدمر الجهد المبذول من أجل التركيز ومن أجل استبقاء خيط واهن من الدافع إلى التحرك وسط الفوضى. وفي بعض الأحيان يسود الهدوء ؛ إذ يبزغ معنى ما في داخلنا ، ستشرق سعادة عجيبة ، نستطيع أن ننظر إلى العالم وان نقول : « إنني أحبك، انني أقبلك ». وحينئذ تطلق الصفارة،وتعود مضارب اللاعبين تتقاذف الكرة.

وأعتقد أنني لا بد كنت أشعر بنوع من الحاجة الغامضة إلى الانسحاب حتى في الطفولة الباكرة لأنني أستطيع أن أتذكر كيف كنت أحكي لأخي حكايات طويلة حيث يختفي صبي في كهف عميق تحت الأرض أو يزحف داخل أحد الأدراج ويغلقه على نفسه ، ولو كان صندوقي هو رمز ذاتيتي بما يحتويه من أشياء قليلة ومؤونة كافية من الطعام .

وأعتقد أنني كنت طفلاً سهل التأثر بصورة غير عادية ، رغم اشمئزازي من اهتمام الآخرين الشديد بي . وكان انفعالي مقسماً بالتساوي بين أمي وبين أخي باري . وكان كل الناس يقولون إن باري كان يختلف عني في كل شي . فبينما كنت أنا إيجابياً كان هو خجولاً ؛ وبينما كنت أنا عدوانياً كان هو سهل الاستسلام . وكنا دائمي الشجار ، وكنت أنا أضربه دائماً . ولكن ضربي له لم يؤد إلا إلى أن أحبه أكثر — وأعتقد أن السبب في هذا كان التعارض بين مزاجينا . ولقد عشت دائماً في دوامة

من القلق والانفعال عليه . وفي أحد الأيام ذهب يتنزه على ضفة نهر سور مع ابن عمي روي ، وظللت مقتنعاً طول اليوم بأنه غرق . وحينما عـاد الى البيت متأخراً جداً في المساء كنت قد أنفقت ساعات طويلة واقفاً أطل من النافـذة ، وصدري يمور بالكراهية لأبـي وأمي لسماحهما له بالخروج إلى تلك النزهة . وفي مناسبة أخرى تأخر في العودة إلى البيت من المدرسة؛ وذهبت أنا للبحث عنه سائراً أميالاً عديدة ، وعثرت عليه في النهاية راقداً في عربة يـد ويدفعه ويدفع العربة رجل عجوز . والحق أنه كان يسير بالعربة في اتجاه المنزل ، ولكنني مع هذا كنت واثقاً من أنني قد أنقذته من الاغتصاب عـلى يدي مجنون جنسي (حدثت في تلك الفترة جرائم قتل عديدة للأطفال — وكان هذا حوالى عام ١٩٣٨ — وكان الكبار قد حذرونا بشدة من السير مع الرجال الغرباء). واحتج باري بأنه كان قد أصابه التعب وأن الرجل العجوز عرض عليه أن يوصله ؛ ولكننا جعلناه يَعِد بأن يرفض في المستقبل كل عرض يصادفه من هذا النوع .

وبصرف النظر عن باري ، كانت حياتي مرتبطة تماماً بأمي . كانت في التاسعة عشرة عندما ولدت ، وكانت تجد أن الحياة الزوجية في أثناء سنوات الكساد حياة مجهدة وغير مجزية ، وكانت هي وأبـي على طرفي نقيض في مزاجيهما وتكوينهما النفسي . كان أبـي قـد صار مسؤولاً عن أسرة أمـه منذ قتل أبوه في عام ١٩١٤ . وكانت جدتي تساعد الأسرة ماليـاً عن طريق عملها في أحد المغاسل . كانوا يعيشون في حي فقير ، فشبَّ أبـي خشناً قوي الارادة ، ميالاً إلى الانفجارات العصبية أو الانفعالية. وبينما كنت أنا أكبر ، كانت انفجاراته تزداد اقتراباً من البواعث العصبية . وكانت لأمي أيضاً إرادتها ، ولكنها كانت مغرمـة بالقراءة ، وكانت قد ورثت مزاجاً هادئاً ورقيقاً من أمها . أما أبـي فإنه لم يقرأ في حياته كتاباً ، وكان يتميز بميله إلى انفـاق لياليه في الحانة . فبعد أن يشرب نصف « دستة » من أكواب البيرة في ميعاد الغداء يوم الأحد ، كـان

يفضّل أن يذهب إلى فراشه دون أن يتناول غداءه ، فيغرق في النوم دون أن يخلع حذاءه . كان يعمل كثيراً ، ولكن أجره لم يكن أجراً مجزيـاً (كان يعمل لقاء ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات في الأسبوع في الثلاثينات) وكان يشعر بأنه يستحق أمسيته التي يقضيها في الحانة . وهكذا فقد كنا نعـاني دائماً من نقص النقود ، وكانت أمي تبكي دائماً . وحينما تشعر بالتعاسة كانت تبثّني شجونها ، ووصلت أنا إلى اعتبار البيرة سر مأساة حياتنا . وكانت واحدة من أوائل الجمل التي تعلمت هجاءهـا ونطقها (في سن السادسة) هي : « أبي يشرب البيرة » . وكان أبي عـلى حق حينما اعتبر هذه الجملة نقـداً لعاداته ، فأمرني بتمزيقها وعدم إعادة كتابتها .

ويبدو لي الآن أن أمي لم تكن وحدهـا هي البائسة دوامـاً في خـلال طفولتي ، ولكنها قد بثت في وجداني حساسية مرضية بجعلي موضع ثقتها الذي تبثه أحزانها . وكانت لأبـي أيضاً متاعبه ، ولكني لم أكن أعرف شيئاً عن هذه المتاعب . وحينما كنت صغيراً جداً ، دأب على أن يأتي إليّ بالحلوى وأن يلاطفني ويلعب معي ؛ ثم فجأة — أو هكذا بدا لي — أحسست بأنه يبعدني عنه مسافة ذراع كاملة ، لأنني أصبحت مزعجـاً ومتعباً . ولا شك أنه قد شعر بأن الحياة قد عاملته معاملة سيئة بأن جعلته والداً قبل أن يبلغ العشرين ، وبإجباره على العمل في مصنع حقير للأحذية مقابل أجر لا يسد الرمق . وهكذا فقد كانت تنشب في البيت مشاجرات عنيفة ، انتهت واحدة منها على الأقل بأبـي وأمي يتبادلان الضربات وسط الحجرة . وفي مناسبة أخرى صفعت أمي أبـي على وجهه في إحـدى الحانات . وكان أبـي يقول إن أمي لا قلب لها لأنها كانت متباعدة وغير عاطفية بطبيعتها ، ووصفت أمي أبـي بأنه عاطفي أبله لأن مشاعره كانت سهلة الاستثارة ولأن إحساسه بالشفقة كان من السهل أن يدفعه إلى البكاء .

ومن الطبيعي أنني كنت أتخذ جانب أمي وأنني في صفهـا . ومن

الواضح أنني كنت قـادراً حتى على أن أقص عـلى المدرّس في المدرسة حكايـات المشاجرات في البيت وما نعاني من نقص في المـال . (وقد ذكرتني أمي بهذا في اليوم السابق ؛ ولكنني لا أحتفظ بأي ذكرى عنه). وفي أحـد الأيام سألت أمي عما أستطيع أن آخـذه معي إلى المدرسة (لإفطار الضحى) فقالت لي : « ليس هناك طعام في البيت » . وأذكر كيف تملكني إحساس مفزع بالمأساة طول الصباح : إننا نموت جوعاً . وأردت أن أندفع إلى المنزل لكي أواسي أمي . ولكنها ساعة الغداء كانت مرحة ولامبالية ، وحينما ذكرتها بما قالته أجابتني بأنها إنما كانت تعني أنها لم تكن قد خرجت بعد لتشتري ما يحتاجه البيت من طعام ولم تكن تعني أننا مفلسون . ولا بد أن هذا الصباح كان صباحاً بالغ التعاسة بصورة غير عادية بالنسبة لي ؛ ومـا زال بوسعي أن أتذكره بوضوح ، بعد خمسة وعشرين عاماً ، وما زال بوسعي أن أتذكر إحساسي بسخرية الحياة ، طالما كان من بالمدرسة مرحاً مبتهجاً بينما كنت أنا على هذه الدرجة من الانقباض والكآبة .

وأظن أنني لا بد قد ورثت قدراً كبيراً من حساسية والدي العاطفية . وأستطيع أن أتذكر كيف ودعت وداعاً مليئاً بالبكاء معطفاً قديماً لي في حجرة تغيير المـلابس بالمدرسة في اليوم الذي أخبرتني فيه أمي بأنهـا ستخرج لتشتري لي معطفاً جديداً .

وحينما كنت في الثامنة خرجت أمي لتعمل في مصنع محلي للجوارب ، وساعد هذا على تسهيل أمور الأسرة المالية . ولقد كرهت هي عملها ، فقد تركها دائمة الإحساس بالتعب . وأرادها أبي أن تستمر فيه ؛ وكان من الطبيعي أن يشعر بالسرور لأنه أصبح قـادراً على أن يدعو أصدقاءه إلى كوب من البيرة دون أن يكون مضطراً إلى الاقتراض من الحانة . وبعد عـامين حلت هي المشكلة بـأن وضعت طفلاً جديداً — هو أخي

رولدي . ولكنها في نفس الوقت ظلت تعمل وتطهو الطعام وتقوم بأعباء المنزل ، وتولي عنايتها لميزانية البيرة التي أثقلت كاهلها بعبء مضاعف .

إنني أجد أنه من الصعب أن أحكم على طفولتي بأنها كانت طفولة سعيدة . وأشك في أن أكثر فترات الطفولة يزداد التشابه بينها إلى درجة أكثر مما نعتقد . فالأطفال لا يتمتعون إلا بقدرة محدودة جداً على استيعاب السعادة الطويلة الأمد . وقد قال الدكتور جونسون إن السعادة والتعاسة يتشابهان إلى حد كبير بالنسبة لكل إنسان ، وأن سعادة قائد عظيم أنقذ بلاده هي تماماً نفس السعادة التي تشعر بها فتاة ترقص رقصتها الأولى . وهذا يصدق على الأطفال بالتأكيد . إنه من الممكن أن تصطنع لهم السعادة أو التعاسة ، ولكن فترات الطفولة التعيسة حقاً والسعيدة حقاً لا بد أنها استثناءات نادرة . وأكثر الأطفال يتراوحون بين الحالتين ، بنفس المباهج ونفس مصادر الحرج والإحساس بالاثم ، بنفس الكبرياء ونفس الحماس . ومن المؤكد أنه ليس هناك سبب يدفعني إلى أن أكون غير سعيد . ولم يحدث أبداً أن عاملني أحد معاملة سيئة . لقد ضربت من حين إلى حين -- وغالباً بحزام أبي الجلدي -- ولكنني كنت أستحق هذا الضرب في العادة . ولقد كانت لدي مجموعات من الممتلكات الصبيانية -- من المطاط الهندي (الذي تصنع منه الممحاة) ومن الأقلام ومن الأدوات الهندسية ، ومن المجلات والصور الفكاهية ، ومن سكاكين الجيب . ولقد سرقت عدة مرات -- وكان ما أسرقه عادة يتناول الأطعمة من المخزن أو التفاح من البساتين المحلية المجاورة . ولقد كنت أعتبر دائماً ماهراً في الشجار . وعادة ما كنت أفوز في مشاجراتي . ولا أستطيع أن أذكر شيئاً من لحظات الكشف الجنسي في طفولتي ؛ لأنني رغم ما أتمتع به من اهتمام طبيعي عند الأطفال بأعضائي التناسلية ، فإن الجنس بهذه الصورة لم يكن يمثل شيئاً مغرياً بالنسبة لي . وإذ أكتب الآن عن هذا الجانب ، أجد أنه من الصعب أن أمنع نفسي من أن أبدو في صورة متزمت صغير ؛

ولكن لم تكن الرغبة في أن أكون « ولداً طيباً » هي التي منعتني من أن أمارس التجارب الجنسية المنكرة على الاطلاق . لقد كنت أصغي بشيء من الاهتمام إلى الأولاد الذين يتفاخرون بما كانوا يزعمون أنهم فعلوه مع الفتيات ؛ ولكنني لم أكن أستطيع أن أفلت من إحساس ضعيف بالاشمئزاز منهم كما لو كانوا يلوثون ويدنسون أنفسهم . ولا أستطيع أن أتذكر إلا حقيقة واحدة ، وهي أنني كنت في خلال طفولتي « ضعيف الدافع الجنسي » بصورة واضحة ؛ وحينما شرح لي أحد أصدقائي في المدرسة كيف يأتي الأطفال إلى العالم رفضت أن أصدقه . وأنا أعتقد أن هذا النوع من النزعة المتزمتة إنما هو أمر يرجع إلى المزاج الشخصي ، وربما كان أكثر شيوعاً بين الفتيات منه بين الفتيان .

ولقد كانت هناك باعتراف الجميع مظاهر قليلة لأشياء تظهر لي الآن على أنها كانت أنواعاً من الانحراف الجنسي . لقد أحببت أن أرتدي ثياب أمي ، بما في ذلك ثيابها الداخلية . وأعرف عن هذا من خلال ما قاله هافلوك إليس[1] أن هذا السلوك دائماً ما يعبر عن ميل إلى الشذوذ الجنسي — مثلما يشير إليه ارتباطي العصبي بأمي ومقتي لأبي . وفي الحقيقة ، فإنه لم يحدث أبداً أن لاحظت أي أثر للشذوذ الجنسي في تكويني في أي فترة من الفترات ، رغم ما سمعته من حين إلى حين من بعض الأصدقاء المصابين بالشذوذ الجنسي من أن كل إنسان يتضمن في فترة مراهقته جانباً يعبر عن الشذوذ الجنسي . فإذا كان لدي مثل هذا الجانب ، إذن فإنني قد فشلت في ملاحظته . ولقد ظهرت لدي أيضاً ميول واضحة نحو النزعة الصادية ، هذه الميول التي برزت في عدم التسامح بصورة عنيفة إزاء كل

---

[1] هافلوك إليس ، Havelock Ellis (١٨٩٥ – ١٩٣٩) ، كاتب انجليزي وناقد أدبي ، اشتهر بسبب دراساته عن سيكولوجيا الجنس ، رغم انه ركز أسباب الدوافع الجنسية في العناصر والنشاطات البيولوجية ، في وقت كانت فيه مدرسة التحليل النفسي الفرويدي ، هي المدرسة السائدة . (هـ . م)

ما يبدو لي نوعاً من الضعف أو الحماقة . وقد كانت هناك فتاة صغيرة تسكن في المنزل الواقع عند ناصية شارعنا ، وكانت كثيراً ما تثير لدي نوعاً من الدافع السادي لأنها كانت تبدو لي على شيء من الرخاوة ومسرفة في « أنوثتها » الطفولية ، وبالغة الافتقار إلى الحيوية ، هذه الصفات التي تحولت لديها إلى سحر سكّري حلو المذاق قوي الأسر . وقد تعودت أن أقرصها إذا لم يكن أبواها ينظران إلينا ، ثم أزعم أن ليس لدي أدنى فكرة عن سبب بكائها .

وقد أدت بي هذه النزعة السادية من حين إلى حين إلى أسوأ « العلُق » التي نلتها في حياتي . كان ذلك في الخامس من نوفمبر ؛ وربما كنت في السادسة أو السابعة من عمري . وكنت أنا وباري قد توقفنا لنتكلم مع بعض الأطفال الصغار ، وشعرت أنا أنهم « بلهاء » . ولعبنا بهم لبعض الوقت ، ثم همست لباري أننا سنضربهم معاً بإشارة مني . وأعطيت الاشارة ، ولكمناهم أنا وباري ثم جرينا كالريح . وخرج والدا الأطفال من منزلهم وشاهدا « صدارينا » الأحمرين يختفيان وراء الناصية . وبعد عشر دقائق وجدونا نشاهد ناراً أشعلناها في مساحة من الأرض المهملة ، فذهبوا بنا إلى والدينا . ورُبطنا إلى السرير ، وقام علينا أبي بحزامه الجلدي . ورغم ألمي ، فقد صرخت بأنه ليس لباري ذنب فيما حدث ، وبذلك فقد أطلق سراحه بعد بضع ضربات . أما أنا فقد ضربني أبي حتى كلّت ذراعه . وفي الصباح التالي استدعتنا ناظرة المدرسة ، وكان علينا أن نقول إننا آسفان وأننا لن نفعلها ثانية .

لقد بدأت في ممارسة الملاكمة حينما كنت صغيراً إلى حد بعيد . وفي طفولتي كان أبي من أبطال المشاجرات ، وكثيراً ما قص علي كيف كان يدافع عن شقيقته ليلي ضد صبي أكبر منه بكثير وكيف ضربه وهزمه . وفي عقده الثاني كان ملاكماً هاوياً جيداً ، وكان أنفه قد تفلطح وأذناه

قد انبسطتا بتأثير اللكم ، بل لقد كان هناك حديث يدور حول احمال احترافه الملاكمة ، ولكنه لحسن الحظ خسر المباراة التي كانت ستحدد مستقبله . بيد أنه كان يتكلم كثيراً عن مشاجراته ومبارياته في طفولته ، وكان يعطيني دروساً في الملاكمة الدفاعية ، هذه الدروس التي لم أستفد منها أبداً ، طالما أنه لا يوجد طفل يفكر كثيراً في قواعد الملاكمة أو يهتم بها حينما يكون وجهاً لوجه مع غريمه . لم يكن لدي شيء من التعاطف أو القدرة على الاستجابة إلى أكثر ما يثير حماسه ، فقد كان نجماً من نجوم كرة القدم ، وبطلاً من أبطال السباحة ، وكان يستمتع بطلاء حذائه و « تلميعه » وبفرق شعره وترتيبه . وكانت إحدى أقاصيصه المفضلة ، تحكي عن كيف نودي عليه أمام المدرسة كلها حتى يستطيع الناظر أن يظهر أمام التلاميذ المثل الأعلى في النظافة والترتيب . أما أنا فقد كنت كسولاً وغير مرتب . وقد كرهت كرة القدم لأنني لم أستطع أبداً أن أقترب من الكرة لكي أركلها . وقد أحببت الماء ، ولكنني لم أصبح سباحاً سريعاً أبداً ، وما تزال قدرتي محددة بالضربات البطيئة من الذراعين . ولكنني كنت قادراً على الشجار والقتال . وقد تعودت على أن أقذف بنفسي على خصومي وقبضتاي مضمومتان مشرعتان ، وكان المعتاد أن ينسحبوا من مواجهتي . غير أنني ما كنت أحب الشجار أو القتال ، وقد سمحت لنفسي أحياناً بأن أهزم بدافع من الجبن . وأحياناً ، كنت أدهش من نفسي حينما أفقد أعصابي فأضرب شخصاً كنت أخشاه وأخاف منه ، مثلما حدث ذات مرة حينما اندفعت نحو صبي صغير يدعى تيش ، وكان هو « فتوة » المدرسة . ولكنني بعد بضع سنوات سمحت لنفس هذا التيش بأن يصفعني على وجهي بسبب شيء من سوء الفهم السخيف ، ورغم أنني كنت أتمنى له الموت فقد خشيته وخفت أن أرد له الصفعة .

أما السرقة فقد كانت نوعاً من اللهو غير الضار حتى أصبحت في العاشرة . حينما علمني شخص ما كيف أختلس الأشياء من محل « وولورث»

وغيره من المحلات الكبيرة . وأظن أن هذا الشخص كان هو ابن خالتي جون ، الذي كان له تأثير مستمر كبير على طفولتي . فرغم أنه كان يصغرني بعام كامل (وهذا الفارق بالنسبة للأطفال يعادل خمس سنوات) فإنه كان ذا إرادة قوية وشخصية لامبالية ، الأمر الذي جعله رفيقاً ممتازاً لي . كان يحب تسلق الأشجار ، بينما أنا كنت أخاف من الأماكن المرتفعة وأكره الأشجار . وقد كان خبيراً بعملية تسلق الأشجار خلسة لسرقة ثمارها من التفاح ، وكان يخترع أنواعاً من العلل التي تيسر له الحصول على إجازات طويلة من المدرسة . ولم يكن لجون سوى خطأ واحد خطير ؛ فقد كان على استعداد لأن يتنمّر فجأة أو ينقلب على الاتجاه الذي كان يتخذه دون مبرر واضح ، ثم يندفع في الاتجاه الجديد لا يلوى على شيء ، او يرفض القيام بشيء كان قد وعد بالوفاء به . ولكنه كان رفيقاً طيباً حينما يكون في حالة معنوية جيدة حتى أننا كنا نغفر له مثل هذه الهفوات . وكانت العائلة تعتبر جون مثلي ماهراً ، ولذلك فقد كان هناك نوع من المنافسة المعتدلة — ولكنها منافسة مستمرة — بين والديه وبين أبوي . وقد زادت هذه المنافسة بسبب عامل قديم ، وهو أن أمي وشقيقتها الخالة دورا ، كانتا تغيران إحداهما من الأخرى في طفولتهما .

وقد اعتدت أنا وجون أن نسير إلى المدينة ، إذا لم نكن نملك أجر ركوب الباص ، ثم نتجول في المحلات الكبيرة ، نسرق سكاكين الجيب ، وهدايا عيد الميلاد ، وأي شيء آخر لا تصعب سرقته . ليس للأطفال ضمير بالطبع . إنهم أبرياء كالمتوحشين . وهم مثل المتوحشين يحبون الدمى والحلى الصغيرة والأدوات الضئيلة . ولم يحدث أبداً أن شعرت بوخز الضمير بسبب السرقة — كما لم يحدث أبداً أن شعرت بشيء مثل هذا حينما كنت أتذكر ما سرقته . ولقد كنت مقتنعاً بأن كل أطفال ليسستر جديرون بأن يهبطوا على المحلات الكبيرة كالجراد لو أنهم تأكدوا من أن أحداً لن يمسك بهم . وقد حدث أن اشترك أبي في طفولته مع مجموعة من الصبية

في التسلل إلى محل كبير – ربما كان محل وولورث – من خلال السقف، وأعتقد أن بعضهم قد قبض عليه . وقد حلمت الكثير من أحلام اليقظة المتعلقة بهذه القصة عن أبـي ، وأنفقت ساعات في تخيل تفصيلي عما كان يمكن أن أحمله لو أنني تمكنت من اقتحام محل وولورث في الليل . كانت هناك قطع الشوكولاته ، وأقلام الحبر ، والنظارات المكبرة ، وسكاكين الجيب ، وأدوات للنظر إلى الخلف دون أن تدير رأسك (كانت تدعى « سيباكروسكوب ») وقطع من المعدن تصدر ضجة تشبه صوت تحطم الأكواب الزجاجية حينما تسقط عـلى الأرض . وقد كنت أيضاً فخوراً بشكل خـاص بكتاب صغير أحمر اللون كنت قد سرقته ويدعى « إسأل عن كل شيء » أو مثل هذا العنوان ، وكان يقدم كل أنواع الاحصائيات والمعلومات من مثل : « هل تعرف أعلى سبع بنايات في العالم ؟ » أو « هل تعرف أطول أنبوب في العالم ؟ » .. الخ .

ولحسن الحظ ، لم يحدث أبداً أن قبض علي – باستثناء مرة واحدة بعد سنوات طويلة من ممارسة السرقة ؛ ولكنهم سمحوا لي بالانصراف بعد أن وعدت ألا أعود الى السرقة مرة ثانية . وكان السبب في هذا الحظ السعيد هو أنني رغم ما كان يستبد بـي من رغبة شديدة في الحصول على سكاكين الجيب والدمى ، فإنني أيضاً كنت أرغب بشدة ألا يمسك بـي وأنا أسرق ، وكنت أتخذ كافة أسباب الحذر والحيطة .

وإذ أنظر الآن إلى الماضي ، يبدو لي أن السرقـة قد سيطرت على طفولتي ؛ ولم تكن أبداً بعيدة عن أفكاري . وبعد بضع سنوات اكتشفت أن الأقاصيص القصيرة عن رجال العصابات تباع بسعر مرتفع ... واكتشفت دكاناً لبيع الكتب القديمة أو المستعملة كان يبيع الرواية الواحدة من روايات بن سارتو أو داركي جلينتو ذات الغلاف الورقي والتي يبلغ ثمنها الأصلي شلنين كاملين مقابل بنس ونصف فقط . واكتشفت أيضـاً مكتبة كان

صاحبها يستغرق بضع دقائق أحياناً حينما يخرج من وراء مكتبه في مؤخرة المحل كلما دخل زبون إلى المكتبة . وهكذا فقد تعودت أن آخذ الكتاب من إحدى المكتبتين لكي أذهب به إلى الأخرى . ولكنني لم أكن أضع الكتب أبداً في جيبي ولا في حقيبتي المدرسية ، فقد كان في هذا خطورة بالغة . فكنت ألقي بها دائماً تحت إبطي من داخل القميص . وقد ثبت لي أن هذا الاحتياط كان عملاً حكيماً . فقد شكت المرأة التي تدير إحدى المكتبتين في أنني أسرق أغلفة الكتب ، وفي أحد الأيام طلبت مني أن ترى ما في حقيبتي . وبدا عليها الانزعاج وخيبة الأمل حينما لم تجد سوى كتبي المدرسية . ولكنني نظرت إلى هذا الموقف باعتباره تحذيراً من « الحريق » المقبل ، فتنازلت عن عملية بيع روايات بن سارتو كوسيلة للحصول على دخل طيب .

ومما لا شك فيه أن مثل هذه التجارب ليست شيئاً نادر الحدوث بين الأطفال ؛ وأنا أذكر هذه التجارب هنا لأنني أعتقد أنها لا بد أن تكون وثيقة الصلة بتطوري ككاتب . إن الكذب والخداع هي تجارب الطفولة المعتادة ، ولكن الطفل لا يكذب إلا على من كان صاحب سلطة مباشرة عليه ، مثل الوالدين أو المدرسين . على أن اعتياد السرقة شيء مختلف ؛ فالسرقة هنا موجّهة ضد سلطة المجتمع ، وصاحبها يتعرض لخطر عقاب أشد وطأة وربما كان تطور جان جينيه أكثر شيوعاً مما نظن — أعني تطوره من لص إلى متمرد وإلى نوع من « اللامنتمي » . وربما كان من الممتع أن نحصل على سجل للنشاطات الاجرامية لكل الفنانين والكتّاب في المائة سنة الأخيرة . لقد آمن أبناء العصر الفيكتوري بأن جورج واشينجتون [١] وجورج فوكس [١] وجلادستون [١] كانوا هم الأنماط الثابتة

---

١ جورج واشينجتون George Washington ، أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ، أطلق عليه في التاريخ الأمريكي « والد الوطن » . تحول إلى شخصية فنية في الكثير من أعمال الأدب=

لقادة الرجال في المستقبل . « أبي ، لا يمكنني أن أكذب كذبة واحدة »
كان هذا هو الطفل النموذجي . ولكنني كنت ميالاً دائماً إلى الشعور
بأنه ربما كان شارلي بيس[1] وجيم حامل القلم[2] هما النموذج الأكثر صدقاً
للروح التي تصنع التقدم .

إنني أحاول جاهداً أن أنفذ بعقلي عائداً إلى الخاصية الأساسية لطفولتي
وقد كان أحد العناصر الأساسية في هذه الطفولة هو احتقار الكبار
كانوا يبدون وكأنهم لا يفهمون جيداً ؛ وكان يساء تصوير علاقاتهم
بالأطفال إلى درجة لا تصدق . ولهذا فإن عدداً قليلاً منهم هم من ظهروا
بمظهر طبيعي . لقد أدركت ذلك السؤال الذي طرحه ج. ك. تشيسترتون[3] :
لماذا يمتلىء العالم إلى هذا الحد بهذا العدد الكبير من الأطفال اللامعين

= الأمريكي ، وصار نموذجاً للقائد الذي يحول الهزيمة المحققة إلى نصر كبير ، وخاصة في كتاب هوارد فاست « الذين لا ينهزمون » . (هـ . م)

وجورج فوكس George Fox (١٦٢٤ – ١٦٩١) مؤسس جمعية الاخوان أو الأصدقاء التابعة لمذهب الكويكرز في الكنيسة الأمريكية ، وقام برحلات بشيرية في اسكوتلاند وغرب الانديز في شيلي وفي شمال أمريكا ، يعد واحداً من أقدر الزعماء الدينيين في القرن السابع عشر .

ويليام إيوارت جلادستون William Ewart Gladstone ، رئيس الوزارة البريطانية الذي كان زعيماً للحزب الليبرالي في الربع الثالث من القرن التاسع عشر ، وكان رئيس الوزارة الذي اشترى أسهم مصر في قناة السويس ، وتم احتلال مصر عسكرياً في عهد إحدى وزاراته ، والذي أحكم سيطرة الحكم الانجليزي في ايرلندا ولذلك يعد أحد بناة الامبراطورية الاستعمارية البريطانية ، واشتهر أيضاً برسمه سياسة بلاده في مواجهـة القضية العثمانية طوال العصر الفيكتوري . (هـ . م)

١ ، ٢ شارل بيس وجيم حامل القلم The Penman من الشخصيات الخرافية المحببة في حكايات الأطفال الانجليزية ، وتعبران عن الشخصية اللاهية الذكية الموفقة الحظ . (هـ . م .)

٣ ج. ك. تشيسترتون Gilbert Keith Chesterton (١٨٧٤–١٩٣٦) كاتب وصحفي انجليزي متعدد الاهتمامات الأدبية ، وخالق شخصية الأب براون القسيس بطل قصصه البوليسية . كتب عديداً من الروايات ومجموعات القصص والمسرحيات وكتب التاريخ ، ومقالات وكتب ترجمة ذاتية لنفسه . واشتهر بتأملاته الفكرية ذات الطابع الديني . (هـ . م .)

والكبار الفاشلين المعدومي القيمة ؟ ولم يحدث أبداً أن قابلت شخص
كبيراً استطعت أن أعجب به دون تحفظ ـ أو أن أفكر فيه قائلاً لن
أود أن أكبر لأصبح مثله . وربما كان هذا بسبب أن كل الكبار ...ن
كان يمكنني أن ألتقي بهم لم يكونوا يملكون من المال أكثر مما تملكه
اسرتي . فبالمقارنة إلى أكثر أقارب أمي وأبي كان يبدو أننا سعداء
الحظ . فحينما كنت في الرابعة من عمري انتقلنا إلى مقاطعة كولمان رود ،
وسكنا في منزل يملكه المجلس البلدي كانت له حديقة واسعة نسبياً تحيط
به من الأمام ومن الخلف أيضاً . كانت الطرق عريضة تحف بها الأشجار
وخطوط الحشائش الخضراء ؛ وكانت حجرات المنزل تبدو واسعة مضيئة .
وكان أكثر أقارب والدي يعيشون في المنطقة التي ولد هو بها ، في منازل
صغيرة مزدحمة ليس لها سوى شرائط ضيقة من الحدائق الخلفية ، وطوال
طفولتي ، لم يحدث أبداً أن ذهبت إلى منزل جعلني أتمنى لو أننا سكناه .
وربما اختلف الأمر لو أنني قابلت بعض الأثرياء ؛ ولحسن الحظ لم اقابل
أحدهم مطلقاً . ولذلك فقد ظللت متحرراً من أي طموح اجتماعي وبقيت
جاهلاً تماماً بنفسي باعتباري عضواً في طبقة اجتماعية . أما الطموح الوحيد
الذي شعرت به ، وكان على علاقة بالكبار ، فهو طموحي إلى أن لا أصبح
أبداً مثل أي واحد من الكبار الذين عرفتهم .

ولقد كنت بطريقة غريبة ما ، على شيء من التدين . فحينما شرحت
لي أمي للمرة الأولى أن يسوع قد صنع العالم ، نظرت إلى كلامها باعتباره
نوعاً من المعلومات الصادقة التي فسرت لي أشياء كثيرة . وحينما قالت لي
إن يسوع سوف يسمعني إذا أقسمت أو حلفت ، حاذرت أن أقسم أو
أحلف ، وكنت أصلي طلباً للغفران إذا سهوت عن ذلك . ولقد كنت
كثير التعجب من العالم ، وكنت كثيراً ما ألتقي بشذرات متفرقة هامة
من المعلومات التي نسي الكبار أمر ذكرها دون تفسير لذلك . فعلى سبيل
المثال ، كنت في السابعة حينما تلقينا أول درس لنا في التاريخ ، وسمعت

للمرة الأولى كلاماً عن العصور التي سبقت حياة البشر على الأرض ، وعن الدينوصورات والنمور ذات الأنياب الشبيهة بالسيوف . وبدا لي مدهشاً أن أحداً لم يذكر لي شيئاً عن كل هذا من قبل . وفي إحدى دوائر المعارف (أظن أنها كانت دائرة معارف الأطفال التي ألفها آرثرميس) رأيت صورة مأخوذة من رواية جول فيرن « عشرين ألف فرسخ تحت سطح البحر » يبدو فيها الكابتن نيمو وهو يكتشف قارة أطلانتيس . ورحت أسأل الأسئلة عن أطلانتيس ، ومرة ثانيـة أصابتني الدهشة لأن أحداً لم يكلف نفسه عناء إخباري بهذا الموضوع المثير .

وكانت جدتي مؤمنـة بالروحانيات ، وكانت تحضر جلسة لتحضير الأرواح في مساء كل يوم أحد . وربما كانت هي التي أجابت على سؤالي عمـا يحدث بعد الموت بـأن أسمعتني ملخصاً قصيراً لأفكار سويدنبورج [1] وكونان دويل [2] وسير أوليفر لودج [3] . وأضفت أنا هذه الشذرات المتفرقة من المعلومات إلى ما كنت أعرفه من شذرات سابقة من التاريخ الطبيعي ، والخيالات الوهمية والتعاليم الدينية التي كونت صورتي الخاصة عن الكون . كانـت الصورة تتكون ، وكانت تشرع في الامتـلاء . إن البحث عن « نسق فكري » أو عن تفسير للعالم يبدو كما لو كان يرجع عندي إلى

---

١ سويدنبورج -- انظر هامش ص ٢٧٣ من ترجمتنا لرواية المؤلف (القفص الزجاجي) نشرتها دار الآداب . (هـ م.)

٢ كونان دويل Arthur Conan Doyle (١٨٥٩–١٩٣٠) قصاص انجليزي اشتهر باختراعه شخصية شرلوك هولمز ، وبرواياته التاريخية . وكان دويل مهتماً إلى درجة كبيرة بالروحانيات وكتب مؤلفاً ضخماً عن « تاريخ النزعة الروحية » (١٩٢٦) . هـ . م .

٣ أوليفر لودج Oliver J. Lodge (١٨٥١ – ١٩٤٠) طبيب انجليزي وكاتب . انشغل في بحوثه الطبية حتى نشر عام ١٩٠٠ بحثاً ضخماً في امكانية الاتصال بين الاحياء والأموات . ونشر بعد هذا مضمون اتصالاته بولده الميت « رايموند » ، ولكنه نشر شرحاً خرافياً للنظرية النسبية هاجمه لأجله آينشتين . (هـ م.)

أبعد ما أستطيع أن أتذكره . بل إنني قد شرحت هذه الصورة بإسهاب لأصدقائي في المدرسة . ولكنني كنت واثقاً من أن الكبار يمتلكون كل الكمية التي تعرفها البشرية من المعلومات ؛ ولما كنت أكره كوني طفلاً فقد أردت أن أكبر وشرعت في استيعاب هذه المعلومات في جرعات كبيرة . وفي أحد الأيام في بداية الحرب ، سمعت أبي وأحد أعمامي يتحدثان عنها ؛ وشرح أبي بوضوح كيف سنكسب الحرب . قال إننا سنهزم هتلر في شمال افريقيا لأن الألمان غير معتادين على حروب الصحراء، بينما غزا البريطانيون الهند ومعظم افريقيا . وسيجبر هتلر على سحب قواته من فرنسا ، وسنغزو نحن أوروبا مرة ثانية . واعتمدت نظريته أيضاً على جبروت القوة البحرية البريطانية ، وعلى خط ماجينو الفرنسي أيضاً ولكن بطريقة نسيتها الآن . أصغيت إلى هذا الحديث بانتباه عظيم ، وطوال أسابيع بعد ذلك رحت أشرح لكل من اقابله كيف ستكسب انجلترا الحرب . كانت هذه النظرية نوعاً من المعلومات تضاف إلى ما لدي ويعتمد عليها ويوثق بها مثلما أعتمد وأثق بالقصص التي تتحدث عن يسوع والدينوصورات وقارة أطلانتيس ؛ وحينما كنت أتحدث عن هذه النظرية كنت أحذر أصدقائي بخطورة من تكرارها على مسمع من أي شخص ، حتى لا يسترق السمع أي جاسوس ألماني فيحذر هتلر .

واعتمدت على هذه المعلومات طويلاً لأنني كنت في طريقي إلى العاشرة من عمري أو نحوها . فالمعلومات هي المعلومات ، وحينما يتراكم لديك منها ما يكفي فسوف تكون عارفاً بكل شيء . وما زلت أذكر كيف أصابني الرعب حينما عرفت من أمي أن والد ابن عمي جون كان ملحداً . وتحديته أن يناقشني في فكرته في أول فرصة أتيحت لي ، ولكنه اكتفى بأن أقر لي بإلحاده ، فاعترضت أقول : « ولكن إذا لم يكن يسوع هو الذي خلق العالم ، فمن عساه يكون قد خلقه ؟ » وأجابني : « لا أعرف . ربما لم يخلقه أحد . » ولست واثقاً مما إذا كانت هذه هي أول مرة أتبين

فيها أنه من المحتمل ألا تكون المعلومات معلومات حقاً — وأنها ربما لم تكن غير رأي صاحبها أو وجهة نظره ؛ وأن المشكلة هي التمييز بين المعلومة والرأي . وأحسستني مثل رجل شيد منزلاً ثم قيل له إن نصف أحجاره جوفاء هشة وأن المنزل سوف ينهار عند أول عاصفة .

* * *

ولكنني بهذا أبتعد عن قصتي . لقد كنت أحاول أن أبين أن الدافع الكامن وراء معتقداتي الدينية كان هو نفسه الدافع الذي جعلني أسرق من محل وولورث . لقد برزا كلاهما مما لا يسعني أن أدعوه إلا نوعاً قوياً من الهوس . كانت المعرفة نوعاً من القوة ، وكانت الممتلكات المادية نوعاً آخر . ولقد قرأت ذات مرة مقالاً في مجلة للصبيان يصف الأشياء التي ينبغي على كل الأولاد أن يحملوها في جيوبهم . كانت هذه الأشياء تتكون من سكين للجيب ، وكرة من الخيط القوي ، وقطعة من المطاط ؛ واختتم الكاتب مقاله بقوله إن الولد بهذه الأشياء سيكون مستعداً لمواجهة كل طارىء ممكن من طوارىء الحياة . وعلى الفور جمعت الأشياء المطلوبة ، وظللت أحملها معي في كل مكان طوال سنوات ، حتى اكتشفت أنني لم استخدم أكثرها مطلقاً . لقد بدت الحياة خطرة وغير مفهومة ، ولا بد من اتخاذ كل اجراء ممكن لمواجهتها .

ومع هذا فلا بد لي أن أعترف بأنني قد واجهت بضع تجارب جديرة بأن تنتج نوعاً من الاشمئزاز من العالم . فعلى سبيل المثال ، حدث أن ربح أبي سكيناً كبيراً للجيب في رهان وسمح لي بأن آخذها معي في اللعب . كنت حينئذ في الرابعة من عمري تقريباً . ورآها معي ولد كبير كان يعمل لدى أحد القصابين فسألني إن كان يستطيع اقتراضها . ورفضت إعطاءها له ، ولكنه استخدم كل ما لديه لاقناعي وقال لي إنه لا يريد إلا أن يقطع بها أطراف قطعة من اللحم . وأخيراً أقرضته إياها ، فذهب

بها ، وانتظرته عند الناصية لساعات طويلــة ، وأخيراً عدت إلى البيت باكياً . ولم نسترد السكين ثانيــة رغم أن أبـي سأل عن الصبي في كل دكاكين القصابين المجاورة . ومررت بنفس هذه التجربة بعد ذلك بسنوات، حينما ذهبت مع صديق إلى برادجيت بارك على بعد عشرة أميــال من ليستر . وسألنا سائق أحــد الشاحنات أن نساعده في شحن كمية من الصفائح ، ووعدنا لقاء ذلك بأن يوصلنا في العودة إلى ليستر في المساء حينما يكون عليه أن يعود . وعملنا في الشحن باهتمام لمدة ساعة ؛ ثم انطلق هو بسيارته : ولكن رغم أننا انتظرنا حتى جاء آخر باص في المساء ، فإنه لم يعد أبداً . وفي المرتين ، حينما تبينت أنني قد خدعت أحسست بغضب عاجز ، وحلمت بأنواع سادية من العذاب ؛ ولكن هذا الإحساس كان قصير الأمد .

اما احتكاكاتي بأنواع من الخيانة أكثر شراً – وذات انحراف جنسي – فلم تزعجني كثيراً . فحينما كنت ضئيل الجسم جداً اقترب مني شاب وطلب أن ألعب معه . واكتشفت أن فكرته عن « اللعب » كانت جنسية تماماً ، واستمرت لمدة ساعات عدة . وحينما سمح لي بالذهاب أخيراً ، ذهبت إلى البيت وأخبرت والدي ، وعــلى الفور وضعني أبـي أمامه على دراجته وخرجنا للبحث عن الشاب ؛ ولكنه كان قــد أختفى . وصدمتني هذه الواقعة كشيء غريب ، ولكنها لم تكن شيئاً مخيفاً ؛ لقد أضجرتني كل تفصيلاتها .

وربما كانت لواقعة ثانية نتائج أكثر خطورة . فحينما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري ، حدث أن كنت في الطريق إلى المكتبة العامة مع باري وصديق آخر حينما اقترب منا رجل يركب دراجة وسألنــا إن كنا نريد أن نحصل على بطاقات السجائر . وكنا جميعاً قد سمعنا الكثير من التحذيرات من أن نتكلم مع الرجال الغرباء ، ولكنني كنت طماعاً . وسمعت

على أن أترك الاثنين الآخرين (اللذين رفضا المجيء) وذهبت مع الرجل. وأخذني الرجل إلى منطقة بعيدة ، ثم إلى غابـــة صغيرة . وحينما دخلنا الغابة ، رأى رجلاً يقف أمام بوابة ويراقبنا . وهكذا فحينما توغلنا في الغابة ، أسند هو دراجتـــه إلى إحدى الأشجار وطلب مني أن انتظره وانصرف . وحينئذ شعرت بالانزعاج ، لأنه كان قد أخبرني أن بطاقات السجائر كانت مدفونة في مكان ما . فزحفت وراءه ، ورأيته مقعياً على يديه وركبتيه بالقرب من حافة الغابة يسترق النظر إلى الرجل الذي كان يراقبنا . وتملكني الخوف فتسللت مبتعداً من الجانب الآخر للغابة وجريت كأرنب كبير . وبعد عدة دقائق قابلت باري وصديقه اللذين كانا قد جاءا للبحث عني مقتنعين بأنني قد قتلت . وربما كان هذا هو ما سيحدث ، أو ربما لم يكن في نية الرجل سوى الاعتداء الجنسي . ولكن لو أن الخطر كان قد اقترب مني لمـــا شعرت به . فلم اتوقع أبداً أن يحدث لي شيء فظيع . ولم يحدث أبداً أن وقع لي شيء من هذا القبيل .

ورغم هذا فقد كنت أعرف أن العـــالم يمكن أن يكون مكاناً مليئاً بالخيانة والغدر . ولقد حدث دائماً أن ضربني أو استأسد علي صبية يأتون من الأحياء القذرة الذين ربمـــا كانوا يتشجعون بخوفي الواضح منهم . ولذلك ، فطالما تعودت في السرير وفي أثناء الليل أن أحكي لباري قصصاً طويلة عن صبي خارق القوة يدعى توم بيري ، يقطن قلعـــة في براري الغرب ويقود عصابة من رعـاة البقر تضم أبطـالاً مثل باك جونز وكين ماينارد ، وأنه كثيراً ما أنزل الهزيمة بعصابات صبيـــة الأحياء القذرة المهلهلين ، بيد واحدة .

وفي خلال طفولتي ، كنت أدرك دائماً هذين الدافعين المتناقضين : الشك في العالم والإحساس بالحصانة والثقة الكاملة . ويبدو لي أن هذا الدافع الأخير دافع هام طالما أنه وثيق الصلة بالثقة التي تأتي من التدليل. ويمكنني

أن أتذكر عدداً كبيراً من المناسبات التي حدث فيها أن أردت أن أفعل شيئاً ما ، وفعلت ما أردته بسهولة أدهشتني — سهولة غريبة بطريقة ما على الجانب الذاتي والمستبطن مني . وحينما كنت طفلاً في الخامسة لقنني أبي وجدي بعض القصائد والأغنيات ، ونشيداً كان المفروض أن يكون جزءاً من حديث « يوري ريب » الذي كتبه ديكنز . (وكنت أفترض دائماً أنه رجل صيني حتى قرأت روايـــة « دافيد كوبرفيلد » أخيراً فاكتشفت أن ديكنز كان يكتب الإسم « يورياه هيب »). وكان يطلب مني أن ألقي تلك القصائد والأغنيات وأنا واقف فوق مائدة حينما يزورنا بعض الضيوف . ولم يكن يطلب أبداً من أخي باري أو من أبنـاء عمي الكثيرين أن يفعلوا نفس الشيء ، لكنني كنت لا أمل الشعور بالسعادة لوضعي على المائدة واستئثاري بكل الانتبـــاه . ففي هذا الوضع ، كان بوسعي أن أنقلب خطيباً متحمساً يطوح بيديه وأعلن أنني « رجل متواضع » وأختتم خطبتي بـأن اهدد شخصاً مـــا بأن أعتصر منه الحيـاة كما تعتصر البرتقالة . وبدلاً من كل هذا كنت أغني الاغنيات المضحكة ، وهناك بوجه خاص اغنية تقول « الوقوف خـــارج مستشفى المجاذيب » . وفي سنوات مراهقتي ، وحينما كنت أنظر إلى الوراء لأتأمل تلك النشاطات المختلفة ، كنت أجد أنه من غير المفهوم أنني لم أكن أشعر بالخجل .

وهناك وقائع معينة من حوادث تسلق الأشجار والمشاجرات تبدو انها تنتمي إلى نفس الفئة النفسية . أتذكر الآن صبياً كان الجميع يخشونه ؛ وفي أحد الأيام في المدرسة أخذ يضايقني ، فطرحته أرضاً في فناء المدرسة بسهولة مضحكة . إن فعل الشجار إنما كان ينتمي بصورة ما إلى سلسلة مختلفة من الأحداث عن تلك الأحداث التي كونت شخصيتي الطبيعية . كان الشجار يبدو حتمياً ، ولا يسبب خطراً ، مثل السير أثناء النوم .

ومع هذا فقد عرفت أن هذا الإحساس بالثقة قد يكون إحساساً مخادعاً .

فبالقرب من بيتنا كانت هناك قنطرة عبر مجرى صغير وكان الترام يمر من فوقها . وحينما ألغي الترام أُسيء استخدام تلك القنطرة حتى لم يبق فيها غير قضبان الحديد عبر المجرى المائي . وفي أحد الأيام تسللت لكي أسير فوق القضبان فأخذت انقل قدمي محاذراً خطوة بعد خطوة . وبعد أن عبرت المجرى دون أي حادث ودون أن أواجه خطر السقوط ، عبرت مرة ثانية ولكن بخطوة أسرع من الأولى . وأخيراً أصبحت قادراً على الجري فوق القضبان بسرعة تقرب من سرعتي في الجري على الأرض الصلبة . وفي أحد الأيام كنت أسير محاذراً فوق القضبان وكنت اتحدث مع أحد الأصدقاء كان يسير عن شمالي ؛ ولما أدرت رأسي إلى اليسار لم أعد أستطيع أن أرى موقع قدمي فخطوت خطوة خاطئة . وحاولت أن احافظ على توازني ، ولكن هذه التجربة علمتني ما في المغالاة في الثقة من خطورة . وبعد بضعة أيام من هذا الحادث سقط أحد أصدقائي من فوق القضبان وآذى نفسه إيذاء بالغاً لاصطدامه بالصخور المدببة تحت المجرى ، الأمر الذي ضاعف إحساسي بخطورة السير فوقها . فكففت عن السير فوق القنطرة المحطمة .

هذه وقائع تافهة ؛ ولكنني احاول أن أضع اصبعي على ما يكمن وراءها . هل ينطلق رجال العمل الخاطف — من نوع نابوليون وهتلر — في طريق حياتهم كلها بهذه الطريقة التي تشبه نشوة السير أثناء النوم والتي لم أجربها أنا سوى مصادفة ومرات قليلة ؟ فإذا صح هذا فما هو معنى النشوة ؟ أيكون مثل هؤلاء الرجال — مثلما قد يقول بيتس — أدوات في أيدي قوة روح التاريخ ؟ من المحتم أننا نعيش الجانب الأعظم من حياتنا طبقاً لحساب دقيق ، بروح الحذر والقلق ، وفي استعداد دائم لمواجهة الهزيمة أو على الأقل لمواجهة لحظات التراجع المحزنة . إن عالم الأمراض العصابية والنفسية منعكس في كل فنوننا وآدابنا ؛ وقد يبدو أن هذا العالم هو جوهر وعينا في القرن العشرين . وحتى بالنسبة للمتشائم الكامل ،

المؤرخ الذي ينظر إلى شبنجلر[1] أو إلى توينبي[2] باعتبارهما « يقرآن على أوراق الشاي » فعلى الأقل لن يكون هناك شك في أن بلايين من العقول المراقبة إنما تعكس روح هاملت ، ولو لم يكن هناك معنى حقيقي يكمن وراء عبارة « روح العصر » . الأمراض العصابية هي الأمراض التي تنشأ من اليقظة الأكثر مما هو مطلوب . والناس الذين فقدوا القدرة على النوم قد يشعرون بنوع من الحسد الخرافي تجاه من يسيرون أثناء نومهم . أهذا هو السبب في أننا نعيش في عصر الديماجوجيين و « المعبودات الشعبية » ، في عصر هتلر ومارلين مونرو ؟ أتكون حروب القرن العشرين هي انعكاس الاحتياج إلى آلهة ؟ إن رجل الفعل الخاطف ، الذي يتحرك بدقة قائد سيارة السباق ، لا يستطيع أن يكف عن إدراك أنه يتجنب الموت بنعمة الآلهة وحدها . (وقد حدث أن مارست نفس الإحساس حينما اضطررت إلى قيادة السيارة في الليل لمسافات طويلة) . ومن هنا فإن الخطر يصبح طريقة لإعادة تأسيس الإحساس بالآلهة وتهدئة الذات المجهدة المتوترة وإغراقها في نشوة السائر في النوم . ومن هنا يبرز هؤلاء الشواذ المدهشون من مثل ت. ي. لورنس ، وسانت اكزوبري وإرنست هيمنجواي — بل وحتى المرحوم جيمس دين . ويصبح الموت العنيف أيضاً أمراً حتمياً ولا يمكن تجنبه .

---

١ شبنجلر Shpingler (١٨٨٠ — ١٩٣٦) ، فيلسوف ألماني ، كان كتابه « انهيار الغرب » هو أشهر أعماله في الفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ ، وفيه تنبأ بانهيار الحضارة الغربية بسبب العوامل العنصرية وبسيادة الأجناس غير البيضاء ما لم تنقذ أوروبا نفسها بالفاشية . بالطبع تحول شبنجلر إلى أحد الركائز التي بنى عليها النازيون أفكارهم . (هـ . م).

٢ توينبي Arnold Toynbee (١٨٨٩ — ١٩٦٧) مؤرخ بريطاني وأستاذ للتاريخ في جامعة لندن ، كان أشهر كتبه « دراسة للتاريخ » الذي درس فيه أكبر ست حضارات عالمية ، هو العمل الذي وضع فيه أفكاره عن التطور الدائري للتاريخ ودور الفكر والبطل في هذا التطور . يعد من آخر المؤرخين المثاليين في الغرب ، رغم نزعاته الأخلاقية النبيلة التي جعلته سياسياً تقدمياً ونشطاً . (هـ . م .)

ومع ذلك ، فإن رمز طفولتي لم يكن أبداً هو ضجيج السباق الصادر عن لورنس أو سانت أكزوبري ، ولكنه كان حوض ديوجينيس . أي أن أرسي لنفسي دعائم استقلال كامل ، مثل شاب يدعى هابكري هودج حكيت قصته في مجلة « الروفر » أو في مجلة اخرى مشابهة من مجلات الأولاد التي كنت أفضلهـا ، وهو الذي كان يعيش في برميل ويصطاد السمك بأن يربط خيط الشص في اصبع قدمه ثم يغرق في النوم . وحينما افكر الآن في طفولتي مرة ثانية ، واحاول أن أستخلص ذلك الدافع مرة ثانية ، يبدو لي أن حياتي قد وقعت تحت سيطرة الرغبة في الوصول إلى نقطة معينة ، لا مناص من بلوغها .

الفَصلُ الثَالث

الحوافز

يعلن برنارد شو على لسان جاك تانر أن أعظم ثورات طفولته كـان « مولد العاطفة الأخلاقية » ؛ وحتى ذلك الحين ، كان قد مارس الكذب والسرقة « دون ضمير يزيد على ضمير الثعلب في مزرعة لتربية الدواجن ». وأكاد أتذكر أن برنارد شو يحدد مولد تلك العاطفة في سن الرابعة عشرة أو نحوها . أما في حالتي ، فقد ولدت هذه العاطفة قبل هـذه السن . وقد أكون ميالاً إلى أن أسمي ما حدث عندئذ بمولد اللامبالاة أو عـدم الاهتمام ، ذلك لأن كل أكاذيب طفولتي (وقـد كذبت كذباً مهولاً ودون تحفظ) كانت تهدف إلى إثارة اهتمام الكبار والتأثير عليهم .

وحينما بلغت العاشرة ذهبت لكي استحم في قريـة ميدلتون بالقرب من كوربسي مع خـالتي كوني (شقيقة والدتي) وزوجها العم فرانك كارليل . وحينما أزمعت الرحيل بعد أسبوعين ، أهداني العم فرانك مجلداً يدعى « أعاجيب العلم وألغازه » كان ثمنـه خمسة شلنات ، وكان مليئاً بصور النجوم ومساقط المياه ، وغيرها من الأشياء المثيرة . وذات صباح ، وأنا مستند على سريري ، قرأت الفصل المخصص للحديث عن الكواكب ،

وعرفت نظرية البروفيسور لويل القائلة بأن المريخ ربما كان يسكنه جنس عاقل وقادر على حفر القنوات المستقيمة استقامة الطرق الرومانية . وبدت هذه الكلمات كما لو كانت مجموعة أخرى من تلك المعلومات القيمة الجديرة بالنظر والتي كان من الواجب على الكبار أن يخبروني بها وأنا في الخامسة من عمري ، ولكنهم لسبب ما امتنعوا عن ذكرها أمامي . وبدأت في قراءة كل ما أعثر عليه في المكتبة المحلية عن علم الفلك .

وحتى ذلك الحين لم يكن يثير خيالي أو يحفزه إلى التفكير شيء أكثر من الموت والعنف . وكنت معروفاً لدى صبية الجيران بأنني قصاص الحكايات المرعبة التي كنت اخترعها أو اؤلفها بأن أمزج بين مواقف الرعب التي استخلصها من القصص المخيفة التي أقرأها ؛ وكانت تلك القصص تتضمن في العادة أشياء من قبيل فرانكشتين والأفاعي الملازمة للموتى ومصاصي الدماء ، وغالباً ما تتضمن هذه المخلوقات جميعاً .

ومع النمو المفاجىء لاهتمامي بالعلم ، أصبحت أزدري قصص الرعب، ولا بد أنه في هذا الوقت تقريباً حدث أن أعطاني جدي مجلة قديمة للقصص العلمي ، قرأتها وأنا أشعر بأنني أقوم بكشف جديد . فأصبحت مدمناً على قراءة القصص العلمي ؛ ورحت أبحث عن المجلات العلمية بجنون أو سعار كسعار مدمن الخمر في البحث عن الويسكي . ولم تكن هذه المجلات سهلة المنال في أثناء الحرب ؛ ولكن كانت هناك مكتبات كثيرة تعمل بطريقة المبادلة ؛ فهي لم تكن تبيع ما لديها من مجلات علمية ؛ ولكن إذا كنت تملك مجلة فتستطيع أن تبادلها أي عدد من المرات تريد لقاء رسم صغير من بضع بنسات . ولكنني لم أكتف بمبادلة مجلاتي ؛ كنت أريد أن أقتني مجموعة كاملة ؛ وهكذا ففي خلال السنة التالية أو نحوها حولت كل مهارتي كلص إلى هذا الميدان واستخدمتها إلى أقصى ما أستطيع . وفي مناسبتين أو ثلاث ، كان صاحب المكتبة على وشك أن يراني وأنا أوشك

على إلقاء المجلة التي أريدها تحت سترتي ؛ ولكن مجموعتي تزايدت حتى صار لدي مـــا يقرب من ستين مجلة ، من نوع « قصص مدهشة » ، « قصص الرحلات المثيرة » ، « المجلة الخيالية » وغيرها . ولا أستطيع أن أذكر كم من السنوات لازمتني فيها هذه الشهوة ، ولكن من المؤكـد أنها كانت سنوات عديدة .

وفي نفس الوقت تقريباً — وفي مناسبة عيد الميلاد الحادي عشر أو في مناسبة عيد الميلاد — اشترت لي أمي معملاً كيميائياً صغيراً . فاشتغلت موزع جرائد لكي أحصل على النقود اللازمة لشراء أنابيب الاختبار والمواد الكيماوية (ومرة أخرى كانت هذه مسألة صعبـــة في أثناء الحرب) ؛ وحولت حجرة خالية من حجرات المنزل إلى معمل . واشتكى كل فرد من أفراد الاسرة ؛ وفاحت من المنزل روائح مواد الكلورين وفوسفوريت الهيدروجين . وأنفقت كل أمسية من أمسيات أيام السبت وأيام الآحـــاد كلها في معملي ، أنتج الروائح والانفجارات . وكان اكتشافي للخاصية الانفجارية لمادة كلوريد البوتاسيوم المخلوط بالسلفات إذا ما ضربت بالمطرقة بشدة ، كان هذا الاكتشاف بداية نوع من الجنون يبدو أنه انتشر حتى ملأ ليسستر كلها . كان من الممكن أن أحصل على كلوريد البوتاسيوم في صورة نقية تقريباً في أقراص علاج التهابات الحلق . وفي أثناء شتاء عام ١٩٤٢ اهتزت منطقتنا بأصوات الانفجارات . وكان بوسعي أن أصنع قنبلة من نوع ما بأن أخلط كميتين كبيرتين من هذه المواد وأضعها في « جوزة » من ثمار البلوط مع حصاتين كبيرتين . ثم ألقي القنبلة عالياً في الهواء ، حتى إذا ارتطمت بالأرض انفجر المخلوط وطارت الحصاتان بقوة في أي اتجاه ؛ وتحطمت نوافذ كثيرة بهذه الطريقة . وأظنني أيضاً مسؤولاً عن انتشار وباء استخدام كربونات المعادن . فقد كان كربون البوتاسيوم يباع في صفائح لدى اكثر محلات الأدوية والبقالة المتنقلة ؛ وإذا أسقط هذا الكربون المعدني في الماء فإنه ينتج غاز الأسيتيلين القابل للاشتعال . ومن

الممكن انتاج طاقة انفجارية قوية إذا أسقطت كربون البوتاسيوم في صفيحة وضع فيها مقدار نصف بوصة من الماء ثم تقفل الصفيحة بإحكام . فإذا صنعت ثقباً صغيراً في الغطاء ، وقربت شعلة نار صغيرة من الثقب لاستطاع مزيج الهواء والأسيتيلين أن يقذفا بالصفيحة إلى ارتفــاع عشره أقدام في الجو ، وربما انفجرت الصفيحة وتمزقت . وكانت التجربة الأكثر خطورة هي أن أمزج الكربون المعدني بالماء في زجاجة ذات غطاء لولبي (قلاووظ) ثم أضعها فوق حافة حائط قريب وأقذفها بالحجارة فاذا كان الضغط قوياً بما فيه الكفاية ، انفجرت الزجاجة قبل أن يصيبها الحجر ؛ وعلى أي الحالين فإنها ستنتج انفجاراً قوياً إلى درجــة مرضية . ولقد حدث أن حطمت نافذة على بعد خمسين قدماً حينما استخدمت زجاجة قوية قوة غير عادية لاجراء التجربة ؛ وأخرج الانفجار أيضاً كل الجيران من بيوتهم فزعاً . وكان على حارس مدرستنا أن يضاعف جهده في العمل لكي يغسل زجاجات الحبر ويعيد ملئها لأن الحبر فيها كان قد تحول إلى معجون طيني اللون بفعل الكربون المعدني ؛ وأخيراً انتهى هذا الجنون أمــام مواجهة لتهديد بالطرد النهائي من المدرسة .

وبهدف استكمال هذه النقطة علي أيضاً أن أضيف قولي إن ليسستر قد اصيبت بوباء قصير الأمد من سرقة حبال المتفجرات المسماة « الكوردايت » . فقد اكتشفنا ان الجيش يخفي في مناطق متفرقة من الريف المجاور حقائب حريرية مغلقة ومليئة بأشرطة الكوردايت . وفي أحد الأيــام خرجت مع صديق لي على دراجة إلى منطقة قريبة دفنت فيها المتفجرات وعدنا باثنتي عشرة حقيبة أو نحوها ملئت بالكوردايت . ولكن الكوردايت خيب أملنا ؛ فرغم أنه كان يحترق احتراقاً يكفي لأن يجلب لنــا المرح ، ولكننا مهما حاولنا لم نستطع أن نجعله ينفجر . وفي احتقار شديد بدأنا في إشعال أطراف أشرطة الكوردايت وتطويحها في الهواء . واقترب منا شرطي وسألنا عما نفعله ؛ فأخبرناه بأننا نطوح في الهواء أعواد الثقاب المشتعلة . ولحسن الحظ فإنه

لم يبد أي شغف لاكتشاف حقيقة ما نفعله ، ولم يفكر في البحث عنا بعد ذلك ، ولا حتى في أن ينظر إلى بقايا « أعواد الثقاب » نصف المحترقة والملقاة على الأرض . وبعد بضعة أيام ، تعرضت مدرستنا لحملة تفتيش شاملة ، وطرد ستة من التلاميذ لمدة فصل كامل بتهمة سرقة الكوردايت. ولحسن الحظ فإن اسمي وإسم زميلي لم يرد لهما ذكر ، رغم أنني كنت معروفاً في المدرسة كلها بأنني موجه أعمال الانفجارات والمتفجرات . وكنت أضع هذه المتفجرات إما من مزيج البارود والمغنيسيوم مع أملاح مختلفة من مركبات الاسترونيوم أو الكوبالت أو الزنك ، لكي أنتج ألواناً مختلفة من اللهب ، وإما أن أقنع جدي — الذي كان عضواً في جماعة الانذار من الغارات (الدفاع المدني)— لكي يسرق لي شيئاً من المركّب الذي كانت الجماعة تستخدمه في تدريباتها على مقاومة القنابل . وحصلت على كمية كبيرة من النقود لقاء بيع متفجراتي البسيطة في لفافات ثمن الواحدة منها ثلاثة بنسات ، وخاصة ان ليلة « النار المقدسة » قد اقتربت وكان من المستحيل شراء الألعاب النارية من الأسواق لظروف الحرب .

ومع هذا ، ورغم أنني قد ضاعفت مجموعتي من المجلات المتخصصة في القصص العلمي ونميت معملي الكيماوي من خلال طرق غير مشروعة إلى حد كبير ، فما زلت أعتقد أن « العاطفة الأخلاقية » التي تحدث عنها شو هي ما تولدت في داخلي عندما اكتشفت العلم . لقد تغير شيء ما في الصورة التي كنت قد رسمتها لنفسي عن العالم . لقد اختفى الخوف واختفت الظلمة . وبدا لي أنني قد أدركت المصير الانساني أخيراً . فبوجه عام ، ربما كان الإنسان مخلوقاً جديراً بالازدراء ، ولكن هذا كان بسبب أن أكثر الناس قد بلغ بهم الكسل مبلغاً يجعلهم أبعد من الاهتمام بأي شيء وراء احتياجاتهم الفورية المباشرة . ولم يحدث أبداً أن قابلت شخصاً مهتماً بالأفكار أو بالمعرفة من أجل الأفكار أو من أجل المعرفة ذاتها — فان هذا النوع من الناس ما يزال نادراً بين أبناء الطبقة العاملة — إلا أنه كان من

الممكن التقليل من جوانب القصور الإنسانية بالتكريس المثالي للمعرفة . وبالنسبة لي ، كان العالم هو بطل دراما المصير الانساني . وقد قرأت كتاباً صغيراً لبرتراند راسل[1] يدعى « الدين والعلم » ، فوضع هذا الكتاب تلك المشكلة أمام عيني . فقبل مجيء العلم كان الجنس البشري واقعاً تحت وطأة سيطرة الطغاة ، والكذابين والمتعصبين ؛ أما الآن فبوسع الانسان ألا يستسلم للقهر ، فإن روح العلم العظيمة لا يمكن أن تقتل . وقد حاولت الكنيسة جاهدة أن تقتل هذه الروح ، ولكنها الآن قد جرفها الطوفان . وما زلت أحمل الكثير من الذكريات السيئة عن كنيسة كبيرة باردة ، وساعات من الترانيم والانشاد ، وتبادل التفاهات الأخلاقية وتسويقها الواسع كما لو كانت هذه التفاهات والترانيم هي اكسير الحياة .

ولا أستطيع أن أتذكر الى أي مدى تأثر هذا الاتجاه عندي بقراءة هـ . ج . ويلز[1] ، رغم أنه كان الكاتب الذي استأثر بأكثر اعجابي . وأعتقد أنني لم أكن أعرف سوى ويلز كاتب القصص ولم أكن أبالي بويلز النبي . وقد اشتريت بضعة من الأجزاء التي كانت تصدر أسبوعياً من كتابه « ملخص التاريخ » من أجل لوحاتها الملونة ، وأصابتني خيبة

---

١ برتراند راسل Bertrand Russel (١٨٧٢ – ١٩٧٠)أشهر الفلاسفة الوضعيين التحليليين الانجليز في القرن العشرين . عرف بدراساته في المنطق والرياضيات . ويعد كتابه « أسس الرياضة » أساساً للمنطق الرياضي الذي ساد الفكر التحليلي الغربي في هذا القرن . كان داعية للسلام منذ الحرب العالمية الأولى ، وتسبب موقفه من الحرب في مشاكل عديدة بينه وبين السلطات الانجليزية والأمريكية . كان له موقف فردي مستنير من قضايا الأخلاق والزواج وبناء الأسرة . وهو من دعاة التعارض بين العلم والدين على أساس حسي منطقي.صدر الكتاب الذي يذكره المؤلف عام ١٩٣٥ . هـ . م .

٢ هـ . ج . ويلز Herbert George Wells(١٨٦٦–١٩٤٦) كاتب وروائي انجليزي، عرف بكتاباته الكثيرة في القصص العلمي ، وتحليل التاريخ البشري من وجهة نظر تربط بين العلم والثقافة ، وقيادته للجمعية الفابية الانجليزية ، وموقفه المعادي للجرب ، وتنبؤه بعصر الذرة والفضاء . (هـ . م .)

الأمل عندما اكتشفت ان ويلز العالم يعالج موضوعاً تافهاً مثل التاريخ » .

كان هذا هو جوهر جاذبية العلم بالنسبة لي : فقد قسم العلم العالم بوضوح إلى نصفين : الجوهري والتافه . ولم تكن « الحقائق » جوهرية إلا بمقدار ما تكون أساساً صالحاً للوصول إلى تعميم شامل . أما كل الحقائق التي لم يمكن لي أن اعمها – وهي التي تتضمن ٩٩ بالمائة من حياتي ككائن إنساني – فقد كان من الممكن أن أصرف النظر عنها وأنا آمن مطمئن .

وهذا أمر هائل الأهمية بالنسبة لشخص ذي خلفية تعود إلى الطبقة العاملة ، وهي أهمية لا يستطيع أن يدركها أعضاء الطبقات الوسطى إلا بصعوبة بالغة . هناك مشهد في مسرحية جون أوزبورن « المسامر »[1] حيث تصاب ربة البيت بنوع من الهستيريا لأن شخصاً أكل شريحة من الكعكة التي كانت تحتفظ هي بها لشخص آخر ؛ وحينما شاهدت المسرحية أعادت إلى ذاكرتي أسوأ عناصر طفولتي بواقعية أثارت اشمئزازي ونفوري. فإذا عدت الآن بذاكرتي إلى اكثر مشاهد طفولتي ومشاجراتها عنفاً ، فقد كانت أسبابها دائماً تمثل تفاهة هذه الشريحة من الكعكة . إنني لأذكر محادثات لا نهاية لها تدور بصوت عال في السيارات العامة أو تسمع من البيوت المجاورة ، ومئات من المماحكات حول سفاسف الأمور ؛ ولكن أكثرها كان يتحول أمامي إلى نوع طاغ ومتوحش من التفاهة ؛ التفاهة الطفيلية التي تأكل في طريقها كل القيم . وفي الفترة التي حققت فيها أعظم تمرد عليها وخلاص منها – في منتصف عقدي الثاني – كان مجرد سماعي لصوت يحمل لكنة أهل ليستر كافياً لأن يملأني بإحساس ممض من الاشمئزاز والقرف .

---

[1] المسامر The Eentertainer إحدى المسرحيات الشهيرة للكاتب المسرحي الانجليزي المعاصر جون أوزبورن ، الذي فجر موجة « الغاضبين » في انجلترا بمسرحيته « انظر خلفك في غضب » . ه . م .

كان معنى العلم هو التحرر من كل هذا ؛ وعلى عكس الدين كان نسق قيمه بارداً ومحصناً لا يمكن هدمه. لقد قال لنا أعضاء جماعة شهود يهوه [1] الذين جاؤوا إلينا إن كل أتباع الكنائس الأخرى كانوا على خطأ ، وأن بعض الفرق الدينية الاخرى ، والكنيسة الكاثوليكية أيضاً على سبيل المثال ، كانت أدوات لأعداء المسيح. أما العلم فقد وقف بعيداً أو متعالياً على كل هذا التشاحن الفارغ مثلما يقف الشخص الكبير العاقل بين مجموعة من الصبية الأشقياء .

وهذا هو السبب الذي جعلني أبدو كما لو كنت قد أصبحت شخصاً جديداً ، وجعلني أشعر بنوع جديد من السعادة لاستعارة المجلدات الضخمة في الكيمياء غير العضوية من المكتبة ، أو لقراءة بعض المقالات العلمية المبسطة حول السيكلوترون [2] (وبعد سنوات ، حينما أعلن المذيـــاع خبر إسقاط القنبلة الذرية ، رحت أجري حول الغرفة مستثاراً وقلقاً ، وشعرت بما يمكن أن يشعر به أحد شهود يهوه إذا سمع نفير القيامة ينفخ في الصور ليوم الحساب الأخير .)

* * *

---

[1] شهود يهوه Jehovah's Witnesses أعضاء جمعية تلاميذ الكتاب المقدس ، التي أسسها تشارلز راسل تيز ، القائد الديني والمبشر الأمريكي (١٨٥٢–١٩١٦) الذي عرف باسم «راسل الراعي»، وتقوم تعاليمه على فكرة أن المسيح المنتظر قد عاد دون أن يلحظه أحد في عام ١٨٧٤ ، وأن العالم ستجتاحه بعد ذلك بأربعين سنة مرحلة من الفوضى والثورات الاجتماعيـة ، وأن هذه الفترة ستنتهي بإقامة مملكة المسيح على الأرض . فإسم الجمعية مستمد من « رؤية المخلص » التي لم تتم في حينها ، وستتم بعد إقامة مملكته . (هـ . م .)

[2] السيكلوترون Cyclotron– جهاز ألكتروني يهدف إلى محاولة السيطرة على الطاقة الذرية ، فهو ينتمي إلى مجموعة « المعجلات » الذرية التي تستخدم الجهد الكهربائي المرتفع بهدف الزيادة من سرعة البروتون (الحبيبة الذرية) وتوجيهه إلى نواة الهدف الذري لتفجيره . اخترع هذا الجهاز العـالم الذري الأمريكي إرنست أورلاندو لورنس (١٩٠١ – ١٩٥٨) من جامعة كاليفورنيا . (هـ . م .)

وفي المدرسة أصبحت « تابعاً أليفاً » للمدّرس في قسم العلوم . وفي خلال السنة الأولى في المدرسة الثانوية ، وهي مدرسة جيت واي — كنت تعيساً واختتمت العام الدراسي وأنا أحتل المركز الأخير من الصف كله؛ ولكن حينما أحرزت الدرجة النهائية في الكيمياء ، تحسنت درجاتي في كل المواد الأخرى ، بما في ذلك مادتي اللغة الفرنسية والجغرافيا . وكان تحول مشابه قد حدث قبل ذلك بعامين حينما وعدني صديق لأبي بنصف جنيه إنجليزي إذا أنا حَصلت على الدرجات التي تجعلني على رأس قائمة الصف المدرسي . وفي خلال الليل تحولت من تلميذ متوسط للغاية إلى نوع من الطفل المعجزة؛فيبدو أن قدراتي كانت تعمل إلى أقصى طاقتها على أساس التفاؤل (وأنا واثق أنه لا بد أن يكون في هذا نوع من الهدف الذي يمكن أن يتبناه رجال التعليم ، ولكنني لا أستطيع أن أحدد هذا الهدف في الوقت الحاضر) .

وظل إسم إينشتين يتردد في مجلات القصص العلمي ، ولذلك فقد استعرت من المكتبة بعض الكتب عن نظرية النسبية وشرعت أجاهد لقراءتها وفهمها . لقد استحوذت علي سمعة إينشتين الشعبية فخدعتني عن أفكاره . ولكن كتاب أبوت[1] « الأرض المسطحة » وكتاب جينز[2] « الكون الغامض» أعطياني أساساً قوياً لفهم الموضوع . وقد استمتعت بفرصة أن أصحح لمدّرس الطبيعة في المدرسة شروحه للمشكلات المتعلقة بسرعة الضوء .

والآن ، إذ أنظر الى المسألة كلها من بعيد ، يمكنني أن أرى أنني لم أكن نصف الطفل النابغة الذي ظننتني إياه . فقد كان نوع المعرفة التي

---

١ . ٢ أبوت وجينز **Abbot & Jeans**، من علماء الفلك المحدثين ، اشتهرا بكتاباتهما المبسطة في علم الفلك الحديث ، التي شرحا فيها النظرية النسبية شرحاً مثالياً مرتبطاً برياضيات القرن الماضي ، وقد ترجم في ج . ع . م . إلى العربية كتابا « [illegible] مسالكها » ، و « الكون الغامض » لجينز . (هـ . م) .

جعلتني متناول أي صبي مجتهد في الحادية عشرة دون أن تكون لديه ذرة واحدة من المقدرة العلمية الحقيقية . ولكن هذه المعرفة كانت صحيحة أيضاً لدرجة أن شيئاً لم يتمكن من إرباك عقلي أو ملئه بالأوهام . ولقد تعودت على أن أنظر إلى نفسي باعتباري طفلاً نابغة ؛ وأصبحت هذه النظرة عادة عقلية حصنتني ضد نزعة « زيف اللامعنى » السائدة . وقد أجاب نيتشه على السؤال القائل : « لماذا أنا ماهر إلى هذا الحد ؟ » بقوله إنه لم يضيع وقته أبداً أو طاقته على الأسئلة المتعلقة بالأخلاق أو الضمير . فإذا كان علي أن أجيب على السؤال نفسه ، لربما قلت مجيباً: لأنني لم أضيع وقتي أبداً على التواضع .

ولقد تحدثت في مكان آخر عن التأثير الغريب الذي كان لأينشتين علي. ولم يعد بوسعي أن أعيد تصوير العملية التي انتقلت من خلالها من النسبية العلمية إلى النسبية الأخلاقية . ولا شك في أنها قامت أساساً على الاحتقار البالغ للكبار . وكان على هذا الاحتقار أن يعقل أو أن يقوم على أساس من الفكر ، وهكذا فقد خلقت مفهوم « التفوق » . لقد بدا لي واضحاً أن كل البشر تدفعهم الرغبة في اعتبار أنفسهم مخلوقات غير عادية . ولما كنا جميعاً أكثر من جميع الآخرين إدراكاً لوجودنا الخاص ، فإن لكل منا أساساً يقوم عليه إحساسه بالتفرد . ولكن يحدث أحياناً أن تصبح ذاتية الفرد هي الحصن الأخير لإحساسه بالتفوق . ويذكرني هذا بفكاهة تقال عن المحلل النفسي الذي قال لمريضه : « لقد اكتشفت السبب الحقيقي لمركب النقص الذي تعاني منه ، وهو أنك ناقص » . وعندئذ تشرع قوة الخداع الذاتي في القيام بعملها . ففي الحالات المتطرفة ، تستطيع هذه القوة أن تجعل رجلاً ما يصدق أنه نابوليون ؛ ولكن عادة ما تكون الأوهام الذاتية أكثر اعتدالاً من هذا المثال ، ولا تتسبب في أي ضرر اجتماعي . فكم من المرات سمعت أصدقاء أبي يقولون في مناقشاتهم : « والآن ، استمع إلي — » بينما يعني القائل أن يقول : « أنا أعرف . » !

كانت هذه صورة مزعجة : إنه عالم من الناس المصابين جميعاً بالجنون المطبق أو المعتدل ؛ وهم مصابون بالجنون لأن الإنسان لا يملك القــدرة عــلى أن يكون أميناً . ولكن لنفترض ان هنـاك شخصاً واحداً اميناً – فماذا يحدث ؟ كثيراً مـا ناقشت هذا الأمر مع كل من ابدى استعداداً للاصغاء إلي – ومن الكبار بوجه خاص . وكانوا يقولون لي إنني لم أنضج بعد أو إنني مغرور . ودفعتني الرغبة في الأمانة إلى أن أرفض الاستسلام للحتمية التي نتمسك بمقتضاها بأوهامنا الذاتية لكي نشرع في الفعل ؛ وهكذا فقد انطويت على نفسي .

* * *

لقد كنت مستغرقاً تماماً في عالمي العلمي لمدة عامين تقريباً حينما بدأت التغيرات . وكنت أعمـــل في كل مساء في توزيع الصحف . وقبيل عيد الميلاد في عام ١٩٤٤ ، فتح صديق لي الباب حينما كنت على وشك أن أضع الجريدة ، ودعاني إلى الدخول . كانت هناك ثلاث فتيات في المنزل: جلاديس ، وماي ، وبيتي (التي كنا ندعوها جينجر) ، وكن يرتدين المعاطف الزرقاء الخاصة بتلميذات بمدرسة « الفن والتطبيق » وهي المدرسة المواجهة لمدرستنا ، جيت واي الثانوية . وكان صديقي آندي هو صديق الفتاة جلاديس . كـــانوا يقومون بواجباتهم العلمية المنزلية ، وكانوا في حاجة إلى بعض المساعدة . وتملكتني السعادة . وفي المساء التالي كانوا ينتظرونني ، وذهبت اليهـــم مرة أخرى . وبدا لي أنني قد رقت في عيني ماي التي كانت فتاة على شيء من الخجل ، ممتلئة وجميلة . أما جلاديس فكانت أكثر حيوية وهي التي فضلتها ، ولكنها لما كانت « مملوكة » لآندي ، فقد كنت على استعداد لأن اتماشى مع ماي . كانت المسألة كلها بريئة مما فيه الكفاية ، فكنا نذهب الى المدرسة معاً في الباص كل صباح ؛ وكنا نذهب إلى السينما في أمسيات أيام الأحد ، ثم نتبادل قبلات الوداع

المرتبكة فيما بعد . وقبيل عيد الميلاد ذهبنا الى حفلة المدرسة الراقصة معاً. وهناك تشاجرت جلاديس مع آندي ، وعرفت أن جلاديس كانت تفكر في الانتقال إلي . وكان هذا الموقف جديراً بأن يؤدي بين الكبار إلى الثورة وتبادل الضربات ؛ ولكننا في سن الثالثة عشرة أكثر تمديناً في مواجهته . وأصبحت جلاديس صديقتي رسمياً ، ولكن آندي وماي حافظا على وحدة المجموعة وعلى تكوينها الرباعي .

ولم يحدث الكثير تبعاً لهذه الحكايـــة ، سوى أنني اكتسبت لقباً في المدرسة باعتباري ساحر النساء ، الأمر الذي أرضى غروري . وكنا نجتهد أن نقابل الفتاتين أكثر من مرة في كـــل يوم ، طالما أن أولاد مدرسة جيت واي كانوا يقضون قدراً كبيراً من الوقت عند مدرسة الفن والتطبيق.

ولكنني أصبحت واعياً بعمق وللمرة الأولى بقوة الجنس . كنت ما أزال متطهراً متزمتاً ، وكـــان تبادل القبلات بشفاه محكمة الاطباق هو فكرتي عن أقصى حد ممكن للتبادل الجنسي بين الرجل والمرأة . ولكن كل الأولاد من سني وممن أعرفهم بدوا أكثر تقدماً مني في شؤون الجنس ، وكنت أعرف مـــا الذي يحدث في كل أمسية من أمسيات الأحد في السينما حينما تطفأ الأضواء . وكانت هناك فتاة في الثالثة عشرة تسكن بالقرب من منزل جلاديس وكانت تنام مع الجنود الأمريكيين وجمعت قـــدراً كبيراً من المال . وكان الجنس يشكل جانباً دائماً في حديثنا . وتطور الصراع الحتمي؛ كنت أود أن أحصل على أنواع أكبر من الحرية مع جلاديس ؛ ولكن الخجل كان يمنعني . وكان صديق سابق لها أقل مني تخلفاً ؛ وفي الحقيقة فإنها كانت قـــد اضطرت إلى التخلي عنه وهجره لأنه كان قد حاول اغتصابها . وظلت الفكرة تطاردني بإلحاح حتى استطعت أخيراً أن أتعرف عليه . يدفعني إلى ذلك دافع خفي لم أجد وسيلة لفهمه . وأثبت هو أنه شخص لطيف ، مرح ، غير معقد ، ولم يكن صاحب ذكاء متميز .

وفجأة تماماً ، مررت بفترة من البذاءة اللغوية كانت دون شك تعبيراً عن الكبت والاحباط . كنت منقسماً على نفسي انقساماً تامــاً فيما يتعلق بالجنس ؛ وقد انعكس هذا على علاقتي بجلاديس . وبدأت أشعر بلذة معينة في إيذائها ، كما لو كانت هي الملومة والمسؤولة عن كل ذلك . وكنت أعرف أنها كانت ذات خبرة بدائية في شؤون الجنس ، وعذبني هذا إلى حد كبير . وذات مرة رقدت إلى جانبها في الفراش – وكنت أحكي لابنة اختها قصة صغيرة ، وكنا جميعــاً نرتدي كل ملابسنا – وفيما بعد لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور باحتقار الذات لأنني حتى لم أقبلها .

وفي أحد الأيام ، خرج عدد منا إلى بلدة مونت سوريل بالقرب من ليستر . وقامت بيني وبين جلاديس مشادة صغيرة ، فثار أندي واشتد سخطه وقرر أنني أحتاج إلى أن ألقّن درساً ، وهكذا تحداني ثلاثــة من الأولاد للعراك . وقاتلت الثلاثة واحداً بعد الآخر ، واستطعت أن أهزم الأول ؛ وبدأت أشعر بالاجهاد مع الثاني ، ولكني استطعت أن أثبُت لــه لمدة عشر دقائق . وحينما بدأت أقاتل أندي . كانت أنفــاسي قد تقطعت ؛ فضربني ضربة قوية في أسفل البطن فسقطت على الأرض متلوياً وظننت أنني لن أسترد أنفاسي مرة أخرى . وكانت هذه هي بداية النهاية لقصتي مع جلاديس . وبعد بضعة أيــام هجرتني وعادت إلى أندي . (وبعد سنوات تزوجا . ولها الآن عدة أطفال) .

لقد استمرت علاقتي بجلاديس طوال تسعة شهور ؛ ولم يكن بوسعي أن اصدق أن كل شيء قد انتهى . وشعرت بصدمة الاحباط والأسف . وكانت اجازات أغسطس تقترب . وبدأت أقرأ الكتب بمعدل أسرع مما كنت أفعل من قبل . وحينئذ امتلأت بفكرة تأليف كتــاب – كتاب قصير ألخص فيه كل المعارف العلمية في العــالم في شكل جمل قصيرة

محكمة . واشتريت بضعة كراسات للمذكرات ذات أغلفة صلبة ، ومضيت للعمل في خلال شهر أغسطس (آب) من عام ١٩٤٥ لأكتب المقالات في علوم الطبيعة والكيمياء والفلك والجيولوجيا ، والطيران أو الملاحة الجوية ، وهي العلوم التي أضفت اليها فيما بعد الفلسفة والرياضيات . وكانت لدي مكتبة صغيرة من كتب المراجع كانت قد بدأت تتكون بطبعة من ستة مجلدات من كتاب « المعرفة العملية للجميع » كنت قد ابتعته من سوق عامة تقام بالقرب من إحدى الكنائس . ولم أكن أنوي أن يستغرق كتابي في الأصل سوى كراسة صغيرة واحدة من كراسات المحاضرات؛ وأخيراً استغرق الكتاب ستة كراسات . وقبل أن أشرع في الكتابة ، لم تكن لدي أي معرفة بالفلسفة أو الجيولوجيا أو الملاحة الجوية . وحينما بدأت الكتابة في هذه الموضوعات اكتشفت اكتشافاً عجيباً : فقد بدا لي الاحتياج إلى تلخيص الموضوع وتركيزه في صفحات قليلة ، بدا لي هذا العمل وسيلة لزيادة مقدرتي على فهم الموضوع نفسه . فإن شهوراً من قراءة الفلسفة لم تعلمني بقدر ما علمتني بضعة اسابيع من الكتابة فيها .

وعلى أي حال ، فقد كان لذلك التمرين الأثر الذي كنت أريده : فقد كففت عن السعي الخائب وراء جلاديس وعن الحلم العاجز بها .

وحينما حل عيد الميلاد ، كنت قد وصلت إلى المجلد السادس ، الذي كان مكرساً كلية للرياضيات . وتبينت أن فكرتي عن وضع ملخص لكل المعارف البشرية كانت فكرة لا أمل لها . وهكذا فقد تخليت عنها . ولكنني كنت قد تعلمت الكثير من هذا التمرين ؛ فبصرف النظر عن كمية المعارف التي لا فائدة منها والتي التقطتها بالمصادفة ، فانني أيضاً تعرفت على تلك اللذة الهائلة التي يضمنها الانغماس في العمل لتأليف كتاب كامل،

والإحساس بالصحة الداخلية الذي يغمر المرء في نهايـــة يوم من العمل المجهد ، على العكس من ذلك العالم العصابي المعتاد الذي تصنعه أحلام اليقظة .

* * *

كنت ميالاً على الدوام إلى القيام بكل ما أفعله بحماسة متقدة كنت في الحادية عشرة حينما اكتشفت أن بوسعي أن أركب دراجـــة . وفي أيام الآحاد تعودت على أن أستعير دراجة جدي القديمـــة من نوع « رالي » فأمضي بها إلى مسافات بعيدة . وفي بعض الأحيان كنت أخرج مع صديق يدعى جورج باكستر ؛ ولكنني كنت أخرج وحيداً في غالب الأحيان .

بيد أنني لم أستطع أبداً أن أرغم نفسي على القيام برحلة قصيرة على الدراجة تستغرق يوماً واحداً ، وتمتد مثلاً إلى عشرين ميلاً فقط . كما لم أستطع أبداً أن أركب الدراجة ببطء أو سهولة . كان علي دائماً أن أنطلق بأسرع ما يمكنني إلى أبعد ما أستطيع . وفي رواية « عجلات الحظ والصدفة » ، رسم ه. ج. ويلز شخصية راكب دراجـــة ضخم الجسم ساخن الوجدان يشكو إلى مستر هوبدرايفر من أنه لسوء حظه يجمع بين مزاج نشط وحيوي وبين ميل عميق إلى التأمل ؛ وهكذا فبينما يحب أن ينطلق إلى الأماكن البعيدة ليستمتع بالمناظر الجميلة ، فإنه يشعر بالاضطرار إلى أن يبدل بساقيه كالمجنون . وعلى الفور تعرفت على نفسي في صورة راكب الدراجة هذا الذي لا إسم له . إن بعض ذكرياتي عن رحلاتي في الريف على الدراجة لذكريات لطيفة — هناك ظهر القلعة في ووريك مع ضجيج مساقط المياه ؛ وهناك برودة الكهوف في ماتلوك ؛ وهنـاك انخفـاض المسرح التذكاري في ستراتفورد . ولكن ذاكرتي الأساسية إنما تتعلق بقيادة الدراجة في اتجاه معاكس لاتجاه الريح ، لاعناً كل من يركب آلة بخارية أو بترولية ينطلق بسرعة ستين ميلاً في الساعة ، ولاعناً الريح والجنس البشري .

كان هذا هو نوع التمرين الذي كنت أغير به طعم أيام العمل في كتابي « الموجز العام في العلم » . ولم يؤذني هذا التمرين . كنت أبدو كمن يسير على خيط رفيع . وقالت لي امي إنني أستهلك أعصابي ؛ ولا شك في أنها كانت على صواب . ولكنني كنت سعيد الحظ لأنني لم أمرض أبداً في طفولتي (باستثناء أمراض الحصبة والغدة النكفية التي كنا نرحب بها كوسيلة للحصول على اجازة من المدرسة) ؛ وبينما جعلني الاسراف في العمل أشعر بأنني إنسان فاضل ، فإنه أبداً لم يتسبب لي في أي مرض . وكان التأثير الوحيد لكل قراءتي على جسدي ، هو أن جعلتني أكثر إحساساً بقصر النظر عن قبل . ولقد وضعت النظارات منذ كنت في العاشرة — كنتيجة للاسراف في الذهاب إلى السينما (فقد كان جدي وجدتي يعرضان ملصقات الأفلام على نوافذهما ويحصلان لذلك على تذاكر مجانية ولذلك فقد كنت أذهب إلى السينما أكثر من أربع مرات في الأسبوع) .

ولا أستطيع أن أتجاهل أن علي ديناً كبيراً جداً لأفلام السينما . وتبدو لي هذه الأفلام وسيلة للاتصال الجماهيري ذات قوة لا يمكن تقديرها في حياة القرن العشرين — وربما كانت أكثر أهمية من الجريدة ، والمكتبات التي تتبع نظام الاستعارة الحرة ، والإذاعة اللاسلكية ، حتى ولو جمعنا تأثير هؤلاء جميعاً . ومرة اخرى ، فإن هذه الحقيقة لم يعترف بها بعد لأن أكثر علمائنا النفسيين وعلماء الاجتماع لدينا قد جاؤوا من بنات الطبقة الوسطى أو الطبقة العليا ، فلا يعرفون ثقل الكآبة التي يحتاج رجال الطبقات العاملة ونساؤها إلى الهرب منه في أوقات فراغهم . وقد كتب الموسيقيون ونقاد المسرح المشهورون عن الاكتشاف الذي يشبه تفتح البصيرة والذي يحدث للمرء لدى دخول المسرح أو الأوبرا للمرة الاولى ؛ ولكن كل طفل من أطفال الطبقة العاملة إنما يمر بالتجربة نفسها ويجتاحه الإحساس نفسه لدى دخوله دار العرض السينمائي للمرة الاولى . (وأنا عاجز عن إصدار

حكم عام حول تأثير التليفيزيون على هذا النوع من النظارة ، بما أنني كنت أكبر سناً من أن تتاح لي فرصة اختبار تأثيره الكلي) .

وأبعد ما أستطيع أن أذكره من أفلام إنما هو فيلم « التاجر هورن » ، « آخر أبناء قبيلة موهيكان » . وما أن بلغت السادسة أو السابعة من عمري حتى سمح لي بأن أذهب إلى العرض المسائي في يوم السبت (لقاء بنسين) . وأثارت السينما أحلام يقظة لا نهاية لها . ومثل كل الأولاد الصغار فضلت أفلام رعاة البقر ولم تفتني فرصة واحدة لكي أغتنمها في سبيل الحط من شأن « قصص الحب المائعة » . إن شخصية والترميتي في أفلام شيربر لتعادل شخصية سانشو بانزا بالنسبة لأكثر الأطفال في افتقاره للخيال ؛ وكانت أحلام يقظتي تشبه رواية كبيرة في أربعة مجلدات تتقدم على شكل حلقات على مر الأسابيع المتلاحقة ، وفيما بعد ، حينما أصبح علي أن أذهب إلى المدرسة بالباص . ولذلك كان لدي فرصة كافية للاختيار بين الأفلام ، فقد نما لدي ذوق ميال إلى الأفلام الموسيقية الملونة (وكان أحد الدوافع بالطبع هو بطلات هذه الأفلام الشقروات) . وأصبحت أحلام اليقظة ملونة هي الاخرى . ولكي أصف تأثير تلك الأفلام فقد أكون مضطراً إلى اللجوء إلى القوالب المحفوظة من مثل : « عالم السحر » أو « الحنين الذي لا يحتمل » . ومع هذا فقد كانت هذه الأفلام هي مصدر الطاقة التي تدفقت لتعينني على دراسة أعمال إدينجتون[1] وجينز . فإذا كان للحياة أبداً أن تتطور من المرحلة النباتية المتواضعة في ليستر إلى آفاق القصص العاطفية والأفلام الملونة ، فإنما لا بد أن يتم ذلك من خلال طموحها وجهدها

---

[1] إدينجتون Sir Arthur Eddington (١٨٨٢ – ١٩٤٤) عالم انجليزي في الطبيعة الفلكية ، كان تخصصه الأساسي (كفلكي) هو النظرية النسبية ، ونشوء المجموعات الكوكبية وحركات النجوم . كانت له مؤلفات عامة كثيرة ، وأشهر أعماله غير الفنية المتخصصة هو كتاب « طبيعة العالم الطبيعي » الذي ترجم إلى العربية في ج . ع . م . (هـ . م) .

المبذول في سبيل العظمة . ولذلك فإن مستقبلاً « عادياً » كان شيئاً لا يرد على فكري ؛ لقد كان على هذا المستقبل أن يكون مستقبلاً عبقرياً ، أو أن لا يكون شيئاً أبداً .

* * *

وبشكل عام فقد استمتعت بالسنوات التي قضيتها في مدرسة جيث واي الثانوية الفنية . ولقد ثبت أنها مدرسة مخيبة للآمال على عكس مدارس « ماجنيت » ، « جيم » ، « هوتسبير » ، ولكنها منحت المرء قدراً عظيماً من الحرية . لقد أنفقت الكثير من الوقت في كلية الفن والتطبيق؛ ولكنني لم أكشف عن موهبة لا في الفن (النحت ، والرسم ، وصنع التماثيل الطينية) ولا في التكنيلك الفني (صنع الملابس ؛ والهندسة الميكانيكية؛ وصنع الأحذية) ؛ وعلى ذلك فقد كان من الممكن أن تناسبني بصورة أحسن أية مدرسة ثانوية أخرى في ليسستر . ولكن أحداً لم يجبرني على أن العب كرة القدم أو الكريكيت (كان يكفي للتهرب من ذلك أن ألتمس أتفه الأعذار إذا لم تكن بي رغبة للعب) ولقيت التشجيع الكافي لكي أفعل ما كنت أحب أن أمارس من مثل التحدث في جمعية المناظرات المدرسية أو الكتابة لمجلة المدرسة ، أو تنظيم العروض المسرحية .

ومع هذا فيجب علي أيضاً أن أعترف بأنني قد تعلمت قدراً صغيراً لا يمكن التقليل من شأنه من خلال الأحد عشر عاماً التي قضيتها في المدرسة . لقد تعلمت عن الأدب في شهر واحد من القراءة العشوائية غير المنهجة أكثر مما تعلمته من ساعات دراسة كتاب « الأدب الانجليزي » في المدرسة ؛ وتعلمت عن العلم ما يزيد عشرة أضعاف عن كل ما كان يمكن أن أتعلمه في المدرسة ، من خلال كتابة « الموجز » في ستة أسابيع.

ويجب عليّ ، إذ أكتب عن هذا الموضوع ، ان اذكر تلك الملاحظة

التي أدهشتني في سن الحادية عشرة . كنا ندرس رواية « توم صوير[1] » باعتبارها « الكتاب المدرسي » . وفي اليوم الذي تسلمناها فيه أخذتها إلى البيت وشرعت في قراءتها في الساعات الأولى من الصباح . كان هذا هو أول ما قرأته من الكتب التي تصف الأطفال من الداخل ولم يحاول أن يتجنب مشكلة الجنس البالغة الأهمية . وفي غضون العام التالي ، أعدت قراءة هذه الرواية عدة مرات .

ومع هذا فإننا لسبب ما لم نكمل قراءتها في الصف الدراسي . وربما وجد المدرس ان قصة حب توم وبيكي أمر محرج للغاية ، فأرادنا ان نقرأ الكتاب في منازلنا . وسألت كل تلاميذ الصف . والامر العجيب هو أنني كنت واثقاً من أنني سأكره هـذا الكتاب لو طلب منا قراءته في المدرسة .

وقد لاحظت هذا التناقض نفسه مع كتاب يدعى « قصص بوليسية » كنا قد تسلمناه أيضاً ككتاب مدرسي . كنت قد قرأت بالفعل أقاصيص الاب براون وشرلوك هولمز ؛ ومع هذا فأنا أذكر كيف تملكني الضجر حينما قمنا « بالفعل » بقراءة قصص « العقيق الازرق » ، « القدم الشاذة » في داخل الصف المدرسي .

إنني عاجز عن تقديم أي نوع من الاحكام العامة حـول التعليم — باستثناء ذلك الحكم الوحيد الواضح الذي ربما ينبغي أن يكون هدفه هـو إقناع الاطفال بأن يعلموا أنفسهم . وسينتج عن هذا أيضاً ازدياد فرصة حصول كل منهم على قدر كاف من الوقت الحر وتحسين استخدام هـذا

---

١ « توم صوير » Tom Sawyer ، واحدة من أشهر أعمال الروائي الأمريكي مارك توين (١٨٣٥ — ١٩١٠) بالاضافة إلى روايته المكملة لها « هاكلبري فين » . والروايتان تتناولان المغامرات التربوية والعاطفية والعقلية للطفلين « توم » و « هاكلبري » في جنوب شرق الولايات المتحدة ، وقد ترجمتا إلى العربية في ج . ع . م . (هـ . م) .

الوقت ، الذي ربما لم يكن كله خيراً او بركة . ومع هذا فمن المؤكد أن رجـال التعليم عندنا قد استطاعوا أن يضعوا منهاجاً ، يحتم أن يتقرر التحكم في وقت فراغ الطفل على ضوء ما يحقق في المدرسة . ويجب علينا ان نعترف ان هذا المنهج إنما يعني أن الاطفال اللامعين سيحصلون على ما يمكن أن يكون إجازة متقطعة دائمة ، بينما سيظل الاطفال المتخلفون مقيدين إلى حجرات الدراسة إلى الابـد ؛ ولكن ، أيكون هذا أكثر معقولية من سجنهم جميعاً في حجرات الدرس دون تفرقة بينهم ؟.

* * *

حينما كنت في التاسعة من عمري كان كل من أعرفهم من الكبـار قد تعودوا على أن يحطوا من شأن المجـلات الفكاهية ومجلات الاولاد الصغار ؛ وقد أعلنت دائماً ، على العكس من هذا ، أن هذه المجلات تستطيع أن تعلم الاولاد أكثر مما تستطيعه الكتب المدرسية . وعلى العموم ، فإنني ميال إلى التمسك بهذا الرأي . ومن المؤكد أنني قد تعلمت خارج المدرسة أكثر ممـا تعلمته داخلها ؛ وكانت قراءاتي الوحيدة حتى بلغت العاشرة مقصورة على المجلات الاسبوعية الفكاهية .

وبعد أن قرأت رواية « توم صوير » تبينت للمرة الاولى أن ثمة خطأ خطيراً تقع فيه مجلات الاولاد . إنها لا تهتم اهتماماً حقيقياً بنزعة أولاد المدارس العاطفية الجنسية . وفي رواية « تونو بانجي[1]» يلاحظ هـ. ج. ويلز بحساسيته أن لاطفال المدارس الحق – مثلهم في ذلك مثل الكبار جميعاً – في أن يطلقوا على ميولهم العاطفية إسم « الحب » . وبالنسبة لنفسي فإنني

---

١ تونو بانجي Tono Bungy . رواية من تأليف هـ. ج. ويلز (١٩٠٩) . والعنوان مستمد من اسم علاج خرافي اخترعه أحـد أبطال الرواية لمعـالجة جميع الأمراض ، ويحقق لصاحبه ثروة طائلة . (هـ . م.)

لا أستطيع أن أتذكر فترة من طفولتي لم أكن فيها منجذباً إلى فتاة صغيرة واحدة على الأقل ، وفي بعض الأحيان كانت قائمة من أعجب بهن من الفتيات تضم عشر فتيات . وكانت هـذه « القصص » عادة بريئة جداً ، وأكثرها لم تبلغ حتى مرحلة تبادل القبلات . وكان هذا نفسه النوع من « الحب » هو ما يشغل أكثر أصدقائي ويستغرق عواطفهم . وفي كل شوارع ليستر تقريباً ، كنت تستطيع أن تقرأ عـلى الجدران ، مكتوبة بأصابع الطباشير ، مثل هذه الجمل : « جون باتريك يحب نورما بيسجلي » ، وهي جمل كانت تكتب بقصد إحراج الاثنين المقصودين . ولكنها في الغالب كانت تنتج أثراً يمتزج فيه الخجل بالبهجة .

وهكذا فإن « العاطفة الأخلاقية » التي قال بهـا شو ، قد لا تظهر لدى معظم الأطفال إلا متـأخراً . ولكن العواطف الأخرى توجد بوفرة كبيرة . وأنا أود لو أضيف قـائلاً « شكراً لله » لأنني لا أستطيع أن أتصور تطوراً أو تقدماً آخر دون تأثير تلك الدوافع التي قد يدمغها أكثر رجال التعليم بأنها « عوامل التأخر » أو قد يدينونها باعتبارها أنواعاً غير صحيحة من الرغبات السيئة .

الفصل الرابع

العدمية

قلت إن إحساساً بـ « النسبية الأخلاقية » قد نشأ عندي بشكل ما من خلال قراءتي لأينشتين . ولا شك أن اكتشافي لبيركلي[1] وهيوم[2] (في كتاب جود Joad دليل إلى الفلسفة) قد لعب دوره أيضاً . إنني استطيع ان اتذكر بوضوح المناسبة الأولى التي بدأت فيها بالفعل في الشعور بنوع من الخوف من المجهول . كان ذلك في فصل صنع التماثيل الطينية في مدرسة الفن والتطبيق . كان المدرس قد خرج من الفصل وتركنا لانفسنا. وكنت أعمل على منضدة واحدة مع صبي يدعى فلين ، وكان هناك

١ بيركلي George Berkely (١٦٨٥–١٧٥٣) ، فيلسوف ورجل دين انجليزي، يعد من أوائل فلاسفة النزعة المثالية . وقال بأن موضوعات الادراك الحسي ليست سوى أفكار في عقولنا دون وجود مستقل خارج العقل ، وأن الواقع كله يتكون من أفكار كامنة في عقل الله . وكان بيركلي نشيطاً في مهاجمة المفكرين المتحررين . (هـ . م .)

٢ هيوم David Hame (١٧١١–١٧٧٦) ، أحد كبار المؤثرين في الفكر الميتافيزيقي الحديث وهو فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي . وتقوم فلسفته على إرجاع المعرفة البشرية إلى التجربة المستفادة من الأفكار والانطباعات ، التي تنعكس على الذهن جزئياً في كل تفصيل من تفصيلات الواقع . (هـ . م .)

أصدقاء كثيرون بالقرب منا . ولسبب ما ، بدأنا نتحدث عن الفلك ، وطرح أحدهم سؤالاً عن المكان الذي ينتهي عنده الكون . وظللت أحاول ان اطوح بذهني وراء فكرة الفضاء الذي لا نهاية له . تحدثنا عن المسافات الشاسعة ، وعن السنين الضوئية وعن الكون الذي لا يكف عن التمدد والاتساع . ولكننا كنا نعود دائماً إلى السؤال نفسه : أين يمكن أن تكون نهايته ؟ كنا نفكر في نهاية تصل الى شيء محدد ، ربما كان جداراً أو « فضاء داخلياً ليس له مقاييس » (اذا استخدمنا كلمات كتّاب القصص العلمي الجوفاء) . وبدأ عقلي يدور — وأنا أعني هذا حرفياً . تملكني احساس بأنني اكاد أفقد توازني . وحينما غادرنا الحجرة في نهاية الضباح كنت أشعر بشعور غريب، كما لو كنت قد مت . كان للعالم سطح مريح من الثبات يحفظ لنا سعادتنا . لا شيء نهائي أو لا يمكن التراجع عنه . وأعتقد أنني كنت قد عشت طفولة مريحة ومستقرة بصورة غير عادية . ولم أصدق أبداً أنه يمكن أن يصيبني أي ضرر ؛ كنت مثار إعجاب الجميع ، وقد حصلت على كل ما كنت احتاجه من الحب . وإذا حدث أن وقعت في بعض المشاكل ، فلم تكن هناك مشكلة لا تكفي بضعة كلمات استرحام وبضعة اعتذارات لحلها ومعالجة عواقبها . لم يكن هناك شيء يبدو غير قابل للاستحالة ، وكانت أسوأ كوابيس نومي يعقبها استيقاظ مبهج في غرفة نوم تغمرها أشعة الشمس . وكان ميلي الأساسي نحو التفاؤل شبيهاً بمزاج تشسترتون [1] ، وهو الذي اختتم إحدى قصائده بهذه السطور :

لم يكن الموت سوى فكاهة قالها الملك الطيب ،
وكان قد أحسن مداراتها .

---

[1] تشسترتون Gilbert K. Chesterton (١٨٧٤ – ١٩٣٦) صحفي وشاعر ومؤرخ وروائي انجليزي ، وكثيراً ما عبر عن آرائه الدينية في كتاباته ، وانتقل إلى الكاثوليكية في منتصف عمره . (هـ . م) .

كنت مثل رجل اعتاد أن يستريح دائماً وراء جدار سميك من الزجاج ، قادراً على ملاحظة تعاسات الناس الآخرين ، ولكنه لم يؤمن بهذه التعاسات أبداً او يصدق بوجودها . ثم حدث أن ظهر شرخ في هذا الجدار . وكان هذا الشرخ هو دخول الموت إلى عالمي ، ومن ثم ، الشر . واختفى ذلك الإحساس بالأمان المطلق .

وأظن أن ما قد حدث هو أنني وصلت إلى إدراك فكرة أن العالم الخارجي هو « كل شيء » ولا بديل له . وما زال هذا الرعب يتملكني أحياناً في الليل . وقد حاولت أن أصف هذا الإحساس في روايتي «طقوس في الظلام » . إن الإحساس بالمحدودية هو الموت للروح . ولا تستطيع حياة أن تبقى دون أمل مطلق . وهناك قصة تروى عن العام الأخير من حياة ثيودور شتورم ، الكاتب والشاعر الألماني ، فحينما كان في السبعين من عمره ، اكتشف طبيبه أنه مصاب بسرطان في المعدة ، وطلب شتورم من الطبيب ألا يخدعه ، بل أن يخبره ، كما يقول الرجل للرجل ، بالفرصة المتاحة أمامه . فأقر الطبيب بما عرفه . وأغلق باب الأمل أمام شتورم فلزم الصمت : كان قد فقد كل رغبة في الحياة . ثم أشرك شقيقه طبيبين آخرين في مؤامرة صغيرة ، فأعادا فحص شتورم ، وقالا له إن المسألة كلها لم تكن سوى خطأ ووهم ، وأن الورم من النوع الحميد . وعلى الفور استأنف شتورم عمله في كتابة روايته الأخيرة « راكب الجواد الأبيض » وأنهاها نهاية يتوجها الانتصار ، بل إنه قضى عاماً سعيداً يأكل ويشرب قبل موته .

إنما تعتمد البشرية في كل ما تبذله من جهود وفي كل ما تملكه من عظمة على الإحساس باللامحدودية المطلقة . وليس للمشاكل المباشرة أو أنواع التعاسة أي أهمية ؛ ولكن لا بد أن يكون هناك غد ينتظر ، ولا بد أن يكون هناك مخرج من المأزق ، وتأكيد نهائي بالوصول إلى بر الأمان .

وتبدو لي هذه المناقشة عن « النهايات » الأولى من سلسلة طويلة من المناقشات التي دارت في خلال السنوات العشر التاليـــة ، وكانت تنتهي دائماً بنفس الإحساس باليأس ، وبالاجهاد والعقم ، وبالعجز عن الوصول إلى لب المشكلة . وكان أول تأثير لهذا الاجهاد هو الإحساس بأن العالم يمكن أن يستمر ، وبأن الناس يستطيعون الاستمرار في الانشغال بالتفاهات . ويقول ويليام جيمس[1] في مذكراته إنه بعد « اتساع افقه » بدت له أمه متناقضة في تفاؤلها المرح وعدم إحساسها بالخطر . ولقد شعرت أنا أيضاً بهذا إزاء كل من رأيتهم .

وكان أول تعبير لي عن إحساسي بالتمرد إزاء الانخداع الذاتي بالكون هو مقال كتبته عن « التفوق » ، وكتبته حينما كنت في الثانية عشرة . وما زلت أحتفظ بهذا المقال . ويقول إن البشر جميعـــاً مسجونون داخل وهمهم الذاتي ، وأن الدافع العالمي الذي يكمن وراء كل سلوك للبشر هو احتياج الفرد إلى أن يشعر بنفسه « متفوقاً » وسامياً ، وأن ينكر الحقيقة الواضحة القائلة بأنه مجرد حشرة تدب وسط غيرها من بلايين الحشرات .

وتحمل الصفحة الاولى من كراسة تمريناتي العنوان القائل : « مقالات حول حياة آيم » وقد كتب تحت هذا العنوان : « الملاحظات التالية قامت على أساس من مذهب آدلر[2] في سيكولوجية الفرد ومن الجوانب الفلسفية

---

[1] ويليام جيمس William James ، أحد كبار الفلاسفة البراجمانيين في امريكا (١٨٤٢ – ١٩١٠) ، اشترك مع الطبيب الدنمركي كارل لانج في وضع نظريتهما عن الانفعال ، والتي تقول بأن الانفعال الذي يجد التعبير عنه في بعض الأعراض الجسانية ، ليس هو سبب هـــذه الأعراض ، وإنما هو مظهر الإحساس الفردي بها ، فالأعراض الجسدية هي سبب الانفعال ، وليست نتيجتها . (هـ . م .)

[2] آدلر Alfred Adler (١٨٧٠ – ١٩٣٧) ، محلل نفسي نمساوي وتلميذ سيجموند فرويد ، واختلف مع فرويد فيما بعد في نظرية التحليل النفسي ، وقال بأن الدافع الأساسي وراء سلوك الفرد هو الرغبة في التفوق ، أو غريزة التفوق ، وأن اختلاف سبل التعبير عن هذه الرغبة هو السبب في اختلاف سلوك الأفراد . (هـ . م .)

لمبدأ النسبية » . وقد شرحت وجهة نظري بأن آدلر شعر بأن الأمراض العصابية ترجع كلها إلى إحساس بالدونية وبعدم الكفاية والعجز في مواجهة الناس الآخرين ، وأن الرجل السوي يشعر بنفسه مساوياً لزملائه ونداً لهم . وقد اختلفت مع آدلر ، وأعلنت اختلافي معـــه . ففي رأيي أن الرجل السوي يجب أن يكون واثقاً من تفوقه الخاص ومن سموه ، وأنه لا بد سيكون مريضاً بمرض عصابي إذا كان يؤمن بأنه لا يعدو أن يكون على مستوى واحد مع الآخرين .

وإذ أقرأ تلك المقالات الآن ، فإنما أدرك أنها تنبع من موقف دفاعي تجاه « عالم الكبار » . لقد ظللت أسأل لمـــاذا ينبغي للكبار أن يتوقعوا الاحترام من جانب الصغار . وقد بدا لي أن كل بني الإنسان ، ينغمسون في نفس هذه الجهالة العمياء ، ولدرجة أنه لا يليق حتى بتابع قديم من أتباع برنارد شو ، ولا يحق له أن يشعر بأنه متفوق على أي إنسان !

وأنا أعتقد أن هذا الموقف في أساسه موقف ديني : ففي مواجهـــة الموت وفي مواجهة جهلنا ، كيف نستطيع أن نزعم معرفة كل شيء ؟ ولكن مثل هذا الموقف يصعب أن يؤدي إلى مرحلة مراهقـــة سليمة أو غارقة في البهجة . لقد كانت هناك لحظات حينما كان الإحساس باحتقار « الناس » يثور في داخلي وينمو إلى الدرجة التي كان يستحيل عندها إلى نوع من الراحة ، وإلى ثقة في التفوق والسمو . ولكن هذه الفكرة ، كانت حالما تتملكني أجـــد نفسي مضطراً إلى النظر إلى « تفوقي » الخاص باعتبارة نوعاً من الآلية الحتمية ، ليس إلا . كنت أحـــاول أن أعيش دون اليقين من أنني أملك الحق في الحيـــاة ، أو بالأحرى كنت أحاول أن أعيش « مع » اليقين بأنني قد امتلكت الحق في الحياة .

وانطلقت إلى الحياة مثل رجل لا جلد له ، مرتعشاً من الاشمئزاز كلما

كان عليّ أن أحتكّ بواحد من الناس . يقول زولا [1] : « على كلّ منا أن يبتلع ضفدعة كل صباح . » وقد بدت حياتي كلها مثل عملية ابتلاع الضفادع .

والواقع ، أن هذه الحياة كان بها ما يعزي عنها . لقد قرأت المقالات المكتوبة عن الأدب الانجليزي في « المعرفة العملية للجميع » واكتشفت سبنسر [2] وبن جونسون [3] وكولريدج [4] وماكولي [5] ، وبدأ بهذا الاكتشاف هيامي بالشعر . ووسعت مكتبتي بطريقة أخلاقية متميزة ، حاصلاً على الكتب من المكتبات أو من المدرسة أو من المكتبات العامة . وكنت قادراً على التراجع إلى تألمي الذي يصنعه الأدب ، وأتجنب الاحتكاك بـ « الناس » . لقد بدا لي أن الأدب كان خلاء واسعاً يضيئه القمر ، جميلاً ولكنه ميت تماماً ، وأن تفضيله على « العالم الحقيقي » كان يعني تفضيل الموت على الحياة .

---

١ زولا Emile Zola (١٨٤٠ – ١٩٠٢) الروائي الفرنسي الشهير ، وأكبر المعبرين عن المذهب الطبيعي في الأدب الفرنسي والأوروبي في القرن الماضي . (هـ . م .)

٢ سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ – ١٩٠٣) فيلسوف ومفكر اجتماعي انجليزي ، وعرف بتطبيقه قوانين نظرية التطور عند داروين على الفلسفة والأخلاق ، وأرجع كل أنماط التغيرات الطبيعية والاجتماعية إلى « القوة ، سبب كل تغير وخالقة كل شكل أو نظام في الكون أو المجتمع » . قامت أفكاره الأخلاقية أيضاً على النزعة النفعية ، وطالب بأن يقتصر التعليم على المواد العلمية والطبيعيات احتقاراً للتعليم الفكري أو الأدبي . (هـ . م .)

٣ بن جونسون Ben Jonson (١٥٧٢ – ١٦٣٧) أكبر كتاب المسرح الكوميدي في انجلترا الاليزابيتية ، ومنافس شيكسبير في الشهرة . (هـ . م .)

٤ كولريدج Samuel Taylor Coleridge (١٧٧٢ – ١٨٣٤) شاعر وناقد أدبي انجليزي ، يعد واحداً من أهم الشعراء والنقاد الرومانتيكيين الانجليز ، ومن أهم دارسي الفلسفةالألمانية في انجلترا ، وأكبر مؤثر على اللغة والأدب الانجليزيين في حياته . (هـ . م .)

٥ ماكولي Thomas B. Macaulay (١٨٠٠–١٨٥٩) مؤرخ وشاعر ورجل دولة انجليزي ، اشتهر بكتابه عن تاريخ انجلترا المتميز بأسلوبه الفخم وتجسيده الحي للشخصيات ، ثم بقصائده القصصية عن أشهر الرومان ، وكانت كتبه تعد من الكتب الشعبية في عصره . (هـ . م .)

ومن العجيب تماماً ، ألا يؤدي اكتشافي لبرنارد شو إلا إلى تعميق هذه النزعة التشاؤمية . ولقد تحدثت عن هذا الموضوع في مكان آخر (في مقدمتي لكتاب « الدين والتمرد ») وكيف استمعت في إحدى الليالي إلى مسرحية « الإنسان والسوبرمان » في البرنامج الثالث ، مصغياً إلى تسجيلها التمثيلي حتى منتصف الليل ، وذهبت إلى فراشي وأنا أشعر بأن حياتي لا يمكن أن تعود نفس الحياة مرة أخرى . وحتى تلك اللحظة ، كنت أزعم لنفسي أنني الشخص الوحيد في العالم الذي كان مهتماً بمشكلة « لماذا » نحن نعيش ، وكان قد خيل إلي أن كل الناس الآخرين كانوا غرقى إلى الأذقان في سجن ممارسة الحياة إلى الدرجة التي تمنعهم من التساؤل حولها . وسمعت الآن إلى دون جوان الذي خلقه شو يسأل السؤال التالي : ما الذي نفعله هنا ؟ — والأكثر من هذا ، أنه يجيب على السؤال إجابة مفعمة بالتفاؤل . وكانت مشكلة العقم والخصوبة قد أزعجتني . وقد أكثرت من اقتباس قول الوعاظ « الكل باطل » . ويسأل شو : « هل يقلع الإنسان عن الأكل لأنه يدمر شهيته من خلال اشباعها ؟ » . وفي الحقيقة ، لقد كانت هذه بالتحديد هي مشكلتي — المشكلة التي دعوتها فيما بعد « هاوية سانت نيو » . ما الهدف من أن يكون الإنسان للمصير مثل حصان الجر ، مجبراً على بذل المجهود من أجل أن يعيش في العذاب والألم ؟ إننا نمعن في القيام بفعل تناول الطعام العقيم المكرور لأن الجوع مؤلم ، ونحن نذهب إلى العمل لأننا سنموت جوعاً إن لم نفعل . وباختصار ، فإننا عبيد التجديف في سفينة الحياة ، نعرق ونزحر لأننا نخشى لسعة السوط المؤلمة . لقد بدا لي « أوبلوموف » أكثر الناس معقولية في العالم . فلو كنت أملك ما يكفي من المال ، لاعتزلت في برج مغلق ورفضت الخروج إلى الناس . وقد بدا لي أنه من الظلم الذي لا يصدقه

أحد أن القدر كان رحيماً بوجال مثل جيد[1] وفربانك[2] ودلبوس ، معيناً إياهم على الحياة مثل النساك ، بينما لا أملك أنا أي أمــل في أن أتحرر من الاحتياج إلى أن أكسب معاشي. ولم يساورني أي شك في أنني ، لو صادفتني جنية طيبة ومنحتني هدية تكفيني طوال حياتي ، لوجدت « برجي » ولأنتجت تلك الأعمال التي تتلاءم مع متشائم يائس — الأعمال التي ستكون مزيجاً من شوبنهور[3] ورونالد فربانك ، و هـ. ب. لفكرافت .

وحينما كنت منتظماً في الدراسة بالمدرسة ، لم يكن لدي سوى القليل من الوقت لكي أهتم بعقم الحياة . ولكنني في عام ١٩٤٧ اجتزت الامتحان النهائي وحصلت على إجازة مدرستي ولم أنجح في الحصول إلا على أربع شهادات ، بدلاً من الخمس المطلوبة للتقدم إلى شهادة المعادلة . وكنت آمل في الحصول على وظيفة في احد مصانع الكيماويات ، وان اوفر الوقت اللازم للدراسة ؛ حتى استطيع الحصول على درجة علمية جامعية (ولسبب ما ، لم يطرأ علي أبداً خاطر محاولة الحصول على منحة جامعية) . ولكن الفشل في الحصول عــلى الدرجات اللازمة للتقدم إلى شهادة المعادلة كان خطوة مؤقتة إلى الوراء . وأجريت الترتيبات اللازمــة للتقدم إلى امتحان الرياضيات في شهر سبتمبر (ايلول) التالي . ثم أخذت أبحث عن وظيفة.

وإذ أنظر الآن الى الوراء ، فإنني أتبين ان هذه المرحلة كانت أكثر مراحل حياتي خطراً منذ حدث « اكتشافي للعلم » . كانت السنوات الآمنة

---

١ جيد André P. G. Gide (١٨٦٩ — ١٩٥١) روائي وناقد فرنسي ، عرف بهجومه القاسي على النزعة الأخلاقية المزمتة ، ويدفاعه عن الشذوذ الجنسي في اعترافاته . (هـ . م .)

٢ فربانك Ronald Firbank (١٨٨٦ — ١٩٢٦) كاتب وروائي انجليزي ، اشتهر بنزعته الدينية . (هـ . م .)

٣ شوبنهور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨ — ١٨٦٠) فيلسوف ألماني ، عرف في العالم كله بتعبيره الصارخ عن التشاؤم الفلسفي ، رغم أنه من الفلاسفة الذين قالوا بأن إرادة الحياة هي المحرك الأصلي للوجود (. هـ . م .)

في ظل الرعاية الخارجيه ـ انتهت ، وكان علي أن ابدأ التفكير جديـة في حياتي العملية . ولقد كنت أفضل أن أبقى في المدرسة طيلـة عشر سنوات أخرى . ومـا زال بوسعي أن أتذكر عمق نفوري ورفضي في الصباح الذي ذهبت فيه إلى مكتب العمل لكي أطلب البحث عن وظيفة. فوجهوني إلى المصنع القائم في شارع كرانبورن . وكان على القادم إلى المصنع أن يلجه من مدخل ضيق ، تحف به المنازل القذرة ذات الاقنية الخلفية الصغيرة . وكان المصنع يتكون من مبنى صغير ذي طابقين ، وفي الطابق الاعلى كانت النساء تقف أمام الماكينات التي تلف خيوط الصوف على المغازل . وكانت وظيفتي هي السهر على أن تظل لدى النساء الكميات المناسبة من الصوف ، ثم أخـذ المغازل الى الطابق السفلي ووضعها في الصناديق . ولم يكن العمل صعباً ولكنه كان رتيباً مملاً . وكانت النساء يقطن جميعاً في الشوارع المحيطة بالمصنع . وبدا عليهن التماثل الكامل مع منازلهن القذرة وحياتهن الجافة المجدبة التي وجدتها حياة مقبضة كعرصات الجحيم . كان من الصعب أن يفهم المرء لماذا يستطيع الناس أن يعيشوا بهذه الصورة دون أن تملأهم الرغبة في الانطلاق ونسف مبنى البرلمـان وقصر باكينجهام الملكي بالديناميت ، ومع هذا فقد كـان يبدو عليهم أنهم لا يتوقعون من الحياة شيئاً آخر .

وجعلني العمل في هذا الجو أعي بحدة أن حيـاة أكثر الناس ليست سوى هزيمة طويلة الأمد ، وأن حياتي أنا لن تكون أفضل من ذلك . وأصبح إدراكي أكثر وضوحاً من أي وقت مضى أواجـه واختار بين الاستسلام للامعنى والتكريس الكامل لهدف مقصود . لم يكن من الممكن أن تكفيني نزعة الهواية التي لا تكرس لما أريد سوى نصف عقلي ، ولم يكن يفيدني أن أسود الصفحات في أوقات الفراغ . كان من الضروري لي نفسياً أن أنجز فعلاً عقليـاً هو نوع من الالتزام الكلي ، مثلما يفعل الراهب حين يقدم نذره بتكريس نفسه لربه . ولقد كان مثل هذا الفعل

عملاً مخيفاً ، مثلما تراهن بآخر فلس تملكه على رمية واحدة بالزهر ، ولكن هذا الفعل كان هو السبيل الوحيد لخوض معركة دفاعية أطفو بها فوق هذا الطوفان . وكان من الضروري إلى درجة ما أن أخلق في داخل نفسي إحساساً بالانفصال عن الناس وعن نوع الحياة التي كنت جزءاً منها . أردت أن أكون قادراً على أن أردد كلمات قيصر في مسرحية برنارد شو : « أنت وأنا ، يا أبا الهول ، غريبان عن جنس البشر ، ولكن أحدنا لا يشعر بالغربة تجاه الآخر . »

ولذلك فقد بدأت منذ الآن في التفكير في نفسي ، تماماً وكلية باعتباري كاتباً ، وكاتباً ستكون مهمة حياته كلها هي البحث في مشكلة معنى الوجود الإنساني . وبدا « العالمان » الآن كما لو كانا يقفان أحدهما في مواجهة الآخر ، وأن الحرب المفتوحة قد أعلنت بينهما : فعلى الجانب الأول يقف العالم العقيم ، عالم « الحياة اليومية » ، وعلى الجانب الآخر تقف إمكانية وجود طريق للحياة ، لا بد أن يكون بصورة كاملة ، ذا معنى ، مليئاً بالخلق ، والوعي بالذات .

ولقد كان يمكن أن أنتفع لو أنني كنت أؤمن — كما أؤمن الآن — بأن الحياة لا تمنع عنك أبداً أي شيء تريده وتطالب به في إلحاح وإصرار كافيين . فمن السهل أن تجد الشخص الناجح وأن يؤمن بأن القدر كان رحيماً به ، ولكنني لم أجد سبباً يدعوني الى الايمان بشيء من هذا النوع ، طالما أن القدر قد دفعني إلى مصنع من مصانع الصوف . ولقد كان من الممكن أن أنتفع كثيراً بالتأكيد نفعاً عظيماً لو كان هناك أي شخص أستطيع أن أتحدث اليه في تلك الأمور ، ولكنني لم أعرف شخصاً واحداً يستطيع أن يفهم ما أريد . وقد حاولت أن اتحدث الى الكبار الذين تربطني بهم صلات ودية من حين إلى حين ، ولكنهم جعلوني أشعر دائماً بأنني أبالغ في معاملة نفسي بجدية أكثر من اللازم ، وأن علي أن أهدأ وأن

أتروى . وأظن أن حالة التعمق غير الصحي التي أصابتني قد أزعجت بعضاً منهم إزعاجاً حقيقياً ، وجعلتهم يشعرون بأن هذه الحالة قد تؤدي بـي إلى انهيار عقلي . وفي الحقيقة ، فإن قسا أنجليكانيا تحدثت معه كثيراً قد نصحني بألا أقرأ شيئاً سوى الصحف لمدة عامين . وكان مصيباً الى حد ما . فقد كان من السهل أن تؤدي بـي هذه الحالة إلى انهيار عقلي. وقد اقتربت بالفعل من هذا الانهيار . واستطعت أن أفهم العبارة الواردة في الانجيل ، والتي تقول : « وسوف تفشل الرغبة ... » لقد أصبحت الحيـــاة صحراء مجدبة . ولم ينقطع الإحساس بالاجهاد المستمر . وشعرت كما يشعر شخص أجبر على أن يظـــل مستيقظاً ليلة بعد الأخرى ، حتى اختفت القدرة عـــلى النوم ، وفقد كل شيء معناه . وكان من الصعب أن يكون الأمر مستحقاً أن أستمر على هذا المنوال ؛ ولكن لم يكن هناك بديل . وقد بدا لي على الدوام أن الحياة تطلب مني أن أبذل من الطاقة أضعاف ما أملكه . وفي المساء كنت أغلق على نفسي باب غرفة نومي وأغرق في الشعر – فاستطعت أن أحفظ معظم أشعار ومختارات بالجريف[1] عن ظهر قلب – أو أن أغرق في مسرحيات شو . وفي بعض الأحيان ، كانت ساعات قليلة من هذه القراءة قادرة على أن تجعلني أشعر بالابتهاج والتفاؤل مرة أخرى ، ولكن حينما كان يحين الوقت لمغادرة الفراش في الساعة السابعة من الصباح التالي ، كان كياني كله يئن ويضطرم بالرفض الهائل والكراهية . وكان باستطاعتي أن أفهم بسهولة كيف أصبح الناس ثوريين اجتماعيين . ولكنني استطعت أن أرى أن هذا الحل لن يكون سوى نصف حل فقط ، بالنسبة لي . فقـــد كانت المشكلة الأساسية هو أن

---

١ بالجريف Francis Turner Palgrave (١٨٢٤ – ١٨٩٧) شاعر وناقد انجليزي : عرف بمختاراته من الشعر الانجليزي التي نشرها تحت عنوان The Golden Treasury (الكنز الذهبي) ، وتعد أشهر مختارات هذا الشعر . (هـ . م .)

يطرد نموي ككاتب . وفي صباح ما ، وإذ كنت أعبيء مغازل الصوف في صندوق من الورق ، فكرت في مسرحية شو « الإنسان والسوبرمان » وكيف كان باستطاعتي أن أكتبها بنفسي . وفجأة أثارتني هذه الفكرة . يمكنني أن أكتب امتداداً لهذه المسرحية ، حيث يصبح جاك تانر رجلاً في عقده الخامس ، مع ابن له تجاوز العاشرة بكثير ، يشعر بأن الاشتراكية ليست هي الجواب الصحيح على المشكلة الأساسية للوجود الإنساني ... وفي عطلة هذا الأسبوع اشتريت رزمة من الورق ذي الحجم الكبير وبدأت في كتابة مسرحية « الآباء والأبناء » . ولكنني انصرفت عن استكمالها بعد بضعة أسابيع ، حينما أصبح الفصل الأول وحده أطول بالفعل من كل مسرحية « الانسان والسوبرمان » .

وفي هذه الفترة ، كان إليوت ، بعد شو ، هو صاحب أعظم تأثير على تطوري . وليس هذا شيئاً غريباً . فقد بدا لي أنه يبرر اشمئزازي الخاص ورفضي للعالم . وكان أحد الخيالات التي كثيراً ما طرأت بذهني هو أن تستبدل اللوحات المعدنية التي تحمل الاعلانات فوق الباصات بلوحات معدنية أخرى تكتب عليها مقتطفات من أشعار إليوت من مثل : « الجنس البشري لا يستطيع أن يحتمل الكثير من الحقيقة » ، « فكروا فينا ليس باعتبارنا أرواحاً شرسة ضائعة ، وإنما فقط باعتبارنا الرجال الجوف ، المحشوين بالقش » . ولم أستطع أبداً أن أفلت من الإحساس بعبثية حياة أولئك البشر الذين يستطيعون أن يعيشوا دون أن يدركوا حقيقة الهوة المظلمة التي تفغر فاها تحت أقدامهم ، ودون أن يدركوا الحقيقة المميتة التي تقول بأنهم مخلوقات من الدرجة الثانية . كرهت الجنس البشري ، وكرهت نفسي لأنني أنتمي إلى هذا الجنس . وبدا لي أن كل القديسين والرجال الذين استطاعوا أن يحترفوا مهنة حب بني جنسهم كانوا من البلهاء المأفونين . وقد قال شو ذات مرة إنه ليس من الصحيح أنه كان بطلاً للفقراء ، فإنه لم يشأ إلا أن يمحي الفقراء وأن يحل محلهم أناس

يتمتعون بالعقل السليم . وشعرت بأن القديس الحقيقي جدير بألا يكون محباً للبشرية ، وإنما هذا الرجل الذي يريد أن يرى انقضاء عصر البشر وأن يحل محلهم نوع من المخلوقات أقل عقماً وغباء . وفي هذا الصدد ، فإنني لم أتغير .

ولكنه قد يكون من الزيف أن أوحي بأنني لم أجرب إحساساً آخر سوى هذه النزعة العدمية الخالصة . لقد كانت هناك أيضاً لحظات ، كثيراً ما كانت ترد في نهاية يوم طويل من القراءة والكتابة ، حينما أشعر بنوع غريب من الطاقة والقوة يغمرني حتى أحس بأنني أتألق كمصباح كهربائي . وفي تلك اللحظات كنت أشعر فجأة بالثقة من أن « الآلهة » كانت تقف إلى جانبي ، وأن البؤس ليس سوى نوع عارض ومؤقت من المضايقات المتعبة ، وبأنني ، وكل الجنس البشري ، سوف نكون من الآلهة . وفي تلك اللحظات كنت أشعر بأنني قوي وقادر على أن أحمل أي ثقل ، وبأنني لا أحتاج إلى الخوف من أي شيء . كانت لحظات من الإحساس بالانتصار والظفر دون سبب . ولكن تلك اللحظات كانت تختفي بعد بضع ساعات من العمل .

ودخلت امتحان الرياضيات ، وحصلت على الدرجة التي كنت أسعى اليها ، وأصبحت على استعداد تام لاستئناف ما انقطع من حياتي كعالم متخصص . ولكنني كنت قد فقدت كل اهتمامي بالعلم في خلال الشهرين اللذين قضيتهما أعمل في مصنع الصوف . وعرض علي مدير مدرسته جيت واي وظيفة مساعد معمل ، وكان العرض أجمل من أن أرفضه . ولكنني قبلته على مضض ، لأنني كنت أعرف أن هذا ليس هو الخط الذي انتويته لحياتي العملية . كنت بالفعل قد قمت بعملية التكريس العقلية التي أشرت اليها . وكانت المشكلة هي أنني لم أستطع التفكير في طريق لتطوير عملي ككاتب سوى الاستمرار في ذلك العمل المخيب للآمال وهو طريق

كتابة القصص القصيرة أو المسرحيات في أوقات الفراغ . وفي غضون سنتين ، سيكون علي الذهاب إلى الجيش ، وفي الوقت نفسه كان علي أن أبقى في ليسستر وأن احاول ألا أسمح لاستئجاري للمكان بأن تدمر رغبتي في الكتابة .

وهكذا فقد قبلت الوظيفة في مدرستي القديمة ، وأنفقت كل أوقات فراغي في كتابة القصص القصيرة والمسرحيات بدلاً من دراسة الطبيعيات . كانت هذه سنة سيئة . وسرعان ما نمت عداوة خفيّة بيني وبين مدرّس مادة الطبيعة ، الذي بدا عليه أنه يبحث عن كل السبل لكي يصب عليّ أنواع المضايقات والاهانات الصغيرة . وأخذت أشرب « جالونات » من اللبن المسموح به في المدرسة دون مقابل ، وأمضيت ذلك العام يغمرني نوع من « البيات » العقلي والجسماني . وفي الواقع ، فقد كانت هناك أنواع من العزاء . لقد ظللت أقرأ مسرحيات شو حتى استظهرت أكثرها عن ظهر قلب ، وكتبت كميات كبيرة من المسرحيات والقصص القصيرة ، وقبل كل شيء ، قررت أن اواظب على كتابة يومياتي ، وكنت قادراً على أن أصب في هذه اليوميات كل أنواع الاحباط وخيبة الأمل التي تتملكني طوال ساعات من الكتابة حتى أشعر بالتحسن . « إن التعبير بالكلمات في اللحظة المناسبة ، قد نفّس عن تلك الفكرة المكبوته » . وفي الصفحات الاولى أعلنت أنني سأكون كاتباً أعظم من برنارد شو ، وأنني طالما كنت – أو من المحتمل أن أكون – قادراً على كتابة مسرحيات أفضل من تلك التي يكتبها برنارد شو ذو التسعين خريفاً ، فإنني أملك من الحق في أن أطلق على نفسي إسم برنارد شو أكثر مما يملكه ذلك العجوز ساكن « آيوت سانت لورانس » .

وأطلعت أصدقاء متنوعين على قصصي ، وأطلعت عليها مدرس اللغة الانجليزية وامرأة كانت تعمل في مكتب التوظيف في بلدة جوانفيل وكانت

تهتم بي اهتماماً خاصاً . ولكن تعلقهم الدائم على هذه القصص الذي كان غالباً « إنها قصص جيدة بالنسبة لسني » كان يجعل الغضب يعصف بي لعدة أيام .

وفي ذلك الوقت تقريباً نشرت أول قصة لي في مجلة مصنع دورهام . كانت القصة تدور حول مقابلة لجماعة من اللصوص ، وكان الأسلوب متأثراً إلى حد كبير بأسلوب ديكنز . (وكنت في ذلك الحين أقرأ رواية « مذكرات بيكويك[1] ») . وكرهت أسلوب ديكنز ، بعد ساعات قضيتها في مصارعة الكلمات ومحاولة صياغة أفكاري في انجليزية القرن التاسع عشر الفخيمة . ولكنني قرأت رواية « يوليسيز » [2] في ذلك الوقت ، وظننت أن أسلوبها خيانة للغة الانجليزية برخصه ونزعته الصحفية . ووافقت أيضاً على ما قاله الناقد فورستر من أن هذه الرواية كانت محاولة متعمدة لاغراق العالم بالطين . وكانت هذه الرواية مهرباً سيئاً للغاية من الوعي الدائم بوضاعة ليستر ، دون أن يكون لهذا المهرب – بذلك الفهم – علاقة وثيقة تربطه بما يسمى بالأدب . (وحينما قرأت كلمات هـ. ب.

---

١ مذكرات بيكويك Pickwick Papers ، من أشهر روايات شارلز ديكنز ، ومن أشهر الأعمال الروائية الفكاهية ذات الموقف الإنساني النقدي في القرن الماضي . نشرت عام (١٨٣٦ – ١٨٣٧) . (هـ . م .)

٢ يوليسيز Ulysses أهم أعمال الروائي الايرلندي جيمس جويس (نشرت في باريس عام ١٩٢٢) وتعد مع أعمال إليوت وإزراباوند وكافكا وفرجينيا وولف ، من مكونات تيار « أدب الأنهيار » في العالم الغربي . كانت أول الأعمال التي لفتت الأنظار إلى مؤلفها ، وإلى أسلوب « تيار الوعي » الذي استخدمه في كتابتها ، ويعد بطلها « ستيفن ديدالوس » نموذجاً للاغتراب الروحي في الفكر الغربي . استمدت عنوانها من تطابقها الموضوعي والبنائي مع أوديسة هوميروس (ديدالوس يماثل تليماك الأوديسة ؛ وليوبولد بلوم هو يوليسيز ، وزوجته موللي هي بنيلوب العصرية (وزمن الرواية هو) يوم واحد من الفجر إلى الفجر) يستغرق رحلة بلوم في دبلين التي تماثل في تقسيمها رحلة يوليسيز في الملحمة القديمة بأناشيدها الثمانية عشر . (هـ . م .)

لوفكرافت ، تبينت إلى أي مدى كنت اشبهه في منتصف عقدي الثاني . كان هناك نفس التشاؤم ، ونفس الاحتقار للعالم ، ونفس الكراهية لكل ما هو حديث) .

أعتقد أن نزعتي « العدمية » قد بلغت نوعاً من الذروة في ذلك العام الذي اشتغلت في خلاله في معمل المدرسة . لقد شككت دائماً ، مع بيركلي ، أن الناس الآخرين لا يوجدون حقاً ، ومن الطبيعي أن يقودني هذا الى نوع من الرعب . فإذا كان العالم كله مجرد وهم ، إذن ، « فمن أنا ؟ » ، وما الذي أفعله هنا ؟ وذات يوم ، وكنت قد أكثرت من القراءة (وكان الكتاب كئيباً حول الأدب الروسي) ذهبت الى المطبخ لكي أوقد الموقد ، ففوجئت بأنني لا أرى شيئاً وسادت الظلمة . وقفت مستنداً إلى الموقد ، وشعرت بذهني ينداح تماماً فلا أشعر به ، وينداح معه كل ما أعرفه باعتباره هويتي . وحينما استعادت عيناي القدرة على الابصار ، سيطر علي الرعب . فبين كل ما يحمله قلبي من اشمئزاز وكراهية للعالم ، كان لدي على الأقل شيء واحد أثق فيه ، وذلك هو وجودي نفسه . ولكنني شعرت في الظلمة المطبقة بوجودي يسحب مني بمثل البساطة التي يمكن أن تؤخذ بها قطعة من الحلوى من صبي صغير . وفجأة استبدت بي الرغبة في أن أعرف من كنت اذا كنت قد ظللت موجوداً حينما اختفى بعيداً كل ما أعرفه باعتباره هويتي . أدركت ما عناه إليوت حينما تحدث عن العقل الذي يظل « واعياً » تحت تأثير المخدر ، ولكنه يكون « واعياً بلا شيء » . إن ما بدا لي أنني كنت أعيه في الظلمة كان نوعاً من التيار الكهربائي من الألم يسري في العدم . وفيما بعد، كتبت في يومياتي أن الحياة لم تبد لي في تلك اللحظة في صورة حركة تتجه نحو شيء ما ، ولكن في صورة حركة تهرب من شيء ما — تهرب من نوع من الألم غير المحدد يقوم على الجانب الآخر من الوجود . ولمدة أيام بعد تلك التجربة أصبح العالم في نظري نوعاً من العبث ، وكان النظر

اليه أشبه بالاستماع الى لغة أجنبية غريبة . أما اسوأ ما في الأمر فهو أنني لم اكن قادراً على تحديد شعوري إزاء التجربة ، أكانت تجربة مخيفة ، أم أنهـا كانت مأساة . لقد نفت هذه التجربة ببساطة كل قيمة إنسانية محتملة ، وألغت لذلك كل إمكانية لوصف الإنسان أو وضعه في مكان محدد من أي سلم للقيم . وأحسست كما لو لم يكن من الجدير بي أن أحيا.

وكانت التجربة الاخرى في هذه الفترة هي النقيض لـ « متاهتي » . فقد انتهت بنوع من اكتشاف المعنى . فبعد يوم يتميز بقدر خاص من الاملال والضحالة في المعمل ، فكرت في قتل نفسي . وأحسست بأنـه حتى العبد المسترق للتجديف في السفن ، كان يملك بديلاً لحياته ، نوعاً من خداع قاهره والتخلص منه — بأن يموت . ونمت الفكرة في داخلي ، وقررت أنه من المحتمل أن أكون قـادراً على شرب السيانيد ذلك المساء في فصل الكيمياء التحليلية . ولكن حينما أزفت اللحظـة التي كان علي فيها أن أتناول القنينة من فوق الرف ، عرفت أنني لن أفعـل ذلك ، لا بسبب أنني كنت خائفاً ، ولكن بسبب عدم أهمية مقدار ضآلة ما أحيا من أجله ؛ فمهما كانت ضآلته ، فإن الحياة أفضل من الموت . وبدا لي كما لو كان هناك قدر هائل من السعادة قد انفجر في داخلي ، واجتاحني إحساس غريب بأنني « أقف في صف نفسي » ناظراً إلى الشخص الذي دعوته كولين ويلسون في دهشة هائلة . وبدا لي الأمر كما لو كنت قد عثرت على مستوى أعلى لوجودي . واقتنعت بأنني إذا كنت قد نويت اتخاذ تلك الخطوة المتطرفة بقتل نفسي ، فإنه قد يكون على ما هو أفضل من ذلك ، وهو استخدام نفس قوة الإرادة في سبيل أن أجعـل حياتي أقل إزعاجاً ومشقة . وإذا كان مدرس الطبيعـة هو سبب انزعاجي فقد يكون من الأفضل والأكثر شجاعة أن اقتله هو . وإذا كنت قد عنيت حقاً أن أتخذ خطوة غير معقولة وأن أطرح بعيداً كل المحرمات وأنواع الضغوط ، إذن فـمن الأفضل لي أن أتخذ خطوة أكثر عقـلاً تتركني

وأنا على قيد الحياة . قد يكون من الأفضل أن أغتصب تلك الفتاة التي تكاد تكون كئيبة معتمة والتي تعمل في مواجهتي ، أو أن أصنع أنبوبة مليئة بالنيتروجليسرين فأقذفها على الجدار ، فأضع حداً بذلك لكل الاحتمالات الممكنة ، وسيكون حداً أضعه بيدي نهائياً .

ولا أستطيع أن أتذكر إلى أي مدى حاولت أن أضع هذا القرار موضع التنفيذ . وربما أكون قد أمضيت بضعة أيام أسرق فيها الكتب من المدرسة في جسارة أكبر ، أو أتغيب عن العمل في جرأة أشد ، أو أرتب الأمور لكي أوجه المزيد من الاهانات إلى مدرّس الطبيعة . وبعد قليل ، وحينما كشفت نهاية امتحانات الفصل الدراسي عن قلة ما أنتجته وأنجزته ، كانت المدرسة مضطرة إلى فصلي ، وهكذا وجدت نفسي مرة أخرى بلا عمل . وبدا لي الأمر كله مضجراً ولا أهمية له . وذهبت لمقابلة من أجل وظيفة في مكتب تاجر للصوف ، وكان علي أن أزعم أنني مهتم بتجارة الصوف وأنني أستعد لبناء حياتي العملية في مجالها . وعدت الى البيت مفعماً بالكراهية لمجتمع وحياة أجبراني على إطلاق الأكاذيب السخيفة لكي أكسب الجنيهات التعيسة القليلة كل أسبوع . ولكن تاجر الصوف الحسن الحظ ، استطاع أن يرى ما بداخلي فلم يقبل طلبي . وبعد ذلك ذهبت لكي أرى جامع الضرائب ، وهو رجل مرح سمين يدعى مستر سيد فورد . واستطاع أن يكتشف بلمحة واحدة أنني لم أكن أريد وظيفة ، وأنني سأكون مصدراً لمتاعب لا نهاية لها ؛ ومع ذلك فقد أعطاني الوظيفة ، وأبدى معي صبراً لا مثيل له طوال السنة التالية . ولم أكف أبداً عن الشعور بالامتنان له . لقد كرهت مكتب الضرائب أكثر من كراهيتي للمعمل لو كان هناك مزيد من تلك الكراهية ؛ ولكنني واثق من أنني كنت جديراً بأن أكره أية وظيفة أكثر من أي وظيفة أخرى .

وقد بدا لي أنه من الغباء أن أجبر على الحياة والعمل ، دون شيء

سوى الإحساس بالرفض المطلق لحياتي . ووظيفتي ، وكــان الأشخاص الآخرون في المكتب طيبين بما فيه الكفاية . كانت هناك ميس ميرسون . السيدة البدينـــة ذات الشعر الأبيض التي كانت تعبد العائلة الملكية وتفتتن بكل أعمالها ؛ وكانت هناك جويس ، المرأة المتزوجة الشابة البالغة الجاذبية، التي كانت ترتدي الملابس الغالية وكان من الواضح أنها تشتاق بجنون الى الريفيرا ؛ وكان هناك ديزموند ، وهو شاب بالغ الكفاءة وسيم وأنيق يضع نظارات لا إطار لها ، وكان يشبه جاسوس إيان فليمنج « جيمس بوند » ولكنه بدا بالفعل كما لو كان يحيا حياة لا شائبة فيها ؛ وكان هناك كين الذي كان على وشك أن يتزوج . ولذا كان كثيراً ما يكلمني بإسهاب عن مباهج الحياة الزوجية ؛ وكان هناك مستر جوينر ، وهو سيد اسكتلندي سهل القياد ، وهو رئيسي المباشر ، الذي كان يتمتع بنفس رقة مستر سيد فورد ونفس صبره الطويل . أمـــا أكثرهم أهمية فكانت ميليسنت التي احتلت مركز تفكيري طوال السنة التالية . كانت فتاة يهودية جذابة قصيرة النظر . ذات فم شهواني وصوت من طبقة الكونترآلتو . ولقد تزوجت أخيراً ، وكان زواجها فاشلاً وتعيساً . وكان المؤلف المفضل لدى ميليسنت هو ألدوس هكسلي[1] وكان المسرح والاعمال المسرحية همـا محور اهتمامها ؛ ولم يكن زوجها يقرأ شيئاً سوى مغامرات رعاة البقر في غرب أمريكا ؛ ويفكر بمصطلحات سباق الخيل والطيور . لم يكونا متناسبين كزوجين بصورة كاملة .

وبدأت أرى ميليسنت كثيراً . وكنا نسير بدراجتينا معاً الى البيت

---

١ هكسلي Aldous Huxley (١٨٩٤ –) كاتب وروائي انجليزي عرف بكتاباته التهكمية اللاذعة حول المثقفين المضللين والواهمين وحول الظواهر الاجتماعية الانجليزية في فترة ما بين الحربين . ثم تحول إلى الاهتمام بالنزعة الغاندية (نسبة لغاندي) والتصوف الهندي وعالم ما وراء الطبيعة . هـ . م .

بعد العمل ، ونحتسي الشاي في منزلها . ثم نتحدث عن الكتب حتى يعود زوجها من العمل . ولم يبد عليه أبداً أن اعترض على علاقتي بها ، على العكس ، فقد كان ودوداً معي إلى درجة محرجة ، وكان يخاطبني كما يخاطب الرجل الرجل . كان الزواج واحداً من تلك المواقف التي تذكر المرء بموقف « أنظر خلفك في غضب » كان هنري لطيفاً ساحراً مليئاً بالحيوية ، ولكنه كان يتحدث بلهجة عوام لندن ، وكان يشعر بأن ميليسنت تنظر الى افتقاره الى الثقافة من عل . لهذا فقد كان يستمتع بأن يثبت أنه هو السيد في البيت ، مصدراً إليها الأوامر بأن تطبخ له أكلاته أو أن تعد الشاي ، وينغمس في خطب مسهبة يهاجم فيها الكتب التي تقرأها . وكان يقضي عطلاته الأسبوعية في الفراش يقرأ قصص هانك جونسون عن رعاة البقر ويشرب أعداداً لا نهاية لها من أقداح الشاي . أما أنا وميليسنت فكنا نخرج في رحلات طويلة بالدراجات ونتحدث عن « الافكار » وبصورة حتمية كنت عظيم الافتتان بها والانجذاب إليها ، ولكن خجلي كان أعظم من أن أصرح بأي من ذلك . ومن الجانب الآخر ، كنت في السابعة عشرة ، ولا خبرة لي مطلقاً بالجنس (إلا إذا حسبت أحلام اليقظة من قبيل التجارب) فوجدت أنه من المزعج جسدياً أن أكون على احتكاك مستمر بامرأة شابة متزوجة كانت لعينيها دائماً تلك النظرة الحالمة التي لا تبدو إلا بعد ممارسة الجنس .

ورغم الاحباط ، قررت أن أستمتع بالأمر . وكانت ميليسنت عضواً في « جماعة الدراما بكلية فوجان » ، التي اشتركت فيها . وكانت النشاطات المختلفة نوعاً من التنفيس ، رغم أنني قد بدوت لنفسي كما لو كنت أنفق وقتي في أن أجعل من نفسي أضحوكة غبية ، أدق على أقداح الشاي وأزحف على ركبتي وأنقر بقدمي على الأرض . واشتركت في

دراسات خاصة للشعر الحديث ، والرقص الشعبي ، ومسرح برنارد شو ، وقمت بالتمثيل في مسرحية درايدن[1] « الكل للحب » . وقابلت أيضاً : رجلاً شاباً ، سأدعوه « جيرالد » ، أثر في سلوكه الفاتر وأسلوبه المتكلف ، بقدر ما تأثر ايوجين جانت في رواية وولف[2] عن الزمن والنهر » بشخصية ستارويك ، وبدأت بيننا صداقة عجيبة ، أو بالأحرى عاصفة عجيبة لأنني لم أكن اشاركه ميوله الجنسية ، ومع هذا فقد كنت مفتتناً بـه مسحوراً بشخصيته . لقد جاء مثلي من بيئة تنتمي إلى الطبقة العاملة في ليستر ؛ وعلى عكسي ، كانت لـه أمّ صممت على أنه ينبغي أن يتحصن من غوائل العالم وتقلباتـه . ورغم الموقف العدائي الذي اتخذته أسرته ، فقد خرجت أمه إلى العمل لكي تزوده بما يحتاجه . وحينما تحدثت معه أول مرة ، ترك لدي انطباعاً بأنه إبن لاسرة ثرية ؛ وحينما ذهبت لزيارته أول مرة ، دهشت حينما وجدتـه يعيش في منزل صغير مزدحم ، وكانت مائدة الافطار ما تزال دون تنظيف في منتصف النهار . إلا أن مكتبته كانت حافلة بالكتب الثمينة ، وكان يتحدث بشكل عارض عن رحلاته إلى القارة الأوروبية . كان يكبرني بعامين ويتحدث بتشدق مقصود في صوت أرستقراطي . كان قد نجح إلى درجة أفضل مني بكثير في اجتثاث كل آثار لكنة أهل ليستر .

---

١ درايدن John Dryden (١٦٣١ – ١٧٠٠) شاعر وكاتب درامي وناقد انجليزي ، ويعد « الطاغية الأدبي » في عصر عودة الملكية في انجلترا . وأصبح شاعر البلاط في هذا العصر . ويعد شعره في تماسكه التقليدي نموذج الشعر الكلاسيكي الجديد ، وكان أول من استخدم بناء « المقطع البطولي » في الشعر الانجليزي في مجال الشعر التعليمي والتهكمي . (هـ . م .)

٢ وولف Thomas Clayton Walfe (١٩٠٠–١٩٣٨)روائي أمريكي،عرف بتطرف نزعته الفردية والروحية ، وأسلوبه الخطابي ، واحتفاله الصوفي بالشباب والجنس . تأثر بتيودور درايزر وسينكلير لويس ، وخاصة بجيمس جويس . الرواية التي يشير اليها المؤلف (نشرت عام ١٩٣٥) تعد الجزء المكمل لرواية سابقة هي « انظري إلى البيت ، يا ملاكي » . (هـ . م .)

تحدث إلي عن عالم « الجميل والنادر » . وحينما أطلعته على واحد من أطول قصصي القصيرة وأكثرها فلسفية ، قال بشكل عارض « لا قيمة لها بالمرة » . وكان يخص بأكبر قدر من إعجابه ، أوسكار وايلد ، وكان لعالم كبار الأثرياء والغنى الفاحش نفس التأثير عليه الذي كان لهذا العالم على وايلد وسكوت فيتزجيرالد . كان قد قرأ كتاب المسرح الاليزابيثيين – في طبعات محدودة أو ملخصة إن أمكن – وكان يتمتع بمعارف موسوعية في الموسيقى وفي التصوير .

كان ذوقانا يختلفين اختلافاً كاملاً ؛ كنت أحتقر « الجميل » وأستمتع باقتباس كلمات دون جوان اللاذعة الهازئة حول النزعة الجمالية المتخمة التي يحملها الملعونون في رأيه . وكان يعجب بكتابات د. هـ. لورنس ، ويرى في نفسه تشابهاً معه في علاقاته مع أمه ؛ وكنت أنا أرفض أدب لورنس . وبوجه عام لم يكن هو عميق الاهتمام بالأفكار ، ولكنه كان يتمتع بعقل نقدي حاد .

وكان يحب السير على الأقدام مثلي . وكان قادراً على أن يخرج للسير في العاشرة مساء فيسير على امتداد شارع « طريق جروبي » بأنواره البرتقالية الهائلة التي تطل على الشارع من أعمدة رفيعة شاهقة . وكنا نعود عبر مزرعة نيوباركس الحديثة البناء ، وفي بعض الأحيان نزور عمة لي كانت تقيم هناك . وإذ نصل في عودتنا إلى منزله في الساعات الأولى من الصباح ، كنا نصنع القهوة ونتحدث حتى الفجر . ثم أركب دراجتي عائداً عبر ليستر ، فأنام ساعة واحدة ، ثم أنهض للذهاب إلى العمل . ولكني على الأقل ، كنت أعتقد أنني أحيا حياة ترمز إلى تمردي على حياة الوظيفة والخدمة المدنية وعلى الانحطاط العام الذي يخيم على ليستر .

وقد قامت مشاجراتنا دائماً لسبب واحد متكرر : فقد كان يؤمن بأن الرجل المتفوق » لا بد أن يتمتع بشيء من القسوة الأرستقراطية .

وكان حكمه اللامبالي على قصتي نموذجاً لهذه القسوة . وربما كانت هذه الفكرة مستمدة من وايلد ، أو ربمـــا كانت شيئاً طبيعياً فيه . ولكنها كانت تعني أنه قد يتحول بقسوته الأرستقراطية إلي ، في أي لحظة يمكن أن يدفعه مزاجه إلى ذلك . فعلى سبيل المثال ، حدث في أحد الأيـــام حينما كنت في زيارته أن كان جالساً يقرأ في مقعده ذي المساند . وطرقت النافذة ؛ فرفع بصره ؛ وغمغم بشيء مـــا ، ثم صاح « انصرف » . وانصرفت وأنا ألتهب بالغضب ، وأقسمت ألا أتحدث اليـه ثانية أبداً . ولكن الضجر والوحدة قاداني اليه مرة أخرى بعد بضعة أيـــام ، حينما عاد مرة أخرى إلى سلوكه الودود المهذب . وكان يتمتع بأنه قد يتصرف أحياناً على هذا النحو ثم يغفر له أصدقاؤه تصرفه . « فعلى أي حال ، يجب أن يسمح للروح الأرستقراطي المتكبر أن تكون له هناته وتقلباته ..» .

وكان منغمساً في كتابة رواية طويلة عن الشذوذ الجنسي وعن « ثلاثي » من الرجال يضم أحـــد الجنود الشبان ؛ وكان أحد الموضوعات الأساسية في الرواية ، الاشتياق الذي يعانيه الشاذ جنسياً إلى أمـــه . واطرد تقدم الرواية في اضطراب ؛ كان قد كتب البدايـــة والنهاية ، وبعض المشاهد من المنتصف . وحينما اكتشف روايات بروست ، قرر أن تكون روايته في حجم يبلغ اثنى عشر مجلداً ، ولكن استبقى نفس البدايـــة والنهاية . وفي السنوات العشر التي انقضت منذ رأيت هذه الروايـــة لأول مرة ، أصابها الكثير من التغيرات في الأسلوب والفكرة وطريقة التناول ، ولكن الأقسام الأصلية بقيت على حالها ، لكي تعطي جو المنزل الريفي ، الذي منحه اثنا عشر مالكاً مختلفاً باضافاتهم للأجنحة المختلفة ، كل الأساليب الممكنة .

ولما كنا نمارس الكتابة ، فقد أنفقنا الكثير من الوقت يقرأ كل منا لصاحبه آخر ما كتبه من صفحات . ولقد كان هـــو الذي لفت نظري

إلى مذكرات نيجنسكي وإلى حياة فان جوخ وأعماله ؛ وقمت أنا بالمقابل بتعريفه على أعمال إليوت وجويس . (وقد قرأ رواية « يوليسيز » من الغلاف إلى الغلاف في يوم واحد ، ثم أعاد قراءتها بتمهل شديد) . وإذ أسترجع الآن هذا الماضي ، أتبين أنني أدين بالكثير لجيرالد .

وقد كان موقف ميليسنت من علاقتي بجيرالد مختلطاً ، كانت تنظر اليه باحترام من نوع معين ؛ ولكني أظن أنها لم تكن شديدة الاعجاب به . وكان معنى علاقتي به أيضاً ألا أراها كثيراً أيضاً . أما من جانبي ، فلقد وجدت أن كلا العلاقتين غير كافيتين بالنسبة لي ؛ ولكن كلاً من العلاقتين أمدتني بالعزاء والراحة ، حينما تصاب الأخرى بعدم الاستقرار والتقلب . ولقد وجدت أن الاقتراب الوثيق من ميليسنت كان مخيباً للآمال ومحبطاً ، بينما أعتقد أن جيرالد قد وجد أن « طبيعيتي » الثابتة وعاديتي ، أمر مخيب للآمال ومحبط بصورة مساوية . وكانت المشاجرات بيننا تنشب دون إنذار . وكثيراً ما وجدت نفسي أحاول أن أجرح جيرالد بأن أقول له بصراحة ما كنت أعتقد أنه الحقيقة عن نفسه ؛ ولكنه لم يظهر أبداً إذا كان هذا السلوك من جانبي قد جرحه أو آلمه . فقد كان ينظر إلى ظهوره بمظهر من يعلو على كل هجوم أو نقد ، نظرته إلى مسألة من مسائل الشرف . وقد قال لي ذات مرة أن شقيقه الأكبر قد تشاجر معه حينما كانا يجلسان إلى الطعام ، وأن جيرالد كان هادئاً لا يستفز بينما اختطف أخوه صحنه الذي يأكل فيه غداءه وحطمه على رأس جيرالد . واستمر جيرالد في تناول طعامه بهدوء ، بينما كان شعر رأسه مليئاً بشظايا الفخار الصغيرة ، والدم والدهن يسيلان ممتزجين على صفحة وجهه .

وقد اصطنعت صديقاً حميماً آخر في كلية فوجان ، وهو الكاتب المسرحي دافيد كامبتون . كان يكبرني بخمسة عشر عاماً ، وكان صريحاً وطيباً مثل مستر ميكاوبر ، كما كان ممثلاً لامعاً للشخصيات النمطية وكاتباً

مسرحياً يتمتع بحماسته الفكاهيـــة المتميزة . وكان يعمل في تلك الفترة في شركة الغاز ويعيش مع والديه . وربمـــا كان يتسامح معي ويرحب بي بدافع من طيبته وتهذيبه ؛ ولم يبد عليه الانزعاج ، في كل الأحوال ، إذا ما ذهبت لزيارته مرتين في الأسبوع ، لكي أقرأ له قصصي القصيرة ومسرحياتي . وقد تملكني حب كبير لدافيد : ما زال حياً حتى اليوم .

وجعلت هذه النشاطات من عامي السابع عشر أكثر احتمالاً من العام السابق . ثم في بداية عام ١٩٤٩ ، دخلت الامتحان من أجل أن أصبح موظفاً مدنياً رسمياً ؛ ولاشمئزازي الشديد ، اجتزت هذا الامتحان ، وعينت على الفور في بلدة رجبي على بعد تسعة عشر ميلاً من ليستر . ومرة أخرى وجدت نفسي هنا ملولاً يقتلني الضجر والقلق ، أتلهف دون صبر على أي شخص أخلق معه علاقة ما ، ثم لا أصبر عليه إلا قليلاً . وعثرت على غرف للايجار في شارع هيلمورتون ، خلف المدرسة ، على بعد خمس دقائق من كوخ روبرت بروك . وكان جيرالد قد عرفني على شعر بروك، وكنت أنا قد أحببت هذا الشعر . وكانت بلدة رجبي هادئة ساكنة ، والصيف فيها جميلاً ، شديد الحرارة ؛ ولكنني كرهت المكتب ، وكنت أعرف أن مالكة الغرفة التي أسكن فيها تكرهني . كان عليّ أن أتناول طعامي مـــع الأسرة ؛ وكان لديهم كلب شرس صغير ، لا يكف عن النباح والزئيط طوال وجـــودي في الغرفة . وبذلت جهدي لكي أصبح « متكيفاً » ولكن هذا كان شديد الصعوبة لكراهيتي للمكان . وبدأت في كتابة رواية فكاهية متأثرة بكتابات تشسترتون ، تدور حول مجموعـة من الطلبة الذين يدرسون الفن ويستأجرون غرفهم في بلدة صغيرة هادئة ، ويزعجون كل مخلوق فيها بسلوكهم غير المحتشم . (وفي هذه الفترة لم أكن أعرف شيئاً عن الطلبة ، وحاولت أن أرسم صورة مثالية للحياة في إحدى الكليات) . وسرعان ما أصبحت عضواً في المكتبة العامة ، التي ظهر أنها مكتبة جيدة بصورة غير عاديـــة ، وأنفقت الصيف في دراسة

« يقظة فينيجان[1] » بمساعدة كتاب « مفتاح الأساس Skeleton Key » الذي وضعه للرواية جوزيف كامبل ، هـ. م. روبينسون . واشتريت أيضاً رواية « دكتور فوستس » لتوماس مان التي كانت قد نشرت منذ قليل وخاب أملي فيها . ولقد سحرني موضوع فاوست ، وكان باستطاعتي أن أتلو عن الذاكرة صفحات متتالية من ترجمة لاثام لمسرحية جوته . ونويت أن أكتب معالجتي الخاصة لموضوع « فاوست » لأنني اكتشفت في فاوست جوتـــه رجلاً بدا لي أنه يشعر بنفس النزعة العدمية التي عانيت منها أنا نفسي . وبدا لي أن جوته قد غشنا بأن جعل فاوست يقبـــل الحسناء جرتشن كبديل للمعرفة التي كان يصبو إليها ؛ وأردت أن أحاول خلق فاوست يملك الشجاعة على المطالبة بأن يكون نداً لله شبيهاً به ، ولا يرتعد أو يغطي عينيه حينما يواجه روح الأرض .

أما « دكتور فوستس » التي كتبها مان ، فقد صدمتني برداءة كتابتها وخشونتها وروح الهواية الشائعة فيها . ولا شك أن مان كان يقصد أن يكون « زيتبلوم » قليل الوضوح كشخصية لأحد الهواة ، ولكن هـــذا

---

١ يقظة فينيجان Finnigan's Wake وتترجم أيضاً « جنازة فينيجان» وهي الرواية الكبرى الثانية لجيمس جويس واستغرقت كتابتها سبعة عشر عاماً (١٩٢٢ – ١٩٣٩) . واستخدم فيهـا جويس ما يكاد يكون لغة خاصة به، نحتها من الكلمات الانجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية واللغات القديمة والحديثة عن طريق الدمج والتجزئة والتحوير الصوفي ... الخ .

ويقوم نسيج الرواية على الأحلام والكوابيس التي تنتاب عائلة «هـ . س . إيرويكر »أثناء نومهم في ليلة واحدة ، لكي تكشف أحداث يومهم السابق ومصادر قلقهم وأفكارهم الخفية ورغباتهم المكبوتة ، على خلفية من مناظر مدينة دبلن وجوها ، ومن خلال ذلك تلخص رؤية المؤلف لتاريخ الحضارة البشرية ، وفكرة الخطيئة الأصلية ، وسقوط الإنسان ، والخلاص . ويشير العنوان إلى معنى ديني وقومي ، فهو مستمد من عنوان أغنية قصصية موسيقية بطلهـــا « تيم فينيجان » الذي يموت ويبعث من جديد ، وهو شخصية رمزية رئيسية في طول الرواية . وقد حافظ المؤلف على مستويات المعنى الأربعة في روايته (المستوى الحرفي ، والرمزي ، والباطني ، والأخلاقي) على طول فصولها الأربعة . (هـ . م .)

يس بالعذر الكافي لبعث الضجر في نفس القارىء . (ولقد خاب أملي أيضاً في نثرمان ، وخاصة أنني سمعت الكثير من التأكيدات عن عظمة أسلوبه ، وقد كان أستاذاه أيضاً جوتـه وريختر صاحبي أسلوب نثري متعب ، حيث كانا غالباً ما يستخدمان ثلاث كلمات بدلاً من كلمة واحدة كافية ومؤدية . وبينما كان مان كاتباً عظيماً دون شك ، فإن الزمن قد تخطى أسلوبـه بصورة سخيفة ، تماماً مثلما تخطى أسلوب ديكنز منذ قرن مضى) . وبينما أعـود الآن إلى فوستس أكثر ممـا أعود الى أي كتاب آخر من كتب مان ، فإنني ما أزال أرى أن فقرات كاملة من الكتاب فقرات غير ناجحة — وهناك فقرة موت الطفل على سبيل المثال التي تبدو خطابية وذات نزعة عاطفية مسرفة .

وعلى كل الأحوال فإن فاوست مان ، قد خيبت أملي بتجنبها كل قضية كانت تثير اهتمامي ، وشرعت في كتابة فاوست الخاصة بي بالشعر الحر ، ولكنها لم تكد تتجاوز الفصل الأول . طالما أنني لم أكن أملك أدنى فكرة تزيد عن فكرة جوته في كيفية حل أزمة الله عند فاوست .

اشتركت أيضاً في الكلية المشابهة لكلية فوجان في رجبي ، وقمت ببعض الدراسات حول الرقص الشعبي ؛ ولكنني لم أعقد أية صداقات خاصة ، وغادرت الكلية دون أسف .

وفي المكتب كانت الأعصاب تزداد توتراً وثورة . وكان جامع الضرائب أقل صبراً مع غموضي من مستر سيد فورد ؛ واعتاد رئيسي المباشر في المكتب في النهاية على تقريعي دون توقف . الأمر الذي دفعني ذات مرة إلى تهديده بأن أضربه حتى تتورم عيناه . ولم يؤد هذا إلى زيادة شعبيتي . وفي أحد الأيام ، حينما شعرت بأن المكتب أصبح مكاناً لا يطاق بصورة متميزة ، قررت أن أبقى ذلك اليوم في حجرتي ؛ وأعلنت صاحبة المنزل بأنني مريض . وبعد نصف ساعة . ويا لشدة اشمئزازي ، ظهر جامع

الضرائب شخصياً لكي يسألني لماذا لم أذهب إلى العمل . وفي غضب وثورة قلت له أن يهتم بشؤونه ، فاسرع خارجاً في اندفاع . وسمعت مالكة البيت صوت المشاجرة ، وانتهزت الفرصة لكي تنذرني بضرورة إخلاء الغرفة . وامتطيت دراجتي إلى مكتب العمل ، سألت عن قسم الايجارات والاسكان ، وكانوا قادرين على أن يوجهوني إلى نزل في نهاية شارع ليمنجتون . فعدت أدراجي إلى غرفتي ، وجمعت حاجياتي وذهبت إلى النزل . وعشت هناك طوال الشهرين الباقيين لي في رجبي ، وأصبحت أكثر سعادة مما كنت عليه طوال سنوات . لقد ناسبني المكان تماماً . لم يهتم أحد بما أفعله أو متى أتناول طعامي . وكان من المؤسف أنني لم أكتشف هذا النزل حينما جئت إلى رجبي منذ البداية ، فقد كان من الممكن أن يوفر علي بعض التعب والقلق . واشتركت في الغرفة مع شاب من نفس سني ، وهو مهندس ميكانيكي . وكان نادراً ما يأتي إلى الغرفة . وكنت أنا أقرأ رواية سومرست موم « القمر والست بنات » وكنت أيضاً قد شرعت في دراسة فن التصوير والنحت ، بعد أن استعرت عدة من دوائر المعارف الضخمة عن الفن من جيرالد . وطوال ما يقرب من الأسبوعين . عشت وأكلت وشربت جو فن التصوير ، ووجدت أنه أكبر تجاربي وخبراتي إثارة منذ اكتشافي للعلم . وكانت هناك لوحات لمناظر خلاوية لكل من كورو أو جيورجيون تؤثر فيّ تأثير الخمر ، فتتركني كالسكران .

ولقد شاهدت أيضاً أول أوبرا في أثناء اقامتي في رجبي ؛ وكانت الأوبرا هي « كارمن » لبيزيه ، فسافرت إلى كوفنتري لرؤيتها . ولقد أحببت الموسيقى دائماً ؛ وحينما كنت في الحادية عشرة ، نما لدي ذوق يحب الموسيقى الكلاسيكية بتأثير بعض الأفلام السينمائية . (هل استطاعت أية لغة في العالم أن تنحت كلمة دقيقة إلى درجة كافية لتمييز نوع الموسيقى الذي يؤلفه موسيقيون « جادون » من الأغنيات وموسيقى الجاز

الشائعة ؟ إنني أرتجف دائماً حينما أكون مضطراً إلى استخـــدام كلمة « كلاسيكي » لكي أميّز بين فاجنر وبين ايرفينج برلين) . وكان أكثر هذه الأفلام أهمية هو فيلم « فانتازيا » ؛ ولكن رغم أن تأثيره الطويل المدى كان أعظم من أي فيلم آخر ، فمن المؤكن أن تأثيره الفوري كان أقل من تأثير أفلام من نوع « ضوء القمر الخطير » (وقد كان كونشرتو وارسو هو الذي يعزف فيه) ، أو « جبل الزجاج » ، « كونشرتو » (الذي استخدم كونشرتو البيانو الثاني لرخمانينوف) ، وأخيراً جاء فيلم إريك كوتس وهولست المسمى « الكواكب » . وفي الفترة التي شاهـدت فيها أوبرا كارمن كنت قد تعودت على الإصغاء الى الحفلات الموسيقية التي تذيعهـــا الإذاعة البريطانية كل أربعاء لمدة سنوات ، بل إنني كنت أستمع من حين الى حين الى بعض الأوبرات في المذياع ، ولكنني كنت أجد ذلك أمراً مضجراً .

وعلى ذلك فإن شيئاً لم يعدني لاستقبال تأثير « كارمن » (رغم أنني حينما أحاول الآن أن أتذكر هذا الحدث ، أتذكر أن شو كان عليه أن يشاهدها المرة تلو المرة حينما جاء إلى لندن لأول مرة في شبابه) . « لقد بدا لي أنه من المدهش أن استطاع مؤلف موسيقي أن يحافظ على تماسكه وتماسك موسيقاه ومناظره طوال ساعتين كاملتين . وكان عليّ أن أترك المسرح قبل نزول الستار الأخير بعشر دقائق لكي ألحق بالباص الأخير ، ولكنني كنت دائماً . وطوال أيـــام بعد ذلك ظللت أترنم بأنشودة « بعيداً فوق التلال « Suis nous à Travers la Campagne او أغنية الفجر . وقذفت بـي الأوبرا إلى حالة من الكآبة شبيهة بكآبة ييتس ، لأنني رحت أفكر في اسبانيا وفي الترحال والسفر بدلاً من التفكير في وظيفتي وفي ثمن العشاء بالنزل ، وبدت لي الحرية بعيدة بلا حدود .

وحينما عينت في رجي كنت قـد تقدمت بطلب للحصول على منحة

انتقال ، على أساس أنني كنت أعمل كموظف مدني رسمي في ليستر طـوال أسابيع قبل أن يتم تعييني ، وعلى ذلك فقد كان باستطاعتي أن أقول إن تعييني في رجبي كان في الواقع نقلاً لي وليس تعييناً . ولدهشتي الشديدة ، وصلني مبلغ عشرين جنيهاً ذات صبـاح إلى المكتب . وعلى الفور ، قررت أنني جدير بأن أستخدم هذا المال في محاولة الحصول على « بعيداً وفوق التلال » قبل أن يصلني الأمر بتأدية « خدمتي القومية ». فاشتريت دراجة جديدة مقابل ما يقرب من أربعة عشر جنيهاً ، وانطلقت إلى منطقة البحيرات في إجازة شهر أغسطس (وكان هذا التصرف أنانية من جانبي ، فقد كانت أسرتي بحاجة إلى المال أشد من حاجتي إلى اجازة، ولكن هذه الفكرة لم تطرأ ببالي) .

وكانت هذه أول اجازة لي في حياتي ، إذا لم أحسب حساب الأيام العابرة التي كنت أقضيها في بلدة سكيجنس قبل الحرب . ووضعت خيمة صغيرة على ظهر الدراجة ، وأخذت ملاءة واحدة . ونمت الليلة الأولى في بلدة ماتلوك ، وتجمدت عظامي من شدة البرد . وبعد ذلك فكرت في أن « ألف » جسمي بقماش الخيمة السميك ، وجعلني ذلك أظل دافئـاً وجافاً ، حتى تحت المطر الثقيل .

ولسوء الحظ ، كانت فكرتي عن الجغرافيا فكرة غامضة ؛ وظللت – حتى نظرت إلى إحدى الخرائط – أظن أن منطقة البحيرات تقع في مقاطعة سوزي . وحينما اكتشفت أن هذه المنطقة كانت تبعد عن ليستر بما يزيد عـلى مائتي ميل ، ترددت وانتابني الخور ، ولكنني استعدت تصميمي على الذهاب إلى هناك . ولم يكن لدي إلا القليل جداً من الوقت، ومقدار من النقود لا يغني الكثير . وفي يومي الثاني سرت بالدراجة عبر مانشستر وبولتون ؛ وفي اليوم الثالث وصلت إلى كيندال حيث أجبرني المطر الثقيل عـلى النوم في نزل الشباب ووصلت إلى وندرمير بعد ظهر

اليوم التالي ، وأمضيت الليل هناك ، وشرعت في العودة إلى ليسستر مرة أخرى في الصباح التـــالي وليس معي سوى نصف جنيه . ووصلت إلى هادرزفيلد في ذلك اليوم . وفي اليوم التـــالي سرت بالدراجة إلى ليسستر فاستغرقت لذلك ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة ، لا آكل سوى الخبز والزبد الصناعي والكاكاو الممزوج بالسكر — وكان هذا هو كل ما تبقى لدي . ولم يكن في هـــذه الرحل الكثير من الراحة ، مثل كل رحلاتي الأخيرة بالدراجـــة . ومع هذا فمازلت أذكر انتعاشي الهـــائل في اليومين الأولين ، الانتعاش النابع من الانطلاق الحر على امتداد التلال الطويلـــة التي تمتـــد من دير بشاير وتخترق ستوكبورت ، وتدفعني إلى اتخـــاذ قرار بأن أتعرف بنفسي على بلادي قبل أن أسافر إلى غيرها من البلاد الأجنبية .

وكنت أتوقع أن تكون أوراق استدعائي قـد وصلتني قبل عودتي ، ولكنني شعرت بخيبة الأمل لأنني لم أجدها ، فعدت أدراجي إلى رجبي . ولما كنت قد تخليت عن غرفتي بالنزل ، فقد كان علي أن أسافر يومياً بالقطار ، أو بالدراجة من حين إلى حين . وأخيراً وصلت الأوراق . فذهبت إلى كوفنتري لتوقيع الكشف الطبي ، فذهبت إلى قاعدة السلاح الجوي الملكي في شهر سبتمبر .

الفَصل الخامِس

السلاح الجوي وما بعده

قبل ساعة واحدة من مغادرتي المنزل لكي ألحق بالقطار المتجه إلى بلدة بـادجيت في مقاطعـة لانكشير جلست جلسة طويلـة إلى يومياتي . وكتبت أقول إنني متوجه الآن لكي « أواجه الحياة » ولكي أكتشف ما إذا كانت معادية لي حقاً أم أنها لا تبالي بشأني . فمنذ الحادية عشرة من عمري كنت دودة قارضة للكتب وبالتالي فلم يكن لدي فكرة عـن طبيعة العالم الحقيقية . وقد خان تعبيري عن هذه الفكرة موقفي المعتاد المعادي للبشر ، أما ما عنيته حقاً فهو أنني طالما لم أمنح « القدر » فرصة لكي يبدي نواياه نحوي ، لأنني قد كنت دائماً بالقرب من حماية البيت ومأواه.

وقد شعرت بأن السلاح الجوي الملكي قد يكون أكثر عتامة وجهامة من كل توقعاتي . أما أبي ، الذي طالما احتقر وكره حبي للكتب ، فقد كان يقول دائماً في لحظات الغضب إن الجيش « سوف يلقنني درساً ». فإذا كان هذا الدرس من النوع الذي أراد أبي أن يلقنني إياه ، فلم يكن لدي شك في أنه سيكون درساً كريهاً بما فيه الكفاية .

ولكنه في الحقيقة ، كان درساً أكثر متعة وبهجة مما توقعت . كانت

هناك بضعة أيام متثاقلة في باد – جيت ، حيث أعدت قراءة « فاوست » ، « يقظة فينيجان » ، وأنهيت كتابة قصة قصيرة عن امرأة من شهود يهوه في منتصف العمر تستسلم لشاب في الثامنة عشرة وتسمح له باغتصابها . (ولكي أجمع المادة اللازمة لهذه القصة كنت قد اشتركت في عدة اجتماعات لأعضاء شهود يهوه) . أسميت القصة « أعجوبة مايا » لأنني كنت قد أكتشفت « البهاجافادجيتا [1] » في ذلك الحين .

وحدث بعد ذلك أن انتقلنا إلى بريد جنورث في مقاطعة شوربشاير ، وبدأ هناك في جدية تدريبنا العسكري (على التشكيل الحربي) . ولكنني كنت دائم التمرين من قبل ، ولذلك لم ألق صعوبة في التدريب . ولأول مرة منذ سنوات عدة شعرت بالسعادة وبالصحة الجسدية . وساهمت « البهاجافادجيتا » ، أيضاً في خلق إحساس بالتفاؤل ، ورحت أحمل الكتاب معي في كل مكان . لقد بدا لي الآن بصورة واضحة أن القوة العقلية هي النوع الوحيد من القوة الذي يستحق أن يبذل في سبيله أي شيء . وكانت المشكلة ببساطة هي أن يقدر المرء أنه على قيد الحياة . وقد يبدو هذا أمراً بسيطاً إلى حد بعيد ؛ ومع هذا فإن أكثر الناس لا يتعلمون أبداً كيف يستمتعون بحياتهم ، لأنهم يعيشون بدرجة كبيرة من قصر النظر.

---

[1] بهاجافادجيتا – أهم فصول القصيدة الملحمية الهندوكية الطويلة « المهابهاراتا » والجزء الذي يضم صلب الديانة الهندوكية . تتكون الجيتا من ثمانية عشر فصلا أغلبها من صورة حوار بين أرجونا بطل الملحمة وبين سائق عربته الحربية كريشنا الذي جاء ليعلم البطل الحكمة ، لأن كريشنا هو تجسيد للإله الأعظم فيشنو . واسم هذا الجزء « بهاجافادجيتا » يعني : « أغنية الإله المبارك » لأن كريشنا هو الذي يعرض حكمته وأقواله فيها ، والتي تدور معظمها حول شرح فكرة خلود الروح ، وحول ضرورة اتخاذ موقف ايجابي في المجتمع والحياة ، وحول وحدة هوية كل الأنبياء وأنهم جميعاً يمثلون فيشنو في تجسدات متعددة ، ولكن المشكلة الأساسية لأرجونا هي مشكلة : كيف يتصرف الإنسان مع أعدائه وهو الذي يريد أن يكون طاهراً ؟ هي التي تفجر الحوار مع كريشنا ، وتنتهي باقناع أرجونا بضرورة القتال ، فيقاتل ، وينتصر . (هـ . م .)

وفي خلال السنوات التي قضيتها في المكاتب أو في صفوف الدراسة كنت أشعر بأن عقلي كان ببساطة حملاً ثقيلاً يجعل الحياة شيئاً مزدوج الصعوبة. أما الآن وقد أصبح جسدي صحيحاً وقوياً، فقد بدا لي أن العقل هو القوة التي تستطيع أن تحقق التحرر من الغباء والتفاهة التي وقع كل الناس في شركها. لقد منحتني الجيتا قدرة على التباعد عن التفاهة اليومية، وجعلتني أدرك إمكانية الوجود الذي يبقى عبر ملايين السنين.

أنت وأنا، يا أرجونا
قد عشنا مرات كثيرة
وأنا أذكرها جميعاً
أما أنت فلا تذكرين.
إنني السيد الذي لم يولد
ولا يموت، لكل ما يتنفس.

وأحببت أيضاً تكرار قراءة قصيدة يبتس « موهيني تشاترجي وخاصة سطورها:

براهمان هو الصلاة
براهمان هو القربان
براهمان هو المصلي ومقدم الضحية
إلى النار التي هي براهمان
فإذا رأى إنسان براهمان
في كل ما يفعل
فسوف يجد براهمان.

كنت أجد نفسي اكرر هذه السطور في أرض الاستعراض أو في صالة الطعام. كان هذا هو نوع الثقة الذي كنت بحاجة دائمة اليه. « فلم يوجد الذي يبحث عن براهمان ثم ينتهي إلى نهاية سيئة ». ولم تزعجني

حقيقـــة أن أجزاء معينة من الجيتـــا تتناقض مع فكرة شو عن النشو والارتقاء. (وإذ أعيد فحصها الآن فإنني لست واثقاً من أنهما يتناقضان). فقد كان كل ما يهمني هو أن أضمن قوة الإرادة الموجهة نحو السعي إلى الحرية المطلقة.

فرغم أن الإنسان هو أعظم الخطاة

فسوف تحمله هذه المعرفة فوق خطيئته كما يحمله الطوف فوق الطوفان.

* * *

كان هذا التصور العقلي هو مـــا أنعشني وزاد من قوتي: فكرة أن سيأتي اليوم الذي يصبح فيه كل الناس مثاليين دون أنانية، لا يهتمون إلا بالتغلب على شرور الأوضاع الإنسانية وقهرها وتعلم الهدف من الحياة. وعثرت على نفس العقيدة عند أفلاطون – وبالذات في الصفحات الأخيرة من محاورة «المأدبة»[1] ووجدتها عند شيللي وعند شو. وقد يكون هناك بعض الخلاف حول كيفية الوصول إلى تلك النهايـــة، ولكن لن يكون هناك خلاف حول النهاية نفسها.

وبعد بضعة أسابيع من وصولي إلى بريدجنورث ثارت زوبعـة سخيفة في فنجان كادت تؤدي بـي إلى ساحة المحاكمة العسكرية. فعلى التذكرة المعلقة فوق فراشي كنت قد كتبت أن عقيدتي الدينية «د. س» وكان معنى هذا أنه لا ينبغي عليّ أن أشترك في الصلاة الكنسية الجامعـــة في

---

١ «المأدبة» إحدى محاورات أفلاطون مع إكسينوفون في بيت الشاعر أجاثون حيث عرض سقراط آراءه في الحب. والمحاورة يحكيها أبوللودورس الذي سمعها من أريستوديموس أحد تلامذة سقراط. ويقول سقراط إن الحب هو التعبير عن الرغبة في الامتزاج بالجمال، من خـــلال المحبوب الجميل. فالحب رغبة في نوع من الخير، قد لا يملكه المحبوب، ولكن حتى إذا كان يملكه، يخشى أن يفقده، لأنه يريد أن يحتفظ به إلى الأبد. ويفرق سقراط بين المستوى الأدنى للحب (حب الجسد) الذي يتجسد في التناسل، والمستوى الأعلى للحب (حب الروح) الذي يتجسد في تحقيق المنجزات العقلية العظمى (. هـ. م.)

صبيحة أيـــام الأحد . ومع ذلك فقد أعلنت لاثنين من معارفي أنني من عبدة الشيطان . وفي ذات يوم بعد أن أطفئت الأنوار في ثكنتنا طلب مني أحدهم أن أحدثهم عن عبادة الشيطان . فأخذت أتكلم لمدة ما يقرب من نصف الساعة عن طقوس وهمية (وربما كنت قد وجدت هذه الطقوس في كتاب من سلسلة مسامرات مونتاج) . واستيقظ الجميع وسط الظلام يصغون ويوجهون الأسئلة . ولم يسمحوا لي بالنوم . وفي إحدى الليالي، بينما كنت أشرح جزءاً غامضاً من مذهب عبادة الشيطان ، أضيئت الأنوار ، واقتحم الغرفة « جاويش » أيرلندي وأخبرني أنني مقبوض عليّ وأنني سأقدم للمحاكمة . فقد كان أحد الكاثوليك قد انتابه الخوف أو أزعجه كلامي فتسلل إلى الخارج واستدعى الجاويش . وحينما رأى الجاويش علامة « د. س » فوق فراشي تضاعف غضبه ، فأقسم أنه سيعمل عـــلى أن أسجن في المعسكر لمدة ستة شهور . وفي اليوم التالي كان علي أن أمثل أمام ضابط برتبة قائد جناح لكي أفسر له لماذا تجرأت على محاولة إفساد عقول الشبان النقية في ثكنتي . ولما لم يكن الضابط كاثوليكياً ، فقد عجز عن فهم سبب غضب الجاويش ونقمته ؛ ومن الواضح أيضاً أنه رأى أنني قد أكون صالحاً لكي أصبح ضابطاً ، وأنني وهو على ذلك الأساس ، نشترك في شيء ما ؛ فغمز لي بعينه وأمرني بالانصراف على ألا أخطىء أو أرتكب هذه الخطيئة مرة أخرى .

لقد صدمني سوء استعمال السلطة في السلاح الجوي الملكي ، ولم يحدث أبداً أن رأيت غباء وسادية مقنعة مثل تلك التي تتبدى في صورة السلطة التي لا معقب عليها . لقد كان يسمح للصبية الذين قضوا شهرين في خدمة السلاح الجوي الملكي وحصلوا على قدر قليل من التدريب لكي يصبحوا مدربين للمستجدين وحصلوا على شريطين . كان يسمح لهـــم بإذلال الصبية الذين جاؤوا بعدهم بثلاثة شهور وامتهانهم . وكنت قد قرأت عن غباء الجيش وقسوتـــه ، ولكنني لم أكن قد تخيلت أبداً أن يكون كمن

يصر على أن يستعرض نفسه أمـــام الناس . ولذلك ، فقد اجتهدت أن أظل بعيداً عن المشكلات الخطيرة في أثناء الأسابيع الثمانية التي كان عليّ أن أقضيها في بريدجنورث . ولكن الضجر كان قد تملكني مرة أخرى قبل نهاية هذه المدة بأيام كثيرة . ولحسن الحظ ، كنت قد عشقت رياضة الجري وأسرفت فيها ، فنمت في ساقي عضلات قوية صلبة كانت كثيراً مـــا « تتقلص » ، فشكوت من ذلك على أمل أن تعفيني الشكوى من الاشتراك في استعراضين على الأقل ، فنقلوني إلى المستشفى على الفور . وكان هذا عبثاً لا طائل وراءه ؛ فلم أكن أشكو من شيء حقاً . وربما ظن الطبيب أن عليه أن يبلغ عن تمارضي . وعلى أي حال ، فقد أنفقت في المستشفى أسبوعين كاملين ، أقرأ طوال اليـــوم وأكتب القصص . ولفرحتي ، كان جورج باكستر زميلي القديم في رحلات الدراجات في جيت واي ، كان هناك أيضاً فأنفقنا الكثير من الوقت معاً . وتعرفت أيضاً على جندي نظامي يدعى إريك هاسون ، قال لي إنه ينوي أن يكون رساماً عظيماً . وقد أقرضني بعض الكتب عن فن الرسم الحديث ، وأقرضته أنا رواية « يقظة فينيجان » .

وتضاءل إحساسي بالانتصار حينما خرجت من المستشفى وقيل لي إن علي أن أنتقل إلى وحدة أخرى ، طالما قد فقدت أسبوعين من التدريب. ولكن الوقت مر بسرعة ، وانتهى أخيراً . وفي استعراض خروجنا أذكر ما أحسست به فجأة من نشوة وسعادة وأنا أرقب طوابير الرجال المنظمة تسير تحت شمس نوفمبر ، وأصغي إلى عزف فرقة الموسيقى النحاسية . وحينما اتجهنا في سيرنا إلى الخارج ، دخلت أمامنا مجموعة من المجندين الجدد ؛ وأذكر ما شعرت به من تفوق حينما أخذنا نرقبهم وهم يملأون استمارات دخولهم ، مقدرين لهم ومدركين ما هم مقبلون عليه ؛ فقد بدت مـــدة الأسابيع الثمانية التي تفصلنا عنهم وكأنها سنوات كاملة .

وإذ عدت إلى ليستر ، ذهبت لزيارة كلية فوجان ، ورأيت جيرالد

وميليسنت ، وتبينت أن الأمور قــد تغيرت بأكثر مما كان بوسعي أن أصدق . بل إنني اصطحبت فتاة إلى المسرح ، ولكنني أفسدت الأمسية حينما شعرت بالحرج وأنا أقبلها قبلة الوداع .

وبعد بضعة أيام من العطالة ، عينت في بلــدة ويتهول بالقرب من برمنجهام لكي أتمرن على وظيفة كاتب . وقد أثار هذا اشمئزازي . وكانت الفترة التي قضيتها في المستشفى قد أقنعتني بأن الوظيفة المثالية لي هي أن أكون مشرفاً في مستشفى . أما المعسكر في ويتهول فقد كان معسكراً قذراً غير مريح ، لا يشبه في شيء معسكر التدريب حيث يلمع كــل شيء بالنظافة . وما زلت أشمئز كلما طلب مني أن أستعيد العشرات من أوامر السلاح الجوي الملكي وقواعــده . وعرفت أيضاً أن المؤسسات الكبيرة — وبوجه خاص تلك التي تديرها الحكومــة — تشجع أنواع الكسل واللامسئولية الأخلاقية التي رسمها جونشاروف في روايته « أوبلوموف » وبعيداً عن الجو الصارم في معسكر التدريب ، تبينت أن السلاح الجوي الملكي ليس ببساطة سوى فرع آخر من فرع الخدمة المدنية ، ولكن دون الضغوط التي تتطلب قدراً معيناً من الكفاءة من إدارة حكومية . فالرجال الذين يعملون هناك لفترات طويلة — ربما تصل إلى عشرين عاماً — والذين وجدوا وظائف مريحة ، يشعرون بأنهم قد خدعوا الالتزام الاجتماعي بالعمل وأصبحوا خارج إطاره . فهناك يسود جو غريب مــن عدم الإحساس بالزمن ومن الفراغ ، الذي أتخيل أنــه جو الجحيم . وهم لا يشعرون بضرورة أن يجيبوا على أنفسهم — على كل حال — أنهم إنمــا يخدعون الحكومة ، وأن الحكومة قد أبرأت ذممهم من كل مسئولية أخلاقية .

ووجدت أن هذا الجو خانق ، أو بالأحرى جو مفزع . وجعلني هذا أدرك أنــه من البلاهة أن يقبل الإنسان أيــة سلطات تسرق منه عذاب الحريــة . واصبح هذا واضحاً لي بشكل خاص قرب نهايــة إقامتي في

ويتهول . ولشدة اشمئزازي ، قدمت إلى المحاكمة لفشلي في تنظيف الأرضية حينما كنت مكلفاً بالاشراف على الثكنة في أحد الأيام . ووجدت في هذا الأمر شيئاً عبثياً وسخيفاً بصورة خاصة لأن ثكنتنا كانت مباءة قذرة سواء نظفت أم لا ، ذات نوافذ محطمة ، ومشمع الأرضية ممزق وقد أكلت الحشرات ملاءات الفرش . ونوهت بذلك أمـــام قائد السرب الذي كان يحاكمني ، ولكنه كان من الواضح أنه يشعر أنـــه حتى إذا كان المكان يتهاوي ويتفتت فلا بد من المحافظة على القواعد ؛ وهكذا فقد حكم علي بالسجن الانفرادي لمدة أربعة عشر يوماً ؛ وشعرت كما لو كنت جندياً رماه ضابطه بالرصاص لحظة التراجع ، في محاولـــة يائسة للمحافظة على النظام . وكان لزوم المعسكر يتضمن التقدم إلى حـــارس الفرقة في الزي الكامل ، مرتديـــاً ماسكات السروال السفلية حاملاً حقيبتي الممتلئة على ظهري ، أربع مرات في كل يوم ، ويحدث ذلك في أقل ساعات النهار ملاءمـــة ، كما لو كان يعني أيضاً القيام بواجبات اضافية . وفي خلال الاسبوع الثاني من العقوبة أرسلت لكي أنظف الأرضية في مسكن ضابط من ضباط الاحتياط ، سوف أدعوه تومكينز . ودخل تومكينز إلى المكان أثناء قيامي بالعمل ، وبدأ يتحدث إلي ، وبدا أنه رجل طيب واجتماعي . على شيء من المعرفة بالأدب . ودعاني إلى الجلوس . وبعد عشر دقائق أو نحوها دفع بالحديث نحو موضوع أدب السادية ، وسألني إن كنت قد قرأت بعض الكتب حول عملية الجلد والوسائل الأخرى للتعذيب الذاتي . وتحدثنا في هذا الموضوع لمدة عشر دقائق أخرى — وما زلت غير متشكك في أمره . وحينئذ سألني من طرف خفي إن كنت أعترض على أن أقيده في مقعده وأقوم بضربه أو أن أركله بقدمي كما لو كان كرة للقدم . وصدمت ، ولكنني اجتهدت ألا أظهر دهشتي ؛ وبدلاً من ذلك حاولت أن أنظر إلى كلماته كفكاهة عابرة ، وقلت له إن علي أن أتركه لكي أقدم نفسي في غرفة الحرس . ولكنه أصر على طلبه : فسألني إن كان بوسعي أن أقدم له هذه الخدمة

في الليلـــة التالية ؟ وتجنبت أن أرفض طلبه بطريقـــة مباشرة . ولكنني أسرعت إلى الخروج . ولحسن الحظ كانت عطلة عيد الميلاد على الأبواب : فقام توكينز بإجازته بعد ذلك ، ونجحت أنا في تجنبه . وحينما عدت إلى المعسكر بعد عيد الميلاد كان لا يزال في إجازته ؛ وبعد أسبوع من ذلك غادرت ويتهول . وعمقت هذه الحادثه من إحساسي بالاشمئزاز الذي شعرت به إزاء ويتهول ؛ فقد كان المكان يئن تحت وطأة جو من القذارة والافتقار إلى الهدف ، الأمر الذي جعله بيئـــة نموذجية لنشأة أي انحراف جنسي . وقد كان لهذه الحادثـــة نتائج لم تقع إلا متـأخراً ، كما سوف أبين ذلك في حينه

ونقلت من ويتهول إلى معسكري الاعتيادي في هاكلنول توكارد بالقرب من نوتينجهام . (وأعتقد أن معسكر ويتهول قد أغلق بعد رحيلي منه بفترة قصيرة) . وكانت هـــذه البلدة هي قلب الريف الذي نشأ فيـــه لورنس . وكانت تضم بيت بايرون ، وكان هناك دير نيوستيد بالقرب منا . وكان النظام هنا مرتخياً بقدر ما كان في ويتهول . وكان المعسكر مشتركاً بين الجيش والسلاح الجوي الملكي بالاضافـــة إلى قوات الطيران التابعة للبحرية والأسطول . وللصدق أقول إنني لم أكن تابعاً للمعسكر ، لأنني كنت كاتباً لوحدة اضافية من وحدات المدفعية المضادة للطائرات التي تتبع لقيادة فصيلة من فصائل سلاح الجو الملكي . ولم يكن هنـــاك سوى عضوين منتظمين آخرين ، هما الجاويش والمشرف . وكنا نعمل في عطلات نهايـــة الاسبوع حينما يأتي فتية الاحتيـــاط من نوتينجهام لتلقي تدريباتهم ، ثم نحصل على عطلتنا الأسبوعية في وسط الأسبوع التـــالي . وقد منحنا هذا قدراً كبيراً من الحرية . كما كان معنى هذا أننا نستطيع أن نتجاهل الحرس حينما نسير إلى خارج أو إلى داخل المعسكر .

وفي البدايـة جعلني المشرف تابعـــه المقرب ، متخيلاً أنني يمكن أن

أكون أكثر كفاءة من كاتبه السابق الذي كان اسكتلندياً كسولاً . حاولت جاهداً أن أكون في مستوى آماله . ومع ذلك فقد وقف النظام المفقود في المعسكر ضدي . ومثلما كان يحدث في ويتهول ، كانت السلطات ميالة إلى القيام بحملات فجائية سريعـــة من أجل إقامة النظام ، حيث كانوا يحكمون على الكثيرين بأسابيع طويلة من الحبس الانفرادي والخدمة الشاقة بل وكانوا يصلون بالأمر إلى عقد المحاكمات العسكرية . وبعد كل حملة من تلك الحملات كان المعسكر يترك لكي يغرق ثانيـــة في سباته الشبيه بسبات الريف الروسي القديم . وعلى أي حال فقد كرهت مهنة الكاتب . وكرهت أيضاً حرماني من الجو الخاص أو الخصوصية ، حتى تبينت أن بامكاني أن أعود إلى المكتب في أمسيات الشتاء وأن أقرأ وأنا أضع قدمي فوق الموقد طلباً للدفء . وحينئذ اكتشفت اعلاناً معلقاً في المقهى الخاص بالمعسكر لطلب أعضاء للجمعية الدرامية في نوتينجهام ، فذهبت واشتركت في هذه الجمعية . وكان هذا عملاً ممتعاً ؛ فقمنا بعرض مسرحية « السيد الأول » من تأليف جينز بوري مرتين في الأسبوع ؛ وكنت أقوم بتمثيل دورين صغيرين .

وبعد شهر واحد اكتشف المشرف أنني شخص غير كفء ، وبدأ في السخرية مني . ووجدت أنا أن هذا الوضع مما لا يمكن التسامح فيــه ؛ وقد كان المشرف شخصاً ذا وجـــه طيب ، أو بالأحرى أشبه بالمدرس الغبي الذي لم أشعر إزاءه بأي احترام ولم أعجب به أبداً . ولم يكن يكتفي بانفجاراته العارضة ؛ ولمـــا كان ضعيفاً بطبيعته فقد اعتـــاد على الثرثرة والمهاترات النسائية ، الأمر الذي أعاد إلي ذكرى مدرس الطبيعة السيئة في جيت واي . وكان المشرف مـــاهراً أيضاً في صب أنواع الاهانـــات الصغيرة . وفي بعض الأحيـــان كان ضربه هو الاستجابة الوحيـــدة التي تتصف بالشجاعة .

وفي أحد الأسابيع ارتبك كل شيء وأخطأ مساره . فقد أبلغت على

غير توقع مني على أن أظهر في أحد الاستعراضات — وكان هذا من عمل المشرف — وهناك قيل لي إنني سأحاكم لأن أزرار سترتي كانت متسخة ولأن شعري كان بالغ الطول . ودفعني في صدري أحد ضباط الاحتياط لأنني لم أبادره بالتحية — ولم أكن قد رأيته — فجعلني أقوم بتنظيف مسكنه ليلتين متواليتين . وأخيراً أعلن المشرف أنه سيرحل لبضعة أيام ؛ وبالتالي فقد وصلت إلى المكتب متأخراً نصف ساعة كاملة ، فوجدته في انتظاري وقد لاحت على وجهه تقطيبة الانتصار ، وما كان منه إلا أن ألغى عطلتي في منتصف الأسبوع ، وكلفني ببعض الواجبات الاضافية .

وفي اليوم التالي بدأ المشرف في توبيخي بسبب إسرافي في الكتابة على الآلة الكاتبة . وكنت قد تطوعت للبقاء حتى ساعة متأخرة للقيام بهذا العمل ، وأضافت هذه الحقيقة اللمسة الأخيرة إلى المظالم التي تعرضت لها . وحينما هز الورقة تحت أنفي وصاح قائلاً : « ألست خجلاً من نفسك يا ويلسون ؟ » ، احمر وجهي وقلت « لا » فبدت عليه الدهشة ، فقد كان هناك شخصان آخران من الفرقة ، وهكذا فقد أرسلني إلى مكتبه لكي أنتظره . وكنت أنا في حالة نفسية عنيفة . وقد قررت أن أمضي ما تبقى لي في الخدمة القومية في سجن بدفورد بدلاً من الاستمرار في الخضوع لهذا الغباء الذي لا مبرر له ، بل إنني فكرت في إلقاء محبرته من خلال شراعة الباب الزجاجية حينما كان هو يلج من الباب ، وكنت بالفعل أمسك بها في يدي لحظة دخوله . ولدهشتي فإنه بدا سعيداً بنفسه . وبدلاً من أن يستدعي الحرس طلب مني أن أجلس . ولا شك أنه كان يجد أن المعسكر مضجراً مثلما كنت أجده أنا ، وكان ممتناً لما وفرته له من تغيير في الجو . وقال لي إنه استطاع أن يكتشف أنني « مختلف » عن الآخرين وانني لا أصلح لوظيفة الكاتب . أما أنا فقد بذلت جهدي لكي أحافظ على تصوره عني باعتباري شخصاً عصبياً خطيراً وعلى وشك الانفجار ، فأخذت أقفز عبر الغرفة جيئة وذهاباً ، مطوحاً بشعري إلى

الحلف ، ومحاولاً أن أجعل عيني تشتعلان بالغضب والجنون . وبدا عليه أنه تأثر بهذا الاستعراض فأرسلني إلى الضابط الطبيب ، على أمل أن يشهد بأنني « غير لائق عصبياً » لمهنة الكتابة . وربما كان مصدر ابتهاجه هو ما توقعه أن يتخلص مني وأن يحصل على كاتب أكثر كفاءة . ووافقت على أنني قد أفضل أن أصبح مشرفاً طبياً في أحد المستشفيات ، رغم أن الحقيقة هي ان المسألة كلها قد بدت لي نوعاً من الاختيار بين الشرين .

وكان الضابط الطبيب حديث السن جداً ؛ وبدا عليه التعاطف بما فيه الكفاية ، ولكنه لم يقتنع بأن اضطرابي العصبي يتطلب تغييراً في مهنتي . وإذ واجهني برفضه لأن يتأثر ، فكرت في الطريقة التي أستطيع بها أن أقنعه بخطورة حالتي . وفي تتابع سريع ، رفضت احتمال ان أزعم أنني مصاب بالصرع ، أو السفلس (الزهري) الوراثي أو أنني أعاني من ميول عدوانية تدعوني إلى القتل . وطرأت على ذهني فكرة أخرى . فقد كنت تعرفت في ليستر علي شاب طرد من الجيش لسبب غريب . فقد كان الشاب شاذاً جنسياً ، ولكن يبدو أن أحداً لم يهتم بذلك . ولكنه في أحد الأيام ، وفي ميدان الرماية بالبندقية ، قيل له : « إن الهدف أمامك هو رجل يوشك أن يقذفك بالرصاص ، فإذا لم تصبه برصاصك أولاً ، فإنك ستكون في عداد الموتى ، أطلق النار ! » . وألقى صاحبي بالبندقية من يده ، وانطلق إلى ميدان إطلاق النار وصرخ قائلاً : « اقذفني بالرصاص ، اقذفني بالرصاص ! » وعلى الفور وضعوه تحت المراقبة المستمرة في غرفة التوقيف ؛ وكانوا يبعدون عنه شوكته وسكينه بعد كل أكلة حتى لا يحاول الانتحار ؛ وبعد بضعة أسابيع سلموه أوراق إنهاء خدمته .

وكانت أيام تدريبي على اطلاق النار من البندقية قد انتهت، ولكنني فكرت أنه مما يستحق المحاولة أن أؤثر في الضابط الطبيب حتى يقتنع بأنني ميال إلى

الانتحار مثل صديقي . وهكذا فقد بدأت بالاعتراف بأن حياتي الجنسية كانت مكبوتة على الدوام لأن أمي جعلتني أرتدي ثياب الفتيات حتى بلغت التاسعة من عمري ، وأن السبب الحقيقي لعدم كفاءتي هو التوتر العاطفي الناشيء من الحياة على مقربة شديدة من هذا القدر الكبير من الجمال الرجالي .

ولشدة دهشتي ، لم يكن علي أن أستطرد في هذا الحديث . فقد كانت الميول الانتحارية غير ذات موضوع . وراح الضابط الطبيب يستجوبني بإلحاح عن حياتي الجنسية (التي كانت غير موجودة بالفعل) ، وأخذت أجيبه مستعيناً بكل الأجوبة التي قرأتها في الكتب والتي جمعتها من كتابات هافلوك إليس[1] وويلهم ستيكل[2] مع بعض التفصيلات الواقعية التي استعرتها من حياة بعض المعارف والأصدقاء .

وبعد عودتي إلى المكتب بنصف ساعة فقط ، كنت مقتنعاً بأن أيامي الباقية في مهنة الكتابة قد أصبحت معدودة . واستجوبني المشرف (وأستطيع أن أقول إن الضابط الطبيب قد كلمه تليفونياً حينما غادرت مكتبه) ؛ فكررت أمامه قصتي المحزنة ؛ وكان ابتهاجه واضحاً ، وبدأ في معاملتي بالوقار اللائق بأخ كبير حتى بدأت أشعر بالخجل من خداعي له . ووعدني بألا يخبر أحداً بهذا السر ، وأمرني بأن أستريح بقية اليوم وأن أخرج في رحلة على الدراجة . وركبت دراجتي حتى ديرنيوستيلد ؛ وكان الصباح ليوم من أيام الربيع المشرقة ، وكنت أقهقه كالمجنون . وشعرت كأن

---

١ هافلوك إليس (١٨٥٩ – ١٩٣٩) ناقد وكاتب انجليزي اشتهر بدراساته في سيكولوجية الجنس واعتمد في تحليلاته على الدوافع البيولوجية . (هـ م)

٢ ويلهلم ستيكيل (١٨٩٨ – ١٩٤٠) أحد تلامذة فرويد النمساويين ، مؤلف كتاب « البرود الجنسي عند النساء » . (هـ م)

السماوات قد فتحت أبوابها لأجلي . فقد اجتاحني إحساس عميق بتوقع الحرية المقبلة .

ولكن اليوم التالي شهد بعض النتائج غير السارة . فقد كان المشرف قد ذهب إلى بيته في عطلة نهاية الأسبوع . وقيل لي إن « فرع التحقيقات الخاصة » في السلاح الجوي الملكي يريد أن يتحدث معي . وكان من الواضح أنهم قد حصلوا على تقرير عن حالتي ، وكانوا متشوقين إلى أن يعرفوا إذا كنت قادراً على أن أعطيهم أي معلومات عن الشذوذ الجنسي في المعسكر . وكان هذا بالغ السهولة ؛ فقد كان الجميع يعرفون ، ان هناك عريفاً معيناً ، وطاهياً معيناً ، بل وجاويشاً معيناً في القوات الجوية التابعة للأسطول ، لا يخفون ميولهم . ولكنني لم أكن أعرف شيئاً عنهم أكثر مما تقوله الشائعات ، وحتى لو كنت أعرف ، لما كنت قد قلت له. وحينما ذكر المحقق أسماء بعينها اعترفت بأنني كنت أعرف أن الأشخاص موضع التساؤل كانوا معروفين بالشذوذ الجنسي . ولكني قلت له إنني لا أعرف شيئاً محدداً . ولشدة دهشتي ، سألني عن ضابط الاحتياط تومكينز ، عاشق الخلد في ديتهول ؛ فاعترفت بأنني أعرف تومكينز (وكنت متلهفاً إلى أن أقنعه بأن معلوماتي عن الانحراف معلومات موسوعية) . فأخبرني بأن تومكينز مقبوض عليه في هذه اللحظة ، لأنه اتهم أنه يقيم مع مرؤوسيه علاقات ودية غير لائقة في الجيش ، وبأنه قد تصرف مع قطة تصرفاً بالغ القسوة ، وكان من الواضح أنه اقتلع إحدى عينيها بمطواة . وقال لي إنني لو وافقت على أن أكون شاهداً ضد تومكينز في محاكمته العسكرية ، فإن فرع التحقيقات الخاصة سيتقاضى عما اعترفت به على نفسي من انحرافات . فإذا لم أقبل ذلك ، فسوف توجه إلي تهمة الانحطاط الخلقي . وقد أنفق ما تبقى لي في خدمة السلاح الجوي الملكي في السجن .

وكنت واثقاً من أنه يحاول أن يخدعني ، ولكنني شعرت بالاجهاد من

إصراره الشديد . وأرسل في طلبي مرتين في ذلك اليـــوم ، وطلبني مرة أخرى في اليوم التالي وتزايد غضبه وتهديده . وحالما عـــاد المشرف من إجازته طلبت أن أراه ، وأخبرته عما حدث . وعلى الفور كتب لي تصريحاً بالخروج إلى مدة غير محدودة ، وقال لي أن أذهب إلى البيت في ليسستر وأن أبقى هناك حتى يرسل إلي بالعودة مرة ثانية . ولم أصدق هذه الهبة السعيدة إلا بصعوبة . فقد كانت حادثة فرع التحقيقات الخاصة بركـــة ونعمة خفية غير ظاهرة ، وبقيت في البيت طوال الأسابيع الأربعة التالية ، فلا أذهب إلى هاكنول (على بعد خمسة وعشرين ميلاً فقط من ليسستر) إلا مرة واحدة كل أسبوع لأقبض مرتبي . وبعد ذلك بقليل أرسلوني إلى قاعدة حربية في وندوفر لكي ألتقي بطبيب نفسي ؛ فكشف عن تعاطفه معي وأخبرني بأنني ربمـــا كنت أستحق أن أفصل من الخدمة في السلاح الجوي الملكي . ومع هذا . فقد قدمت فيما بعد إلى لجنة طبية استطاعت أن تكتشف خـــداعي ؛ ولكنني رفضت أن أعترف بذلك ، حتى حينما أصبحوا عـــلى شيء من القسوة والوضوح ، ولم يجدوا بديلها لفصلي . وفي هاكنول بدا أن كل من في المعسكر ينظرون إلى المسألة كلها كفكاهة مضحكة (طالما أنني لم أجعلها سراً أخفيه) . ولحسن الحظ فإن هـــذه المعلومة لم تصل إلى أسماع الضباط أو القيـــادة . وبعد ستة شهور من دخولي خدمـــة السلاح الجوي الملكي ، خرجت من الخدمة ، بعد أن شهدوا علي بأنني « غير مستقر عصبياً » ، وغير لائق أيضاً .

فحالما كنت قد قمت بالفعل الحاسم الذي بدأ بسلسلة الأحداث ــ وهو فقدان سيطرتي على أعصابـي مع المشرف ــ بدت سلسلة الأحداث وكأنها تقع بحتمية كاملة . كنت كمن يسير في نومه ؛ ولم أكن أبذل أي مجهود لدفعها . وأصبح الأمر كله فكاهة مضحكة . وربما كان السكر وإدمان الشراب هو البديل الأفضل والأكثر توافقاً مع حالتي العقلية ، ولكنني

كنت قد عشت مراهقة بالغة الصعوبة ، وكنت أشعر بأن أفضل ما أملكه من طاقات مقيض له أن يضيع هدراً ؛ وألا تثمر أعظم جهودي شيئاً ؛ وأنني لن أحظى بأي نوع من ضربـــات الحظ الموفقة ؛ وبدأت أتساءل عما إذا كنت واحداً من الشعراء الملعونين Poètes Maudits ، الذين يقدر لهم أن يعيشوا حياة محبطة لا إشباع فيها مطلقاً في سبيل أن يبدعوا بضعة أعمال قليلة من الجمال . وفي سن السابعة عشرة ؟ كنت أتوقع أن أموت في الخامسة والعشرين وأن ينظر الناس إلي باعتباري « كيتس » القرن العشرين [1] .

لقد اختفى هذا التوقع المخيف في خلال الفترة التي قضيتها في السلاح الجوي الملكي ؛ وأثبتت نزعتي التفاؤلية التي عانت من الاختناق مرات عديدة في غضون السنوات الثلاث السابقة ، أثبتت أنها نزعة قوية وقابلة للاستمرار بصورة غير عادية ، وأصبحت الآن في حالة صحية كاملة . وكان هذا راجعاً بصورة جزئية إلى حالتي الجسدية الجيدة ، وإلى أنني كنت أنام بعمق وآكل بنهم . وهذا كان راجعاً أيضاً ، في جزء منه ، إلى شو وإلى « الجيتا » . فعلي أن أعترف بأن نزعة شو التفاؤلية المستندة إلى فكرة الارتقاء والنشوء قد أقنعتني حينما استمعت لأول مرة الى مسرحية « الإنسان والسوبرمان » ؛ إلا أن سيطرة هذه النزعة على خيالي كانت سيطرة مزعزعة بسبب مصاعب المراهقة العقلية والجسدية .

والآن ، بدا لي كما لو كنت أرى بوضوح لأول مرة ، وبكل كياني ، الأجابة على مشاكل معينة من الوجود . وعلي أن أعترف مع هذا بأنها لم

---

[1] كيتس ، جون (١٧٩٥ – ١٨٢١) أحد كبار الشعراء الرومانتيكيين الانجليز ، معاصر لبيرون وشيللي وورد زورث . تميز شعره بالاندفاع الشاب ، والموضوعات المستمدة من العصور الوسطى والظواهر غير الطبيعية ، رغم حسية نسيجه الشعري وقدرته التصويرية وميله إلى الأسلوب الرمزي الذي كان أول دعائمه في الشعر . (هـ. م)

تكن مشكلات نهائية ؛ ولكنها أيضاً كانت مشكلات هامة . كانت مشكلة العيش هي أن وجوهنا ترتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً . إننا لم نتمتع أبداً بالقدرة على التباعد عن الأرض، أو الانسلاخ عنها إلا في فترة متأخرة جداً – باستثناء ما كان يحدث من ومضات السعادة المفاجئة المباركة والرفاهية الناشئة من « الخنوع » الكامل . ولقد استطعت أن أتبين أن هذه كانت هي المشكلة الوحيدة . فالقدر يمسك بالناس من أقفيتهم بقبضة قوية ، ثم يتثبت باستمرار من أنهم لا يرفعون عيونهم أبداً عن مستوى التراب الذي يسوخون فيه ويركلونه بأقدامهم . وهكذا فقد عميت عيون البشر جميعاً ، أو أن عيونهم قد غُطيت بما يشبه الغماء عن عمد ، مثل الجياد التي تربط إلى العربة . فإذا كانت هذه هي الحقيقة ، فلا بد أن يكون أكثر الناس شقاء هو الرجل الذي يمتلك شيئاً ؛ والناس جديرون بأن يكونوا سعداء في تناسب دقيق مع ما يحصلون عليه من نعم إلهية . وبدلاً من هذا فالناس جميعاً يشبهون المرأة العجوز ساكنة زجاجة الخل ، فلا يقنعون أبداً ، ولا يصيرون شبيهين بالآلهة أبداً ولا يشبعون ، رازحين دائماً تحت ثقل بشريتهم الفادح .

كانت المشكلة إذن – ببساطة – هي مداراة القدر – أو الطبيعة البشرية . فالإنسان ليس تأملياً بطبعه . ولكنني منذ استمعت إلى مسرحية كليفورد باكس عن سقراط (في فترة ما أثناء الحرب) أصبحت واثقاً من أن التأمل هو مهرب الإنسان الوحيد من ضعفه وجوانب قصوره . وقد اتفق شو و « الجيتا » على تفوق الإنسان المتأمل على كل ما عداه من أنواع الناس .. « هذا الذي يزمع بالتأمل أن يكتشف الإرادة الداخلية للعالم . » ولما بدا ذلك واضحاً إلى هذه الدرجة كان من المدهش أن يكون من الضروري أن تبنى حضارتنا بأسرها على أساس مبدأ السرعة والنشاط الجسماني الذي لا يهدأ . ومن الواضح أن حضارات الشرق القديمة كانت أكثر حكمة منا ، طالما أنها نظرت إلى التأمل باعتباره أسمى أشكال

النشاط . وقد وجد دائماً تقليد مشابه في المسيحية ، رغم أنني لا أستطيع أن أجد سوى أدلة قليلة على هذا التقليد في عصرنا . ولكن الشعراء على الأقل لم يهجروا هذا المثل الأعلى العظيم أبداً . لم يكن الشاعر بالنسبة لي هو الناظم (وقد كنت أزدري معظم الشعر الذي كتب قبل إليوت) ؛ وإنما كان هو الرجل الذي عقد العزم على أن يعيش حياة أكثر امتلاء من حياة الآخرين . لقد كتب باوند يقول : « أنا هنا شاعر ، شرب من ماء الحياة ، مثلما يشرب العاديون النبيذ . »

ولقد وجدت أن مصطلح « الخطيئة الأصلية » مصطلح قيم في مجال تحديد هذه الأفكار . وقد بدا لي واضحاً أن الناس يعيشون في حالة المرض ، أو أنها هي حالة المرض في الحقيقة ، إذا نظرنا إلى تلك اللحظات من الاستنارة والابتعاد عن العالم باعتبارها لحظات الصحة الطبيعية . فالرجل الذي يعاني من الألم المستمر عاجز عن الإدراك الدقيق وعن الاستيعاب طالما طمس المرض على ملكاته وعلى قدراته جميعاً . ومع هذا فإن كل شاعر – وربما كان كل بني البشر – يتصارعون باستمرار مع غباء أجسادهم ومع عدم الوعي الذي لا يفارقهم أبداً ، ومع العماء الذي يغطي ملكاتهم . ومن حين إلى حين يرتفع المرض ، ويتراجع الغباء ؛ ولمدة ساعات أو دقائق تبدو الحواس كما لو كانت تمتد لتنفذ في تضاعيف الطبيعة الخارجية ؛ ويكتشف العقل دلالات ثابتة عميقة وجديدة في كل فكرة ؛ ويحقق الإنسان شيئاً من السيادة الواثقة التي يتمتع بها الإله . ثم يستعيد الأخطبوط قوته ؛ وتلتف القيود حول القلب والعقل ؛ وتعود حالة الطوارىء ؛ وثانية يبدأ القتال ضد الاختناق .

إنني إذا ما أصابني برد يجعل عيني تحترقان ويجعل التنفس صعباً فإنني على الأقل أعرف شيئاً عن أسبابه – عن جراثيم البرد ، وتأثير فيتامين ج ، وتأثير الأهمال بنسيان تجفيف الشعر بعد الحمام . ولكن هذه الكثافة

« العادية » في الحواس ، وهذا الموات في الأعصاب وثقل الادراك ، يبدو كما لو كان جزءاً من الطبيعة البشرية . ولم يحدث أن عالج إنسان نفسه منــه في حدود علمي ، بل إن أكثرنا لا يعرفون بوجوده . يولد المرض معنــا ؛ والتاريخ الداخلي لكل حياة إنما هو الكفاح ضــد هذا المرض . وسوا أطلقنا على هذا الوضع للأمور إسم « الخطيئة الاولى » أو فضلنا أن نخترع له إسماً خاصاً (مثل « الدافع الحسي » الذي اخترعه جوردييف) فإن وجوده ليس مما يمكن انكاره .

وحينما بدأت في اكتشاف هذه الحقيقة بوضوح ، بدأت قراءاتي التي لم تكن تتوقف في عقدي الثاني ، في العثور لنفسها عــلى مكان محدد . (في عام ١٩٤٧ كنت قد نويت أن أحتفظ بقائمة تضم أسماء الكتب التي قرأتها ولكنني أقلعت عن هذه الخطة بعد أن كتبت أسماء ثمانية عشر كتاباً كنت قد قرأتها) . كان برنادر شو وإليوت وهيوم ، والتصوف المسيحي، والتصوف الشرقي ، ودستويفسكي ، وتولستوي ، ونيتشه ، وبقية هـذه الجماعــة – كانوا جميعاً يقولون الشيء نفسه بطرق مختلفة . وبدأت في تخطيط عمل ضخم عن اللامنتمين ، الرجال الذين كان من سوء حظهم أن نظروا إلى الصراع ضد « الأخطبوط » باعتباره أهم شيء في الحياة، والذين لم يكن لهم مكان بالتالي من حضارتنا . وكان هــذا هو مصدر المرارة والسخرية بالنسبة لي في هذا الموقف . لقد حدد جورديف « الدافع الحسي العضوي » باعتباره العضو الذي يهيء الرجال إلى أن يدركوا الخيال باعتباره نوعــاً من الحقيقة . وقد بدا لي أن أكثر الناس كانوا يضيعون حياتهم في مطاردة الأوهــام والخيالات ، بينما كان اللامنتمون القلائل يشبهون الصبي الهولندي الذي عثر على الثقب في السد وتبين أن وطنه كله كان يهدده الخطر المحيق . إلا أن الناس نظروا إلى صيحات التحذير التي أطلقها اللامنتمون كما لو كانت تأوهات الاشفاق على النفس ، ونظر الناس إلى محاولات اللامنتمين لمواجهة الخطر كما لو كانت دليلاً على الجنون .

وكان لا بد أن تتضخم الفكرة مثل كرة الثلج في غضون السنوات الخمس التالية . ولم أكن حتى ذلك الوقت قد قرأت جوردييف أو سارتر ، رغم أن جيرالد كان قد أعطاني نسخة من كتاب ويلز « العقل في أقصى حدود احتماله » (كهدية عيد ميلادي عام ١٩٤٨) ولكن عام ١٩٥٠ كان هو العام الذي ظهرت لي فيه تلك الفكرة في صورة مجسدة ؛ وكان هذا هو سبب موجة التفاؤل التي دفعتني إلى الخروج من سلاح الجو الملكي .

وكان إحساسي المباشر والفوري هو أنني لن أخضع ثانية أبداً لأنواع الاحباط والضجر التي تسببها « الوظائف المأمونة » . وربما كان من العسير أن يكيف المرء الفكرة الشرقية عن الحاج المتجول أو الباحث عن الله مع ظروف انجلترا ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذه المهمة كان من الممكن انجازها مع نقاء الهدف والاخلاص له . وكانت الخطوة الأولى هي الاستقالة من الخدمة المدنية العامة (الأمر الذي أثار سخط أبي) . ولم أكن واثقاً مما أريد أن أفعله ولا إلى أين أريد أن أذهب . كانت هناك رغبة غامضة كامنة في أعماق رأسي في الذهاب الى جزر الأران فأعيش في كوخ حجري هناك في مكان ما . ولكن كتاب سينج عن جزر الأران لم يشجعني كثيراً في تنفيذ هذه الفكرة ؛ فقد بدا سكان جزره أكثر صلابة وعادية من أن يتقبلوا من العطف غزواً آخر لقديس جديد ، حتى على الرغم من أن أسلافهم لا بد قد قدموا الطعام للزهاد والمتنسكين الذين منحوا « جزر القديسين » إسمها المستعار .

كانت فكرة أن أصبح جوالاً قد سيطرت على خيالي ، وعقدت العزم عليها حينما ذهبت إلى وندوفر لكي أقابل الطبيب النفسي لسلاح الجو الملكي . وجدت حينئذ أنه كان لدي يوم فائض ، فسرت على قدمي وطلبت بعض التوصيلات حتى لندن . ودفع إسم وندوفر باسم روبرت بروك الى ذهني ؛ كان صباحاً مشمساً ، وكنت سعيداً ، فاجتاحتني

لجسارة التي كانت هي كل ما أحتاجه لكي أحقق الحرية الكاملة .

من السهل أن يشعر المرء بمثل هذا الشعور في الصيف ، حينما يكون الطقس رقيقاً . وبعد كثير من التفكير والتدبر ، بدا لي ان أفضل الحلول لي هو أن أصبح ممثلاً . وهكذا فقد خرجت في السير نحو الشمال طالباً التوصيلات من أصحاب السيارات بعد بضعة أسابيع من طردي ، مرتدياً بزة سلاح الجو الملكي القديمة .

واتجهت أولاً إلى المسرح في يورك ؛ ولكن قيل لي هناك إنهم على الرغم من وجود مكان شاغر لمساعد مدير للمنصة إلا أنهم يتوقعون ممن يشغل هذا المكان أن يدفع مبلغ مئة من الجنيهات على سبيل التسأمين . وحاولت في برادفورد وفي هاروجيت ، ولكنني قابلت الاخفاق مرتين . وحينئذ ، وبعد أن أمرضني الفشل ، قررت أن أزور منطقة البحيرات لعدة أيام . (وقد كنت أحمد حظي السعيد دائماً لأنه صرفني عن المسرح ؛ وإلا لكنت قد غرقت في الاستمتاع بالحياة ، ولأهملت الكتابة) . كانت حقيبتي ثقيلة — فقد كانت ممتلئة بالكتب — أفلاطون ، والجيتا ، ونصوص بوذية متفرقة ، وكتاب إليوت « الأرباع الأربعة » واشعاره ؛ وكانت نقودي تتناقص بسرعة . وقرب المساء في يوم عاصف مطير ، وقفت أنتظر الباص في مكان ما بالقرب من برادفورد ، وفجأة اجتاحني سخط هائل وإحساس باحتقار نحو مصيري . وبدا لي أنه من ظلم القدر العاتي ومن غبائه أن يطوح بي إلى العالم ، ثم أن يمتنع عن أن يحتفظ لي بمكان مناسب ، حتى أصبح مضطراً إلى التجول شاعراً بالضياع وعدم الانتماء إلى بيت يحتويني . (كنت قد تشاجرت مع أبي مشاجرة عنيفة بسبب تركي للخدمة العامة ، وعرفت أنني لن أكون موضع ترحيب إن عدت إلى البيت) . وبدا لي أن فكرة التحول إلى جوال صعلوك لا بيت له ليست بالفكرة الرومانتيكية الجذابة التي صورها كتاب مثل هيرمان هيسه — وبوجه خاص ، ليس في انجلترا .

وأمضيت ليلتي في معسكر السلاح الجوي الملكي في جاتريك (شاكياً من أن أمر فصلي الرسمي من الخدمة لم يصلني بعد) حيث حصلت على عشاء دسم وفراش دافىء . وفي اليوم التالي اتجهت إلى بونيس ، ثم إلى جراسمير . وفي نزل الشباب في جراسمير ، رحت أمارس ألعاب اليوجا في أوضاع غريبة لمدة ساعات في كل مرة ، متجاهلاً كل النزلاء الآخرين الذين كانوا يكثرون من الدخول والخروج من صالة النوم ويحملقون في اندهاش لما أفعله . وبعد هذا اتجهت إلى البيت . ولم تكن أوراق الفصل من الخدمة قد وصلت بعد ، وافتقر جو البيت إلى الترحيب أو الاكرام . فحصلت على وظيفة في موقع للبناء لكي أحصل على بعض المال بسرعة ، ثم خرجت بعد أسبوعين مرة ثانية ، متجهاً هذه المرة إلى سوث هامبتون حيث كنت آمل أن أستقل سفينة إلى الهند . وقررت أن أمضي الليلة في ستونهنج ، وأن اشاهد شروق الشمس وهي تبزغ من فوق صخرة المذبح . فقد كان لبلدة ستونهنج دائماً معان سحرية بالنسبة لي منذ أن قرأت كتاب بليك « القدس » لأول مرة .

وأنا أرى الآن ، إذ أتذكر الماضي ، أن تلك المرحلة كلها كانت مرحلة من البحث الرمزي . كانت الهند ، وجزر الأران ، وستونهنج كلها رموزاً للرحابة الحرة التي كنت أبحث عنها . إنني أعرف بالفعل أن مدناً آسيوية مثل عين شامعون أو خاليجات يمكن أن تكون مخيبة للآمال ، ولقد تعلمت في طفولتي أن أشعة الشمس لا يمكن الامساك بها ؛ ومع هذا فقد بدا لي أنه قد يكون من الأجدر أن احاول ذلك ، كإشارة رمزية للرفض أو للعادية . وهذا يفسر أيضاً السبب الذي جعلني أعزو الكثير من الأهمية إلى الكنيسة في ذلك الحين ، وأن أفكر كثيراً في أن أعتنق الكاثوليكية . فالإنسان يحتاج إلى رموز للمجهول غير المرئي ، إذا لم يكن يود أن يصبح عبداً لقتامته وعجزه عن الفهم . ولو أنني عرفت في ذلك الوقت بوجود مجتمع يعبد أبناؤه الشمس ، لانضممت اليهم ؛

لا لأنني أظن أن الشمس إله من الآلهة ، ولكن لأن العبادة هي الموقف الصحيح إزاء الحقيقة . نادرة هي لحظات حريتنا ؛ ولكن في هذه اللحظات ندرك أن الانسانية منغمسة في خطيئة مشتركة : التقليل من شأن الحياة . ولقد جرب الانسان وسائل مختلفة لتذكير نفسه بالبصيرة النفاذة التي يحصل عليها في لحظات الحرية . فهناك من يكتب القصائد أو يؤلف السيمفونيات أو يرسم اللوحـــات مثل فان جوخ . وهناك وسيلة أخرى ، هي بنـــاء الكنائس والكاتدرائيات التي تؤكد أبراجها ونوافذها الزجاجيـــة الملونة أن الحقيقة العادية كاذبة ومزيفة .

والحقيقة هي أن الانسان حيوان حاسب بأفضل معاني هذه الكلمة . إنه لا يعيش في الحاضر كما تعيش كل الحيوانات الأخرى ؛ إنمـــا هو يحاول أن يقبض على مستقبله بأصابع حديدية . ولهذا الغرض ، فإنه قد طور الذاكرة والخيال إلى درجة لم تعرفها الحيوانات الأخرى . والمشكلة هي أنه لم يطورهما حتى الآن بدرجة كافيـة ؛ فهما أضعف من أن يدلاه إلى الحقيقة . إنهما تخدعانه وتقدمان اليه جواهر مزيفة بدلاً من الجواهر الحقيقية . والانسان يستطيع أن يستعيد طعم الروم أو الويسكي ، ولكنه يعجز عن استعادة طعم الحرية . وبذلك فـإن الذاكرة والخيال يخونانه ، إنه يبقى ساكناً حينما يكون عليـــه أن ينغمس في النشاط . وهكذا فإنه يروح يكتب الشعر ، ويشيد الكنائس ، ويبتكر الأديـــان لنفس السبب الذي يدفعه إلى أن يعتصر منديلاً بين أصابعه — كمحاولة لتذكير نفسه بأسمى أغراضه ، أو كاعتراف غير مباشر بفشله وعجزه . وهذا هـــو ما يفسر ايضاً السبب الذي جعلني افضل الكنيسة الكاثوليكية على كنيسة انجلترا . فإن دينك إذا كان محاولة للرمز إلى الخلاص ، فمن الأفضل إذن أن يكون رمزياً إلى أقصى درجة ممكنة . وكـــل تنازل يقوم به تجاه الطبيعة العادية للانسان إنما هو خطوة تبعده عن البصيرة الداخلية الأساسية التي ينبغي أن يحصل عليها الإنسان .

يصور الحديث السابق كله حالتي العقلية حينما جلست عند ستونّ جنج في ذاك المساء ، تلفحني ريح ثلجية ، مردداً مقاطع من أشعار البهاجا فادجيتا . لم أكن متشائماً تشاؤماً كلياً ؛ على الأقل لم أكن متشائماً فيما يتعلق بنفسي ؛ لقد بدا لي انه مما يثير الاحتقار أن يكون العالم الذي ولدت فيه على هذه الصورة المزرية ؛ وأن تكون كل قيمه كاملة الزيف إلى هذا الحد . وفي هذا الصدد كان موقفي متطابقاً مع الموقف الذي عبرت عنه قصيدة إليوت « الأرض الخراب » . ولكنه كان عالماً جديراً بأن يحاول المرء أن يمضي فيه غير مبال به ، وأن يرفضه . ولو كان لي دخل خاص ، لما كان في الأمر مأساة على الاطلاق . وكنت جديراً بأن أترك العالم لكي يمضي في طريقه إلى الجحيم كما يحلو له . ولكن الأمور كانت على صورة مختلفة ، وكانت المشاكل تحاصرني ؛ وكان هناك جوعي المتزايد ، والرياح الباردة ... وفي النهاية ، سرت في ريف مقاطعة آمسبري بحثاً عما آكله ؛ ثم أمضيت الليل في مخزن للقش والحطب، حيث جعلتني الفئران أظل مستيقظاً طول الوقت . ونهضت مبكراً في الصباح ، وعدت سائراً إلى ستونهنج ، وتسلقت فوق الأسلاك الشائكة ، ولكنني وصلت متأخراً فلم أشهد شروق الشمس ، وحينما غمر الضوء السماء بدرجة كافية ، اكتشفت ان ملابسي قد امتلأت بأشواك إبرية ضئيلة تقاوم أية محاولة لنفضها ، وهكذا فقد بدوت كرجل متوحش بري .

وقررت أن أكرر تجربتي في معسكر كاتريك ، فسرت حتى وصلت إلى أقرب محطة للسلاح الجوي الملكي ، وشرحت مرة ثانية موقفي من مسألة أوراق الفصل . وأعطوني وجبتين جيدتين ، جعلوني أنتظر في حجرة الحراسة طوال الصباح . وكان الضابط الذي تحدثت إليه مزعجاً ووقحاً ، وكان من الممتع أن أتمكن من الابتسام في وجهه بسخرية ،

عارفاً بأنه لن يستطيع أن يفعل معي شيئاً جزاء لهذا . واتصلت شرطة السلاح الجوى الملكي بالشرطة المدنيـة في ليستر التي اتصلت بأسرتي لتحصل منهم على معلومات بشأني . وامتلأ قلب أمي بالخوف لدى رؤيتها الشرطي ببزته الرسمية واقفاً على الباب ، وطلبت من الشرطة أن يرسلوني إلى البيت على الفور . ولم يكن هناك فرق بين أي شيء في نظري . فلم أكن أرغب بصورة خـاصة في أن أذهب إلى أي مكان بعينه ، لم أكن شديد الحب للحياة ، وعلى أي حال ، فقد نفد صبري من قراءة رواية تيوفيل جوتييه « مدموازيل دى موبان » في البـاص العائد إلى نيوبرى ، فقذفت بها من النـافذة . لقد كنت رومانتيكياً ، ولكن ذلك النـوع من التفكير الضعيف الذي تطغى عليه الأمنيات أسخطني ودفعني إلى الغضب .

*

كنت في بداية فقداني للإحساس بالبيت ؛ ففي السنوات الباكرة ، وحينما كنت أضطر إلى الابتعاد عن البيت لمدة طويلة ، كنت أشعر دائماً بالابتهاج العاطفي يغمرني عند عودتي إلى ليستر لألتقي بأسرتي ثانية ، ولكن كان من الواضح أن أسرتي تشعر بأنني مصدر للانزعـاج والمتاعب . كانوا يريدون مني أن أستقر في وظيفة ثابتة ؛ ووجدت عدة وظائف عادية على كراهة مني ، وفضلت العمل كعامل بناء أو بحار ، لأنه كان في استطاعتي أن أغير تلك الوظائف دائماً كلما مللت إحداها . وحصلت على وظيفة أخرى في موقع من مواقع البـناء ، ثم مللت تلك الوظيفة واشتغلت في أحد الأسواق . كان الوقت حينـئذ في منتصف الصيف ، ورغم عدم إشباع أي من مطامحي فقد كنت أعيش في حالة متفائلة . لم أكن أنتقل من مكان إلى مكان أبداً دون أن تكون معي نسخة

من كتاب نيتشه « زرادشت » أو ديوان قصائد والت ويتمان[1] . وكنت أيضاً قد عثرت على كتاب مختارات ممتاز يدعى « الانجيل العالمي للجيب » وهو تلخيص مركز لكتاب « انجيل العالم » الذي كنت قد اكتشفته في مكتبة المدرسة قبل عدة سنوات ، وكان قد أصبح له تأثير قوي علي – وبخاصة ما جاء فيه عن « طاو تي تشينج » . ولم أعد الآن أشعر بأي إحساس خاص نتيجة عدم حصولي على وظيفة ثابتة ؛ كنت أرى بوضوح أن كل أفذاذ العالم قد شعروا تماماً بما شعرت به ، وأنهم لم يخشوا أن يحرقوا سفنهم وراءهم ، وللمرة الأولى في حياتي بدأت في قراءة الكتاب المقدس اليهودي المسيحي باهتمام ، ووصلت إلى النتيجة القائلة بأنه أعظم الكتب في لغتنا .

كانت وظيفتي في السوق وظيفة قاتلة ؛ وكانت تتضمن بيع التذاكر للاشتراك في المقامرة على آلة تدعى المغزل . وحينما كانت تنفد كل التذاكر ، كانت تنفجر ضجة هائلة ، ثم يتراقص ضوء لامع فوق منصة كبيرة مليئة بالأرقام ، ثم يتوقف المغزل ، ويتوقف الضوء أيضاً عند رقم معين ؛ وصاحب التذكرة التي تحمل هذا الرقم يحصل على جائزة . وكان عملي يتضمن الصياح لمدة ساعات متواصلة ، فكانت حنجرتي تبح دائماً عند كل مساء . وشعر والدى بالخجل ، لأن عدداً كبيراً من الجيران رأوني هناك فعلقوا تعليقات قاسية . كان هذا انهياراً مؤلماً للصبي الماهر الذي كان يلفت أنظار الشارع والذي كان يتوقع لنفسه أن يصبح عالماً .

---

[1] والت (والتر) ويتمان (١٨١٩ – ١٨٩٢) شاعر أمريكي : عرف بالنزعة الفردية الإنسانية العميقة ، وبتمجيده الصوفي للحرية والديموقراطية ، وباستخدامه الناضج المبكر للشعر المرسل ، وبموضوعاته الصوفية وتمجيده للحب والكون والطبيعة وعبادة الجمال .

ولكن رئيسي في المغزل كان راضياً عني كل الرضى — فقد كنت أصيح بقوة حتى أن الغرباء كانوا جديرين بأن يظنوني قد ولدت خصيصاً لكي أصبح مكبراً من مكبرات الصوت في السباق . وعرض الرجل علي أن يلحقني بالوظيفة عنده بصورة دائمة ، وبذلك أتمكن من السفر والتنقل مع السوق ، فوافقت على ذلك بحماس .

ولم يؤد هذا أيضاً إلى شيء . ففي إحدى الأمسيات ، وحينما كنت أبيع التذاكر ، وقفت أمامي فتاة ذات وجه قبيح وأخذت تحدق في . سألتها ان كانت تريد أن تشترى تذكرة ، فابتسمت وقالت : « هل تريد أن تبيع نفسك ؟ » . ولم أكن أظن أنها على قدر متميز من الذكاء ؛ كانت ترتسم على شفتيها ابتسامة باردة ، وبقعة من القذارة على أنفها ؛ وكان جسمها أقرب إلى جسم الصبي منه إلى جسم الفتاة . ظلت بالقرب من المكان أكثر المساء ، ثم تمشيت معها إلى بيتها عندما حل الظلام وقبلتها مودعاً . كان اسمها سيلفيا ، وكانت في الخامسة عشرة . وفي الصباح التالي قابلتها عند ناصية الشارع الذي تسكن فيه ، وأخذنا الباص المتجه إلى غابات سويتلاند . ورأيت في ضوء النهار انها كانت تتمتع بنوع من الجمال الحيوى . وكان من الواضح منذ أول يوم قضيناه معاً أنها كانت متيمة بي . ولكنني لم أكن « الكلب » الذي تغريه هذه القطعة من العظم ؛ وكانت استجابتي الفورية — وأنا أعترف بأن استجابتي هذه قد أدهشتني — نوعاً من الإحساس الأبوي بالرعاية .

كان الموقف أشبه بحلم من أحلام اليقظة ، فمنذ أن تخلت عني جلاديس ، كنت أعمل بمفردي ، محبطاً يملأني الضجر ، شاعراً بمثل ما كان يشعر به ت . ى . لورنس من أن عالم العقل هذا قد قطع ما بيني وبين العلاقات الإنسانية المبهجة العادية وعزلني عنها . وكان التفكير فيما يكمن تحت

ملابس النساء يملأني برغبة محمومة عنيفة تجعل جسدي يتصلب ، كما لو كانت تشد كل ذرة فيه إلى الذرات الأخرى فتجعلها تتماسك وتتجمد . وكانت هناك تخيلات وصور معينة تطاردني . فقد حدث حينما كنت في الثانية عشرة أن كنت أدفع حملاً من أحطاب الخشب إلى منزل عمة لي . وكان اليوم عاصفاً . ومرت بي فتاة تركب دراجة ، فطوحت الرياح ذيل ثوبها ورفعته إلى صدرها للحظة قصيرة ، فوقع بصري على ثيابها الداخلية . وجذبت الفتاة ثوبها لتغطي ساقيها ثم ابتسمت لي : وتبينت في تصاغر أنها فكرت في أنني كنت أصغر من أن ألفت نظرها على أي حال . وحدث حينما كنت في الثالثة عشرة ، أن وضع إعلان ضخم على جدار جانبي لمبنى كبير في شارع كولمن ، وكان الإعلان يضم صورة لامرأة ترتدي صداراً قصيراً أخضر اللون ولا يغطي نصفها الأسفل إلا شريط صغير وتقف إلى جوار حمام للسباحة ؛ وكان الإعلان عن نوع من أنواع الملّينات . وفكرت أقول : ألا يعرفون أن كل صبي من صبية المدارس الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة سوف يحدق في هذه الصورة أثناء مروره ثم يجد لصاحبتها تجسيداً في خياله الخاص ؟ وفي المراحيض العمومي في حديقة هامرستون كانت هناك اعترافات طويلة مكتوبة على الحائط بالقلم الرصاص، وأحد هذه الاعترافات كان يروي ما فعل صاحبه بشقيقته وما فعلت هي به . ووجدت نفسي أحسد الأطفال الذين نشأوا في الأكواخ والأحياء الفقيرة لأنهم كانوا يحصلون على التجارب الجنسية في فترة باكرة من حياتهم ؛ وكانت الرغبة الجنسية تعصف بي منذ تجربتي الأولى مع جلاديس ، ولكن شيئاً لم يحدث معي أبداً . واستطعت أن أفهم لماذا يقوم الصبيان دون العشرين بارتكاب جرائم الاغتصاب . كنت أشعر كما يشعر نمر جائع يعيش وسط الأغنام . ولست أظن أنني كنت مشغولا بأمور الجنس أكثر من غيري من الفتيان ممن دون العشرين ، ولكن الاحباط زاد من حدة إحساسي بوجوده من حولي طوال الوقت . لقد

بدا لي الوضع مفتقراً إلى العدل ، مثلما يكون وضع رجل موسر يعيش وسط الفلاحين الجائعين ، فيمضي في تبديد ثروته عامـداً ... فكيف يستطيع هذا المحل الذي يبيع حاجيات النساء أن يملأ واجهته الزجاجية بالدمى التي يلبسونها الملابس الداخلية الصغيرة الحجم ؟ وكيف تستطيع مجلة أمي النسائية أن تعلن عن الجوارب باظهار صورة فتـاة في ملابسها الداخلية وهي تسوى على ساقها العارية حتى فخذها جورباً شفافاً ؟ كانت الرغبة من القوة بحيث أن رؤية قطعة من الملابس الداخلية نفسها ، معلقة على حبل للغسيل أو في واجهة زجاجية لأحد المحلات ، كانت تبـدو نوعاً من الاثارة المتعمدة ، مثل التلويح بالطعام أمام عيني رجل يموت من الجوع . لقد كنت عاقلا بما فيه الكفاية لكي أعرف أن كل هذا كان أمراً طبيعياً تماماً ، ولكن عـدم الاشباع إلى حد كبير كان جديراً بأن ينتج إحساساً قوياً بالاثم . لقد فهمت ما كان يعنيه لورانس حينما قدمت بطلته فريدا نفسها قائلة :

« كيف كان شكلي حينما فقدت عقلي وجننت ؟ لقد اختلست نظرة ماكرة جانبية ....

إذ عصف بي جنون الرغبة الحارقة .... »

وقد بدا لي أمراً فكاهياً أن الكبار لم يبد عليهم أنهم يعرفون أنني كنت أفكر في الجنس على الدوام . . .

وها أنا ، إذ كنت أسير في صباح مشمس من أحد أيام يونيو في غابات سويتلاند مع فتـاة جميلة دون العشرين كان من الواضح أنها في حالة وجد شديد . وحينما قبلتها ، مر طرف شفتها على شفتي بنعومة وتحرك برقة من جانب إلى جانب . كان فمها من الداخل بالغ الدفء والنعومة ، وكانت تنظر إلي بطريقة عكست هذه النعومة في عينيها ، كما لو كانت

تسقط بشكل ما إلى الخلف في هوة مفتوحة وقد انتابها شيء من الخوف. ولو أن شيئاً مثل هذا قد حدث في أحد أحلام اليقظة، إذن لبدأت عملية الاغتصاب على الفور. أما الآن، في الواقع الفعلي، فقد وجدتني أحس بشعور رقيق أبوي، وبنوع من الشفقة وبالرغبة في الرعاية والحماية التي يشعر بها طفل نحو قطة صغيرة. وحتى حينما رقدنا على الحشائش وتبادلنا القبلات، كنت مسيطراً على نفسي، معنياً بألا أسمح لنفسي بأن أستسلم للإثارة الشديدة. وحينما بلغ التقبيل النقطة التي شعرت عندها بإغراء أن أرفع يدي عن خصرها، توقفت عن التقبيل وشرعت في الكلام.

حدثتني عن أسرتها. كان والدها جامع قمامة، وكان لها عدد كبير من الاخوة والأخوات، أكثرهم أصغر منها سناً. أما شقيقتها الكبرى فكانت متزوجة من شخص يدعى بول كان يضربها كثيراً. وقد تركت سيلفيا المدرسة في الرابعة عشرة من عمرها. كانت طريقتها في الكلام مشوبة باللكنة « البربية الممطوطة » لأهل ليستر، التي ما زلت أراها أكثر اللهجات قبحاً في انجلترا. ولكنها ما كانت لتجد أية صعوبة في دخول الجامعة لو أن أحداً فكر في تدريبها ورعايتها. كان عقلها يقظاً متطلعاً مليئاً بالرغبة الغامضة في شيء لم تكن تستطيع حتى أن تصوغه أو أن تحدده. وبدأتُ في تخيل أوهام ومواقف أتخذ فيها صورة هنري هيجنز وتتخذ هي فيها وضع إليزا دوليتل [1]. شربنا الشاي في مقهى بالقرب من حديقة برادجيت؛ ومرة أخرى سحرتها آنية المربى الموضوعة أمامنا، وإناء السكر المزخرف، والقشدة المخفوقة. وبدا مضحكاً أن تنظر إلي كواحد يعيش حياة فياضة بالمجد والمتعة والراحة، وأن أتبين أنني كنت بالنسبة إليها واحداً من أفراد « الطبقة المتوسطة ».

---

١ هنري هيجنز وإليزادوليتل، الشخصيتان الرئيسيتان في مسرحية شو « بيجماليون ».

وحينما سرنا عائدين لنركب الباص ، وذراعي حــول خصرها ، أخذت يدي ورفعتها لكي تلمس صدرها . وفاتنا الباص وكان علينا أن ننتظر ساعة كاملة لكي نستقل السيارة التالية . فوقفنا في الظلمة على ناصية الشارع نتبادل القبلات ، وجعلت تضغط بجسمها على جسمي حتى شعرت باستجابتي الحسية الواضحة ، فأخذت تضغط بقوة أكثر . وفيما بعد ، حينما قرأت ما قاله هنري في رواية « وداعاً للسلاح » بين مـا قاله : « كنت أختبر الصعوبة المعتادة التي يواجهها الرجل إذا حاول أن يمارس الجنس واقفاً » ضحكت حينما تبينت ما كان يقصده .

كنت قد تأخرت كثيراً عن موعد الذهاب إلى السوق ، فمشيت حتى البيت . وفي الصباح التالي ، حينما ذهبت لكي أعتذر ، قيل لي إنني قـد فُصلت ؛ وأنهم قد ارتبطوا مع شخص آخر بدلا مني . ولا شك في أن هذا كان وضعاً لا يفضل كثيراً عن أي وضع آخر . ولكنه بدا لي بصورة ما وضعا نموذجياً يبين الطريقة التي يعمل بها القدر : لذة يعقبها مباشرة ثمنها من التعب . وفي اليوم التالي ذهبت إلى البلدة لكي أرى سيلفيا في مقهى رخيص كانت تعمل فيه . كانت هي الأخرى قد واجهت بعض المتاعب . فإن أهلها كانوا يمنعونها من أن تتأخر عن العودة إلى البيت بعد التاسعة والنصف ؛ وقد طردها أبوها من المنزل . وكانت قـد جرت في أثري لتلحق بي ، ولكنها لم تستطع أن تعثر علي (وربما كان هـذا من الأفضل — وإلا لما عرفت كيف أتصرف معها حينئذ) وقد طرقت أحد الأبواب في شارع كولمن لكي تسأل عن عنواني ؛ ولكن مشرفة رحيمة على أحد الباصات استضافتها في بيتها تلك الليلة .

كنت قد أصبحت صاحب مسؤوليات فجأة . ومن الواضح أنها كانت في حاجة إلى الرعاية والحماية — لا من المجتمع ، ولكن من رجل معين .

سألتني إذا كنت على استعداد لأن أتزوجها إذا لم يقبل أبواها أن يعيداها إلى البيت ، وأجبتها بالإيجاب ، ولكن الفكرة ملأتني بالغم وجعلتني أشعر بالانقباض الشديد . ذهبت لرؤية أمها — وكانت امرأة مستهلكة سقطت أسنانها ، كان من الواضح أنها قد وضعت الكثير من الأطفال . وشعرت المرأة بالارتياح حين عرفت أن سيلفيا كانت في أمان وطلبت مني أن أقول لهاأن تعود إلى البيت . وتنفست أنا الصعداء . وكنت أشعر بالأبوة تجـاه سيلفيا ؛ ولكن هذا الشعور لم يكن كافيا لدفعي إلى أن أتزوجها .

وحصلت على وظيفة في موقع للبناء — وكنت مصمماً على أن أعمل في وظيفة أخرى تمتصني كالأخطبوط ؛ كنت أريد شيئاً مؤقتاً . كنت أعرف الآن ان المسألة مسألة وقت فحسب قبل أن تختفي رغباتنا الجنسية الكامنة المحبطة ، وقد كان هذا مشكلة . لم أكن أحبها بالتأكيد ؛ وفي الحقيقة ، فقد كنت أشعر بأنني لو لم أرها ثانية أبداً ، لما همني هذا على الاطلاق . لم يكن للشعر ولا للموسيقى ولا للفلسفة أي أهمية لديهـا ولم تكن مصدراً للاثارة ، ولم يكن بوسعي أن أشاركها في شيء منها . وقد بذلت مجهوداً في هذا السبيل ، ولكن هذا الهدف كان فوق طاقتها بشكل واضح . كان كل ما تريده هو أن تتزوجني وأن تطهو لي طعامي وأن يسمح لها بأن تنظر إلي بهذه الطريقة الناعمة النصف الخائفة . وكنت أريد أن أسافر وأن أكتب وأن أنام مع فتيات أخريات من حين إلى آخر . ومن الواضح أنه كان من التعقل أن أنفصل عنها وأنهي علاقتي بها قبل أن أواجه اختياراً لا فكاك منه ، لأنني كنت أعرف أنه إذا وصل الأمر إلى الحد الملائم ، فإنني لن أكون قـادراً على إيذائها . ولكن الأمور تحركت بسرعة بالغة ، كما هي جـديرة بأن تتحرك إذا ما راح مراهقان ينفقان الكثير من الوقت في الاستلقاء على الحشائش وتبـادل القبلات . وكانت هي التي خطت الخطوات الأولى ؛ ففي حديقة في نفس المساء ، أخذت تحرك أفخاذها على جسدي حتى اكتشفت أنه لا نتيجة للاستمرار

بهذا الشكل ، وهكذا فقـد أخذت تلاطفني بيدها بينما مصيبا في تبادل القبلات بعنف متزايد : وفي الباص أثناء عودتنا إلى البيت ، أخذت تضغط يدى بعنف بين فخذيها . وحدث نفس الشيء في اليـوم التالي ، وفي هذه المرة دسست يدي تحت ثوبها ؛ كان هـذا في مساء يوم من أيام السبت ، وكان في نيتنا أن نقضي اليوم التالي في الريف إذا ثبتت حالة الطقس ، وكان اليوم يوماً رائعاً اكتست فيه السماء بلون في زرقة وميض الكهرباء . ركبنا الباص إلى سكراب توفت ، ثم سرنا في اتجاه قرية بيبي . ومررنا في بقعة كنت قد مررت بها منذ عامين على دراجتي فرأيت فيها امرأتين تجلسان على جانب الطريق ، وكانت إحداها مستلقية على ظهرها وقـد بدت للعيون ملابسها الداخلية السفلية ، ولم تبد المرأة أي نية للتحرك لكي تغطي نفسها أثنـاء عبوري ، ومضى علي ذلك اليوم وأنا أعاني حالة من الاحباط الجنسي . أما الآن فقد شعرت بإحساس قوي من الراحة ، وإحدى يدى مستلقية على صدر سيلفيا ، عارفاً بأن الاحساس المحبط الناشيء عن الجهل الكامل سرعان ما سيختفي بأي ثمن .

عثرنا على حقل يغطيه عشب طويل ويتخلله مجري مـائي ، ففتحنا حقيبة الشطائر وزجاجات عصير الليمون . ولكن بدا لنا انه من السخف أن نأكل بينما كانت أمامنا أشياء أخرى يمكن أن نفعلها ...

كنا جائعين ؛ فارتدينا ملابسنا ثانيـة وأكلنا . كانت الشمس الآن شديدة الحرارة . ولكننا كنا جالسين في الظل ، وكنا قد وضعنا عصير الليمون لكي يبرد في المجرى المائي . بدا لنا انه لا يوجد شخص آخر في العالم . وبعد الأكل ، مارسنا الجنس عدة مرات ...

كانت غير واعية بشيء سوى اللذة التي تستشعرها داخل جسدها . كانت الشمس ما تزال حارة ، ولكن الأشجار والعشب بدت كما لو كانت تعكس التعب الذي شعرنا به معاً . وبدت هي كما لو كانت في حالة من الهيام العميق ، وقد وضعت ذراعيها حول وسطي ، ورأسها على كتفي . ولقد استمتعت أنا بالجنس ، ولكنني لم أشعر بأنني خلقت لكي أكون عاشقاً . والآن شعرت بجسدي حراً ومسترخياً ، فشعرت بالرغبة في الامساك بكتاب أو كتابة بضع صفحات من يومياتي ، كان ذهني هو ما استيقظ الآن وشعر بالتجدد ، وكانت هذه الفتاة المجذوبة تتحدث عن روعة أن أصبح كاتباً مشهوراً وأن نعيش معاً في لندن ، وأمها تعيش بالقرب منا في مكان ما — فقد كانت تعبد أمها . كانت تريد عالماً مريحاً ودافئاً حيث يحبها كل الناس ، وحيث يسمح لها أن تكون دافئة ودودة ، وأن تثرثر مع الغرباء على محطات الباص أو أن تقهقه بالضحك لدى رؤية قطة صغيرة تحملق فينا لدى مرورنا بسور إحدى الحدائق . آلمتني براءتها . كنت أفكر دائماً في أبيات ييتس [١] التي قالها عن طفلة ترقص في وسط الرياح :

أواه ، لسوف تأخذين كل ما يقدم لك

وتحلمين بأن العالم كله صديقك الودود .

فلتتعذبي كما تعذبت أملك ،

لينكسر جناحك مثل جناحها في النهاية .

---

٧ ييتس (ويليام بطلر) ١٨٩٥ – ١٩٣٩ ، الشاعر والمؤلف الدرامي الايرلندي ، قائد حركة النهضة الأيرلندية ، تأثر بويليام بليك وشيللي والرمزية الفرنسية وميترلينك وفكرة التناسخ الهندية . تميز شعره بمعالجة الموضوعات الصوفية وبالنزعة الرمزية الرفيعة في أواخر عمره .

وفكرت أيضاً في ذلك الوقت في رواية جيد « المزيفون » حيث تحاول ليدى جويفت أن تقنع فنسنت بأن يهجر عشيقته ، فتقص عليه قصة غرق سفينة كانت ضمن ركابها في طفولتها ، حينما كان البحارة يمنعون الفائضين من الناس من التعلق بقوارب الانقاذ — حذر أن يغرقوا القوارب — بأن يقطعوا أطراف أصابعهم بالبلف الحادة . كنت مغرقاً بسيلفيا ، ولكن بدا لي واضحاً أنها جديرة بأن تغرقني إذا تركت الأمور تندفع على هذه الصورة في مجراها الذي تريده . ولكنني كنت أعرف أنني لن أكون قادراً على قطع أصابعها . كان علي أن أتركها تفهم ذلك بصورة ضمنية لأننا وقفنا وجهاً لوجه في مسألة الاتصال الجنسي : لقد أردناه معاً نحن الاثنين . ولكنها كانت تريد منه قدراً أكبر لم أكن أرغب أنا فيه . كنت مدركاً لوقوع نوع من التوسع الداخلي المستمر ، لقد ادركت حينئذ ما كانت تعنيه شلا في كتاب شو « العودة إلى ميتوشالح[1] » حينما قالت « العالم الآن يتفتح أمامي . بل ما هو أكثر من العالم : بل إن الأشياء الصغيرة تتحول الآن لكي تكون أشياء كبيرة عظيمة . » وبدت لي الآن كتب « طاو تي تشينج » و « يوبانيشاد »[2] أكثر أهمية وإثارة مما كانت من قبل ، وكنت أشعر بتزايد الدافع إلى

---

[1] العودة إلى ميتوشالح ، إحدى مجموعات مسرحيات شو الكبيرة ، تضم خمس مسرحيات ، وتعالج موضوع « الزمن الذي ينبغي أن يعيشه الإنسان لكي يصبح قادراً على التحكم في الحياة بالعبقرية والانتاج » . (هـ . م .)

[2] طاوتي تشينج : الكتاب الرئيسي الذي وضعه الفيلسوف الصيني « لاوتزو » لكي يؤسس به ديانة الطاوية إحدى ديانات الصين الرئيسية مع الكونفوشيوسية والبوذية . ومعنى العنوان « كتاب الحكمة والفضيلة » — يوبانيشاد : أي « الحديث الودي » أو « جلسة الإنسان عند قدمي ضيفه » مجموعة من أقدم المقالات الهندوسية التأملية حول الطبيعة والإنسان والكون ، مكونة جزءاً من تراث الديانة الفيدية . (هـ . م .)

تكريس حياتي كلية للنشاطات الذهنية . لم أكن أشتهي المجتمع الحديث، ولم استطع أن أرى هدفاً واضحاً من وجود التلفيزيون وناطحات السحاب وأحدث موضات باريس للأزياء ، وبدا لي العالم واقفاً في شرك حمأة لا أمل فيها من القيم الخاطئة ، ومن الواضح ان الكائنات البشرية كانت تبدو لي في صورة حشرات لا عقل لها في غالب الأمور ، وهكذا فقد كان علي آجلا أو عاجلا أن أنسحب من الحيـــاة ، او ربما أن التحق بأحد الأديرة ، او ان أذهب إلى بلد مثل الهند حيث يفهمون ان الإنسان قد يعاني من تقلصات روحية تجعل بيته وأسرته بلا أهمية . ولم استطع حقاً ان أرى أيّ فارق بين غباء الشيوعية التي كانت تغزو التبت وتدمر معابده ، وبين غباء الديموقراطية الأمريكية التي كانت تغرق العـــالم بضوضاء الأفلام الموسيقية والسيارات التي تحتاج إلى التبديل بالتأكيد بعـــد خمس سنوات . كان من الواضح أنه ليس لشيء من ذلك أن يؤثر في ، لم أرد ان انغمس في هذا العالم المجنون . ولأنني كنت مسؤولا عن اعالة زوجتي ، فإنني في نفس الوقت لم أشعر بالرغبـــة في الهجوم على هذه الأرض الخراب التي تحيط بي ، وعند الحاجة كان باستطاعتي ان أدافع عن أرضي أنا . كان الإحساس القديم بالبؤس والعجز قد اختفى . وفي أحد الأيام، دخلت مقهى مع أحد الأصدقاء ، فقدموني إلى فرانك لوك ، رسام المناظر الذي كان يعمل في المسرح الواقع عبر الطريق ، كانت له نظرة محدقة غريبة مؤثرة ، وقال لي انه قد ورث نوعـــاً من الحاسة السادسة عن جدته الايرلندية ، ثم قال لي وهو يحدق في بقوة : « فعلى سبيل المثال ، يمكنني ان أرى انك في سبيلك إلى ان تنجح نجاحاً هائلا » . فقلت : « أعرف هذا » لأنني كنت أعرف بالفعل ، حينما كان هو يقولها ، وكان ذلك نوعاً من اليقين الداخلي . وسأل صديقي الذي كان رساماً هو الآخر : « وما أعني أنا ؟ هل سأكون ناجحاً ؟ » فأجابه : « لا أعرف . يمكنني ان أرى أملاً فيه ، ولكن لا أراه فيك » .

ولكن كانت هناك دائماً هذه المشكلة : ما الذي علي ان « أفعله » في هذه الحضارة التي لا اشعر بالتعاطف معها ؟ كنت أعرف عدداً قليلا من الذين عانوا من نفس المشكلة ، كان هناك موريس ويللوز ؛ وهو شاعـــر كان يشبه روبرت ستيفنسون ، وكان يكتب نوعــاً من الشعر الحر المتأثر باشعار سبندر ، وكان يعمل في وظيفة حارس للمباني أو كناس للشوارع . ولحسن الحظ ، فقد كانت زوجته كاتبة قديرة على الآلة الكاتبة ، وكانت تستطيع ان تعوله في فترات تعطله عن العمل . وكنت ما أزال ألتقي كثيراً بجيرالد — الذى كان قد كره سيلفيا ويحاول ان يجعلها تبكي حيثما رآها . وكان قد التقى في أحد الفصول الدراسية المسائية بسيدة غير متزوجة كانت ترعى أباها المريض . وكانت تشعر بأنه كاتب ناشيء لامع يستحق التشجيع ، وأخيراً دعته لكي يعيش في منزلها . وبدأت انا اتمنى ان التقي بعانس جذابة تقدم لي بيتاً أعيش فيه ، وحسدت جيرالد على مأمنه الذى لا يستحقه . وبدا لي انه مثل القط الذي لا يقع إلا على أقدامه .

واستمرت قصتي مع سيلفيا خطوة بخطوة مع كل شيء آخر . وتعودنا في عطلات الأسبوع أن نذهب إلى أحد أعمامي لكي نرعى شؤون الأطفال . وحالمـــا كانوا يخرجون من المنزل كنا نخلع كل ملابسنا ثم نمارس الجنس أمام نار المدفأة . وكان طفحها الجلدي النـــاشيء من أكل الكثير من التوت البري قد اختفى الآن ، ولم تعد تهتم بأن أراها عارية تماماً ، فقد كانت تتمتع بجسد صغير جميل . ولم تكن ترتدى مشدات للصدر أبداً ، فقد كان نهداها صغيرين جداً ، ولكننا الآن وقد أصبحنا عاشقين كفت عن ارتداء الجوارب المدرسية والملابس الداخلية ذات الأربطة وبدأت في شراء الملابس المفتعلة المصنوعة من النايلون . وغالباً ما كنت أراهـــا ، بعد أن نمارس الجنس ، وهي تجذب ملابسها الداخلية لأعلى فتبالغ في ذلك كثيراً ، فأجذبها أنا إلى الأرض مرة ثانيـــة . لم نكن نستطيع أن

نبقى معاً منفردين لمدة خمس دقائق دون أن نرغب في ممارسة الجنس .

وكان من الممتع بعد أن أمارس معها الجنس ، أن أسير معها في الشارع ، فأراقب الفتيات الأخريات يتسلقن الباصات أو يعبرن الطريق ثم لا أشعر بشيء من اللهفة القديمة ، ولا أشعر بشيء من الإحساس بأنني كالنمر الجائع وسط قطيع من الأغنام . كنت أعرف ما يختفي تحت أثوابهن ، وكأنهن قد أعطينني أنفسهن جميعاً .

لم تكن علاقاتنا هادئة على الدوام . كانت هي شديدة العاطفية ، وكانت جديرة بأن تضحك بشدة في لحظة ثم تغضب أو تكتئب في اللحظة التالية . أما حالتي الوجدانية فكانت ميالة إلى أن تظل على ما هي عليه يوماً بعد الآخر ، مع تذبذبات قليلة ، وبدت لي تقلباتها العاطفية والعصبية المفاجئة شيئاً لا سبب له ولا مبرر . وكانت جديرة بأن تتهمني بأنني شديد البرود أو المنطقية ، أو بعدم الاهتمام بها بأى شكل — الشيء الذي لم يكن صحيحاً ، لأن العلاقة الحميمة تتطور إلى نوع من العادة ، ثم تندفع مبتعدة بعد أن تطلب مني ألا أتبعها أو أجري وراءها . ولكنها كانت تندفع عائدة إلي وهي تبكي قبل أن أكون قطعت مئة ياردة في الاتجاه المعاكس لها . وكانت دموعها تبدو لي بلا سبب أو مبرر تماماً مثل تقلباتها الأخرى . وبعد واحدة من المشاجرات — التي كانت هي التي تبدأها دائماً ، وتستمر فيها وتختتمها بينما كنت أنا أنظر بدهشة خفيفة — تركتني وذهبت لكي تنضم إلى صديق لي كان يعجب بها . ولكنني قابلتها بالصدفة بعد أسبوع حينما كنت في طريقي للقيام بمهمة مجالسة بعض الأطفال ، فجاءت معي ، وانتهى بنا الأمر إلى الرقاد على البساط كالعادة . واكتشف الصديق ما حدث ففسخ ارتباطه بها — الأمر الذي أراح والدته تماماً ، وفسخ ارتباطه بي أنا الآخر .

وحينما أصابني التعب من الأعمال المجهدة ، قررت أن أجرب الاشتراك في مشروع حكومي لتدريب العمال الزراعيين ، وأرسلت للتدريب في مزرعة

عند قرية نيوبولد فيردون ، حيث كان المشروع يدفع لأحد السادة الزراع مقابل اقامتي عنده على أن يحصل على عائد عملي دون أجر . وكان علي أن أستيقظ في الساعة السادسة صباحاً وأن أحلب الأبقار قبل الإفطار (وكانت هناك آلات كهربائية لحلب الماشية) ، ثم أجرف الروث وأجمعه في كومة واحدة ، ثم أدفنه في تل كبير من التراب ، وبعد الإفطار كان علي أن أقوم ببعض أشغال القش او أبذر تقاوي الكرنب . وأضجرني هذا النوع من العمل ، ولكنني كنت قادراً على الأقل على التفكير أثناء العمل : أو أن أردد بيني وبين نفسي قصيدة ويلفريد أوين « اكتشاف » أو فقرة من رواية لهمنجواي تبدأ : « في تلك اللحظة سمع الآخرون فوق التل أول أصوات الطائرات . ولكن إل سوردو لم يسمعها ... »

كنت احاول ان اكتشف في تأملاتي آفاقاً من الحقيقة أكثر اتساعاً من تلك الآفاق التي اكتشفها ماتيو آرنولد في تأملاته الريفية والتي توحي بها أصوات قاطعي الحشائش في الحقل المجاور ، ولكن العقل كان يظل على تماسكه مثل الأجفان المتعبة . « وحينئذ ، ومن خلال صوت انفجارات البنادق ، سمع صوت صفير الهواء وهو ينشق إلى نصفين ، ثم غمره صوت الزئير المختلط بحمرة سوداء والأرض تتلوى تحت ركبتيه ثم ترتفع لكي تلطمه على وجهه ... » . كان هذا هو ما يحزن العقل ، ويجعله جاداً متجهماً .. وهكذا ، رأيت ، المشكلة البشرية : مثل الينابيع الدافقة ، تحاول عقولنا دائماً أن تغمر كل ما هو تافه وأن تتجاوزه .

وبعد أسابيع قليلة ، اكتشف السيد المزارع عدم اهتمامي بأمور الزراعة ، فأعادني مرة ثانية إلى المكتب الحكومي . ومع هذا فقد أرسلوني مرة أخرى إلى مزرعة بالقرب من ميلتون ماوبراي . وكان

للمزارع وجه شبيه ببالون جلدي ضخم نصف منتفخ ، وكان يعيش بمفرده مع أمه ، وهي مخلوق عجوز ثرثارة حقود ، أرادت أن تندفع نحوي بعلاقة حميمة عنيفة لكي تكتشف كل تفاصيل حياتي وبيئتي . وحينما اكتشفت أن سلوكي المهذب يخفي نوعاً من الاحتقار ، بدأت تهاجمني دون رحمة . ولكنني بوجه عام فضلت هجومها على محاولتها الغبية لأن تشركني في أعمال عقلها العجوز التافهة المتعفنة . وكنت أمضي أكثر ما أستطيع من ليال مع سيلفياني ليسستر ، رغم بعد المسافة بين مكانينا . وكان البديل الوحيد هو أن أجلس إلى جوار النار في مطبخ المزرعة ، أقرأ على ضوء مصباح ضعيف ، فلم تكن الكهرباء قد أدخلت إلى المزرعة . ولم تشأ العجوز أن تسمح لي بالقراءة في غرفة نومي على ضوء الشمعة . فابتعت مسجلاً Recorder ، وتعودت على الجلوس به فوق السور لكي أسجل أصوات الأبقار .

وليس لدي سوى ذكرى بهيجة واحدة من تلك المزرعة . فقد كان علي في كل صباح ومساء أن أجمع البيض من تحت الدجاج . وفي كل صباح ومساء ، كان أحد الديوك يهاجمني ويطير أمام وجهي ويضربني بمنقاره في ساقي . وكنت أحمل دائماً سلة للبيض ، فإذا أمسكت بعصا في يدي الأخرى كان معنى هذا ألا يقترب مني . في أحد الأيام فكرت في الرد عليه . مررت ببيت الدجاج الأول وأنا أحمل سلتي المعدنية ، واتجهت إلى البيت الثاني — وهو منطقة خصمي . وظن الديك أن سلتي مليئة بالبيض فطار إلي . فتركته يقترب ، ثم قذفته بالسلة بقوة . خبطته السلة خبطة ذات رنين مقنع وطرحته أرضاً على بعد عدة ياردات ، حيث جلس دائخاً لعدة لحظات . ولم يعد لمهاجمتي ثانية أبداً ، حتى حينما كانت سلتي تمتلئ بالبيض .

وكانت أم المزارع تزيدني ضجراً يوماً بعد يوم . وحاولت أن

أقنع المزارع بأن يساعدني على الانتقال إلى مزرعة أخرى ، و...
كان سعيداً بمعونتي المجانية . وهكذا ، فقد طلبت من مكتب الزراعة أن ينقلني ، فوافقوا على ذلك . وغادرت المزرعة في اليوم الأخير من أحد الشهور . وعلى الصفحة التالية من النتيجة التي كانوا يعلقونها على الحائط ، كتبت بعضاً من أشعار إزرا باوند :

كل الأشياء سائرة في مجراها .
هكذا يقول هيراقليطيس الحكيم ،
ولكن نوعاً من الرخص الزائف المبهرج
سوف يجلل كل أيامنا .

كانت هذه المرأة هي الأولى من سلسلة من الساحرات العجائز المفزعات اللواتي اختارهن القدر لكي يدفعني إلى التنقل والترحال الدائم طوال السنوات الخمس التالية .

كانوا الآن قد أرسلوني إلى مزرعة في بلدة هوتون بالقرب من التل ؛ لكي أحل محل عامل زراعي كانوا قد ضبطوه يمارس الشذوذ الجنسي الحيواني مع بقرة في المزرعة . كنت أسافر إلى هناك يومياً وأبيت في بيتنا . وكانت علاقتي بسيلفيا قد مرت عليها عدة شهور ، وكنا نبدو مثل خطيبين . وواجهنا المخاوف مرتين حينما جاءت دورتها الشهرية متأخرة ، ثم تنفسنا الصعداء حينما جاءت الدورة أخيراً . وكان واضحاً عندي أننا لو بقينا على هذا الحال لانتهينا إلى الزواج بقوة العادة . وكان الأوان قد آن للتحرك . وهكذا فقد تخليت عن وظيفتي في المزرعة آسفاً — فقد كنت أستمتع بالعمل — وأخذت سيلفيا في اجازة إلى منطقة البحيرات سيراً على الأقدام ، حيث حاولنا في أثنائها أن نعوض حرماننا المقبل بممارسة الجنس كلما أمكن ذلك . وبكت هي كثيراً . ولكنني وعدتها بأنني لدى عودتي سوف أفكر جدياً في

الزواج منها . فقد كنت قد أصبحت مغرماً تماماً بولائها وحماسها . (ففي كل مرة كنا نرى فيها منظراً جميلاً ، كانت تقول : « أوه ، أتمنى لو أن ماما كانت هنا ! ») وحينما عدت إلى ليسستر ، تبادلنا وداعاً معاً ، وتبادلنا الجنس حتى اللحظة الأخيرة ، ثم رحلت إلى دوفر ، لا أملك إلا نصف جنيه ، اقترضته من أمي .

الفَصلُ السَّادِسُ

باريس ، ستراسبورج ، لندن

(١٩٥٠ _ ١٩٥١)

يقول كتاب « طاوش تشينج » : كلما أبعد المرء في سفره ، كلما قلّت معرفته . وقد ثبت لي أن هذا القول صادق صدقاً مطلقاً . ولم أكن أحب السفر ، وكنت أؤمن دائماً بأن من يستمتعون بالسفر لا بد أن يكونوا فارغي العقول . وحينما كنت في حوالى العاشرة ، أخذوني إلى بلدة دونكاستر لكي أقيم مع عمتي إيثل لمدة أسبوعين . ورغم أنها كانت تقيم عند حافة البلدة — في حي بالبي — حتى أنه كان في استطاعتي أن أمضي الوقت في استكشاف الريف المجاور أو في تعلم كيفية حلب الأبقار في المزرعة المجاورة — فقد كنت أفضل أن أجلس في الغرفة الأمامية ومن حولي كل ما بالمنزل من كتب ومجلات (الأمر الذي أثار اشمئزاز الجميع) . وفي فترة حديثة جداً ، في رحلة إلى لينينجراد ، أصابني الضجر من السفر ، حتى أنني عند جيدنيا رفضت أن أغادر السفينة ، وبينما مضى باقي أعضاء الرحلة لرؤية مدينة دانزيج بقيت أنا في قمرتي أقرأ قصة علمية . إن غريزة الاستقرار قوية عندي .

وأكون أكثر سعادة حينما تكون أمامي أيام طويلة خالية ، فأستطيع الجلوس في بيتي ، تحيطني الكتب وأسطوانات الموسيقى ، وآلة الكتابة قريبة مني قرباً مناسباً .

وهذا يعني أنني لا أجدني مضطراً بشدة إلى أن أصف بالتفصيل ما حدث لي في خلال العامين التاليين ، لقد سافرت كثيراً ، وكانت هناك لحظات حققت فيها نوعاً من العمق المفاجئ في البصيرة الداخلية ، وكانت هذه اللحظات جديرة بالتسجيل ، وكانت حركتي — بعد هذا — حركة لا هدف منها .

توقفت لأول مرة في نورث هامبتون ، لكي أبقى مع صديق شاذ جنسياً كان جيرالد قد عرفني به . كان مولها بي تقريباً مثلما كانت سيلفيا ، ولكن طالما أنني لا أتمتع بأي ميول جنسية شاذة ، فلم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً إزاء هذا الوله . لقد أعجبت بالشاب وشعرت بالذنب تجاهه ، بل لقد وجدتني أتمنى لو كنت مهيأ جنسياً ببساطة لكي أرضيه . ولكن هذا لم يغن شيئاً . وجعلنا والداه في وضع أسوأ حينما وضعانا في فراش واحد لشخصين — فقد كان أخوه في المنزل بعد أن عاد من مدرسته الداخلية . وغرقت أنا في النوم تماماً ، بينما شعر هو بخيبة الأمل .

كان هذا الشاب واحداً من مجموعة ممتعة من أبناء الطبقة المتوسطة في نورث هامبتون ، وبعد ظهر يوم السبت اصطحبني إلى إحدى الحفلات . كانت الحفلة في بيت شاب وشقيقته ، وكانا يتمتعان بموهبة لا تصدق ، وببشرة زيتونية ، ويتمتعان بذلك النوع من الوسامة الذي جعل هنري جيمس يقول عن روبرت بروك : « إنه لا يستحق أن يكون بهذا القدر من الوسامة وشاعراً جيداً بهذا القدر في نفس الوقت . » وعزف الشقيقان لنا بعض الموسيقى — وأذكر أنهما عزفا

مقطوعة ديناالا : «القبعة المثلثة الزوايا» — التي ظللت بعد هذا أحمل لها حنيناً خاصاً — ثم نظما بعض الألعاب . وكانت إحدى هــذه الألعاب تتضمن إنشاد أغنية تدي : «العنكبوت الطنان الرنان» حيث كان علينا أن نقوم بأعمال مختلفة تصور العنكبوت وهو يتسلق جذعاً غليظاً . وفي لحظات معينة حينما نقف جميعاً رافعين ذراعاً واحدة في الهواء ، كان يتوقف فجأة ، ثم يقول لأحدنا بعد لحظة صمت : «إنك تبدو كالأبله فعلاً» . لم يكن قــد سبق لي رؤية أناس مثل هؤلاء من قبل ، فسحرتني الفناة مثلما سحرت الفتاة في رواية : «لاجوندا» التي ألفها برين بطلها جو لامبتون . كانت هناك فتــاة ممتلئة ، ذات بشرة ناعمة وبالغة الجمال في الحفل تدعى ماري ، أوليتها انتباهاً خاصاً ، وسرعان ما بدا أنها قد وجدتني جذاباً بقدر ما وجدتها كذلك . وتقابلنا ، مرة ثانية ، في اليوم التالي في بيت أحد المعارف . لم أكن قد نسيت سيليفيا ولكن نعومة ماري كانت تتسرب في أنسجتي كالمحلول الطيار . وأغراني ذلك بالبقاء في نورث هامبتون والعثور على وظيفة . هكذا كانت السرينات [١] ينشــدن أغانيهن مرة أخرى ، بصوت أكثر حلاوة وعذوبة مما فعلن في ليسستر . ولكنني كنت أعرف أن علي أن أمضي في سبيلي ، كنت أعرف أن مصايد الذباب تحمل من السم بقدر ما تحمل من اللزوجة . وهكذا فقد مضيت في رحلتي في صباح أحد أيام الاثنين . ولراحتي ، قرر صديقي أن يأتي معي . لم أكن أملك مالاً ، وكان هو يملك القليل منه ، ولكن القدر الذي كان معه كان كافياً لاعالتنا لبضعة أيام . طلبنا بعض التوصيلات من السيارات حتى كانتربري ، وعثرنا على

---

١ السيرينات — من المخلوقات الأسطورية في الميثولوجيا اليونانية (ذكرت في الأوديسة) نصف طائر ونصف امرأة ، غناؤها الساحر يتسبب في موت المستمعين لأنهم ينسون كل شيء سوى الاستماع ، فيموتون جوعاً . مقرونة دائماً بالجمال الخطر ومصدره الانثوي بالذات .

وظيفتيْ كناسين لبعض المزارع . وزودنا صاحب المزرعة أيضاً بالمأوى في كوخ من الصفيح مزود بحشايا من القش . واستبد الضيق بصاحبي إلى حد ما ، ولم يكن معنا سوى ملاءتين ، وبذلك أصبحنا مضطرين إلى النوم معاً ، ولكنه كان يستيقظ دائماً قبل الفجر في حالة من الوجد الشديد ، وكان علي أن أزأر في وجهه دون احترام لكي يسمح لي بأن أعود إلى النوم .

وقضينا أسبوعاً آخر عملنا فيه بجمع التفاح في بلدة ماردين ، حيث انضم الي جيرالد . ولكننا كنا عاجزين عن أن يصاحب أحدنا الآخر لمدة طويلة – ربما لأنني كنت أولد لديه نفس الاحساس بالاحباط الذي كنت أولده في صديقي الذي من نورث هامبتون ، أو ربما لأننا كنا بمعنى من المعاني ننتمي إلى قرنين مختلفين ، كان هو ذا نزعة جمالية ينظر من خلالها إلى العالم كله ، وكنت أنا واقعياً أؤمن بواقعية ما بعد شو . وعلى أي حال فقد تشاجرنا بعد أسبوع واحد . وعبر هو القنال الانجليزي – وكما اكتشفت فيما بعد – عثر لنفسه على صديق ثري أخذه معه إلى روما . وحصلت أنا على وظيفة أخرى لجمع البطاطس ، وفي هذه المرة كان عملي في مزرعة بالقرب من دوفر . وسمح لي المزارع بأن أنام في الحجرة العلوية من كوخ خال كان يستخدمه لتخزين البطاطس . وكان علي أن أظل في مكان واحد بعد أن يحل الظلام ، لأن أكثر أرضية الحجرة كانت مفقودة . وكان من الممكن أن أسقط من خلال إحدى الفجوات . وكان هناك الكثير من الفئران ، ولكنها حين أحست بوجودي لم تضايقني أو تكترث بي . وكانت زوجة المزارع عطوفة علي ، فأعطتني طعاماً ساخناً ، وسمحت لي بأن أستحم في المنزل . وبعد أسبوعين من هذا العمل ، تمكنت أخيراً من عبور القنال . لم يكن معي سوى جنيه كامل واحد ، ولكنني كنت آمل في الحصول على توصيلة مجانية إلى ستراسبورج ، حيث

أقيم مع صديق كنت أراسله وكان قد دعاني للاقامة معه مقابل دعوتي له واقامته عندنا منذ عامين .

بدت لي فرنسا غريبة جداً — وما زلت أستطيع أن أتذكر شاطئها الخشن ، والمنطقة المسطحة العارية حول صخور كاليه . وخطوط الترام والمنازل المضروبة بالقنابل والأشجار المقطوعة أو المجتثة من جذورها . لم أكن أبداً مغرماً بالسفر — على الأقل في ظل هذه الظروف غير الملائمة — ولكنني لم أكن أعرف بديلاً لهذا . كان أبي قد أمرني بصورة عملية تقريباً بأن أغادر البيت . وكان كل ما أنا بحاجة إليه لكي أشعر بالسعادة هو غرفة أنفرد بها — ولم أكن بحاجة حتى إلى أن تطل نافذتها على منظر جميل — ومكتبة تقع بالقرب من الناصية . كنت أفضل عالم العقل .

لقد تجولت في أرجاء أرض الرجال ،
أرض الرجال والنساء أيضاً ،
وسمعت ورأيت أشياء مفزعة ،
لم يعرفها جوابو الأراضي الباردة .

ولم أكن أحب أن أكون جواباً للأراضي الباردة .

اتجهت نحو دكان واشتريت رغيفاً طويلاً من الخبز الفرنسي . وزجاجة من النبيذ الأحمر (وكلفتني الزجاجة مائة من الفرنكات — أي حوالى خمسة وعشرين سنتيماً) وبعض البصل ، وتناولت أول أكلة لي في فرنسا جالساً على حافة واحد من تلك الطرق الطويلة المشجرة ، والريف المسطح يمتد أمامي ومن حولي في كل اتجاه . لم أكن قد تذوقت النبيذ من قبل ، وتساءلت إذا كان هناك شيء فاسد فيه — فقد كنت أتوقع أن أجده حلو المذاق . ثم استطعت أن أصل إلى (ليل) بسلسلة من التوصيلات المجانية ، فوصلتها بعد حلول الظلام

مباشرة . وكان هناك نزل للشباب . واكتشفت انني قد نسيت نسختي من طبعة نون ستش من أشعار بليك في ظهر سيارة نقل أعطتني توصيلة . وبدت لي هذه البداية سيئة .

واجتزت مغامرة غريبة في ليل . فقد كانت هناك فتاتان انجليزيتان في النزل ، وكانتا كاتبتين على الآلة الكاتبة تعملان في أحد المصارف في مدينة ريديتش . وكان أسماهما : وندي ، وجين . وحينما كنت أعد أفطاري في الصباح التالي ، اقتربتا مني وسألتاني عما سأفعله في هذا اليوم . وقلت لهما إنني أزمع الرحيل إلى ستراسبورج . وقالتا لي إن رجلاً فرنسياً قد عرض عليهما أن يطوف بهما المدينة . ولكنه بدا لهما كشخصية جديرة بالشك ، فهل لي أن أذهب معهما . كان من الصعب أن أرفض هذا العرض ، فقررت أن أمضي يوماً إضافياً في (ليل) . وقدم الرجل الفرنسي نفسه باسم ميشيل دي ريوفور ، وقال إنه ينتمي إلى عائلة قديمة وأرستقراطية — وكان هذا جديراً بأن يغير موقفي ، فقد بدا على الرجل أنه غير أرستقراطي على الاطلاق . كان الرجل مهتماً بالانجليزية الشقراء ، جين ، وهكذا فقد تركت لكي أسير مع وندي . وقبل أن ينتهي اليوم ، كان ميشيل يسير وذراعه حول خصر جين ، وراح يقبّلها بين الأشجار ، وكان من الواضح أن وندي توقّعت مني أن أفعل نفس الشيء ، وهكذا ، برغم أنني لم أكن مهتماً بها اهتماماً خاصاً ، فقد وضعت ذراعي حول خصرها ورحت أقبّلها بين الأشجار طائعاً .

وفي النزل فيما بعد ، وحين كنا نجلس في الظلام على السلم الخارجي للنزل ، قالت : «لم لا تأتي معنا إلى باريس ؟.. سوف أفتقدك . هل تأتي ؟ » ودهشت . فقد بدت لي فكرة أنها قد تكون منفعلة بي عاطفياً بعد بضع ساعات فكرة عبثية وسخيفة ! ولكنها أكدت لي

ذلك . وحينئذ فكرت في الفرنكات القليلة التي بقيت لي في حافظة نقودي ، وشرحت لها أنه يتعين علي أن أذهب إلى ستراسبورج . وتناولنا الافطار معاً في الصباح التالي ، فقالت لي : « تعال وودعنا على أي حال » . وكان ميشيل يعرف مقهى لسائقي سيارات النقل ، وقال إنه يستطيع أن يعثر لهما على توصيلة مباشرة إلى باريس . وذهبنا إلى هناك — وكان المقهى في ضواحي (ليل) . وبعد عشر دقائق ، خرج ميشيل مع سائق إحدى سيارات النقل وقال : « سوف يأخذكما . » وقبّلتُ وندي ، وقبّل ميشيل جين ، وصعدت الفتاتان إلى السيارة . وفجأة ، خبطني ميشيل على كتفي وقال : « نذهب نحن أيضاً ، هه ؟ » وأجبته : « ولكنني لم آخذ متاعي ، تركت كل شيء في النزل » . فقال : « لا بأس ، سنعود غداً . » وأجبته : « ولكني لا أملك نقوداً » . فأجابني : « سأقرضك بعض المال . لي شقيقة في باريس . » وهكذا فقد صعدنا إلى السيارة ، مع دهشة السائق وتعجبه .

كانت رحلة مجهدة . وانكسرت السيارة بعد حلول الظلام . وأخيراً تمكنا من الحصول على توصيلة أخرى . ووصلنا باريس حوالى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، وكنّا متعبين تماماً وقد هبطت روحنا المعنوية . وتركنا سيارة النقل في ميدان الاوبرا . وصمم ميشيل أن نبيت في قسم الشرطة ، فذهبنا إلى هناك وشرحنا وضعنا . ودهشت قليلاً للطريقة التي تصرف بها ميشيل مع رجال الشرطة . فقد قال لهم إنه أمريكي ، وتحدث معهم بلهجة فرنسية كان من الواضح أنه يعتبرها لكنة أمريكية . ومع ذلك ، فقد سمحوا لنا أن نبيت في إحدى الزنزانات . ولم يكن بها أي فراش ، وإنما مائدة كبيرة صلبة .. ونمنا جميعاً ، نحن الأربعة ، على هذه المائدة مستخدمين ستراتنا ومعاطفنا بدلاً من الأغطية . وفي الساعة السادسة أيقظنا رجال الشرطة . فخرجنا إلى فجر باريس البارد ، لكي نشاهد أشعة الشمس بلون النار

الحمراء على بوابات الأوبرا . ونتساءل عن المكان الذي يمكن أن نشرب فيه بعض القهوة .

واقترحت أنا أن نبحث عن شقيقة ميشيل ، ولكنه كان قد أصبح صموتاً متباعداً . وبدلاً من هذا أصر على أن يسحبنا وراءه إلى اللوفر وإلى حدائق التفاح . كنا جميعاً مرهقين وفي حالة نفسية سيئة . وأخيراً ، حينما اختفى ميشيل في مكان ما ، قالت لي جين : « بحق الاله ، أبعده عنا . إنه يدفعنا إلى الجنون . » كان من الواضح أنه قد قرر أنه يحب جين وأنه يريد أن يتزوجها ، وكان يطرح عليها كل أنواع المشروعات المجنونة . وحينما عاد ميشيل قلت : « إنني عائد إلى (ليل) هذا المساء . والفتاتان تريدانك على المجيء أيضاً .. » وذرف ميشيل بعض الدموع ، ولكنه وافق أخيراً على المجيء .

وكانت رحلة العودة إلى (ليل) أسوأ بكثير من رحلة الذهاب إلى باريس . هطل المطر وأنفقنا وقتاً طويلاً سائرين على أقدامنا تحت وابل المطر . وعدت إلى النزل بعد حلول الظلام في اليوم التالي ، وجاء ميشيل معي إلى النزل ، ثم اختفى . واستبد الغضب بالمشرف ، فقد غادر النزل دون أن يدفع ما عليه . ولكنه كان يملك أسباباً لذلك . وفي اليوم التالي جاءت الشرطة للبحث عنه . فقد كان يعمل في شركة لتأجير الأشياء ، وكان قد اختلس من الشركة قدراً كبيراً من المال . ومن الطبيعي أن اسمه لم يكن دي ريوفور ....

وفي ذلك الوقت ، لم أكن في حالة تسمح لي بأن أبالي كثيراً بما يجري من حولي . وقد أصابتني أسوأ نزلة برد في حياتي أثناء عودتي من باريس ، كان رأسي يدق وحلقي يلتهب وعيناي تسحان بلا انقطاع . ولسوء الحظ لم يكن معي أي نقود ـ ليس فقط لأشتري طعامي وإنما لكي أدفع فاتورة النزل أيضاً . ولحسن

الحظ ، كان نزلاء آخرون يتركون طعامهم في أصونة المطبــخ ، واستطعت أن أصل دائماً إلى هناك لكي أتناول كميات صغيرة من كل شيء . ولكي تزداد الأمور سوءاً ، وصلتني بطاقة بريدية من وندي تسألني أن أعود إلى الانضمام اليهم في باريس ووقعت بطاقتها بقولها : « وندي الوحيدة التي تملكها » . كانت تقيم في نزل الشباب في بورت دي شاتيليون . وفجأة لم تعد ستراسبورج ذات أهمية بالنسبة لي . وتحدثت مع المشرفة على النزل وشرحت لها أنني لا أملك نقوداً ، وأنني سوف أدفعها حالما أصل إلى ستراسبورج وتركت لهــا بعض أحذيتي كضمان على ذلك . ثم رحلت إلى باريس مرة أخرى . ولكن الأمر كان ميؤوساً منه . كان رأسي يدور كالغزل وساقاي تتهالكان بطريقة غريبة . ولم أعثر على أي توصيلة ، وبدأ المطر يهطل ثانية بعد الظلام . عبرت الطريق وأخذت توصيلة عائداً إلى (ليل) . ورأى فرنسي طيب أنني كنت محموماً ، فأخذني إلى مقهى ، وأصر على أن أشرب كأسين من البراندي مع قهوة ساخنة . ثم أخذني وعدنا إلى النزل . وفي تلك الليلة عرقت كما لم أعرق في حياتي أبداً . ولكن حينما استيقظت في الصباح كانت الحمى قد انتهت ، ولكنني كنت أشعر بضعف بالغ . كانت الشمس ساطعة ، وكانت « وندي الوحيدة » التي أملكها تنتظرني في باريس . ومرة أخرى ، حزمت حقيبتي . وكنت قد تعرفت على بائع متجول في النزل ، وكان رجلاً وسيماً قصيراً ذا خصلة من شعره متدلية بعرض جبينه وشارب يشبه شارب كلارك جيبل . وسألته إن كان باستطاعته أن يقرضني أي مبلغ من المال . فقال إنه لا يحمل الكثير من النقود — وأن كل ما يستطيع أن يستغني عنه لا يزيد عن مائة فرنك . ولكنه أعطاني عنوانه في باريس . فشرعت مرة ثانية في الرحلة . وعند نقطة معينة من الطريق ، عثرت على مجموعة من أشجار التفاح محملة بالثمار الصغيرة ولكنها كانت حلوة المذاق . فملأت حقيبة

الظهر وحقيبة أخرى بالثمار ، وملأت جيوب سترتي التي كانت بقية زي السلاح الجوي الملكي بالثمار . ولمدة الأيام القليلة التالية ، كانت هذه الكمية من ثمار التفاح المسروقة هي وجبتي الرئيسية في كل أكلاتي .

ووصلت إلى باريس في المساء ، وأخذت المترو إلى بورت دي شاتيليون . وحاولت أن أتخيل وجه وندي حينما تراني — البهجة والدهشة (فلم أكن قد أخبرتها بأنني سأذهب إليها) — أم أنها ستكون خجولة ولا تظهر عواطفها ؟

ولكنها لم تبد شيئاً من كل ذلك : ولم يحدث إلا أنها تضايقت وانزعجت . ففي خلال الأيام القليلة الماضية كانت قد التقت بشاب نرويجي طويل القامة ، وحينما رأيتها كانت تضع ذراعها حول وسطه . وكان من الواضح أنه لا يوجد محل ولا ضرورة للعتاب أو للاعتذارات ، كانا في يوم اجازة ، وكانا يزمعان أن يسليا نفسيهما . هززت كتفي وحاولت ألا أكتئب لهذا . فقد كانت لدي مشكلات أخرى : لا نقود ، ولا مكان آوي إليه — وكان النزل ممتلئاً بالنزلاء ، وكان هناك أشخاص ينامون على الأرضية في حقائب النوم — (وكانت وندي تشارك النرويجي حقيبته) . ولكن طرأ تحسن طفيف على حظي عند هذه النقطة . فقد تلقى أمريكي برقية وكان عليه أن يترك النزل على الفور ، وطلبت منه ألا يبلغ المشرف بذلك ، وبذلك أصبحت قادراً على أن أنام في فراشه . وطالما أنني لم أكن قد سجلت اسمي ، فقد استطعت أن أتسلل خارجاً من النزل دون أن أدفع أجر مبيت اليوم التالي . ولم أقل « إلى اللقاء » لوندي .

كان يوماً كئيباً ، وكانت الرياح تعصف بأوراق الأشجار في حدائق آفنيو دي شاتيليون . ولم يحدث أبداً أن كنت ميالاً إلى الاشفاق على

الذات أو استجداء الاشفاق على نفسي ، وكنت مصمماً على عـدم الاستسلام لذلك عند هذه النقطة . ولكن إحساساً كان يسيطر علي بأن ذكرى وندي كانت تزمع أن تطل برأسها ثانية لكي تملأ مشاعري حينما أكون مستغرقاً في التفكير في شيء آخر ، وجعلتني هذه الذكرى أعيش عدة أيام في ظل تقلبات عاطفية عنيفة .

وفي تلك اللحظة حدث شيء هام . بزغت الشمس وغمرت قمم الأشجار في مواجهتي . وفجأة غمرني الإحساس بجمال بهائها . وبزغت الفكرة : إنها هنا بينما لست في نفس المكان ... ورأيت نفسي متباعداً قصياً ، كما لو كنت أنظر إلى نفسي من نافذة طائرة ، كائناً إنسانياً محدوداً ، يصارع ضد مشاعر عابرة موقتة كما لو كانت هي كل ما يهم في هذا الكون . وشعرت بدفقة غامرة من البهجة ، وبرغبة في الضحك ، وعرفت أن هـذه السعادة المفاجئة قد طوحت بوندي بعيداً عن عقلي . وكان هذا حقيقياً . فإنها لم تتسبب لي بعد ذلك في أي تقلب عاطفي .

* * *

وانطلقت في طريقي إلى المكتبة القومية ، وحصلت على تذكرة موقتة للاطلاع ، وأنفقت يومي في قراءة طبعة مختصرة من روايـة « يوليسيز » مزودة برسوم ياتيس ، كان من الممتع تماماً أن أكون قادراً على العودة من جديد إلى عالم الكتب ، حتى ولو كنت مفلساً بلا أي نقود ، وحتى لو كانت مؤونتي من التفاح في انخفاض مستمر . وحينئذ تذكرت الفرنسي الذي قابلته في (ليل) ، كلود جيوم . كان قد أعطاني عنوانه وقال لي إنه سيكون في باريس قبل نهاية الأسبوع . وحينما غادرت المكتبة اتجهت إلى ميدان دي تيرن ، بالقرب مـن الأتوال ، وعثرت على شارع باين ، وطرقت الباب . وفتحت الباب

فتاة رائعة الجمال تتمتع بأرق بشرة رأيتها في حياتي . وكانت هذه هي ماري زوجة كلود . ووضحت لها من أكون ، فدعتني للدخول . وبدأ حظي يعود إلي من جديد . كانت تدرس الانجليزية لكي تدخل امتحاناً تصبح مدرسة إذا نجحت فيه ، وكانت تكافح من أجل فهم كتاب « حكايات كانتربري » ، وكانت تجد أنه من المستحيل أن تفهم هذه اللغة . وكنت قد قرأت أكثر ما كتبه تشوسر ، فأنفقت الساعة التالية في محاولة لتبسيط قصة « حكاية الفارس » . وغمرها الابتهاج ، وطلبت مني أن أبقى عندهم لأطول مدة ممكنة . وجاء كلود متأخراً ، وبدا عليه هو الآخر أن الفكرة قد أعجبته ، رغم أنهما كانا يقيمان في غرفة واحدة . وفي هذا المساء ، ولأول مرة منذ ما يزيد على الشهر ، أكلت قطعة كبيرة من اللحم مع الخضروات الساخنة . . وفيما بعد ، نمت على الأرض فوق ملاءة مصنوعة من مظلة جوية . وحينما أستعيد الآن الحكاية كلها ، أغمز لنفسي . لقد كانت حكاية صعبة ، لولا الشباب والقوة .

وفي اليوم التالي ، التقطت كتاباً ذا طباعة غريبة من فوق بيانو كلود ، وكان اسم الكتاب : « شرارات السندان » ، وبدا أنه مكتوب بلغة فرنسية بالغة الجفاف (وكان الغلاف يقول إن هذه هي الطبعة الثانية) . وكان الكتاب مليئاً بالموضوعات الإنسانية العاطفية : « الإنسان يحتاج إلى الشجاعة أكثر من حاجته إلى الذهب » ، « إن الأكثر أهمية هو المسرح والموسيقى والحديث الإنساني » . وكان اسم المؤلف على الصفحة الأولى : رايموند دنكان . ورآني كلود أقرأ الكتاب فقال : « آه ، أجل ، إنه مليونير أمريكي يدير مدرسة للكتاب في شارع سين . » . وأرهفت آذاني . وأراني كلود مجلداً آخر من تأليف دنكان ، وكان بالانجليزية هذه المرة . كان يبدو أنه ممتلئ بأنواع مختلفة من الأشعار المتأثرة بأسلوب والت ويتمان :

أنظر إلى السماء من فوقك ، ومن تحتك
إلى الأرض .
ها هو مسرحنا .

نظرت إلى هذه العبارات العاطفية كعبارات مائعة وغامضة ، ولكن إذا كان هذا الرجل مولعاً برعاية الكتّاب الشبّان ، فليس لدي سبب لأن أتحير إزاءه أو أن أرفضه . وأعطاني كلود تذكرتين للمترو ، وانطلقت في طريقي إلى شارع سين . وكان المنزل رقم (٣١) يقع في منتصف الشارع ، بالقرب من الفندق الذي مات فيه وايلد . كان هناك فناء مفتوح واسع تناثرت فيه تماثيل منحوتة . ووجدت المكتب ، وتحدثت إلى امرأة ضخمة الحجم ترتدي إزاراً أبيض اللون مثل الراهبات . وكانت هذه هي مدام إيا برتراند ، التي تحتل منصب نائبة دنكان . وحينما قلت لها إنني معجب برايموند — وكانت هذه كذبة صريحة — أصبحت ودودة تماماً . وسألتها عن الكنيسة أو العقيدة التي تتبعها ، قالت لي بوقار : « لا كنيسة هناك . فأنا ملحدة . » .

ودخل رايموند دنكان إلى المكتب ، فأصابتني خيبة الأمل . كانت صوره — الموجودة بكثرة في هذا المكان — تُظهر رجلاً حاد الملامح له وجه كوجه الصقر ، ذا شعر أبيض طويل ، مصفف حول جبهته ومرفوع بشريط يشبه غطاء الرأس الهندي الأمريكي ، وعباءة رومانية بيضاء تجعله يشبه أنبياء الدعوات الحديثة في كاليفورنيا . أما هذا الرجل الذي دخل الحجرة فكان أكثر ضآلة ، وكان طاعناً في السن لدرجة أن وجهه قد فقد نظرته الرصينة الثاقبة ، كان مصاباً بقصر النظر ويضع نظارات سميكة ، أما عباءته الرومانية فكانت نوعاً من رداء النوم الأبيض القذر مصنوعة من التولينج . وكان أسلوبه في التعامل رقيقاً ، ولكن لا بُدّ أن يعتقد المرء أنه يفكر على الدوام في

أشياء أخرى ، أو أنه أصم لا يسمع شيئاً مما يقال له . وشرح لي أن فلسفته تقوم على ضرورة أن يعود إلى أساليب الحياة الحرفية القديمة في العصور الوسطى ، فإن كل الناس سيكونون سعداء لو أنهم اشتغلوا جميعاً بأيديهم . وعلى قدر ما استطعت أن أفهم كلامه ، فإن فلسفته كانت نوعاً من الفوضوية الإنسانية أقرب شبهاً بفلسفة ويليام موريس . كان يشعر بأن المجتمع الحديث قد فرق الإنسان وأبعده عن المثَل الأعلى الإنساني القديم عن « الإنسان المتكامل » ، الصورة التي كان ليوناردو دافنشي نموذجها الأسمى . وكان هو نفسه يرسم وينحت ويكتب الشعر ، ويخرج بنفسه مسرحياته التي يؤلفها — وكلها مسرحيات بالغة الرداءة — وقد أخبرني بأنه يستطيع أيضاً أن يصلح الساعة ، وأن يبني جداراً ، وأن يخيط لنفسه ثيابه . ولقد غادر هو وشقيقتاه — وإحداهما كانت إيزادورا دنكان — سان فرانسيسكو في طفولتهم وجاءوا إلى أوروبا . وأصبحت إيزادورا راقصة مشهورة اعتادت أن تراود كل رجل يعجبها عن نفسه — فأثارت بذلك إحساساً عاماً حولها بسبب رأيها في الحرية الجنسية — أما رايموند فقد ذهب إلى اليونان وشرع في بناء معبد لنفسه . وفي باريس ، أنفق ليلة واحدة في اختراع « صندل » مريح مصنوع من قطعة واحدة من الجلد مع بعض الأربطة . ثم افتتح محلاً لبيع هذا النوع من « النعال » وجمع لنفسه ثروة . وكرس ثروته لنشر أشعاره وإخراج مسرحياته ، فأصبح شخصية مرموقة في باريس تريستان تزارا والدادائيين [1] . وكان يجسد بصورة نافذة قولة ويل روجرز العاطفية : « لم يحدث أبداً أن

[1] الدادائيون — مجموعة من الفنانين-والشعراء الأوروبيين كونوا الحركة الدادية في نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٦) بزعامة تريستان تزارا في زيوريخ ، كانت تهدف إلى تحطيم كل المقاييس التقليدية في الفن والأدب والشعر والموسيقى والمنطق والفلسفة ، في مواجهة لما فعلت الحرب من تحطيم لكل القيم الإنسانية والأخلاقية. انتهت الحركة بالتحول إلى السيريالية .(م.م.)

قابلت رجلاً لم أحبه» . وكان رايموند يشعر بعاطفة «ويتمانية» نحو كل مخلوق (نسبة إلى والت ويتمان) وبوجه خاص تجاه العاديين من الناس . وقد حكى لي عن كيف نزل في أحد الفنادق الفخمة في نيويورك ، وحينما قرر الرحيل ، اصطف الخدم جميعاً في صف واحد لكي ينالوا عطاياهم ، ولكنه بدلاً من أن يمنحهم أية عطايا ، راح يصافحهم واحداً واحداً ، وقال بإخلاص بريء : «لقد فضلوا ذلك على النقود ، فإنهم في الحقيقة لم يكونوا يريدون مالاً .» ووجدت نفسي أتخيل احتقارهم له حينما رحل عنهم ، وحاولت ألا أبتسم .

وبعد ثرثرة استمرت لمدة ربع ساعة — شرح في أثنائها ، بطريقة عابرة ، أنه ليس مليونيراً رغم أنه قد جمع وفقد ثروات عديدة — عرض علي العرض الذي كنت أتوق إليه : «تعال وأقم هنا ، وتعلم كيف تعمل بيديك . وسوف أعلمك كيف تطبع كتبك بنفسك وكيف تخرج مسرحياتك ...» . وحينما جاءت مدام برتراند بعد بضع دقائق وسمعت بالخبر الجديد ، نظرت إلي نظرة مليئة بالشك ، ولكنها استسلمت للأمر الواقع .

وعدت إلى شارع باين يمور في صدري القلق . فسوف يمكنني أن أتعلم الطباعة ، وسأتمكن من انهاء روايتي في الأمسيات ، ثم أجمع حروفها بنفسي . وسيمكنني أن أكتب المسرحيات ... وكان كلود وماري سعيدين مثل سعادتي ، ربما لأنهما كانا يجدان أن الغرفة شديدة الازدحام بمشاركتي لهما كشخص ثالث فيها . وفي اليوم التالي انتقلت إلى المنزل رقم ٣١ من شارع دي سين . وملأني الأمل في أن أقف هذه المرة على قدمي ، بعد أن عثرت على شيء يمكن أن يستمر لمدة طويلة . وكان الأمر يبدو جديراً بالأمل بالتأكيد . كان صورة مما كنت أتوق إليه دائماً في ليستر : أن أعثر على مكان للفنانين حيث أستطيع أن أستخدم طاقتي من أجل الخلق لا أن أضيعها في أعمـــال

أمقتها . . . ولكنه كان من الصعب أن أصدق أن حظي قد تحول بمثل هذه الصورة المفاجئة . فمن المؤكد أن مثل هذه الأشياء لا تحدث بمثل هذه البساطة . يقول ييتس عن نساكه المترهبين :

تطغى عليهم الجماهير الحاشدة كالطاعون حتى ،
تصبح شهوة الهرب إحدى ملامحهم الدائمة .

ولكنني حافظت على تفاؤلي بأن زعمت لنفسي أن هذا هو السبب الذي لم يسمح لي القدر لأجله بأن أستقر أبداً أو أشعر بالهدوء ، والذي جعل الحياة دائماً عسيرة وغير مريحة ، والذي جعل كل وظيفة ألتحق بها تصبح غير محتملة بعد أسبوع أو نحو الأسبوع . ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن آمل في أن يمنحني القدر فرصة ألتقط فيها أنفاسي . وبدا لي أن أكاديمية دنكان يمكن أن تكون هي هذه الفرصة .

ولكنها لم تكن آمن . فقد وجدت العمل في المطبعة عملاً مضجراً بصورة لم أكن أتوقعها . كانوا يعطونني كتلاً من أسطر الحروف المجموعة لكي أقسمها إلى مجموعات متفرقة وأضعها على صوان مختلفة ، وكان هذا عملاً كئيباً للغاية . وكان ما وصلت اليه هو أن أصبحت صبياً في عمل لا أحبه . وفي أول أمسية لي هناك ألقى رايموند محاضرة في القاعة الكبيرة . تحدث ببطء بالفرنسية — وكانت فرنسيته رديئة جداً ولكنها سهلة الفهم لأن كل تعبيراتها كانت انجليزية — ملوحاً بيده في إيقاع منتظم بينما كان مستلقياً على أريكة وثيرة . وبدا كل ما قاله مبتذلاً وتافهاً إلى درجة لا تصدق : « الجمال هو القيمة الأخلاقية الوحيدة عند البشر ، ولا قيمة للفضيلة إلا لأنها فضيلة الجمال » . كان يقول هذه الكلمات ببطء شديد كما لو كان يقرأ شعراً . « ولكن الكون يا أحبائي هو الجمال كله ، وهو الجلال

كله ... » . وفكرت حينئذ في ذلك السطر الذي جاء في رواية « الرجل الذي جاء على العشاء » : « إنني قد أتقيأ » ، وكان علي أن أمنع نفسي من الضحك . ومن المؤكد أن تلك المواقف السخيفة العبثية التي كنت أجدني فيها دائماً كانت تضم عنصراً فكاهياً . كنت أكتب رواية عن قاتل ، وكانت هذه الرواية جديرة بأن تجعل جراهام جرين يبدو متفائلاً ساذجاً ، وكنت مشحوناً بفكرة الخطيئة الأصلية وفكرة أن المجتمع الحديث ليس سوى أرض خراب مقفرة . ولكن ، كان هناك رايموند يقول هامساً : « إنما ترجع أعظم فضائل البشر إلى وجودهم الأول . فلنبحث عن شعرنا في الحياة ، يا أحبائي ... » وكان من المفروض أن أكون تابعه وتلميذه ...

ومع ذلك ، فقد كنت مفلساً وليست أمامي أي سبل مفتوحة ، فبدا لي شارع دي سين مكاناً لا يقل في شيء عن أي مكان آخر حتى يظهر لي شيء أفضل . لم أكن أحب التظاهر الزائف ، ولكن لم يكن بوسعي أن أرى بديلاً لذلك . هذا إلى جانب أنه كان مكاناً مقبضاً يبعث على الكآبة . ولم يكن هناك – عداي – سوى نزيل واحد آخر ، وكانت فتاة سويدية تدعى سيبيل ، كانت تكره المكان بقدر كراهيتي له . وكانت مدام برتراند تقهرها وتضغط عليها ، وكنت أكره أن أرى ذلك . وكانت الحجرات كئيبة مظلمة ، فاخترت أن أنام على أريكة في أحد جوانب منصة المسرح ، ولكن لم يكن هناك ضوء . وكان المكان يفوح بعبادة شخصية إيزادورا . وقرأت أجزاء من سيرتها الذاتية ، ووجدتها مسلية وإن كانت على شيء من البلاهة . وقد وصفها الناس بأنها كانت جميلة ، رغم أن شو قال إن وجهها كان يبدو كما لو كان قد صنع من السكر ثم لعقه شخص ما . كانت مصابة بنوع قاتل من الشبق الجنسي ، وكان موت طفليها – اللذين كانا في سيارة سقطت بهما في نهر السين – صورة نموذجية للمصائب

التي يبدو أن مثل هؤلاء الناس يجتذبونها لأنفسهم . كذلك كان موتها ، إذ ماتت حينما التفت على عنقها عباءة طويلة كانت ترتديها وتعلقت بالعجلة الخلفية لسيارتها ، فاختنقت حتى الموت . ولم يكن بوسعي أن أصبر عليها أو على رايموند . ولكنه كان رجلاً طيباً ، دمثاً ، أميناً ، حسن النية . ولم يكن خطأه أنني كنت أبعد الناس ملاءمة في العالم لكي أكون تلميذه أو تابعه .

وكتبت رسالة إلى صديقي في ستراسبورج ، ويللي شويزكا . وعلى الفور تقريباً ، وصلني منه خطاب يحتوي على خمسة آلاف فرنك . مع طلب ملح بأن أتجه إلى ستراسبورج على الفور . ولم أكن بحاجة إلى دعوة أخرى . فبعد ما لا يزيد على اسبوعين ، أصبحت الأكاديمية خانقة إلى درجة تمنعني من البقاء فيها . فكنت أذهب كل مساء إلى مكتبة سانت جنفيف ، لكي أعمل في كتابة « طقوس في الظلام » ، روايتي . وغادرتنا سيبيل ، وكان علي أن أعاونها على تهريب ثيابها . ودعاني عازف بيانو مصاب بالشذوذ الجنسي لكي أقيم عنده — وللحظة واحدة ، تعلقت بهذه الفكرة نفسها كطريقة لاكتساب نوع من الحرية ، ولكن فكرة أن يصيبني ما أصاب أهل سدوم لم تعجبني — ثم دعتني امرأة امريكية في منتصف العمر إلى تناول الشاي في فندقها ، وسمحت لي بأن أقرأ لها بعضاً من شعري ، ثم قالت لي في حماس إنها تظن أنني سوف أكون في يوم ما في عظمة سومرست موم . وقال رايموند ومدام إيا إنهما يعتقدان أن هذا العمل ليس إلاّ نوعاً مخجلاً من الانتهازية من جانبي ، بل إن رايموند قال لي ذلك ثانية في أحد الأيام أثناء تناول العشاء — وكان من غير المعتاد تماماً أن نراه بهذه القسوة — ثم مضى في قوله إلى أنني قد جئت إلى أكاديميته على أسس زائفة . ولم يكن بوسعي أن أقول شيئاً ، طالما كان هذا حقاً . وهكذا فحينما وصلتني النقود ، قلت لهما إنني أريد أن أزور ستراسبورج ،

واضفت قائلاً : إنني قد أعود في يوم ما . واجابتني مدام برتراند بلهجة قاطعة : « كلا ، لا يسمح لأي شخص يغادرنا بأن يعو ثانية » . وكان بوسعي أن أتعاطف معهما . فلا أحـــد يريد مزيداً من الببغاءات في العش – ولقد عشت مع عدد منها بنفسي في السنوات الماضية .

* * *

وهكذا فقد أخذت المترو إلى ضاحية نبولي ، ثم بدأت أطلب التوصيلات المجانية . ونمت تلك الليلة في مطبخ إحدى المزارع – وكنت قد سألتهم أن يسمحوا لي بالنوم في الحظيرة ، ولكنهم تصرفوا بود عندما عرفوا انني انجليزي . وفي اليوم التالي وصلت إلى نانسي ، ونفدت نقودي . فذهبت إلى نزل للشباب ، وشرحت الوضع للمشرف ، وسألته إن كان بوسعي أن أترك له بطاقة عضويتي في بيوت الشباب كضمان حتى أتمكن من إرسال المال . فسمح لي بالبقاء تلك الليلة . وليست هناك في تلك الرحلة إلى ستراسبورج سوى لحظة واحدة أذكرها بوضوح عظيم . فقد خرجت من مقهى لسائقي الشاحنات مع سائق وافق على أن يأخذني معه بقية الطريق إلى ستراسبورج . وربما لأنني كنت بالغ السعادة لهذا السبب ، فقد نظرت باستمتاع هائل إلى تلال الفوج العظيمة ، وفجأة اجتاحني إحساس هائل بالتوتر العميق والمغامرة ، فللحظة واحدة ، بدا لي كل شيء جميلاً وطيباً . وقد كانت سلسلة من مثل تلك اللحظات هي ما أعانتني على تحمل الضجر والمصاعب التي اعترضت سنوات مراهقتي .

نزلت من الشاحنة في ستراسبورج ، وكان أول من رأيته هو صديقي ويللي ، وكان في طريقه إلى مباراة لكرة القدم . وبدت هذه المصادفة فألاً حسناً يبشر بأشياء أفضل . فأخذني إلى البيت وقدمني إلى والديه ،

وأنزلني في غرفة من المنزل .

وفي خلال بضع ساعات تبينت أنني قد ارتكبت خطأ . لم أكن قد رأيت ويللي منذ كنا جميعاً في السادسة عشرة ، حينما كان ببساطة صبياً ذا وجه صبوح يتميز بإحساس واضح بالفكاهة . وكان قد أصبح منذ ذلك الحين ، عضواً في الحزب الشيوعي وماركسياً متحمساً . أما أنا ، فقد كنت أقرب إلى المانوية [1] . كان يبدو لي أن أكثر الحقائق وضوحاً في البشر هو ضعفهم ، وافتقارهم إلى القيم ، إنهم «لم يكونوا أرواحاً عنيفة ضائعة ، وإنما كانوا الرجال الجوف ، المحشوين بالقش» . أما طبقاً لما كان يقوله ويللي ، فقد كان الإنسان في جوهره روحاً نبيلة ، يقهرها أشرار ماكرون استولوا على كل الثروات ، وأن كل ما نحن بحاجة اليه لكي يكون العالم كاملاً هو ان نلقي القبض على كل الأشرار . تماماً كما لو كانوا عصابة سرقت أحد المصارف ، ثم ننتزع منهم ثرواتهم . وكانت الفجوة القائمة بيننا فجوة بين الأمزجة أكثر منها بين الأفكار والمثل . ولذلك فقد كانت مما يستحيل عبورها . كان يحب البشر ويعتقد أنهم يستحقون فردوساً من جنات عدن ، أما أنا فكنت أعتقد أنهم أحسن قليلاً من الأغنام ، وأن كل ما يستحقه أكثرهم ليس سوى جزار قاتل . وكانت نزعتي الجانسنية [2] هذه تبدو في سلوكي ، وأنا أعرف الآن أن هذه النزعة

---

[1] المانوية — أتباع الفيلسوف ماني ، الذي قال بأن العالم تحكمه قوتان : النور أو الخير وهو الله ، والظلمة أو الشر أو الفوضى . كانت هي الديانة السائدة في بابل ، حتى دخلت المسيحية وأثرت فيها ، ولكن المانوية أثرت أيضاً في مسيحيي المشرق في التركستان وسمرقند ، حتى دخل الإسلام وأصبحت المانوية إحدى الفرق التي حاربته وحاربها طوال القرون الوسطى . (هـ. م.)

[2] الجانسنية — فرقة مسيحية تزعمها كورنيليوس جانسن أسقف يابريس في فلوريدا الغربية ، كانت قريبة الشبه من المذهب الكالفيني البروتستانتي ، وتقول بعجز الإنسان المطلق أمام الشر الكوني وأمام الله معاً . حاربهم لويس الرابع عشر وحرمهم البابا كليمنت الحادي عشر (١٧٠٥) من الغفران . (هـ. م.)

لم تكن سوى صورة مقلوبة للعاطفة التي جعلتني أضرب الصبيين حينما كنت صغيراً ، أو أقرص الفتاة الصغيرة عند نهاية الشارع . وقد كانت هذه الكراهية المتوترة هي ما جعلتني بعيداً عن إعجاب أكثر « العاديين من الناس » الذين تصادف أن التقيت بهم ، مثل مالكات البيوت وأمثالهن . ومع مرور السنين ، أعتقد أنني قد أصبحت ودوداً ، سهل المعشر ، بل وخيراً أيضاً ، ولكن هذا لم يكن لأن رأيي قد تغير ، وإنما لأنني أعرف سبب مشاعري . إن قوة الحياة تهدف إلى خلق نموذج من الجنس البشري أكثر سموا ، والنموذج القديم لا يكفي لاشباع حاجات الحياة بصورة أساسية . كما أن النموذج القديم الجدير بالفناء يتكاثر وينمو . إن ما نحن بحاجة اليه هو بشر ومن نوع جديد ، ولسنا بحاجة إلى مجتمع جديد . وستة من هذا النوع قد يكفون للبداية .

وكان علي بالطبع أن أغادر ستراسبورج على الفور ، لأن أول مناقشة لنا معاً جعلتني أظنه شخصاً بالغ البلاهة ، ومن الواضح أنه ظنني شخصاً سلبياً ، متشائماً . ومن المحتمل أن يكون قد وضعني في الجناح اليميني . وكان ويللي قد دعاني للعمل معه في تجارة والده في الأشياء القديمة والنفايات . وبدت لي هذه فكرة طيبة ، رغم أنني حينما وقفت في فناء أحد المصانع أبحث وأغوص في كومة هائلة من الملابس الممزقة أو القطع المعدنية الصدئة وجدتني أردد سطراً من شعر ييتس : « إن خطأ وجود الأشياء القبيحة لخطأ أعظم من أن يعترف به أحد . » وذهبت إلى مكتب من مكاتب العمال الأجانب وطلبت عملاً ، ولكن ثبت أنني كنت بحاجة إلى تصريح بالعمل ، وحتى إذا حصلت على التصريح ، فقد كان العمال الفرنسيون يتلقون أجوراً أقل بكثير من تلك التي يتقاضاها الانجليز ، ويعملون ساعات أكثر .

وعثرت على مكتبة الجامعة ، فطرت اليها مثل حمامة تطير إلى

عشها . فقد أثارت فيّ هذه المدة الطويلة من التنقل والارتحال جوعاً قوياً إلى الكتب والانفراد بالنفس . كنت أحمل في حقيبتي كتاب : ف. و. ماثيسين عن : « هنري جيمس ، المرحلة الكبرى » . لقد ظهر لي جيمس باعتباره أكثر الرجال جدارة بالحسد – متمتعاً بمزاج نفسي يشبه مزاجي ، وبشغف ملح بالملاحظة ، وولع بالفنانين والشخصيات اللامنتمية ، وارتعاشة كراهية للعالم هي التي تمد الواقعيين بمادتهم . لقد كره جيمس ، مثلما كرهت أنا ، النظر إلى الحقيقة نظرة مباشرة ، لأنه ماذا ستكون وظيفة الذهن الإنساني إذا عجز عن فرض النظام على فوضى الحقيقة المتكررة ؟ أليس هذا هو السبب الذي يجعل الفن العظيم ، والأعمال العظيمة للأدب والموسيقى تنتج لدى أصحاب الحساسية المرهفة مثل ذلك الإحساس بالاشباع ، والاحساس العميق بالاستقرار ؟ إنه نوع من الجوع الذي تعانيه الروح الإنسانية ، وهو هذا الاحتياج إلى عالم أقل فوضى واضطراباً من العالم الذي نعيش فيه . وهو ليس بالنوع الهروبي من الجوع ، لأن الاحساس بالنظام الذي يفرض الفن العظيم ، يستطيع أيضاً أن يعيد تنظيم الحضارة .

ولكنني ، بعد أن قضيت شهرين في هذا السبيل ، لم أشعر بأي اهتمام إزاء إعادة تنظيم العالم ، ولم أهتم إلا بأن أغرق نفسي في عالم هنري جيمس . كانت المكتبة تضم الطبعة « الأطلنطية » من أعماله ، فاستخرجت حوالى اثني عشر كتاباً منها ، بما في ذلك : « السفراء » ، « أجنحة الحمامة » ، « الكأس الذهبية » وهي الروايات العظيمة الثلاث التي كتبها في مرحلته الأخيرة . كان الانغماس في هذه الأعمال شبيهاً بأن يغرق المرء جسده في حمام ساخن ، وبعد نصف ساعة من القراءة ، شعرت بأنني عدت متحضراً من جديد .

اقترب مني رجل غريب وقال بالفرنسية : « أرى أنك تقرأ جيمس . وأنا أقرأ الآن كتاب ماتيسين عن أسرة جيمس . أتحب أن تنظر

فيه ؟» وأجبت بالفرنسية أنني أود أن أرى الكتاب : فناولني الكتاب ، وكان يجلس في مقابلتي . ومضينا في تبادل الملاحظات العابرة حتى جاءني أمين المكتبة بمجلد آخر . وقلت بذهن غائب : «أوه ، أشكرك» فنظر إليّ صديقي وقال : «قل لي ، أأنت أمريكي» . ووضحت له أنني انجليزي . وأعتقد أن لكنة كل منا في نطق الفرنسية كانت سيئة إلى درجة أن أحدنا لم يلحظ رداءة لكنة الآخر .

كان اسمه لوفكين ، جيمس لوفكين ، وكان هو وزوجته ، يستكملان دراستهما في ستراسبورج . ودعاني إلى العشاء في شقتهما التي كانت ضمن مبنى يقع وراء ناصية شارع الجامعة مباشرة . وحينما أخبرت ويللي بذلك ، بدا عليه الاستياء ، ولكنه لم يبد أي اعتراض .

كانت زوجة جيمس تدعى فريدي . وكانت حاملاً في شهرها التاسع تقريباً . وكانت تتدرب أيضاً لكي تكون مدرّسة . وإذ تبادلت الحديث معهما معاً ، شعرت بالسعادة الكاملة والانطلاق . كانت أذواقنا مختلفة إلى الدرجة التي تكفي لخلق نوع من المتعة في تبادل الآراء . كان جيمس تلميذاً لروبرت بين وارين ، وأصر على ضرورة أن أقرأ كتابيه : «كل ملوك البشر» . «آن أوان العالم» . ولكني كرهت الكتابين كليهما . وكان أيضاً تلميذاً لماثيسين ، وكان هو أول من أخبرني بأن ماثيسين قد انتحر بعد أن استجوبه السناتور مكارثي [1] وكان يكتب بحثاً عن كونراد . وهو كاتب آخر طالما وجدته مليئاً بالهزيمة باعثاً على الانقباض .

---

[1] السناتور مكارثي — عضو مجلس الشيوخ الأميركي المشهور بعد الحرب الثانية ، اللي تزعم حملة القضاء على النزعات الليبرالية واليسارية الأمريكية التي انتشرت منذ أواخر العشرينات وفي خلال الكفاح ضد الفاشية العالمية ، وأصبح رمزاً للارهاب السياسي اليميني في الولايات المتحدة منذ ذلك الحين . (هـ. م.)

وشرحت لهما موقفي الحالي – وهو انني بعد بضعة أيام من الاقامة في منزل أسرة شويكزا كنت قد بدأت أشعر بأنني محور لنوع من التوتر . وكان من الواضح أن الأوان قد آن لرحيلي عنهم ، ومن المحتمل أن أعود إلى انجلترا . وقال جيم إنه كان يتمنى أن أبقى حتى الشتاء ، واقترح أن أذهب لمقابلة أستاذه ، وهو رجل يدعى بروفو ، لأرى إن كان من الممكن أن أحصل على عمل لنصف الوقت إلى جانب منحة دراسية في الجامعة . وبدت هذه الفكرة هي أفضل ما عرض علي ، وذهبت إلى البيت شاعراً بأكبر قدر من التفاؤل منذ انتقلت إلى منزل رايموند دنكان .

وحرصت على أن أظل بعيداً عن طريق أسرة شويزكا بقدر الامكان ، فقد كنت أجدهم أناساً متعبين بقدر ما وجدوني كذلك . كانت أم صديقي امرأة ضئيلة الحجم تتميز بطريقة حزينة في القاء كلامها عن أي شيء وهي تدور بعينيها في كل اتجاه مثل الكلب الاسبانيولي القصير حين يصيبه الجزع والقنوط . وكانت استفادتها الوحيدة مني هي أن تجعلني أمسك لها كتل خيوط الصوف بينما كانت تفكها وتلفها في شكل كرات كبيرة – فقد كانت غارقة حتى أذنيها في غزل الأشياء الصوفية .

وكنت أنا أكتب . كنت قد انتهيت من كتابة النسخة الأولى من رواية « طقوس في الظلام » – وكانت على شكل قصة قصيرة مطولة – وكنت قد بدأت في كتابة قصة عن الصلب ، وربما كنت أستلهم فيها رواية لورنس « الرجل الذي مات » . كنت أريد أن أبدي مشاعر رجل آمن بأننا نحمل مملكة الرب في داخلنا ، حينما رأى ما كان بوسع اليهود أن يفعلوه . فهل يستطيع أن يستمر على إيمانه بالخير بينما هم يسخرون منه ويمرغونه بالوحل ، ويجبرونه على أن يحمل صليبه ،

ويركلونه بأقدامهم حين يسقط على الأرض ؟ وكيف كانت مشاعره .
بم كان يشعر حينما كان معلقاً على الصليب لمدة عشر ساعات .
فقدّموا إليه الخل لكي يروي به ظمأه ؟.. إن الألم يستطيع أن يجعل
كل ما عداه غير حقيقي . ولكن أسوأ ما فيه هو رؤية ما يصبح من
الواضح أن البشر العاديين قادرون على انبائه حينما يدفعهم التعصب
الأعمى إلى قطع كل رابطة من روابط التعاطف مع كائن بشري آخر
وأن يعاملوه كما لو كانوا يعاملون موضوعاً ، أو شيئاً لا روح له .
إن هذه القسوة لهي الناتج المباشر للذهن البشري . وقد أبرزت في
قصتي هذا الانفصال التجريدي الذي يقع تحت وطأة الألم ، حتى
يرى المصلوب في النهاية أنه كان مخطئاً في نظرته إلى تلك الحشرات
البشرية : إنهم يعيشون ويموتون محصورين كليةً داخل أوهام لا حقيقة
لها . تماماً مثلما عاش ومات هو نفسه . والآن ، وقد تلاشت أوهامه ،
هل يمكن أن تكون فكرة البعث فكرة محتملة ؟

كتبت الصفحتين أو الصفحات الثلاث الأخيرة في سرعة أشبه
بالانفجار . واجتاحني ذلك الاحساس الفجائي بأنني قد اخترقت الحاجز
المانع ، وأنني أخيراً قد كتبت شيئاً يتجاوز أن يكون مجرد تعبير عن
عدم نضجي . شعرت بأن عقلي ملتهب كالنار . كان إحساسي أشبه
بنهاية ناجحة لعملية جنسية ، ولكنه أقل قسوة . ومع هذا فهو أكثر
ثباتاً . في تلك اللحظة ، التقت عيناي بعيني مسز شويكزا ، التي
كانت جالسة في مواجهتي . كانت ممسكة بربطة من خيوط الصوف ؛
وتقول بصوتها الموسيقي : « اشتغل » . استطعت أن أبتسم وأنا ألتقط
ربطة الصوف . ولم يكن خطأها أنها كانت تجد في بيتها ضيفاً غير
مرغوب فيه . وكان علي أن أبادر بالقيام بأسرع ما يمكن . وفي ذلك
المساء ، ذهبت لرؤية برونو ، الذي كان رجلاً بشوشاً طيباً ، الذي
وعد بأن يبحث عن الامكانيات المختلفة لقبول طلبي ، ولكنه حذرني

من أن الوقت قد بات متأخراً جداً لالتحاقي بالجامعة في هذا الفصل على أي حال . وكان علي أن أنتظر إلى العام الجديد . وبعزيمة خابية . ذهبت إلى السيد لوفكين وزوجته وقرأت لهما قصتي . وحينما كنت أقرأ ، عانيت من جديد إحساسي بالقلق ، والشعور بأنني قد أنجزت أخيراً شيئاً منعكساً عن شخصيتي والبيئة التي خرجت منها . وكان جيم مستشاراً هو الآخر ، واقترح أن علي أن أرسل القصة ، ومعها النسخة الأولى من « الطقوس » إلى روبرت بن وارين . وتركتهما مع اقتراب منتصف الليل ، وعدت سائراً على قدمي إلى بيت ويللي . وكانت مضيفتي تنتظرني مستيقظة . وبينما كانت عيناها تدوران في محجريهما المليئتين بالسوائل ، شرحت لي أنهم قد تسلموا لتوهم برقية من ابن عم لهم في استراليا يقول فيها إنه سوف يصل اليهم على الفور تقريباً ، وأنهم سيكونون بحاجة إلى الحجرة التي أنزل فيها . كانت تعرف أنني أعرف أنها تكذب ، وفجأة شعرت بأنني أريد أن أبرح منزلهم على الفور . ولكنني قلت إنني سأرحل في الصباح الباكر .

وفي اليوم التالي اتصلت بالقنصلية البريطانية وشرحت موقفي وطلبت أن يتم ترحيلي . ولم تكن هناك صعوبة في ذلك . وفي خلال ساعة واحدة كانوا قد أعطوني تذاكر السفر بالقطار ، وسحبوا مني جواز سفري كضمان لهم بعودتي ، وأعطوني جوازاً مؤقتاً لا يصلح إلا لرحلة العودة . أردت أن أودع لوفكين وزوجته ، على أن ألحق بالقطار في مساء ذلك اليوم لأصل إلى كاليه . كنت أشعر بنوع معين من القلق لأنني كنت على وشك التحرك مرة أخرى ، رغم أنه لم يكن هناك شيء يمكن أن أترقبه لدى عودتي إلى انجلترا . وفجأة بدت لي الحياة مثيرة للاهتمام مثقلة بالمغامرة ، وبدا لي أن الشهرين الأخيرين كانا مثمرين ويستحقان ما لقيت فيهما من متاعب . تذكرت جلستي

وحيداً في الميدان في (ليل) ، وما تمنيته من أن أختفي واتلاشى فجأة في الهواء الشفيف ، فلا يعرف أحد أنني قد اختفيت ، ذلك الإحساس باللامبالاة الكاملة وعدم الأهمية المطلقة . وكان من الواضح الآن ، أن هـذا الاحساس كان زائفاً ، وحينما قعقع القطار لكي يبدأ رحلته عبر الليل ، اجتاحني إحساس من ينظر إلى نتائج الامتحان في نهاية العام الدراسي ، فيكتشف أنه قد اجتاز الامتحان .

الفَصل السَّابع

الزواج ولندن

كان من الممتع أن أعـود ثانية إلى ليستر ، ولكن المشاكل التي أبعدتني عنها كانت ما تزال بغير حل . ولم يكن هناك اختلاف سوى أنني لم أعد أشعر بالاختناق أو الانقباض من جو مدينتي . وكانت ما تزال هناك مشكلة سيلفيا . كانت قد كتبت لي وأنا في باريس وستراسبورج ، وكانت خطاباتها مليئة بالحديث عن افتقادها لي : وكيف أننا ينبغي أن نعلن خطبتنا حالما أعود إلى الوطن . أما الآن وقد انكسرت عادة رؤيتها كل يوم ، فقد كنت أعرف أنه سيكون من الغباء الخالص أن أعـود لرؤيتها ثانية . ومن الجانب الآخر ، فإنها كانت ستعرف آجلاً أم عاجلاً بأمر عودتي ... فتجاهلت المشكلة لمدة أسبوع ، وفي أحد الأيام مضيت أتمشى على طول شارع وولورث ساعة الغداء — وكانت هي تعمل هناك — وقابلتها حينما كانت خارجة لتناول غدائها . وبدا عليها الانزعاج لرؤيتي ؛ بل إنني ظننت أنها لم تشعر بالسعادة . سألتني : « متى عدت ؟ » وأجبتها

دون ترحيب : « منذ بضعة أيام » . فسألتني « ولماذا لم تتصل بي ؟ » فأجبتها : « أوه ، أردت أن أعثر على عمل أولاً .. » . كنا نسير في شارع تشارلز ، وكانت الرياح باردة إلى درجة التجمد . قالت فجأة : « أظن أنه من الأفضل أن أخبرك ... لقد كنت أخرج مع زميل قابلته في حفلة راقصة » . كان من المفروض أن أسعد لهذا ، ولكنني شعرت بغيرة لا مبرر لها .

وعلى أي حال فإن هذا الوضع لم يتغير . فقابلتها في المساء وذهبنا لرؤية جدتي . وحينما أصبحنا وحيدين ، قبلتها ، وفتحت هي فمها بعد لحظة كما كان يحدث دائماً ... وسألتها : « وماذا عن صديقك الجديد » وقالت « كان سيصدمه لو أنني ذكرت الجنس مجرد ذكر » . وأدركت أنه كان رجلاً هادئاً حيياً ، مهندساً ؛ أراد أن يتزوجها على الفور .

وكان اليوم التالي هو يوم خروجها مبكرة في المساء . قابلتها لدى خروجها من عملها ، وعدنا معاً إلى منزلنا . وكانت أمي بالخارج تشتري حاجياتها . وقالت لي سيلفيا إنها وافقت على العودة معي شريطة أن أسلك « سلوكاً مهذباً » ووافقتها على ذلك . كنت قد عرفتها جيداً . فحينما نشرع في التقبيل ، تفقد السيطرة على نفسها ... وقالت لي : « أنا لا أريد حقاً أن أتزوج ، وإنما أفضل أن أتزوجك أنت » . وهكذا عدنا إلى الموقف المتجمد المميت القديم .

* * *

كنا في منتصف الشتاء ، والطقس فيه لا يلائم أعمال البناء . وأكثر

من هذا ، فقد أراد مني أبي أن أعود إلى الخدمة المدنية . ووصلنا أخيراً إلى اتفاق ، فحصلت على عمل في مكتب أحد الإنشاءات الهندسية . كان المرتب ضئيلاً إلى درجة مضحكة – ثلاثة جنيهات أسبوعياً – ولكن العمل لم يكن شاقاً ، وفي البداية ، لم يكن مضجراً جداً . كان عليّ أن أضع الطلبات والردود في أماكنها للحفظ . وكان عليّ أيضاً أن أتجول حول المشروع – الذي كان منتشراً فوق مساحة واسعة – لكي أسلم قصاصات من الورق لرؤساء مختلف الأقسام والإدارات . كان من الأمور الساحرة أن أرقب المعادن المصهورة وهي تصب من الأفران ، أو دفقات الشرر وهي تتطاير إلى ارتفاع عشرة أقدام في الهواء . ولو أنني كنت في ظروف مختلفة ، لأصبحت هناك أكثر سعادة ، بعد أن هدأت رحلتي إلى فرنسا كثيراً من توتري الداخلي . ولكن كان عليّ أن أكتب ، ولم يكن لكل ما أفعله علاقة بالكتابة . لم أكن أريد أن أتزوج سيلفيا ثم أستقر في وظيفة مكتبية . ولم أكن أريد أن أفعل شيئاً مما كان يبدو أن المجتمع ووالدي يريدان مني أن أفعله . ولكن حريتي في الحركة كانت مقيدة ومحدودة ، بينما كنت أعمل لمدة أربعين ساعة في الأسبوع لقاء ثلاثة جنيهات .

ومضيت في رؤية سيلفيا ؛ ولكن كلانا كان يشعر بأن شيئاً ما كان في طريقه إلى النهاية . كانت تعرف أنني لست واقعاً في غرامها وأن صديقها الجديد كان مغرماً بها بالفعل ؛ وكانت تسعى إلى الأمان . وفي أحد الأيام عدت من العمل لكي أجد كل الكتب التي أعطيتها إياها مكومة في صندوق من القش على عتبة البيت الأمامية . ولم أبذل أية محاولة لرؤيتها بعد ذلك . كانت قد فعلت الشيء المعقول ، وكنت أعرف هذا . ومع هذا ، فقد كان من الصعب ألا أعاني من احساس عصابي ينعكس عن وضعي كشخص مرفوض . ومزقت إهداءاتي التي كنت قد كتبتها على الكتب ، ووضعتها جميعاً في صوان بالمنزل .

* * *

ويوماً ما ، في العمل ، ذهبت لمقابلة الممرضة المقيمة لمعالجـة حلقي الملتهب . كانت فتاة شقراء الشعر ؛ ولم تكن جميلة ولكنها كانت ذات فم جذاب . وفي المرة الأولى التي رأيتها فيها ، ظننت أنها متكبرة متعالية . كانت تضع نظارة أنيقة ، ولها لكنة أبناء الطبقات العليا ، وكان على شكلها شيء من الصرامة الجامدة . كانت أكبر مني سناً ، وكان هذا شيئاً جذاباً بعد سيلفيا وعواطفها العنيفة . وفي البداية كانت العلاقة عابثة بصورة مقصودة . قبل أن أدخل مكتبها ، كنت أحل رباط رقبتي قليلاً ، عارفاً بأن دقتها الأنثوية ستجعلها تحـاول إحكام ربطها ، وأنني قد أستطيع أن أضع ذراعي حول خصرها بينما تفعل هي ذلك . وعندما توثقت معرفتي بها ، ثبت لي أن سلوكها البارد لم يكن سوى مظهر خارجي ؛ كانت إنسانة متواضعة خجولة ودودة . ووجدتني أزداد اعجاباً بها . وكانت أصولها الاجتماعية تشبه أصولي إلى حد بعيد — فقد كانت تنتمي إلى الطبقة العاملة . ولكن طفولتها كانت تعيسة إلى حد بعيد . كانت قد تركت البيت في بداية الحرب وأصبحت ممرضة في لندن ، وعملت هناك في فترة الغارات الجوية . وقد قتل الرجل الذي كانت ستتزوجه أثناء خدمته في سلاح الجو الملكي . ومنذ ذلك الحين ركزت جهودها على حياتها العملية ؛ وعلى العكس مني ، لم تكن تثق بالحياة ثقة أساسية . وقد قلت لها ذات مرة إنها تشبه أرنباً يختبىء في جحره ، فأجابتني : « أعتقد هـذا ، ولكنني في كل مرة أحاول أن أخرج رأسي ، يخبطني عليه شخص ما » .

كنت أصطنع الكثير من الأعذار لكي أذهب إليها في مكتبها ؛ وبعد مدة ، لم يكن من الضروري أن أصطنع أي عذر ؛ فقد كان من الواضح أنها تسعد برؤيتي . وفي أحد الأيام دعتني للعودة إلى منزلها لشرب القهوة . وكانت مجرد كلمة « شقة » تحمل رنيناً رومانتيكياً في أذني . وبينما كنت أتجه إلى هناك على دراجتي في ذلك المساء ، تساءلت إن كان لها الكثير من العشاق ، وإذا ما كنت جديراً بأن أكون المرشح لمكان العاشق التالي .

وكان الجواب على أسئلتي — في تلك الأمسية على الأقل — بالنفي . وقد أوضحت هي على الفور ، ومنذ اللحظة الأولى ، أن الدعوة إلى شقتها لم تكن إلا لشرب القهوة ، لا لشيء آخر . وإذ كانت تسلك سلوكاً غزلاً — بحذر — في مكتبها ، فإنها تحولت إلى الدفاع في منطقة بيتها . وحينما كنت أغادرها سمحت لي بأن أقبّلها ، ولكنها بادلتني القبلة بجمود ، وشفتاها مغلقتان بإحكام . وأذكر أنني إذ كنت أدفع دراجتي من ساحة المنزل إلى الطريق ، كنت أفكر قائلاً : « أوه ، حسناً . هذا هو ما يحسم ذاك ... » كنت ما أزال أرتجف لدى ذكر سيلفيا ، ولم تكن لدي النية لأن ترفضني واحدة أخرى .

ولكنني حينما رأيتها في الأيام القليلة التالية ، كانت ودودة معي بطريقة لطيفة ، وحينما قبّلتها في مكتبها ، لم تبد اعتراضاً قوياً . كان موقفي إزاءها كثير الشبه بموقف فريدريك هنري تجاه كاترين باركلي في بداية رواية « وداعاً للسلاح » التي كنت أقرأها في ذلك الوقت تقريباً . لقد أعجبت بها ، وأثار لدي موقفها البارد المتباعد قليلاً رغبة الذكر العادية في تحطيم المقاومة — وربما كان لزي الممرضة تأثيره في خلق هذه الرغبة . وحينما استطعت أن أتغلب على انزعاجي من شرودها ونفورها ، اكتشفت أنني قد أعجبت بتواضعها وبإحساسها بالمسؤولية . وقد كان مزاجها أكثر قرباً من مزاجي مما كانت عليه سيلفيا . وكنت أستمتع بالذهاب إلى شقتها في الأمسيات لتناول العشاء ، ثم قد يحدث أن نستمع إلى إحدى الأوبرات من إذاعة البرنامج الثالث ، أو أن أقرأ لها آخر فصل كتبته من النسخة الجديدة من « طقوس في الظلام » أو من مسرحية كنت أكافح في سبيل كتابتها بأسلوب جرانفيل باركر . وببطء ذاب تحفظها الجنسي . كانت في هذا الصدد مختلفة تماماً مع سيلفيا حتى أنها بدت لي كما لو كانت لا تملك أي دوافع جنسية مستقلة عن مشاعرها الخاصة . بل إنها لم تكن تستمتع بالغزل إلى مدى بعيد .

لقد بدأت بالاعجاب بي ، ثم نما غرامها بي حتى تعودت على رؤيتي بالقرب منها ، وقد كان من المستحيل أن يطرأ على بالها الاعتراف بأنها كانت مغرمة بي وإلا لانغمست في حرب جنسية من النوع الذي وصفه لورنس ، وأنا أتبين الآن إذ أستعيد تلك الفترة أنني أصبحت حبيبها ، لأنها كانت قد بدأت تفكر في بالفعل كزوج لها ، فتبينت أنه كان من المقدر للعلاقة الأفلاطونية أن تنتهي آجلا أو عاجلاً . وقد كنت شديد القلق إلى درجة تمنعني من الوصول إلى قرار بهذا الشأن لمدة طويلة ، وكنت بالفعل أضع خططي من أجل العودة إلى لندن .

كان لي عدد من الأصدقاء في ليستر . وكنت ما أزال أرى جيرالد ، رغم أنني كنت قد تعبت من استبداده ومن رغبته في السيطرة . وكان صديقي المصاب بالشذوذ الجنسي والذي جاء من نورث هامبتون ما يزال يدرس في جامعة ليستر . وكان هناك الرسام ستانلي روزنثال الذي كنت أدعوه باسم « راب » بسبب إحساسه بالفكاهة الشبيه بإحساس رابليه . وكنت أيضاً ألتقي كثيراً بموريس ويللوز وبزوجته فريدا التي كتبت على الآلة الكاتبة قصتي التي تدور حول الصلب والنسخة الخطية الأولى من « الطقوس » . وأرسلت الاثنين إلى روبرت بين وارين ، ولكنني لم أسمع منه عنهما شيئاً . (وبعد سنوات عديدة قال لي إنه لا يستطيع أن يتذكر أنه تسلمهما) . وبدأت في تنظيم نوعٍ من الجمعية الأدبية تلتقي مرة كل أسبوع في الطابق العلوي من مقهى بالقرب من برج الساعة . كنا نأكل كرات الجبن ونشرب الشاي ، ثم نقرأ بصوت مرتفع قصائدنا وقصصنا القصيرة . وكان من المستحيل علي ألا أدرك أنني كنت متقدمـــاً بمسافة بعيدة عنـــه بوصفي كاتباً . لقد كانت السنوات التي قضيتها أخطط كتابات لا تنتهي في كراساتي تثمر الآن . كنت قد قرأت أكثر من أي واحد فيهم ، وكنت قادراً على أن أكتب ما أقلد به أسلوب أي شخص بعد مجرد ملاحظة قصيرة .

وفي إحدى المناسبات ، أرسل الي موريس ويللوز رسالة يقول فيها إنه لن يستطيع المجيء . فكتبت قصيدة من خمس صفحات على إيقاع الجاز في ساعة واحدة قبل الذهاب إلى اللقاء مرصعة بمقاطع خماسية مكتوبة بأسلوب شعر الطنطنة الخالي من المعنى Limerick . كانت تدين بشيء لأشعار آدوين :

تعالوا إلى فردوسنا في الغابة

حيث لا سيادة للقوانين

وحيث تلعب النمور

بالبلى طول النهار

والفيلة مصابة بالشذوذ الجنسي .

وأحرزت هذه القصيدة نجاحاً كبيراً بين الأصدقاء ونالت تقريظهم . ولم يكن من بينهم من قرأ قصيدة فاشيل ليندساي « الكونجو » أو قصيدة إليوت « العذابيات الحلوة » .

كنت أقترب من أن أكون شخصية مرموقة في ليستر ، على الأقل بين الشباب . وكان الوقت قد حان لكي أنشر شيئاً من انتاجي . ولكنني أفتقر إلى أي رغبة حقيقية في الانتشار . وكانت المشاكل القديمة ما تزال ماثلة وحادة . وكانت مشكلة العمل هي أولى هذه المشكلات . فبعد شهر أو نحوه ، بدأت أشعر بالاختناق من المكتب ، وكنت أشعر بالامساك وآلام المعدة كلما دخلت المبنى وشممت رائحته المميزة التي تجمع بين روائح التراب وزيت الآلات . ولم يكن بامكان دوروثي — الممرضة — أن تفهم تقلبات مزاجي . وفي إحدى الأمسيات ، حينما كنت متوتراً يملأني الضيق ، وغادرت المكتب مبكراً ، ظننت أنني خرجت لكي أقابل فتاة أخرى . ولكنني كنت في الحقيقة أفكر في الفترة التي قضاها فان جوخ في بوريناج ، وفي ذلك الدافع الخلاق

القاهر الذي انتهى به إلى تدمير عقله . كنت أفكر في هذا بينما تغمرني الكراهية لهذه الحياة المريحة من مقابلات الأصدقاء على المقاهي أو تناول الطعام في شقة دوروثي . كان المهماز ينخسني مرة ثانية .

وحالما بدأ الجو يميل إلى الدفء ، تخلصت من وظيفة المكتب ، والتحقت بالعمل في هيئة الكهرباء في ليسستر كعامل مبتدئ . وفي اليوم الأول من التحاقي بهذا العمل ، بدأ الجليد يتساقط ، واستمر على ذلك لمدة أسبوعين . وكنت أعود إلى البيت مرهقاً بعد أن فقدت عادة العمل اليدوي . ولكن الارهاق كان على الأقل يغطي على إحساسي بأنني أضيع حياتي . وكانت دوروثي تمرّ هي الأخرى بمرحلة صعبة ، فقد كانت عضواً قديماً بالمكتب ، وكانت تواجه الكثير من الاختلافات في الرأي مع مديرها المباشر الذي كان معجباً بها ويتشاجر معها . كانت تنفجر في البكاء أحياناً إذ يتشقق جدار صرامتها الذاتية البالغة الانضباط ، وكانت قبلاتي ، التي كانت تهدف إلى التنفيس عنها ، تفقد تأثيرها الذي تكتسبه من الإثارة ، من خلال التوتر والضيق .

كنت بحاجة إلى المزيد من الوقت للكتابة والتفكير . وكان العمل في حفر القنوات لإرساء كابلات الكهرباء أقل إملالاً من العمل في المكاتب ، ولكنه لم يكن يقل عنه تكراراً ورتابة . ولم أكن أحب أن أقوم بما يجب على الآخرين عمله ، وإنما كنت أحب أن أعمل ما أريد أنا أن أعمله . وفي أحد الأيام ، في أثناء عودتي من العمل في حالة من الارهاق المزعج ، خطر لي أن هذا العمل اليدوي كان يعود علي بأجر أفضل بكثير من العمل في المكتب ، حتى أنه يمكنني أن أعمل نصف الوقت فقط . وكان من الواضح أن هذا هو الحل ! كان بوسعي أن أعمل يومين أو ثلاثة أيام ، ثم أمضي بقية الأسبوع في المكتبة المركزية لأعمل في كتابة روايتي . وبهذا المعدل كان من الممكن أن تنتهي الرواية في ستة شهور . وفي غمرة من التفاؤل

والقلق ، ذهبت إلى مكاتب هيئة الكهرباء ، وشرحت مشكلتي ، زاعماً أنني طالب أستكمل دراستي ، وأنني أود لو أعمل نصف الوقت فقط . وقالوا لي إنهم لا اعتراض لديهم على ذلك لو وافق رئيسي في العمل . واتصلوا به فقال إنه لا يمانع في ذلك . وعدت إلى العمل في حالة من التوهج ، وأنا أرسم خطة صارمة لبرنامج الكتابة لمدة الشهور الستة التالية . ولكن قبل أن أغادر مكان العمل ، قال الرئيس إنه قد غير رأيه ، فقد ظن العمال الآخرون أن السماح لي بالعمل نصف الوقت فقط معناه أنني مفضل عليهم ، وهددوا بترك العمل . كان هذا الموقف معبراً عن الروح النموذجية للعامل البريطاني ، فما الذي يهمهم أو يشغلهم من أمري ؟ كانوا يفضلون جميعاً لو اشتغلوا نصف الوقت فقط . ولما لم يكونوا قادرين على التقدم بهذا الطلب ، فإنهم لم يروا سبباً مقنعاً للسماح لي به . وقلت للرئيس إنني أفضل ألا أعمل مع مثل هؤلاء الغوغاء ، وعدت إلى المكتب لأسحب أوراقي .

وكان العمل التالي هو أكثر ما عملت فيه سعادة لمدة طويلة ، فقد عينت كعامل مبتدئ مساعد في مصنع دالماس للكيماويات . وكان العمل متنوعاً ومثيراً للاهتمام ، وقد أعجبت بالناس الذين عملت معهم . وكان على أن أنجز مهاماً مختلفة في أوقات مختلفة من اليوم : كان علي أن أغلي مادتي الراتنج واللانولين اللتين تكونان أساس صناعة الأشرطة اللاصقة ، وأن أطهر الأوعية المستخدمة الفارغة ، وأن أزود نصف دستة من الآلات المختلفة بالمواد اللازمة لها وأن أشرف عليها أثناء العمل ، وكنت في هذه الأثناء أقرأ « جبل السحر » . و « الاخوة كارامازوف » وكتاب جيمس « أنواع من التجارب الدينية » .

وكنت قد وضعت قائمة بأسماء الكتب التي رأيت أنها تقول شيئاً ذا أهمية خاصة أو يستحق التسجيل : رواية لورنس « الرجل الذي مات » ويوميات نيجينسكي ورواية هيمنجواي « عبر النهر ووسط

الأشجار » وكتاب ويلز « العقل عند أقصى حدود الاحتمال » . وقررت أن أكتب سلسلة من المقالات ، أسجل في كل منها نفس التصورات والأفكار ، ثم أطبقها على كل من تلك الكتب لكي أظهر ما بينها من علاقة ، وطريقة كل منها في الاهتمام بمشكلة القيم الأساسية . وكانت تلك المقالات فيما بعد ، هي أساس كتاب اللامنتمي » .

وفي مساء أحد الأيام ، أخبرتني دوروثي أنها تعتقد أنها أصبحت حاملاً . ولم يكن بوسعي إلا أن آمل أنها مخطئة في ظنها . كنت أخيراً أعمل في وظيفة أستمتع بها ، وأكتب جيداً ، وأشعر بالتفاؤل إزاء مشروعاتي وإزاء مسألة النشر . ولم يكن هناك شيء أكثر تنافراً مع كل هذا سوى مجيء طفل . كنت مغرماً بدوروثي ، ولكنني لم أكن أريد أن أتزوج أحداً .

وبعد شهر أصبح من الواضح أنها حامل بالفعل . وسألت الأصدقاء عما أفعل ، واقترح أحدهم وسيلة الحمامات الساخنة وشرب الجين ، واقترح آخر أن تشرب زيت الفينيل ، واقترح ثالث أن أفضل تصرف هو أن يأتي الطفل ثم أن يتبناه شخص آخر . ورفضت دوروثي كل تلك الاقتراحات ، وقالت إنه ليس هناك حقاً سوى أمر من اثنين : فإما أن أتزوجها ، وإما أن أتركها وشأنها لتضع طفلها في أمان . كان الطفل أمراً غير مريح بالنسبة لها كما هو بالنسبة لي ، فقد كانت قد حصلت على ترقية من مدة قريبة ، كما كسبت مناقشة طال عليها الأمد حول نقطة مهمة في العمل مع الرئيس الأعلى .

وشعرت أنا بأن هذا كان تكراراً لنفس الموقف الأساسي الذي حدث مع سيلفيا : هذا الصراع بين طموحي وبين رغبتي في ألا أؤذي أحداً . وأخيراً ، وضع والداي صوتهما المرجح الحاسم بأن نصحاني بالزواج . وفي شهر يونيو (حزيران) من عام ١٩٥١ ،

تم زواجي أنا ودوروثي في ساعة الغداء في مكتب التوثيق المدني في ليسستر ، ثم هرعت هي عائدة إلى العمل . كانت قد دفعت ثمن خاتمي الزواج . وأمضيت المساء معها في حالة مقبضة ، ثم خرجت ألتمس توصيلة إلى لندن . كان علينا أن نعيش معاً في مكان ما ، وكنت مصمماً على ألا يكون هذا المكان في ليسستر .

وأمضيت الليلة التالية في نزل الشباب بشارع أورموند الكبير . وكان جون كليمنتس وكاي هاموند تمثلان مسرحية « الإنسان والسوبرمان » في مسرح برينسس ، وذهبت لكي أشاهدها . كانت هـذه هي المسرحية المفضلة لدي دائماً من مسرحيات شو ، ولكن جزءاً من الحوار الآن كان يوحي إلي ببعض السخرية . « سيكون على الفنان الحقيقي أن يترك زوجته تموت من الجوع ، ويسير أبناؤه حفاة الأقدام ، وسيترك أمه تتسول طعامها في سن السبعين ، وسيكون ذلك أفضل عنده من أن يعمل في شيء غير فنه » . وكان من الواضح أنني لست فناناً حقيقياً . وحينما تقول « آن » لـ « تانر » إنه ليس مفروضاً عليه أن يتزوج إذا لم يكن يريد ذلك ، يسألها : « أيريد أيّ رجل أن يشنق ؟ » ومع هذا فإن الرجال يسلمون أنفسهم للشنق دون صراع من أجل الحياة ، مع أنهم يستطيعون على الأقل أن يلكموا الجلاد لكمة تجلل عينه بالسواد . » وكان من المؤكد أن هذا هو المعنى الذي يلائمني تماماً .

وفي اليوم التالي عثرت لنفسي على حجرة في كامدن تاون فانتقلت إليها . كانت تقع في نهاية طريق روشستر ، وإيجارها ثلاثين شلناً في الأسبوع . وكانت مديرة البيت أكثر شبيهاتها تسامحاً ، وكان شو وصف لمسز وارين (في مسرحية « مهنة مسز وارين — المترجم) بأنها « امرأة تمثل بنزاهة وأصالة الحرس الأسود القديم » يناسبها تماماً . ولكنها قالت لي في أول أيامي عندها ، وكانت تتكلم في ثقة كاملة ،

إن الزوجين اللذين يقضيان شهر العسل في البدروم يقومان بتزيين المكان وزخرفته ، وأنها سوف تطلب اليهما إخلاء المكان حالما ينتهيان من ذلك ، ثم تطلب إيجاراً للمكان أكثر ارتفاعاً .

وذهبت إلى مكتب تغيير العمل ، فوجهوني إلى وظيفة في أعمال البناء في منطقة هولبورن بشارع إلى بليس . وكان العمل يتم في الكاتدرائية الكاثوليكية هناك ، وهي المسماة باسم سانت إيشيلدريدا ، وهي واحدة من أقدم كاتدرائيات لندن ، وكانوا يقومون باستبدال كل القوائم التي تدعم السقف . كان عملاً بالغ الخطورة ، لأنه كان من المطلوب أن تنقل القوائم عبر الصقالات على أن تتغير الأربطة التي تحزمها بسرعة وفي أثناء تحريكها . وقد انزلقت إحدى هذه القوائم ذات مرة فأحدثت في الأرضية من تحتها ثقباً بلغ عمقه ست بوصات ، ولحسن الحظ لم يكن هناك من يقف تحته .

كنت أنظر في صحيفة المساء كل ليلة وأكتب قائمة بالاعلانات عن الشقق والغرف المزدوجة التي يمكن تأجيرها ، ثم أنفق ساعة في صندوق التلفون للاتصال بمديرات المنازل . كان هذا عملاً لا يثير الحماس . كان الملاك يطالبون للشقة غير المفروشة بتعويض كبير عن إثقال بيوتهم بالأثاث ولوازم الحياة ، لأن هذه الشقق كانت ذات إيجارات رسمية محددة ، وكان هذا هو الطريق الوحيد أمام الملاّك للتهرب من القانون . أما الشقق المفروشة فكانت أكبر من امكانياتنا تماماً . وكان من السهل العثور على الغرف المزدوجة الواسعة ، ولكن حالما أذكر أن زوجتي على وشك أن تضع طفلاً كانت تقول مديرة المنزل : « آسفة ، لا نريد أطفالاً » ثم تنهي المكالمة . وأشارت لي مديرة منزلي إلى أنها قد تدبر لنا مكاناً في خلال شهر أو نحوه ، ولكنني كنت أعرفها الآن معرفة جيدة إلى درجة تمنعني من الثقة بها .

وفرغت نقودي قبل أن أستحق أجر الأسبوع الأول من العمل —

الذي يدفع كما هو المعتاد في انجلترا عند نهاية الأسبوع الثاني . كنت قد جئت إلى لندن بثلاثة جنيهات اقترضتها من جدتي . وحينئذ ، عدت ذات يوم من العمل لكي أجد أن دوروثي قد أرسلت إلي قدراً من المال ، وكمية كبيرة من الطعام . ولم تكن هذه المفاجأة مجرد مصدر للارتياح والدهشة السعيدة ، إنما جعلتني أكتشف فجأة أن للزواج جانباً آخر إلى جانب المسؤولية ، كانت هناك فوائد ومكاسب إلى جانب الخسائر .

وبعد بضعة أيام ، لحقت بي دوروثي في لندن لتشاركني عطلة عيد ميلادي الواحد والعشرين ، وفي خلال هذه العطلة تغيرت علاقتنا ، فقد كف إحساسي بأن هذا الزواج كان مصدراً للازعاج وتجسيداً لسوء الحظ ، وتبينت مشدوهاً أنني من المحتمل أن أستمتع بأن أكون متزوجاً . ففي خلال علاقتي بسيلفيا كنت قد دهشت حينما اكتشفت أنني أتمتع بنوع من القوة الواقية . أما مع دوروثي فإن هذه القوة لم تتح لها أبداً فرصة الظهور ، بسبب من ميلها إلى التحفظ العاطفي . أما الآن وقد أصبحنا متزوجين ، فإنها لم يعد لديها أي أسباب للتحفظ العاطفي ، كانت قد قبلتني وأولتني ثقتها ، وكانت استجابتي تميل نحو أن أتقيها وأتحفظ إزاءها . وفجأة عرفت أن احتياجها للحنان والفهم بقدر احتياج سيلفيا إليهما . وأنا صاحب نزعة طبيعية تدفعني إلى الحنان والرعاية ، وأنا أجد أن التعبير الصاخب عن الحنان يفيد روحي . وكان باستطاعة دوروثي أن تتقبل كل ما أملك أن أعطيه . وقد كان بليك على حق حينما قال إن « ما يتطلبه الرجال من النساء » وبالعكس هو « تضاريس الرغبات المشبعة » ، وهذا يعني أن على كل إنسان أن يحتاج إلى ما يستطيع الآخر أن يمنحه إياه . وقد كانت دوروثي ، على العكس من سيلفيا ، تمتلك الكثير مما تمنحه إلى جانب الحنان والثقة، بالنظام الذاتي ، والقدرة العملية ، كانت معتادة على أن تطهو الطعام وأن

تدبير شؤون البيت .

وكانت النتيجة أنه حينما عادت دوروثي إلى ليسستر في مساء الأحد ، كنا معاً سعيدين بالزواج ، وافترقنا ونحن على خير وفاق . وعقدت نيتها على أن تتخلى عن عملها في خلال شهر تقريباً – حينما يبدأ حملها في الظهور – وأن تنتقل إلى لندن . وأصبح علي أن أفرغ من مسألة البحث عن بيت بجمعنا . ولكنني كنت أقوم الآن على الأقل بهذا البحث لأنني كنت أريد أن أقوم به ، فقد كان صبرنا معاً قد نفد وأصبحنا متلهفين على أن نعيش معاً .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان هذا الزواج زواجاً سيء الحظ منذ البداية . فبعد يومين من عودة دوروثي إلى لندن ، وصلني منها خطاب غاضب . فقد سألتها إحدى زميلاتها في العمل إن كانت قد تزوجت حقاً . وكانت المحرضة على هذا السؤال هي صديقتي ميلليسنت، التي كانت عضواً مع الفتاة في جماعة مسرحية واحدة . وكان من الواضح أنها قد ذكرت أيضاً السبب الذي دفعها إلى الزواج ، وكان هذا هو ما جرح مشاعرها حقاً . كان موقف دوروثي من الجنس موقفاً متصلباً ومتزمتاً – ربما لأن أباها كان قد هجر أمها إلى امرأة أخرى . (حتى أنها لم يكن في مقدورها أن تخبر أمها بسبب زواجنا ، حتى بعد أن وضعت طفلها ، وكان علي أن أقوم برحلة خاصة إلى ليسستر لكي أخبر أمها بأنها قد حصلت على حفيد ، وكان ذلك بعد ستة أشهر من مولده) . وكنت أنا لا أقل غضباً إزاء تزمتها وإزاء الطريقة التي تحولت بها علي ، وأشرت في جوابي على خطابها إلى أنها قد وعدت بأن تحب ، وأن تكرم ، وأن تطيع ، وأن هذه الانفجارة من الغضب كانت بعيدة عن أن تكون نموذجاً للطاعة الزوجية . وكان جوابها على ذلك أكثر إسرافاً في الغضب ، وقالت إنه إذا كنت شخصاً من النوع القليل الصبر ، فلا بُدّ للزواج إذن من الوصول إلى نهايته .

واستبد بي الغضب ، فاستأذنت في التغيب يوماً عن العمل ، وذهبت إلى ليسستر . ولكننا حالما رأى أحدنا الآخر ، عاد السحر الجنسي القديم إلى التأثير ، وأزلنا كل أسباب خلافنا في بضع دقائق . ومع ذلك ، فإن هذه القصة كانت نموذجاً لأنواع الصدامات التي كان مقدراً لها أن تحطم الزواج . كان التعويض العاطفي الوحيد من جانبي هو التحفظ والبرود ، وحالما كنت اتخلص من هذا التحفظ كنت أشعر بالروابط بيننا تنحل وتذوب . وكان من الممكن أن يعاد إحكام تلك الروابط ، ولكنها كانت تزداد ضعفاً في كل مرة .

* * *

عثرت على حجرة مزدوجة واسعة في حي إيست فينشلي ، وغيرت عملي أيضاً ، فانتقلت إلى مصنع فريزر وجلاسي للبلاستيك في نورث فينشلي . وكان العمل رتيباً وإن لم يكن صعباً ، وقد راق لي المكان . وكان من الممكن أن أربح عشرة جنيهات في الأسبوع . وتركت دوروثي عملها ولحقت بي في أغسطس (آب) ، وفجأة أصبحت راضياً كل الرضى عن الحياة . كنت الآن قد كتبت جانباً كبيراً من النسخة الأولى من رواية « الطقوس » . وكانت القصة الطويلة الأولى تدور حول رجل يقتل عاهرة في أثناء محاولته لاغتصابها ، ثم يسقط القاتل فجأة فريسة لحالة من الاحباط الكامل . فالحضارة تجعلنا جميعاً خانعين كالأغنام ، ثم تقتل أرواحنا من الجوع والجدب . كان موضوع القصة صورة من الاحباط والارهاق اللذين تمكنا من أعماق الإنسان حتى جعلاه يعيش في دوامة لا يستبين منها شيئاً ، إنه لا يشعر بشيء أبداً ، إنه يعيش بطريقة آلية ، وحينما يقتل الرجل الفتاة ، لا يشعر بالاثم لأن الأمر كله يبدو له غير حقيقي . ربما وقع القتل وربما لم يقع ، وربما يكون أيضاً قد وقع لشخص آخر ، إنه يشعر

بأنه لا علاقة له بما حدث . ولكنه يعترف بالجريمة لفتاة ينام معها . ولكنها لا تصدقه . ثم يحاول الانتحار بأن يشرب سم الفئران ، ولكن السم لا يفعل شيئاً إلا أن يجعله يتقيأ . كان من الواضح أن عليه أن يستمر في الحياة بشكل ما ، وأن يجد إحساساً ما بالدافع إلى الحياة ولكنني حينما أنهيت القصة ، لم أجد جواباً على كل ذلك ، ولم تكن لدي فكرة عن الاجابة .

وفي النسخ الأخيرة ، قررت أنه قد يكون من الأكثر إثارة لو أن القارئ لم يتأكد أبداً عما إذا كان سورم قاتلاً بالفعل أم لا . إنه يعاني من إحساس دائم بعدم الحقيقة ويعاني من التخيلات المحمومة . والسؤال الذي يبغي إجابة له ، هو : إذا كنت قد قتلتها فعلاً ، ولا أشعر بالاثم ، فهل أظل آثماً ؟ وإذا كانت الاجابة بالايجاب ، إذن فمن المحتمل أن أكون مذنباً حتى لو لم أكن قد قتلتها ، لأنه من الواضح أنني قادر على القتل ، ولو كنت غير قادر على القتل إذن لعرفت بالتأكيد أنني لم أقتلها . وفي مرحلة معينة كان عنوان الرواية : « الأشياء التي لا تحدث » . وتحولت الرواية إلى عمل يدور حول رجل يرزح تحت توتر عقلي فادح ، يقرأ خبراً يقول إن عاهرة قد وجدت مخنوقة في فراشها ، ويظن أنه قد يكون هو القاتل . وكان ما أريد أن أفعله هو أن أكتب رواية التوتر العقلي — وكنت أقرأ في هذا الوقت رواية جاكسون : « عطلة نهاية الأسبوع الضائعة » وشعرت بأنه أضاع فرصة كتابة عمل من أرفع طراز . وواجهتني على الفور واحدة من أعظم مشكلات الرواية الحديثة . فإنك إذا سألت عما تدور حوله رواية مثل « توم جونز » أو « أوليفر تويست » فإن الاجابة هي : إنها تدور حول « قصتها » . ويصدق هذا أيضاً حتى على رواية مثل « الاخوة كارامازوف » . ولكنك إذا سألت عما تدور حوله روايات مثل « يوليسيز » أو « الانتقال إلى مانهاتان » أو رواية دوبلين « ألكساندر

بلاتز » ، فإن الاجابة هي : إنها تدور حول جوهر دبلن أو نيويورك أو برلين . ولأن هذه الروايات تدور حول « جوهر » مكان معين ، فإنها لا تستطيع أن تضم حبكة مستقيمة مطردة التقدم ، أو بطلاً وحيداً ، إن عليها أن تتحرك حركة دائرية ، وأن تقدم صورة مستعرضة واسعة (بانوراما) . ووجود « قصة » في مثل هذه الرواية ، قد يذهب بمعناها ويزيف نية المؤلف ، فقد يركز القارئ على القصة بدلاً من أن يركز على ما يريد المؤلف أن يقوله له . وكانت هذه هي مشكلتي . كان ما أريد أن أقوله للقارئ هو عدم الإحساس بالحقيقة الذي ينشأ من طول الفترات التي لا تعرف فيها ما تريد أن تفعله فلا تستخدم إرادتك أبداً . وكان السؤال الحقيقي الذي تشير اليه هذه النقطة هو : ما الذي « كان ينبغي » علينا أن نفعله بحياتنا ؟ أكان من المفروض فيها أن تكون حركة لا نفع فيها من أجل أن نبقى على قيد الحياة : « الميلاد والتناسل والموت ؟ » .

وكان ما أريد أن أفعله هو أن أكتب رواية يتحرك فيها الرجل حاملاً في عقله هذا السؤال طول الوقت ، حتى تثير المواقف العادية إحساساً دائماً بالسخرية . إن قيم العاديين من الناس تبدو له كالأوهام . والتاريخ مشحون بالأوهام كذلك . فالجيوش تتقاتل ، والوطنيون يخطبون ويصخبون ، والعشاق يقسمون على أن تدوم عهودهم إلى الأبـــد ، والمتدينون يتحدثون عن نار أبدية — ولكن ليس هذا كله سوى نوع من الصخب الفارغ والغضب الذي بلا معنى . فلا شيء يحدث حقاً . أما المواقف العادية تماماً فإنها تحدث ، وما يهم هنا هو طريقتـــه في « رؤيتها » .

وأثار هذا مشكلة بناء الرواية . كان من الضروري أن تقوم على حركة هادفة تتقدم إلى الأمام . فكيف يمكنني أن أمنحها نوعـــاً من الشكل أو القالب ؟ وكان في هذا الوقت تقريباً أن اكتشفت « كتاب

الموتى » المصري في المكتبة المحلية ، ورأيت امكانية استخدامه كأساس لرواية مثلما استخدم جويس « الأوديسة » . فالكتاب يصف رحلة الروح عبر الليل بعد الموت ، وصور الرعب والمخاوف المختلفة التي تواجهها قبل أن تظهر في الصباح التالي لتدخل « آمينتيت » العالم السفلي عند المصريين . وقد بنيت النسخ الأخيرة من رواية « الطقوس » على غرار بناء « كتاب الموتى » . وقد أدهشتني المصادفة ، حينما اكتشفت أن هذا الكتاب يعرف باسم « طقوس الموتى » وهو أحد العناوين المبكرة التي اخترتها في بداية عملي للرواية . (وكان عنواناً منقولاً عن قصة تدور حول راقص للباليه يفقد عقله ويجن) . وناسبتني فكرة العالم السفلي تماماً . فإذا كان العمل في أحد المصارف قد جعلْ إليوت يرى الجماهير وهي تعبر جسر لندن كأرواح تعيش في « ليمبو » أو الأعراف حيث تقطن الأرواح التي لم تدخل الفردوس أو تستحقه عذاب الجحيم ، فإن السنوات التي قضيتها أعمل في وظائف مجهدة قد جعلتني أشعر بأن حضارتنا هي الجحيم بعينه . أردت أن أجعل « اللامنتمي » الذي صنعته، يسير عبر تفاهاتها وتعقيداتها رازحاً تحت وطأة إدانة منذرة بالهلاك ، ناظراً إلى عالمه باعتباره القمة التي بلغتها عذابات القرون الماضية .

وقد حدث في هذا الوقت أيضاً أن اكتشفت « أعمدة الحكمة السبعة » من خلال قراءة كتاب المختارات : « أهم ما كتبه ت. ي. لورنس » . وكانت دوروثي تملك الكتاب كله في جزأين ، ولكنني وجدته أطول من أن أفرغ لقراءته . ولكنني جعلت أقرأه الآن ببطء وعناية ، ووجدت أن لورنس كان واحداً من الكتّاب المحدثين القلائل الذين أدركوا نفس المشكلات التي كانت تسيطر على تفكيري . فلماذا لم يكن معروفاً إلا على هذا النطاق الضيق ؟ ولماذا لم يكتب عنه إليوت أبداً ؟ وبدا لي أنني وقعت على عدد من الكتب الهامة التي لا يعرف بوجودها شخص آخر : يوميات نيجنسكي ، وكتاب ويلز : « العقل

عند أقصى حدود احتماله» وكتاب جرانفيل باركر : «حياة سرية» ، وكتاب هيسه : «ستيبنولف» . وقد حدث أن عثرت أيضاً في مكتبة فينشلي على «انجيل سري راماكريشنا» وقررت أنني لا بد أن أكتب في يوم ما كتاباً يربط بين هذه الكتب كلها .

* * *

ووجدت أن هذا النظام الذي أتاحه لي الزواج كان نظاماً مرضياً جداً . كنت أعود من العمل لكي أجد عشائي ينتظرني ، ثم قد نذهب إلى السينما ، أو أذهب أنا إلى المكتبة . وفي النصف بعد التاسعة من المساء : نفتح الفراش الذي يغلق ملتصقاً بالحائط ، وندخل تحت الغطاء معاً لنقرأ . وفي عطلات نهاية الأسبوع كنا نخرج في رحلات بالباص إلى أطراف أخرى من لندن ، أو نذهب لنمشي على الأقـدام حول منطقة فينشلي ، وكان يحدث أن أستقل الباص إلى المتحف البريطاني ، وأمضي مساء الأحد في كتابة روايتي . ولم يكن هذا بسبب أن المكان كان أكثر ملاءمة للكتابة من المنزل ، ولكنه لأنه كان من الممتع أن أفكر بأنني أكتب في نفس المكان الذي كتب فيه صامويل بطلر وكارل ماركس وبرنارد شو وهربرت جورج ويلز . (وحينما صدر أول كتبي ، شعرت بالامتنان والبهجة حينما ظهرت فقرة في إحدى الصحف عن قاعـة القراءة في المتحف فأضافت إسمي إلى هذه القائمة) .

وأظنني أعرف السبب الذي جعلني أستمتع بكوني متزوجاً إلى هذا الحد ، لقد كان هذا صورة أخرى من صور تشوقي القديم للنظام . فالأطفال يحبون القصص لأنها أقل فوضى من العالم الحقيقي ، إنهم لا يتحيرون في الاختيار ، ولا يكون عليهم أن «يفسروا» شيئاً . فالقصة تحدد مسارات ما تضمه من انفعالات بوضوح وبساطة ، مثلما

تفعل القناة بالمياه ، أما في الحياة الحقيقية ، فإن هناك الكثير من الجوانب المتضاربة ، ولا يمكن أن يقل تعقيد استجابة الانفعالية إزاء الحياة الحقيقية إلى درجة بساطة القصة ، إلا في لحظات نادرة من السعادة، مثل الاحتفال بعيد الميلاد أو الذهاب إلى مسارح العرائس الراقصة . والأطفال الصغار جداً يحميهم الحب الأبوي ، ولكن الحماية التي يوفرها هذا الحب تقل عند سن السابعة ، حينما يصبح الطفل أكثر استقلالاً . ومنذ ذلك الحين يكون على الطفل أن يتعلم كيف يتعامل مع الفوضى بأحسن طريقة ممكنة ، ولقد عشت أكثر سنوات عمري دون العشرين بغير كثير من الحب أو الرعاية ، ولقد تعلمت أن أتعامل مع الفوضى وحيداً وبطريقتي الخاصة . وقد تراجعت الآن فجأة إلى حالة شديدة الشبه بعالم الطفولة الآمن ، فها هو شخص آخر – غيري – في العالم يتفق معي اتفاقاً عميقاً ويؤمن بي ، ويطهو لي طعامي ويسمح لي بأن أخلع عنه – عنها – ملابسه . كان هذا الأمر أشبه بالاسترخاء في حوض استحمام دافئ بعد يوم من العمل الشاق .

وحينئذ ، وقبل الموعد المحدد لميلاد الطفل ، نبهتنا مديرة المنزل إلى أنها تطلب منا إخلاء الغرفة . وكانت قد حذرتنا من قبل فعلاً ونبهتنا إلى أننا يجب أن نعثر لأنفسنا على مسكن جديد حينما يصل الطفل ، ولكنها أصبحت فجأة متهوسة بفكرة أن الطفل قد يأتي قبل موعده فتظل أسرتها متيقظة طول الليل على صوت صراخه . وكنت الآن قد وصلت إلى مرحلة أن أتوقع مثل هذه الأشياء من مديرات المنازل ، وكانت تجاربي المتتالية معهن قد أقنعتني بأن المرأة إذا أصبحت مديرة لأحد المنازل ، فإن هذا هو أكثر الطرق تأكيداً لخسارتها روحها الخالدة . وكنت قد اعتدت على أن أحلم بنظام دكتاتوري يأخذ كل من في انجلترا من مديرات المنازل ، ويشحنهن على ظهور السفن ، ويحملهن إلى منطقة نائية من مناطق العالم ، في باتاجونيا مثلاً ، حيث

يستطعن أن يعذب بعضهن بعضاً بقسوتهن وغبائهن . وحتى الآن ، وبعد أن عشت اثني عشر عاماً أو نحوها دون مديرة منزل ، فإن مشاعري نحوهن ما زالت على ما كانت عليه من العنف – إن لم تكن أكثر وأسوأ ذكرى – إلى درجة تجعلها أشبه بمشاعر (هتلر) نحو اليهود .

وعرض علي رئيسي في العمل ، حجرة في منزله ، وكنا نعيش هناك حينما وصل الطفل – وكان ولداً أسميناه رودريك جيرارد – وكان إسمه الثاني هو إسم بطل رواية « الطقوس » . ولكن بعد بضعة أسابيع – نبهتنا مديرة منزلنا الجديد إلى ضرورة الاخلاء – فقد كانت صرخات الطفل أكثر مما ساومت عليه . وأنفقت الأسبوع الثاني في البحث عن غرفة أخرى ، ولكن حينما أصبح من الواضح أنني لن أستطيع ذلك في الوقت المطلوب ، قررت دوروثي أن تعود إلى ليسستر لفترة ما . وأقامت هناك مع والدي ، لأنها لم تكن قد أخبرت أمها بعد بأمر الطفل . وسرعان ما عثرت لنفسي على غرفة لشخص واحد في جولدرز جرين . على بُعد خط ملائم من خطوط الباص يصل بيني وبين المصنع . وكانت مديرة منزلي الجديدة سيدة ذات وجه له مظهر صلب وتتظاهر بالرقة واللطف ، وعرفت حالما رأيتها أنني سألقى المتاعب ، وكان السبب الرئيسي لاختياري الغرفة هو أنها كانت واسعة جداً . وفي اليوم الذي انتقلت فيه اليها – حاملاً اثنتي عشرة حقيبة ، وصندوقاً كبيراً ، وصوانين صغيرين من أصونة الشاي ، كلها ملأى بالكتب – وقفت المرأة لتسد الباب الأمامي ، صارخة بأنها ما كانت تؤجرني الغرفة لو أنها كانت تعرف أنني أملك كل هـــذا المتاع . ومنذ ذلك الحين ، أصبح من المعتاد أن أجد مذكرة منها في غرفتي حينما أعود من العمل إلى البيت تقول « من فضلك ، انتبه حتى لا تبعثر السكر على البساط » أو « من فضلك ، لا تترك أقداح

الشاي على قاعدة النافذة » . وراحت « تطن » في أذني حول صواني الشاي الفارغين رغم أنهما كانا مخزونين في أحد الأركان ، وأخيراً دفعت بعض النقود للكناس لكي يحملها خارج الغرفة ، ثم طلبت مني أن أدفع لها تلك النقود . وأعطيتها أنا النقود طلباً للسلام . وكان من المفروض أن أمضي عطلاتي الأسبوعية في البحث لنا عن سكن جديد ، ولكنني كنت أوشك على التعب من كثرة التجوال ، وبدلاً من هذا رحت أعمل في روايتي . ولحسن الحظ قررت دوروثي أن تعلن في أحد صحف التمريض طلباً لوظيفة تتضمن إقامتها حيث تعمل ، ووصلها طلب من رجل يدعى مستر بتمان من ويمبلدون ، كان يعيش وحيداً في منزل مريح ، وكان يريد ممرضة منزلية مقيمة لرعايته . وهكذا ، وفي ارتياح هائل ، نبهت مديرة منزلي إلى أنني سأخلي الغرفة ، وقد استبد بها الغضب لأنني لم أمكث عندها إلا هذه الفترة القصيرة ، رغم أنها قد فعلت كل ما بوسعها لكي تطردني من المنزل . وفي ربيع عام ١٩٥٢ . انتقلنا إلى منزل مبهج ، بعيد قليلاً عن العمران في ويمبلدون . وكان مستر بتمان يعاني مرض القلب ، وكان رجل أعمال متقاعداً ، وقد ظهر لنا في البداية كرجل بالغ الكرم . وكان شديد التلهف إلى الحصول على خدمات دوروثي حتى أنه قال لها في مرحلة باكرة إنه قد نوى أن يترك لها المنزل في وصيته ، وسمح لي أيضاً بأن استخدم آلته الكاتبة متى أردت ذلك . وكنا نشك بالطبع شكاً له أسبابه في مسألة المنزل . ولكنني استفدت من الآلة الكاتبة استفادة كاملة . كنت أمضي أمسيات أيام السبت في المتحف البريطاني لأكتب ، ثم أعيد على الآلة الكاتبة نسخ ما كتبته في صباح أيام الأحد . وقد حدث في إحدى تلك الأمسيات من أحد أيام السبت أن خطر لي فجأة أن أجد من حي الإيست إند في لندن موقعاً لروايتي ، وأنه قد يكون من الأفضل أن أستعيد الأمكنة التي وقعت فيها جرائم « جاك الخناق » في

عام ١٨٨٨ . ومضيت بدراجتي إلى هوايت شابل بعد موعد اغلاق المتحف ، وحدث هناك أن طرأ لي أنني بحاجة إلى شخصيتين رئيسيتين في روايتي : البطل والقاتل الذي يرتبط به . وستوفر لي جرائم هوايت شابل الخط القصصي الذي لا يحتاج إلى أن يتداخل مع الفكرة الرئيسية في الكتاب . وقد كانت هذه هي نقطة الانطلاق فيما يتعلق برواية « الطقوس » .

كانت ويمبلدون على بعد كبير من نورث فينشلي — وعلى وجه الدقة على بعد ساعة تقريباً بالقطار — ولكنها كانت تقع على خط مباشر من خطوط مترو الانفاق ، وكنت أنا راضياً عن وظيفتي ، التي كانت عبارة عن تثبيت نماذج من تمثال الإله إيروس في حي بيكاديللي أو الحي المحيط بالبرلمان ، أو أن ألصق نفس هذا الشعار على بعض الزجاجات المصنوعة من البلاستيك القوي . وهكذا فقد أسافر يومياً لمدة ساعتين في الذهاب والعودة . ولكن القدر الملحاح الذي رفض السماح لي بأن أشعر بالأمان بدأ في التدخل . كان الرجل العجوز صاحب نزوات كثيرة ، وكان من الواضح أنه كره وجودي في المنزل . وقد اعتاد أن يتظاهر بأن نوبة المرض تهاجمه بعد بضع دقائق من ذهابنا إلى فراشنا ، كما لو كان هدفه هو أن يقاطع ممارستنا للحب . وقد اعتاد أيضاً أن يجعل دوروثي تقوم من فراشها ست مرات في كل ليلة ، بينما يكون من الواضح أن لا شيء يهدده أو يقلقه . واعتاد كذلك أن يدخل المرحاض الوحيد الموجود في المنزل ، فيظل هناك لمدة ساعات متتالية ، فتسبب ذلك في مضايقات كثيرة . وأمر سكرتيرته التي تعمل نصف الوقت بأن تأخذ معها الآلة الكاتبة ، على زعم أنها ستقوم في بيتها ببعض الأعمال ، ولكن غرضه الفعلي هو أن يمنعني من العمل ومن استخدامها . وبدأ صبرنا يتلاشى .

وكنت ما أزال مستمتعاً بوضعي كرجل متزوج ، ولكن هذا

الوضع لم يكفل لي الحرية التي كنت أتوقعها . وكانت المشكلة جزئياً راجعة إلى الاختلاف في السن ، وكانت ترجع من جانب آخر إلى أن دوروثي كانت قد حققت الاستقرار في أسلوب مستقل لحياتها قبل أن تلتقي بي . وقد أظهرت حكاية الفتاة التي سألتها عما إذا كانت قد تزوجت ، أظهرت قدرتها على إثارة بعض الزوابع في ظل ظروف معينة . والمتزوجون لا يستطيعون أن يتجنبوا إتيان بعض الأعمال التي قد تبدو لأزواجهم – أو لزوجاتهم – كأعمال لا ذوق فيها أو لا هدف منها ، أو أنها مجرد أعمال تمليها الأنانية ، وكانت دوروثي – إذا حدث هذا من جانبي – تنتهي إلى أن تقول لي إنني قليل النضج وأنني جدير بأن أرى الأشياء في صورة مختلفة حينما أتقدم في العمر عشر سنوات .

وكانت هذه الأقوال ، وأمثالها ، تدفعني إلى الغضب بالطبع . ووقعت مشاجرة أو مشاجرتان بسبب من طغيانها . وفي أحد الأيام ، بينما كنت أصلح من وضع الستائر الخارجية على نافذة غرفة نومنا ، تبينت أنني أستطيع تقريباً أن أنحني حتى أبلغ نافذة الحمام التي كانت على بعد عدة أقدام ، حيث أستطيع أن أرى دوروثي وهي تغتسل قبل أن تأتي إلى الفراش . وأغراني هذا الاكتشاف بأن أصرخ فيها ، ولكني خشيت أن أخيفها . وحينما عادت إلى حجرة النوم بعد دقائق ، قلت لها إنني استطعت أن أراها من نافذة الحجرة . فانفجر غضبها بطريقة بدت لي غير مفهومة ووصفتني بأنني طفل بصاص . وقلت لها إن الأولاد البصاصين يتجسسون على الغرباء ، وأنها زوجتي ، ولكن هذا لم يؤد إلى تهدئة غضبها .

وكان تزمتها يجعلني أضحك حينما تخلع ملابسها أمامي . كانت تخلع قميصها الخارجي وجواربها بعد أن توليني ظهرها ، ثم تضع فوق رأسها أحد ثياب نومها ، ثم تستدير دورة مفاجئة وهي تقلص

جسمها حتى يسقط قميصها الداخلي وسروالها حول أقدامها بينما ينزلق ثوب النوم بنفس السرعة على جسمها . ولكنني كنت أشعر بمتعتي تخبو في المناسبتين أو المناسبات الثلاث التي تسبب فيها تزمتها في هـذه المشاجرات . وفي أحد الأيام ، هبطت من فوق دراجتي ، وقد برزت من جيبي زجاجة من عصير البرتقال ، فسقطت الزجاجة وانفجرت عند مدخل المنزل . ولم يكن معنا سوى القليل جداً من النقود ، ودخلت المنزل وأنا أسب وألعن بصوت مرتفع ، وأخذت هي تستعيذ من الشيطان ، وطلبت مني أن أغسل فمي بالخارج . وبدا لي هذا الطلب شيئاً غير معقول بالمرة ، كنت أسب وألعن لكي أنفس عن مشاعري ، ولكني كنت في الحقيقة أكاد أشعر بالغبطة والابتهاج حينما أفسدت هي كل شيء . كانت مشاعري نحوها تقوم على إحساس بجانبها بالأمان والرعاية . ولكن هذه المشاعر تحولت إلى سخط غاضب حينما عاملتني كغريب تنذر كلماته بالشر .

* * *

وأخيراً أصبح الرجل العجوز مصدراً للازعاج مؤلماً حتى قررنا أن نرحل . وأنبأت دوروثي شقيقته بأنها قد عقدت نيتها على أن تنبهه إلى رغبتها في التخلي عن العمل . ورجتها الشقيقة أن تبقى ، وقدمت لها خمسة وعشرين جنيهاً على سبيل التعويض ، وأخبرتها بأنه ستكون هناك هدية مشابهة كل ستة شهور . وأنشأ هذا موقفاً مختلفاً بالتأكيد . وما هو أكثر من هذا ، فقد أعاننا هذا المبلغ على أن نقوم بأول عطلة طويلة لنا منذ زواجنا . ذهبنا إلى جزيرة هايلينج ، تاركين الرجل العجوز في رعاية ممرضة مبتدئة . كان أسبوعاً ممتعاً ، بدا كما لو كان تمهيداً لمستقبل أفضل . ذهبنا لرؤية كوخ بليك في فيلغام . وأمضينا يوماً في مشاهدة كاتدرائية تشيشستر ، (حيث اكتشفت كتيب إليوت

الممتاز عن الكاتدرائيات الذي يؤكد الاحتياج إلى الاتساع والفراغ) .
وذهبنا لنلقي نظرة على « تمثال النصر » في بورتسموث . وعلى شاطئ فيلغام ، شعرت بأنني قادر على رؤية أشكال بليك الملائكية تهوم فوق سطح البحر . وأصابني بعض المرض أيضاً نتيجة تناولي الكثير من ثمار الطماطم .

وفي نهاية الأسبوع عدنا إلى ويمبلدون ، بعد أن عرجنا على ليسستر — فاكتشفنا هناك أن مستر بتمان قد مات . وكان من المحتمل أن الممرضة المبتدئة قد واجهت أزمته القلبية ، وربما كانت هذه الأزمة قد هاجمته في سورة إحساسه بالاشفاق على نفسه . وأخبرنا أقاربه أن في مقدورنا أن نبقى في البيت لعدة شهور ، وكنت قادراً أيضاً على أن أسترد الآلة الكاتبة التي أخبرتني شقيقته بأنني أستطيع الاحتفاظ بها .

وكانت الشهور القليلة التالية هي أسعد فترات زواجنا ، بلا مديرة منزل تخزنا بكلماتها ، ودون صوت مرتعش يصرخ قائلاً : « يا ممرضة » في جوف الليل . ولو أننا استطعنا أن نستمر على هذا الحال لما تحطم زواجنا أبداً . ومع ذلك فقد واجهتنا ثانية مشكلة مكان اقامتنا . وغيرت عملي ، فانتقلت إلى مصنع قريب للبلاستيك ، حيث كنت أعمل في الليل ، ولكن كان من المتوقع من جميع العمال أن يعملوا بسرعة هائلة لكي يربحوا أجراً ونصف أجر زيادة . وفضلت أن أعمل بسرعتي المعتادة فلا أربح إلا أجري وحده . وبعد بضعة أسابيع ، فصلوني من العمل ، فذهبت لكي أحصل على إعانة حكومية ، حيث وقّعت على الطلب الذي كان يعود علي حينئذ بمبلغ أربعة جنيهات أسبوعياً . وأعلنت دوروثي عن رغبتها في الحصول ، مرة أخرى ، على عمل كممرضة منزلية مقيمة ، وعثرت على هذا العمل بعد قليل في منطقة كورتفيلد جارنز في كينسنجتون . كانت صاحبة عملها الجديدة مديرة متقاعدة لملجأ صحي لمدمني الخمور ، وكانت قد تزوجت أحد مرضاها

الأثرياء ، وكان أكثر المنزل ممتلئاً بالغرف الخالية ، ولكن مسز ديكون كانت تحتل جناحاً كبيراً ، حيث كانت تحب أن تستضيف بعض الكتّاب وأبناء عالم الفن – بالطبع على أساس أنهم من الناجحين .

وانتقلنا إلى هناك في خريف عام ١٩٥٢ ، وأثبتت الشهور الستة التالية أنها كانت أسوأ فترات حياتنا الزوجية المشتركة . كنت ما أزال مسجلاً في قائمة الاعانة الحكومية – فقد كانت الوظائف نادرة جداً . أقمنا في دور سفلي قليل الضوء : وكان من الضروري أن نترك المصابيح الكهربائية مضاءة طوال اليوم . وإذا كان صاحب منزلنا السابق صورة مصغرة من الطاغية تيبريوس ، فإن صاحبتنا الجديدة كانت الصورة المؤنثة للطاغية كاليجولا . كانت عصابية بطريقة جنونية ، لدرجة أنها لم تكن تستطيع أن تحتفظ بمدبرة لمنزلها لأكثر من بضعة أسابيع . وكانت مشاعرها قد أصبحت مركزة حول ذاتها ، إلى درجة أنها أصبحت تعيش في عالم وهمي ذاتي منغلق حيث يبدو الآخرون لها كالأشباح . وبدأت باتهام دوروثي بأنها تفتح خطاباتها خلسة بالبخار ، وثار غضب دوروثي التي كانت تتميز بأمانة صارمة ، وثارت مشاجرة انتهت بأن أمرت مسز داكون دوروثي بأن تغادر الحجرة ، وبعد هذا ، تزايدت أوهامها العصابية باطراد ، واعتادت أن تهاجم دوروثي لتخترع اتهامات مجنونة ، وحينما تبينت أن المرأة كانت تفزع من دوروثي ، صعدت اليها لأتكلم معها ، وبدأت كلامها معي بطريقة معقولة وعذبة ، ثم انتهت بواحدة من غضباتها الغريبة ، وقالت لي إننا إذا لم نكن راضين عن الاقامة عندها ، فان بوسعنا أن نرحل غداً . ولكنا كنا قد أنفقنا آخر مليم نملكه في نقل أثاث دوروثي من ليستر ، ولذلك فإن الرحيل كان بعيداً عن تفكيرنا . وهكذا فقد كنت مضطراً – في مهانة – إلى أن أنزل اليها لكي أعتذر .

وهبطت السلم وأنا ألعنها بكل قطرة كراهية تتخلل كياني ، مطالباً كل الآلهة بأن تعجل بموتها على الفور . ولقد كنت أشعر بمثل هذا الشعور تجاه بتمان ، وشعرت به على وجه التحديد مرة أو مرتين ، ولكنني لم أشعر به إزاءه بمثل هذا التركيز الذهني . وبعد بضعة أسابيع ، ذهبت مسز داكون إلى المستشفى لتوقيع الكشف عليها بالأشعة السينية ، واكتشفوا هناك أنها مصابة بسرطان في الرحم لا بد أن يقضي عليها في غضون بضعة أشهر . وكان هذا بلا شك هو السبب في سورات غضبها المجنون .

ظلت صاحبة منزلنا في حالة من الرضا والاستسلام لمدة بضعة أيام بعد أن سمعت تلك الأنباء ، ثم عادت سورات غضبها بصورة أعنف من ذي قبل . وفي أحد الأيام ، اشتمت دوروثي رائحة دلتها على أنها على وشك أن تُفصل ، فسبقت هي ذلك بأن أعطت تنبيهاً إلى أنها ستتخلى عن العمل ، ووضع أثاثنا في أحد المخازن ، وعادت هي مع ابننا إلى ليبستر حتى أتمكن أنا من العثور لنا على بيت آخر . ولكن كانت هذه هي آخر مرة نعيش فيها معاً من الناحية الفعلية ، وقد شعرت بهذا مقدماً في صباح يوم عيد الميلاد ، حينما اشتبكنا مرة أخرى في إحدى مشاجراتنا السخيفة . فقد كنت قررت أن أمضي عيد الميلاد في التأمل والتفكير . وبالتالي ، فبينما ذهبت دوروثي لتعد افطار عيد الميلاد في الصباح ، فتحت أنا مجلداً من أعمال بليك ، وحاولت جاهداً أن أضع نفسي في حالة من الهدوء والسكينة الداخلية . وكنت كثيراً ما أقوم بهذا النوع من العمل في سن ما قبل العشرين ، وكانت تستغرق اليوم كله في بعض الأحيان ، ولكن آجلاً أو عاجلاً ، كان الاسترخاء الكامل يتملكني ، ثم يعود إلى الاستيقاظ ببطء . تفاؤلي القديم وإحساسي باليقين والثقة . ولم أكن قد مارست هذا العمل منذ وقت طويل ، وبدا لي يوم عيد الميلاد فرصة طيبة لذلك .

ولسوء الحظ ، لم يكن قد مضى علي في محاولة الاستغراق سوى دقائق قليلة ، حينما دخلت دوروثي ، تسألني إن كان من الممكن أن أعتني لبرهة برودريك . وانفجرت في غضب ، فانصرفت عني . ولكن الاستغراق كان قد أصبح الآن مستحيلاً . ونهضت وأنا أشعر بالذنب ، ولكن دوروثي كانت قد انكمشت على نفسها في إحدى حالاتها من البرود الثلجي الذي لا يمكن ملامسته ، ولم نكد نتبادل الحديث طول الصباح . وبعد الغداء ، حينما نام رودريك ، حاولت مصالحتها . وكنت كثيراً ما أقرأ لها ، فاقترحت في تلك اللحظة أنه جدير بي أن أقرأ لها من كتاب لورنس : « الرجل الذي أحب الجُزُر » — وهو دراسة ممتعة عن شخص عصابي تملكته الرغبة في الانفراد بنفسه حتى سيطرت عليه ، فاشترى لنفسه في النهاية جزيرة صغيرة وأخلاها حتى من الجزيرة . وكان لورنس يريد من الكتاب أن يكون نوعاً من الموعظة حول فكرة أنه ليس من إنسان يمكن أن يكون جزيرة ، ولكنني تعاطفت مع بطله ، ووجدت أن نهاية القصة مؤثرة بطريقة غريبة ، وهي نهاية تصور دفقات غزيرة من الصقيع ، تتكتل وتنقض على كوخه فيما يشبه الطوفان . وبدأتُ في قراءتها لدوروثي ، ولكنها بعد بضع صفحات قاطعتني قائلة : « هذه هي أكثر القصص التي سمعتها في حياتي إثارة للضجر . ولا أستطيع أن أحتمل كلمة واحدة أخرى منها . » وأثار هذا غضبي ، فارتديت معطفي وغادرت المنزل . وكان اليوم غائماً بارداً ، ولكن دون صقيع . وركبت دراجتي ومضيت أسير بلا هدف في طريق إيرلز كورت وطريق كينجز نحو جسر واندزورث ، ثم وقفت أتطلع إلى المياه الباردة . لم أكن أفكر في الانتحار ، لم أكن أفعل إلا محاولة أن أنظر داخل نفسي لكي أكتشف ما أريده حقاً ، وما ينبغي علي أن أفعله . كان هذا الاحباط المميت قد طال بما فيه الكفاية . كنت أفكر

في نيجنسكي ، الذي كانت زوجته هو الآخر امرأة مستقيمة النظر مخلصة وفية فشلت في أن تدرك السبب الذي يجعله رازحاً تحت عبء مثل ذلك التوتر . وكانت دوروثي تحاول دائماً أن تجذبني لكي أكون نوعاً من أحط أنواع الشركاء ، وأن تستثير دوافعي بأكثر الطرق خشونة وقسوة . وفي ذلك المساء ، حينما غادرت شقتها مبكراً ، كان عقلي مليئاً بصورة فان جوخ . وكانت هي موقنة أنني تركتها لكي أرى فتاة أخرى ، واستمرت موقنة من هذا وتعتقد في صدقه حتى بعد زواجنا ، رغم أنني ذكرت لها بما فيه الكفاية ، ومرات كثيرة ، أن فكرتها لم تكن صحيحة . وما هو أسوأ من هذا ، هو أنها حاولت أن تفرض هذا التصور الفظ والمبالغ في التبسيط لدوافعي علي أنا شخصياً ، موحية إلي أنها تعرفني أحسن مما أعرف أنا نفسي . ورحت الآن مرة ثانية أفكر في فان جوج ، وفي هذا المطلب القاهر الذي تملكه بعد رؤيته اليقينية الصافية التي انتهت إلى صرخته : « البؤس لن ينتهي أبداً » ، ورأيت أن هذا الزواج كان فاصلاً دخيلاً في حياتي وانحرافاً طال مداه عن هدفي ، وكان لا بُدّ أن ينتهي . لم يكن هذا قراراً عاطفياً ، لقد رأيته فجأة بوضوح كحقيقة لم يكن بوسعي أن أتجنبها . وشعرت بإحساس هائل بالراحة ، واجتاحني على الفور شعور بالأسف على دوروثي . لقد حدث عدة مرات ، في بداية زواجنا ، أن هاجمتني في نومي كوابيس تقول إنني قد هجرتها . وكنت أستيقظ والدموع تكاد تطفر من عيني . كانت هذه الكوابيس تنبع من خلال انقسامي الذاتي ، ولكني لم أعد منقسماً على ذاتي . وحينما انفصلنا في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٥٣ ، كان جزء مني يعرف أننا لن نعيش معاً مرة أخرى . رغم أننا كنا في ذلك الحين نتبادل التعاطف والحنان دون حدود ، وقد وعدتها أن أعثر لنا على منزل بأسرع ما

يمكن . وحينما ودعتها ورحلت ، كانت الدموع في عينيها .

* * *

نتيجة واحدة حدثت بناء على انفصالنا ، وتلك هي أنني أصبحت أكثر ارتباطاً بمجموعة لندن من الفوضويين ، وكنت عضواً فيها من خلال الشهور القليلة السابقة . وكنت قد التقيت بهم أول مرة في أمسية ذات يوم أحد . حينما كنت أنا ودوروثي نتمشى في حدائق هايدبارك . وفي « ركن المتكلمين Speakers Corner » سمعنا رجلاً ذا لحية حمراء يمجد الفوضوية ويبشّر بها . وقد بدا لي ذكياً واسع الاطلاع . وحينما قاطعته بأسئلتي كانت اجاباته ذكية ، إن لم تكن مقنعة . وفي يوم الأحد التالي ، ذهبت لكي أتحدث معه ، وسألت إن كان لي أن أنضم إلى الجماعة ، فقال لي إنه ليست هناك عضوية رسمية . ولكنني إذا كنت فوضوياً مقتنعاً ، فسوف يرحبون بي كرفيق لهم . بل إنه عرض علي أن أتحدث من فوق منبره . وهكذا ، ففي يوم الأحد التالي ذهبت إلى هايدبارك متوتراً قلقاً . ركبت مترو الانفاق من ويمبلدون ، وحاولت أن أفلت من دفع الثمن الكامل للتذكرة بالزعم بأنني قد ركبت القطار من مكان أقرب إلى هدفي من مكان نزولي . وسألني المفتش إذا كان للمحطة التي ركبت منها سلم متحرك أم مصعد ، ولم أستطع أن أجيب على السؤال ، وهكذا فقد اعترفت بأنني كنت أنوي أن أخدع هيئة النقل في لندن . (وقد سجل اسمي . وفي الوقت المناسب تسلمت إنذاراً وغرمت عشرة شلنات) . واستفزت هذه التجربة كل ميولي الفوضوية ، وبدأت خطابي بأن رحت أحكي لنظارتي — وقد كانوا عدداً كبيراً جداً لأن المتحدثين الآخرين كانوا قد اجتذبوهم إليّ — بالتفصيل كيف تم توقيفي ، ثم رحت أنصحهم لأبين لهم كيف يمكنهم أن يفلتوا من دفع قيمة التذاكر . وحقق هذا الخطاب نجاحاً ضخماً ، ووجدت أنه من السهل

علي أن أتحدث في الهواء الطلق طالما كان علي أن أصبح بصوت مرتفع ، وقد منعني هذا من أن أكون عصبياً . وتحدثت لمدة نصف ساعة ، وضاعفت عدد المستمعين . وحينما هبطت من المنبر ، راح عدد كبير من أعضاء المجموعة يربتون على ظهري مؤيدين ، وأخذوني إلى مقهى ليونز ، لكي يحتفلوا بالشاي والشطائر . وبدا على واحد منهم الحماس بشكل خاص ، وكان يدعى توني جيبسون ، فأصبحنا صديقين . ولكن حينما عدنا إلى الآخرين قيل لي إن كلمتي لم ترق لبقية الجماعة ، فإنها قد تكون مثيرة ، ولكنها ليست فوضوية . وهكذا ، فقد وصلتني تعليمات تقول بأنه من المستحسن أن أقضي بضعة شهور في دراسة مالاتيستا وكروبتكين[1] قبل أن يُسمح لي بالكلام ثانية من فوق المنبر .

والحقيقة هي أنني اعتقدت أن النظرية السياسية في الفوضوية ليست سوى هراء . إن المرء قد يأمل في مجتمع متزايد الديموقراطية والثقافة يتمكن في النهاية من أن يتخلص تماماً من السلطة ، ولكن كان من الواضح أننا غير مستعدين لذلك في المرحلة الحالية من تطورنا السياسي . ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأن الغرض الحقيقي للفوضوية هو خلق مجتمع من « الأرواح الحرة » يساعد الواحد منهم الآخر بوضوح وسخاء . وكان هذا الغرض شيئاً قريباً جداً إلى قلبي . وقد كان من الواضح أمامي أن مرّض حضارتنا إنما يكمن في الاهتمام بالمصالح الذاتية . وفي مرض السلطة الذي يصيب رجال الأعمال والسياسيين . لقد عملت

---

[1] كروبتكين – الأمير بيتر ألكسيفيتش (١٨٤٢ – ١٩٢١) جغرافي وفيلسوف اجتماعي فوضوي روسي ، كان زعيم الحركة الفوضوية الروسية حتى عام ١٩٠٥ حينما هاجر إلى انجلترا بعد فشل الثورة الروسية الأولى وهزيمة الفكر الفوضوي هناك . كان كتابه « مذكرات ثوري » هو انجيل الفوضويين الروس رغم أنه كتب في الأصل بالفرنسية ، واشتبك في مناقشات خاسرة مع الماركسية منذ ماركس حتى لينين . (هـ. م.)

لفترة ما في مصنع للدمى في ويمبلدون . وكان العمل لعدة أيام هناك كافياً لأن يجعلني أتمنى لو أنسف المكان بالديناميت . كان المطلوب من العمال أن يستمروا في العمل كالجان في كل دقيقة منذ دخولهم إلى المصنع حتى خروجهم منه ، ولم تكن هناك أية حرية من أي نوع ، وكان التأخر عن موعد الدخول دقيقة واحدة ، يعني خسارة بالغة تنزل بالعامل المتأخر . وكان أسبوع واحد كافياً تماماً . وقد بدا لي أنه من المقزز أن تكون أرض انجلترا هذه التي أنتجت سير توماس براوين ونيوتن وشيللي - قد وصلت إلى هذا : عبادة المال بصورة شيطانية لا رحمة فيها . ولقد كرهت هذا النوع من عبادة المال إلى هذه الدرجة لأنها كانت العبادة التي تهددني ككاتب . لقد كان هدف الفوضوية كما رأيته هو خلق انجلترا ملائمة للموهوبين من الناس ، وخلق مجتمع يكون هدفه هو تشجيع الموهبة .

وعلى ذلك ، فقد بدا للفوضويين أن أهدافي كانت مسرفـة في مثاليتها بعض الشيء ، ولا تقترب من الأهداف السياسية اقتراباً كافياً . وهكذا ، فقد حرمت من ارتقاء منبر خطابتهم . فانضممت إلى جماعة لندن الشمالية النقابية التي أسعدها أن تحصل على متحدثين وسمحوا لي بأن أقول ما أشاء من فوق منبرهم . كذلك فإن مسألة منح لقب الفارس لسير هربرت ريد أثارت الكثير من الصراع داخل الجماعة الفوضوية ، التي انقسمت في النهاية إلى كتلتين مختلفتين .

وانتهت علاقاتي المشربة بالود المتزايد مع جماعة لندن الفوضوية حينما عرضت أن ألقي إحدى المحاضرات التي تقدم في أيام الخميس . ففي ساحة بالقرب من ميدان فيتزوري تحدثت عن أباطرة رومـا المتأخرين ، من تيبريوس إلى نيرون ، وقرأت للمستمعين بعض المقتطفات

من كتابات سوتونيوس[1] ، تم انتقلت إلى موضوع « جاك الخنّاق » وإلى مشكلة التزايد المستمر لمعدلات الجرائم . وظن الجميع أنني أنوي أن أخلص إلى الحكمة القائلة بأن السلطة تفسد الأخلاق ، لكنني كنت أكثر اهتماماً بأن أجعلهم يفهمون أن هناك عنصراً غير عقلي في الطبيعة البشرية سيجعل من إقامة العصر الفوضوي أمراً مستحيلاً . واقتبست كلمتي الرئيسية من رواية دستويفسكي القصيرة : « مذكرات من العالم السفلي » . وانصرف عني نصف المستمعين ، وهاجمني الباقون هجوماً عنيفاً : قال لي أحدهم إنني قد استخدمت المحاضرة لكي أنفس عن بعض الدوافع السادية الكامنة في داخلي ، وأنني أعامل منصة المحاضر كما لو كانت أريكة لمحلل نفساني . وبعد ذلك ، تضاءلت مقابلاتي مع الجماعة ولم أعد أراهم إلا نادراً .

* * *

ولم يكن تحطم زواجي بدوروثي راجعاً إلي بصورة كاملة . لقد قلت إن كثيراً من التوترات والمشاكل الكامنة قد تراكمت في خلال الثمانية عشر شهراً التي عشناها معاً . كان الوفاق قائماً بيننا في جزء كبير من تلك الفترة ، ولكن صداماً بين الإرادتين كان قد نما وتطور ولم يكن هذا الصدام بعيد الشبه باصطداماتي مع جيرالد . لقد كنت واثقاً بما فيه الكفاية مما أردت أن أفعله ، وكنت أريد أن ينظر إلي الناس من خلال ما أردته لنفسي . كنت قد أنفقت وقتاً طويلاً في فترة ما قبل العشرين مكافحاً ضد الشك في الذات وفي سبيل فرض نوع من الانضباط الذاتي . فإذا لم تستطع علاقة أن تقوم على أساس

---

[1] سوتونيوس – جايوس سوتونيوس ترانكيلوس – مؤرخ وكاتب تراجم روماني وعمل سكرتيراً للامبراطور هادريان (١١٩ – ١٢١ ب . م .) . مؤلف كتاب « قصص حياة القياصرة » . (هـ. م.)

من القواعد التي وضعتها بنفسي ، فإنني أكون على استعداد لأن أتخلى عن تلك العلاقة . لقد وضعت نفسي في صف واحد مع نيتشــه ونيجنسكي وفان جوخ و « ت . ي . لورنس » باعتباري غبياً ولامنتمياً ، مثلما هو جدير بشخص يدفعه دافع من دوافع النشوء والارتقاء حتى يتحول إلى دوافع شخصية طبيعية من نفس النوع . ولست أعني أن أكثر دوافعي غير شخصية ، ولكنني أعني أن هناك لحظات هامــة معينة لا تكون دوافعي فيها دوافع شخصية . وقد يكون من الصواب أيضاً أن نفسر الحلم الضاغط بالارتقاء والتطور باعتباره نوعاً من الأنانية أو الذاتية المفرطة ، أو باعتباره نوعاً من إرادة تأكيد الذات . إن كثيرين ممن يفترض أنهم فنانون أو متمردون ، لا يمكننا تفسير سلوكهم مطلقاً إلا من خلال فكرة إرادة تأكيد الذات . وهذا اتهام يمكن أن يوجه إلى أي شخص ترفض دوافعه أحياناً أن تعكس الجانب الشخصي ، وهو اتهام يوجه من أجل تكبيل مثل هذا الشخص ومنعه من الحركة ، أو من أجل « تثبيته » بهدف فهمه — بل إن لورنس يحاول أن يثبت « يسوع أمام ناظريه من أجل أن يفهمه في رواية « الرجل الذي مات » . وفي مشاجراتنا ، تعودت دوروثي أن تقذف بها في وجهي كثيراً : قائلة — حينما تحملني الأفكار بعيداً أنني أتحدث « إليها » ولا أتحدث « معها » — مشيرة إلى أنني أنسى حضورها فأنغمس في عملية استمناء ذهني ، بينما تكون رغبتي الرئيسية في الحقيقة هي أن أجعلها تهتم بالأفكار بقدر اهتمامي أنا بها ، وهكذا نستطيع أن نشترك في الاستمتاع بما فيها من اثارة .

كانت هذه هي نقاط الرفض من جانبي ، وحينما ابتعد أحدنا عن الآخر لمدة يومين ، كتبت لهــا خطاباً عبرت فيه عن تلك النقاط . وعاد إلي البريد بخطاب من دوروثي ، تشرح فيه نقاط رفضها : وهي أنني كنت بصورة أساسية أنانياً ولا أهتم بغير نفسي . أما ما كان

يحدث حقيقة فهو أن ضغط الثمانية عشر شهراً من الحركة والازمة المستمرة كان قد اختفى تماماً وبصورة مفاجئة ، وكنا — نحن الاثنين — نعاني من ردود الفعل العنيفة التي ترددينا في هوتها . ولم يستطع أحدنا أن يرى هذا في ذلك الوقت . واستمرت المعاتبات ، وقررنا جميعاً بالبريد أن أحدنا لا ينوي أن يعيش مع الآخر مرة ثانية — على الأقل لفترة طويلة .

وكنت الآن قد عثرت على وظيفة في مستشفى ويسترن للحميات في فولهام ، كبواب للمستشفى ، وعامل للنظافة . وكنت واحداً من اثني عشر عاملاً من عمال النظافة ، عملهم هو أن يفرغوا آنية القمامة وحمل الأكلات إلى مشرفي الأقسام وتنظيف النوافذ ، والقيام بوجه عام بأمور المعاش الأساسية للمستشفى . وكان علي أن أقيم في المبنى ، وكانت غرفتي عبارة عن مكعب يتسع لسرير واحد وصوان صغير يضم بعض الأدراج ، وكان بوسعي إذا وقفت فوق السرير أن أرى ما يجري في المكعب المجاور ، أو ما يظهر على طول المبنى . لم يكن هناك الكثير من الخصوصية ، ولكن هذا لم يكن بالغ الصعوبة بالنسبة لشخص كان مجنداً في سلاح الجو الملكي .

بدأت العمل في مستشفى ويسترن للحميات في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٥٣ ، وكان العمل سهلاً . كنا نمضي أكثر اليوم ونحن نتسكع حول شرفة البواب في انتظار أن يدق جرس التليفون . وحينما كان يحدث هذا ، كان على اثنين منا أن يحملا نقالة وأن يحملا عليها مريضاً من المدخل إلى غرفة الاستقبال ، أو من غرفة الاستقبال إلى غرفة المشرف . وكنا أيضاً نحمل الأطعمة إلى العنابر ثم نجمع الأواني بعد ذلك . ولم يكن هناك من يشكو كثرة العمل ، وكانت هذه هي المشكلة . كانت فترات الخمول الطويلة ذات تأثير مدمر على الأخلاق . كانوا يلعبون الورق ، ويستمعون إلى مباريات كرة القدم

في المذياع ، ويصنعون الشاي كل نصف ساعة ، ويتشاجرون فيما بينهم .

وكان المكان ينضح بالجنس ويفوح برائحته . وكان هذا هو الجو المثالي لتكوين «جاك الخناق» في المستقبل . كان العمل يتضمن رفع نساء نصف عاريات فوق النقالات أو نقلهن من فوقها والسير داخل العنابر حيث يمكن أن تشاهد المريضات يتجولن حول سررهن بملابس قليلة جداً . ولم يكن عمال النظافة يتحدثون في شيء سوى الجنس . ولم ينجح سوى عدد قليل منهم في مطاردة الممرضات والمشرفات من النساء . وكان أحد الممرضين ينفق أكثر مرتبه على شراء كتيبات مطبوعة على مطبعة يدوية ممتلئة بالصور الجنسية العارية . وكان يشتريها من محل في شارع خلفي ممتد من ميدان ليستر . وكانت هذه الكتيبات تنتقل من يد إلى يد .

لقد صور توماس مان في روايته «جبل السحر» مرضى السل على أنهم لا يولون إلا القليل من اهتمامهم لكل شيء باستثناء الجنس . وقد أكدت تجربتي هذا في عنابر مرضى التدرن الرئوي . ولكن هذا الحكم بدا صادقاً ايضاً في معظم أقسام المستشفى التي اتصلنا بها . وربما كان هذا راجعاً إلى الاحساس المستمر بحضور الموت . وقد أصبحت هذه الفكرة ثابتة عندي حينما دخلت إلى المشرحة ذات يوم . فرأيت فتاة صغيرة ذات جاذبية خاصة ترقد عارية فوق المنضدة . وكنت قد رأيتها على قيد الحياة منذ بضعة أيام . وبعد ساعات رأيت الجسد بعد التشريح . كانت محتويات دماغها وأحشائها مكومة على طرف المنضدة ، وكل شيء يوحي بأن كائناً بشرياً من جنسنا يوشك على الاختفاء . كانت أماً لأطفال وزوجة سعيدة في زواجها ، ووجدت نفسي أتساءل للمرة الأولى برغبة حقيقية في الفهم : لماذا ماتت ؟ أيمكن أن أموت أنا على هذا النحو ؟ أنحن على هذه الدرجة من التفاهة عند

الطبيعة ؟ أم أنها قد ماتت لأنها لم تكن تملك رغبة قوية حقاً في الحياة ، ولم يكن لديها هدف حقيقي من حياتها ؟ أكان شو على حق حينما قال : إننا نموت لأننا أكثر كسلاً من أن نجعل الحياة تستحق أن تُعاش ؟

وكان الفوضويون قد شرعوا في إعداد استعراض مشترك حول القرن العشرين ، وكان هذا المشروع قد بدأ قبل أن تنشق الجماعة نتيجة لقبول هربرت ريد لقب الفارس . وكنت قد كتبت أجزاء من الاستعراض ، ثم انصرفوا عن الفكرة بعد وقوع الانقسام . ولكنني لم أكن راغباً في أن أصرف النظر عن عملي ، وقررت أن أستكمله وأن أجد جماعة تشاركني انجازه . وكانت المقاهي والحانات ملأى بطلاب الفن يقتلهم الضجر ولا يملكون فكرة عن كيفية قتل الوقت . فدعوت عدداً من هؤلاء للمشاركة في إعداد الاستعراض . وسمح لنا فنان تجاري شاب ، يدعى جوناثان أبراهام ، بأن نستخدم غرفته في شارع فيللوز لاجراء التجارب ، وكان يعزف لنا موسيقى الجاز ، ويُسمعنا تسجيلات من موسيقى النوادي الليلية الفرنسية . (وقد عرفني عن تسجيلات موسيقى بيكس بيدربيك ، الذي ما يزال أحب نافخي البوق في موسيقى الجاز عندي) . ومضيت في كتابة الاستعراض في نفس الوقت الذي كنا نجري فيه التجارب ، وكان إجراء التجارب يعني قراءة ما أكتبه بصوت مرتفع ، لأننا لم تكن لدينا أية فكرة عن كيفية إخراجه . (ومن المحتمل أن يكون هذا النص صالحاً لبرنامج إذاعي مثالي) .

* * *

وفي مجال الجنس ، كاد هذا الصيف أن يكون صيفاً جنسياً تماماً . كنت مهتماً بصورة خاصة بفتاة في الثامنة عشرة من عمرها

تدعى لورا دل ريفو ، سوف أتحدث عنها بعد لحظة . وقد خرجت أيضاً مع عدة فتيات من المستشفى . وكانت هناك طالبة فنلندية جميلة تدعى لورا كوكالا ، كانت تعمل في فترة الصيف كخادمة لأحد العنابر . كنت أصحبها معي إلى التجارب التي نجريها ، وأحياناً كنت أخرج معها طول اليوم في عطلات الأحد لنتجول حول لندن أو ساري . ولما كانت لا تتكلم إلا القليل من الانجليزية فقد شرعت في تعلم الفنلندية . كانت فتاة رقيقة خجولة ، ذات بشرة جميلة ، شديدة الخوف من الجنس . وكلما شرعت تستمتع بالتقبيل وتسمح لنفسها بالاسترخاء ، كانت تقول : « يجب أن نتوقف . فأنا ثائرة » ، ويكون على ثورتي أنا أن تخبو كموج البحر .

وكانت فتاة ألمانية أخرى لا تقل عن تلك جمالاً وتدعى ايرمجارد ، كانت أكثر لفتاً للاهتمام ، ولكنها لم تكن تقل عنها تسبباً في الاحباط . كانت هي الأخرى طالبة تعمل خادمة لأحد العنابر ، وفي أول ليلة لها في المستشفى خرجت مع أحد البوابين ولم يكن يهتم بشيء في الكون سوى بالجنس والجعة . وبعد تلك الليلة رفضت أن تبادله الحديث ، وخرجت معي بدلاً منه . وراح البواب يطاردني ، وعرض علي أن يعيرني أدوات وأدوية لمنع الحمل ، وبعد سنوات كثيرة ، وفي ألمانيا ، اكتشفت السبب . فقد كانت إيرمجارد قد سمحت له بأن يسقيها الخمر حتى فقدت وعيها ، وبعد ذلك أخذها إلى مساحة من الأرض الخالية خلف المستشفى وخلع عنها ملابسها . وأثارت هذه التجربة اشمئزازها حتى لقد قررت أن تحافظ على فضيلتها طوال ما بقي لها في لندن من شهور . وكان هذا لسوء حظي .

وقد استقرت هذه الفتاة في عقلي دائماً كرمز لنوع معين من التمرد . كانت قد وُلِدت في بلدة ألمانية صغيرة في أوائل الثلاثينات ، وفي الوقت المناسب انضمت إلى الشبيبة الهتلرية . وكانت هائلة الحيوية

حتى أنها سرعان ما أصبحت زائدة جماعة من الشباب ، وأخذت على عاتقها مهمة تنظيم استعراضاتهم ومبارياتهم . كانت تعبد هتلر ، وكانت الحرب بالنسبة لها حملة صليبية تهدف أن تجعل العالم مكاناً أكثر جمالاً وبطولة . وكانت بلدتها صغيرة ، وعرفها الجميع وأحبوها . ثم فجأة ، مات بطلها وانتهت الحرب وتحولت المدينة إلى أطلال وخرائب ، وكاد كل إنسان أن يموت من الجوع . ولم يعد هناك شيء يشبع الاحتياج إلى الهدف . ولبست الحداد على هتلر علانية ، وكانت توافق على أن داخاو وبيلسين[1] كانت أشياء سيئة ، ولكنها كانت تؤمن بأن هذه الأشياء لم تكن سوى الجوانب المعتمة من مشروع مشرق وعظيم .

وكانت هي نفسها فتاة رائعة الجمال إلى درجة غير عادية ذات وجه سلافي قوي وشعر أسود كثيف . وكانت تشع بالحيوية كالشرارات الملتهبة . ولكنها كانت تبعث على الكآبة بصورة مرضية . ففي بعض الأيام ، كانت كل الأشياء تضحكها ، فكانت تضحك وتلقي النكات وتريد أن تفعل أموراً صبيانية عابثة ، وفي أيام أخرى كانت تتحدث عن لا معنى الحياة ولا جدواها . وفي هذه الحالة أيضاً كانت تحب أن تفعل أشياء صبيانية ولا معنى لها . وفي إحدى الأمسيات ، كنا نقف معاً على جسر وستمنستر ، فأشارت إلى الناس : « أنظر إليهم — الدمى ، العرائس . إنهم ليسوا حتى أنصاف أحياء . ماذا يمكن أن يفعلوا إذا أنا خلعت فجأة كل ملابسي ؟ أو رقـدت في وسط الطريق ؟ » . وسألتها : « لم لا تفعلين ذلك ؟ » آملاً أن أراها وهي تخلع ملابسها . وأجابتني : « لست خائفة » . وسارت وسط سيل السيارات العابرة إلى وسط الطريق ، وركعت على أربع ، وبدأت

---

[1] داخاو وبيليسين ، من معسكرات الاعتقال والتعذيب والاعدام الجماعي التي أقامها النازيون في بولندا وتشيكوسلوفاكيا . (م. م.)

جبهتها تلمس الأرض . ولم يبد على أحد أنه انتبه بصورة خاصة ، ومضى المرور على حاله ، وبدا كما لو كانت كياناً غير منظور . وأحسست بالراحة حينما وقفت قبل أن يلقي شرطي المرور القبض عليها . ولكنها ظلت مبتهجة بقية الليل . وأدركت مصدر احباطها ، لقد تعلمت أن تنمي في نفسها مخزوناً هائلاً من الطاقة ، وأن توجه هذه الطاقة نحو وفي سبيل أشياء كانت تشعر بأهميتها وخطرها . ثم أغلقت القنوات التي كانت طاقتها تسير فيها . كانت مثل أم دون طفل وثدياها مليئان باللبن . وبعد خمس سنوات ، حينما كنت ألقي بعض المحاضرات في جولة في ألمانيا ، رأيت إيرمجارد مرة ثانية . كانت ملامحها الجميلة المستبشرة قد اختفت . ولكن قوة الوجه كانت ما تزال على حالها ، غير أن الحيوية كانت قد انتهت . بدت لي كما لو كانت نيرانها قد خبت وانطفأت . وفقدت مكانها وموقدها ، لقد قبلت فكرة أن الحضارة لا تفسح مكاناً للنوع الذي كانت تتمتع به من الحيوية .

* * *

أما الفتاة التي شغلت أكثر تفكيري في ذلك الصيف فكانت لورا دل ريفو . التي قابلتها في مقهى « كوفي هاوس » في شارع نوثمبرلاند . لم تكن جميلة . كان لوجهها تلك الملامح المسطحة والألوان الصحية لصور جوجان لنساء جزيرة بريتون . كان صوتها حلواً وطفولياً . وكانت تتحدث وترتدي من الملابس ما يلائم فتاة في الثانية عشرة ، من أثواب قطنية وشرائط بيضاء . شعرت بأنها تشعر بالملل وغير سعيدة . وتقف تائهة عند نهاية طريق ضائع بصورة غريبة . قالت لي إنها تريد أن تكون كاتبة ، وطلبت منها أن تسمح لي بأن أرى شيئاً من أعمالها . وفي اليوم التالي ، تقابلنا في مقهى مواجه لمحطة مترو الأنفاق عند تشيرنج كروس ، وأخرجت لي المخطوط الذي جاءت به .

وراحت تدخن طوال قراءتي للمخطوط ، ولاحظت أن يدها الممسكة بالسيجارة كانت ترتعش ، كانت فريسة لتوتر من نوع غريب مثل حيوان مذعور . وكانت القصة بعنوان «إيميل» ، وكان من الواضح أنها جزء من قصة حياتها . وكانت تدور حول شاب روسي قابلته حينما كانت تعمل في مكتبة فويلز ، وهامت به حباً وأثر فيها تأثيراً كبيراً ، أما هو فلم يبال بها . كانت القصة تتمتع بنوع من النظام ، ولا تشوبها نزعة الاشفاق على الذات ، الأمر الذي أدهشني إذ يأتي من فتاة في الثامنة عشرة .

وفجأة بدا لي أن لورا هي الفتاة التي كنت أبحث عنها : ذكية ، كاملة الأنوثة ، بعيدة عن كل ما يبعث على الغيظ والتوتر وعن الغرور المفرط . ولم يزعجني إلا أنني كنت متزوجاً ، وكانت هي كاثوليكية وتذهب إلى الصلاة في الكنيسة كل يوم أحد . وأخيراً أخبرتها بأنني متزوج ، فقالت بلا مبالاة : «أوه ، أجل» . ولم تنطق بحرف آخر , وكان هذا هو سلوكها النموذجي المعتاد ، إنها لم تعبّر حتى عن الدهشة .

سحرتني شخصيتها غير العادية . كانت من الناحية العاطفية بريئة تماماً ، على غرار «روح البهجة الحلوة» التي وصفها بليك والتي لا يمكن أن تتلوث أو ينالها الدنس .. ووجهت إليّ الدعوة للذهاب إلى بيتها في تشيم لمقابلة والديها ، وكان منزلاً هادئاً يجلله الأمان . كان والدها مديراً لأحد المصارف ، وكانت شقيقتها الصغرى ، لوسي ، طفلة بالغة الحيوية والجمال . كان هناك تمثال للقديس جوزيف على قمة السلم ، وتمثال آخر للمسيح على الصليب أمام جدار في حجرة الجلوس . وبدأت أدرك طبيعة الصراع الداخلي عند لورا . فقد بدا لي أن تصرفات الفتاة ذات الاثني عشر عاماً وأثواب المراهقة الصغيرة التي تتميز بها كانت محاولة للتملص من مسؤوليات البالغين .

لقد استمتعت بطفولتها الآمنة التي جللها السلام . ولكنها كانت الآن من الناحية الجسمانية تعيش في عالم الكبار ، وهو عالم تعاني فيه من دافع قاهر ملح يدفعها إلى أن تمنح عذريتها لشاب روسي غير ناضج . لقد سحرها هذا العالم ذهنياً وعاطفياً . كانت تمضي أمسياتها في عالم حي سوهو ، في حفلات يتعانق فيها الأزواج حتى يصبح من الواضح أنهم غرقوا في حمى من الاثارة ، ثم يهرعون إلى غرفة النوم ، وحيث لا يكف الفتيات والفتيان من سن الستة عشر عاماً عن الحديث بألفة عن عمليات الاجهاض وشرب الشاي القوي ، ويدخنون بلا نهاية ، ويدخنون الحشيش حينما يستطيعون الحصول عليه . وكانت أقرب صديقاتها ، أوليفيا ، التي كانت في السابعة عشرة من عمرها ، تعيش قصة مع وغد قبرصي . كان عمره ضعف عمرها وكان متزوجاً بالفعل . وحملت أوليفيا ، ولكنها تناولت شيئاً لتجهض حملها ، وفي إحدى الليالي هرعت إلى المرحاض وأجهضت الجنين ، وأغرقته في المرحاض ثم نامت في فراشها في عطلة الأسبوع وحيدة ، ثم ذهبت إلى العمل كالمعتاد في صباح الاثنين .

كان باستطاعة لورا أن تبتعد عن هذا العالم ، الذي وجدته بالغ الاثارة والازعاج ، لتنصرف إلى البيت في تشيم حيث لم يتغير شيء منذ طفولتها . وقد قالت لي إنها في طفولتها ، اعتادت أن تلف جسدها حتى تصبح مثل كرة متماسكة وتقول : « هذا هو سريري وأنا هو أنا » . وكانت ما تزال تريد أن تفعل هذا . أرادت أن تحتفظ بقدم في كل من المعسكرين .

كانت من النوع الذي أحبه ، ولكنني لسوء الحظ لم أكن من النوع الذي تحبه هي . كانت تستسلم للتقبيل ، ولكنها لم تكن تجيد تبادل القبل ، ولم يبد عليها أبداً أنها تعرف ما تفعله بنفسها . كانت دائماً واعية بنفسها في قلب التوتر الكامل . ومن جانب آخر كانت

كاملة النمو من الناحية الجسدية ، وحينما كانت تدخل المقهى ، كان الصدار الصوفي الأخضر الملتصق بجسدها الذي كانت ترتديه أحياناً يجعل كل الرجال يرفعون أبصارهم اليها . وكنت أنا محروماً من الجنس منذ يناير (كانون الثاني) ، وكان يونيو (حزيران) يكاد ينتهي ، وكان وجودي مع لورا تدريباً دائماً على السيطرة على النفس .

وفي يوم من أيام الأحد ، في حقل بالقرب من بوكس هيل ، سألتها إن كانت تدرك السبب في أنها لا تتمتع باستجابة جنسية قوية إلى هذا الحد . قالت بهدوء : « أوه ، أجل . هذا لأنني معنيـــة بشخص آخر » . وشعرت بمعدتي تنقلب . وسألتها : « شخص آخر ؟ من هو ؟ » ، قالت : « لا يمكنني أن أقول لك » ، قلت : « يا إلهي الرحيم ، أتريدين أن تقولي لي إنك تستطيعين أن تفكري في شخص آخر حينما يقبلك أكثر من حباه الله بالعبقرية في انجلترا ؟ » قالت : « ولكنه أيضاً يقول إنه عبقري ؟» ، قلت : « بوه ... العالم مليء بالمدّعين » . قالت : « وهو صاحب أعمال منشورة أيضاً » وكانت هذه نهاية لا رحمة فيها . سألتها عن اسم الرجل ولكنها رفضت أن تبوح به ، وفجأة أصبحت متوترة ومتحفظة مرة أخرى .

وبعد بضعة أيام تطوعت بإخباري بأنه كان صحفياً وقد نشر بعض الشعر . وذكرت لي أيضاً اسمه الأول . كان إسمه بيل .

وبعد أسبوع كنا نجلس في ناد لموسيقى الجاز ، وكنت أتحدث مع فتاة ذات وجه شاحب غريب إسمها جاكي . كانت تتحدث عن صديقها فيليب ، وعن أقرب أصدقاء فيليب ، بيل هوبكينز . وقالت إن هوبكينز كان أكثر من قابلتهم من الرجال ذكاء ، وأن طوفان كلامه كان شيئاً لا يصدق ، وأنها لم تر أحداً يهزمه في مناقشة أبداً . وملأني الشك . ونظرت إلى لورا أسألها : « أهذا هو نفس البيل ؟ » .

واحمر وجهها وصرفت عينيها بعيداً . وقالت : « كلا » . ولكنها لفظت تلك الكلمة بسرعة شديدة . وقررت أن أبحث عن بيل هوبكينز لكي أكتشف إن كان حقاً بكل هذا الذكاء والبريق .

ولم يكن من الصعب أن أعثر عليه ، لأنه كان يحاول أن يصدر مجلة يدعوها « ناقد الأحد : صنداي كرينيك » ، وكان نصف مجموعتي من ممثلي الاستعراض يعملون لحسابه في بيع الايصالات ورأيته لأول مرة في نادي « أ ، أ » ، وكان هناك جمع من الناس يجلسون ويقفون حول إحدى الموائد ، يصغون إلى شخص يتكلم . وسألت عمن يكون فقيل لي : « هذا هو بيل هوبكينز » ، وهكذا فقد هرعت إليه ، ووقفت خلف المجموعة عند الطرف . كان له وجه شاحب ، ووسامة بادية بطريقة سكوت فيتزجيرالد ، وملامح حادّة التقاطيع وفك قوي . كان يتناقش مع شخص ما في الأدب . ومن المؤكد أنه كان يتمتع بحضور مهيمن ، ولكنني وجدته مخيباً للأمل ، وعلى عكس ما كنت أتوقعه . كنت أتوقع رجلاً ذا هدوء ونظام ، قرأ بقدر ما قرأت ، وحسب بعناية حساب هجومه على معاقل الأدب . وبدلاً من هذا وجدت ذلك الرجل الوسيم الضخم القادم من ولز ، صاحب نزعة رومانيكية مثالية ، ساذجاً مثلما كان شيللي ، أعلن أنه لا يقرأ أبداً كتب الآخرين لأنه فضل أن يكون أصيلاً ، فأصبح من الواضح أن ميله إلى الفصاحة الخطابية جعله شبيهاً بديلان توماس .

ولكن لم يكن من الممكن إنكار قوة شخصيته . فقد بدا عليه أنه ولد ليكون قائداً . وكانت قوة فكاهته مستمرة ومتفردة حتى وجدتها مجهدة بعد نصف ساعة أو نحوها . وبدوت أنا ، إذ قارنته بنفسي ، جهماً وباعثاً على الاكتئاب .

قدمت نفسي اليه ، ولكنه بدا فظاً غائب الذهن وهو يصافحني .

وقلت له إنني صديق للورا ، فلم يبد عليه أنه تذكرها ، ثم قال : « أوه ، حقاً ؟ » .

وفي مقابلتنا الثانية أو الثالثة أعرته المخطوط الناقص لرواية « طقوس في الظلام » . وبعد بضعة أيام . التقيت به في طريق تشيرينج كروس . وكان يرتدي قميصاً رياضياً أصفر اللون مبقعاً بالنبيذ الأحمر ، وكان في حالة من الحماسة والمرح ، ولكنه أصبح فاتراً وغير متحمس حينما سألته عن المخطوط . وشككت – عن حق – في أنه لم يقرأه .

كانت لورا معي حينما قابلناه ، ولم يكد يبدو عليه أنه لاحظها . وقد قصّتْ عليّ بعد هذه المقابلة ما حدث بينهما . كانت قد رأت بيل هوبكينز وهو يتحدث في المقاهي ، فنما في داخلها خضوع رومانتيكي لشخصيته . واعتادت أن تنتظر حتى يحين وقت عودته إلى المنزل ، لأنهما كانا يقيمان في اتجاه واحد ، فقد كان يقيم في ستريتهام ، لكي يلحقا بنفس الباص . وبدا عليهما أنهما منطلقان في علاقتهما على ما يرام ، ولكنه كان من الواضح أنه غير مهتم بها من الناحية الجنسية . ثم حدث في ليلة ما بينما كانا يسيران إلى الباص أن قال لها بجدية : « اسمعي يا لورا ، إنني أجدك شديدة الجاذبية من الناحية الجنسية . إنني غير واقع في حبك أو أي شيء من هذا النوع . أنا لا أحب إلا أن أنام معك . وأعدك بأنني لن أخبر أحداً بهذا بعد ذلك . » . وانعقد لسان لورا فلم تفه بكلمة . وأخيراً قالت : « آسفة . لا أستطيع . » فسألها : « ولم لا ؟ » فتعللت بأول عذر طرأ على ذهنها : « لأنني كاثوليكية » . فمد لها يده بحسم وقال : « حسناً . إلى اللقاء يا لورا . » ثم لم يولني أي اهتمام منذ ذلك اليوم حتى الآن . » سألتها : « ألا زال يجذبك إليه ؟ » ترددت قليلاً ثم قالت : « أعتقد هذا . ما كان يهمني أن أنام معه ، ولكنه طرح المسألة بطريقة صارمة وقاطعة . » وكانت هذه الكلمات سكيناً تغوص في أحشائي . ولكنه كان من الواضح أن

لورا لن تنفعي إذا ظلت خاضعة لهذه العاطفة نحو بيل . قلت لها : « لم لا تعرضين عليه أن تساعديه في اصدار المجلة ؟ لقد قال لي بالأمس أنه يحتاج إلى كاتبة على الآلة الكاتبة . » قالت : « إنه لن يسمح لي ، وأنا لن أسأله . » قلت : « هل أطلب منه أنا ذلك ؟ » قالت : « لا . » .

ومع ذلك فقد سألته . وقال بيل بنزق : « لا ، لا . لا أريد هذه الأنثى . لقد طلبت منها ذات مرة أن تذهب معي إلى الفراش فقالت إنها كاثوليكية . فما علاقة هذا بذاك ؟ إن الفتاة بلهاء . » قلت له : « ربما طلبت منها ذلك بطريقة شديدة الفظاظة . إنها في الثامنة عشرة فحسب . وربما قد أخفتها . » وبدا عليه التفكير ثم قال : « حسناً ، إذا كانت تستطيع الكتابة على الآلة ... قل لها أن تأتي إلى المكتب في مساء ما . » .

لم تكن هذه طريقة نبيلة من جانبي في التعبير عن عدم اهتمامي بها . ولم أكن أريد أن ألعب دور القواد . ولكنني كنت مغرماً بلورا ، وأصبح من الواضح أن بيل قد تحول إلى هم مقيم . وهكذا فقد أبلغتها رسالة بيل ، وتركتهما لشأنهما .

أما ما حدث بعد ذلك ، فقد كان هو ما توقعته . فقد أعاد بيل عرض رغبته عليها ، فقبلت هذه المرة . وباختصار أصبحا عاشقين . ولكنه وجدها كثيرة الخوف والخجل ، وفقد اهتمامه بها . ولم أشهد نتيجة تجربتي ، فقد كنت في فرنسا في ذلك الحين . لقد كان صيفا محبطاً بلا ثمار .

ولكن قبل أن يحدث كل هذا ، ذهبت يوماً إلى نادي « أ ، أ » فوجدت مخطوطة « الطقوس » بانتظاري مع مذكرة باسمي تقول : « مرحباً بك في مرتبتنا ! إنك رجل عبقري . » فقد استطاع بيل أخيراً أن يفتح المخطوطة ، وأدهشه نظام الكتابة وانضباطها .

ومن الجانب الآخر ، وجدت أنا أن كتابته مخيبة للآمال حينما رأيتها أول مرة : كانت قصيرة مليئة بنوع غامض من الرومانتيكية ، كانت تدور حول جندي جرح في المعركة جرحاً بليغاً . وكان لديه من الوقت ما يسمح له بأن يقع في حب فتاة ريفية قبل أن يموت .

وكانت الحقيقة هي اننا كنا ننتمي إلى مستويين من الكتابة بينهما فارق كبير ومختلفين تماماً ، كنت قد « تمرنت » تحت اشراف إليوت وهولم ، وتأثرت بصورة متساوية بكل من شو وييتس وهيمنجواي . أما بيل فقد كان بشكل كامل رومانتيكياً درب نفسه بنفسه ، ويكتب بطريقة تقليدية مشابهة لتلك التي كتب بها موسيه وهيجو . (وكان يبدو عليه أن شبح هيجو يطارده ، وقد قيل له ذات مرة في اجتماع لتحضير الأرواح كان يكتب عنه لإحدى الصحف – إنه شخصياً تجسيد جديد لهيجو) . وقد دفع هذا إلى ذهني على الفور بتعليق لأندريه جيد حينما سأله أحدهم ذات مرة عمن يكون في رأيه أعظم الشعراء الفرنسيين فقال : « إنه فيكتور هيجو ، للأسف ! » . وفي بعض الأحيان كنت أشك في أن بيل يؤمن بقولة إدجار آلان بو المأثورة عن أن أكثر الموضوعات ملاءمة للشعر هو موت امرأة جميلة . وقد حكى لي فيما بعد قصة كانت تتطابق تماماً مع شخصيته ومع نظرته إلى الأدب . فقد طلب منه ذات مرة في باريس أن يشارك في البحث عن فتاة اختفت من منزل والديها في بلجيكا ، وقيل إنها شوهدت تتجه إلى الضفة الشمالية . وأعطوا له صورة لفتاة جميلة جمالاً غير عادي ، وطلبوا منه أن يبحث بحثاً دقيقاً في مقاهي الضفة الشمالية للسين . وكان من الطبيعي أن يقع في حب الصورة ، وأمضى عدة أسابيع في بحث محموم عن الأصل . ثم قيل له إن البحث قد انتهى : فقد عثر على جسد الفتاة مدفوناً بالقرب من بيتها ، فقد قتلها خاطب لها كانت قد رفضته ، ثم أشاع أنها قد رحلت إلى باريس .

وقد حكى لي بيل هذه القصة بمناسبة حكاية ترد في إحدى رواياته (وما زالت هذه الرواية دون نشر حتّى الوقت الذي أكتب فيه) . وحكى لي أيضاً قصة ضابط ألماني رومانتيكي دخل قلعة بولندية كانت قد ضربت بقنابل الطائرات . ودخل الضابط غرفة نوم كان من الواضح أنها لفتاة صغيرة ، وكانت صورتها موضوعة على إحدى الموائد في الغرفة لكي تثبت أن صاحبتها كانت جميلة جمالاً ملحوظاً . ولكن أحد جدران الغرفة كان مهدوماً ، وكان الفراش – تحت الجدار – ينضح بالدم .

إنني أروي تلك القصص – خارج السياق – لكي أصور الطريقة التي يعمل بها خيال بيل هوبكينز ، وأيضاً لكي أوضح السبب الذي جعلني أجد أن قصته القصيرة غير مرضية . كان هدفه دائماً هو أن يخلق نوعاً معيناً من العمق يشترك في الكثير مع أعمال هوفمان ، أو ، ريختر [1] أكثر مما يلتقي مع أعمال هيمنجواي . ومن جانب آخر ، فهو ينتمي إلى أصل كلتي ، ولذلك فإنه لا يصبر على ما تتطلبه الكتابة من هدوء في التعبير وانضباط طويل المدى من النظام ، ولذلك كان عمق المضمون يضيع منه دائماً بينما يكون مستغرقاً في الكفاح مع المتطلبات الفنية المضجرة للحبكة .

ولكن السبب الذي جعلني أقع على الفور فريسة لسحر بيل هوبكينز هو أنه كان أول من ألتقي به ويكون شبيهاً بي في ثقته بنفسه وإيمانه بعظمته في المستقبل . كان حي سوهو قد خيب أملي ، كنت أتوقع أن أجد فيه نوعاً مثالياً من حرية الروح ، ولكنني وجدت بدلاً من هذا

---

[1] هوفمان – إرنست تيودور أماديوس ، ١٧٧٦ – ١٨٢٢ ، مؤلف روائي عرف برواياته ذات الجو القوطي ؛ ريختر – جوهان بول فريدريش ، ١٧٦٣ – ١٨٢٥ ، روائي ألماني من المرحلة الرومانتيكية عرف بوصفه القوي للحياة الريفية البسيطة . (هـ. م.)

كل ما يسهل اكتشافه من الافتقار إلى الثقة بالنفس الذي كنت أظن أنه من الصفات المميزة للمدن الاقليمية . فبعد ستة شهور ، لم أكن قد قابلت أي فنان أو كاتب يؤمن بتكريس نفسه لفنه ويبدو عليه أنه يرتفع كثيراً عن مستوى العادية المتوسطة . لقد بدا الجميع واقعين تحت ضغط شك ما يجعلهم واثقين من الفشل في المستقبل — وهذا هو زيف الإيمان باللامعنى واللامبالاة . والأكثر من هذا ، فإنني لم أقابل أبداً أي شخص بدا عليه أنه مصمم تصميماً جاداً على أن ينتج عملاً عظيماً . (كانت لورا دل ريفو في ذلك الوقت ، متواضعة للغاية فيما يتعلق بقيمة أي شيء تنتجه) . فرغم أننا نعيش في عصر التخصص ، حيث تطلب سنوات من الدراسة لكي يصبح المرء فنياً أو رياضياً ، فإن معظم من يودون أن يصبحوا كتّاباً لم يبد عليهم أنهم يملكون أدنى فكرة عن أن مهنتهم تتطلب بالمثل انضباطاً ذاتياً طويل المدى من النظام والصرامة .

وكان من الحق أن بيل هوبكينز قد بدا أيضاً أنه يعتمد إلى حد كبير على إلهامه الذاتي في كتاباته ، ولكنه أعطاني الانطباع بأنه لم تمر به أبداً طوال حياته كلها لحظة من الشك في عظمة مستقبله وضخامته أو في الاحترام الذي يجذب الناس إلى مصير الفنان واحتراف الكتابة .

وسرعان ما خطر لي أن مشكلته الأساسية كانت مشكلة بسيطة : لقد كان تأثيره الشخصي المباشر والفوري على الناس عظيماً حتى أنه كان من السهل عليه أن ينفق حياته كلها في بَهْر عدد محدود من المعجبين (الذين لن يكفوا أبداً عن تأكيدهم له على عبقريته) دون أن يكتب حرفاً واحداً . وقد كان الاغراء مزدوجاً لأنه كان ينتمي إلى أسرة من الممثلين ، فلا يكون بذلك إلا متابعاً لتقاليد الأسرة من الاعتماد على الكلمة المنطوقة بدلاً من الكلمة المكتوبة .

وقد اتضحت لي هذه الفكرة بشكل أكثر قوة حينما سمعته يتكلم

لأول مرة عن حبكة روايته « زمن الأشياء الكلية » . كانت الحبكة ذات تكوين درامي لا يقاوم حينما كان يحكيها . كانت النزعة الرومانتيكية قد ذابت بصورة نقية وتحولت إلى حبكة تتمتع بنوع من الحركـة والاقتصاد جدير بأحد أعمال جراهام جرين المثيرة ، وإذ كنت أصغي إليه ، كان من المستحيل أن أشك في أنه يملك المادة اللازمة لرواية يمكن أن تكتسح السوق والتي يمكن أن تُمتدح أيضاً باعتبارها تعبيراً متميزاً وفريداً في نوعه عن نزعة القرن التاسع عشر الرومانتيكية وعن البصيرة السيكولوجية المعاصرة . ومع هذا فلم يكن علي إلا أن أعود بذهني إلى المناسبة التي لخص لي فيها أول مرة حبكة روايته « المقدس والانهيار » ثم أن أستعيد السنوات التي قضاها في كتابتها ثم في إعادة الكتابة لكي أتبين أنه يمكن أن تكون هناك فجوة هائلة بين التصور والتنفيذ . (ولقد كنت واعياً بهذا على أي حال من خلال السنوات التي قضيتها بنفسي في إعادة كتابة « الطقوس ») . فالمرء إذ يحكي قصة ما فإنه سوف يغضي البصر عن نقطة صعبة ، وسوف تبدو علاقة ما في صورة مقبولة مما ستكون عليه على الورق . وفي أثناء الكتابة ، قد يتحول أحد التصورات إلى شيء مهترئ كمعطف الشحاذ وهو الذي كان يبدو محكماً كغلاف مانع لتسرب الماء من قبل ، وستظهر فيه الثقوب التي تزيد على ثقوب الثوب المهترئ . وليس هناك من بديل سوى العمل وإعادة العمل ، حتى لا تعدو الرؤية الأصلية أن تكون أكثر من ذكرى بعيدة .

ومع ذلك ، فقد تركت عند هذه المرحلة قصة مجلة « ساترداي كريتيك» دون أن أستقصي خبرها ، ومع هذا ، فحينما قابلت بيل هوبكينز أول مرة ، فإنه قد بدا لي – كما بدا للكثيرين في سوهو – أنه يوشك أن يكون فرانك هاريس [1] الجديد . ولو أن المجلة قد

[1] فرانك هاريس ، ١٨٥٦ – ١٩٣١ ، كاتب قصة قصيرة أمريكي من أصل ايرلندي ، عرف بصراحته في الكشف عن العلاقات الخفية وذات الجو الفاضح للشخصيات التي كتب تراجمها مثل شكسبير وأوسكار وايلد . (هـ. م.)

ظهرت بالفعل إذن لظهرت أسطورة الشبان الغاضبين قبل موعد ظهورها الحقيقي بخمس سنوات ، ذلك لأن مجلة « ساترداي كريتيك » كانت تزمع أن تكرس نفسها لاعلان مجموعة من المطالب العنيفة التي تدعو إلى مستويات أسمى في كل الفنون وأكثر ارتفاعاً ، ولاعلان الادانة القاسية لكل الأعمال التي فشلت في تحقيق تلك المستويات السامية . (ولم تكن لدي فكرة عن الكيفية التي كان ينوي بها أن يحافظ على نوايا معلنيه الطيبة) . فقد كان جيش الكتّاب الذين جمعهم مدعواً إلى استخدام أقصى ما يمكن من السخرية والاستهزاء والتشويه الفاضح في تناولهم للأعمال التي سيكتبون عنها .

وإذ كان يعرف أن الثقة يمكن أن تكتسب بسهولة أكثر إذا ظهر المرء بمظهر النجاح ، فقد استأجر مكتباً في سو شوارك ، بالقرب من النزل الذي بدأت منه رحلات تشوسر [1] واشترى خطين تليفونيين . ووضع جوناثان أبراهام مسودة لنسخة تجريبية من العدد الأول ، وطبعت هذه النسخة بصفحات بيضاء ، مع افتتاحية عنيفة تشرح سياسة المجلة .

وكنت قد عرفت أن بيل هوبكينز قد عمل في « فليت ستريث » منذ صباه ، وأنه في إحدى المرات قد حرر بعض المواد لبعض صحف شمالي لندن في الفترة نفسها . وبدا أن مجلة « ساترداي كريتيك » تتمتع بكل فرص النجاح . ومع ذلك ، فقد كانت المشكلة دائماً هي النقود ، ولم تكن المعونات الحرة وبعض التبرعات كافية أبداً . وفي الوقت

---

١ تشوسر – جيوفري (١٣٤٣ – ١٤٠٠) شاعر انجليزي من العصر الوسيط ،يعتبر من أخطر الشخصيات الأدبية في تاريخ اللغة الانجليزية ومن أعظم شعرائها . تقسم حياته إلى مراحل ثلاثة ، فرنسية وإيطالية وانجليزية ، والفترة الانجليزية هي أخصب فتراته وأهمها ، أنتج فيها أشهر كتبه « حكايات كنتربري » ثم « ترويلوس وكريسيدا » ، ويعتبر مؤسس الانجليزية الكلاسيكية . (هـ. م.)

المناسب ، انهار المشروع كله تحت ثقله الذاتي دون أن يعاونه أحد على النهوض .

* * *

كنت ما أزال أتحدث من فوق منصة الفوضويين : وفي الحقيقة ، فطالما كنت أنا المتحدث الوحيد باسم العمال السندكاليين (النقـابيين الاتحاديين) فقد احتفظت في المستشفى بالمنصة التي تخصهم ، وكنت أحملها على كتفي مربوطة بالحبال وأسير بها على الدراجة إلى مكان الخطابة في أمسيات الأحد . وكان شو قد اكتسب خبرته كمتحدث إلى الجماهير في هايدبارك ، وقد بدت لي هذه الفكرة جيدة . لقد كنت مناقشاً جيداً في أيام دراستي ، ولكنني فقدت قدراً من الطلاقة مع تقدمي في العمر . وقد حاولت أن أبدي بعض التعليقات بعد اجتماع عقد في جمعية الدراسات الثيوصوفية (الكشفية الصوفية) — وكنت قد أصبحت عضواً بها لفترة قصيرة في أيام اقامتي القصيرة في ومبلدون ، ولكن صوتي راح يرتعش ، وكان علي أن أقبض بقوة على ظهر المقعد الذي أمامي لكي أخفي ارتعاش يدي . أما في الهواء الطلق ، فقد كان علي أن أصيح بأعلى صوتي ، وكان الصياح يساعد على اختفاء التوتر العصبي .

وقد حدث بعد واحدة من تلك الأمسيات في هايدبارك أن مررت بتجربتي الجنسية الوحيدة في الصيف . وقد كانت تجربة عاصفة . وفي نادي « أ ، أ » بعد ذلك ، اندفعت في حديث مع فتاة جذابة قالت لي إنها شيوعية . وتبادلنا النقاش لبرهة ، وتحدثنا حول الأدب الروسي ، ثم سرنا عائدين حتى بلغنا الماربل آرش . وهنا اقترحت الفتاة أن نذهب إلى غرفتها لنشرب القهوة . كنت أعرف ما يطوف برأسها ، وكنت أنا لا أقل عنها رغبة واستعداداً . كانت تقيم في غرفة خلفية في حي مايدا فيل . وأوقفت دراجتي بالخارج بعد أن ربطت منصة الخطابة

اليها وصعدت مع الفتاة . وشربنا القهوة وتبادلنا الحديث لمدة نصف ساعة ثم قلت إنه من الأفضل لي أن أنصرف ، فقالت : «لم لا تبقى هنا هذه الليلة ؟» فقلت إنني أود لو أتيح لي هذا . وهكذا فقد ذهبت هي إلى الحمام ، وخلعت أنا ملابسي ودلفت إلى الفراش المزدوج . وكنت قد بدأت أشعر بالتوتر بالفعل . ولكن كاي — الفتاة الشيوعية — لم تكن حقاً هي الفتاة التي تلائمني . كانت محنكة خبيرة ، ذات صوت رخيم كأبناء الطبقات العليا ، وتتحدث بصراحة حول تجاربها الجنسية . كانت متزوجة من ممثل تركها في سبيل امرأة أخرى ، ومنذ ذلك الحين كانت تشبع حاجتها إلى الجنس بالنوم مع رجال مختلفين . وكانت غرفتها على شيء من القذارة . وكانت هناك بقعة ضخمة على السقف تتخذ شكل العين ، وكان ورق الحائط يتساقط ويتقشر ، وكانت ملاءات السرير مجعدة ، وكانت هناك بقع منوية قديمة على الملاءة السفلية .

ودخلت كاي في قميص شفاف ، كانت تمتلك جسداً جميلاً . ودلفت إلى الفراش ، وتبادلنا القبـــل . ثم قالت : « انتظر لحظة » وجلست لكي تخلع القميص . ولكن توتري كان قد خبا ... فقلت لها : « آسف . هذا بسبب التوتر الزائد عن الحد» . ولكنها لم يبد عليها الاهتمام ، فاستدارت نحوي ثانية وتبادلنا الحديث والقبلات من حين إلى حين . ولكنني كنت أشعر كما لو كنت قد فجرت بالوناً فيما يتعلق بالتوتر الجنسي . وأخيراً غلبنا النوم لفترة قصيرة . واستيقظت وشعرت بها وهي تلتصق بي . وعاد التوتر مثل شرارة صغيرة ، وكنت أعرف أنني إن لم أنتبه فسوف يخبو التوتر مرة ثانية . فاستلقيت مسترخياً ، وحاولت أن أوجه أفكاري إلى الفتاة الراقدة إلى جواري ، وشعرت بأن الشرارة الصغيرة تتحول بالتدريج إلى شعلة متأججة .

واعتليتها ، ولحسن الحظ كان الايلاج سهلاً ، وطالما تم ذلك بنجاح ، فإنه لم تكن هناك أية صعوبة أخرى . وحاولت أن أعوض الفشل السابق ، فبلغ بنا الارهاق مبلغه بعد نصف ساعة أو يزيد . وضاجعتها مرتين أخريين قبل الصباح .

وفي نفس الأسبوع بعد بضعة أيام ، ذهبت لكي أراها في شقة جديدة — وكانت قد طُردت من الشقة السابقة لعدم دفع الايجار . وتناولنا طعامنا وذهبنا إلى الفراش . ولكن لم تكن هناك فائدة هذه المرة . فإنني لم أكن أريدها ببساطة . ورفض جسدي أن يستجيب لها بأي حال على الاطلاق . وفجأة أدركت ما كان وراء كل هذا . كانت حياتي مع دوروثي قد أنتجت نوعاً من الصراع اللاواعي . ومنذ بداية زواجنا ، كانت عملية ذهابنا إلى الفراش تثير لـــدي قدراً هائلاً من التوتر الجسدي . وربما أنتج لدي احتشامها وتحفظها إحساساً بانتصار الذكر ، بالاغتصاب . وحينما بدأت مشاجراتنا ، كان الاتصال الجسدي دائماً هو الذي يبدأ الصلح . ولكننا كلما زدنا في الشجار ، كلما تضخم لدي ذلك الجزء مني الذي يرفض المصالحة ، وهكذا فقد بدأت في اكتساب نوع من الانكسار الأوتوماتيكي في التوتر الذي كانت تثيره لدي . وأصبح هذا الانكسار عادة ، وكانت العادة تعمل عملها مع النساء الأخريات .

كان من المخيب للآمال أن أضحي عاجزاً عن السيطرة على استجاباتي الجسدية ، ومع هذا فقد شعرت بقدر أقل مما كان ينبغي أن أشعر به من الهزيمة بسبب ذلك . وجعلني عجزي عن الاستجابة لكاي أكثر إدراكاً للأشياء الأكثر أهمية وقيمة والتي أمتلكها بالفعل . فالبشر لم يكونوا مخلوقين من أجل مثل هذا الجماع التافه الخالي من المتعة :

هؤلاء الذين يجلسون في حظيرة القناعة القذرة ، إنما

يهدفون إلى الموت
وهؤلاء الذين يعانون من عذابات الحيوان ، إنما
يهدفون إلى الموت .

كانت الرياضيات والموسيقى وسر الكون والوجود الإنساني : كانت هذه الأمور التي تهم حقاً ، لا هذه الفتاة التي لا هدف لها والتي تعمل أردافها كما تعمل* الآلة .

وبعد بضعة ليال ، كنت أتحدث في نادي « أ ، أ » مع صديق لبيل هوبكينز ، وكان المفروض أن أرى كاي ، ولكن لما كنا نتبادل مناقشة ممتعة ، فقد دعوته لأن يأتي معي . وذهبنا إلى شقة كاي في شارع برسي . كان يحدثني عن المشاكل التي يواجهها في كتابة رواية له ، وكنت أنا أحدثه عن المصاعب التي أواجهها مع رواية « الطقوس » . وصنعت لنا كاي الشاي ومضينا نتحدث . ثم حولت كاي الحديث إلى موضوع الجنس ، وفي نقطة من الحديث اعترف صديقي أنه ما زال « بكراً » . وابتهجت كاي . وعندما اقترب منتصف الليل ، قلت إنني ينبغي أن أنصرف ، فقالت كاي : « حسناً ، إنني أريد أن أنام مع « شخص ما » ... » . ونظر كلانا إلى بيل الذي تدفق الدم إلى وجهه . ولكنه بقي عندها . ورأيت كاي بعد بضعة أيام فسألتها عما كان من أمره . فأجابت : « كان ساحراً . لقد قتلني تقريباً ... » .

أما فيما يتعلق بي ، فإنني لم أبذل محاولة أخرى للنوم معها . ووجدت نفسي أتساءل عما إذا كنت أسقط مثل هذه السقطة المخزية لو كانت لورا هي التي ترقد بجانبي على السرير .

* * *

وأخيراً عرض « استعراض القرن العشرين » الذي كنت قد كتبته ، وعرض في أحد أيام شهر يوليو (تموز) . واستأجرنا صالة بالقرب

من هولبورن ، وهي حجرة واسعة في طابق أعلى أحد المقاهي يدعى « مقهى غاريبالدي » كان الفوضويون يستخدمونها أحياناً . وكنا قد وضعنا الاعلانات عن العرض في المقاهي ، وجاءنا نظارة كثيرون . وقرأنا الاستعراض بصوت مرتفع جالسين حول إحدى الموائد . واستمرت القراءة لمدة ساعتين ، ونال الاستعراض نجاحاً يفوق ما كنا نتوقعه . ولم نتقاض أي أجر عن الحضور ، ولكن النقود التي اشترى بها النظارة قهوتهم وكعكهم اعتبرت ايجاراً للغرفة أيضاً .

ولكن الفريق استسلم للكآبة فيما بعد . كانوا يجرون البروفات (التجارب) لعدة شهور ، فخبا الآن حماسهم . ولم يكن حي « سوهو » هو المكان البوهيمي المليء حقاً بالحيوية كما زعم لنا الكبار . وكان أكثر أبناء الجيل الأصغر سناً مستسلمين للضجر ولم يكونوا متمردين سوى بطريقة غامضة . وكنت أنا وبيل هوبكينز قد وضعنا نظاماً معيناً يستمر لمدة شهر أو نحو شهر ، وقدمنا لهم محوراً لاهتمامهم لتحقيق الترابط فيما بينهم ولكي نعطيهم شيئاً يفعلونه . ولكن الاستعراض كان قد انتهى ، وكانت مجلة « الساترداي كريتيك » تواجه بالفعل مشاكل الظهور ، وعاد إلينا الإحساس بانعدام الهدف . وأخذ الفريق يحثني لكي أكتب لهم مسرحية ، وبدأت في كتابة مسرحية باسم « برعم الزهرة المعدنية » تدور حول فنان من حي سوهو وعلاقاته بفتيات الموديل . (وقد أدخلت أجزاء منها فيما بعد في رواية « ضياع في سوهو ») . وكانت المشكلة هي أن هذه المسرحية كانت تتطلب كمية من التجارب ونوعاً من التعاون أضخم بكثير مما كان الاستعراض يتطلبه ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لأن يولوها الكثير من اهتمامهم . وكان أكثر من نصفهم يتغيبون باستمرار عن التجارب . وفي أحد الأيام ، قررت أنا ولورا أننا نستطيع أن نهرب من إحدى التجارب لكي نسكر . ولم يكن أحدنا قد جرب السكر من قبل . وذهبنا إلى بار هينيكي للنبيذ في حي ستراند ، واحتسينا

عدة كؤوس من نبيذ بورجوندي الرخيص ، ثم أخذنا معاً زجاجة أخرى واتجهنا إلى حدائق « نستيفال هول » الجديدة ، وشربناها ونحن جالسان فوق مقعد حجري مطل على النهر . وفي البداية كان تأثير الخمر مخيباً للآمال ، ولكن حينما فرغت الزجاجة ، كنا سكرانين دون شك . فسرنا إلى المقهى واحتسينا قهوة سوداء ، ثم تقيأت لورا ما بجوفها في نافورة ونحن نعبر ميدان الطرف الأغر (ترا فلجار) وبعد دقائق قليلة جاءنا شرطي ساخط لكي يقول لنا إننا نسبب مظهراً سيئاً ، ونظرت صوب السور المحيط بالمتحف القومي في جانب من الميدان فرأيت أن حشداً كان قد تجمع وراح يرقبنا . وسافرت عائداً إلى « تشيم » مع لورا ، وأوصلتها إلى بيتها ، ثم لحقت بآخر قطار عائداً إلى فولهام . وإذ كنت أنتظر ما يوصلني إلى جسر بوتني ، أفرغت كل ما بجوفي وسط الشجيرات . وفي اليوم التالي كنت أشعر بالاجهاد وأصابني الصداع . وحدث أن وقع علي الاختيار في هذ اليوم للقيام بعمل شاق بصورة خاصة — وهو تنظيف النوافذ . واستطعت أن أقضي هذا اليوم بشكل ما ، وأقسمت ألا أعود إلى هذه البلاهة مرة أخرى .

* * *

لم أحب الحياة في سوهو . كان هناك الكثير من النشاط الذي لا معنى له . وحينما بدأت لورا في العمل عند بيل — منسحبة بهذا من العمل في مسرحية « برعم الزهرة المعدنية » قررت أن الوقت قد حان للعودة إلى فرنسا . كنت قد مللت المستشفى — وكنت ضجراً — ضجراً إلى درجة أن أي نشاط مهما كان في ساعات الفراغ ما كان يستطيع أن يمنعني من الاحساس بأنني كنت أتعفر ، روحياً وعقلياً . فبشكل ما ، كانت مجرد خمس دقائق في غرفة البواب قادرة على أن تهبط بأفكاري إلى قناة آسنة من التكرار ، مثل اسطوانة تسجيل ذات شقوق ورضوض .

كنت أبذل جهوداً هائلة ضد هذا الشعور ، ولكن لم تكن هناك فائدة ، فرحت أمضغ مشاعري وأجترها . وكثيراً ما كنت أتسلل إلى غرفة صغيرة تعلو حجرة الغسيل ، فأجلس «متربعاً» متقاطع الساقين على الأرضية المتربة (أتنفس رائحة الفئران الميتة) فأحاول أن أركز على «الجينا» وعلى فكرة الحرية . كانت تطاردني وتملأ وجداني صورة من كتاب «رؤيا آسيوية» الذي كتبه لونسيلوت جرانمبريبنج ، وهي صورة عن «كوريا — أرض هدوء الصباح» — وهي فكرة لم تكد تخلو من بعض المعاني الساخرة في عام ١٩٥٣ — وهي أيضاً صورة لثلاثة رجال طاعنين في السن في حوض أخضر وسط التلال ، وكل منهم يتذوق جرة من الخل . ويجد بوذا أن جرته حامضة ولاذعة ، ويبدو كونفوشيوس هادئاً ولا مبالياً ، ويبدو الابتهاج على وجه لاوتسو ، والخرار بالطبع هي الحياة . فملأتني هذه الصورة باشتياق مرضي بينما كنت أتنفس التراب ، ثم هبطت السلم مرة ثانية لكي أستمع من جديد إلى نفس الحديث عن كرة القدم والجنس ، وأراقب مباريات الورق التي لا تنتهي . لقد كان التاريخ هو ما مات بالنسبة لي . كنت أمتلك نوعاً غير عادي من الحرية ، وكان العمل سهلاً ، وكان لدي أصدقائي ، ولكن عقلي كان مثل فأر في سلة لا يستطيع أن يتسلق جدرانها ، فلا يستطيع إلا أن يقفز عالياً ثم يسقط إلى القاع من جديد . وفي هذا الوقت تقريباً اكتشفت جرائم القتل التي ارتكبها كريستي ، وامتلأت الصحف بصور الشرطة السريين وهم يحفرون الحديقة الخلفية لقصر ريللينجتون . وبدت هذه الجرائم كما لو كانت ترمز لي إلى قتامة حياتي في المستشفى وعقمها . كنت أتكئ على إرادتي ، ولكنني لم أستطع أن أستعيد البهجة والثقة اللتين شعرت بهما في ذلك الصيف أثناء العمل في المزارع . وإنني لأذكر الآن دائماً يوماً معيناً من آخر عطلاتي مع سيلفيا ، على سفح تل تكتسحه الرياح في ديربي شاير . كنا قد صعدنا

إلى قمة برج فوق التل ، وأطارت الرياح قبعتي الصغيرة . ثم هطل المطر بغزارة ، فلجأنا إلى غابة واستلقينا على الأرض تحت معطف رقيق وأخذنا نصغي إلى قطرات المطر وهي تضرب المعطف . وأخيراً ، وبينما نحن نهبط التل سائرين ، تكاد الرياح أن تقتلع أقدامنا من على الأرض ، ناظرين إلى دائرة التلال العظيمة على حواف لانكشير . غمرني إحساس طاغ بالقوة والحرية ، ممتزجاً بإحساس جعل ملالة سنوات مراهقتي تبدو ضئيلة تافهة وغير جديرة بالاهتمام . وشعرت بأنني قد اكتشفت سراً : لا ينبغي أبداً أن يتقبل المرء بهدوء الضجر وعدم الامتلاء . « فإذا لم تكن حياتك تروق لك ، فإن بامكانك أن تغيرها ... » وبمعرفة هذا السر ، لم يكن بوسع المستقبل أن يخفي شيئاً سوى الظفر والانتصار .

ومع ذلك ، فها قد كنت أعمل في وظيفة تدفعني دائماً إلى الاحتكاك بالمرض ، واعياً بالنتائج الأخلاقية لتجمدنا في شرفة البواب ، دون أن نبذل أي جهد حقيقي للهرب . وكان جزء من أسباب هذا هو أنني كنت أرسل النقود إلى دوروثي كل أسبوع . وكان العمل في مسرحيتي وإلقاء الكلمات في هايدبارك نوعاً آخر من العزاء . ومع هذا فقد كان عقلي أشبه بصندوق القداحة المبلل الذي لا يمكن أن ينتج أية شرارة . وفي أحد الأيام التقيت بأحد معارفي القدماء من كلية فوجان في ليسستر الذي هنأني لما كان يظهر علي من صحة وامتلاء بالطاقة والنشاط . واهتممت بهذه الملاحظة ، لأنني كنت أتعمد أن أنهك نفسي طوال شهور عديدة ، رافضاً أن أعترف بالاجهاد أو أن أستسلم له ، ورغم هذا فقد كنت شاعراً بفراغ هائل يحتل داخلي .

ووقع حدثان دفعاني إلى اتخاذ قرار مغادرة المستشفى والذهاب إلى فرنسا . وكان الحدث الأول هو تجدد المشاجرات مع دوروثي . ففي إحدى عطلات الأسبوع في ليسستر ، وصلنا إلى نوع من الوفاق ،

واتفقنا على أن نبذل مجهوداً مشتركاً لكي نعثر على بيت يجمعنا . ولم أكن سعيداً سعادة كاملة بهذا الاتفاق ، لأنني بينما كنت أحب زوجتي وابني لم تكن لدي رغبة خاصة في تكرار تجربة السنة الماضية . ولكن دوروثي اقترضت بعض النقود من أمها ، واتفقت أنا مع إحدى الوكالات على أن تعثر لنا على شقة مقابل عمولة تبلغ خمسة جنيهات . وبدأنا البحث عن بيت من جديد . وعرضت علينا الوكالة شقة في حي فوريست جيت شرقي لندن ، وذهبت لكي أراها فراقت لي ، ولكنهم كانوا يريدون مائة وعشرين جنيهاً مقابل «الأثاث والتجهيزات» ولكن الايجار كان منخفضاً : جنيهان وعشرة شلنات . وعلى الفور أعطيت الوكالة شيكاً بخمسين جنيهاً كعربون ، وأرسلت إلى دوروثي لكي تأتي وتراها .

ولكنها لم توافق — فقد ظنت أن المبلغ المطلوب أكثر مما ينبغي ، وتشككت في نصوص الاتفاق ، ورفض المدير أن يسمح لها بأن تأخذ الاتفاق لعرضه على أحد المحامين . ومع ذلك فقد وافقتْ في النهاية على السعر وعادت إلى ليستر . ولكنها ، وفي نفس اليوم ، أرسلت إليّ برقية تقول فيها إنها قد غيرت رأيها ، وأنها تريد أن تلغي الاتفاق كله . واستبد بي الغضب . كنت قد أعجبت كثيراً بالمرأة التي عرضت علينا الشقة — وهي بدينة كاثوليكية أيرلندية كانت ساحرة تماماً ، وكنت قد أخبرتها بأننا سنأخذ الشقة نهائياً . وأرسلت إليها برقية دوروثي مع خطاب اعتذار — فأرسلتْ جنيهاتنا الخمسين مع عودة البريد — وكتبتْ إليّ دوروثي تقول إنها لو كانت تريد شقة الآن ، فإن بوسعها أن تبحث عنها بنفسها . ولكني أشك في أنني قد شعرت أيضاً بالراحة لأن الأمور عادت مرة أخرى إلى ما كانت عليه .

وكان لدي سبب آخر لاتخاذ قراري بمغادرة لندن . فقد كان الاجهاد يدفعني إلى نوبات من الهبوط والخور كنت قد عانيتها منذ

سنوات في ليستر . وفي أحد الأيام ، وأنا على فراشي في المستشفى ، وقفت وتثاءبت . وتحللت الأشياء كلها أمامي . وبنصف وعي تهالكت على الأرض ، وأنا أشعر مرة أخرى بالضجة الرتيبة العجيبة في رأسي وأذني ، وبالانفصال عن جسدي وعن كل ما أدعوه « نفسي » . كانت هويتي تنحل وتتبدد ، ولم يبق ثمة شيء يمكنني أن أتعلق به ، ومرة أخرى عاد إليّ « الوعي » ، ولكن الوعي بلا شيء » . ثم صفا رأسي ، ولكن بينما كنت أهبط السلم إلى العمل ، كان العالم قد أصبح خدعة ضاحكة ، طقساً لا هدف له تقيمه الآلات .

وبعد بضعة أيام حدثت هذه النوبة مرة أخرى ، فوق السطح العلوي المهجور لسيارة عامة (باص) . تمددت وتثاءبت ، وفقدت الوعي . كنت أعلم أن هذا بسبب أنني كنت أجعل الدم يندفع خارجاً من رأسي . ولكن هذا لم يكن هو الجواب على احساسي بالرعب ، وتحققي من خواء الحياة الإنسانية كلها ، وعقمها .

ومرة أخرى عدت متأخراً ذات ليلة ، ثملاً بعض الشيء ، ورقدت على الفراش في الظلمة الدافئة . وفجأة انتابني إحساس بسخف وجودي في هذا المكان . وفجأة بدت المسألة في وضوح بالغ : أردت أن أسأل : من أنا ؟ ما الذي أفعله هنا ؟ ما الذي يكمن وراء الحياة ؟ إننا نسلم بهذا العالم الذي نعيش فيه دون مساءلة ، كما لو كان هو أكثر ما يمكن أن نحيا عادية ومعقولية . ما الذي يضمن لنا أننا لا نجلس في غرفة تنفيذ الأعدام ؟ إن « الحياة » بالنسبة لنا هي كل ما يوجد هناك ، ولكننا لا نشعر بالخوف ، لأنه يوجد دائماً بديل ما ، شيء يكمن « وراء » الركن المختفي . ولكن ، ما دمنا كائنات حية ، فما هو البديل للحياة ؟ وفجأة شعرت بأنني فأر وقع في مصيدة ، وبدا لي أنه ليس سوى غبائنا وعجزنا عن الفهم هو ما يكمن بيننا وبين الرعب الكامل والفزع .

وكانت السخرية الكبرى هي أن كل تلك الأسئلة لم تكن على علاقة بحياتي . فإذا سألني الرئيس : « لماذا تبدو مريضاً هذا الصباح ؟ » فهل يمكنني أن أجيب : « لأنني أشك في أن الحياة كلها خدعة زائفة ؟ » أو « لأنني أشك في أنك مجرد وهم من أوهام خيالي ؟ » . إننا لا نستطيع أن نعيش إلا بوصفنا كائنات حية ، تقتفي آثار الطقوس الإنسانية ، ولا بد لكل ما نفعله أن يكون « إنسانياً » ، ولا بد لنا أن نسير فوق قضبان الزمن ، وأن نجعل الزمن يمر لأغراض مختلفة ترتبط كلها بأناس آخرين . إننا نبدو في صورة أفراد متفرقين ، ولكننا في الحقيقة لا نستطيع حتى أن نتنفس لأنفسنا أو لحسابنا ، وكل ما نستطيع اتيانه من أفعال التعبير الذاتي هو أفعال إنسانية واجتماعية والمهرب الوحيد من آلامنا هو النظر إلى الآخرين أو البحث عن معونة خارجية — إلى الله أو إلى الأرواح .

وبدا لي كما لو كنت آلة صماء ساكنة من آلات البيع ، نُصبت في ركن من الأركان وظنت أنها حرة ، واعتقدت أنها تقف هناك بدافع من ارادتها الحرة وأنها تلفظ كل علبة من علب السجائر كما لو كانت تؤدي عملاً اختارته بنفسها وتطوعت له . وفجأة تبينت أن « أنا » ليس سوى شيء ميكانيكي تماماً ، يعتمد كلية على توافه الأشياء والأمور ، ولذلك فإنني لا أفعل فعلاً له معنى ، وأنني لا أستطيع أن أزعم أنني أكثر من متفرج ، شاهد على الحياة ، واعياً بوقوعي في فخ المادة ولكنني عاجز تماماً عن الافلات ، عاجز حتى عن المشاهدة إلا من خلال طينة جسدي الساخرة ، التي يمكن أن تمنع عني الوعي في أية لحظة .

ومن الواضح أن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاء هذه الرؤية ، ولكنها رؤية تمحو كل الأوهام التي تدفعنا إلى الحركة المستمرة . وبدا لي أن البدائل المعقولة الوحيدة هي أن أنتحر أو أن أغادر المستشفى . ولم

يكن أي من البديلين أكثر معقولية من ألا أوجد ببساطة ، ولكن طالما أنني « موجود » فلم يكن لدي خيار .

بعت كل كتبي في مكتبة فويل ، وجمعت كل ما استطعت جمعه من نقود ، وكتبت إلى دوروثي أقول إنني في طريقي إلى فرنسا (وقد عنى هذا ، ضمنياً ، أنني قد « تركتها » رغم أننا كنا في الحقيقة قد انفصلنا منذ تسعة شهور) . وأمضيت ليلة نائماً على الأرض في مكتب بيل في سوث وورك ، وحصلت على توصيلة في اتجاه دوفر في وقت مبكر من اليوم التالي . ونمت الليلة التالية في غابة بالقرب من كانتربري – في حقيبة للنوم بالطبع – واستيقظت مبكراً في الصباح التالي لكي ألحق بأول قارب متجه إلى كاليه .

الفَصـل الثَـامِن

باريس ، ليسستر ، لندن مرة اخرى

حينما هل منتصف النهار ، كنت قد عدت إلى فرنسا . وفي هذه المرة ، كان معي من النقود ما يزيد قليلاً عما كان معي في المرة السابقة – بضعة جنيهات قليلة . ودخلت مطعماً في ساحة واسعة تشبه الجرن بالقرب من الصخور وطلبت طعاماً وبعض النبيذ . لم أكن قد تناولت افطاري بعد . وسرعان ما جعلني النبيذ ثملاً وسعيداً . كان المكان مزيناً بصور بواخر من الورق لسبب ما ، وكان المذياع يذيع موسيقى اسبانية بصوت شديد الارتفاع . كانوا قد قدّموا لي شريحة كبيرة من اللحم الليّن . وللمرة الأولى منذ سنة كاملة – وقد بدت لي سنوات عديدة – طفر الفرح داخلي ، مثل قوة محطة كهربائية ضخمة ، تماماً كما حدث على سفح التل الذي تكتسحه الرياح في ديربي شاير ، وأصبحت واثقاً من أنني قد اتخذت القرار الصحيح بمغادرة انجلترا . وشعرت بأن الآلهة قد عادت لكي تقف في صفي مرة ثانية وأنها قد أرسلت إليّ هذه الدفقة من القوة كعلامة على موافقتها على ما فعلته . كنت الآن في اسبانيا وفي كاليه محلقاً فوق أوروبا كلها في لحظة واحدة ،

وكان بوسعي أن ألحق بالتاريخ كما ألحق بسيارة عامة .

ووصلت إلى باريس بعد يومين ، فتوجهت على الفور إلى غرفة كلود جيوم في شارع باين . لم يكن يقيم هناك ، ولكن والدته كانت تحتفظ بالغرفة استعداداً لزياراته العارضة لباريس . وكنت قد ظللت على اتصال بكلود وزوجته (وكانت ماري قد زارتني بينما كنت في المستشفى وقمت معها بسياحة في لندن) . وقيل للبواب أن يعطيني المفتاح ، وهكذا فقد انتقلت إلى الغرفة .

وكانت المشكلة الأولى هي العثور على وسيلة أكسب بها معاشي . وبدا لي الأمر كما لو كنت قد وجدت الحل في ليلتي الأولى في باريس . رأيت اعلاناً عن مجلة أمريكية جديدة تدعى « باريس ريفيو » . وذهبت لزيارة المسؤول عن المجلة في شارع جارانسيير ، فظهر أنه أمريكي شاب حاد المظهر والسلوك يدعى جورج بليمبتون . واقترح جورج أنه يمكنني أن أبيع الاشتراكات في « باريس ريفيو » على أن أحتفظ لنفسي بحصة كبيرة من قيمة الاشتراكات . وأمدني بقائمة بأسماء الأمريكيين الذين يقيمون في باريس وبخريطة للمدينة . وبدت هذه الفكرة فكرة ممتازة . فقد كان المفروض أن قيمة الاشتراك ألف من الفرنكات (أي حوالى الجنيه الواحد في عام ١٩٥٣) يمكنني أن أحصل منها على أربعمائة فرنك . وكان معنى هذا أنه يمكنني أن أعيش إذا بعت اشتراكاً واحداً أو اثنين كل يوم . وعدت مرة أخرى إلى شارع باين وأنا في حالة عقلية بالغة المرح والابتهاج .

واكتشفت في اليوم التالي أن هذا العمل سيكون أكثر صعوبة مما توقعت . فعرفت في البداية أن العناوين التي تضمها القائمة كانت متباعدة وتفصل بينها مسافات كبيرة ، وكان علي إما أن أتكلف الكثير في ركوب الباصات ، أو أن أسير على قدمي . وثانياً ، ظهر أن قليلاً جداً من الأمريكيين هم الذين يمكن أن يهتموا بمجلة أدبية جديدة .

وبعد يوم طويل من العمل ، والسير لمسافة تبلغ العشرين ميلاً في الحر الشديد ، كنت قد بعت اشتراكاً واحداً ولكنني كنت قد أنفقت حوالى ألف فرنك على الباصات والمشروبات الباردة . وحينما كنت أعثر على رقم تليفون لأحد العناوين ، كنت أتصل بهم ، ولكنني اكتشفت أن هذه الطريقة في الاتصال لم تكن مسرفة النجاح ، فقد كان من السهل جداً بالنسبة للزبون المحتمل أن يرفض الاشتراك . وطلب مني أحد الأمريكيين أن أتصل به مرة أخرى في مكتبه في اليوم التالي . ولكن تصادف أن كان عنوان بيته قريباً جداً من شارع باين ، وهكذا فقد توجهت اليه سعياً وراء فرصة أن أبيع له اشتراكا في طريق عودتي . وحينما جاء إلى الباب وأخبرته بعملي صاح بي : « أظنني قلت لك أن تأتي إلى مكتبي ! من تظنني بحق الجحيم ! إذا كنت تريد رؤيتي ، فسوف تفعل هذا بطريقتي ! والآن ، اخرج من هنا ! » . وصفق الباب في وجهي . ووقفت في مكاني ، شاعراً بنفس الكراهية التي شعرت بها ذات مرة إزاء مديرة لأحد المنازل في كورتفيلد جاردنز ، ورحت أدعو الآلهة أن تنزل به أكثر صور الموت المحتملة شراً وبؤساً . وعدت إلى البيت وأنا أتساءل عن السبب الذي يجعل الأمريكيين أكثر الناس وضاعة ووقاحة على الأرض ، وفي نفس الوقت أكثرهم لطفاً وجاذبية .

وبعد بضعة أيام اكتشفت عدة وسائل لزيادة دخلي . وكانت أكثرها فائدة هي أن أبيع نسخاً منفردة من مجلة « باريس ريفيو » لمن يمكن أن يشتركوا فيها والذين يريدون أن نفسح لهم فرصة كافية لاتخاذ قرار بشأنها . وكان أكثر الناس يرفضون أن يدفعوا اشتراكاً لمدة سنة كاملة ، ولكنهم كانوا يشعرون بالسعادة إذا اشتروا نسخة من عدد واحد . وعلى مدى الفترة التي استمرت هذه الوظيفة فيها ، كان سلوكي هذا سلوكاً غير مشروع ، ولكن كان من الضروري لي أن أعيش وشعرت

بأن جورج بليمبتون قد أساء معاملتي فيما يتعلق بالأرباح التي وعدني بأن أحصل عليها .

وبعد أسبوعين من وصولي كتبت لورا إليّ لتقول إن بيل هوبكينز ربما يكون في طريقه إلى باريس لكي يبحث عن مطبعة فرنسية لمجلة «ساترداي كريتيك» . وأمضيت اليوم التالي في غرفتي آملاً أن يمرّ علي . وسعدت بما فيه الكفاية لهذه الفرصة التي أتاحت لي العودة إلى قراءة الشعر ومسرحيات شو ، لأنني كنت أحتقر وظيفتي . ولكن لم تصلني منه أية اشارة ، وهكذا فقد غادرت الحجرة في اليوم التالي . تركت له مذكرة على الباب لأقول له إنني سأعود في السادسة . (ومع ذلك لم يأت أحد ، فبقيت في الغرفة في اليوم التالي ، ورحت أقرأ طول اليوم) . وعندما اقتربت الساعة من الثامنة سمعت طرقة خفيفة على الباب . وكان الطارق صديقاً من لندن يدعى فيليب نين قال لي إنه وبيل هوبكينز ظلا ينتظران عند الباب على السلم طوال فترة بعد الظهر . كانا قد وصلا في منتصف النهار وشاهدا المذكرة (التي كنت قد نسيت أن أنزعها) فافترضا أنني لم أكن بالمنزل .

وابتهجت لرؤيتهما لأن باريس كانت قد وضعتني في حالة عقلية سيئة وانهزامية . وكان بيل كعادته حاساً وقوياً . ولكنه لم يكن يملك مالاً هو الآخر . أما فيليب فكان عليه أن يعود إلى لندن في اليوم التالي – فقد كان مجيئه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع – واكتشفنا اننا لا نملك ، بالاضافة إلى ثمن تذكرة ، إلا ما يكفي لمبيتنا معاً . وقرر بيل أنه سيبقى في باريس وأن يبيع معي الاشتراكات حتى نحصل على ما يكفي من المال لعودتنا إلى انجلترا . وقال إن الأمور لا بدّ أن تتغير الآن ، فلم يكن الأمر يحتاج إلا إلى أن نزيد من سرعة المبيعات قليلاً لكي نصبح من الأغنياء .

وقد برهن في هذا الصدد على أنه كان مسرفاً في تفاؤله . وجربنا

الاتصال بكل عنوان لأمريكي يقطن في حي الشانزليزيه ، وبعنا ست نسخ من المجلة ، وحصلنا على اشتراك أو اثنين . ولكن بيل كان لا يكف عن التدخين ، وكنت أنا آكل كميات كبيرة من الشوكولاتة ، وهكذا فسرعان ما اختفت النقود ، بما في ذلك نصيب جورج بليمبتون من ثمن الاشتراكات . وقابلنا جورج ذلك المساء ، ووضحنا له أننا كنا مضطرين إلى أن « نقترض » النقود ، وسلمناه عناوين المشتركين الجدد . ورأينا أيضاً محرر المجلة الانجليزية الصغيرة « ميرلين » ، وقابلنا كريستوفر لوجي للمرة الأولى ، وقررنا أن نضيف مجلة « ميرلين » إلى حملتنا لبيع الاشتراكات ، وزودنا أنفسنا بحمل كبير من أعداد المجلة . وكان علينا أن نفرض على الناس اشتراكات مجلة « ميرلين » ، مثلما كنا نفعل مع اشتراكات مجلة « باريس ريفيو » لكي نقتات ، ولكننا لم نشعر بالجوع الشديد .

واشتركنا في غرفة شارع باين ، وتناوبنا النوم على الفراش . وكان بيل من عشاق العمل في الليل ، فكان غالباً ما يكتب على الآلة الكاتبة في روايته « زمن الكليات » حتى الساعة الثالثة صباحاً ، ثم يوقظني ويصر على أن يتمشى في شوارع البولفارد الخالية . وفي مناقشاتنا الطويلة التي استمرت على مدى أيام بكاملها حول مزاجينا ومنهج كل منا ، تحدث كل منا بصراحة فعبّر عن رأيه السيء في طريقة الآخر . وشعرت بامتعاض غريزي ، أن بيل كان يتصرف معي كما يتصرف الشخص الكبير مع زميله الصغير لكي يرعاه ويحميه . ولما كنت قد عملت طوال سنوات على أساس أنني الكاتب العبقري الوحيد الذي يعيش في أوروبا فقد أدهشتني طريقته في التصرف معي . وقد أسعدني بما فيه الكفاية أن أنظر اليه باعتباره الكاتب الوحيد صاحب العظمة الحقيقية الذي قابلته في حياتي ، ولكن ادراكي أنه لم يكن ينظر إلي على نفس الضوء كان شيئاً مزعجاً . وبالتالي فقد كنت حريصاً بكل ما وسعني على

الوقوف عند الأخطاء التي تشوب كتابته ، وعند افتقاره إلى النظام الصارم ، والوقت الذي يضيعه في محاولة التأثير على الناس بصورة مباشرة — إما عن طريق الحديث والحوار ، وإما في المجلة — بدلاً من التركيز على خلق أعمال كبيرة . وأعلن هو بدوره أنني شديد الذاتية ومنطو على نفسي ، وأن هذا هو ما يكشفه خوفي من أن يتحطم اقتناعي بتفوقي إذا ما اقتربت من الناس . واستمر نقاشنا لمدة أيام ، وانتهينا بالوصول إلى اتفاق ما ، على أن يعترف كل منا جزئياً بعدالة النقد الذي وجهه إليه صاحبه ، واتفقنا أيضاً على أن مرحلة جديدة في الأدب الحديث قد بدأت حينما اتفقنا على تكوين جبهة مشتركة بيننا . ومن المؤكد أيضاً أن جوانب سوء الفهم بيننا قد أزيلت واتضحت أسبابها ونتج عن هذا احساس حقيقي بالتفاؤل . ودائماً كنا نحتفل بنهاية يوم طويل من بيع الاشتراكات بعدد قليل من النبيذ الرخيص على حساب مجلة « باريس ريفيو » .

ورغم كل شيء فإن هذا لم يؤدّ إلى تألق حظ « ساترداي كريتيك » . وهكذا ، فبعد عدة أسابيع من العمل في روايتينا المشهورتين ، وانفاق جانب كبير من الوقت في الشرب مع مجموعة مجلة « ميرلين » في « كافين تورنون » ، قررنا أنه لا بدّ من اللجوء مرة أخرى إلى القنصلية البريطانية لكي تسهل لنا أمر العودة إلى الوطن . وكان هذا إقراراً صعباً . كنت قد جئت إلى باريس وقد عقدت النية تماماً على أن أعيش هناك . وكان لوجي وبقية كتّاب مجلة « ميرلين » قد ساعدونا على كسب القليل من المال عن طريق تدريس اللغة الانجليزية ، وقدموا لنا بعض النصائح المفيدة . (وحينما وصل كلود جيوم دون انتظار إلى شارع باين ذات يوم ، أمضى بيل الليلة التالية نائماً — أو محاولاً أن ينام — على الأرض في مكتب لوجي ، ومصغياً إلى بعض النصائح المفيدة ومتتابعات السوناتات الموسيقية حتى الفجر ، وأعتقد أن هذا قد أسرع

باتخاذ قرار العودة إلى انجلترا) .

وهكذا فقد عدت في أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) ، بعد أن قضيت شهرين لا غير في باريس . ولم أكن متحمساً للذهاب إلى لندن وعلى أي حال فلم يكن لدي من النقود ما يكفي لاستئجار غرفة . وبقيت لعدة أيام مع شاب مجري كنت أعرفه ، واسمه ألفريد رينولدز كان قد انتقل حديثاً إلى منزل في منطقة دوليس هيل . وكان رينولدز يرأس مجموعة سياسية ذات ميول إنسانية تدعى « بريدج » أو « الجسر » ، ويبشر بانجيل قوامه التسامح المطلق بين مجموعة من الشباب مرة كل أسبوع . وبقيت مدة أتاحت لي فرصة حضور لقاء واحد ، فقررت أن هذا النوع من التسامح لا يملك شيئاً يعلمني إياه ، فعدت إلى ليسستر . ووجهني مركز تبادل العمل إلى محل « لويس » وهو أكبر محلات البيع للمستهلكين في وسط المدينة ، وكانوا يحتاجون إلى بائع مؤقت في فترة الزحام في أعياد الميلاد ، فعينت في قسم بيع السجاد .

كنت قد جئت إلى ليسستر آملاً بصورة غامضة أن يكون القدر قد غيّر سياسته معي . وبدا لي أنني كنت أعيش كجوال لا يقنع منذ وقت يمتد إلى أبعد ما أستطيع أن أتذكر ، فإما أن التحق بوظائف لا قيمة لها أو أن أتجول دون غاية محددة . وشعرت بأنني قلق متردد أبدي . ومع هذا فإن ذلك لم يكن بسبب أن لي مزاج الصعلوك أو البوهيمي . كان كل ما أريده هو حجرة مليئة بصنوف الكتب وما يكفي من المال لكي أعيش على الطماطم المحفوظة والبيض المسلوق . ولكنني حتى الآن ، وطوال سنوات ، كنت أعيش نمطاً واحداً متكرراً من الحياة : واجداً نفسي في مواقف تتزايد وطأتها باستمرار ، ثم أهجر كل شيء ، ثم أجد نفسي مرة أخرى في موقف يتحول إلى وضع مؤلم من جديد . كانت المشكلة ، فيما أعتقد ، هي انطوائي على نفسي . فالحياة في المجتمع الحديث تعني الاختلاط بالآخرين ، ولم

أكن أريد هذا . والوظائف القليلة التي استمتعنا بها حقاً كانت هي الوظائف التي سمح لي فيها بأن أعمل بمفردي — وفي مصنع فريزر وجلاس في نورث فينشلي ، كنت أعمل في غرفة لرش السوائل على بعد نصف ميل من المصنع الرئيسي ، فلا يقع بصري على أحد غالباً طوال اليوم . وحينما كنت أعيش مع دوروثي ، كنت قد بذلت محاولة من أجل الاستقلال ، وابتاعت هي نولاً صغيراً وحاولنا أن نقيم مشروعاً لصنع المنسوجات الصوفية الصغيرة ، وأنفقت أياماً في التجول بين أكبر محلات البيع في لندن ، محاولاً أن أجد سوقاً لهذه المنسوجات ، ولكنها كانت أغلى من أن تباع بسعر يحقق أي ربح . وهكذا فقد بدا لي أنه كان من المقدر لي أن أستمر في العمل لحساب أناس آخرين ، ثم أتخلى عن إحدى الوظائف كل أسبوعين .

ومع ذلك فإن العمل في محل لويس لم يكن مثيراً للاشمئزاز ، واستجوبني المدير لمدة نصف ساعة في صباح اليوم الذي تقدمت فيه للالتحاق بالعمل . وكان من الواضح أنه لم يكن مطمئناً إلى شخص مثلي تجوّل مثلما تجوّلت . ولكنه انتهى إلى السماح لي بالعمل على أساس مؤقت ، رغم انني لم أكن « محترماً » بصورة واضحة ، ولم أكن أملك حتى « بذلة » أرتديها . وبدأت العمل في قسم السجاد ، ووجدت فيه متعة كافية ، وجعلنا زحام عيد الميلاد مشغولين ، وظلت مكبرات الصوت تذيع أغاني العيد طوال اليوم ، وراق لي زملائي الآخرون من البائعين في القسم .

وأنفقت يومي الأول هناك في حجرة للدرس في أعلى المبنى لكي أتعلم كيفية استخدام آلة لتسجيل حساب الأسعار والنقود . وكان هناك اثنان آخران تحت التمرين ، أولهما شاب عادي المظهر نسيته تماماً ، وكان الثاني ضابطاً شاباً من ضباط الجيش يدعى مارتين هالليداي ، كان

يتمتع بوجه حاد الملامح ، وشعر أشقر قصير ، ولكنة أشبه بلكنة تلاميذ المدارس العامة .

ولكنني وجدت أن الفتاة التي تدربنا على استخدام آلة الحساب أكثر جاذبية واثارة . وإذ كانت تصعد إلى حجرة التدريب بالمصعد ، بدت لي فجأة وبصورة غامضة كما لو كانت تنتمي إلى نفس نوع دوروثي ، رغم أن الوجه البيضوي ذكرني بسيلفيا . لم يكن وجهها جميلاً بصورة خاصة من الجانب ، ولكن هذا لم يكن صحيحاً إلا إذا لم تكن تبتسم ، فقد كانت عيناها وابتسامتها هي ملامحها القوية بالتأكيد . راق لي صوتها ، كان صوتاً ناعماً ورقيقاً متحرراً من أي لكنة محلية ، ولكنه أيضاً كان مشبعاً بنفس الغنة الأنيقة التي تميل إليها أصوات نساء الطبقة العليا .

كنت أكثر اهتماماً بمراقبتها مني بالاستماع إلى ما كانت تقوله عن الآلة الحاسبة . كانت نحيفة ، وأطول قليلاً مما ينبغي لفتاة ، ولها طريقة رشيقة في التحرك . وقد لاحظ زميلنا العسكري القديم فيما بعد أنه أحب الطريقة التي كانت ساقاها تتباعدان بها تباعداً خفيفاً ، ثم تحول عن الحصر لكي يشير إلى المنصة من خلفها ، كان ظل المنصة يجعل خطوط القميص الأسود تمتد عبر الفخذين بطريقة مثيرة ، حتى أن المرء لم يكن بوسعه أن يمتنع عن التفكير في شكلها بدونه ، وأظن أنني لاحظت خاتماً للزواج في اصبعها ، وأذكر أنني فكرت في أنها لا بد تمنح زوجها متعة عظيمة . وكانت السيدة المشرفة على قسم التدريب تناديها باسم « مس ستيوارت » ، ولكن هذا لم يكن يعني شيئاً طالما أن كل الفتيات كن ينادين بلقب « مس » .

وفي وقت الغداء ، تناولت الطعام في مقصف العاملين مع هالليداي ، ووجدته مثيراً للاهتمام . كان هو الآخر يتمتع بمزاج الجوّال الشبيه بالصخرة المتحركة . كان قد أمضى ثلاث سنوات في الجيش ، بعد

الحرب بالطبع – بعد أن كان قد تلقى تدريبه في ساند هيرست . كان قد أحب الجيش ، فقد كانت فكرة النظام تروق له . وكان المدنيون يظهرون له بمظهر الفوضى الكاملة . (كان يحملق إلى ذقني باستنكار ، فلم أكن قد اهتممت بحلاقتها ذلك الصباح) . وكان يشك في أن الحياة كمدني توشك أن تكون حياة خالية من التحدي إلى درجة مزعجة .

وتناقشنا في أمر مدرّستنا ، فأخبرني بأن اسمها هو « جوي » ، وأنها صديقة لفتاة كان هو يأمل في ذلك الوقت أن ينام معها – وهي مدربة أخرى تدعى بات . وكان من الواضح أن جوي ليست متزوجة ، ولكنها كانت مخطوبة لشخص ما كانت تدرس معه في الجامعة وكانت تتوقع أن تتزوجه سريعاً (ولا بدّ أنني أخطأت فظننت خاتم الخطوبة خاتماً للزواج) . وكان هذا يقترب مما توقعته ، فالفتيات من مثيلاتها لا يتركن لشأنهن لمدة طويلة . وكانت جوي وخطيبها ينويان الرحيل إلى كندا حيث يتزوجان .

وفي ذلك المساء ، وعند مغادرة العمل ، اقترح هالليداي أن نذهب لكي نشرب شيئاً . ولم يكن معي الكثير من النقود ، ولكن كان بوسعي أن أدفع ثمن كأسين من الجعة ، فذهبنا إلى الفندق المقابل لمحل لويس . وحينما شرب كل منا كأسه ، بدا عليه الاسترخاء وصار أكثر سعادة . وقال لي أن أدعوه باسم فلاكس – وكان من الواضح أن اسم تدليله هذا مستمد من لون شعره – فطلبنا كأساً أخرى . ولكن أصر هو الآخر على أن يشتري كأسين من الويسكي . وكان من الواضح أنه يفتقد صحابته في مقصف الضباط ، وكنت أنا بالنسبة له اختياراً ثانياً ، ولكني أفضل من لا شيء .

وعلى الفور بدأ نوع من صراع « إرادة القوة » فيما بيننا . ووافقت

على أن النظام شيء هام ، ولكنني أظهرت رفضي للقوات المسلحة ولكل ما يتعلق بها . فالنوع الوحيد من النظام الذي يهم حقاً هو النظام الذاتي الذي يفرضه الرجال المخلصون لشيء ما على أنفسهم . وقد أثبت ت . ي . لورنس أن الإرادة الذهنية للقوة يمكن أن ترتفع إلى مستوى الأغراض المادية ، ولكن الإرادة البدنية للقوة لا تستطيع أن ترتفع عن مستواها المحدود الخاص . ولم يتفق فلاكس معي ، وقال إنه لم يقابل مثقفاً أبداً ولم يكن أيضاً شخصاً بالغ الوهن خائر العزم . ومضينا في النقاش وانتقلنا إلى حانة أخرى حيث أكلنا بعض الشطائر دفع هو ثمنها — فقد كنت أفلست تماماً . ووجدت أن تصوره عن القوة تصور مثير للاهتمام . وقال إن بعض ضباط الجيش ، من أبناء الأغنياء أو ذوي الألقاب الكبيرة والرتب ، كان يبدو عليهم أنهم يصدرون الأوامر دون مجهود ، وأنهم كانوا يطاعون لا لشيء إلا لأنهم كانوا يرون أن طاعتهم شيء من قبيل المسلمات . وفي أحد الأيام في المقصف ، صاح به من بعيد ابن أحد الدوقات قائلاً : « هالليداي ، هات مزيداً من المشروبات » ، وكان في طريقه عائداً بالمشروبات المطلوبة قبل أن يدرك أن طريقة الطلب كانت بعيدة عن الأدب ، وأن عليه أن يستاء وأن يرفض .

كان ذكياً : ولم يكن يمكن الشك في هذا . وأجبته — ونحن في حانتنا الثالثة — بأن الوجود المادي مجدب ومكرور ، وأن قوة العقل وحدها هي ما تستطيع أن تترك علامة دائمة على الوجود الإنساني . وحينئذ بدأ في شرح نظريته الميتافيزيقية الخاصة : أن الخبرة المكتسبة لا تضيع ، وأن نوعاً من الجهــاز الحاسب الكوني يقوم ، بطريقة غريبة ما ، بتخزين الخبرة المستمدة من كل تقدم تلقائي يقوم به أي مخلوق حي ، وأن هذا الجهاز الحاسب قد يكون هو ما يدعوه الغيبيون باسم « الله » . وكان هذا نوعاً غريباً من النزعة المثالية الأحادية ،

ليست بعيدة الشبه بفكرة الألوهية عند سمَطْس[1] أو عن فكرة هوايتهيد[2] عن الحقيقة المطلقة ، ولكنه لم يكن قد قرأ سمَطْس ولا هوايتهيد .

واقترح أن نعود إلى مسكنه ، حيث كان لديه بعض زجاجات الجعة . كان منزلاً في منطقة نيويووك ، على مقربة من مركز مدينة ليسستر . وكانت الغرف العليا غير مسكونة ، أما فلاكس فكان يعيش في غرفة واحدة متصلة بمطبخ في الطابق السفلي . ووقفنا في الغرفة العلوية وسط الظلمة الباردة لكي نراقب المرأة في المنزل المقابل وهي تخلع ملابسها . وقال لي إنها تفعل الشيء نفسه دائماً في مثل هذه الساعة تقريباً كل يوم دون أن تسدل الستائر وأنه يشك بقوة في أنها تعرف أنه يراقبها . وقد حدث في الحقيقة أنها حينما انتهت من ارتداء ملابسها ، أضاء هو النور على الفور قبل أن نهبط إلى الطابق الأسفل لكي نتناول شطيرة ونشرب مزيداً من الجعة . ومضى في شرح نظريته الأساسية في القوة : كانت فكرته هي أن القوة التي تجذب المجتمع وتشده بعضه إلى البعض ، هي الارادة السائدة بين البشر ، وأن هذه الارادة ذات طبيعة غيبية في جوهرها ، واستشهد بهتلر كمثال على ذلك ، ثم أعطاني في النهاية نسخة من كتاب « كفاحي » وكتب عليه : « من هالليداي إلى ويلسون » . كان يشعر بأن أساس المجتمع الحديث متعفن ، طالما أن حضارتنا توفر ما يكفي من التحدي لأصحاب القوة والعزم من

---

١ سمطس – جان كريستيان ، ١٨٧٠ – ١٩٥٠ ، قائد مشهور في حرب البوير ضد البريطانيين، ثم نظم قوات جنوب افريقيا في الحرب الأولى ، وأصبح فيلد مارشالا في الجيش البريطاني في الحرب الثانية ، أشتهر بخيانته للبوير ، وانضمامه للبريطانيين ، ونزعته الفاشية ضد الافريقيين، وعدائه للألمان بسبب عدائه للهولنديين وصداقته للانجليز . (هـ. م.)

٢ هوايتهيد ، الفريد نورث (١٨٧١ – ١٩٤٧) فيلسوف ورياضي انجليزي بارز له ميل نحو الصوفية . شغل عدة مراكز علمية بارزة في الجمعيات الفلسفية الانجليزية ، وعرفه جمهور القراء بكتابه « العلم والعالم الحديث » عام ١٩٢٥ .

الرجال ، والإنسان لا يمكن أن يتطور إلا من خلال التغلب على سلسلة من التحديات المتعاقبة مثل درجات السلم . وتحدث باعجاب عن مجموعة معينة من الضباط كانوا يلعبون لعبة الروليت الروسي بمسدس ، أو يبرهنون على أنهم ليسوا سكارى بأن يفردوا أكفهم متباعدة الأصابع فوق منضدة خشبية ثم يغرزون خنجراً صغيراً بين الأصابع وينزعونه بسرعة فائقة مرات كثيرة . وقال لي إن أحدهم أخطأ ذات مرة فثبت يده بالخنجر المغروز فيها إلى المائدة . وأخرج أمامي مسدس الجيش الخاص به ، وقال لي إنه لعب به الروليت الروسي ذات مرة . وحينئذ، بينما كان يجلس أمامي مصوباً مسدسه ، طلب مني بطريقة عابرة أن أناوله غليوناً كان ملقى على الأرض بجوار مقعدي . وحينما انحنيت فوقه ، سمعت انفجاراً مروعاً ، وتناثرت شظايا الخشب من الصوان بالقرب من أنفي . وتناولت الغليون وناولته إياه كما لو أن شيئاً لم يحدث. وقال وهو يحملق في فوهة المسدس التي يتصاعد منها الدخان : « هَمْ.. أعصابك جيدة ! » .

وقادتنا مناقشة إرادة القوة إلى مناقشة الجنس ، وهو الموضوع الذي كان يسحره أكثر من أي موضوع آخر . وقال مفسراً وجهة نظره إن الذكر الصحيح الجسم هو حصان تلقيح بالطبيعة (وهذه نظرة كان بيل هوبكينز جديراً بأن يلتقي معه فيها) . إن لدى النساء سحراً يلمس أعمق أوتار رغبته في الغزو والانتصار . (وكنت قد جعلت يسوع يسأل في قصتي عن الصلب : « وما الحياة دون غزو وانتصار ؟ » .) ولكن أحداً لم يكتب أبداً عن جانب الجنس هذا بأمانة — وبالتأكيد لا لورنس ولا جويس . (ولم يكن قد قرأ روبرت موزيل) فالفنانون ليسوا مؤهلين للكتابة عنه لأنهم ضعفاء وعاطفيون بشكل أساسي . فمن الذي كتب بأمانة حقاً عن تفاصيل الاغواء ، ودقائقه الجسمانية ، وعن الطريقة التي قد تسمح بها فتاة لرجل بأن ينفذ بيده إلى وسط قميصها

من الظهر بينما يقبّلها ، فإذا لم تكن ترتدي قميصاً فمن خلال المطاط الذي يربط سروالها الداخلي . إن هذا التصرف يبدو لها طبيعياً ، بينما تبدو لها محاولة مداعبة صدرها أو فك « سحاب » قميصها شيئاً مخيفاً إلى درجة التقلص الكامل . فإذا كان رباط وسط القميص واسعاً بما فيه الكفاية ، فإنها قد تسمح له حتى بأن يلاطف أردافها وفخذيها دون أن تشعر حتى ذلك المدى بأنه يذهب إلى أبعد مما ينبغي له . وبنفس الطريقة فإن الفتيات يشعرن بحرية أكبر في السماح للرجال بتقبيل صدورهن مما يشعرن بها إزاء محاولة الرجال لملاطفة صدورهن بالأيدي . إن فتـــاة خجولة ترتدي ثوباً للسباحة لن تشعر بالخوف الشديد إذا سمحت للرجل الذي قبّلها قبلة الوداع في المساء بأن يضع رأسه على صدرها ثم يدير رأسه فيقبّل نهديها بشفتيه ، ثم يزيح حمالة الثوب جانباً حتى يستطيع أن يرضع الحلمة ...

(وقد وضعت فيما بعد صورة لفلاكس في أحد كتبي واسمه « عالم هافاجرين العنيف » وضمنته بعضاً من نظرته الجنسية ، ولكن الناشر نزعها من الكتاب) .

وتركته بعد أن كان آخر باص قد رحل ، ومشيت إلى البيت وأنا أترنح . كان قد ذكرني ببعض الضباط الروس الذين وصفوا في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر : من أمثال هرمان عند بوشكين ، ودولوجوف عند تولستوي ، وبتشورين عند ليرمونتوف . والشيء المتميز بصورة أساسية في هؤلاء الثلاثة هو أنهم كانوا شخصيات تراجيدية . لقد كان فلاكس رومانتيكياً من القرن التاسع عشر بقدر ما كان جيرالد .

* * *

وشعرت بالأسف لأن مرحلة تدريبنا القصيرة قد انتهت ، طالما أن هذا كان يعني أنه لن تتاح لي فرصة أخرى لرؤية جوي ، ولكن في فترة استراحة تناول القهوة في ذلك الصباح ، كنت أجلس مع فلاكس حينما دخلت . وطلب منها فلاكس أن تأتي لكي تجلس معنا . وتكلمت قليلاً ، كنت أكثر اهتماماً بأن أصغي إلى نغمة صوتها ومراقبة ابتساماتها التي كانت تصنع في وجهها مثلما تصنعه الشمس الساطعة في سطح بحيرة تمر من فوقها . وبدا فلاكس كما لو كان معتاداً على التحدث معها ، كان يخاطبها باسمها « جوي » وسألها عن صحة « الباحث عن الصخور » — وكان من الواضح أن خطيبها جيولوجي . وأذكر أنني كنت أنظر اليها وأفكر : منذ بضعة سنوات كنت جديراً بأن أترك نفسي لكي تستسلم تماماً لسحرها . أما الآن فقد كان لدي ما يكفي من الانضباط الذاتي لكي أعرف أنه لا هدف هناك من أن يريد المرء شيئاً لا يستطيع أن يأخذه . كنت أحسد فلاكس على شقته التي يعيش فيها بمفرده عيشة الأعزب ، كان بالفعل يضع تفاصيل خطة حملته لاغواء بات صديقة جوي على مراحل متعددة سهلة . وكانت الخطوة الأولى هي أن يدعو جوي لكي تشاركنا في تناول شيء من الشراب ، ثم يدعوها إلى الشقة بعد ذلك . ثم يمكن أن تدعى بات هي الأخرى . وحينئذ يمكن أن توجه الدعوة إلى الفتاتين لكي يقضيا عطلة نهاية الأسبوع هناك .

وحين تركنا فلاكس وحيدين لفترة قصيرة ، سألتها متى غادرت الجامعة ، فقالت إنها غادرتها منذ عام . وسألتها : « إذن ، فما سنك ؟ » . وكنت أتوقع أن تقول لي أن أهتم بشغلي ولا أتدخل في شؤون الآخرين ، ولكنها قالت : « واحد وعشرون » . ودهشت . فقد كنت أتوقع أن تكون في منتصف العشرينات ، ربما لأنها ذكرتني ببعض جوانب من دوروثي ، وربما بسبب الثبات والثقة اللذين بدت أنها تتمتع بهما . ولو أنها كانت أصغر مني ، فربما لم يكن هذا الثبات

سوى نوع من الجمود ، وربما أمكنني أن أترك بها انطباعاً من نوع ما رغم كل شيء . وطرأت لي فكرة في فترة تالية من نفس ذلك اليوم . فلم لا أنظم نوعاً من استعراض عيد الميلاد — وربما كان اخراجاً لـ « استعراض القرن العشرين » ذلك الذي كتبته للفوضويين أو مسرحيتي « برعم زهرة المعدن » — ثم أحاول أن أقنعها بأن تقوم فيه بدور ما ؟ ربما أعانني هذا على رؤيتها دون أن يكون علي أن أعتمد على فلاكس . كنت قد شعرت بالفعل أنه قادر على أن يكون متقلباً وصاحب نزوات . وفي أقرب فرصة تالية ، اقترحت الفكرة على المدير ، فوافق على الفور ، على شرط أن يسمح له بأن يرى المخطوط . وبعد ذلك عرضت الموضوع على جوي ، فبدا عليها الشك . وقالت إنها لا تستطيع أن تمثل ، ولكن ربما أمكنها أن تقوم بدور صغير . ضحكت جذلاً ، واستخدمت التعبير المفضل عند بيل عن الوغد الذي يلوي شاربيه على التوالي ويحك إحدى يديه في الأخرى .

* * *

وذهبت لرؤية دوروثي في بيتها بالقرب من هينكلي ، ودار هناك حديث غامض عن الحياة المشتركة مرة أخرى ، ولكن حينما تنكسر علاقة ثم يلصق نصفاها مرة بعد مرة مثلما حدث لعلاقتنا ، فإنها لا تكون ذات نفع ولا أمل فيها مثل القصعة المثقوبة . وأنا لم أذكر هنا عدد المناسبات التي انتهت فيها محاولات الصلح إلى مشاجرات أبعد عمقاً — فعلى سبيل المثال ، وحينما كنا قد وضعنا بعض الخطط لكي نعيش معاً مرة أخرى ، ثم أخذت أبني لرؤية ميليسنت ، وكنت قد افترضت أن الضغينة القديمة قد تم نسيانها ، ولكن حين أخبرت دوروثي أين كنا ، اختطفت مني رودريك ولحقت بأول باص عائد إلى هينكلي . وإذ أفكر الآن في هذه المشاجرات المختلفة ، أكتشف فجأة سببها

الأساسي . لقد كان ذلك نوعاً من الاستبصار أدين به لفلاكس . كانت المسألة مسألة سيطرة . فأعتقد أنني ورثت عن أبي أن أكون شديد السيطرة . ولكن تقدمها علي في السن بعشر سنوات ، بالاضافة إلى سنوات استقلالها ، قد أنمت لديها نوعاً مكتسباً من السيطرة ، كان كدرع تحميها من العالم أكثر مما كان شيئاً طبيعياً . وقد طغت هذه السيطرة على شخصيتها المفطورة على الأنوثة والضعف . لقد كانت دوروثي التي أحببتها هي جوهرها الأنثوي ، أما دوروثي التي تشاجرت معها فقد كانت هي الذات المسيطرة المضادة .

وأفكر الآن في مسألة السيطرة هذه فتبدو لي مفتاحاً لجانب كبير من الوجود الإنساني . لقد كانت صراعاتي الداخلية في سني مراهقتي راجعة إلى محاولتي لتحويل سيطرتي إلى الداخل ، إلى أفكار . أما ثقل موهبتي الأدبية — وحتى ذلك الحين كان من الواضح أنها أثقل من موهبة أي شخص اتصلت به — فقد كان راجعاً إلى هذه السيطرة المتحولة إلى أفكار . لقد كنت مثل فلاكس ، أملك اتجاهاً طبيعياً لأن أشعر بأن كل الفنانين والمفكرين هم من المخنثين الجبناء . ولقد كنت في طفولتي مقاتلاً جيداً وقائداً بالطبيعة ، رغم أنني كنت أكره الرياضة . ولقد كان من المحتمل في ظروف مختلفة أو في عمر مختلف أن أتطور بصورة طبيعية إلى رجل من رجال الفعل والحركة . لقد تحولت السيطرة إلى الداخل ، وأصبحت معتدلاً من الخارج وغير ميال للشجار . وهكذا فقد أتلاءم بسهولة مع الأعمال العادية ، وفي البداية كان رؤسائي يُسرّون لذكائي الذي كان جديراً بأن ينبئ بأنني سأتقدم إلى درجة بعيدة . ولكن السيطرة كانت تمنعني من التلاؤم مع العمل العادي : ولم تدفعني إلا إلى احتقار من أعمل معهم ، الذين كانوا يعبّرون عن رد فعلهم في صورة كراهية طبيعية ، حيث لا يدركون مني إلا مظهري الخارجي المعتدل .

ومن الواضح أن الأعراض المتزامنة للسيطرة كانت تفسر علاقتي المعقدة مع بيل هوبكينز ، وكانت تفسر أيضاً علاقتي مع جيرالد — وأسباب فشلها ، وهي التي تفسر أيضاً السبب الذي جعلني أجد في فلاكس شخصاً ممتعاً . كان الواحد منا يسلي الآخر بلعبة الارادات المتصادمة ، بطريقة تشبه مباراة ودية في الملاكمة . وفي كل مرة كنت أنظر إليه فيها كان باستطاعتي أن أرى أنني كنت جديراً بأن أصبح مثله لو نشأت في ظروف مختلفة ، وربما لو كنت قد ولدت لأبوين من الطبقة المتوسطة .

ومن المؤكد أن أعراض السيطرة كانت تفسر السبب الذي جعل شو يمثل بالنسبة لي من المعاني أكثر بكثير مما مثله أي كاتب آخر ، فإن كل مسرحياته تدور حول تصادم الارادات . وهناك مسرحية له بوجه خاص ، هي «ميجور باربارا» تدور حول الصدام بين رجل كانت قد توجهت مباشرة إلى الناس الآخرين ، وبين رجل كانت سيطرته قد توجهت إلى الداخل ، وتحولت إلى نوع من النزوع الذهني الثقافي . ومن المهم أن نلاحظ أن شو يكتب عن هذا الأخير قائلاً إن تلك «الصفة المزمنة ... قد أثرت في بنائه تأثيراً يمكن رؤيته» . ولحسن الحظ فان صحتي كانت ما تزال سليمة لم تمس ، باستثناء بعض المتاعب في المعدة ، ولكن كان من الواضح أنها لن تظل على سلامتها إذا استمر التوتر المزمن الناشئ عن عدم التحقق لمدة طويلة .

* * *

وفسرت لي نظرية السيطرة أيضاً السبب الذي جعل جوي تجتذبني إلى هذه الدرجة الهائلة . وبعد بضعة أمسيات من بداية عملي ،في محل لويس ، خرجت معنا نحن الاثنين لتناول بعض المشروبات ، وانتهى بنا الأمر إلى شقة فلاكس . ومن خلال الاحتكاك الوثيق بها ، كان

من السهل أن أرى أن الصوت الناعم والابتسامة الحلوة إنما يدلان على صفاتها الأساسية : رقيقة ، طيبة السريرة — ويا للعجب — على شيء من الغموض . كانت تبدو غير قادرة على الايذاء ، غير قابلة لأن يؤذيها شيء أو أحد . وفي لحظة ما من ذلك المساء ، سألها فلاكس بطريقة عابرة : « أما زلت عذراء يا جوي ؟ » وبدا عليها الارتباك ثم قالت : « هذا من الأشياء التي لا أتحدث عنها » ولكنها قالت ذلك دون تأنيب وبطريقة تكاد تكون اعتذاراً . كانت تنتمي إلى بيئة من الطبقة المتوسطة ، وكان والدها محاسباً ، وكانت قد التحقت بكلية ترينتي ، وجامعة دبلين ، وحصلت على درجة في اللغة الفرنسية ، (وهكذا فقد كانت ، من الزاوية التكنيكية ، متعلمة إلى درجة أفضل مني) ثم خُطبت لرجل أيرلندي ينتمي إلى نفس طبقتها وبيئتها . كانت رقتها البادية وثباتها من النوع الطبيعي ، وليس مكتسباً ، وكان ثباتها ورقتها يداريان حياءها . وكأنت على غراري ، قد قضت جانباً كبيراً من طفولتها منزوية في الأركان مع كتاب ، وحيدة . وكان من حسن حظها أنها كانت تمتلك هذا الثبات الطبيعي الذي أختفى نزعتها الرومانتيكية الطبيعية وجعلها تبدو مستريحة الأعصاب ، مؤثرة بكفاءة .

وحدث بعد خروجنا من العمل بعد ظهر اليوم الأول — وكان موعد الاغلاق مبكراً في ذلك اليوم ، أن دعوتها للمجيء إلى بيت ستانل روزنتال الرسام وقرأت لها الفصلين الأولين من مسرحيتي : « برعم زهرة المعدن » . وقالت لي إنها لم تستطع أن تتخيل أن يسمح مدير محل لويس بأن تعرض هذه المسرحية هناك (وقد ثبت أنها كانت على حق) ، ولكن هذه الأمسية أدت إلى الغرض المقصود وهو أن تضعني في علاقة مباشرة معها ، بدلاً من أن يكون علي أن أستخدم فلاكس كواسطة بيننا . ولم أستطع أن أدعوها إلى بيتي ، فمع وجود شقيقتي سوزان وأخوي باري ورودني ، لم يكن هناك مكان في المنزل

أستطيع أن أنفرد بها فيه ، رغم أن والدتي في السنوات الأخيرة كانت قد عملت على أن تؤثث الحجرة الأمامية التي كانت خالية دائماً في سنوات طفولتي ، إلى جانب أنهم كانوا يسعون إلى مصالحتي مع دوروثي ، فكان من الصعب أن تلقى جوي أي ترحيب .

وإنني لأذكر أنه في ذلك المساء ، وإذ كنا نغادر منزل ستانلي روزنتال ، فكرت وأنـا أنظر إلى جوي نظرة عابرة : « ترى ماذا يكون لو تزوجتها ؟ » ثم أحاول أن أتنبأ بصورة للمستقبل معها . لم يكن هذا سوى حلم يقظة عابر ، وبدا لي كما لو كان شاذاً عن كل ما كان من الممكن أن أفكر فيه .

وحدث بالتالي أن قدمتها إلى أصدقاء آخرين : إلى جيرالد (الذي كرهها ، ولكنه لم يكرهها بقدر ما كره سيلفيا) وإلى موريس وإلى فريدا ويللوز وإلى جون كراب ، وكنت قد تعرفت عليه حديثاً — وهو رجل في مثل سني ولكنه كان يبدو في الأربعين على الأقل وله شارب صغير وعينان متواضعتان كعيني مستر بوللي في إحدى روايات ويلز . وكان كراب عاشقاً للموسيقى ، وكان لديه جهاز جراموفون ، ومجموعة كاملة من الأوبرات على أسطوانات كبيرة (Long Play) كانت جديدة تماماً في ذلك الوقت وبدت لي كمعجزة . وأنفقت معه أمسيات كثيرة ، مصغياً إلى أوبرات « البوهيمي » ، « البولندي الطائر » ، « ميستر سينجر — السيد المغني » وإلى سيمفونيات برامز وبيتهوفن . واصطحبت جوي إلى هناك في إحدى الأمسيات للاستماع إلى إحدى الأوبرات ولكي أقرأ لها ولجون كراب بعضاً مما أحبه من الشعر . (وكنت مستغرقاً تماماً في قراءة الشعر بصوت عال في تلك الأيام ، وكان ييتس وإليوت وروبرت بروك على رأس قائمة شعرائي المفضلين) . وإذ كنا نسير إلى بيتها في عودتنا ، مددت يدي إلى يدها ، ولكنها كانت ترتدي معطفاً ذا عباءة مقلوبة مثل عباءات رجال المرور ،

ووجدت يدي طريقها إلى الداخل وبدأت ابحث دون جدوى . وعند تلك النقطة قررت مساعدتي وقدمت لي يدها . ولم يكن لدي فكرة عما إذا كانت تعتبر ذلك نوعاً من الغزل الخفيف . لا بد أن يظل بصرامة في حدود الرسميات ، أم أنها كانت مهتمة بي حقاً . ولكنني كنت قد بدأت أشعر بالأمل . وفي مناسبة تالية ذهبت اليها ، فقالت لي مديرة البيت التي تسكن فيه إنها ما تزال في الحمّام وقالت لي أن أنتظر . ولكنها لم تدعني للانتظار بالداخل . فوقفت أنتظرها على عتبة الباب وقد رفعت ياقة معطفي حول عنقي . وحين جاءت جوي قالت « أنا آسفة » وأعطتني يدها بطريقة طبيعية تماماً . وعدا ذلك لم تكن مشجعة بطريقة خاصة . ولكنني كنت قد تعودت على حياء دوروثي وتباعدها ، ولذلك فإن سلوك جوي لم يزعجني . ولم تكن نواياي ازاءها قد تحددت بعد ، لم تكن عواطفي متعلقة بها . كان من المفروض أن ترحل إلى كندا في غضون شهور قليلة لكي تتزوج . وكانت كل الاحتمالات توحي بأنها ستفعل ذلك ، ولم تكن هناك فائدة من رسم الخطط حوذا . ولكننا وصلنا إلى نقطة قررت عندها أنني جدير إذا كان ممكناً بأن أقنعها بالتخلي عن هذا الزواج . كنا نعبر فيكتوريا بارك في الظلام . وسألتها عن الكتب التي تحملها معها في ليستر — وكان بيتها في ذلك الوقت قريباً من بيتر بوروه . فذكرت لي قصائد ييتس ومسرحياته ، وأعمال بروست (بالفرنسية) وأعمال فيرجينيا وولف ورواية « يوليسيز » لجويس . كانت أكثر ذوات الجاذبية ممن عرفتهن من الفتيات بعيدات تماماً عن الاهتمام بالأدب . أما المهتمات بالأدب فلم يكن جذابات مطلقاً . وحتى دوروثي التي كانت ذكية تماماً ولكن بطريقة عملية ومباشرة ، لم تكن تشاركني في الحقيقة أبداً اهتمامي بالأدب والأفكار . وبصراحة . لو أنني نويت أن أستقر مع فتاة ما . فإن جوي جديرة بأن تكون أقرب من أستطيع العثور عليها من الفتيات

قرباً من المثال الذي أبحث عنه . فإن فتاة تستطيع أن تقرأ « يوليسيز » يكون من الواضح أنها قادرة على أن تدرك المشاكل التي تضمها كتابة « طقوس في الظلام » .

ومضينا ، أنا وفلاكس ، في لعب لعبة السيطرة . وكان برج كنيسة سانت مارجريت القريبة يجري اصلاحه ، وكانت هناك بعض الصقالات . وكنت في طفولتي أخاف من الأماكن المرتفعة ، ولكنني لم أكن مستعداً الآن للاعتراف بهذا . وفي ليلة ثلجية البرودة ، تسلقنا السلم ثم مضينا نتسلق الصقالات الدائرة حول البرج إلى قمته . وحينما أخطأت بالنظر إلى أسفل ، شعرت كما لو كانت معدتي تسقط في الفراغ من تحتي ، واجتاحني احساس مرعب بأن قبضتي يدي وحدهما هما ما منعني من السقوط فوق أحجار السور الصلبة من تحتي . وقررت أنه من الأفضل ألا أفكر في هذا ، وأكملت تسلقي إلى القمة . وبعد مغامرة من هذا النوع ، أصبحت أنا وفلاكس متفاهمين إلى أقصى حد ، وسقطت مشكلة السيطرة مع هذا في منطقة الظل والنسيان .

وقدمته إلى جيرالد ، وموريس ويللوز وجون كراب وستانلي روزنتال . كنت أريد أن أبرهن على أن السيطرة الخارجية يمكن أن تتحول إلى نوع من النزوع الذهني . وكان من الواضح أنه ينظر إليهم جميعاً باعتبارهم أشخاصاً ضعفاء موهونين . وانصرف عن جيرالد باعتباره مولعاً بالتظاهر كالعاهرة . ولقد كان من الممتع أن يرى المرء ما كان من الممكن أن يحدث لو أن فلاكس قد التقى ببيل هوبكينز .

وكانت جوي على حق حين قالت إن مدير المحل لن يوافق على عرض « برعم زهرة المعدن » ، ولكن الرجل كان أكثر صرامة ووضوحاً فيما يتعلق باستعراض القرن العشرين ، وخاصة حينما وصل إلى القصيدة التي تتحدث عن الفيلة المصابة بالشذوذ الجنسي . وكنت الآن قد حققت هدفي بالتعرف على جوي ، ولكنني لم أحب أن أعترف بالهزيمة فيما

يتعلق بالاستعراض . وهكذا فقد اقترحت أن نعرض الفصل الأول من مسرحية « الإنسان والسوبرمان » . ورأى المدير أن هذا الاقتراح سليم ولا شذوذ فيه ، وهكذا فقد بدأنا في التجارب ، وجوي تقوم بدور « آن » . واعتدنا أن نقوم بالتجارب في نادي « كابيتال ت » ، وهو نادي الامتناع عن شرب الخمر في شارع جرانبي . وحينما تعودت جوي على أن تتجه معي في الظلام إلى الفناء الخلفي لكي نبحث عن دراجتينا ، كنت أنتهز الفرصة لكي أقبلها . وكانت تقاوم دائماً وتحتج ، ولكنها لم تكن تعترض اعتراضاً حقيقياً ، وإلا لكانت قد امتنعت عن الذهاب معي إلى الفناء . وأعتقد أن نقطة التحول في علاقتنا جاءت حينما استطاع فلاكس أن يقنعها هي وبات بأن يقضيا عطلة نهاية الأسبوع في شقته ، على أن أكون أنا رابعهم . وكانت الفكرة الأصلية هي اغواء بات والايقاع بها في تلك العطلة ، ولكنها كانت قد فرطت في فضيلتها قبل ذلك بعدة ليال . وكنا جميعاً نعمل في يوم السبت بالطبع . وفي مساء السبت ، ذهبنا إلى منزل فلاكس حاملين الجعة والنبيذ والطعام . وأعدت الفتاتان العشاء ، وقرأت لهم آخر فصول « الطقوس » بعد ذلك ، وذهبنا إلى الحانة وتناولنا المزيد من الشراب ، وعدنا إلى المنزل وظللنا نتحدث حتى الساعات الأولى من الصباح . وذهبت بات وفلاكس إلى الفراش معاً ، أما أنا وجوي فقد استلقينا على ملاءتين أمام نار المدفأة ، ومع كل منا غطاؤه . كان كل منا يرتدي ملابسه الكاملة . وحينما خفتت النار إلى الدرجة التي تمنع النائمين على الفراش من رؤيتنا ، انتقلت إلى تحت غطائها وفردت غطائي فوقنا معاً . كانت هذه هي ليلة الفضيلة ، وشعرت بأنها لا تريدني أن أحاول ارغامها على شيء ما بأية طريقة ، ولم أهتم لذلك ، فقد كان النوم إلى جوارها تحت غطاء واحد تقدماً ملحوظاً . وأمضينا نحن الأربعة يوم الأحد معاً ، في الحديث وإعداد الطعام والخروج للسير والشرب في الحانات القريبة ،

ثم افترقنا في وقت متأخر من المساء . وحين رآني فلاكس بمفردي يوم الاثنين سألني عن نوع الملابس الداخلية التي ترتديها جوي ، وقلت له انني لا أعرف شيئاً عن ذلك . فهز رأسه بحزن ، وأسر ي أن بات قد بدأت ترتدي الملابس الداخلية الشتوية المصنوعة من الصوف ، الأمر الذي كان سبباً في نوع من الاحباط الجنسي .

وأخيراً قدّمنا العرض في مقصف المحل قبل عيد الميلاد بعدة أيام . وكان عرض « الإنسان والسوبرمان » (والفصل الأول منها فحسب) مخيباً للآمال بوجه عام . كنت أعرف دور « تانر » بما فيه الكفاية ، بل ومثلته تمثيلاً جيداً جداً ، طالما أنني كنت قد رأيت كليمنتس يمثله اثنتي عشرة مرة على الأقل . ولكن في الدقيقة الأخيرة تخلى عنا الممثل الذي كان سيلعب دور أوكتافيوس . ووافق شاعر يدعى باري هيبويل – وهو صديق لموريس ويللوز – على أن يقوم بالدور بعد أن استمع إلى بعض الملاحظات السريعة ، ولكن لما لم يكن قادراً على أن يحفظ الدور ، فقد كان عليه أن يقرأ الدور من الكتاب ، الأمر الذي أفسد تأثير العرض . وكانت جوي ممثلة رديئة بقدر ما كانت تقول عن نفسها . أما النظارة – وكان أكثرهم من الفتيات اللواتي يعملن بالبيع في أقسام المحل – فقد أصابهم الارتباك والحيرة وراحوا يحملقون فينا بطريقة تنم عن حيرتهم ودهشتهم . ولحسن الحظ ، كان لدينا مشهدان مضحكان في الجزء الثاني من العرض يقوم بهما موظفان وكلاهما من قسم السجاد ، وكان الأول يبدو مثل الممثل الكوميدي آرثر آسكي وقدم الثاني المشهد المعتاد عن جازلرز جين الذي يقوم به ريد سكلتون ، وانتعش المتفرجون وبدأوا يصفقون عند كل فقرة بحماس ، فانتهت الأمسية في جو المرح الجدير بعيد الميلاد .

واشتبكت أنا وفلاكس في مشادة تشبه المشاجرة في ليلة عيد الميلاد . فقد كانت هناك حفلة راقصة لعمال محل لويس تقام في فندق بيل هوتيل

المواجه للمحل ، وكان من الطبيعي أن أصطحب جوي . وعندما اقتربت الأمسية من نهايتها ، وبعد الذهاب إلى بعض الحانات ، سرنا نحو البيت في شارع نيووولك ، وقررت أنا – على عكس ما نصحت به جوي – أن أطرق باب فلاكس . وحين كنا على وشك الانصراف ، أضيء النور بالداخل وسمعنا صوتاً نسائياً . ثم فتح الباب وظهر فلاكس ، وبدا عليه أنه في حالة نفسية سيئة وقال : « أوه ، هذا أنت يا ويلسون . هل تسمح بالانصراف ؟ » ثم صفق الباب . وعصف بي الغضب ، وزاد من غضبي أن هذا المشهد قد حدث أمام جوي . ولكنني أنا وفلاكس عدنا إلى تبادل الحديث بعد عيد الميلاد ، غير أنه كان من الصعب أن أفكر فيه كصديق بعد ذلك . لم يكن في وسع بيل هوبكينز أن يكون بمثل هذه الوقاحة – كما كنت أنا نفسي عاجزاً عنها .

ورحلت جوي لقضاء عيد الميلاد ، ثم ذهبت إلى سوث هامبتون لتودع خطيبها الراحل إلى كندا . وحينما عادت ، ظننت أنها تشعر بالتعاسة وأنها غيّرت رأيها ، وأرجعت أنا ذلك إلى نوع من الاحساس بالذنب تجاهي . وربما كانت قد حللت علاقتها معي واحتجت بأنها لم تكن تستطيع أن تقضي ستة شهور في ليستر دون أصدقاء ، وبأنها لم تشجعني . أما ما لم أكن أعرفه ، فهو أن علاقتها بزوجها المقبل كانت قد ضعفت إلى درجة كبيرة في أثناء العام الذي قضته في التدريس في فرنسا ، وأن علاقتها بي جعلتها تدرك هذا . ولما كانت من النوع الغامض من الفتيات ، فقد فضلت أن تتجنب الصراع ، ولكن كان من الواضح أنها سوف تصل إلى النقطة التي سيكون عليها أن تختار عندها .

وكان عيد الميلاد قد انتهى الآن ، واستدعاني المدير إلى مكتبه ، وأشار إلي أنني كنت قد عينت على أساس مؤقت ، وأنني كنت قد وعدت بأن أشتري بذلة لنفسي . وسألني عما أنوي أن أفعله – أن

أشتري لنفسي بذلة لأبقى في العمل ، أم أتركه وأرحل ؟.. كنت أشعر بالقلق مرة ثانية . وإلى جانب هذا ، كنت أبيع الأبسطة لبعض أقاربي بسعر التكلفة ، وكان من المفروض أن يظهر هذا عند الجرد . وهكذا فقد قلت إنني سأرحل . وكنت بالفعل قد قررت العودة إلى لندن .

وكانت المشادة التي وقعت في ليلة عيد الميلاد جديرة **بأن** تنهي علاقتي بفلاكس ، ولكنه كان قد أقنع جوي وزميلة أخرى لها بأن يستأجرا الغرفتين العلويتين في منزله كشقة مستقلة . وكانا بحاجة إلى إعادة طلاء الشقة وتنظيفها ، وتطوعت أنا للقيام بهذا العمل . وهكذا ، فعندما تركت محل لويس ، أجلت الالتحاق بعمل آخر أسبوعاً ثانياً ، وأمضيت الوقت في طلاء الجدران والأسقف . ولم أذكر هنا الزميلة الأخرى التي كانت ستشترك في الشقة ، ولكنني كنت أعرفها جيداً ، لأننا كنا نعمل معاً وقد أخذتها مرتين إلى نادي « كابيتال ت » . وكانت مخطوبة وفي سبيل الزواج ، ولكن علاقتنا لم تتعد بعض المغازلات الغامضة .

واقترح موريس ويللوز أن يقيم حفلاً بمناسبة العام الجديد ، ووجه الدعوة إلي وإلى جوي . وفي هذه الفترة كنت أضغط عليها لكي تغادر ليسستر وتأتي معي إلى لندن ، ولكنها كانت ترفض ذلك بصراحة حتى تلك اللحظة . غير أن جون كراب ، الذي كنت قد ذكرت له هذه الفكرة ، أبدى نوعاً غير متوقع من بعد النظر عندما قال : « لا تنزعج ، سوف تأتي معك . » وأمضيت أنا وجوي تلك الأمسية في منزل موريس . كانت لدينا دراجتانا ، ولكن موريس أعلن أن كل من يريد يستطيع أن ينام على الأرض . وحاولت أن أقنع جوي بالبقاء ، ودارت بيننا مناقشة حادة حول هذا في الدهليز ، ولكنها أصرت على الرفض . وقد أخبرتني فيما بعد بأنني عند هذه اللحظة أخذت وجهها بين يدي

وخبطت رأسها في الجدار عدة مرات . وإذا كان هذا قد حدث فلا بدّ أنني كنت قد سكرت أكثر من المعتاد . ولكنني لا أستطيع أن أتذكر ما حدث . ومن الواضح أن هذا النوع من الاقناع الرقيق قد جعلها تقرر البقاء . ومرة أخرى نمنا على الأرض ، تغطينا ملاءة واحدة — ومرة ثانية ، حدث ذلك ونحن بكامل ملابسنا . ولكنني كنت أشعر بأن مقاومتها تزداد ضعفاً . فإذا كانت قد اعتادت على النوم معي ، وحتى لو كان ذلك بملابسنا الكاملة ، فإنها ستجد صعوبة في الاصرار على أنها لم تكن تشجعني .

وأمضيت الأيام التالية في طلاء الشقة . وفي اليوم التالي جاءت وانضمت إليّ وأعدت لي الطعام . وحان وقت انصرافها إلى بيتها ، وكنت أعرف أن هذا سيكون محرجاً لها . وكنت قد أعددت لنفسي ملاءة على الأرض ، فسألتها أن تبقى هي الأخرى . فقالت إنها لا تستطيع — فإن مديرة المنزل الذي تسكن فيه كانت ستبدأ في التساؤل عما يحدث . وأشرت إلى أنها كانت على وشك مغادرة ذلك المنزل على أي حال . ووافقت أخيراً على البقاء . ولكن كان من الواضح أنها كانت تشعر لذلك بالتعاسة ويجتاحها الشعور بالذنب . وقبل أن ننام قلت لها : « اسمعي ، أود لو أنك أخبرتني بصراحة . أتهتمين بي أم لا ؟ إذا لم تكوني ، فأخبريني بذلك . » ولم تقل شيئاً للحظة طويلة ، وكررت عليها السؤال . وأخيراً قالت بصوت لا يكاد يسمع : « أجل ، أهتم بك » . فقلت : « حسناً . من الأفضل إذن أن تأتي معي إلى لندن وأن تفسخي خطبتك . » وغرقت في النوم وأنا أكثر سعادة . فأخيراً ، أصبح الموضوع صريحاً وواضحاً .

وحينما استيقظت في الصباح التالي كانت قد رحلت — فقد كان عليها أن تذهب إلى غرفتها لتبدل ملابسها قبل الذهاب إلى العمل . وعندما انتصف الصباح — في العاشرة — مضيت بدراجتي إلى محل

لويس لكي أشاركها شرب القهوة في الاستراحة ، ورحت ألاحظ مشاعري باهتمام . كانت هذه المشاعر احياء وبعثاً جديداً لما كنت قد أحسست به في الشهور الأولى من زواجي بدوروثي . كان هناك نفس الاحساس المريح بأنني لن أعود وحيداً مرة أخرى . ورغم أنني كنت قد قبّلت جوي فقط ، فقد كنت أحس بأننا متزوجان ، وكان ما قالته في الليلة السابقة شبيهاً بتبادل خاتميْ الزواج . وبدت هي أيضاً مختلفة تماماً حينما كنا نشرب القهوة معاً . كانت تعرف أيضاً أن شيئاً قد تغير بصورة أساسية . وحينما اقترحت أن عليها أن تكتب لخطيبها لكي تعلنه بأنها قد غيّرت رأيها قالت : « أجل ، أعتقد أنه يجب ذلك . » . وتم اتفاقنا أيضاً على أنها ستأتي معي إلى لندن . ولم أضغط عليها ضغطاً شديداً . فقد كان بوسعي أن أرى كم هي منزعجة ومشتتة وغير مستقرة . ولكنني كنت واثقاً من شيء واحد : ذلك أننا كنا منغمسين معاً في نفس الشعور الآن .

* * *

وعثرت على عمل في مصنع للأحذية . كان يدفع أجراً جيداً ، الأمر الرئيسي الذي كنت مهتماً به . وكان العمل شديد المشقة . وكنت أقوم بعمل يدعى « طلاء القاع » ، ومعناه أن أطلي نعال الأحذية بآلة مخصصة لذلك . كان علي أن أكون جزءاً من آلة ، وكان هناك رجل إلى يساري يدفع على الدوام بعربة صغيرة ملأى بالأحذية نحوي ، وكان علي أن أطلي النعال ثم أدفع الأحذية إلى الرجل الواقف على يميني ، وكان على ثلاثتنا أن نكون في سرعة واحدة ، وكنا جميعاً معينين على أساس الأجر بالقطعة ، فكنا نحصل على الأجر طبقاً للكمية التي ننتجها . وفي نهاية اليوم ، كان جسدي يتألم من الرأس حتى القدم . كانت الآلة ذات ضغط قوي ، وكان علي أن أستخدم قوة كبيرة لكي أمسك

لحذاء في مواجهة فرشة الطلاء التي تدور بسرعة عالية . ولو أن نبضتي ارتخت ، لأدى ذلك إلى افلات الحذاء وطيرانه بعيداً عبر القاعة كلها .

وذهبت لرؤية جوي ذلك المساء . ولم تكن قد وصلت بعد ، ولكن فلاكس كان قد وصل ، ودعاني للدخول وشرب الجعة . وحين وصلت جوي ، أعدت الطعام لكلينا . وكان فلاكس يتحدث عن تزايد ضجره من العمل ، وعن اشتياقه إلى التحرك . وفي يوم السبت السابق ، كان شابان متأنقان قد اشتبكا معه في مناقشة في المحل ، وكان قد طلب منهما أن يقابلاه عند موقف السيارات القريب في الساعة السادسة . وكانا ينتظرانه ، وكان هذا الموقف من النوع الذي يحبه . وقد تركهما معاً في نصف وعيهما ، وكان من الواضح أن تذكر هذه الواقعة مصدر لشعوره بالرضا رغم أن عظام أصابعه كانت قد جرحت وانكشف عنها الجلد . وبينما كنا نتحدث عن الحاجة إلى التحرك والفعل ، قال فلاكس : « أظن أنني سأذهب لكي أمارس بعض الجري ، أتاتيان معي ؟ » كانت هذه هي لعبة السيطرة القديمة . فقلت « وهو كذلك » واستبدلت حذائي بحذاء خاص للجري أعطاني إياه . وحدد هو المسافة قائلاً : « حتى ستوني جيت ترمينس والعودة ؟ » . وكانت هذه المسافة تمتد ميلين على طول طريق لندن ، بل إنه استطاع أن يقنع جوي بأن تأتي معنا ، وجرت إلى جانبنا بخطوة رشيقة سهلة ، وحينما بلغنا الحد النهائي قال : « فلنذهب إلى جريت جلين ، هه ؟ » وكانت هذه مسافة خمسة أميال أخرى . فوافقت . وعادت جوي إلى البيت بالباص وهي تعد بأن تعد لنا القهوة ، وجرينا نحن الاثنين ، صعداً على التل المواجه لميدان السباق وعلى طول الطريق الخارجي المزدوج . وكنت أعرف منذ الأيام السابقة التي مارست فيها رياضة الجري أن على الجسم أن يتخذ إيقاعاً شبيهاً بإيقاع الآلة وأن يتجاهل المرء الألم الذي يشعر به في جنبه ثم

ينتظر الريح المؤاتية . وجاءت الريح المؤاتية لي في لحظة قبل أن تبلغ جريت جلين . وحين كنا نجري داخل القرية ، رأيت سيارة الباص تنتظر هناك ، ولكن فلاكس قال : « ندور حول الجزيرة ثم نعود ثانية ، موافق ؟ » فقلت إنني موافق . وقبل أن نبلغ ليسستر بمسافة طويلة ، كنت أتساءل عما يمكن أن يحدث لو أنني أبطأت من اندفاعي إلى درجة السير للحظة قصيرة . لم أكن أشعر بساقي اللتين كانتا قد تخدرتا بصورة عجيبة ، وكذلك رئتاي ، ولكن ساقي كانتا تعملان بصورة واضحة . كنت أشعر بإحساس غريب كأنني أطفو ، وكان جسدي يعمل دون تدخل مني . وعند قمة التل إلى جوار ميدان السباحة ، رأيت الباص عند نهاية خط ستوني جيت ، وكان هذا هو آخر باص في ذلك المساء . وأشرت اليه وصحت : « فلنجر لنلحق به ؟ » فأومأ برأسه ، وانحدرنا مع التل حين كانت آلة السيارة توشك أن تدور . وبدأت الآلة دورانها ، وبذلنا مجهوداً أخيراً ، وقفزت أنا إلى السيارة قبل فلاكس . فلوح لي بسخرية واستمر يجري . وكان هذا سلوكاً نموذجياً بالنسبة له ، فقد كان بحاجة إلى أن يكون الأفضل بخطوة واحدة بأي ثمن .

وبعد ذلك بسنوات ، كنت أنا وجوي في أدنبرة نتناول العشاء عند بائع الكتب أنتوني دوفيي الذي كان يبيع بعض مخطوطات للجامعات الأمريكية . وكان الرجل قد عرف فلاكس معرفة جيدة في السنوات الأخيرة ، وذكر الرجل قصة جرينا ، وأخبرته أنا بما حدث فسألني : « إذن فأنت لم يصبك الانهيار ؟ » ، فنفيت ذلك ، فقال الرجل : « هذا غريب ، فقد قال فلاكس إنك حين كنت في منتصف المسافة عائداً إلى ليسستر لم تعد ترى شيئاً فجأة وسقطت على الأرض . وقال : « مسكين كولين العجوز ، لقد كان قادراً على الجري ولكن جسمه خانه وجعله يسقط » . أأنت واثق من أنك لم تسقط ؟ » وقلت إنني

واثق ، وأكدت جوي أنني عدت إلى المنزل قبل عودة فلاكس بعشرين دقيقة أو نحوها ، وأنني جهزت حماماً ساخناً واستلقيت فيه ، ثم جاء فلاكس وانضم إلي . وكنا جميعاً مسرورين من أنفسنا ، وطوال بقية الأمسية ، وكنا على مودّة تكاد تشبه مودتنا قبل عيد الميلاد .

* * *

كانت رغبة فلاكس في القوة تدفعه إلى الوقوع في المشاكل . وكان هو وبات قد قررا الزواج ، وكان يبدو عليهما بالتأكيد أن أحدهما يناسب الآخر كما كان الحال بيني وبين جوي . وفي المساء الذي نامت فيه جوي إلى جواري على الملاءة في الطابق العلوي للمرة الأولى ، كان هو قد خرج لحضور احتفال بخطوبة صديق قديم له من أصدقاء الجيش . وكانت الخطيبة عارضة جميلة تعمل في محل لويس في عرض العطور . وكان من الواضح أنها قد نقلت حاجياتها إلى منزل الزوجية في ذلك المساء فقط . واستمر الاحتفال حتى وقت متأخر ، وأخيراً أصبح العريس المقبل في حالة لا تسمح له بأن يأخذ خطيبته إلى بيتها ، ولكن حاجياتها كانت في مكان ما بالقرب من نيوورك ، وهكذا فقد اشتركت مع فلاكس في سيارة للاجرة . ولكنهما حين وصلا إلى الشارع الذي تقيم فيه ، قالت إنها غير قادرة على التعرف على المكان في الظلام وأنها تركت العنوان في حجرتها . وظلا يسيران جيئة وذهاباً لمدة نصف ساعة ، وأخيراً قال فلاكس إن من الأفضل أن تأتي معه لتنام في مسكنه . وإذ عادا إلى المنزل في الثالثة صباحاً ، قهقه فلاكس عندما رأى دراجة جوي ودراجتي ما يزالان خارج الباب . وبصورة لا مفر منها اشترك هو والفتاة في نفس الفراش ، وانصرفت هي في الصباح الباكر . ومع ذلك فانها تركت وراءها بعض دبابيس الشعر المتناثرة على السرير ، وقد عثرت عليها بات عندما جاءت في فترة

متأخرة من ذلك اليوم . وكانت هناك أيضاً بعض الشعيرات الشقراء الذهبية على الوسادة . وحاول فلاكس أن يناقشها ولكنها قالت إن هذه هي نهاية كل شيء . وقد أظهرت في الحقيقة نوعاً غير عادي من قوة الشخصية في رفضها لرؤية فلاكس ثانية . وكان صديقها السابق قد عاملها بطريقة سيئة ، وكان من غير المشكوك فيه أنها قد قررت ألا تقع في نفس الخطأ مرة ثانية . وقد واسى فلاكس نفسه وعوضها عن خصام بات بأن أقنع صاحبة الشعر الذهبي الأشقر بأن تفسخ خطبتها ، وكانا ما يزالان معاً حينما رأيته بعد ذلك بستة أشهر في لندن .

* * *

كنت أرى موريس ويللوز أكثر مما أرى فلاكس في تلك الأيام . وقد جاء موريس وزوجته فريدا وجوي إلى منزلنا ذات مساء ، وأمضيت ساعتين في الغرفة الأمامية محاولاً أن أشرح لهم أفكار جورديييف ، ولكن موريس لم يكن يملك القدرة على هضم الأفكار المجردة . وكان تأثير داي لويس[1] وسبندر[2] قد منحه ميولاً اشتراكية ، وكان يميل إلى رؤية المشاكل من وجهة نظر اجتماعية وليست نفسية . كان في مكان ما بداخله خوف من الحرية :

---

١ داي لويس – سيسيل (١٩٠٤ –) شاعر انجليزي من أصل ايرلندي اشترك مع آودين وستيفن سبندر في كتابة الشعر الذي يعكس الموقف الماركسي في الثلاثينات . استخدم تقاليد الشعر الغنائي الانجليزي في كتابة أشعاره التي تهاجم انهيار البورجوازية الغربية . أشهر مجموعاته الشعرية : « من الريش إلى الحديد » (١٩٣١) ، « جبل المغناطيس » (١٩٣٣) ، « نوح والطوفان » (١٩٣٩) .

٢ سبندر – ستيفن (١٩٠٩ –) كان مع آودين وداي لويس أبرز ممثلي الاتجاه الماركسي في الشعر الانجليزي حتى الثلاثينات ، ولكن كان أكثر من زميليه ميلا إلى النزعة الفردية والغنائية الرومانتيكية الذاتية . كتب رواية شهيرة عن مصير الإنسانية بعد الحرب الثانية « الأطلال والرؤى » ١٩٤٢ . (هـ م.)

لقد قلت لك إن هناك الكثير جداً من الفراغ
في داخل العقل ،
وإنهم لسعداء أولئك المقيدون
بيوم العمل ...

ومنذ عدة سنوات ، كتبت لي زوجته الثانية لكي تخبرني بأنه قد مات متأثراً بجرعة كبيرة من الأقراص المنومة . وأخرجت المجلد المطبوع طباعة خاصة « الأيام الأخيرة وقصائد أخرى » ، أخرجته من فوق رف كتبي ، فوجدت في بعض من هذه القصائد جمالاً لا يضارع . كان الوجه النحيف الشبيه بوجوه المصورين ، والصوت الممتلئ الشبيه بصوت أهـــل مقاطعة يوركشير يعطيان انطباعاً يوحي بالضعف ، ولكنه لم يكن انطباعاً صحيحاً . ففي ذات أمسية ، وبعد أن كانت جماعة منا قد أسرفت في الشرب في إحدى الحانات في طريق لندن ، تحداني فلاكس أن أتسلق معه قمة برج كنيسة سانت مارجريت مرة أخرى . كان المطر يهطل والريح تهب بشدة . ولكننا تسلقنا معاً إلى القمة ، بينما ظل الآخرون يراقبوننا من وراء الحاجز . وفجأة بـــدأ موريس يتسلق ، ووصل إلى قمة البرج بسرعة القرد . وتخطانا نحن الاثنين وصعد فوقنا ووقف محافظاً على توازنه فوق القمة . وأعتقد أن فلاكس بدأ يرى ما أهدف إليه من أثبات أنه ليس من الضروري أن يكون لكل نزوع إلى السيطرة والتفوق برهانه الذاتي الخاص .

ومضيت في رؤية موريس على فترات طوال السنوات التي سبقت موته ، ولكن ربما كان هذا هو المكان الملائم لقول شيء عنه أكثر مما قلت . ولم يكن فلاكس مخطئاً بشأنه خطأ كاملاً ، وكانت له ابتسامة محببة تكشف عن أسنانه الطويلة ، وكان على شيء من الخمول الذي كنت أجده مثيراً للغيظ ، كان يفتقر إلى الدافع الذي يتمتع به

الرجل الذي قرر أن ينجح . وحينما عرفته للمرة الأولى في عام ١٩٤٩ ، بدا لي صورة نموذجية للكاتب الاقليمي الهاوي ، الذي تكون مؤهلاته الوحيدة ثقافة مشتتة غير منظمة ولا متبلورة ، وسخطاً غامضاً غير مفهوم ، ورغبة نصف صادقة في أن يكون شاعراً . وبدا لي أن نزعتي المثالية المتفائلة قد أثرت عليه بعض التأثير ، وكان من الطبيعي أن يدفعني هذا إلى دراسة أعماله بجدية أكثر . وحينئذ اكتشفت أنه كان شاعراً دون شك ، رغم افتقاره إلى النظام المتماسك . وفي تلك الأيام من عام ١٩٥٣ بدا لي أن قامته ككاتب قد استطالت ونضجت . وأمضينا ليالي بأكملها في الحديث . وفي إحدى الأمسيات خرجنا معاً لنشتري زجاجة اضافية من النبيذ – البورجاندي الاسباني الرخيص – فقلت له (ربما بدافع من الرغبة في امتداحه أو « أن أبيع له حيلة الثقة » كما كان يقول بيل هوبكينز) : « أتعرف يا موريس ، من المحتمل أن تصبح معروفاً قبلي بمدة طويلة . لقد حصلت على خبرة عملية بالكتابة أكثر مني بكثير » . ولدهشتي ، أجابني بجدية : « ربما كنت على حق » .

كانت بعض صفاته العملية تؤلمني ، فقد كان قادراً على أن يقتبس مسرحيات من الدرجة الثانية حول موضوعات شائعة (وأذكر واحدة منها تدور حول رجل فاز بجوائز رهان كرة القدم) ثم يرسلها بالبريد إلى هيئة الاذاعة البريطانية أو إلى المسارح المختلفة ، وكانت هذه المسرحيات تعاد إليه دائماً . ولكن حدث أن حصلت على التبرير اللازم لاعتقادي في قدرته على النجاح . ففي ذلك العام كتب مقالة عن « الأبله في مسرحية الملك لير » ففازت بجائزة ما ، حققت له الفوز نهائياً بمنحة في كامبريدج . وكان في ذلك الحين في أواخر عشريناته ، ولكنه كان قد أنفق كل سنوات نضجه في أعمال غير متناسبة معه – مثلما فعلت أنا – وشعر بأن الحياة الجامعية تمثل له الحرية الكاملة . وبعد أن أمضى عاماً في إحدى الكليات في برمنجهام ذهب إلى كامبريدج ،

ولكنه سرعان ما شعر بالضجر وخاب أمله . وقد زرته أثناء قيامي بكتابة « طقوس في الظلام » في كوخ يملكه أنجوس ويلسون وكان قد انفصل عن فريدا ، وكان يعيش مع الفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجته الثانية . كان نادماً وغير مستريح لوجوده في كامبريدج التي كان يسميها « مجموعة من المراهقين » ويصفها بالسطحية وضيق الأفق إلى درجة لا تصدق . وأخيراً ، تخلى عن الجامعة بعد أن انتظم عاماً واحداً في الدراسة التي تستغرق ثلاث سنوات ، وأصبح مزارعاً ومربياً للدجاج . ثم رأيته ثانية بعد أن كان كتاب « اللامنتمي » قد صدر ، ولكنه كان بادي التعب من كتابة الشعر . ومع ذلك فقد صممت على أن أرى القصائد التي كان قد كتبها خلال السنة الماضية ، وعرضت عليه أن أرسل قصيدتين منه إلى ستيفن سبندر لمجلة الانكاونتر . لقد بدت لي هذه القصائد مفتقرة إلى المهارة القديمة ، وكانت أجزاء منها غليظة تماماً ، ولذلك فقد قمت ببعض التغييرات اللغوية فيها قبل أن أرسلها وبعد بعض المناقشات . وحينما رفضت هذه القصائد أرسلت خطاباً إلى ستيفن أطلب منه فيه أن يعيدها إليّ ولا يرسلها إلى المؤلف . وكنت قد قدرت أنها لو ظهرت مطبوعة فان موريس كان سيغفر لي ما قمت به من التعديلات ، فإذا لم تنشر فإنه ليس بحاجة إلى أن يعرف عنها شيئاً . ولسوء الحظ ، فإن موريس كتب إلى الانكاونتر يسأل عن قصائده بعد عدة أسابيع ، وبسبب خطأ ما ، أرسلت هذه القصائد إليه مباشرة . ولم يتصل بي بعد ذلك أبداً . وبعد سنتين كتبت إليّ زوجته لكي تخبرني بوفاته . وكان طبيبه النفسي قد وصف له الأقراص المنومة . وكتبت الزوجة في خطابها تقول : « وسواء كان ما حدث عارضاً أو عن عمد ، وأنا لن أعرف ذلك أبداً ، فإن القاضي قد حكم بأن ما حدث كان نتيجة لمغامرة غير مأمونة » ، وتحدثت أيضاً عن « الاحساس بالفشل الذي كان ينهشه دائماً » ، وقد أكدت ما كنت

أعتقد أن حادثة قصائد الانكاونتر هي التي منعته من الاتصال بي . (ولم أكن أنا أعرف عنوانه في الفترة الأخيرة) . ويبدو لي الآن أنه كان بوسعي أن أمنع موته لو أنني حافظت على الاتصال به ، وربما أيضاً لو أنني بذلت مجهوداً أكبر لكي أعثر له على ناشر لأعماله . ثم أفكر في هوة آلاف الأميال التي تفصل بين البشر ، وأتساءل عما إذا كان من الممكن لكل جهودي أن تغير النتيجة النهائية .

* * *

لقد مثل لقائي بجوي نقطة تحول بالنسبة لي . كنت أشعر معها بأن عنصراً دائماً من عناصر حياتي قد رسخ وتكامل . فقد كانت حياتي منذ تركت المدرسة شيئاً مليئاً بالتردد ممزق الأوصال . وكنت أنا أكل مصيري إلى الظروف ، ولم يكن سوى جانب الكتابة من هذا المصير هو ما يتعلق بي وبإرادتي . أما بقية الجوانب فلم تكن سوى نوع من الضجر المستمر . لم يستمر جانب من هذه الجوانب لفترة طويلة . لقد كنت شخصاً غليظاً ، مقدراً له على الدوام أن يقلب كل شيء رأساً على عقب وأن يفسد كل شيء . ومع هذا فقد كنت متفائلاً بشكل أساسي . كنت أومن بما قاله ازرا باوند :

ما تحبه هو ما سوف يبقى ، والباقي زبد جفاء ،

ما تحبه هو ما لن ينساب من بين يديك ،

ما تحبه هو ميراثك الحق ...

وكنت أعرف أيضاً أبيات آودين :

نحن دائماً على خطأ حين نكون محبوبين ،

نعالج بغلظة حياتنا الغبية ،

نتعذب قليلاً جداً ، أو كثيراً جداً ،

ونبدي كثيراً من الحرص ، حتى في حبنا الأناني .

لقد جربت العلم ، ثم أصبحت كاتباً لأنني أردت أن أهرب من ذلك الإحساس الدائم بأنني على خطأ ، وبالغلظة والغباء : لكي أزرع النظام ، وأفرضه على منطقة صغيرة من الوجود الإنساني . إن رؤيتنا لما نريد أن نكون ، وواقعية حياتنا ، يبدوان دائماً في صراع لا ينقطع ، حتى ينتهي أكثرنا إلى قبول المساومة . أما أولئك الذين يصرون على التمسك بتصورهم الخاص عن أنفسهم على الرغم من الحقيقة الواقعية ، فإنهم ينتهون دائماً إلى مصحات المجانين حيث يعلن الواحد منهم أنه يوليوس قيصر .

لقد كنت أجد نفسي أتساءل دائماً في لحظات انقباضي ويأسي : ما الذي يحدث لو أن الواقع ظل على صموده وصده لهجماتك عليه ، ومحاولاتك لفرض لغتك الخاصة ؟ متى حدث لأول مرة أن تحقق بنيامين روبرت هايدون من أنه ليس هو ما كان يعتقد في نفسه كعبقري العالم المعجزة ، وأنه ببساطة ليس سوى رسام رديء ؟ أم هل حدث أبداً أن تحقق من ذلك ؟ إن للبشر وسائل عديدة للهرب من الحقيقة ، ولقد ظللت أراقبهم لسنوات كثيرة ، وفكرت ذات مرة أن أكتب كتاباً أسميه : « وسائل وطرق خداع الذات » .

ولكنني هنا ، مع جوي ، كنت أمتلك على الأقل علاقة إنسانية واحدة بدت متوائمة مع عالمي الداخلي ، أو مع ما « أحببته جيداً » . كانت مثل حلم يقظة جنسي تحقق . لقد قبلتني تماماً على أساس تقديري الخاص ، مثلما يتقبل الطفل الصغير أباه . لقد أصبحت بعد سنتين مع دوروثي حساساً لأقل لمسة ومتوتراً ، دائم البحث عن أي بادرة أو إشارة إلى حماية تفوقي وامتيازي . أما مع جوي ، فإن مثل هذه المشاعر لم توجد أبداً .

ولا بدّ لي أن أعترف أيضاً بأن حياءها الجنسي قد جاء أيضاً في

صورة مصدر للراحة . فقد أجبرتني حادثة كاي في لندن على أن أكتشف أن زواجي قد جعلني مريضاً جنسياً ، أو على الأقل على شيء من المرض . إن «الاخفاق» نوع من التوتر العصبي الدائم ، مثل الفأفاة ، وكلما اهتم المرء بفأفأته ، كلما ازدادت حالته سوءاً . وقد كانت ضآلة تجربة جوي الجنسية حتى ذلك الحين مصدراً للاشفاق القليل . ولم تكن تريد أن تتسرع ، كذلك أنا . لقد نمنا معاً كلما أتاحت لنا الظروف ذلك . ولكنني كنت متحرراً من ذلك الاحساس الذي شعرت به مع كاي في الفراش – وهو أن يكون من المتوقع مني أن أثبت رجولتي .

* * *

وبعد أسابيع قليلة في مصنع الأحذية ، كنت قد مللت ليستر ونالني منها ما كفاني . ولم يكن لدي دافع خاص يدفعني إلى الانتقال إلى لندن . لم يكن هناك حنين مرضي يدفعني إلى حي سوهو أو رغبة في عرض مسرحية «برعم زهرة المعدن» . ولكن حينما كانت الحياة ما تزال غير مرضية ولا مشبعة ، كان علي أن استمر في التحرك والانتقال .

الفصل التاسع

لندن و « اللامنتمي »

كانت السنة التالية في لندن أسوأ سنواتي حتى الآن . وجدت لنفسي حجرة في آرش واي في منزل يديره رجل اسكتلندي . وكنت آمل أن يكون مدير رجل للمنزل أحسن من المديرة ، ولكن سرعان ما خاب أملي . فقد كان ثرثاراً متعلقاً بالتوافه مثل أي امرأة . وذهبت إلى مكتب العمل في نورث فينشلي ، فوجهوني إلى مغسل للملابس . كان عملاً ثقيلاً يتضمن حمل الملابس المبللة ووضعها في ستّ أوان للتجفيف ، ثم تفريغها بعد خمس عشرة دقيقة . وكنت أحمل أطناناً من المغسولات كل يوم . وراحت جوي تكتب لي بانتظام . ولكني بدأت الآن أتبين أن أحد مساوئ شخصيتها البسيطة السهلة هو غموضها غير العادي ، كانت قادرة ببساطة على أن تنسى الكتابة لمدة أسبوع حتى أقتنع بأن شيئاً سيئاً قد حدث أو أنها غيرت رأيها بشأن المجيء إلى لندن . وأخيراً جاءت بعد شهر كامل ، وعثرت على غرفة في فيللوز رود وعلى وظيفة في محل كبير في شارع أوكسفورد . ولكني شعرت بشيء غريب باعث على الاحباط في علاقتي معها ، شيء لم يمكنني أن أحدده . كنت أعرف أنها لا تثق بي ، وكان فلاكس قد

حذرها من أنني جدير بأن أتركها في غضون ستة شهور ، ولكن ذلك لم يكن كافياً لتفسير عدم ثقتها . وأنا أعرف الآن أن المشكلة كانت هي أنني كنت قد تعودت على دوروثي ، وقبلاً على سيلفيا ، وكلتاهما لم تكونا تشعران بالأمان ، وتسعيان إلى العواطف القوية تدفعهما عواطف قوية أيضاً . أما جوي فقد كانت لها طفولة تقليدية يغمرها السلام . وكانت أسرتها مغرمة بها ولكنها لم تكن أسرة ميالة إلى اظهار عواطفها . ومثل أي سيدة شابة من بنات عائلة بيتجمان ، كانت قد تعلمت ركوب الخيل ، والاشتراك في نادي التنس المحلي ، وأن ترتدي ثوباً للمساء لكي تذهب إلى الحفلات الراقصة لتذهب مع الشبان الذين يرتدون سترات العشاء . وكانت متى تحدثت عن أقاربها ، تبدو لي مثل الشخصيات القديمة المختزنة في رواية «حكاية أسرة فورسايت»[1] . كانت حياتها قد جرت مثل مجرى هادئ لينبوع صغير : مدرسة خاصة للفتيات الصغيرات ، جامعة في دبلن ، وعطلات نهاية الأسبوع لصيد السمك على شاطئ أيرلندا الغربي ، وسنة تعمل مدرسة في فرنسا ، والآن بضعة شهور من العمل كمدربة على الادارة في محل كبير قبل أن تتزاوج وتنتهي إلى وجود الطبقة المتوسطة الروتيني في كندا . وكنت أنا قد أقلقت هذا الوجود ، وجعلتها تتخذ قراراً لا يمكن الرجوع فيه ، إذ كانت قد كتبت إلى خطيبها تعلنه بفسخ خطبتهما . أما أنا فقد كنت حساساً ، عجولاً ، مزهواً بنفسي ميالاً إلى التظاهر والافتخار ، وميالاً إلى أن أوبخها حينما تصل متأخرة ساعة عن موعدها

ملحمة أسرة فورسايت ، سلسلتان من الروايات كتبها جون جالزورثي ، وظلت تصدر بانتظام لمدة ثلث قرن حتى عام ١٩٣١ ، عن تقلبات أحوال أسرة انجليزية كبيرة وانتقالها من العصر الفيكتوري إلى القرن العشرين . وأسرة فورسايت أسرة من متوسطي المجتمع ، التجار والمثقفين والمهنيين ، تحكي صعود الطبقة الوسطى الانجليزية وعوامل بنائها للحضارة الغربية وعوامل تفسخها الحتمي في النهاية . (هـ. م.)

أو حينما تتركني جالساً بجوار التليفون أنتظر مكالمة كانت قد وعدت بأن تقوم بها .

وفي ذات يوم كنت خارجاً من الحمام لتوي حينما أخبرني مدير المنزل أن هناك شخصاً يريد رؤيتي . وتقدم إليّ سيد متقدم في السن وقال لي إنه والد جوي وأنه يريد أن يتحدث معي . ودعوته للدخول ، فقال إنه يفضل أن أخرج معه في السيارة . وكانت مقابلة سيئة الحظ . كان والدا جوي قد صُدما حينما أخبرتهما بأنها قد فسخت خطبتها — فقد كان مستقبلها يبدو وكأنه استقر بطريقة مريحة . وكانا قد فتشا حقيبة صغيرة كانت تركتها في المنزل ، فعثرا على بعض خطاباتي التي وصفها والدها بأنها «خطابات تفوح بمهارة الشيطان» . وهكذا فإن جوي كانت قد وقعت فريسة لخداع بوهيمي صعلوك ضائع لا شك أنه يريد أن يغويها ، أو ربما يريد أن يسرق «حلقها» . وكان الاقتراح الذي لدى والدها ليعرضه هو أن علي أن أغير عنواني ثم أمتنع عن رؤية جوي إلى الأبد . وإلا فإنهم سيأخذونها إلى بيتر بورو . وأشرت إلى أن هذا إنما يعتمد تماماً على ما تريده جوي . فلو أنها طلبت مني أن ابتعد عنها وألا أراها ثانية أبداً فإنني سأفعل ذلك ، ولكن بما أنني قد أقنعتها بالمجيء إلى لندن ، فإنني لا أستطيع أن أتخلى عنها لا لشيء إلا لأن والديها لا يوافقان عليّ . وعلى أي حال ، فأي حق له في أن يوافق أو لا يوافق عليّ طالما أنه لا يعرفني ؟. فقال إن خطاباتي قد عرّفته بكل ما هو ضروري — وأنني لا بدّ أن أنتهي إلى السجن .

وفي تلك اللحظة كنت أشعر بأطرافي تتجمد ، وشككت في أنني أصبت بالبرد . فقلت له إنه من الواضح أن نظرتينا لن تلتقيا أبداً ، وعدت إلى المنزل ثانية . واتصلت بجوي تلفونياً وأخبرتها بما حدث . وفي الوقت المناسب وصل والدها إلى مسكنها ووضع أمامها ما يراه من

البدائل : فإما أن تكف عن رؤيتي وإما أن تعود إلى البيت . وبعد مناقشات طويلة ، سمح لها بأن تبقى في لندن على شرط أن تعد — وقد وعدت بالفعل — بألا تزورني في مسكني . وحينما ذهبت لرؤيتها فيما بعد استبد بي الغضب . لقد كانت فوق الواحدة والعشرين ، فأي حق يملكه والدها لانذارها هذا الانذار النهائي ؟ ووجدت من الصعب أن أفهم أنها لم تكن تشعر بالعداء نحوهما . كان بوسعها أن تقول بالطبع إنهما منزعجان ، فإن كل ما يعرفانه عني يجعلهما يوقنان من أنني قواد أتاجر بالرقيق الأبيض .

وكنت أواجه المصاعب مع مدير منزلي .[1] كانت مدفأتي الغازية تعمل بطريقة رديئة ، ولم أعالجها أنا بطريقة جيدة ، فانسدت وطلبت من المدير أن يتولى اصلاحها . وحينما جاء عامل الاصلاح قال لمدير المنزل إن مدفأة غازية أسيء استعمالها يمكن أن تكون خطرة ، وعلى الفور نبّه علي مدير المنزل — الذي كان كامرأة عجوز متزمتة — نبه علي بضرورة النزوح عن المنزل . ومرة أخرى انتابني احساس بأن نوعاً من القدر الشرير هو الذي يدفعني إلى تلك المواقف الغبية . كنا في منتصف الأسبوع وطلبت مهلة لمدة أسبوع كامل ، الأمر الذي كان مضطراً إلى التسليم به بحكم القانون . ولكنني كنت غاضباً لدرجة أن خرجت للبحث عن حجرة أخرى في اليوم التالي مباشرة ، فعثرت على طابق علوي كامل في منزل في سامرزلين بحي نورث فينشلي لقاء ثلاثين شلناً في الأسبوع . ونقلت كتبي إلى هناك ، وفي صباح السبت أخبرت مدير المنزل أنني سأترك منزله . وتملكه الغضب . وقال لي إنه لم يعلن عن خلو حجرتي إلا في هذا الصباح وأنني إذا كنت أريد اخلاء الحجرة فعلي أن أدفع ايجار الأسبوع وإلا لمنعني من أن آخذ حقيبتي معي . وذهبت إلى نقطة الشرطة المحلية وسألتهم النصيحة فقالوا لي إن من حقه أن يقيم علي الدعوى إذا شاء أن يتقاضى تعويضاً . وعدت إلى

حجرتي ، ووجدت صاحب المنزل بالخارج ، فتركت له مذكرة أخبره بالمكان الذي يستطيع أن يجدني فيه إذا أراد أن يقاضيني وتركت المنزل . ولم أسمع عنه بعد ذلك أبداً .

ومضيت أعمل في المغسل لمدة شهر تقريباً ، ولكنني وجدت العمل هناك مضجراً إلى جانب ما يسببه من اجهاد ، ولم يكونوا يدفعون لي أجراً مناسباً للعمل الذي أقوم به . فقررت أن أغيّر وظيفتي ، ورغم القرار الذي كنت قد اتخذته بعدم العمل في المكاتب ، فقد قدمت طلباً إلى مكتب العمل لكي يعثروا لي على عمل في مكتب ما . ووجهني مكتب العمل إلى (جاراج) بالقرب من محطة فينشلي المركزية . وعينوني هناك كاتباً لحجرة المخزن ، وكان عملي هو أن أراجع باستمرار آلافاً من قطع الغيار وأن أسلمها إلى عمال الاصلاح في الجراج . ولما لم أكن قد نظرت أبداً إلى ما تحت غطاء السيارة ، فإن أسماء القطع المختلفة كانت كاليوناني « الذي لا يفهم » بالنسبة لي ، وأضجرتني هذه الأسماء إلى درجة أنني رفضت أن أتعلمها ، وبعد أسبوعين فصلني رئيس العمل . وحينئذ عثرت على وظيفة أخرى في شركة فيكتوريا للنبيذ ، وكانت تتضمن توصيل الطلبات على حاملة ميكانيكية . ولم أكن أعرف عن النبيذ أكثر مما أعرفه عن السيارات ، ولذلك وجدت أن هذا العمل لا يقل ضجراً وإملالاً . وكان للكاتب الاسكتلندي الذي أعمل معه وجه قرمزي وملامح أنثوية ، وكان يفأفئ قليلاً ويحب الشجار إلى درجة لا تصدق . وكان يبدو عليه أنه يعتبرها نوعاً من الاهانة أن يجلس بوهيمي مثلي على المقعد المجاور له (ولم تكن كلمة « بيتنيك Beatnik » قد اخترعت بعد) ، وراح يلعب معي لعبة السيطرة طوال كل يوم . ولم أعتبره أنا جديراً بالصراع إلى أي حد ، وجعلته لا مبالاتي أشد سخطاً . (وفي عام ١٩٦٠ قابلته بالصدفة في ستوكهولم وكانت أول كلماته لي : « أتعرف ، إنني أكثر عبقرية منك بكثير »

ولكنه أصيب بالبكم أمام وصف كامل لي نشرته صحيفة سويدية) .
وبعد بضعة أسابيع فصلتني شركة فيكتوريا للنبيذ هي الأخرى .

وفي ذلك الوقت تقريباً ، تسلمت خطاباً من دوروثي تقول فيه إنها قررت أن تقيم علي الدعوى طلباً للنفقة . وبدت لي هذه محاولة أخرى لتقييدي بوظيفة محترمة وتحويلي إلى « زوج ووالد » . وكان رد فعلي الأول هو أن أعود إلى فرنسا ، أو أن أرحل بعيداً إلى مدينة غريبة . ولكنها وافقت في النهاية على أن تتنازل عن تلك الفكرة بعد أن عرضت عليها أن أدفع لها مبلغاً كل أسبوع . وكانت هناك مشاكل أيضاً فيما يتعلق بمسكني وإن كانت مشاكل صغيرة . فقد كانت المرأة العجوز التي أجّرت المنزل لي تعيش على معاشها من المعونة الوطنية ، وكانت لها ابنة في منتصف الثلاثينات وهي فتاة ضخمة الجسم تشبه البومة ، وحفيدة سمينة . وسرعان ما جعلتني الابنة موضع ثقتها ، وشرحت لي أن زوجها قد تركها وأنها كانت تدعم ما تحصل عليه من المعونة القومية بما تكسبه من القليل من البغاء . ولم أعترض مطلقاً على موضوع البغاء ، ولكنه كان من المتعب أن أكتشف في حجرة نومي علامات لا سبيل إلى الخطأ بشأنها تدل على أنها قد استخدمت لاستقبال أصدقاء المرأة من الرجال . أما الفتاة نفسها فقد كانت تفضل شيئاً عجيباً ، وهو أن تأكل شطائر السمك المقلية وهي راقدة في الفراش ، وكان علي دائماً أن أعيد ترتيب السرير وتنظيفه من البقايا القذرة . ونشبت مشاجرة مع جوي لأنها رفضت أن تزورني في مسكني ، ووصل بي الغضب إلى درجة أن قررت ألا أراها مرة ثانية . ولكننا كنا قد بدأنا نعتاد أحدنا على الآخر بالفعل — وهذا هو الأساس الحقيقي لكل زواج — وبعد يومين ذهبت لرؤيتها في محل عملها في شارع أوكسفورد . ولما كنت الآن قد غيرت مسكني ، فقد سمحت لنفسها بأن تقتنع بأن الوعد القديم لا ينطبق على المسكن الجديد ، وبدأت في تمضية بعض

الأمسيات — وأحياناً بعض الليالي — معي في سمرزلين . وذات صباح، وبينما كانت تتسلل خارجة من المنزل ، خرجت صاحبة المنزل وقالت لي إنها لا توافق على مثل هذا النوع من التصرفات الذي قد يفسد الطفلة .... ولما كنت معنياً بالمحافظة على سر ابنتها عن شغلها في أوقات الفراغ (وكانت السيدة العجوز لحسن الحظ صماء ونصف عمياء) فقد بدت لي ملاحظتها كنوع سخيف من السخرية ، وقررت أن أترك المنزل بأسرع ما يمكن .

وكنت بالفعل أنام مع فتاة أخرى في تلك الفترة ، رغم أنها ، ويا للغرابة ، كانت بريئة تماماً . وكانت صديقة فيليب فين ، وتدعى جاكي ، قد تركت مسكنها ولم يكن معها شيء من النقود . وقلت لها إن هناك سريراً اضافياً خالياً في مسكني على أساس أن تتسلل إلى الداخل بهدوء وأن تغادر المسكن في الصباح الباكر . ولكن السيدة العجوز نقلت حفيدتها إلى السرير الخالي . وكانت جاكي قد اعتادت على أن تصل في الساعة الواحدة صباحاً ، بعد أن تقضي الأمسية كلها في شرب الشاي في مقاهي حي سوهو ، ثم تتسلل إلى الفراش بجانبي ، وكان من المعتاد أن تغادر الفراش في الصباح قبل أن أستيقظ . وسألها بيل هوبكينز عما إذا لم أحاول أبداً أن أمارس معها الجنس ، فقالت إنني بدأت ذات ليلة في ملاطفتها ثم زحفت فوقها ، ثم استيقظت فاكتشفت أنها جاكي ، فهبطت من فوقها ... وربما كان هذا صحيحاً . وقد كانت جاكي فتاة جذابة ، ولكنها كانت بوهيمية حقيقية ، ولم تكن — ببساطة — من النوع الذي يلائمني . فقد كان مزاجي ونفسيتي غير بوهيميين بالمرة .

وكنت قد عثرت على عمل آخر في مصنع للبلاستيك في هويست ستون ، ووجدت هذا العمل أقل مدعاة للضجر من العمل في المكاتب . ولكنني تشاجرت مع الرئيس بعد بضعة أسابيع . وكنت قد ذهبت إلى

العمل ذات صباح يوم من أيام السبت ، وكانت أيام السبت تعتبر أيام عمل اضافي ، وكان بوسعنا أن نرفض الذهاب للعمل إذا أردنا ذلك . وبعد أن وقعت على ساعة الحضور ، خرجت إلى محل قريب لشراء بعض الشوكولاتة . (وكنت في هذه الأيام مغرماً بأكل الشوكولاتة والحلوى) . وحينما تمدت بعد قليل ، رآني الرئيس أثناء دخولي ، وأمرني بأن أوقع على الساعة مرة أخرى . ولو أن هذا قد حدث قبل بضع سنوات لكنت قد نفذت الأمر ثم أطلق اللعنات بين أسناني ، ولكن أنواع المتاعب والاحباط التي لا تنتهي كانت قد دفعت صبري إلى الحد الذي لا حد وراءه . وقلت له أن يذهب إلى الجحيم وذهبت أنا إلى البيت . وفي يوم الاثنين قال لي إن بوسعي في نهاية الأسبوع أن أجمع أوراقي وأنصرف .

كنت قد بدأت أشعر بمثل ما شعر به راسكولنيكوف قبل ارتكابه جريمة القتل مباشرة في رواية « الجريمة والعقاب » حينما اجتاحه فجأة إحساس بأنه «لا ينبغي له أن يستمر في الحياة بهذا الشكل» . كان الغثيان قد أصابني من التعامل مع البلهاء ، والعمل في وظائف أكرهها ، دون أن أحصل على وقت الفراغ الكافي للعمل في رواية « الطقوس » . كانت بحاجة حقاً إلى شهر من العمل الشاق المستمر لكي تتحول إلى رواية حقيقية بدلاً من سلسلة من الشذرات المتفرقة . كانت هناك فصول كاملة ممتازة فيها : المشهد الذي يخبر فيه الرسام (الذي قامت شخصيته على أساس شخصية فان جوخ) سورم عن الفتاة ذات العشر سنوات التي تسيطر على مشاعره (وكان هذا قبل سنوات من صدور « لوليتا ») ، وكان هناك المشهد الذي يدور في مبغى الشذوذ الجنسي حيث يتخيل سورم أن نان هو نيجنسكي في «ألوان طيف الوردة» . ولكنها لم تكن من الممكن أن تكون رواية ما لم أستطع أن أبدأ من لبداية ثم أستمر حتى النهاية . وقرأت أعمال جراهام جرين الخفيفة

– بنفاد صبر كبير – وبدا لي واضحاً أنني كنت كاتباً أفضل من ذلك . فما الذي كنت أفعله في تلك الوظائف التي لا هدف منها ؟ كان الأوان قد جاء لكي أبدأ بأن أكون كاتباً .

وفي تلك الحالة من الاحباط الكامل ، طرأ لي أن جانباً من مشكلتي هو أنه كان علي أن أدفع ايجاراً لمسكني . كان هذا الايجار ملائماً تماماً بالمقاييس العادية ، ولكن الايجار وثمن الوقود والتأمين القومي وضريبة الدخل كانت تعني أنني أربح ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما أنا بحاجة اليه حقاً لكي أحصل – ببساطة – على الطعام . وفي ذلك الوقت كان جوني أبراهام يزمع القيام برحلة إلى الشرق الأوسط لكي يتجول هناك لما يقرب من العام ، وببساطة لكي يرى العالم . كان قد اشترى خيمة وحقيبة للنوم مانعة لتسرب الماء . وطرأ لي أنه ربما كان هذا هو الجواب على مشكلتي . فإنك إذا ما دفعت ثمن خيمة فإنها ستصبح ملكاً لك ، ثم تستطيع أن تنصب الخيمة في أي مكان من أي حقل . كنت أعيش بالقرب من ضواحي لندن القريبة – على بعد نصف ساعة بالسيارة من الريف المكشوف شمالي بارنيت .

ووضعت الخطة موضع التنفيذ على الفور . واشتريت خيمة رخيصة وحقيبة للنوم . وزارني في عطلة ذلك الأسبوع باري هيبويل ، شاعر ليسستر الذي كان قد اشترك في تمثيل « الإنسان والسوبرمان » في محل لويس ، وأخبرني بأنه قد قرر أن ينتقل إلى لندن وسألني أن أساعده في العثور على مسكن . وقلت له إن بوسعه أن يأخذ مسكني . وأخذت كتبي إلى مسكن جوي في تشوك فارم . وقبل نهاية أسبوع عملي الأخير في مصنع البلاستيك ، كنت أنام في الخلاء تحت خيمتي . وطوال الليالي القليلة الأولى ، كنت أنام على حافة ميدان للجولف بالقرب من المصنع . وسرعان ما قررت أن الخيمة كانت زائدة على الحاجة ، فقد كانت تسبب لي الكثير من المتاعب في إقامتها وإنزالها ، كما كانت تجتذب

انتباه الآخرين . كان الاحتفاظ بحقيبة النوم المانعة من تسرب الماء كافياً . فكنت أجذب قمتها فوق رأسي إذا هطل المطر .

وكان معنى كل هذا بالطبع أنني لن أستطيع أن أرسل النقود إلى دوروثي . ولكنها في ذلك الحين ، كانت قد حصلت على وظيفة ممرضة منزلية مقيمة في بيللسيدون ، بالقرب من ليسستر ، وهكذا فإن عجزي لم يكن ذا نتائج خطيرة .

وكنت أتوقع حصولي على ما يقرب من العشرين جنيهاً لدى مغادرتي المصنع . وكان من الضروري أن يكفيني هذا المبلغ لمدة شهر كامل إذا أنا لم أنفقه إلا على الطعام (وقاومت اغراء شراء الكتب) . وبدأت النوم في هامبستيد هيث ، الذي كان قريباً قرباً ملائماً من مسكن جوي ، وعلى بعد معقول من المتحف البريطاني . وكنت أعلم بوجود مقهى لسائقي الباص يقع في مواجهة محطة تشوك فارم لمترو الأنفاق حيث كان بوسعي أن أحصل على قدح من الشاي وشريحتين من الخبز .وبعض المرق لقاء سبعة بنسات . وكنت أذهب إلى هناك كل صباح لتناول طعام الافطار . ثم أستقل دراجتي إلى المتحف ، ثم أترك حقيبتي الممتلئة بحاجياتي في غرفة المراقبة ،. (وكان من الواضح أن المشرف قد اعتبر ذلك نوعاً من السلوك المعيب ، وهدد بأن يبلغ شكواه إلى السلطات المسؤولة عن المتحف ، ولكن لم ينتج عن ذلك أي ضرر) . وعلى الفور بدأت في العمل بجدية في إعادة كتابة « طقوس في الظلام » .

كان هذا النظام الجديد أفضل بصورة حاسمة من العمل كل يوم في مكتب أو مصنع ، ولكنه لم يكن مثالياً بأي شكل من الأشكال . كنت مجهداً عقلياً بسبب متاعب العامين الماضيين وتمزقاتهما ، ولم تؤد الحياة كصعلوك في لندن إلى تخفيف ذلك التوتر . وحينما أخبرت بيل هوبكينز بأنني أنام في منتزه هيث وأكتب في المتحف خلال النهار ،

قال متحمساً : « هذه هي الفكرة العظيمة يا كول ، فشيِّد أسطورة ويلسون ! » . ولكن المرء لا يستطيع أن يعيش على الأساطير . كان علي بكل المقاييس أن أتحول إلى صعلوك ومتشرد . ولم أكن قد أنجزت أي عمل منتظم لمدة عام كامل ، وكنت أعيش دون منزل لكي أتجنب دفع تكاليف معاش زوجتي . ومع ذلك فقد كنت ما أزال أحمل نفس المزاج الذاتي الكامل لطفولتي . كنت أريد أن أترك بمفردي مع كومة من الكتب في غرفة تخصني . لقد كرهت عملية النوم خارج المنازل هذه ، وعملية العجز الكامل عن النوم بعمق وهدوء لأن أحد المتشردين قد ينقض علي في الظلام ، أو يأمرني شرطي بالابتعاد عن نطاق لندن . (وقد قال لي شرطي بأنه من غير المشروع في انجلترا أن ينام المرء دون سقف فوق رأسه) . كنت أستيقظ كل صباح لكي أجد الشمس تسطع فوق الحشائش المبللة والسماء زرقاء صافية ، وحديقة هيث خالية ، وكان ينبغي لكل هذا أن يكون ذا طابع شعري ، ولكنني لم أكن أملك القدرة على التحمس ، ولم أكن أرى الأمر كله إلا من خلال ضبابة رمادية من الاجهاد .

وفي غرفة القراءة ، قابلت أنجوس ويلسون الذي كان معروفاً في ذلك الوقت كمؤلف مجموعتين من القصص القصيرة بالاضافة إلى كتاب « الشوكران السام وما بعده » . وكنت قد قرأت كتاب « الشوكران » ولم يرق لي بأي شكل ، ولكن المؤلف نفسه بدا لي كرجل ودود وممتع . وكان معروفاً في غرفة القراءة بصوته المرتفع الشبيه بصوت الصفارة . وعلى الرغم من مركزه كمؤلف مستقر ومدعم وكموظف في المتحف على شيء من المكانة ، فقد كان يبدو عليه أنه على استعداد دائماً لمعاونة القراء . وقد سألته ذات يوم عن الموضع الذي يمكنني أن أعثر فيه على مقالة إليوت عن رواية « يوليسيز » فجاءني بعد عدة ساعات حاملاً الكتاب المطلوب بعد أن أمضى ساعات الصباح كلها

وهو يبحث في القوائم . واشتركنا في حوار طويل ، وأخبرته بأنني أكتب رواية . فقال إنه سيسره أن يراها عندما تنتهي ، وأنه سوف يطلع ناشريه عليها لو أنها أعجبته . ونظرت أنا إلى هذا الوعد بجدية كاملة (رغم أنني أعرف الآن – بعد أن قلت الشيء نفسه لكثير من المؤلفين الشبان – أن مثل هذا القول قد لا يكون جاداً أو أنه لا ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد) . وبعد ذلك رأيته من حين إلى حين ، ولكنه لم يتبادل معي أبداً أكثر من بضع كلمات .

* * *

ويبدو أنني كنت قد حملت إلى جوي بعضاً من حظي العاثر مع صاحبات البيوت . فقد كانت تشترك في حجرة مع فتاة فرنسية ، ولذلك فلم أكن قادراً على أن أقضي هناك الكثير من الوقت ، ولكن صاحبة البيت كانت تسمح لهما بأن يستخدما حجرة في البدروم لاستقبال الزائرين . وذات ليلة هطل المطر مدراراً ، ولذلك فقد نمت على الأريكة في تلك الحجرة ، واعداً بأن أرحل في الفجر . ولسبب غريب ما ، هبطت الفتاة الفرنسية إلى الحجرة السفلية في منتصف الليل ، فصدمت عندما رأت رجلاً غريباً ينام هناك ، فوجهت شكواها إلى صاحبة المنزل . وغضبت جوي من الفتاة الفرنسية أكثر من غضبها من صاحبة المنزل ، وقررت أن تنتقل من هناك . وعثرت على حجرة عند الطرف الآخر من فيللوز رود – كانت على أي حال أكثر قرباً من محطة سويس كوتييج لمترو النفق . (وكانت تعمل الآن في مكتبة عند محطة ستانمور) . واعتدت أن أستقل دراجتي من حديقة هيث لكي أتناول القهوة في غرفتها كل صباح ، ثم أتوجه إلى المتحف . وبعد عدة مرات ، انفجرت صاحبة منزلها وأبلغتها بضرورة ترك المنزل . وكانت المرأة عصابية سيئة الخلق تصرخ في أطفالها طوال النهار ، وببعض الراحة انتقلت جوي إلى غرفة في محطة ستانمور .

كان أغسطس يقترب ، وأردت أن أخرج من لندن لبضعة أسابيع . وكان هذا يعني ضرورة العثور على عمل آخر . وكنت أقترض النقود من منحة كانت جوي قد حصلت عليها لدراسة أعمال المكتبات ، ولكن كان من المفروض أن أعيد هذه النقود في مدة قصيرة . وقيل لي إن هناك العديد من الوظائف المؤقتة الجيدة المرتب في مصانع الألبان ، وبحثت الأمر فوجهت إلى مصنع للألبان خارج لندن على الطريق الغربي الكبير بالقرب من أوستيرلي بارك . كان المرتب جيداً ، رغم أن العمل كان رتيباً وشاقاً ، ويتكون من رفع قدور اللبن الضخمة لوضعها فوق شريط جلدي متحرك عريض طول الوقت . كان يوم العمل يبدأ في السابعة صباحاً ، وكان علي أن أستمر في العمل حتى السابعة مساء لكي أجمع أكبر قدر ممكن من النقود . وعثرت على حقل لا يبعد سوى بضع دقائق عن المصنع ، فكنت أنام هناك . وعلى الناصية التالية للمصنع كان هناك مقهى للعمال يدعى « ذا بيتر أول » (وقد هدم الآن لكي يخلي مكانه لجراج كبير) . وكنت أمضي معظم أمسياتي هناك ، طالما أن المسافة كانت أبعد من أن أحتمل الذهاب إلى المدينة لقضاء بضعة ساعات . وكانت جوي تأتي وتنضم إلي في عطلات نهاية الأسبوع ، وتشاركني النوم في الحقيبة . وكنت قد شرعت في تعلم اليونانية ، لكي أقلل من الضجر الذي يسببه العمل . وكنت أحفظ بعض المفردات في فترة تناول القهوة ، ثم أراجع الكلمات في رأسي أثناء العمل ، فإذا نسيت إحداها ، كنت أرمق الكتاب المفتوح أمامي على مقربة مني. وقابلت أيضاً امرأة غريبة تدعى جريس ، كانت تعمل في المقصف وتدرس الفلك والتنجيم . وكانت تدريباتي العلمية قد جعلتني ميالاً إلى الشك في مثل هذه الأمور . ولكن علي أن أعترف بأن جريس بدا عليها أنها تعرف عني أشياء ما كان يعرفها أحد غير أمي . وما زلت مهتماً اهتماماً معتدلاً بالتنجيم ، ولكنني لم أعد أشك فيه شكاً كاملاً .

وبعد أسابيع قليلة من العمل في مصنع الألبان ، كنت قد جمعت ما يكفي من المال لتسديد دَيْني لجوي ، وللقيام بإجازة . وأخذت أخي رودني في رحلة لمدة أسبوع في اقليم البحيرات — وكان في الحادية عشرة من عمره في ذلك الوقت . وتبرز هنا حادثة واحدة ، كما لو كانت تقدم لي بصيرة سيكولوجية جديرة بالاهتمام . كنا قد أمضينا المساء في تسلق تل هلفيلين . واستغرق هذا أكثر مما توقعناه ، وعندما بلغنا القمة فوجئنا بسحابة ثقيلة وريح عاصفة . وسرنا على طول سترايدنج إدج لمدة ساعات ، ناظرين إلى أسفل نحو الهوة الهائلة من تحتنا ، وأخيراً بدأنا نشق طريقنا هبوطاً إلى الوادي بجوار ضفة نهر أولز دوتر . وبدأ المطر يهطل ثقيلاً ، وأخيراً وبعد ساعة أخرى من السير حصلنا على توصيلة عائدين إلى وندرمير . وألقى رودني بنفسه داخل الخيمة في ملابسه المبللة ، ونام دون أن يبدلها . ولحسن الحظ فإنه لم يعان من أي تأثير مرضي لذلك . وتبينت أنا ما حدث . فقد شعر بأن القدر كان يعامله بطريقة سيئة باجباره على أن يبذل مثل هذا المجهود ، وقد أراد أن يكيد للقدر ، كما كان يمكن أن يريد أن يغيظ والديه لو أنهما عاملاه بطريقة سيئة . ولم يكن نومه بملابسه المبللة ليغيظ أحداً سواه ، وكانت النتيجة غير منطقية . وهناك مجرمون كثيرون يرتكبون جرائمهم بنفس الطريقة الملتوية ، وهي الدوافع غير المنطقية .

وبعد الأسبوع الذي قضيته في اقليم البحيرات ، ذهبت أنا وجوي لقضاء اجازة في كورنوول . وكانت هذه هي زيارتي الأولى للريف الغربي . ومن الغريب ، أننا أقمنا خيمتنا في حقل يبعد أقل من نصف ميل عن البيت الذي نعيش فيه الآن ، (رغم أننا لم نكن نعرف هذا حينما اشترينا المنزل) . لقد أبهجتني كورنوول . واشترينا كتاب نورواي المسمى « الطرق العريضة والضيقة في ديفون وكورنوول » ، ومضى كل منا يقرأ للآخر بصوت مرتفع أساطير المردة والعمالقة والعفاريت

وعرائس الغاب ، أو قصص الأرمادا الاسباني .

واعترضت اجازة كورنوول هي الأخرى لحظة استبصار ظلت عالقة بذاكرتي من ذلك الحين . فقد خفنا لعدة أيام من أن تكون جوي حاملاً ، ومرة أخرى شعرت بنفس الاحساس القديم ، إحساس المطارد ، الذي كنت قد عرفته منذ عدة سنوات . مرت الأيام الثلاثة الأولى من الاجازة متثاقلة ، وكل منا يفكر في نفس الشيء طوال الوقت . كنت دائماً سعيداً سعادة غريبة بجوي ، وبشكل ما كنت أشعر بأنها نوع من تميمة للحظ السعيد . ولكنني في تلك الفترة كنت أتساءل عما إذا كان ذلك نوعاً آخر من خداع الذات . فإذا كانت حاملاً ، فقد كان الأفضل أن نعود إلى لندن على الفور لنبدأ في التفكير فيما ينبغي أن نفعله . وفي بلدة تاينموث اختفت داخل دورة مياه السيدات لمدة نصف ساعة . وحينما خرجت ، رحنا نتجول فوق الرمال في اتجاه الجسر على النهر . وقلت : « حسناً ، أعتقد أن علينا أن نفكر في العودة إلى لندن غداً » . وبدا عليها الارتباك للحظة وصاحت : « لندن ، أوه ، ليست هناك حاجة لذلك . لقد جاءت منذ ساعة مضت . » كان هذا هو السلوك النموذجي لجوي ، كانت قد نسيت أن تذكر شيئاً عن الموضوع . وحينما قالت ذلك ، كنت أحملق نحو البحر في اتجاه اكس ماوث ، وفجأة تحول البحر أمام عيني ، وبدا جميلاً إلى درجة لا تصدق .

ولكن النقطة التي أحتاج إلى تأكيدها هنا ، هي أن ذلك الإحساس بالثقة الكاملة ، لا يمكن أن يفسر ببساطة على أنه نوع من انفثاء التوتر أو الارتياح . حقاً ، لقد كان انفثاء التوتر هو سببه المباشر . ولكن الشيء الذي تبدى لي بمثل هذا الوضوح هو أن ما كنت أراه أمامي في تلك اللحظة — هذا العمق الهائل من الغموض والجمال والسحر الذي بدا كما لو كان يتصاعد من البحر ومن شبه الجزيرة من ورائه — كان

شيئاً « موضوعياً » تماماً . لقد كان « موجوداً هناك حقاً » طول الوقت . أما الجانب الآلي من التوتر والارتياح فلم يفعل إلا أن أزاح القناع الذي كان يحجبه جانباً ، مثلما يفتح ستار المسرح لكي ينكشف عن المنظر الافتتاحي . فإذا كان ذلك كذلك ، فإنه ينبغي أن يكون الإنسان قادراً على أن يستخلص المتعة الروحية الصافية بأن يتعلم ببساطة أن ينظر إلى الأشياء كما هي . كيف ؟ من الواضح أن ذلك يكون بأن يتعلم المرء أن يعيد تصور العملية العقلية التي كانت قد كشفت لي عن نفسها منذ لحظات .

لم تكن بصيرتي الداخلية هنا شيئاً جديداً : إنها الاكتشاف الذي حققه بليك من أن الأشياء جديرة بأن ترى كأشياء « لانهائية » إذا ما أزيحت كل الأبواب التي تغلق فتحات الادراك . ولكن عند تلك النقطة ، تولى تدريبي العلمي تفسير المسألة . فماذا — على وجه التحديد — كانت طبيعة الفعل العقلي الذي يمكن أن يزيح أبواب الادراك ؟ إن البشر يملكون قدرات عجيبة معينة ترفعهم فوق مستوى الحيوانات ، ولا تقتصر هذه القدرات على القدرة على الوصول إلى حالة من البهجة النشوانة من خلال الشعر أو الموسيقى ، ولكنهم يستطيعون الوصول إلى النشوة الجنسية — بل وإلى قمة هذه النشوة بالقذف — دون الوجود الفعلي للموضوع الجنسي . ليس هناك حيوان يستطيع أن يمارس العادة السرية دون مهيج جنسي فعلي . وليس غير الإنسان من يملك هذه القدرة على بناء مجموعة معقدة من الاستجابات في العقل من خلال الخيال وحده . وبنفس الطريقة ، فإنه لا يوجد سبب يمنع الإنسان من أن يتعلم أن يزيح جانباً تلك الأقنعة المكونة من اللامبالاة والعادة التي تفصله عن الحقيقة . إنها ببساطة مسألة إعادة انتاج الفعل العقلي .

كنت أعرف أن هناك علاقة ما بين هذه البصيرة الداخلية وبين مـا حدث مع رودني في وندرمير ، ولكنني عند هذه المرحلة لم أفكر فيها

حتى نهايتها . بل إنها كانت أكثر اقتراناً باكتشاف معين كنت قد وصلت اليه حينما كنت في الفراش مع جوي في الليلة الثانية من الأسبوع الذي قضيته في طلاء الشقة . كانت هي قد غرقت في النوم ، وفجأة استغرقتني من لحظات التباعد الكامل التي يرى المرء فيها ماضيه ، فيعرف أنه ماض له معنى . ومرة أخرى ، كان بوسعي أن أرجع هذه البصيرة الداخلية إلى نوع من الاحساس بالانتصار ، ولكن حينئذ لا بد من أن تفسر النظرة التي يلقيها المرء من على قمة الجبل من خلال الاحساس بالجبل نفسه ، ولكنها شيء يختلف تماماً عن الجبل . كان جوهر هذه البصيرة هو الفهم الذي قال عنه كيركجارد [1] خاطئاً إن « الحقيقة هي الذاتية » . الحقيقة هي الموضوعية ، معرفة أن القيم إنما تقع هنـاك بالخارج ، وأنها توجد حقاً بمعزل عن أهوائي ورغباتي . لماذا أشعر بالسعادة حينما تذكرني نغمة أو رائحة بأحد أحداث الماضي ؟ لأنني أصبحت عارفاً بثراء الحياة وتنوعها ، ثم انطلقت خارجاً من تلك الغرفة الضيقة ، غرفة الذاتية . وحينما أقع في فخ تلك الغرفة ، لا يصبح شيء جديراً بأن يفعل ، بل إن المضايقات الصغيرة جديرة بأن تقذف بي في هوة اليأس . وحينئذ قد يذكرني حادث صغير — مثل الحادث الذي ذكره بروست عن قطعة البسكويت المغموسة في الشاي — قد يذكرني بوجود الآخرين ، ويصبح هذا الحادث مثل ضحكة هائلة تزيح جانباً كل ما أملك من قيم ومشاعر وتضعني موضع الاحتكاك مع شيء أكثر

---

١ كيركجارد — سيورين آبيي — ١٨١٣ — ١٨٥٥ — أول الفلاسفة الوجوديين المعاصرين الخارجين على هيجل . ففي تعارضه مع فلسفة هيجل الموضوعية ، أقام كيركجارد فلسفته على « الايمان والمعرفة والفكر والحقيقة » . قال بأن الإرادة الإنسانية ذات « الشفرة الحادة » هي التي تقرر علاقة الإنسان الشخصية بالله . كان كتابه « إما ، أو » هو أول وأهم أعمـاله (١٨٤٣) وظهر في وجه الموجة الهيجلية القوية التي كانت بعد هيجل تتخذ اتجاهاً يسارياً بالتدريج ، وكان هو أول الهيجليين اليمينيين . وظل مهملا حتى أعاد هايدجر وياسبرز الألمانيان اكتشافه في القرن العشرين . (هـ. م.)

أهمية بشكل لانهائي من « نفسي » التي أعرفها . أليس هذا هو سر كل الشعر ؟ أليس هذا هو السبب الذي جعل شيللي يشعر بالانبهار من القوة الخالصة الكامنة في الريح الغربية ؟

* * *

وعندما عدنا إلى لندن ، حصلت على وظيفة في مطعم « ليونز كورنر هاوس » في شارع كومنتري ، وكان عملي في هذه المرة بواباً للمطبخ . وكان هذا عملاً ممتعاً بما فيه الكفاية ، فقد سررت لحصولي على طعامي الجيد ، وبدأ وزني يزداد . والذكرى الوحيدة التي تجعلني أرتجف ، هي ذكرى امرأة عجوز من أبناء لندن كانت تكره الحياة ، وكانت تئن وتتوجع طول اليوم ، ويبدو على وجهها تعبير متجهم مليء بالاشمئزاز . ولم آخذ المرأة على محمل الجد أبداً حتى حدث ذات يوم أن رأتني العجوز الشريرة وأنا أتناول شيئاً من كعكة مزودة بالقشدة ، فأبلغت عني إلى المديرة . ولكن الأخيرة لم توجه إلي إلا قليلاً من اللوم . غير أن احتقاري لمرأة العجوز — الذي كان احتقاراً شديداً حتى انني أردت أن أضربها — جعلني أقرر أن أترك الوظيفة . وطرأ لي حينئذ أن حياتها لا شك كانت حياة كئيبة وخائبة ، ولكنها اختارت أن تكون سلبية في موقفها منها ، واختارت أن تظل ملتصقة بقيمها الذاتية الصغيرة الغضة ، تماماً كما اختار رودني أن يبقى بملابسه المبللة . وتزايد إدراكي لحقيقة أن البشر يموتون داخل زنزانة سجن تصنعه ذواتهم ، إلا إذا استطاعوا أن يجدوا الخلاص بتوجيه كل وجودهم إلى الخارج نحو شيء غير شخصي .

ومضيت أنام في حدائق هامبستيد هيث ، وأختار دائماً نفس البقعة تحت شجرة عند منحدر صغير ، ولكن حينما أصبح الطقس أكثر ميلاً للبرودة قررت أن أبحث عن حجرة مرة أخرى . وكانت المشكلة

الناشئة من الحقيبة المانعة من تسرب الماء الموجودة حول حقيبة نومي هي ان العرق لم يكن قادراً على التسرب ، ولذلك كانت الحقيبة تصبح مبللة دائماً في الصباح ، حتى أن داخل الحقيبة كان يبتل كما لو كان قد ترك عارياً مكشوفاً تحت المطر . واعتدت أن أغامر بالنوم دون الغطاء الخارجي المانع لتسرب الماء ، ولكن مع اقتراب الشتاء أصبح هذا الاجراء غير عملي بالتدريج . وهكذا ، ففي مساء يوم جمعة ، أخذت دراجتي إلى بلاكفيرز بريدج في جنوب لندن ، وتوقفت عند كل محل من محلات وكالات الاعلان ، لكي أنظر في البطاقات المعلقة في الخارج . وأخيراً عثرت على حجرة في بروكلي ، بالقرب من محطة نيوكروس . وكانت صاحبة البيت سيدة بدينة من أهالي لندن ، ذات أسرة كبيرة ، كانت أفضل من زميلاتها بما لا يناسب ، وكانت تفضل أن تنجز أمورها بدلاً من أن تعذب مؤجريها . وقلت لها إنني وجوي متزوجان ، ولكن لأن جوي تدرس في مدرسة المكتبات ، فإننا لا نستطيع أن نقضي معاً إلا عطلات نهاية الأسبوع . ولكنها كانت تعرف تماماً أننا لسنا متزوجين ، غير أنها لم تهتم بذلك ، فكانت جوي تقضي كل عطلة أسبوعية معي .

وكنت الآن في وسط مرحلة من الاهتمام بالمسائل الصوفية والباطنية ، وأقرأ سيرة « سانت جون حامل الصليب » وجان فان رايز برويك وجيوفاني سكابولي ووليام لو وجاكوب بوهم ، وكتاب والترهيلتون « سحابة عدم المعرفة » . ولحسن الحظ فإن مكتبة بروكلي العامة كانت تضم أحسن مجموعة من كتب التصوف في لندن ، وأكثرها كان موجوداً في قسم الحفظ في الطابق القائم تحت الأرض (البدروم) لأنها لم يكن يسمح بخروجها من المكتبة . وكان هناك سؤال معين يتملكني أكثر فأكثر ، وهو ما الذي يستطيع المرء أن يفعله في حضارة مثل حضارتنا ، لا تملك رمزاً حقيقياً للقيم الروحية . لقد كنت تستطيع في

القرون الوسطى إذا كنت تملك مزاجاً مثل مزاجي ، كنت تستطيع أن تتخلى عن العالم وتدخل أحد الأديرة . كان هذا بديلاً تستطيع أن «تختاره» ، وكان هذا البديل موجوداً حيث يستطيع كلّ إنسان أن يراه . ولكنني كنت بحاجة إلى عشر سنوات وأكثر لكي أدرك جوهر الدين متميزاً عن طقوسه المخيفة ، وخدمات الكنيسة المروعة في صباح كل يوم أحد ، بل ومدارس الأحد الأكثر كآبة بعد ظهر كل يوم من أيام الآحاد . لقد اتفقت مع إليوت في أن الدين ينبغي أن يكون شيئاً تستطيع أن تراه وأن تلمسه : مثل الانحدار الحاد الهائل لبرج كاتدرائية عظيمة ، بنوافذه الزجاجية الملونة ، وغناء الرهبان تحت ضوء الشموع ، والمواكب الضخمة بملابس الأرجوان والفضة والبخور المحترق . ولهذا السبب كنت ميالاً بقوة إلى الكاثوليكية . وكنت أحذر جوي من حين إلى حين من أنني قد أدخل ديراً في يوم من الأيام . ولم يكن هذا لأنني تقت إلى التبتل والرأس المحلوق ، لم يكن هناك سبب لذلك سوى أنني شعرت بأن علي أن أجد طريقاً في الحياة يتجاوب مع دوافعي الداخلية . أردت أن أفلت من هذه الحضارة التي أجبرتني على الاستسلام لمقاييسها المادية وقالت لي إن الإنسان ، أولاً ، هو حيوان اجتماعي .

وقبل عيد الميلاد ، اشتريت آلة كاتبة قديمة من صديق لبيل لقاء سبعة جنيهات ، وبدأت في نسخ القسم الأول من «الطقوس» الذي كان قد وصل إلى المشهد الذي يصبح فيه نان هو نيجنسكي . زارني فلاكس هالليداي في أحد الأيام ، وقرأت له أجزاء من هذا القسم . كان قد أصابه التعب من ليستر ، وقرر أن يصبح شرطياً في حي إيست إند في لندن . كان يريد أي شيء يشعره بالتحدي ويلون له الحياة . وقد حدث في هذه المناسبة أن قص لي القصة — التي ضمنتها فيما بعد في الفصل الثاني من كتاب «أصول الدافع الجنسي» والتي تروي

كيف قضى ليلة مع شرطي آخر في مضاجعة طالبة تدرس الفن ومصابة بالشبق الجنسي ، الواحد بعد الآخر ، والضوء يسطع ، حتى قذف كل منهما ست مرات داخلها ، بينما كانت الشقراء الأخرى ذات الشعر الذهبي فاقدة وعيها بعد أن حضرت حفلة عيد ميلاد كان فيها الكثير من الشمبانيا ، تتقلب في نومها على السرير المقابل . أدهشتني نهاية الحكاية : كيف قلب فلاكس الفتاة على بطنها حينما اشتكت أخيراً من إحساسها بالغثيان ، ثم ذهب فغسل يديه وأعضاءه التناسلية على الحوض ، ونظر إلى الغرفة ذات الأجساد الثلاثة المنهكة مستلقية ، لأن الشرطي كان قد سقط وسط المنافسة بعد مرته السادسة — و « شعرت بنفسي ... أنا المنتصر ! » .

وتركت مطعم ليونز قبل عيد الميلاد بفترة قصيرة لكي أعمل في مكتب البريد . وقضيت عيد الميلاد وحيداً في غرفتي ، أكتب ، وكانت جوي قد ذهبت إلى البيت لكي ترى والديها . كانا قد أصبحا غير مهتمين بالموافقة على وضعي في ذلك الوقت ، ولكنهما كانا يريدان منا أن نتزوج . ولم أكن قد شرحت لهم بعد أنني متزوج بالفعل . وفي خلال عيد الميلاد طرأت لي فكرة كتاب آخر . كانت قد مضت علي عدة سنوات وأنا أسجل يومياتي ، وأسجل فيها كل ما أهتم به أو يلفت نظري في الكتب التي أقرأها ، محاولاً أن أربط بين الأعمال المختلفة من أدب « اللامنتمين » — وقد جاءت هذه الكلمة من برنارد شو ومن تجاربي الشخصية . وأنا أحتفظ بيومياتي إلى جواري حينما أكتب . وهي مليئة بملاحظات عن رامبو وأكسيل وراسكولنيكوف وستيبنوولف وريلكه ونيتشه ، وكتاب نيبوهر : « طبيعة الإنسان وقدره » ؛ ومييستر إيكهارت ، وراما — كريشنا . وكانت النسخ الأولى من « الطقوس » مليئة باشارات غامضة اليهم ، حتى قررت أن الرواية التي أكتبها لا ينبغي أن يثقلها هذا النوع من الأشياء . ولذلك فربما كان من المحتم

أن أبدأ يومياتي ذات يوم بقول : « ملاحظات لكتاب « اللامنتمي » في الأدب ، وهدفه هو أن أثبت أن « اللامنتمي » كان تجسيداً لنموذج معين من التطور الأخلاقي حصل على أجمل ثمراته في التقاليد المسيحية » والملخص الذي يتلو هذا العنوان يكاد يكون في جوهره هو كتاب « اللامنتمي » الذي كتب في النهاية ، باستثناء واحد ، وهو أنه كان هناك فصل عن « اللامنتمي الضعيف » — أو بلوموف ، وجاتسبي العظيم وإيرنست دوسون ، وفيليبر من رواية « أكسل » التي كتبها ليزل آدم . وقررت أن أشرع في كتابته حالما أستطيع أن أدخل المتحف البريطاني . وكانت المشكلة هي أنه كان علي أن أحصل على وظيفة أخرى — ولم يكن لدي مال مرة أخرى ، وطبقاً ليومياتي ، كنت مديناً لحوي بجنيهين . وهكذا فقد ذهبت إلى مكتب العمل المحلي . فوجهوني إلى وظيفة في مغسل في دبتفورد . وكانت هذه الوظيفة واحدة من أشق الأعمال التي عملت بها . كنا نعمل في ورديات تبدأ في السابعة صباحاً . كانت صفائح صدئة مليئة بالماء والملابس المبللة تمر علينا فوق حزام متحرك ، وكان علينا أن نفرغها بسرعة فائقة . وسرعان ما امتلأت يداي بالجروح من الصفيح . وكان العمل مرهقاً لدرجة أننا كنا نعمل لمدة عشرين دقيقة ثم نستريح عشر دقائق أخرى ، فقد كان من المستحيل أن نستمر في العمل بهذه السرعة . وبدأ الجليد يتساقط بكثافة ، وهكذا فقد كان من الصعب أن أركب الدراجة إلى العمل . فالظلام كان ما يزال مطبقاً في السادسة صباحاً حتى ليمنع المرء من رؤية كتل الجليد . ولذلك فكثيراً ما كنت أدخل بالدراجة فيها . ولكن كان من الأكثر أمناً أن أسير معظم الطريق . ولقد أحببت حي دبتفورد ، بشوارعه المرصوفة بالحجارة ، وروافع الميناء تناطح السماء ، والسفن الضخمة أمام الأرصفة . وهو لم يتغير كثيراً منذ أيام عام ١٩٠٥ حينما شنق الأخوان ستراتون عقاباً لهما على قتل عجوزين — وكانت القضية

قد اكتسبت أهميتها لأنها كانت المرة الأولى في انجلترا التي تؤدي فيها بصمات الأصابع إلى حبل المشنقة . ولكنني وجدت نفسي أكره الوظيفة كرهاً فظيعاً حينما سرقت يومياتي من جيبي ذات يوم . ولا بد أن أحداً قد فتحها عند إحدى الصفحات التي أتحدث فيها عن الجنس ، فقرر أنها قد تكون نافعة تماماً إذا ما قرئت قبل النوم . وكنت قد جمعت بين ثلاثة أو أربعة كراسات صغيرة للجيب ، وهكذا فقد كانت هذه اليوميات تغطي ما لا يقل عن سنة كاملة ، وكانت خسارة كبيرة . وكتبت ورقة أطلب فيها إعادتها لقاء مكافأة ، ولكنها لم تعد إلي أبداً .

وفي نهاية شهر يناير (كانون الثاني) ، قال لي أحد معارفي إن مقهى جديداً كان سيفتتح في هاي ماركت وأنهم سيحتاجون إلى عاملين . وأخذت دراجتي إلى هناك وقدمت طلباً للعمل ، فقالوا لي إنهم يحتاجون إلى من يغسل الصحون . وتضم يومياتي ليوم ٤ فبراير (شباط) عام ١٩٥٥ هذه البداية :

« هذا الصباح هو أول الأيام الجميلة منذ نوفمبر (تشرين الثاني) — فأنا قادر على الجلوس في السرير أقرأ وأشرب القهوة والنافذة مفتوحة ، دون أن أشغل المدفأة الغازية لتدفئة الغرفة ، فأشعة الشمس تغمر كل مكان . إن العمل في المقهى في المساء يناسبني تماماً — وهو ليس متعباً حتى الآن ، ولن يكون كذلك إذا نظمت نفسي بحيث لا أترك الوقت ينساب من بين يدي . إنهم يعطونني الشطائر وآخذها معي إلى المنزل ، كما آكل منها طول النهار ، وهكذا أوفر على نفسي شراء الطعام ... »

وفي الحقيقة ، فإن هذه الوظيفة كانت أكثر الوظائف التي عملت بها امتاعاً . فلأول مرة منذ تركت المدرسة كنت أعمل أساساً مع شبان في مثل سني ، وكانوا في معظمهم من الطلاب الذين يدرسون الدراما أو الفن . وكان الجو المحيط بي مبهجاً . فقد كانت هناك نافورة ذات نبع كبير في وسط الأرضية ومصنوعة من رقائق من الزجاج

الملون الموضوعة في زوايا معينة حتى تجري المياه فوقها لتنزل في الحوض الكبير . وكانوا يسمحون لنا بأن نتناول شيئاً من المشروبات والأطعمة . وكانت المديرة سيدة بوهيمية صخابة وجعجاعة تدعى جابرييل جراهام كينج ، كانت تحب كل دقيقة من الوقت الذي تقضيه في العمل ، وكانت ميالة إلى الارتباط بذوي الشذوذ والتصرفات الغريبة لأنهم كانوا يروقون لها . وبعد بضعة أسابيع نقلوني من العمل في غسل الصحون وجعلوني أقدم الطلبات من وراء الحاجز . وكان هذا عالماً مختلفاً اختلافاً شاملاً بالنسبة لي ، عالماً متحضراً ومسلياً ، كما كانت هناك فرص كثيرة لتبادل كلمات الغزل مع طالبات الدراما الجميلات . وبالتدريج ، شعرت بالاسترخاء والهدوء . وكان ذلك مثل اطلاق تنهيدة هائلة بطيئة تنم عن الارتياح والتخلص من عبء ثقيل . وكنت أقضي أياماً طويلة في المتحف البريطاني ، أكتب « اللامنتمي » بسرعة عظيمة — لأنني كنت أفكر في موضوعاته طوال سنوات عدة — ثم أعمل كل مساء من الخامسة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف . وحينما كانت الجماهير تخرج من المسرح بعد العاشرة ، كان العمل يصبح مرهقاً فجأة ، وكان يحتاج تحكماً دقيقاً في الحركة حتى أتمكن من المحافظة على أربع آلات للقهوة تعمل في نفس الوقت . فلو أنني نسيت أن أصب القهوة في اللحظة التي تفرغ فيها الآلة ، فان هذا كان يعني أن أنتظر عشر دقائق قبل أن ألبي طلبات الزبائن . وحين كنا جميعاً نهبط إلى الطابق السفلي عند نهاية المساء ، ثم نخلع ستراتنا البيضاء ، كان يجتاحنا إحساس دافئ بالمشاركة ، وبالحب لكل إنسان منا — حتى للناس الذين نشعر بأنهم مضجرون بشكل عادي .

حينما كنت أكتب « اللامنتمي » كنت أشعر بإحساس من الاثارة الهائلة والقلق . كان الكتاب ينصب من داخلي كما تنصب الحمم المنصهرة الخارجة من بركان ، وكنت أعرف أنه كتاب جيد . كنت أكتب عن

نفسي ، وأرى نفسي منعكساً على مرآة فان جوخ ، ونيجنسكي ونيتشه ، وت. س. لورنس ، كنت أكتب عن رجال كانوا قد أصبحوا نصف منسيين — جرانفيل باركر وليونيد أندرييف وهيرمان هيسه . (ومن الأمور ذات الدلالة أن كتب هيسه عادت تطبع من جديد بعد « اللامنتمي » ، كما كتبت عنه كتب عديدة ، وعندي الآن معظمها ، ولا يذكر واحد منها كتابي . وسوف يظهر السبب بعد قليل) . كان موضوع الكتاب هم العاجزون عن التكيف في الحضارة الحديثة . الرجال الخلاقون الذين يشعرون ألا مكان لهم في سباق الفئران . ولكنني عنيت بأن أقرر أن اللامنتمي قــد لا يكون خلاقــاً . إن افتقاره إلى فهم نفسه قد يكون كاملاً إلى درجة أنه لا يبدأ في انجاز مهمة التطهير من خلال الخلق . لقد تحول كل من فان جوخ ونيتشه إلى شعلة متوهجة من اللانهائية ، ولكن أكثر اللامنتمين لا يتحولون إلى أكثر من جمرة خابية فلا ينتجون إلا بعض الدخان الأسود يلطخهم ويلطخ كل من حولهم . وقد كان لي أن أتبين جانباً كبيراً من هذه الظاهرة بين الجيل الأصغر في أمريكا ، بعدما يقرب من عشر سنوات .

لقد بلغت ثقتي بما أكتبه إلى الحد الذي جعلني أكتب في مذكراتي : « سيكون هذا الكتاب هو « الأرض الخراب » للخمسينات ، وينبغي أن يكون أهم الكتب التي تصدر في جيله . »

كنت ما أزال أسكن في نيوكروس ، ولكن حدث ذات يوم أن جاءني خطاب من دوروثي تقول فيه إنها تنوي أن تقاضيني طلبــاً للإعانة . ولم أكن قد أرسلت اليها نقوداً منذ بدأت أنام في حديقة هامبستيدهيث . وأبلغت صاحبة منزلي بأنني أريد الرحيل ، وانتقلت من منزلها بشيء من الأسف . وعثرت على حجرة في منطقة قذرة وراء شارع جراي إن . وكان علي أن أعبر حجرة جلوس الأسرة التي استأجرت إحدى الغرف عندها لكي أصل إلى حجرة نومي . وذات

يوم ، وبعد أن مر على سكني هناك ما يقرب من أسبوع ، قال لي أحد معارفي إنه قد طرد من مسكنه وأنه لا يعرف أين يذهب . فأخذته معي لقضاء تلك الليلة ، وفي الصباح التالي كان علينا أن نعبر بمسكن الأسرة في طريقنا للخروج . وفي ذلك المساء أبلغتني صاحبة المنزل بضروره اخلاء الغرفة . وقالت لي جابي – مديرة المقهى – إنها تعرف صديقة لديها غرفة تؤجرها في نوتينجهام بليس بالقرب من شارع باركر . وكانت الغرفة في شقة لطيفة في البدروم . ولأن صاحبة البيت الجديد كانت صديقة لجابي ، فقد كانت لطيفة سهلة المأخذ متسامحة بشأن الزوار حتى لو ظلوا معي طوال الليل . وكتبت هنا جانباً كبيراً من « اللامنتمي » في الأيام التي كنت أشعر فيها بالكسل فلا أذهب إلى المتحف . كانت الحياة مرضية أكثر مما عهدتها طوال سنوات ، وشعرت بأن القدر قد غير سياسته معي أخيراً . وكانت جوي تقضي معي أكثر عطلات نهاية الأسبوع ، وكانت تدرس الآن في مدرسة لعلوم المكتبات في إيلنج . وكنا أحياناً نقضي عطلات نهاية الأسبوع في الرحلات إلى الأماكن التي نريد أن نراها مثل كامبريدج وستراتفورد (التي كنت أعرفها منذ سنوات المراهقة) وكانتربري وتشيشستر وآروندل . وقد حدث في كاتدرائية كانتربري أن طرأت لي فجأة فكرة إرسال ملخص « اللامنتمي » إلى الناشر فيكتور كولانز . وكنت أقرأ كتاباً من المختارات الدينية التي جمعها بنفسه يدعى « عام النعمة » . ولم تكن فكرته عن الدين ، باعتباره مجرد مسألة حب المرء لرفاقه ، لم تكن هذه الفكرة قد راقت لي . (ولم أكن أملك أي صبر إزاء فكرة بابر عن « أنا وأنت » هي الأخرى) . ولكن كان من الواضح أن كولانز كان رجلاً يمكن أن يتفق مع فكرتي الأساسية ، وهي الدفاع عن القيم الدينية . وكنت في هذه الفترة أقوم بعمل صباحي إلى جانب العمل المسائي . كان موريس ويللوز قد جاء إلى لندن ووجد عملاً مؤداه أن يجلس

طول النهار إلى جوار التليفون في مكتب مقاول للمباني ، وكان قد تخلى عن هذا العمل واقترح أن أحتل مكانه . ولما كنت قادراً على المضي في كتابة كتابي هناك ، فقد توليت العمل . وسرعان ما بدأت أتشاجر مع أحد الرؤساء المولعين بالمعارضة كان يشعر بأنني أحصل على أجر دون مقابل ، واعترض على أنني أصنع الشاي على مصباح الغاز في المكتب ، وكان يخفي المصباح أحياناً ، فأعثر عليه ثانية ثم أقوم بغلي الشاي حينما يأتي إلى المكتب . وذات يوم قلت له أن يذهب إلى الجحيم . فقال لي إنني مفصول . ولكنني كنت حينئذ قد كتبت على الآلة الكاتبة الفصول الثلاثة الأولى من « اللامنتمي » . ثم كتبت خطاباً طويلاً إلى الناشر كولانز ، وأرسلت اليه ملخصاً للكتاب ، مع بعض الصفحات المختارة . وجاءني الرد مع عودة البريد تقريباً يقول إنه يفكر أنه من المحتمل أن يكون راغباً في نشر الكتاب — فهل لي أن أرسل إليه المخطوطة كاملة ؟

والآن إذ أفكر في هذا الكتاب ثانية ، أرى أن هناك نقطة انتقاد كبرى يجب أن تؤخذ على « اللامنتمي » : إنه مسرف في الرومانتيكية . إن الحالة السائدة فيه من رفض العالم ومن الاحتقار للحضارة مسرفة في إطلاقها وتجريدها . ويبدو لي الآن أن التفرقة التي وضعتها حينئذ بين الدين والنزعة الإنسانية هي تفرقة زائفة . كنت أعرف أنني قد تعاطفت مع إليوت ، واتفقت معه على أن « الحضارة لا تستطيع دون الدين أن تبقى وأن تنجو من الدمار » . وكنت أعرف أنني لم أظهر أي صبر إزاء النزعة الإنسانية الفقيرة ذات الطابع الجامعي التي وضعها كاتلين نوت في كتاب « ملابس الامبراطور » . فالحقيقة هي أن الموقف الأساسي للكتاب كان موقفاً إنسانياً . ولقد ظللت مشتتاً طوال سنوات بالنسبة لموقفي إزاء الدين . كنت في موقف الاتفاق الذهني الكامل مع الدين « الديناميكي » الذي تميز به القديسون (إذا استخدمنا مصطلح برجسون)

ولكنني لم أتفق مع الدين « الاستاتيكي » الذي نشأ عن تلك الديناميكية . وكنت بحكم تكويني النفسي غير مهيأ لأن أكون عضواً في أية جماعة أو عصبة من المتدينين . كما كان يزعجني تشاؤم المثقفين الدينيين ، مثل إليوت وجرين وبرنانوس ومارسيل وكيركجارد وسيمون فيل ، كما أزعجتني بنفس القدر الضحالة والكسل العقلي اللذان وجدتهما عند برتراند راسل و « أ . آير » . ولم أشعر بأي تردد في الاختيار بين الاثنين . وكان خطئي في انني افترضت أن هذا الاختيار ضروري ، لأنه لم يكن هناك ما أشترك فيه مع راسل إلا قليلاً — أو الكثير — يماثل ما اشترك فيه مع كيركجارد . كان علي أن أطرح على نفسي السؤال التالي : ما الذي يمكن أن يكون أكثر سهولة : تعميق الفلسفة حتى تتضمن استبصارات الدين ، أم « استئناس » الدين وطبعه بالطابع الإنساني بطريقة ما ؟ وكان موقفي هو رفض النهاية التشاؤمية المغلقة التي وصل اليها كيركجارد بشأن الفلسفة ، وتمسكت بنزعتي النشوئية التطورية المستمدة من برنارد شو : دون أن أرى أن هذا يجعل مني إنسانياً . لقد كان من المؤسف أن أستخدم كلمة « النزعة الإنسانية » في كتاب « اللامنتمي » وقد كان علي أن أغامر باختراع كلمة مثل « النزعة الراسلية » — نسبة إلى برتراند راسل .

لقد كان هناك مؤثر واحد هام على كتابة « اللامنتمي » لم أذكره حتى الآن : وذلك هو صديقي ستيوارت هولرويد . لقد تحدثت من قبل عن ألفريد رينولدز ، اليهودي المجري الذي أجبر على الهجرة من ألمانيا النازية ، وكون جماعة تدعى « الجسر » انتشرت في أوروبا كلها بعد الحرب بفترة قصيرة . وحينما التقيت به في عام ١٩٥٣ ، كانت هذه الحركة الأوروبية قد ضعفت وتلاشت ، وكانت جماعة صغيرة من الأتباع قد استمرت في الالتقاء في حجرة الفريد في واورويك آفينو ، ثم فيما بعد في منزله في دوليس هيل . كان ألفريد يبشر بنوع من النزعة

العقلية والإنسانية المستمدة من فلسفة جون ستيوارت ميل . كان يشعر بأن هتلر قد استولى على السلطة لأن الناس ــ بصورة أساسية ــ كانوا يؤمنون بالخرافات : أي أنهم سوف يسمحون لأنفسهم بأن ينقادوا للقساوسة أو الدكتاتوريين . ولو أن مبادئ فولتير قد انتشرت بصورة أوسع ، لأصبحت النازية شيئاً مستحيلاً . كان هذا بالنسبة لي تبسيطاً مسرفاً يبعث على السرور . وتذكرت ساعتها ، إير مجارد ، الفتاة الألمانية في مستشفى الحميات الغربي ، بكل طاقتها البركانية التي تبحث عن مخرج أو مجال . لم يكن باستطاعة فولتير أن يفيدها بشيء . وهكذا فرغم أنني حضرت عدداً كبيراً من اجتماعات جماعة « الجسر » ، فقد انتهيت دائماً إلى معارضة حديث ألفريد عن العقل الحلو الرصين . وأخيراً طلب مني أن أمتنع عن حضور أية اجتماعات أخرى ، فقد كنت قوة معطلة وأتسبب في التشويش على عقول الزملاء .

وكان أحد أتباعه الشبان هو ستيوارث هولرويد ، الشاب البالغ الوسامة الذي كانت له زوجة فائقة الجمال تدعى آن ، وكانا قد تزوجا منذ كانا في السابعة عشرة . لم يكن ستيوارت يتكلم كثيراً ، فقد كان طائراً هادئاً . ولكنني وجدته شديد الذكاء . وذات ليلة اقترحت على ألفريد أن أقدم قراءة لمختارات من الأعمال الأدبية التي أحبها في واحد من اجتماعات الجسر . وبدا له هذا الاقتراح لا يهدد بأي ضرر ، فوافق عليه . وكان ما علي أن أفعله حينئذ هو أن أختار بعض الفقرات التي تصور ما أريد أن أصل إليه : أن للطبيعة البشرية ملكات ذات طابع نشوئي ، تقع وراء « العقل » وأنها قد تتحول إلى العنف إن لم تجد التعبير عنها . واخترت بعض الفقرات المفزعة أكثر من غيرها من كتاب لورنس « الأعمدة السبعة » ، وفقرات من دستويفسكي ونيتشه وتولستوي وفان جوخ (الخطابات) وبليك ، وغيرهم . وكنت أعرف أن ستيوارت طالب يدرس الشعراء الميتافيزيقيين ، فطلبت منه أن يقرأ

لي فقرات من دون وهربرت وبليك ، فوافق على ذلك . ولكنه لم يوافق فقط ، بل رأى أيضاً ما أسعى إليه . ونجحت جلسة القراءة رغم أن ألفريد صاح شاكياً عند نقطة معينة : « إنك تغرس سكيناً بين ضلوعي » . وبالطبع لم يتفق معي ، وكان من الطبيعي أن يشعر بالتعاسة بسبب خداع أحد أتباعه المقربين .

واكتشفت أن ستيوارت كان يحاول الكتابة ليكسب معاشه . فكتب مقالات لمجلة شعرية صغيرة ، بينما كانت زوجته تكسب معظم معاشها بالعمل كاتبة على الآلة الكاتبة والاختزال . وكان ستيوارت يعرف جانباً كبيراً من الشعر ، ولكنه لم يقرأ إلا القليل في غيره . وعرفته بدستويفسكي ، وبكتاب ويليام جيمس « تجارب دينية متنوعة » وبالفلسفة الوجودية وبأعمال هيسه وريلكه . وتحمس ستيوارت لكتاب ريلكه « مرثيات ذيونيزيس » واقترح على المجلة الشعرية أن تسمح ـ بأن يكتب مقالة يقارن فيها بينه وبين قضيدة إليوت « الأرباع الأربعة » . وأمضيت ليلة ألخص فيها أفكاري لمثل هذه المقالة ، وأخيراً جمع ستيوارت مادة بلغ من كثرتها أن استطاع اقناع المجلة بالسماح له بأن يفرد الموضوع في ثلاث مقالات ، إحداها عن إليوت ، والثانية عن ريلكه ، والثالثة للمقارنة بينهما . وظهرت هذه المقالات بعد الانتهاء منها ، وقرأتها . ويجب أن أعترف بأنني شعرت بنوع من الغيرة إذ قرأت الكثير من أفكاري مطبوعة تحت اسم مختلف . ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير ، حتى أخبرني ستيوارت بأنه قد قرر أن يفرد المقالات الثلاث لكي يحولها إلى كتاب عن الشعر والدين . وأصبح هذا الكتاب هو « الخروج من الفوضى » الذي نشره كولانز في انجلترا ، ونشره الناشر هوفتون ميغلين في أمريكا . ولكنني حينما تبينت أن ستيوارت قد عني حقاً بأن يكتب كتاباً نقدياً قررت أن اؤلف أنا الآخر كتاباً . حقاً إنه ليست هناك حقوق نشر للأفكار ، كما أن لستيوارت عقلاً يملكه .

ولكنني بتعريفه على عدد كبير من الكتّاب الذين يعنون لي الكثير ، فإنني قد أعطيته دفعة في نفس المجال من الأفكار . (وطبقاً لهذا ، فحينما ظهر كتابه أخيراً ، محتوياً في التعريف الذي وضعه الناشر على عبارة صريحة تقول إنه قد يبدأ قبل « اللامنتمي » — قال بعض النقاد إنني تابع لستيوارت وتلميذ له) . وكان هذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى كتابة « اللامنتمي » بمثل هذه السرعة . فقد أردت أن أصدره قبل كتاب « الخروج من الفوضى » .

* * *

وماتت جدتي حينما كنت أكتب « اللامنتمي » . وشعرت بالأسف والحزن : فقد كنت شديد الولع بها ، وكان من الممكن أن أشعر بسعادة هائلة لو أنني تمكنت من أن أهديها أول نسخة من أول كتاب لي . وحينئذ ، وبعد شهور قليلة ، أصيبت أمي بمرض شديد مفاجئ . كانت مصابة بألم في المعدة . ووصف لها الطبيب نوعاً من الماء المعدني القلوي الفوار . وكانت الزائدة الدودية لديها متضخمة ، وحينما انفجرت أجريت لها عملية جراحية في البريتون . ولم تنجح هذه العملية فأجريت لها عملية ثانية حينما كانت ما تزال بالغة الضعف . ولم تنجح الجراحة الثانية أيضاً ، وبدا لي أنني لا بد سأفقدها قبل أن يطبع « اللامنتمي » . وأرسلت إلى كولانز كل ما كنت قد كتبته حتى تلك اللحظة وقلت له إنني لن أستطيع أن أكتب المزيد لمدة طويلة ، وعدت إلى ليسستر . ولم يكن هناك الكثير الذي أستطيع أن أفعله إلا أن أزورها بانتظام ، ولكنها شرعت تتحسن ببطء شديد بعد المزيد من العمليات ، رغم أنها فجأة بدت أكبر من أعوامها الثلاثة والأربعين بعشر سنوات على الأقل . وعدت ثانية إلى لندن ورحت أعمل في « اللامنتمي » بسرعة غير عادية ، وشرعت أكتب مباشرة على الآلة الكاتبة بدلاً من أن أكتب أولاً بخط

اليد . واستمر جريان الكتابة سهلاً ومنطلقاً ، فكنت أكتب عشر صفحات في اليوم . ولكن كانت هناك معوقات مختلفة . فقد جنت والدة صاحبة البيت ذات يوم ، وراحت تقذف بعشرات من زجاجات اللبن إلى الطريق ، وكان لا بدّ من نقلها إلى المصحة العقلية . وكاد بيل هوبكينز يتسبب في طردي من شقتي ذات يوم آخر بعد أن قضى ليلة عندي نائماً على الأرض . فقد غادر البيت في موعد أول باص في الصباح ، ثم اتصل بالتليفون في السادسة صباحاً لكي يسألني إن كان قد نسي علبة تبغه عندي . وقامت صاحبة البيت من فراشها لكي تجيب على التليفون ، ففتحت باب غرفتي ورأت صديقين آخرين من أصدقاء سوهو نائمين على الأرض . وكانت تعليقاتها لاذعة ، وإن كانت محقة في ذلك ، ولكنني بدأت أفكر في الانتقال .

* * *

وعدت أنا وجوي إلى كورنوول في أغسطس (آب) ، بالدراجات هذه المرة . وكان كولانز قد كتب لي منذ قليل ليقول لي إنه قد قرر نهائياً أنه يود أن ينشر كتاب « مدخل الألم » كما كان يسمّى كتاب « اللامنتمي » في ذلك الحين . وكنت بالفعل أشعر بأنني قد اخترقت الحاجز . فأخيراً ، وبعد ثماني سنوات كنت في أثنائها « مصاباً بطاعون الزحام » باستمرار ، كنت أملك سبباً للسعادة . وكنت قد وجدت فتاة لاءمتني تماماً ، ولدي وظيفة أستمتع بها ، وصاحبة بيت معقولة ، وقد قبل كتابي الأول . فهذه الاجازة تظل في عقلي مشبعة بذكراها الذهبية المتوهجة التي رافقتها .

* * *

وكان أنجوس ويلسون قد قرأ القسم الأول من رواية « الطقوس » وراق له . والآن ، حينما أخبرته أن كولانز مهتم بكتابي الجديد ،

اقترح بأن أسمح لناشره الخاص فريد واربورج ، من شركة سيكر وواربورج للنشر ، بأن يراه . وكان واربورج بادي الضجر حينما أخذت اليه المخطوط ، ولكنه اتصل بي بعد أربع وعشرين ساعة بلهفة شديدة لكي يقول لي إنه مستعد لأن يوقع معي عقداً وأن يدفع لي مبلغاً من المال مقدماً على الفور . وقررت ألا أتخذ قراراً فورياً ، ولكن هـذا العرض جاء لكي يؤكد لي أن « اللامنتمي » كان كتاباً يمكن أن يحدث تأثيراً فورياً هائلاً . وكنت قبل عامين قد قررت أنني أعددت نفسي لانتظار الشهرة بعد أن أبلغ الخمسين . ولكن لم يكن هناك هدف من الانتظار لقبول كتابي الأول ، بل أن أبدأ حياتي ككاتب فعلي . وربما كان من الأفضل لي أن أستمر في الكتابة ، حتى ولو لم يكن هناك من يهتم بذلك ، وحينئذ ، وحين يأتي النجاح ، فربما يكون لدي اثنا عشر كتاباً أتقدم بها للنشر . ولكن بدا لي الآن أن مثل هذه النزعة الرواقية الزاهدة لا ضرورة لها .

وقبل عيد الميلاد بوقت قصير ، بدأت بالاكتفاء بالعمل لنصف الوقت فقط في المقهى ، وشرعت أعمل في « الطقوس » مرة أخرى . وكان كولانز قد قبل المخطوط الكامل لكتاب « اللامنتمي » وأعطاني خمسة وعشرين جنيهاً مقدماً من مكافأته . وقررت أن أعطيه لكولانز بدلاً من سيكر وواربورج لأن فريد واربورج كان يريدني أن أقوم بتعديلات عديدة فيه ، فقد فكر في أن الفصل الخاص بفان جوخ ولورانس ونيجنسكي يحتاج إلى بعض التوسع . أما كولانز فقد اقتنع به كما هو ، وهكذا فقد قبلت عرض كولانز . وفي نفس الوقت ، كان من الممتع أن أجد ناشرين مهتمين بكتابي . كان كولانز ، رغم أنه رجل لطيف وممتع من نواح كثيرة ، ذا ميل إلى الانفجار في لحظات من الغضب المشبع بالاحساس المتضخم بصواب رأيه ، أما واربورج فكان يحاول أن « ينتف ريش » أحد كتّابه إذا تمتم أمامه بما يظنه نوعاً

من الامتهان لكرامته . وقد كان كولانز هو أول من أخذني إلى مطعم لكي أتناول أكلة غالية ، فأكلنا سمك السالمون المجفف — الذي أصبح أكلة مفضلة عندي منذ ذلك الحين — وتبعه نبيذ أحمر ممتاز . وفي المساء الذي أعلن فيه كولانز قبوله النهائي للكتاب ذهبت أنا وجوي إلى سيما كارلتون لكي نشاهد فيلم « سيقان دادي الطويلة » من تمثيل ليزلي كارون وفريد أستير ، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى المقهى . وما تزال اللازمة التي ظل أستير يقولها : « لازم يجيب حاجة » ، ما تزال تدمغ الذاكرة إلى هذه الفترة كلها حينما أدير الأسطوانة التي تحمل الأغنية على المسجل . ولقد كنت أستمتع دائماً بقراءة ما كتب عن فترات النجاح الأولى في تراجم كتابي المفضلين — ويلز وشو وتشيسترتون ، أما الآن فقد بدا أنني أمر بهذه الفترة ، ولقد كانت فترة أكثر جمالاً مما كنت أتوقعه .

وجاء عيد الميلاد وذهبت إلى ليسستر . وكانت أمي الآن في البيت ، يبدو عليها الكبر والتعب ، ولكنها تتماثل للشفاء ببطء بعد خمس عمليات جراحية . وكان بوسعي الآن أن أذهب مع أبي إلى نادي عمال كولمن رود فيقدمني إلى الناس « كمؤلف » ، ولم يعد وضعي كما كان غامضاً أو غير مفهوم .

وبعد عيد الميلاد قررت أن الوقت قد حان مرة ثانية لتغيير مسكني . ولم يكن لدي هذه المرة ما أشكو بسببه من صاحبة المنزل . ولكن خمسين شلناً في الأسبوع كانت أكثر مما أستطيع توفيره من الجنيهات القليلة التي كان لا بدّ أن تكفيني حتى يوم نشر الكتاب في شهر مايو (ايار) المقبل . ورأيت اعلاناً على لوحة للاعلانات في نوتينج هيل ، فطلبت الرقم . وردت علي فتاة ذات صوت ممتع ودعتني للذهاب لرؤيتها . وكان المنزل في حي تشبستو فيللاز ، ويقع على إحدى النواصي وكان خرباً تماماً . وكان المنزل قد ترك خالياً لعدة سنوات ولكن مالكته أعطته لابنتها ، آن نيكولز ، صاحبة بيتي القوية . وفكرت في أن

تكسب بعض المال بتأجير الغرف ، ولكن لما كان المنزل في حـــالة سيئة ، فورق الجدران ممزق والنوافذ محطمة ، فقد كانت في حاجة إلى من يساعدها في إصلاحه . وشرحت لها حاجتي — وهي غرفة رخيصة جداً — فعرضت علي عرضها . كان بوسعي أن أحصل على الحمام العلوي مقابل جنيه واحد في الأسبوع (ولم يكن هناك حمام ، وإنما مرحاض أسيء استخدامه) إذا ساعدتها في إصلاح بقية المنزل . ووافقت على ذلك ، وانتقلت إلى المنزل على الفور . واهتم بيل هوبكينز أيضاً بالموضوع ، وكان في هذه الفترة يعمل محرراً مسائياً في جريدة « نيويورك تايمز » وأراد أن يكون أكثر قرباً من مكتبه .

كان شهر يناير (كانون الثاني) شديد البرودة ، ولم يكن لدي أي أثاث . فكنت أنام في حقيبة نومي على الأرضية العارية للحمام ، وأطهو طعامي على موقد كهربائي صغير . وكان تنظيف المنزل مسألة مجهولة وصعبة بالنسبة لي ، ولكنني عملت فيها بجد . وكانت آن رسامة ، وكان كل أصناف البشر في سوهو يروحون ويجيئون في المنزل .

وفي فبراير (شباط) عرض علي أنجوس ويلسون أن يعيرني كوخه بالقرب من بيري سانت إدموند حتى أتمكن من الانتهاء من « الطقوس » دون ازعاج . وقبلت العرض شاكراً ، فأخذت دراجتي إلى هناك في يوم عاصف الريح ، حاملاً آلة كاتبة صغيرة ، استعرتها من لورا دل ريفو ، ووضعتها على ظهري ، ومكتبتي العادية في حقيبتي . كان الكوخ منتصباً في وسط أحد الحقول ، وليس فيه كهرباء ، وليس هناك إلا أنابيب الغاز . وبعد وصولي بيوم بدأ الجليد يتساقط ، وسرعان ما أصبح من الصعب أن أخرج من الكوخ أو أن أدخل إليه . ورحت أعمل باجتهاد ، ورتبت نفسي على أن أفرغ من « الطقوس » في خلال أسبوعين ، ولكنني لم أكن راضياً عنها . لم تكن هذه هي الرواية التي

ظللت أعمل فيها طوال هذه السنين . والحق ، ان كتابة « اللامنتمي » جعلتني أشعر أنني في غير حاجة إلى أن أضع كل أفكاري في رواية . وهكذا ، فقد أسقطت من حسابي النموذج « اليوليسيزي » المعتمد على الرجوع المتقاطع إلى أعمال أخرى أو على الايحاء ببناء متشابه مع بناء عمل قديم ، وحاولت أن أكتب سرداً أكثر مباشرة . ولقد كان هذا شيئاً بالغ الصعوبة لسبب سوف يكون واضحاً على الفور لأي كاتب روائي . لقد كتبتها كلها ثم أعدت كتابتها المرة بعد المرة . وهناك صفحات أعيدت كتابتها اثنتي عشرة مرة. وكانت المخطوطة النهائية تتكون من سبعين ألف كلمة على الأقل ، وعلى ذلك فمن المحتمل أن أكون قد كتبت نصف مليون كلمة عبر خمس سنوات . وكان معنى كل هذا أنه لم يكن بامكاني أن أقوم بالمهمة من خلال نظرة طازجة جديدة ، بل كنت قد فقدت حاستي النقدية تماماً بالنسبة لبعض الفقرات الأقدم عهداً . كان الأمر أشبه بمحاولة إعادة بناء منزل سبق لك أن هدمته عشرين مرة ، مستخدماً مزيجاً من قوالب الطوب الجديدة والقديمة . (والحق أنني حينما بدأت كتابة النسخة التي نشرت بالفعل في هامبورج بعد سنتين ، وجدت أنه من الضروري أن أنسى كل النسخ القديمة ، وأن أكتب كتاباً جديداً تماماً) .

ومع ذلك ، فقد فرغت منها أخيراً ، وسلمت إلى كولانز ، الذي أعلن أنه لن يستطيع أن ينشرها . وقال إن الموضوع — موضوع القاتل السادي — موضوع رداءة ، رديئة بالغة ، ولكن الكآبة المعتمة اللانهائية للمشاهد نفسها كان لها تأثير مقبض إلى درجة كبيرة على نفسه . وقال لي إنه يشك في أنني لست روائياً ، ونصحني بأن أبدأ كتاباً فلسفياً آخر . ولكن رأي أنجوس ويلسون في الكتاب كان أكثر تفاؤلاً . قال إن الرواية فيها الكثير من الأخطاء ، ولكنه يستطيع أن يوصي واربورج بنشرها إذا وافقت على تصحيح أخطاء البناء فيها . ووافق

واربورج على هذا ، وقدم لي خمسين جنيهاً من مكافأتها مقدماً ، كنت في مسيس الحاجة اليها .

وحينما عدت إلى تشيبستو فيللاز ، اكتشفت بكل اشمئزاز ، أن مرحاضاً بكل لوازمه قد وضع في غرفتي . وكانت كتبي وبقية حاجياتي كلها مبعثرة على الأرضية في كل مكان . وقالت آن – لتفسر لي هذا الوضع – إن مفتش الصحة أنذر بأن يطرد الجميع إلى الخارج إلا إذا وضع مرحاض في المنزل . ونقلت كل متعلقاتي إلى حجرة أخرى في الطابق الأسفل ، ووافقت على أن أدفع عشرة شلنات زيادة في الأسبوع مقابل ذلك . وبشكل عام ، فانني أشك في أن هذه الحجرة كانت تساوي ذلك بمثل شكي في أن الحمام كان يساوي جنيهاً كل أسبوع ، ولكن التحرر الكامل من ربقة صاحبة المنزل العادية كان أمراً هاماً ، وكنت سأشعر بالأسف بالفعل لو أنني غادرت المنزل . وكانت غرفة الطابق الأرضي أوسع بقليل من الحمام ، وهكذا كان بوسع بيل أن ينتقل معي أيضاً . وكان يحصل على مرتب جيد من النيويورك تايمز ، وكنت أقترض منه في فترات انتظاري للمبالغ التي قد تصلني مقدماً .

وكانت هذه فترة سارة . كنت أرى الكثير جداً من الناس ، وأمضي ليالي بكاملها في الحديث مع بيل ، بل إنني ذهبت إلى بعض الحفلات . وعملت في بعض الوظائف الغريبة المتنوعة ، حينما يصبح نقص النقود خطيراً : فعملت لبضعة أسابيع في مقهى نورثمبرلاند أفنيو ، وبضعة أسابيع أخرى في جمعية الطلاب في صنع الأعلام ليوم عيدهم .

وأخيراً اقترب يوم النشر . وأخبرني كولانز بأن صحفياً من جريدة «إيفننج نيوز» يريد أن يجري مقابلة معي ، فأخذت دراجتي لكي أرى دافيد داونرايت الذي كان قد سمع بأمر كتابي من جون كونيل . وابتهج دافيد – الذي كان شاباً هادئاً على شيء من الخجل ، ولم يكن أبداً

بمثل ما كنت أتوقع الصحفي أن يكون – ابتهج حينما حكيت له عن النوم في حديقة هامبستيد هيث ، وقال إن هذه الواقعة كانت مــادة « طبيعية » لكتابة قصة .

وجاء يوم السبت ، ورأيت ملاحظة في واحدة من الصحف المسائية ذكرت أنني أستطيع أن أتوقع عرضاً للكتاب في جريدة « الأوبزرفر » . واشتريت جريدة « الايفننج نيوز » ولكنني لم أر فيها أي عرض . وأخذت جوي إلى السينما . وحينما عدنا اكتشفت أن دراجتي الهوائية قد سرقت من مكانها بجوار الباب . وبدا لي هذا نذيراً بالنحس . استيقظت في تلك الليلة ومرة أخرى شعرت بذلك الإحساس بالنفاذ داخل الأشياء ، والرؤية عبرها – ولكنه قال لي هذه المرة عن سخف الحياة الكامل وعبثها ، واحتمال أن لا تكون الحياة كلها سوى مهرب من رعب الموت ، وأن العلاقات الإنسانية ليست سوى نوع من الخداع المؤقت لتجعلنا ننسى الرعب الذي ينتظرنا . وبدا لي أن كل إنسان يعيش وحيداً كما وجد ، وأن تجمعنا الإنساني لا يستطيع أن يحمينا بأكثر مما يحمي الغنم تجمعها من سكين الجزار .

وفي الصباح التالي أسرعت إلى الناصية واشتريت « الأوبزرفر » و « صنداي تايمز » ، ثم اندفعت عائداً دون أن أفتحهما . وأعطيت لجوي « الصنداي تايمز » بينما رحت أنا أقرأ الأوبزرفر . وكان العرض الذي كتبه فيليب توينبي رائعاً ، يقارنني فيه بسارتر ، قائلاً إنه بشكل عام قد وجد نفسه يفضل أسلوبي ومنهجي . وقرأت جوي بصوت مرتفع فقرات من العرض الذي كتبه كونوللي في « التايمز » ، وكان في مثل جودة عرض توينبي . وفي هذه اللحظة صعد شخص من البدروم لكي يهنئني على العرض الذي قدمته « الايفننج نيوز » . ودون أن نصدق أنفسنا ، رحنا نفحص « النيوز » مرة أخرى ، ووجدنا فقرة

كتبها جون كونيل تحت عنوان « كاتب كبير — وهو في الرابعة والعشرين فقط » .

وصاح ساكن البدروم قائلاً إن التليفون يطلبني . وكان المتكلم صديقاً يريد أن يهنئني . ولم أكد أصعد السلم حتى طلبت مرة أخرى ، وكان صديقاً آخر .

وظل التليفون يدق بانتظام لمدة أسبوع . وفي اليوم التالي — يوم الاثنين — وصلني كوم هائل من الخطابات ، وبدا لي أن كل صديق كنت قد عرفته طول عمري ، قرر أن يكتب إلي ليهنئني . واتصلت « الصنداي تايمز » بي لتسألني إن كنت على استعداد لأن أكتب لهم عروضاً للكتب بانتظام على أن أحصل على أربعين جنيهاً لقاء كل عرض . ودهشت لضخامة المبلغ المعروض . واتصل بي التليفزيون .والاذاعة البريطانية لكي يستفسرا عن الموعد الذي سأكون فيه مستعداً للتسجيل . وفي مساء الاثنين ، ظهرت مقالة دافيد وينرايت على صفحة كاملة بالصور . وكان المحققون الصحفيون يأتونني بمعدل أربعة كل يوم . وحصلت على أكلتي الثانية الغالية في أحد المطاعم مع جودفري سميث من جريدة « الصنداي تايمز » .

وبالصدفة ، ظهرت مسرحية جون أوزبورن « أنظر خلفك في غضب » على مسرح الرويال كورت في نفس الأسبوع الذي نشر فيه كتاب « اللامنتمي » . وكتبت « الصنداي تايمز » عن كلينا معاً في باب « أتيكوس » ، وكتب ج. ب. بريستلي مقالاً عن كلينا في مجلة « نيو ستيسمان » . واستخدمت « الصنداي تايمز » عبارة « الشبان الغاضبين » لتصفنا ، وفجأة بدأت شريعة جديدة . وأضيف كينجسلي آميس وجون وين إلى « الشبان الغاضبين » . واتصلت بي جريدة الديلي اكسبريس ، لكي أساهم مع أوزبورن وهاستينجز في كتابة سلسلة من المقالات

بعنوان : « الشبان الغاضبين » ولكي نفسر لماذا نحن غاضبون ؟ ولكنني لم أكن غاضباً بأي شكل — إلا من سنوات نضالي . أما الآن وقد اعترف بي ، فقد كانت — حتى هذه الصعوبة — مقبولة بشكل ما . ولكن جريدة « الاكسبريس » كانت تدفع جيداً ، فوافقت على كتابة المقالات .

لم يكن هناك ما يحيرني ويزعجني سوى شيء واحد — وهو أنه رغم كل ذلك المديح والثناء ، فإنني — كما بدا لي — أثير عداء عنيفاً لأفكاري وسط كل القطاعات . ففي ذات مساء ، انضممت إلى جماعة من المعارف الجدد في مطعم لتناول العشاء ، وكنا جميعاً في حفل أقامته مارجوت وورميسلي من مجلة « الانكاونتر » . وكان يجلس في مواجهتي الكاتب الروائي كونستانتين فيتزجيبون . وسألتني مارجوت عن رأيي في ديلان توماس ، فأجبت بأن معظم أعماله لا تروق لي إلى درجـــة كبيرة — وأنها كلها تبدو أعمالاً عميقة ولكنها بلا معنى . ولدهشتي ، اصطبغ وجه فيتزجيبون باللون الأحمر وصرخ في وجهي ودعاني إلى القتال في الخارج ... « أنتم أيها المتسلقون المبتدئون الصغار الأغبياء الذين يظنون أنهم يمتلكون العالم لأنهم نالوا الكثير من الدعاية ... » . واستطاعت مارجوت أخيراً أن تهدئه ، ولكنه ظل يزمجر في وجهي بغيظ بقية المساء . وخمنت أنه لا بدّ يعرف توماس ، ولكن كان من الصعب أن يكون هذا على علاقة بانتقادي لشعر توماس . وبعد ليلتين ، أفرغ كوباً من الجعة فوق رأس صديق لي كان يُدافع عني في حانة من حانات سوهو . وكان هذا الصديق ، دان نارسون ، قد كتب مقالاً عني في « ديلي ميل » .

وقد ازددت تعوداً على التشويه السخيف لأفكاري ، وعلى أن يعاملني الصحفيون المعجبون كما لو كنت عقلاً ألكترونياً . ولقد كرهت هذا ، لأنه كان كأنما ينظر إلي الناس من خلال مرآة مشوهة . فبعد سنوات

من التفكير في نفسي باعتباري وارث إليوت وجويس — وكلاهما ينتميان إلى التقاليد الفئوية المتعالية وعملا في عزلة وهدوء — وجدت نفسي الآن أعامَل كما لو كنت نجماً سينمائياً ، أو كمعجزة ثقافية ، أو كطفل عبقري . ولا شك أن هذا كان مرضياً أكثر من أن أكون مجهولاً ، ولكنه أيضاً كان سبباً لاستنزاف هائل في طاقتي . وإلى جانب هذا ، فقد أحسست بالغبطة والغرور بسبب الكثير من عروض المحاضرات التي انهالت علي واستجبت لها جميعاً ، فمضيت أسافر في تتابع سريع من أوكسفورد إلى كامبريدج إلى إيتون إلى نورث هامبتون إلى ليستر بل وإلى جلاسجو أيضاً .

وفي كل هذا ، مضى بيل هوبكينز يلعب دوراً شبيهاً بدور ميكيافيللي . وكان مثلي قد أعجب دائماً بالحيل المقاتل ، الأكبر سناً من الكتّاب ، من فيكتور هيجو إلى برنارد شو وويلز . وكان يؤمن بأن على الكاتب أن يهيأ لأن يكون صاحب نفوذ وتأثير قوميين . بل إنه كان أكثر احتقاراً من ميلتون للفضيلة الواحدة . وكان مثله الأعلى نوعاً من الكاتب — السياسي ، المستمد من صورة ما لبرنارد شو . وذات يوم جاءت صحفية لكي تقابلني وكان بيل موجوداً ، فاشترك في المناقشة بحماس . وعبّر عن وجهة نظر عنيفة في عدائها للنساء . وحينما ظهرت مقالتها كانت مقالة مريرة وقاسية ، ولكنها اقتبست كل آراء بيل ونسبتها إلي دون أن تذكر بيل نفسه .

وملأ نجاحي قلب بيل بالتصميم على أن يشارك في المعركة . وبدأ يعمل مثل آلة بخارية في كتابة روايته « المقدس والمنحط » ، التي سرعان ما قبلها أحد الناشرين على الفور . وكان ستيوارت هوليورد قد انتهى من كتابه « الخروج من الفوضى » ، الذي كان كولانز قد وافق على نشره .

وكان نجاحي المالي ملحوظاً . وكان كولانز قد طبع الطبعة الأولى

من خمسة آلاف نسخة . ولكنها نفدت من السوق في خلال بضعة أيام بعد النشر . وبعد ذلك ظهرت الطبعة تلو الطبعة في تتابع سريع . وبلغ ما بيع من النسخة الأصلية للكتاب حوالى أربعين ألف نسخة . ووافق ناشر أمريكي هو هوفتون ميغلين على طبع الكتاب ونشره في سبتمبر (ايلول) . ونشرت مجلة « التايم » تحقيقاً معي على صفحة كاملة قبل النشر بقليل ، وسرعان ما أصبح الكتاب من أوسع الكتاب انتشاراً في امريكا أيضاً .

ولم أكن أستمتع كثيراً بالنجاح ، ولكنني كنت أستمتع بأن يكون معي ما يكفي من النقود لكي أعيش كما أريد . وكان هذا هو كل ما في « الانفجار » من جوانب ممتعة . وكنت قد اشتريت « جراموفون » رخيصاً ، وأصبح باستطاعتي أن أذهب إلى سوق الكتب أو « باب الكتب » الذي يبعد عن تشيبستو فيللاز مسافة خمس دقائق ، فأغرق وسط تسجيلات الموسيقى والكتب المستعملة ، ثم أكتب « شيكاً » بعشرين جنيهاً أو نحوها ثمناً لما آخذه . وما زلت أذكر البهجة الطاغية التي كنت أشعر بها وأنا أفحص مشترياتي بعد أن أعود إلى البيت . لقد اشتريت نسخة جديدة من دائرة المعارف البريطانية ومجموعة أرنولد توينبي « دراسة للتاريخ » . ولكن أكثر الأشياء متعة كان هو الذهاب الى المحلاّت الفاخرة في بمبريدج فيللاز وشراء دجاجة باردة مطهوّة بالفعل ، وكميات من الزيتون والكرفس والمشهيات الموضوعة داخل أكياس مملوءة بالخل ، ثم شراء زجاجة من النبيذ البورجاندي الممتاز من المحل المجاور لبيع الخمور ، ثم دعوة جوي إلى عشاء أو غداء بارد . كان من الممتع أن أكون قادراً على دعوتها إلى مطاعم سوهو الجيدة ، أو إلى تلك الحانة المواجهة لهايدبارك ، حيث يستطيع المرء أن يجلس في الشرفة ويتناول طعام الغداء البارد الجيد أو يشرب الجعة الممتازة . كنت قد قضيت سنوات طويلة وأنا لا آكل غير الفول أو

الفاصوليا المحفوظة والخبز والجبن دون شكوى ، وأنا أومن — بأمانة واخلاص — أنني غير مهتم بالطعام . ولكنني اكتشفت أنني مستمتع بالطعام الجيد كما يستمتع به أي نهم أكول . ولقد كان من المبهج أيضاً أن يعرف المرء النبيذ بأسلوب متحضر — بأن يشربه كل يوم ، وبتجربة كل أنواعه الموجودة في المحل . وعلى سبيل البداية ، اعتدت أن أشرب نوعاً متألقاً من النبيذ الأحمر يدعى « نيبيولو دا ستي » ، وفيما بعد أصبحت أشرب غالباً من نوع « نويتس سانت جورج » .

كان هذا هو الجانب الممتع من النجاح ، هذا إلى جانب عدم الاضطرار إلى الاستيقاظ في الصباح الباكر . أما الجانب الآخر ، فهو جانب كنت جديراً بان أتجنبه لو أنني كنت أعرف مقدماً بوجوده .

الفَصـلُ العَاشِر

مشكلة النجاح

الوقوع في أسر « النجاح الشعبي » تجربة تسبب الدوار ، ولا يستطيع أحد أن يتمناها مرتين . وكل كاتب يحلم ، بالطبع ، بالنجاح . ولكن ما يحلم به يختلف تماماً عن الحقيقة . ولقد اعتدت أن أقرأ ترجمة كل كاتب .أستطيع أن أضع يدي عليها في المكتبة المحلية ، وكنت أسرع دائماً في قراءة الصفحات الأولى لكي أصل إلى لحظة الانطلاق ، وكلما كان هذا الانطلاق أكثر جاذبية وتنوعاً – مثل انطلاق كارليل بكتاب « الثورة الفرنسية » أو ديكنز بكتاب « بيكويك » أو هاجارد بكتاب « كنوز الملك سليمان » كلما رحت أقرأ وأعيد القراءة لكي أحصل على رحيق هذه اللحظة وجوهرها . ولكن نجاحي لم يكن يشبه شيئاً مما تخيلته . وأعتقد أن هذا كان أمراً لا مفر منه ، لأنه إذا حدث وأصبح كتاب مثل « اللامنتمي » معروفاً لجمهور واسع فلا بد أن يحدث هذا لأسباب خاطئة . وكان هذا هو السبب الذي جعل النجاح تجربة غير مشبعة إلى هذا الحد . لقد تملكتني دائماً مشكلة معنى الوجود الإنساني . وحينما أدركت بوضوح هذه المشكلة فجأة – في الثالثة عشرة من عمري

تقريباً — بدا لي أنه ما مِن إنسان قد تعرف عليها من قبل . ثم اكتشفت نوعاً من الوعي بها عند شو وويلز وإليوت ، فزاد حماسي ، وأردت أن أقفز إلى المناقشة ، وبدا لي أنه أمر لا يغتفر أنه ربما كان علي أن أنتظر عدة سنوات قبل أن أصل إلى المطبعة والنشر . وحينما قرأت آودين وسبندر وماكنيش ، ثار غضبي لأنني اعتقدت أنهم قد خانوا الأدب لحساب السياسة . وقبل أن أنشر كتاب « اللامنتمي » أعدت قراءة المخطوط حتى حفظته عن ظهر قلب ، وفكرت أقول لنفسي : ينبغي لهذا أن يعيد الأمور إلى نصابها ويعيدها إلى الحياة .

ثم فجأة أصبحت في التليفزيون تحت الأضواء المركزة ، ألقى التشجيع لكي أتشاجر مع ولف مانكويتز ، أو في افتتاح معرض للفن في سوهو ، أشرب الشمبانيا مع أحد اللوردات وألقى التشجيع لكي أناديه باسمه المجرد ، أو في حفلة في بوتني ، يشيرون إلي للضيوف باعتباري شيئاً مثل الأعجوبة الطبيعية ، أو يهاجمني ناقد التليفزيون في جريدة « ديلي ميرور » . فما هي علاقة كل هذا بكتاب « اللامنتمي » ؟ لقد كان الكتاب عن رؤيا نيتشة التي رآها فوق تل يدعى لوتسيخ ، وعن تجربة الضياع عند ويليام جيمس ، وعن إحساس نيجنسكي بأن « الله نار متقدة في الرأس » ، وعن إحساس فان جوخ بأن « البؤس لن ينتهي أبداً » ، وعن قول إيفان كارامازوف : « ليس الله هو ما أرفضه ، إنما أريد فقط أن أعيد إليه تذكرة الدخول » .

لقد كان شيئاً لا يصدق ، وكان أكثر غباء وجنوناً من كل ما كان بوسعي أن أتخيله ، ولم يكن على علاقة مطلقاً بأي شيء أهتم به . كان استعراضاً ساخراً وفكاهياً للنجاح . وفي البداية ، ظننت أن شيئاً لا بد أن يستخلص من بين براثنه . وكان يطلب مني دائماً أن ألقي المحاضرات : أحياناً على مستمعين من الكبار البالغين ، وأحياناً في بعض المدارس . وقد كان من الضروري على الأقل أن يكون ممكناً أن أعثر على جماعة

من الأصدقاء لهم نفس الاهتمامات . وتذكرت قصة تجربة برديائيف مع النوستالجيا — عن كيف تحدثت مجموعة من الأصدقاء في سانت بطرسبرج طول الليل ، ثم حينما اقترح أحدهم أن الوقت قد حان للرحيل إلى البيوت ، قال واحد آخر : « كلا ، لا نستطيع حتى الآن أن نرحل ، فنحن لم نقرر بعد ما إذا كان الله موجوداً ! » . أمن المؤكد إذن أنه كان لا بدّ من وجود قليلين غيري يفكرون بنفس طريقتي ، آمنوا بأن بليك كان على صواب بشكل جوهري ، وأن النزعة الوضعية المنطقية كانت مخطئة بشكل جوهري أيضاً ؟

وبدا لي أن الأمر ليس على هذا النحو . كان القاء المحاضرات ممتعاً إلى حد كبير . وكان المستمعون الجامعيون مستجيبين ، وجعلتني جماعة من كلية إيتون أتكلم نصف الليل . ولكن حينما تنتهي المحاضرة ، تنتهي . لم يكن هناك متابعة لها . وكان ٨٠٪ من الخطابات التي تسلمتها عن « اللامنتمي » تأتي من حمقى ، أو من أناس يقولون لي أن أثق بالمسيح ، أو من أناس يشعرون بأن المجتمع متعفن لأنه لم يعتقد أنهم مهمّون للغاية . وبدأت أشعر بالفعل بالرفض لموضوعات كتاب « اللامنتمي » ، وكنت أريد أن أزمجر وأئن كلما ذكر أمامي نيتشه أو دستويفسكي .

* * *

وأعتقد أنه ما من أحد أبداً قد وجد النجاح على هذه الدرجة من الغرابة الكاملة . وشعرت بأن هذا كان ظلماً بيّناً . ولم أكن أبداً كثير الميل إلى الاشفاق على النفس — فقد كان ابتهاجي الفطري يطغى على ذلك الشعور — ولكنني كنت قد عشت نضالاً طويلاً عنيفاً منذ مصنع النسيج في ليستر حتى نشر « اللامنتمي » . ولقد كنت مهموماً دائماً بالشك في احتمال أن ينتهي هذا النضال إلى الهزيمة لأن المصاعب كانت

كثيرة وثقيلة . وقد كان شو على حق حينما قال في « العودة إلى ميتوشالح » إن السبب الأساسي « للحياة القصيرة » هو الافتقــار إلى الشجاعة . ولكن ثماني سنوات ليست زمناً بالغ الطول ، بيد أنني عندما أنظر إلى الوراء نحوها ، فإنها تبدو لي الآن كما لو كانت نصف عمر كامل ، وأطول بكثير من الاثني عشر عاماً التي مرت منذ ذلك الحين . وفي ذلك الصباح من يوم الأحد ، حينما ظهرت أول عروض الكتاب ، فكرت بيني وبين نفسي قائلاً إنني كسبت . وفزت وأحرزت هدفي . ثم حينما مرت أسابيع الدعاية ، تبينت كل ما فعلته عدا ذلك ، تبينت أنني لم أحرز هدفي . وأن المعركة قد انتقلت فحسب إلى جهة أخرى . وبدأت أكتشف حقيقة ما قاله سارتر من أن « الجحيم هو الآخرون » .

* * *

ولا شك أن كل هذا يعطي انطباعاً زائفاً عما حدث بالفعل في النصف الثاني من عام ١٩٥٦ . إنني لم أمض متجولاً أنوح وأطلق « صرخات الألم » من بين أسناني . لقد ذهبت إلى الحفلات ، واكتسبت الأصدقاء ، وبدأت كتابة « الدين والمتمرد » . لقد أثرت قدراً معيناً من العداء ، وعدداً كبيراً من الناس الذين شعرت بأنهم من الأغبياء . ولكنني أعتقد أنني أحببت عدداً من الناس يفوق كثيراً عدد من كرهتهم .

إن كل ما أحاول التعبير عنه هنا هو أنه لا علاقة لشيء من ذلك كله بكتاب « اللامنتمي » . لقد كان ضياعاً كاملاً للوقت . وكان هذا كله جديراً بأن يصبح مضيعة للوقت أيضاً دون تلك الردة التي تجسدت في القرار العام القائل بأن « اللامنتمي » لم يكن إلا كتاباً بالغ الناس كثيراً في تقديره ، كتبه شاب يتمتع بموهبة الاقتباس الجيد المناسب .

وهذا القرار في الحقيقة هو ما حدث . فبعد أسبوعين من ظهور الكتاب نشرت جريدة « صنداي تايمز » ملاحظة في باب الشائعات عن

التأثير الذي كان كولانز يحدثه بدفع الكتاب إلى الشهرة عن طريق المبالغة في أرقام النسخ المباعة . وكان عدد المبيعات التي نشرها كولانز — كما قالت الملاحظة — شيئاً شبيهاً بالنكتة في عالم تجارة الكتب . وأضاف الكاتب قائلاً إنه لا يشك في أن أكثر ما بيع من نسخ الكتاب كانت مبيعات « للديكور » — ان من اشتروها كانوا يريدون أن يضعوها في غرف الجلوس في منازلهم لكي يثبتوا أنهم يتابعون أحدث التقاليع في عالم الثقافة .

وما أدهشني في هذا هو أن جريدة « صنداي تايمز » كانت قد اتفقت معي على أن أعرض لها الكتب في اليوم التالي لظهور كتاب « اللامنتمي » . وكان الاتفاق الأصلي ينص على أن أكتب لها ستة عروض ، ولكن الجريدة أهملت الاتفاق بعد العرض الثاني . وكان هذا العرض الثاني يتضمن هجوماً على الفلسفة الوضعية المنطقية ، وضد الفيلسوف آير [1] بالذات . كان عرضاً عدائياً ، وانتهى بترجمة — تعمدت تحويرها — لكلمة ويتجنشتاين : « حينما لا يكون لديك ما تقول ! ، فمن الأفضل لك أن تغلق فمك » . وعلى الفور عارضني آير بعرض لاذع لكتاب « اللامنتمي » في جريدة « انكاونتر » ، شبهني فيه بكلب راقص . كانت الرصاصات تتطاير — وبشكل حتمي — كنت أصاب بأكثرها سوءاً .

ولكن الشيء الذي كان أكثر إثارة للحيرة ، هو الهجمات العدائية

---

١ آير — ألفريد — فيلسوف وضعي جديد (١٩١٠ —) وأستاذ الميتافيزيقا في جامعة أوكسفورد منذ ١٩٥٩ . في كتابة « اللغة ، والحقيقة ، والمنطق » ١٩٣٦ ، اقترب من مناطقة دائرة فيينا ، ولكن في كتاباته الأخيرة يهجر بعض مواقف الوضعية المنطقية ويقترب من الفلسفة اللغوية فيعالج بعض المشاكل الفلسفية ؛ مثل قوة المعرفة وصحتها ، وعلاقة الموضوعات المادية بمدركات الحواس ... الخ عن طريق تحويل هذه المشاكل إلى مباحث لغوية مشكلتها هي وضع المصطلح الصحيح للتعبير عن الفكرة القائمة في عقل الفيلسوف . (ه. م.)

دون مبرر يثيرها . فذات مساء في مسرح الرويال كورت اشتركت في مناقشة حول المسرح الحديث ، وكان كينيث تاينان هو مدير المناقشة وكان من بين المشتركين في الندوة آرثر ميللر وجون هوايتنج وولف مانكويتز . وبعد بضع دقائق من بداية المناقشة ، وصف مانكويتز كتاب « اللامنتمي » فجأة بأنه مجموعة مختارة من الاقتباسات ، فأثار هذا القول الضحك . ولما وجد مانكويتز انـــه يلقى التشجيع ، احتفظ بخط الهجوم طوال الأمسية . وفي اليوم التالي ظهر تحقيق في إحدى صحف لندن المسائية يقول إن مانكويتز قد « لعب بويلسون كما يلعب الأسد الطيب بفأر صغير » . وفي اليوم التالي طُلب مني أن أظهر في التلفيزيون لكي اناقش المسألة مع مانكويتز . وقبلت ، واشتدت سخونة المناقشة ولكنها لم تتحول إلى وقاحة من أي نوع . وبعد ذلك سألت مانكويتز عمن كتب الكلمة التي نشرت في الصحيفة المسائية ، فاحمر وجهه ، ثم تنحنح بوهن وقال بسرعة « انا كتبتها » .

وطُلب مني ذات مرة أن أتحدث مع أعضاء جمعية من المشتغلين بالأمور الروحية في فندق يدعى « فندق نايتز بريدج » ، وحينما وصلت فوجئت بأن أكثر الحاضرين كانوا سيدات متواضعات متقدمات في السن . واقترب مني صحفي من جريدة « ديلي اكسبريس » ، وغمز لي بعينه ، وطلب مني أن أخرج معه لكي نتناول كأساً في هدوء . وأشار لي في الخفاء إلى أننا متآمران شريكان وسط مجموعة من القطط العجوزة الثرثارة ، وطلب مني أن « أهاجم العجوزات الماهرات » . وقلت له إنه لم يكن بوسعي أن أفعل هذا ، فقد كن مضيفاتي ، ولكننا مضينا في الشرب في جو ودي . وفي كلمتي التي ألقيتها بعد تناول الطعام ، قلت إنني قد تعبت من وصفي بأنني المتحدث باسم الجيل الشباب ، وأنني لا أمثل أحداً عدا نفسي . وأن « اللامنتمي » كان تعبيراً شخصياً ، وأنني أشعر بالخداع إذا ما نظر اليه باعتباره تعبيراً عن موقف

جديد معاد للوضع وللمؤسسات القائمة .

وفي اليوم التالي ظهرت « ديلي اكسبريس » بعنوان يقول : « كولين ويلسون يعترف بأنه مخادع » ؛ ونقل عني أنني قلت : « إن اللامنتمي قد كتب بناء على قصد زائف تماماً ... » . وبعد يومين استطاع محامي كولانز أن يدفعهم إلى نشر اعتذار ، ولكنني شعرت بأن عدداً كبيراً من الناس لم يشعروا إلا بالسعادة إذ يدمغون الكتاب بصفة الخداع والمخاتلة . وفي الحقيقة ، فحينما نشرت صحيفة « الأوبزرفر » ، في عددها الصادر في عيد الميلاد ، صفحة بأقلام عدد من الكتّاب المعروفين ، يحددون فيها ما يعتقدون أنها أكثر الكتب أهمية في العام المنقضي ، لم يذكر كتاب « اللامنتمي » إلا مرة واحدة في كلمة آرثر كوستلر . وكان يقول : « فقاعة هذا العام : اللامنتمي . هذا الكتاب الذي يكتشف فيه كاتب شاب أن كل العباقرة ميالون إلى التشاؤم من مصير العالم والحزن عليه » .

* * *

بعد ستة أشهر من نشر « اللامنتمي » كان الرأي العام السائد بين المثقفين الانجليز هو أن كتاب « اللامنتمي » كان نوعاً من الجنون مات ميتته الطبيعية ، وأنه يجب علي الآن أن أعود إلى الظلمة الغامضة التي خرجت منها بمحض الصدفة . وأرسلت في طلب قصاصات الصحف من مكتب متخصص في هذا العمل ، ولكن القصاصات كانت في معظمها مقبضة ومخيبة للأمل تماماً . وأحسست بأن كل صحفي في انجلترا قد أراد أن يلقي حجراً على الشاهد الحجري الذي ينتصب على شهرتي الميتة . واشترك الأمريكيون أيضاً في هذه التسلية . فليس هناك من بلد أكثر من أمريكا تلهفاً على اضفاء الشهرة على الناس ، وليس هناك بلد أكثر منها ابتهاجاً برؤية الشهرة وهي تسقط وتذوي . ففي

حفلة في لندن التقيت بأمريكي بدين له صوت جميل يدعى دوايت ماكدونالد ، تصحبه زوجة جذابة وابنة جميلة . والتقينا لقاء ممتازاً . وذات صباح جاءتني قصاصة من المكتب الذي أتعامل معه بنسخة من عرض نشرته جريدة « نيويوركر » ، ولم يكن سوى هجوم قوي طويل على كتاب « اللامنتمي » وينتهي بتوقيع دوايت ماكدونالد . وبقيت على علاقتي الودية بماكدونالد ، ولكنني لم أحب الطريقة التي نظر بها الناس إلى العرض الذي كتبه ، باعتباره تعبيراً عاماً عن الاتجاه الشامل لدى مواطنيه من الأمريكيين نحو إعادة تقييم « اللامنتمي » . وبدا لي هذا على أن المثقفين أنفسهم ، يحملون ميلاً سرياً إلى التمتع بمباهج المحاكمات « اللينشية »[1] التي كان يقوم بها الغوغاء . وقد حدث بعد نشر كتاب « اللامنتمي » مباشرة ، أن عرض علي مدير الأعمال الفني الأمريكي سول هيروك ، في خطاب كتبه لي ، أن أقوم بجولة في الولايات المتحدة لالقاء بعض المحاضرات ، فرفضت لأنني كنت قد ألقيت ما يكفيني من محاضرات . ولكن الهجمات التي شنت على « اللامنتمي » جعلتني أفكر في أنه قد يكون من الأسلم أن أربح بعض المال بينما أستطيع ذلك . وكتبت إلى هيروك أطلب منه أن يرتب جولة لي للمحاضرة . وبعد بضعة أسابيع أجاب على خطابي بقوله إنه لم يستطع أن يثير ما يكفي من الاهتمام بي بحيث يستطيع أن يبرر الجولة . وبدا لي أن شاهد مقبرة الشهرة يزداد حجمه في كل يوم .

* * *

[1] المحاكمات اللينشية – صورة من صور الحكم الغوغائي أو الجماعي استخدمت على نطاق واسع في غرب أمريكا في مراحل الهجرة الواسعة الأولى قبل قيام أي صورة من صور الحكومة المنظمة ، وبمقتضى المحاكمة اللينشية التي يشترك فيها أعضاء الجماعة ضد المتهم ، كان المتهم يحاكم ويصدر الحكم وينفذ فوراً وغالباً يتراوح الحكم بين البراءة والاعدام . (هـ. م.)

ويطرح هذا السؤال الهام نفسه : لماذا ثار ضدي رد الفعل هذا ، إن « اللامنتمي » ليس خدعة ، كما أنه ليس عملاً سطحياً . إنه يطرح مشكلة حقيقية ويهاجمها — وهي مشكلة سممت الثقافة الأوروبية لما يقرب من قرنين — ويقترب من حلها أكثر مما يقترب أي كتاب مماثل (على سبيل المثال كتاب « العذاب الرومانتيكي » الذي ألفه ماريوبراز) . وأعتقد أن السبب لا علاقة له بالكتاب ، وليست له بي سوى علاقة بسيطة . ولم يكن له سوى علاقة بسيطة أيضاً بما فعلته لي « ميكانيكية النجاح » . فالناس جميعاً يحملون كراهية قوية للنجاح . والمثقفون يحملون ضعف ما يحمله الناس العاديون لهذه الكراهية . إننا نبتهج ابتهاجاً غير منطقي عندما نرى الناجحين يسقطون من فوق قممهم . ولو وجدت وسائل سحرية لجلب الكوارث للناجحين لتمسك بها الناس في ابتهاج ، ولراحوا يتمتعون بكل تعويذة ممكنة ضد « الخنافس » ، « بيتر سيلرز » ، « بريجيت باردو » ، « جون أوزبورن » ، « ج. د. سالينجر » ، « تينيسي ويليامز » ، « ترومان كابوت » . ولحسن الحظ ، فان أكثر ما يكون من النجاح إنما يقوم على أسس آمنة . إنك لا تستطيع أن تقوم بالكثير ضد الخنافس بينما يتدافع المعجبون على شراء تسجيلاتهم . ولكن نجاحي أنا لم يكن له أي أساس تقريباً . فليس هناك سوى القليل جداً من الناس من يستطيعون حقاً أن يفهموا « اللامنتمي » ، إلا بقدر ما يوجد من المؤهلين لفهم نظرية الكميات [1] . وهكذا فحينما قرر الكتّاب

---

[1] نظرية الكميات Quanta ، وضعها الرياضي والعالم الفرنسي إلويس دبورجلي (١٩٢٤) حول حركة الجزئيات الذرية الصغيرة حينما اكتشف الطبيعة الدائرية الموجبة لحركة الكم المادي ، ثم طورها الرياضيان شرودينجر وهايزنبرج بين عامي (٢٥ ، ١٩٢٧) . وعلى عكس الميكانيكا الكلاسيكية ، حكمت نظرية الكميات الميكانيكا الحديثة ، حيث تتحكم في الحاكة عناصر الاحتمال إلى جانب القوانين الاستاتيكية . وبناء على هذا تحطمت قوانين أساسية من علم الميكانيكا الكلاسيكي ، وظهر علم الميكانيكا الحديث ، إلى جانب مساعدة نظرية الكميات في فهم طبيعة حركة الضوء والأشعة الذرية .. الخ إذ قدمت النظرية الجديدة الفهم الحديث للحركة المادية (الحركة تتم على موجات تتخذ شكل كميات — مجموع كمية) . (هـ. م.)

« المثقفون » القلائل – مثل كونوللي وتوينبي – أن ينقلبوا على الكتاب فإنه لم يجد لنفسه دفاعاً من أي نوع ، وكان الأمر شبيهاً باعلان عيد روماني كامل ، متضمناً عرض المسيحيين والأسود ، باستثناء أنني لست مسيحياً ، وليس النقاد أسوداً .

* * *

كنت قد لاحظت شيئاً عجيباً واحداً في معظم الكتّاب النـــاجحين الذين قابلتهم : كان الواحد منهم كلما أراد نجاحاً كلما بدا أنه يعاني من عقدة الاضطهاد . وقد بدأت الآن في معرفة السبب . هناك افتراض أساسي بين المثقفين مؤداه أن كل ما يحققونه من نجاح إنما يحققونه بالخداع أو بالمساومة ، ويستطيع المرء أن يعيش في راحة كاملة في انجلترا إذا كان صاحب شهرة متواضعة وجمهور بسيط . ومن المعتاد أيضاً أن يكون الشعراء محترمين ، على أساس أنهم ليسوا مشهورين ، مثلما هو الحال عند جون بيتجامين . والكاتب الروائي الذي يرأس معهداً من المعاهد أو يراسل إحدى الصحف ، يلقى الكثير من الحب أيضاً ، لأنه من الواضح أنه لا يستطيع أن يعيش من الكتابة وحدها . ولكن « الناجحين » لا يمكن أبداً أن يكونوا محترمين تماماً . وحتى ت . س . إليوت ، أصيبت شهرته بانخفاض سريع حينما أصبح هو الكاتب المسرحي الناجح تجارياً بمسرحية « رجل الدولة الأكبر سناً » .

ومن المحتّم ، أن تكون نتيجة الهجمات الواسعة هي أن يشعر الكاتب بعدم الأمان . ولا يمكن أن يكون الأمر على عكس ذلك إلا إذا كان في الثمانين من عمره ، فيستطيع أن ينظر نظرة متباعدة لشخص ناضج يعيش في ظل رعاية صحية .

وأعتقد أنني قد حصلت على بعض التدريب على التباعد في السنوات التي سبقت كتابة « اللامنتمي » . ولكن هذا التدريب لم يكن كافياً لكي يجعلني

أشعر باللامبالاة إزاء هذه النظرة العامة التي راحت توجه إلي كأديب يوثق به . وقد انعكس نفوري في الصفحات الأولى من كتاب « الدين والمتمرد » : « اللامنتمي ... يعيش في عالم من القرود ، ينفر منهـــا ويبغضها . يقال له إن الدين يتكون من أن تحب جارك مثلما تحب نفسك ، وفي التطبيق العملي يتكون من فضائل الصبر والبذل . وأكثر ما يستطيع اللامنتمي أن يقوله هو أنه يكره جاره أكثر قليلاً — فقط — مما يكره نفسه ، إن معظم البشر يبدون له في صورة بالغة الغباء ؛ حتى ليكون من الأفضل لهم أن يموتوا ... » .

وينعكس رد فعل تلك الهجمات أيضاً في مادة كتاب « الدين والمتمرد » التي تبعد إلى أبعد حتى مما ذهب اليه كتاب « اللامنتمي » في التأكيد على النزعة الصوفية ورفض العالم . ولا شك أن هذا كان هو السبب في أن بعض الصحف الكاثوليكية تنبأت بأنني قد أجد نفسي بعد قليل في الكنيسة .

ورغم أن وضعي ككاتب يتمتع بشهرة لمعت كما يلمع الورق المفضض قد بدا لي كشيء سخيف وعبثي — بالمعنى الذي وضعه كامو — فإنني أرى الآن أن لهذا الوضع معناه الصحيح . لقد كان « اللامنتمي » هجوماً على قيم معينة تلقى نوعاً من القبول العام في مجتمعنا ، ولقد كنت أظن أن الكتاب جدير بأن يضعني في الموضع الذي وجد نيتشه نفسه فيه بعد نشر كتابه « مولد التراجيديا » — أي موضع الرفض العالمي له ولأفكاره . وهذا هو في الحقيقة هو ما حدث ، ولكن بطريقة ملتوية ، وإلا فما الذي يمكن أن يكون أكثر تلاؤماً مع طبيعة الأشياء ؟ لقد كان الشعار الرئيسي لكتاب « اللامنتمي » اقتباساً من مسرحية « جزيرة جون بول الأخرى » لبرنارد شو حيث يجري هذا الحوار القصير :

كيجان : إذن فأنت تشعر بالراحة في هذا العالم ، كما لو كنت في بيتك ؟

برودبنت : طبعاً . ألا تشعر أنت بذلك ؟

كيمجان (من أعماق روحه) : كلا .

ولقد كان من الممكن أن يصبح الأمر أكثر من مجرد العبث ، لو أن استقبال « اللامنتمي » أدى إلى أن يجعلني أشعر بالراحة في هذا العالم الذي كان الكتاب هجوماً عليه . وفي هذه الحالة ، فإن كتاب « الدين والمتمرد » كان جديراً بأن يصبح كتاباً مجردا من الاخلاص والأمانة إلى درجة ميؤس منها . ولكنه كان بالفعل . أقوى من « اللامنتمي » في جوهر رفضه للعالم . ولقد بدأت الكتاب متعمداً بتحليل لحياة سكوت فيتزجيرالد ، لكي أبرهن على أنه في العالم الحديث ، يمكن للنجاح أن يؤدي إلى غربة الإنسان بمثل ما يؤدي الاعمال إلى تلك الغربة ، وأن النجاح ربما دمره بكفاءة أكبر .

* * *

وقررت أن جوابي يجب أن يكون هو الخروج من لندن . فقد عرض علي شخص يراسلني يدعى هاف هيكستول سميث أن أستخدم غرفتين في منزله بالقرب من توتنيس في مقاطعة ديفون ، وبدا لي أن هذا هو الحل المعقول . ولم أكن قد قابلت هيكستول من قبل ولم أكن أعرف عنه شيئاً ، إلا أنه كان ناظراً لإحدى المدارس . وأنه كتب للمدارس بعض المراجع في علم الطبيعة . وقرر بيل هوبكينز أن يأتي معي لبضعة أسابيع ، فمضينا إلى هناك في نوفمبر (تشرين الثاني) . ولكن رغم أن هاف هيكستول سميث قد أثبت أنه يمتلك روحاً ودية جميلة ، وأنه واحد من أكثر العقول التي قابلتها أصالة . واثارة للاهتمام ، فإن الفكرة لم تنجح . وربما كان السبب هو برد نوفمبر (تشرين الثاني) ورطوبته . وربما كان السبب هو الحياة بعيداً عن جوي ، بصرف النظر عن الكتب والموسيقى . ولكن . عدنا أنا وبيل

إلى لندن ، بعد اسبوع أو نحوه . وكنت قد استطعت خلال أسبوعين أن أقطع مرحلة جيدة في كتاب « الدين والمتمرد » وكان بيل قد كتب فصلاً من روايته « المقدس والمنحط » .

لقد ذكرت الموسيقى الآن فقط ، ويجب علي الآن أن أضيف أن النتيجة الوحيدة ، ذات المتعة الخالصة للنجاح ، كانت هي قدرتي على الحصول على جراموفون وعلى تسجيلات طويلة . وقد استغرقت بعض الشهور قبل أن أقرر شراء الجراموفون ، فقد كنت أشك في قدرتي على الحصول عليه . فرغم أن مبيعات « اللامنتمي » وصلت إلى نحو أربعين ألف نسخة — في انجلترا وامريكا معاً — الأمر الذي يجعل حقوقي تصل إلى نحو أربعة آلاف جنيه ، فإنني لم أتوقع أبداً أن أرى مبلغاً كبيراً من المال . فقد كان علي كل أسبوع أو نحوه أن أكتب لكولانز لكي أطلب منه خمسين جنيهاً أخرى من حقوقي . والجراموفون الجديد سيساوي مثل هذا المبلغ ، وهكذا فقد صرفت النظر عن شرائه . وذات يوم عرض علي دان فارسون جراموفونه — وكان من النوع الصغير المخصص للرحلات — لقاء عشرة جنيهات . وكان بامكاني أن أدفع هذا المبلغ . ثم عثرت على محل في نوتينج هيل لبيع التسجيلات المستعملة . وبدت هذه التسجيلات رخيصة إذ كان ثمن كل منها سبعة وعشرين شلناً وستة بنسات . وبدأت في شراء الموسيقى التي كنت اعرفها بالفعل وأحبها : السيمفونية التاسعة لماهلر ، والثالثة لبرامز ، والرابعة لبروكنر ، والسابعة « الرعوية » لبيتهوفن ، وسيمفونية فرانك ، وطائر النار لسترافنسكي ، وأوبرا البوهيمي لبوتشيني . واشتريت أيضاً بعض الموسيقى التي لم أكن أعرفها والتي تقت دائماً لمعرفتها — رباعيات بيتهوفن الأخيرة وسوناتا الأوبس رقم ١١١ ، وسوناتة فرانك ، وأنشودة (كانتيت) شوستاكوفيتش للبيانو . وبشكل لا يمكن تجنبه ، بدأت في الشراء ببساطة ، لمتعة الاكتشاف (ولحظة كتابة هذا الكلام تصل مجموعتي

من التسجيلات إلى ما يزيد عن الخمسة آلاف أسطوانة من ذات المدى الطويل ، وبينها ثلاثمائة أوبرا كاملة) .

وأنا أذكر كل هذا لأن جو العداء نحوي ، جعل من الموسيقى متنفساً هاماً . ولم أجد في الشعر إلا إشباعاً جزئياً ، لأنني كنت أشعر بأنني شديد المعرفة بشخصية الشاعر . وفي معظم الحالات ، بنقاط ضعفه . إن إحدى العقوبات التي يلقاها المرء جزاء معرفته بما يريده لهو نوع من نفاد الصبر إزاء الشعراء الذين يشكون من أن العالم ثقيل الوطأة عليهم . إنهم يعلنون أن الحياة ذات طابع تراجيدي في جوهرها ، بينما يكون ما يعنونه هو أنهم يفضلون الاشفاق على ذواتهم مع الحزن الرقيق بدلاً من أن ينتصبوا على أقدامهم ويخوضوا المعركة . على الشاعر أن يكون شبيهاً بالعالم ، فإذا كان يرى العالم كمشكلة ، فلا بدّ له أن يعترف بأن مجد العقل الإنساني هو في قدرته على حل المشاكل . ولسوء الحظ فإن أكثر الشعراء يرون أن الهزيمة تصنع شعراً أفضل من التحليل . ولهذا السبب فقد كنت عاجزاً على الدوام عن مشاركة إليوت في إعجابه ببودلير ومالارميه ، ووجدت أنه من الصعب أن أصبر على شيكسبير أو أن أحتمله . أما الموسيقى ، من جانب آخر ، فهي أقل وضوحاً فيما يتعلق بشخصية خالقها . إن أحداً لا يستطيع أن يخمن من مجرد سماع موسيقى بارتوك انه كان عصابياً خائناً لنفسه ، أو أن يخمن من سماع سيمفونيات بروكنر المكتسحة المنسابة العظيمة أنه كان رجلاً ضئيلاً محبطاً دأب على أن ينظر إلى الخادمات بشبق لا ينتهي .

وهكذا فقد صنع عالم الموسيقى بديلاً جميلاً لعالم المعلقين على الكتب في صحف الأحد ، ورحت أشتري التسجيلات الموسيقية كل يوم ، حتى قال لي كولانز إنه سيكون علي أن أجد لنفسي عملاً أتعيش منه إذا رحت أنفق المال بهذا المعدل . ومرة أخرى استقر عزمي على فكرة الانتقال إلى الريف ، وظننت أن منطقة « آوترهيبرايدز » ستكون مكاناً

جميلاً . (وقد رأيت هذا المكان بعد ذلك ، وشعرت بالراحة لأنني لم أذهب اليه) .

أما ما أجل انتقالي إلى الريف فكان نوعاً مفاجئاً من الدعاية السيئة . فقد كانت جوي انتقلت إلى شقتي في نوتينج هيل ، رغم أنها قد احتفظت بحجرة صغيرة في مكان ما بالمنطقة حيث تستطيع عائلتها أن ترسل اليها بالخطابات . وفي بداية عام ١٩٥٧ ذهبت إلى بيت الأسرة في بيدفورد لكي تجري جراحة لازالة اللوزتين . وذهبت الى هناك لرؤيتها ، وبينما كنت في المستشفى ، التقطت أختها مذكرة كنت قد تركتها على منضدة البهو وفتحتها بطريقة عرضية . ثار اهتمامها أمام بعض الملاحظات القاسية على والديها ، فاستمرت في القراءة . كان هناك حديث حول صديق مصاب بالشذوذ الجنسي كنت قد تحدثت معه حول المشاكل الجنسية التي كانت هي الموضوع الرئيسي لرواية « طقوس في الظلام » . ومع ذلك فأعتقد أنها أمضت مدة نصف ساعة ممتعة . وحينما عدت ظننت أنها نظرت إلي بطريقة غريبة ولكنني لم أهتم بذلك . وانفجرت العاصفة بعد نحو أسبوع ، حينما كنت مع جوي في شقة نوتينج هيل نقيم عشاء لجيرالد هاميلتون (وهو أصل شخصية مستر نوريس في إحدى روايات شروود) . فتح الباب بقوة ، واندفعت إلى الداخل أم جوي ووالدها وشقيقها وشقيقتها . وأعلنوا أنهم اكتشفوا أن جوي تقيم معي ، وأخبروها بأنني شاذ جنسياً وأن لي عشيقات كثيرات . (ولست أعرف كيف وفقوا بين هذين القولين) . وحينما اكتشفت أن مذكرتي كانت هي مصدر المشاكل ، جئت بها وقلت لهم أن يقرأوها . ولكنهم لم يوافقوا على التهدئة ، وأخرج والد جوي سوطاً من سياط الجياد . ولكن هذا السوط لم يستخدم بالفعل ، لأن عدداً كبيراً من السكان الآخرين كان الضجيج قد اجتذبهم ، فاندفعوا إلى الداخل . وجرت جوي بالقوة إلى نصف السلم —

فإنهم كانوا قد قرروا أن يأخذوها معهم بالقوة — وتعلقت أنا بيدها الأخرى ، محاولاً أن أجذبها إلى الداخل . وانتهت هذه المعركة حينما تدخل السكان الآخرون إلى جانبي ، ولكن الضجة استمرت . وهنا استدعيت الشرطة بالتليفون ، فوصلت بسرعة ، وشرحت لوالدي جوي أنها طالما كانت فوق الواحدة والعشرين ، فإنهما لن يستطيعا أن يفعلا معها شيئاً ، حتى لو كنت أنا جالك خارق السماء . وهنا غادر الجميع الشقة فيما عدانا . أنا وجوي . ولكن السلام بدا بعيداً وعزيز المنال . فبعد خمس دقائق ، كان أول مراسلي الصحف يقف أمام الباب ، وأعتقد أن وصولهم كان على صلة باختفاء جيرالد هاميلتون في منتصف المشهد . وقابلتهم عند الباب الخارجي وحكيت لهم القصة باختصار . وبعد عشر دقائق وصل المزيد من المراسلين ، والعديد من المصورين . واتصلنا بتوم ماشلر الذي يسكن بالقرب منا ، وتسللنا من الباب الخلفي . وآوانا توم بقية الليل ، ومنحنا الفرصة لمناقشة المشكلة بهدوء . وكان أكثر ما يزعجنا هو أن والدي جون قد يبذلان محاولة أخرى لأخذها بعيداً ، وربما حاولا مقابلتها في طريق عودتها من العمل . وظلت حتى جوي تكرر : « إنهما بريئان تماماً » . وقررنا أنه من الأفضل لنا أن نغادر لندن لبضعة أيام . وفي الصباح التالي أخذنا القطار إلى ديفون ، وذهبنا للبقاء عند نيجلي فارسون ، والد دان .

ولا شك أن هذا التصرف كان خاطئاً . فقد كان من الممكن أن تنتهي القصة وتموت في خلال يوم أو عدة أيام . ولم تذكر قصة محاولة الضرب بسوط الجياد سوى صحف قليلة في فقرات صغيرة . ولكن اختفاءنا جعل العناوين تقول : « العاشقان الهاربان » . وسلم والد جوي مذكراتي لإحدى الصحف اليومية التي نشرت منها بعض المقتطفات القصيرة دون إذن مني . فقررت أن أسمح لجريدة أخرى بأن تنشر فقرات طويلة من المذكرة لكي أصحح الانطباع الذي تركته المقتطفات

السابقة . (وقد استخدمت هذا الموقف فيما بعد في رواية باسم « رجل دون ظل ») . واكتشفت الصحافة مكاننا وبدأت تزحف علينا . وانتقلنا إلى أيرلندا ، ولكن بعض المراسلين كانوا قد تتبعوا خطواتنا وظلوا ملتصقين بنا مثل دود العلق .

وقد قال ب . ت . بارنوم ذات مرة إنه ليس هناك ما يماثل الدعاية السيئة . ولا شك في صحة هذا الحكم إذا كان المرء يدير سيركاً أو استعراضاً مسلياً ، ولكنه لا ينطبق بالتأكيد على الكتّاب . فإن أسبوعاً من الدعاية الثقيلة قد حطم كل ما كان قد تبقى لي من سمعة جادة . وحينما عدت إلى لندن كان من الواضح أنه سيكون من الغباء أن أؤجل الحصول على بيت في الريف . وكان الشاعر لويس آدين يعيش في الغرفة السفلية تحتنا ، وقال لنا إنه يملك كوخاً في كورنوول . وكان يأمل أن يعود إلى هناك حينما يجمع ما يكفي من المال في ا ن ، ولكن هذا اليوم كان ما يزال بعيداً بالنسبة له ، وهكذا فإن بوسعنا أن نستأجره منه – في الوقت الحالي – بسعر ثلاثين شلناً في الأسبوع . وذهبنا إلى هناك في إحدى العطلات الأسبوعية لرؤية الكوخ . ولم أشعر بسعادة كاملة للمشروع ، لأن الكوخ كان محروماً من الكهرباء . ولكن منظر المكان غيّر رأينا . كان الكوخ على بعد حوالى ميلين من بلدة ميناجيسي ، وهي قرية للصيادين على الشاطئ الجنوبي ، وعلى من يريد الوصول اليها أن يسير على طريق ريفي طويل ومتعرّج . وكان الكوخ في قاع أحد الوديان ، وكان البحر يرى عند نهاية الوادي . وكان هناك مجرى مائي صخاب يجري بالقرب من باب الكوخ ، وكان الباب محاطاً بسياج تغطيه زهور الكلب ، ولم يكن هناك أي منزل آخر في مسافة نصف ميل . ووجدت نفسي - أتساءل عن سبب تأخري كل هذا الوقت لكي أكتشف أن لندن لا تطاق . وتركنا صديقنا يعمل بالكهرباء يحاول أن يركب في الكوخ مولداً كهربائياً مستخدماً (الذي

كان علينا أن نأسف بسببه فيما بعد) وأسرعنا عائدين إلى لندن لكي نحزم متاعنا .

* * *

واستطاع الانعزال في الريف أن يحل مشكلة النجاح إلى درجة كبيرة، ولم آسف على هذا أبداً . ولكن الكتّاب الذين ما زالوا يتوقعون مستقبلهم لا بدّ أن يواجهوا هذه المشكلة ، وليس من المتوقع لهم أن يحلوها بمثل هذه البساطة . إنها مشكلة من نوع عجيب . فمنذ مائة عام فقط ، كان الرجل الناجح يستطيع أن يظل رجلاً بعيداً عن الشهرة وأن يعيش حياته الخاصة . لقد كان باستطاعة ديكنز أن ينغمس في مغامراته الخاصة ، أو أن يسير على قدميه في المناطق التي يحبها من لندن دون أن يحاصره صيادو الصور . ولم يعد هذا اليوم ممكناً . وحتى برنارد شو ، الذي أنفق النصف الأول من حياته وهو يبني لنفسه صورة عامة ويبحث عن الدعاية ، لم يشعر أبداً بثقل امتداد شهرته ، ولقد ظل يعيش في نفس العالم الخاص القديم المستمد من القرن التاسع عشر . ولكن ج . د . سالينجر ، مثلاً ، حالما استطاع أن ينجح وسط فتية الكليات الامريكية ، فقد كان عليه أن يقوم باختياره الصعب : فاما أن يفقد حياته الخاصة ، أو أن يثير ضده التعليقات في العالم كله – والعداء – بأن يغلق على نفسه الباب ويرفض أن يعقد أي لقاء صحفي أو أن يظهر في التليفيزيون . الانتشار والذيوع ، أو الحياة الخاصة الذائعة ، هذا هو الاختيار .

إن وضعي الحالي في هذه اللحظة هو الوضع المثالي لكاتب جاد . وأنا لا أربح كميات كبيرة من المال ، وعلي أن أنظر بقلق دائماً إلى ميزانيتي . ولكن من الممكن أن يعثر الناس على اسمي في أكثر الكتب الرئيسية ، وقد ترجمت كتبي إلى اللغات الأجنبية ، وأكثرها يظهر

بصورة أوتوماتيكية في أمريكا إلى جانب انجلترا . وأنا لست معروفاً بالقدر الذي يجعلني أقع تحت ضغط الخطابات . وعلى أساس الاحتمال القائم لتحولي إلى شخصية محترمة حيث تصبح كتبي مستقرة في كل قائمة اطلاع في أي كلية دراسية ، فإنني سوف أفقد هذه العزلة الخاصة الممتعة . ولقد تذوقت طعم السمعة السيئة ذات مرة ، وهكذا فإنني لا أحمل ذلك الاشتياق الملح الذي يحمله معظم الكتّاب ممن أعرفهم إلى انتاج أكثر الكتب توزيعاً ، تلك التي تحولني إلى مؤسسة قومية .

إن المشكلة الأساسية لحياة الكاتب هي أنه طالما يكشف على الملأ أفكاره وآراءه ، ويدعو الناس إلى الاهتمام بها ، فإنه يستثير — إلى جانب ذلك — تعليقاتهم ومناقشاتهم . وقد حدث منذ أسبوعين أن نشرت مقالاً عن الفلاسفة الانجليز في أحد الملاحق الصحفية الأسبوعية الملونة ، ومنذ ذلك الحين ، أتلقى يومياً ما لا يقل عن عشرة خطابات تناقش آرائي . وهذا قدر كبير جداً من الخطابات ، فليس هناك من يملك الوقت الكافي للرد على عشرة خطابات في اليوم ، إلا إذا لم يكن لديه ما يفعله غير هذا .

وبنفس الطريقة ، فانني أواجه مشكلة الناس الذين يطرقون باب بيتي ويقولون : « لقد قرأت كتبك . أيمكنني أن آتي اليك لكي نتبادل الحديث ؟ » . لقد وضعت لافتة كبيرة على باب بيتي أسأل فيها الزوار ألا يأتوا دون موعد سابق ، ولكن هناك ما لا يقل عن اثني عشر زائراً في كل صيف يقررون أن يتجاهلوا هذه اللافتة . وكثيرون منهم أناس أذكياء على قدر كبير من الرقة ، ويشعرون أنه من المقبول عقلاً أن يطلبوا مني أن أعطيهم نصف ساعة من وقتي . ولا شك في هذا ، ولكنني لا أحب أن أخرج عن جو العمل — إذا كنت منغمساً فيه — لمدة نصف ساعة ، وإذا حدث وطلبت منهم أن يعودوا في المساء ، فإنهم يبقون معي طيلة المساء ، وأحياناً طول

الليل . وربما كان فنانون مثل بيكاسو وسترافنسكي بحاجة إلى حراس مسلحين لكي يبعدوا الناس عن أنفسهم وأنا لا أحسدهم على هذا الجانب المزعج من شهرتهم .

والمشكلة الحقيقية هي ما إذا كان الناس حقاً يمتلكون الحق في أن يتوقعوا السماح لهم بأن يشغلوا جانباً من وقت إنسان آخر . ومن الواضح أن لكل إنسان الحق في أن يستوقفني في الشارع لكي يسألني عن الطريق ، وإذا قال لي طفل إنه تاه في الشارع فإن واجبي كمواطن هو أن أصحبه إلى بيته ، أو على الأقل إلى مركز الشرطة . وأنا لا أنكر أن للمجتمع الذي أعيش فيه حقوقاً كثيرة علي ، وهي نوع من الايجار الذي لا بد من دفعه مقابل السماح لي بأن أعيش في مجتمع متحضر . ولكن إلى أي حد تمتد هذه الحقوق ؟

وتطرح هذه المشكلة نفسها علي أحياناً بطريقة سخيفة تجبرني على التفكير فيها عساني أجد منها مخرجاً . ومنذ نحو عام تلقيت خطاباً من رجل قال إنه فنان ، وانه يقيم عدداً من المعارض لأعماله . كان قد قرأ كتبي وشعر بأننا نشترك في أشياء كثيرة . وأرسل إلي بعض قصاصات الصحف التي تتحدث عنه وتصفه بأنه متمرد ، كما أرسل كتيباً صغيراً عن أحد معارضه يضم عدداً من الصور الفوتوغرافية لبعض رسومه وصوره . وكتب إليّ عدداً من الخطابات الطويلة الممتعة يتحدث فيها عن نفسه وعن مشاكله . ولكنه لم يكن ناجحاً من الناحية المالية (وكان ما يزال في منتصف عشريناته) وكان منغمساً في إشكال طويل مع المجلس البلدي المحلي حول حقه في أن يبني لنفسه استوديو في حديقة منزله . وقد شككت كثيراً في ما إذا كان بيننا الكثير الذي نشترك فيه كما كان يعتقد — فإن خطاباته لم تقترب أبداً من الأفكار — ولكن كان يبدو عليه أنه شخص من نوع لطيف إلى حد كبير . وذات

يوم قال إنه قرر أن يستقل أول شيء يصادفه خصيصاً لكي يراني ، وقلت له إن بوسعنا أن نهيء له فراشاً .

إنني من الناحية الاجتماعية ، انجليزي نموذجي . فأنا أحب أن أنزل الماء من الناحية الضحلة ، ثم أخوض فيه بحرص إذا وجدت أن درجة الحرارة ملائمة . أما هو فقد أراد أن يقفز مباشرة من فوق منصة القفز . وبدا عليه أنه يقول : « نحن الاثنين ، فنانان ، فدعنا يعانق الواحد منا الآخر لكي يصب كل منا روحه في روح الآخر » . وحاولت أن أصحبه إلى حانة قريبة لكي أخفف من توتر محاولة الصدام . وكانت تقيم معنا أيضاً فتاة لطيفة ، ولم تكن متزوجة رغم أنها كانت في الثلاثينات ، وكانت قد جاءت بعده بقليل ، وجاءت معنا إلى الحانة . وحينما عدت من الحانة حاملاً زجاجات الشراب ، وجدته يحدق بعمق في عينيها ويسألها : « هل أنت سعيدة ؟ » وكان من الواضح أنه تحير إذ تساءل عن السبب الذي يجعل فتاة جميلة مثلها تظل دون زواج ، وأراد منها أن تقول له الحقيقة دون تأخير دقيقة واحدة . وكانت هناك آلة لسماع الموسيقى في الحانة ، فذهب اليها واختار أغنية مزعجة للخنافس مطلعها « اعشق ، اعشق ، اعشق » وأدارها ثلاث مرات . وشرح ذلك بأن قال إنه وجد هذه الأغنية عميقة التأثير . واقترحت أن نلعب الورق ، فنظر إلي مستغرباً وسألني : « لماذا تريد أن تتجنب الحديث ؟ لا تنس أنني سرت مسافة مائتي ميل لكي أراك . » وقلت له إنني لم أرد أن أتجنب الحديث على الاطلاق . ولكن الحقيقة هي أنني ظللت أتباعد عنه مثلما يمكن أن أتباعد عن جرو صغير يحاول أن يلعق وجهي . وكان ما يريده واضحاً . كان يريد أن يقسم كل منا للآخر على الأخوية التي تقوم على رباط الدم . وأراد أن يقول : « ويلسون ، أنت عبقري » وأراد أن يسمعني أجيبه : « بيل ، أنت عبقري أيضاً ، وسوف أبذل كل ما بوسعي لكي أجعل العالم يعترف

بذلك . » ولكنني كنت قد قضيت في العمل الشاق سنوات أكثر من أن تجعلني أهتم بما إذا كان يظنني عبقرياً أم لا ، وكنت أظن أنه أكثر عاطفية من أن يمتلك النظام الضروري لكي يكون فناناً جيداً . وأخيراً بدأ يغضب لما دعاه « حذري وتحفظي واحتراسي » ، وظل يكرر قوله عن أنه قد سار مسافة مائتي ميل لكي يراني . ولم يكن هناك ما يطلب منه ، إذا كان يريدني أن أناقش الأفكار ، إلا أن يسألني سؤالاً عن الفلسفة ، ولكنه لم يكن يريد حقاً أن يناقش أي فكرة ، وإنما كان يريدني أن أفتح له قلبي وأقول : « يا أخي الفنان ! يا أخي العبقري ! » . وغادرنا مبكراً جداً في الصباح التالي ، ودون أن يترك حتى كلمة شكر ، ثم كتب إلي فيما بعد خطاباً يقول فيه إنني خيبت أمله خيبة كبيرة .

* * *

بعد أسابيع قليلة ، قالت لي زوجتي إن مؤلفاً موسيقياً يريد أن يتحدث معي في التليفون . وقال لي الرجل إنه أخذ رقم تليفوني من صديق مشترك . وكان يقرأ كتابي عن الموسيقى ووجده كتاباً مثيراً للاهتمام . وكان قد سجل عملاً موسيقياً طويلاً للبيانو من تأليفه يريدني أن أستمع اليه في الاذاعة البريطانية . واستمعت اليه وسجلته على المسجل . ومن المؤكد أنه كان عملاً بالغ الطول وبالغ الصعوبة ، ولدى سماعه للمرة الأولى كان من الصعب أن أحكم إذا ما كان عملاً موسيقياً جيداً أم مجرد ضجيج لا معنى له ولا قيمة . وكتبت للرجل مذكرة قلت له فيها إنني وجدت عمله مثيراً للاهتمام ، وكتب في رده علي يقول إنه قد نوى أن يأتي لكي يراني .

كان اسمه رونالد ستيفنسون ، وكان مؤلفاً اسكتلندياً أمضى معظم حياته في جنوب افريقيا . وكانت معزوفته « باساكاجليا — الرقصة

الاسبانية » مكرسة لشوستاكوفيتش . ومثل ضيفي السابق ، كان هذا الضيف أيضاً كثير القلق والتوتر . كان يتحدث بحماس عن موسيقاه ، وعزف لي متتاليتين طويلتين على البيانو ، بينما كان يزأر بهما ويجأر عالياً بصوته القوي ولكنه ليس الصوت الجميل المنغم . وبعد ذلك عزف لي مقطوعات من معزوفته ذات الطول البالغ ساعتين « باساكاجليا » . ومن بعض النواحي كان ضيفاً مرهقاً مثلما ينبغي أن يكون « الفنان المتمرد » ، ولكنني اكتشفت منذ مرحلة مبكرة أنه فنان حقيقي وأصيل، وأن عنفه وقلقه — وكان يصبح صخاباً بصورة خاصة حينما يسكر — كانا تعبيراً عن نفس الطاقة البركانية التي جعلت من « الباساكاجليا » عملاً يمثل هذه الأهمية . ولدى سماعي لأعماله مرات أخرى اقتنعت بأنه شخصية مؤثرة وباعثة على الاهتمام ، وأن « الباساكاجليا » جديرة بأن تعتبر عملاً كلاسيكياً معاصراً .

* * *

ولكن كيف كان لي أن أعرف مقدماً إذا كان رونالد ستيفنسون فنان أصيل وحقيقي أم مجرد مبدد للوقت ؟. يمكنني أن أكوّن كتاباً كاملاً من حوادث وحكايات مثل هذه ، وتستطيع كلها أن تصور نفس النقطة . لقد كان هناك ذلك المتعصب للتدريب الصوتي (الذي أرسله إلي ألدوس هكسلي) الذي كان يؤمن بأن الصوت الإنساني قادر على الاتيان بالعديد من « الجوابات » الصوتية ، وأن التحرر السيكولوجي الكامل يمكن أن يؤدي إلى التحرر الصوتي الكامل ، والحق أنه كان قادراً على أن يغني بصوتين مختلفين في وقت واحد ، وأن تلامذته كانوا يستطيعون أن يصدروا أصواتاً شبيهة بصفارات الآلات ، أو أن يغنوا بأصوات أعمق من صوت بول روبسون . وأمضى عطلة أسبوع كاملة محاولاً أن يؤكد لي أنني كتلة من أنواع الكبت المختلفة ، وأنني

لن أتخلص من مكبوتاتي هذه إلا إذا استرخيت وتركت صوتي ينطلق على سجيته ؛ وذات لحظة أمرني بأن ألكمه في كتفيه بينما أغني قائلاً : « أنت يا وغد ! » بكل نوتات السلم الموسيقي . وكان شعوري الخاص يدلني على أن كل نظرياته كانت خاطئة ، وأن كل ما كان يريده أساساً هو أن يجعلني تلميذاً مخلصاً له ، لا أن يحررني من أنواع الكبت التي أعانيها . ولكنه انصرف عني محتقراً شأني بعد أربع وعشرين ساعة .

* * *

وربما كان أكثر ضيوفنا اجهاداً فناناً آخر سوف أسميه باسم سيدني . كان قد رسم صورة سريعة لي في إحدى المجلات ، ودعوته دعوة غير محددة لأن يزورنا إذا حدث ووجد نفسه قريبـــا من كورنوول . وذات يوم بعد عدة سنوات التقى ببيل هوبكينز في الشارع . وقال له إنه مرهق تماماً وتعيس وأنه بحاجة إلى شيء من الراحة . وتذكر بيل دون شك بعض الحمقى والأفسال الذين أرسلهم اليه أحياناً فقال له : « لم لا تذهب وتمكث قليلاً عند كولين ؟ » . وهكذا اتصل بي سيدني ، فقلت له أن يأتي . وكان المفروض أن يأتي في اليوم التالي . ومع ذلك ، فقد وصلت برقية تحمل توقيع « المشرف على قاعة فندق سافوي » تقول : « مستر .... لا يستطيع أن يأتي اليوم . وسوف يصل غداً » . وفي اليوم التالي وصلت برقية أخرى. ولكنها تحمل هذه المرة توقيع « المشرف على قاعة فندق ريتز » ، وفي اليوم الثالث جاءت البرقية من فندق كلاريدج . وأخيراً ، وبعد أن شعر بأنه قد خلق ما يكفي من الاثارة والتوقع ، وصل إلى المنزل . كان رجلاً ضخماً مزهواً بنفسه ، يتمتع بنفس الأخلاقيات والشخصية التي كان يتمتع بها أوسكار وايلد . وكان يرتدي قبعة ضخمة وعباءة

فضفاضة . انساب داخل الحجرة وهو يقول : « آه ، شكراً للسماء أن أكون هنا ، يا ولدي العزيز . إنني مجهد للغاية » . وسألته جوي إن كان جائعاً . فأجاب بالفرنسية : « أكاد أموت جوعاً ! » . وكنا نحن في وسط تناول الطعام ، وكانت لدينا ابنة عمة لي وزوجها ، وزوجة لصديق قديم . وشرع سيدني يتكلم . ولم يحاول أن يلمس الطعام الذي قدمته اليه جوي على صينية ، وترك الطعام لكي يبرد على ركبتيه بينما راح يتكلم دون انقطاع ، مستخدماً يديه لكي يؤكد ما يقول ولكي يخرس كل من يحاول أن يقاطعه . ولم أكتشف إن كان قد أكل أم لا ، ولكن بعد ساعتين من هذا الاستعراض ، اعتذرت ورحت لكي أنام . وكان المزيد من الضيوف قد وصلوا — وهم بعض الأصدقاء من القرية . ولكن الليل كان قد انتصف وكنت أنا شديد التعب . وجاءتني جوي بعد ساعة لكي تقول إن سيدني قد تصرف بعنف وقبح مع كل من كان في الحجرة من نساء — باستثنائها — وأن إحداهن قد بكت وشرقت بدموعها .

ولم يذهب سيدني نفسه إلى فراشه لمدة ساعة أخرى أو نحوها . وكان زوج ابنة عمي قد راق له ، وأراد سيدني أن يسأله كيف تأتى لرجل في مثل ذكائه الواضح أن يحتمل أن يظل متزوجاً من مثل هذه الفتاة الغبية . وحينما ذهب إيان — الزوج — إلى فراشه متأثراً بعمق إدراك سيدني للأمور ، قرر سيدني أن الوقت قد أصبح مناسباً لكي يغسل شعره . وكانت جوي قد تركت زجاجة من صابون الشعر (الشامبو) في الحمام ، فغسل سيدني شعره ، ثم غسله بالماء اثنتي عشرة مرة أو نحوها . وكنا نحن ننام تاركين باب غرفة نومنا مفتوحاً — حتى نكون قادرين على سماع الأطفال إذا استيقظوا — ولكن قرقرة المياه التي لا تنتهي في الحوض منعتنا من النوم . وأخيراً ، أدخلت رأسي في الحمام وصحت به : « سيدني ، أتسمح بالذهاب إلى فراشك ؟» .

فأجابني : « آسف ، أيها الولد العزيز » ثم اختفى ليدخل فراشه ، وكان ذلك في حوالى الخامسة صباحاً .

وكان سر الاحتفاظ بسعادة سدني ، وهو السر الذي سرعان ما اكتشفناه ، هو أن نجعل منه محوراً لانتباهنا . فإذا سمح له بأن يروي الطرائف عن المشاهير الذين عرفهم لأصبح سعيداً تماماً ، ومقبولاً لدى الجميع . فإذا انتقل الانتباه إلى شخص آخر أصبح كريهاً ، وازداد كراهة كلما مر الوقت . وهو جدير في هذا الحال بأن يغادر الحجرة فجأة ، ويبقى بالخارج حتى يسأل أحد الموجودين : « أين سيدني ؟ » وهذا هو السؤال الذي يريده . كانت رغبة جنونية في اهتمام الناس . وكان يفضل أن يصفع على أن يكون موضع التجاهل . وكان يتواقح بقدر ما يستطيع ، وخاصة على النساء ، وذات مرة تصرف بوقاحة مع سيدة من ضيوفنا بصفة مستمرة وبقسوة حتى صحت فيه أخيراً : « أتتفضل بالسكوت يا سدني ! » . وهنا قال لي : «آسف ، أيها الولد العزيز ، أتمنى ألا تعتاد الصياح في وجهي » . وقد كان مؤدباً مع جوي أدباً يثير الغثيان والاشمئزاز . لقد كانت مضيفته ؛ ولو أنها فقدت صبرها معه لكان في ذلك نهاية اقامته . ولكنه قال لها إنها لا تملك فكرة عن كيفية ترتيب المنزل ، وغيّر مواضع كل الصور المعلقة على الجدران . وذات يوم أعادتها ابنة عمتي إلى أماكنها الأصلية ، فاستشاط سيدني غضباً ، ورفض أن يكلمها ، وشرع يقذف من تحت بابها بمذكرات غاضبة .

كان منزلنا يتحول إلى شيء أكثر جنوناً من الوضع الذي صوره كوارد [1] في إحدى كوميدياته الباكرة ، ووجدت أنا في ذلك عنتاً

---

[1] كوارد – نويل – (١٨٩٩ –) كاتب مسرحي انجليزي اشتهر بمسرحياته الكوميدية الاجتماعية الخفيفة .

شديداً وارهاقاً ، طالما كان اهتمامي بالناس وبما يفعلونه محدوداً . وسمحت جوي لسيدني بأن يفعل ما يريده بشأن ترتيب البيت . واستيقظنا ذات صباح لكي نجد أن سيدني قد طلا كل شيء من أثاث المنزل في الليل باللون الأسود . ولم يكن يحب تعدد الألوان ، وقال إن الطلاء الفرنسي للمكتبة كان طلاء مبتذلاً ، الأمر الذي كان محقاً فيه بالفعل . ولكنه صبغ كل شيء في المنزل : المقاعد والموائد وحاملات المصابيح ، وحتى الأجزاء الخشبية من ساعة الحائط . ولسوء الحظ ، فإنه استخدم نوعاً رخيصاً من الطلاء الأسود ، فبدأ يتساقط بالتدريج في شظايا صغيرة بعد شهور قليلة .

وكانت ابنة عمتي وزوجها قد شرعا في الشجار باستمرار (وقد حصلا على الطلاق فيما بعد) ، وغادرتنا ضيفتنا الأخرى . وهكذا كان سيدني قد شرع يستمتع بوجوده . وكانت المنطقة كلها قد عرفت الآن بوجوده عندنا . وذات يوم سار إلى نهاية شاطئ الخليج الصغير في معطف للمطر من البلاستيك ، وقفز في الماء على مرأى من حشد من رواد الشاطئ . وظن بعض الناس انه يحاول الانتحار ، وظن آخرون أنه سقط قضاء وقدراً ، وانطلقت الزوارق من على الشاطئ وقفز السباحون في الماء لانقاذه . وبعد دقائق قليلة برز من تحت الماء وهو ينفخ بسرور ، قائلاً إنه يسبح دائماً وهو يرتدي معطفاً سابغاً للمطر من البلاستيك ... وكان علي أن أرحل إلى مكان بعيد لعدة أيام في هذه الفترة تقريباً . وذات ليلة عثرت جوي على سدني وهو يغادر المنزل حاملاً قدراً كبيراً مليئاً بطلاء أزرق . فسألته إلى أين يذهب فقال لها إنه يعتقد أن باب كنيستنا المحلية له لون مقزز ، وأنه قد نوى أن يصبغه باللون الأزرق . واستطاعت جوي أخيراً أن تثنيه عن عزمه موقتاً ، واقترحت عليه أن يسأل القسيس أولاً . ومن الغريب تماماً أن القسيس وافق على ذلك ، ودفع بالفعل ثمن علبة من الطلاء الأزرق ،

وثمن علبة صغيرة أخرى من الطلاء الذهبي من أجل العوارض الخشبية البارزة في الباب .

وبعد أسبوعين بدأ سيدني يشعر بأن صبري على وشك النفاد ـ رغم أنه كان مؤدباً معي دائماً ، وغالباً ما كان شديد التملق . فأقنع القسيس بأن يسمح له باستخدام حجرة في الكنيسة ، فجمع حقائبه ذات مساء بينما كنت أكتب في صومعتي ، وكانت جوي بالخارج ، ورحل دون أن يقول إلى اللقاء . ولكنه لم يبرح المنطقة . واستمرت التقارير عن أفعاله تصل الينا كل يوم أو يومين . واستهلك بضائع بقيمة كبيرة من أحد المحلات القريبة ، حتى رفض صاحب المحل أن يسمح له بالمزيد من الاستدانة إلا إذا دفع ديونه السابقة . وذهب سيدني إلى المصرف وجاء بالنقود في صورة حقائب من الملاليم (البنسات) وصب الملاليم كلها على منضدة الرجل ، وقال له باحتقار إنه تاجر مبتذل ، وهرع خارجاً ، وذهب إلى بائع محلي للملابس وقال إنه رغم تعوده على شراء ملابسه من باريس أو من « سافيل رد » ، وهو أحد المحلات المشهورة للملابس في لندن ، فإنه قد قرر أنه أصبح بحاجة إلى ملابس خارجية كاملة ملائمة . وأمضى نصف ساعة في اختيار ما يريد ، وجعل صاحب المحل يجمعها كلها في لفافة هائلة ، وطلب من الرجل أن يرسل اليه الفاتورة . وكان طبيعياً أن يحتج الرجل بأنه لا يعرف سيدني ، وأنه لا يستطيع أن يوليه كل هذه الثقة . فقال سيدني بهدوء مليء بالازدراء : « في هذه الحالة ، لن آخذ الملابس » ، ومضى خارجاً بهدوء . واستمر يزورنا في مواعيد الطعام حتى نفد صبري فقلت له أن يبتعد عن المنزل . ثم غادر الكنيسة بعد مشاجرة مع زوجة القسيس ، ولكنه كان قد اكتسب بعض المعارف الجدد في المنطقة في تلك الفترة ، فانتقل إلى مكان قريب . وقال لي رجل من الأهالي إنه حدث ذات ليلة أن اشترك الجميع في الحانة في مناقشة موضوع سيدني وقالوا إنه

يحاول أن يقنع ربات البيوت بأن يطهين له طعامه وأن يؤوينه في منازلهن في الليل . ولم يكن الرجل قد التقى بسيدني أبداً ، ولكنه حينما عاد إلى منزله في ذلك المساء ، وجده في مطبخه يأكل طعاماً وضع أمامه . ورغم احتجاجات زوجته فقد أمر الرجل بالخروج . وكانت هذه إحدى المرات القليلة التي واجه سيدني فيها الفشل .

لقد كان مصمماً ممتازاً للأثاث والمنازل ، وكان من المحتمل أن يستطيع الحصول على ربح كاف . حقيق حياة رغدة لو أنه كان أكثر استقراراً . وقد أقنع أحد أصحاب الحانات المحليين بأن يقرضه بعض المال لقاء أن يصنع له صورة بريشته ، لكي يضعها الرجل وراء « البار » في حانته . وذات يوم شعر الرجل بأن سيدني قد حصل على ما يكفي من المشروبات مجاناً ، فطلب منه أن يسدد دينه . واختفى سيدني من الحانة ، واختفت الصورة أيضاً من على الجدار .

وطوال الشهور القليلة التالية ، حرصت على ألا أتردد سوى على الحانات التي كنت أعرف أنه ممنوع من دخولها ، ولكنه كان من المستحيل ألا ألتقي به صدفة من حين لآخر . وفي حفل موسيقي محلي ، حيث كان ثمن التذكرة يتضمن وجبة يتناولها المرء من على الخوان بنفسه ، سألتني المضيفة : « من هو هذا الرجل المرعب ؟ لقد أكل نصيب فردين وهو بالتأكيد لم يشتر تذكرة ؟ » . وكان الرجل هو سيدني ، في عباءته المتطايرة وقبعته الضخمة ، يفترس كالذئب ساق دجاجة أخرى .

ومن المؤكد أنه قد حقق غرضه من أن يظل شخصاً مذكوراً . وقد حدث كل هذا من بضع سنين مضت ، ولكن إذا ذكر اسمه في أية حانة من هنا حتى بلدة ترورو ، فإن اثني عشر شخصاً في البار على الأقل سيروون عنه بعض الطرائف .

* * *

ولا بد أن مثل هذا النوع من الوقائع والتجارب يبدو مسلياً إلى حد كبير . ولكنه يصبح أقل مرحاً إذا واجهه المرء بنفسه . ومن نقائص الحياة في كورنوول أنه حينما «يسقط علينا» الأصدقاء والمعارف ، فإنهم — في العادة — يمكثون لأسبوع كامل أو نحو أسبوع . وحينما كنت أعيش في لندن ، لاحظت أنه متى ما نشر عني شيء ما في الصحف . فإن اثني عشر صديقاً قديماً سوف يتذكرونني فجـأة ويقررون الاتصال بي تليفونياً أو يأتون لزيارتي دون سابق انذار ، وكنت أجد في هذا تشتيتاً للذهن وللطاقة . ولكن كورنوول بالمقارنة إلى لندن تبدو أكثر هدوءاً بكثير . ثم اكتشفت العيب الذي ذكرته . وهو أنه حينما يقرر الأصدقاء أن «يسقطوا» علينا هنا . فانهم يمكثون . ويصبح سيل السيارات المتجهة إلى منزلنا أكثر غزارة في فصل الصيف ، ويبدأ هذا الفصل في حوالى شهر مايو (ايار) ، ويستمر حتى آخر سبتمبر (ايلول) . وفي الأسبوع الثاني من شهر أغسطس (آب) في هذه السنة ، كان لدينا ما لا يقل عن ثمانية عشر شخصاً ، ينام اثنان منهم على المرجة المواجهة للمنزل في خيمة . ومعظمهم ظهروا كأصدقاء في هذا اللحظة فقط .

وأحياناً أفكر في الانتقال إلى مكان ما بعيد حقاً — منطقة آوتر هابريدز ، أو شتلاند ، وليس ما يمنعني من ذلك سوى أن الضيوف قد يتوقعون أن يبقوا شهوراً بدلاً من بضعة أيام أو أسابيع .

الفصل الحادي عشر

بعد الطوفان

قبل عام واحد فقط ، كانت كورنوول جديرة بأن تكون هي فكرتي عن الحياة الريفية الرعوية . فهناك كوخ على بعد خمس دقائق من شاطئ خاص ، وكوخ خشبي صغير للعمل ، ومجرى مائي تحت النافذة ، ودخل صغير — يكفي لمثل هذا النوع من الحياة — ومئات من الكتب والتسجيلات الموسيقية . كان كل شيء يبدو لي كاملاً كمالاً مطلقاً في كل صباح من الأيام المشمسة ، حينما أعمل في الكوخ الصغير والنوافذ مفتوحة على مصاريعها ، ورائحة خشب الكوخ ساخنة ومتصاعدة مع ضوء الشمس ، والمجرى المائي تصـــدر عنه أصوات صاخبة كالمطر الثقيل ، حتى لا يستطيع المرء أن يقول أبداً متى يسقط المطر .

ولكن كان لهذه الحياة جانب آخر . كانت قصاصاتي الصحفية معادية الآن بصورة واضحة ورسمية . وحينما كتبت « اللامنتمي » أعدت قراءة كل صفحة منه بإحساس من الرضا الكامل ، شاعراً بأن هذا الكتاب شيء يمكن أن يغيّر من صورة الأدب الحديث المعقدة —

أو في أي حال ، يمكن أن يعتبر من جو الخواء العقلي العام فيه . وإذ كنت أكتب «الدين والمتمرد» ، فإني لم أكن أملك — بعد — أي سبب للتفاؤل . وكان يقيني كاملاً من أنه سوف يساء فهمه ويتعرض للهجوم . لقد كنت مأخوذاً طوال سنوات بذلك الطموح المعتاد : الرغبة في النجاح واعتراف الناس ، وأن أشعر بنفسي كصاحب تأثير حي على الأدب . وكان النجاح قد جاء وذهب ، وأنا أشعر الآن بمثل ما يشعر به من فاته القطار وأمامه احتمال أن يقضي الليل في غرفة الانتظار . وهكذا فإن الإحساس بامتلاك بيت يخصني ، قد قابله — وأضاعه — إحساس بعدم الأمان أكثر عمقاً . وقد كنت أومن دائماً بأني إذا استطعت أن أقول كل ما بداخلي ، فإن اعتراف الناس بي سيكون أوتوماتيكياً . والآن وقد قلته ، فإنني أبدو أكثر بعداً عن الهدف مما كنت أبداً . ومن الواضح أنه كان المطلوب أن أتبع تاكتيكات جديدة . فلكي أثبت أنني لم أكن ومضة ضوء سطعت في الظلمة ثم اختفت ، كان علي أن أخلق بناء هائلاً من العمل الجاد . ولم يخامرني الشك لحظة واحدة في أنني قادر على أن أخلق كمية من الأعمال أكثر ضخامة وتماسكاً مما استطاعه أي كاتب منذ برنارد شو ، وقد بدا لي واضحاً أنه ليس ثمة من منافس في هذا المجال . لقد كان جويس وولف وهيمنجواي ومان وإليوت وجرين شخصيات ضئيلة في جوهرها ، طحنتهم ضخامة المشكلة مشكلة كيف يكون المرء كاتباً عظيماً في «عصر القلق» والأمراض العصبية . ولم يثر اهتمامي بدرجة عظيمة من بين الشخصيات المعاصرة سوى سارتر ، ولكن تشاؤمه أثبت أنه على الرغم من كل ذكائه ، قد كان ضحية أخرى لعصر الهزيمة .

كانت المشكلة هي الوقت . فكم من السنوات يمكن أن تتطلبها المهمة : عشراً ، أم عشرين ، أم ثلاثين ؟ لقد طرح علي هـــذا

السؤال – وطرحت اجابته – بالمعنى الذي اعتادت فرجينيا وولف أن تستخدمه . وهو الاحتياج إلى العمل بطريقة عبودية . ليلاً ونهاراً . ثم تذكرت ما حدث لوولف ، فحاولت أن أهدئ من تسرعي وتنفاد صبري . وقد عمقت حادثة وقعت في مسرح الرويال كورت من إحساسي بالتشاؤم . فقد دعاني مخرجه جورج ديفاين إلى الغداء ذات يوم من عام ١٩٥٦ ، وسألني إن كنت أحب أن أكتب مسرحية . وقال لي إن الرويال كورت هو الفرصة المثالية بالنسبة لكاتب مثلي ، لأن هذا المسرح كان مستعداً لأن « يرعى » كتابه الدراميين ، فإذا كانت المسرحية رديئة ، فإنه يستطيع الاستعانة بعدد قليل من الممثلين لكي أرى على أيديهم لماذا هي رديئة ، وكيف تمكن اصلاحها وتعديلها . . . وقد حدث هذا في فترة النجاح الباكرة الأولى التي تلت نشر « اللامنتمي » . وفي زياراتي التالية للمسرح ، أحسست بجو معين ، وأكد لي صديقي ساندي ويلسون أن هناك إحساسا عاماً بأن مسرح الرويال كورت لا ينبغي أن يتحول الى معرض يلجأ اليه ويلسون المحتال . وذات يوم ، عرضت لي فكرة جيدة لمسرحية – وكانت تبدو فكرة بسيطة ولامعة ، هبة خالصة . فدعوت ديفاين إلى الغداء ولخصتها له . وقال لي أن أبدأ على الفور في كتابتها . وأخيراً ، استقر عزمي على كتابة مسرحية « موت إله » في أولد دوراز – وهو اسم كوخنا ، ثم أرسلتها إلى مسرح الكورت . ومضى على ذلك شهر ، ثم أعيدت المسرحية إلي مع قصاصة مطبوعة بالرفض – ولم يرسلوا مجرد خطاب . وأرسلت إلى ديفاين خطاباً مليئاً بالحزن ، وقرأته لبيل هوبكينز الذي كان مقيماً معنا . وكان تياد ، شقيق بيل ، يعمل في تلك الفترة في المجلة الجديدة « نيوز كرونيكل » . وسألني بيل إن كنت أسمح للكرونيكل بأن تنشر خطابي كخطاب مفتوح إلى جورج ديفاين ، طالما أن أكثره كان يعالج سياسة مسرح الكورت ، وهي السياسة التي

شعرت بأنها يسارية ضيقة الأفق ومضادة للثقافة بطريقة عدوانية . (وقد لاحظ كينيث تاينان نفس الملاحظة عندما كان يكتب عن إحدى مسرحيات ويسكر حينما قال إنه ليس هناك شك في أن قلب الجناح اليساري الجديد يوجد على اليمين ، وكان ما أزعجه هو عقل هذا اليسار الصغير بحجم علبة الصفيح الصغيرة) . وأملينا الخطاب إلى تيد بالتليفون، وأبلغه بيل بالتليفون أيضاً إلى صحف أخرى ، على أساس أنه يجب أن ينتشر إلى أوسع قدر ممكن . أما ما كان يجب علينا أن نتبينه ، فهو أن زاوية الانتشار الأساسية في القصة لا بد أن تكون هي أن مسرحيتي الأولى قد رفضت . وكان هذا هو ما حدث . واقتطفت إحدى الصحف من أقوال رونالد دنكان – الذي كان واحداً من اللجنة التي رفضت المسرحية – قوله إن مسرحيتي كانت مثل مسلسلة أطفال في التليفيزيون وأنه كان الواجب أن أصبح كاتباً لاعلانات بيع الصابون (وحينما قابلت دونالد دنكان بعد ذلك بعدة شهور أصبحنا صديقين على الفور . وعلى أثر هذا فقد دنكان وظيفة كاتب تعليقات ثابتة في إحدى الصحف حين رفض تعليمات أحد رؤساء التحرير بأن يسب كتابي الثاني ويشهر به) .

وبدا لي أنه من المستحيل أن أحصل على أي دعاية جيدة . وفي تلك الفترة تقريباً أصدر اللورد بيفر بروك مجلة جديدة تدعى « الكتب والفن » . وقد حدث أن كنت أجلس مع نيجلي فارسون ، فأجريت معه حديثاً مسجلاً ، وكان الدافع الأساسي لهذا الحديث هو تجربة جهاز جديد للتسجيل . ونشرت بضعة مئات من الكلمات من هذا الحديث في مجلة « الكتب والفن » تحت عنوان : « كولين ويلسون يتحدث عن : « عبقريتي » . (وكان صحفي يدعى دان موجوداً معنا أثناء التسجيل ، ولكنه قال بعد ذلك إنه لم يكن مسؤولاً لا عن العنوان ولا عن اختيار المادة) ، وكانت اللحظة المقتطعة من الحوار ، والتي بررت وجود

العنوان تقول :

دان : هل تعتقد أنك عبقري ؟

أنا : أعتقد أنه لا بدّ أن يعمل كل كاتب منطلقاً من هذا الفرض . وقد يثبت بعد ذلك أنه كان على خطأ ، ولكن دون أن يشعر به منذ البداية ، فإنه لن يستطيع أن ينتج عملاً كبيراً .

دان : (متجاهلاً بوضوح التحديدات التي وضعتها) هل هناك عباقرة آخرون في انجلترا في هذه اللحظة ؟

أنا : (وأنا أحدد بالاسم موضع مقت دان الشديد وبغضه) بيل هوبكينز .

* * *

وظهرت إحدى صحف الأحد – بعد نشر ذلك الحوار – حاملة فقرة تحت عنوان : « عبقري انجلترا الآخر » . وتنتهي بسطر تقول فيه : « ما الذي نشره مستر هوبكينز حتى الآن ؟ لا شيء على الاطلاق . » .

* * *

وعلى ذلك ، فإن عامنا الأول في « أولدوولز » لم يكن عاماً سعيداً كل السعادة . وكنت قد تعودت أن أسير إلى المزرعة لكي أجمع البريد الخاص بي في أي صباح مشمس ، فألاحظ باهتمام أن سحر الريف قد فشل تماماً في التأثير علي . ذلك أن كل ما كنت أشعر به من متعة ، كنت جديراً بأن أشعر به لو أنني كنت أسير في شوارع منشستر في صباح مطير بارد . وكان هذا راجعاً ، فيما أظن ، إلى نوع من الاجهاد العاطفي ، شبيه بما كنت قد تعودت أن أشعر به ساعة الاستيقاظ في

حدائق هامبستيد هيث . وكان هناك عنصر آخر باعث على القلق ، نادراً ما شعرت به في تلك الأيام الحالية : سم الناس .

وفي خريف عام ١٩٥٧ ، ظهر كتاب « الدين والمتمرد » أخيراً . وفي صباح الأحد السابق على يوم النشر — وكان قد مضى ما يقرب من ثمانية عشر شهراً على النشر الأول — أسرعت للخارج لكي أشتري الصحف . وفي بلدة ميفاجيسي كانت نسخ « الأوبزرفر » قد نفدت . فذهبت بالسيارة مسافة عشرة أميال إلى بلدة سانت أوستيل . وكنت أتوقع أسوأ الأقوال . وهكذا لم أجد شيئاً أسوأ مما توقعت . ففي « الصنداي تايمز » قال رايموند مورتيمر بتواضع إن أول كتبي لم يكن هو كتابه المفضل ولم يكن سائغاً بالنسبة له . ولذلك فإنه لم يكن مهيأً بما فيه الكفاية لكي يحكم على كتابي الثاني . وما إن فرغ من هذه الكلمات حتى شرع في لعن الكتاب . أما فيليب توينبي فكان من الواضح أنه متلهف على إصلاح « غلطته » السابقة التي ارتكبها بالثناء على « اللامنتمي » ، فوصف « الدين والمتمرد » بأنه هراء لا نفع فيه كالفضلات . (وكان هناك ناقد آخر ساعد في ذيوع صيت « اللامنتمي » قد قال بالفعل لعدد كبير من المعارف المختلفين إنه لم يكن قد « قرأه » بالفعل ، ولكنه ظن أنه يستحق نظرة إيجابية جيدة في مثل قوة نسيجه ومادته ، وقد اهتم هؤلاء المعارف بأن يعودوا إلي بهذه الكلمات) .

وكان هناك نوع من العزاء في كل هذا . كان من الواضح أن سمعتي قد لمست سطح القاع ، ولم يعد هناك احتمال لأن تهوي إلى أبعد من هذا . ولم يكن هذا يعني بالضرورة أنها سوف تبدأ الآن في الارتفاع ، ولكنها على الأقل لن تستطيع أن تهوي أكثر . وهكذا فحينما اتصل بي مراسل إحدى الصحف في ذلك المساء لكي يسألني عن شعوري بعد أن لعنني النقاد الذين أثنوا علي ذات مرة ، أجبت بإخلاص قائلاً إنه من دواعي السرور أن أكون هدفاً لكل هذا الاهتمام في مثل

عمري ، وإن النزول من فوق عمود التشهير أو الشهرة ، ربما يكون مصدراً لنوع من الارتياح .

وسرعان ما أصبح واضحاً أن تغير قلب توينبي إزائي ، قد اعتبر من قبل الصحافة الشعبية أنه البرهان النهائي على أن « ظاهرة ويلسون » قد وصلت إلى نهايتها الكاملة . وتلقف الأمريكيون الأثر بابتهاج شديد ، تحت قيادة « التايم » التي وصفتني بأنني « المتفيقه المتسلق » ، واقتطفت قول نانسي سبين : « لقد أصابنا الغثيان من الولد كولين » . وبعد ما يقرب من أسبوع من نشر كتاب « الدين والمتمرد » طلبني كولانز ، وطلب مني أن أذهب لمقابلته في لندن . وكانت نصيحته لي هي أن علي ببساطة أن أتوقف عن الكتابة لمدة عامين أو نحوهما ، وأن أحصل على عمل ما . وسواء كانت الهجمات الموجهة ضدي معقولة أم لا ، فقد كان من الواضح أنها سوف تستمر مدة طويلة . والمهرب الوحيد هو أن أختفي حتى يتم نسيان كل شيء . ومضى يقص علي حكايات منذرة محذرة كئيبة عن كتّاب آخرين بدأوا بنجاح هائل ، ثم وجدوا أنفسهم غير قادرين على مواصلة النجاح ، مثل إرنست رايموند بكتابه « قولوا لانجلترا » ، وأليك ووف بكتابه « طيف الشباب » . وقصّ عليّ أيضاً قصصاً عن كتاب كان قد نشر لهم وكانوا قد بدأوا بروايات واحدة ، ثم نشروا كتاباً ثانياً رديئاً ثم طواهم النسيان . وكان أحدهم — بوجه خاص — من الذكاء بحيث حصل على وظيفة مدرّس ، وكان على استعداد لأن ينفق عشر سنوات في تأليف كتابه التالي إذا كان هذا ضرورياً .

ولكن هذا كله لم يكن موضع ترحيب مني بقدر ما أستطيع بعد سنواتي الثماني في المصانع والمكاتب . كنت قد أمضيت وقتاً طويلاً في العمل لمدة تسع ساعات في اليوم لقاء نصف جنيه في الساعة بحيث لا أجد أي متعة في التفكير في العودة إلى ذلك مرة ثانية . وفي بعض

الأحيان كانت تهاجمني الكوابيس التي لا آجد فيها ناشراً لكتابي التالي فاضطر إلى العمل ثانية في أحد المصانع . وهكذا فقد قلت له إنه مهما حدث فإنني لن أعود مرة ثانية إلى أي عمل عادي . ثم ذهبت إلى ت . س . إليوت في مكتبه في دار فابر وفابر للنشر لكي أحدثه بشأن محاولة إخراج إزرا باوند من سجنه (وهو مشروع كنت أنا ورونالد دنكان قد اتفقنا على التعاون فيه) . وقال لي إليوت أيضاً إنه هو الآخر يعتقد انه لا بدّ من العناية بالموهبة عناية فائقة ، وأنه لا يوجد ما هو أكثر ضرراً بها إلى حد الفناء من التسرع في النشر بهـــدف الحصول على المال . وحينما رحلت إلى كورنوول بعد بضعة أيام كنت أكثر انقباضاً مما كنت طوال العام المنصرم . كان بوسعي أن أرى ما يقصده كولانز . فقد اعترفت في كتاب « الدين والمتمرد » بأنني لا أستطيع أن أرى أي حل عملي وفوري لمشكلة اللامنتمي ، وأنهيت ذلك الكتاب باعلان أنه قد يكون آخر كتبي الفلسفية لبعض الوقت . وكنت قد كتبت مسرحية ورفضت ، ولم تكن لدي أي فكرة أخرى لمزيد من المسرحيات . (وقد سطا أحد الصحفيين فيما بعد على فكرة مسرحية « موت إله » في مسرحية أخرى وصلت إلى حي المسارح في الوست إند) . وكان كولانز قد رفض النسخة الأولى من رواية « طقوس في الظلام » ، وكان من الواضح أنه مقتنع بأنني لن أستطيع أن أكتب رواية . وكان من الواجب أن أعترف بأن كتاب « الدين والمتمرد » قد يحصل لي على قدر ضئيل من المال ، وربما يكفيني هذا القدر لكي أعيش به عاماً آخر . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ إنك لا تستطيع أن تعيش من كتابة الفلسفة .

ولكن ، كان هناك بديل لحسن الحظ . كانت الدعوة قد وجهت إلي لكي ألقي بعض المحاضرات في الجمعية الأدبية الجامعية في أوسلو ، وكان اليوم المقرر لرحيلنا هو يوم نشر رواية بيل هوبكينز « المقدس

والمنحط » . وفي طريقنا إلى المطار اشتريت نسخة من مجلة « الكتب وصنّاعها » ، وكانت تتضمن بعض المقتطفات من الرواية على صفحتين ، وأذكر أنه كانت هناك صورة لبيل على غلاف المجلة . وكانت هناك مقالة عن بيل بقلم دان فارسون أقل قليلاً من التعاطف في موقفها منه ، ولكن كان من الواضح بشكل عام أن مجلة « الكتب وصناعها » قد توقعت للرواية نجاحاً طيباً . وشعرت بغصة الحسد ، ونذرت أن أبذل محاولة ملؤها التصميم الحقيقي في كتابة « طقوس في الظلام » في اللحظة التي أعود فيها من أوسلو .

وكانت أوسلو مدينة مبهجة . ودهشت حينما سألني مراسلو الصحف عن أعمالي وأفكاري ، وليس عن حياتي الخاصة . وكان الفندق مواجهاً للمسرح الذي تقوم أمامه تماثيل إبسن وبجورنسون . وكان هناك إحساس بأن الأدب هنا موضوع من موضوعات الاثارة الحقيقية وأنه يمكن أن يكون للأفكار تأثير حقيقي على المستقبل . كان الجو مختلفاً عن جو لندن إلى درجة لا تقبل المقارنة . هنا ، كان وضع المرء ككاتب يبدو متضمناً كل الأشياء التي حلمت بأنه يتضمنها قبل أن أنشر كتاباً واحداً ، وكان هناك إحساس بالحيوية الذهنية ، وبالمشاركة في صنع التاريخ الأدبي . وألقيت محاضراتي في قاعة واسعة ، وكان الطلبة يجلسون إلى موائد صغيرة ويحتسون البيرة أثناء اصغائهم للمحاضرة . وحين كنت أنتهي من المحاضرة ، ينال الطلبة استراحة قصيرة ، تعزف فيها رباعيات وترية من موسيقى برامز ونيلسن . ثم تبدأ المناقشة ، فكان الطلبة يذهبون ليقفوا فوق المنصة لكي يعلنوا في كلمات طويلة أفكارهم الخاصة واعتراضاتهم على ما قيل أمامهم .

ولكنني أجد أنني ملزم هنا بأن أقدم ملخصاً قصيراً لمحاضراتي ، لأن الأفكار التي نميتها حينئذ قد تضمنت بذرة كل ما كتبته منذ ذلك الحين .

بدأت بتلخيص فلسفة سارتر وهايدجر ، موضحاً كيف كانت فلسفتهما الوجودية في جوهرها فلسفة استاتيكية ومتشائمة . وكان ذلك لأنهما معاً قد ألقيا بثقل اهتمامهما الرئيسي وتأكيداتهما على فكرة « الوجود » ، وعلى النظر إلى العالم القائم من حولها . إنه مجرد عـــالم « كائن » . لقد أخذا يتفحصانه ويدققان في ملامحه كما يمكن أن أتفحص ملامح رجل ألعب معه البوكر لكي أكتشف نوع الورق الذي يمسكه في يده في كل دور من أدوار اللعب ، ولكن العالم ، مثلما يكون لاعب البوكر الماهر ، يحمل وجهاً جامداً غير معبر ولا ينم عن شيء .

ويؤدي هذا بسارتر إلى النظر إلى الوعي باعتباره « عدماً » ، فالوعي عندي متفرج خالص . ولقد افترضت أنا دائماً أنني أمتلك روحـــاً وإرادة حرة ، وبوجه خاص ، إذا كنت من رجال الفعل العاملين ، لأنني أظن أنني أستطيع أن « أرى » إرادتي الحرة في أثناء الفعل . ولكن إذا ما تركت بمفردي تماماً ، دون أي شيء يمكن أن يثير زهوي أو إحساسي بوجود غرض معين ، فإنني سرعان ما أسقط في الضجر . إن ارادتي الحرة في الحقيقة ، ليست سوى نتيجة لوجود مثير أو دوافع من الخارج . إنني مجرد بنس يصلح لادارة آلة عزف الموسيقى . وحينما أتبين هذا ، فإنني أبدأ في تبين ما يعنيه سارتر حينما يقول إن الوعي « عدم » ، فراغ ، مجرد متفرج سلبي . وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى أن أراقب البنس وهو يعمل عمله داخل آلة عزف الموسيقى . وعلى سبيل المثال ، لو أنني كنت وحيداً في مدينة كبيرة حيث لا أعرف أحداً ، فإنني لا أصبح سوى مجرد زوج من العيون ومجموعة من الحواس تتحسس وتنظر نحو الخارج إلى « الأشياء » ، هنا أشعر بفراغي . وعلينا أن نعترف أنه تمر بنا لحظات كثيرة نود فيها أن يخبط الواحد منا على صدره ويقول : « أنا شخص ما » . ولكنني إذا كنت أميناً فسوف أعترف بأن هذا في معظمه ليس سوى نوع من

الغرور أو الادعاء والتملق الذاتي . وإذا نظرت إلى نفسي في مرآة وسألت : « من أنا ؟ » ، فأنا أعرف أن الجواب هو : مجرد وجه ينظر إلى نفسه : بالاضافة إلى تاريخ « أعطتني » إياه ظروف حياتي .

* * *

وهذا هو باختصار ، الموقف الوجودي من موضوع الوعي والوجود . ومضيت أشرح باختصار عقيدة سارتر السيئة وموقفه الرديء من الايمان ، ومقولات هايدجر عن الوجود الأصيل والوجود غير الأصيل .

ومضيت أقول ، ولكن تجربتي الخاصة مع العالم لا تتفق مع هذا الموقف الوجودي . حقاً إنني أتفق معه بنسبة ٩٩ في المائة . ولكن هذا الواحد في المائة ، المختلف ، هو المهم هنا . هناك لحظات تمر بي — وأعتقد أن هذا ينطبق على أكثر الأصحاء من الناس — حين يغمرني إحساس بأن ثمة « معنى » يقوم خارجي ، معنى خفياً وبعيداً عني بسبب العتامة التي تكلل حواسي وبسبب التعقد البالغ لأساليبي في الإدراك والتصور . قد تأتي هذه اللحظات ذات صباح في الربيع ، أو وأنا أصغي إلى الموسيقى ، أو حتى وأنا أقرأ الفلسفة . إنني فيلسوف لأن الفلسفة منبثة في الكون ، فأعاملها كما تعامل المشكلة التي يمكن أن تحل، وأن هذا هو السبب الذي يجعلني أشعر بأن الحياة أكثر امتلاء بالمعنى — بفطرتها — مما أشعر بها حين أمضي في تفحص وجهها على طريقة تفحص وجه لاعب البوكر . بل إن قراءة أعمال سارتر وهايدجر تبث داخلي هذا الاحساس . ولذلك فان النتيجة النهائية التي يصلان اليها من أن الحياة « خالية من المعنى » ، تبدو لي كنوع من التناقض الذي يقعان فيه مع ما يدل عليه عملهما نفسه . إنهما يشعران بأن ثمة غرضاً من البحث عن المعنى ، وإلا لما كانت هناك محاولة للتفلسف . إن مركز فلسفتي هو « المعنى » وليس الوجود .

وعند هذه النقطة اتخذت محاضرتي اتجاهاً جديداً ، أثارته طريقة استقبال كتاب « الدين والمتمرد » . فحينما كنت أرقب وجوه المستمعين إلي البادية الاهتمام ، كنت أعرف أن ما كنت أقوله في تلك اللحظة هو واحدة من أهم القضايا التي يمكن أن يواجهها البشر ، وأنني كنت أتصارع مع هذه القضية بطريقة جعلت احتمال حلها في مجال الرؤية واضحاً . فما الذي يعنيه البلهاء الحمقى بحديثهم عن « التعميمات المنقوشة كالصوف » وما شابه ذلك ؟

ومن أغرب الأشياء أن نسبة مئوية كبيرة من الإنسانية تبدو غير مدركة لتلك القضايا . وعلى أي حال فإن شو قد فكر في نفس الاتجاه حينما جعل شو توفر يقول : « ماذا يجب أن نفعله إذن ؟ ألا بد لنا أن نظل إلى الأبد مغروسين ومشدودين إلى الوحل بقوة هذه الخنازير التي لا تجعل من الكون شيئاً إلا أن يكون آلة لحز وتنظيف صوفها القذر وملء خياطيمها ... هناك عداء موروث مستحكم بين بذورنا وبذورهم . وهم يعرفون هذا العداء ويتصرفون بناء عليه ، ويخنقون بذلك أرواحنا . إنهم يؤمنون بأنفسهم ، ولكن حينما نؤمن بأنفسنا ، فسوف نقضي عليهم » . وحينما يعترض هيكتور بأن الخنازير أكثر غباء من أن تستخدم قوتها ، يجيب عليه شو توفر : « إنهم يستخدمونها بالفعل . ونحن نقتل في كل يوم النصف الأفضل من بيننا لكي نسترضيهم ونستجلب عطفهم علينا . إن معرفة أن هؤلاء الناس موجودون فقط لتخريب آمالنا وتسليمها لليأس والبوار ، هذه المعرفة تمنعنا من أن تكون لنا آمال . » (وفي تلك اللحظة وجدت نفسي أفكر بوضوح شديد في بعض النقاد) .

وسواء كانت هذه التفرقة بين أبناء النور وأبناء الظلمة تفرقة حقيقية وأصيلة ، أم أن الناس جميعاً ، كما هو أقرب إلى الاحتمال ، يتحركون في نفس الاتجاه ولكن بسرعات متفاوتة ، فإن هذه النقطة ليست جديرة

بالاهتمام . ولقد كانت التفرقة – أو التمايز بين الصنفين من الناس – التي حدثت في مجتمعنا بوضوح شديد منذ عصر بليك تفرقة عملية . وتعود هذه التفرقة إلى الظهور في عصرنا في صورة « مشكلة اللامنتمي » إن « الريّس مانجانس » – الذي كان شوتوفر يتكلم عنه – يجد أن الفلسفة المادية تستمد من العلم الكثير من أسسها المحببة . وفي عصرنا نحن ، أصبحت هذه الفلسفة هي الفلسفة التي تكمن وراء كل السياسات الشمولية والمشروعات الكبيرة – وتماثل في ذلك كل النظم الفاشية والشيوعية والرأسمالية . كذلك فإن الفلسفة الوضعية تسلم بهذه التفرقة تسليماً قبلياً كما تسلم بالبديهيات . ولما كان من الصعب على الرجل الذكي في عصرنا أن ينظر إلى الكنيسة نظرة شديدة الجدية باعتبارها قوة حيوية مؤثرة ، فإن الفلسفة الوجودية تظل هي الفلسفة الوحيدة التي تحاول أن تطرح المشكلات الحقيقية طرحاً مجدياً ، وأن تؤكد أن ثمة مشكلة للوجود ومشكلة للمعنى مرتبطتين بالحياة الإنسانية . ولكن الفلسفة الوجودية تطلق نيرانها في الهواء فلا تصيب أهدافها حين تعلن أن الحياة الإنسانية خالية من المعنى . ويستطيع الوضعيون على الأقل أن يزعموا الأخذ بنظرة عملية ومتفائلة إلى المجتمع . وبقدر ما أستطيع أن أراه . فإن الأمل الوحيد في نهضة ثقافية جديدة . لا يتحقق – إذن – إلا من خلال نزعة وجودية متجددة الحيوية تطرح بحسم بعيداً عن نفسها هذه الرؤيا التافهة عن فراغ الحياة الإنسانية من المعنى وعن تحول الوعي الإنساني إلى نوع من العدم . إن الوعي الإنساني ليس عدماً إلا لأننا لا ندرك منه سوى طرف الغصن النابت فوق الأرض . ولكن اللحظات ذات العمق والشمول ، سواء جاءت من خلال الفن أو الطبيعة أو الدين أو الجنس ، هذه اللحظات تكشف لنا أن المشكلة الحقيقية هي أن نتعلم أن نعيد ربط أنفسنا بـ « معنى ما » ليس غائباً غياباً كلياً عن عالمنا – حتى بالنسبة لرجل يعاني من « نوبة » سيئة من جرح قديم .

أو أثر سيء متخلف من عادة رديئة كانت له في الماضي ، أو مما يدعوه سارتر بـ « الغثيان » .

* * *

كان هذا هو مضمون محاضراتي ، وشعرت حينئذ بأنني أدرك وقوفي على مشارف شيء بالغ الأهمية . وكانت المشكلة هي أنني لم أكن قادراً على الاجابة على السؤال : « ما الذي نفعله الآن ؟» ، هذا السؤال الذي ألقاه في وجهي أحد الطلبة . كان « مكان الخطوة التالية ؟» هو ما يحيرني ويربكني . ولم أكن أستطيع إلا أن أقول بغموض إن الفلسفة الوجودية ينبغي أن تراجع من جذورها حتى آخر كلمة فيها . وقد سألوني — وكانوا محقين تماماً في هذا السؤال — عن كيف يمكن لهذه المراجعة أن تنقذ حضارة تواجهها القنبلة الهيدروجينية وسباق التسلح ، وحرب أيديولوجية تقوم على سوء الفهم . كانت الكنيسة قد قدمت على الأقل — ذات مرة — مبدأً وأساساً للوحدة .
ولم أستطع أن أقول إلا أن أسوأ أجزاء المشكلة بالنسبة لي هو افلاسنا الثقافي . وقد يبدو هذا عنصراً لا أهمية له في وجه الثورة المجرية والقنبلة الهيدروجينية وتجاربها . ولكن الشيء الذي كان قد بدأ بين المثقفين في صورة اتجاه هادئ نحو اليأس ، قد أصبح الآن نزعة عدمية ممزقة ، وأمراضاً عصابية ، واشفاقاً مزعجاً على النفس .

واستمرت المناقشة دون نهاية . وبعد أن أجبت على الأسئلة ، وجهت إلي الدعوة لحضور حفلة أقامها الطلبة ، ولا يسمح لعمداء الكليات بحضورها إلا إذا وجهت اليهم دعوة خاصة لكل منهم . وكنت آمل أن أسترخي في هذه الحفلة وأشرب ، ولكن بدلاً من هذا أجلسوني في وسط الحجرة ، وجاؤوا لأنفسهم بالمقاعد والحشايا ، وظلوا يطرحون الأسئلة . وعدت إلى فندقي في الرابعة صباحاً ، شاعراً بالتوهج العقلي

والتوثب ، ولكن جسدي كان مرهقاً ، يملأني الاحساس بأنني على وشك الاصابة بنزلة برد حادة تلزمني الفراش شهراً .

وفي اليوم التالي بدأت الاصابة بنزلة البرد في حلقي — وكانت أسوأ نزلة برد أصبت بها منذ سنوات . ولزمت الفراش ثلاثة أيام ، وعيناي تسح منهما الدموع وصوتي لا يكاد يسمع ، ورحت أقرأ الصفحات الأخيرة الثقافية من المجلات التي اشترتها لي جوي من المكتبة المجاورة . وفي نهاية الأيام الثلاثة ، غادرت الفراش وألقيت محاضرة ثانية أمام أعضاء جمعية أخرى .

وأرسل بيل إلينا خطاباً من هامبورج ، حيث كان قد ذهب لكي يكتب روايته الثانية « زمن الكليات » (التي دمرت فيما بعد تماماً في حريق) . وقررنا أن نقطع رحلة عودتنا إلى لندن بالطائرة ، لنهبط في هامبورج لكي نراه . ووجدناه حزيناً ومنقبضاً ، وكان ناشره قد وعده بعشرة جنيهات أسبوعياً أثناء كتابته للرواية ، ولم يكن قد وصله شيء من ذلك حتى ذلك الحين ، ولم يكن قد أكل شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة . وقررنا أن نبقى هذه الليلة ، وأن ندعوه على العشاء . وبعد ذلك جلسنا على مقهى في ميدان ستيفانز بلاتز وشربنا الخروج الساخن بالليمون ، واستمعنا إلى الموسيقى الألمانية العاطفية ، وفجأة تماماً ، شعرنا بالسعادة الكاملة حتى لقد قررنا أن نبقى في هامبورج أسبوعاً كاملاً أو نحوه . وأعتقد أن السبب الحقيقي لذلك هو أنني كنت — بطريقة خفية — غير راغب في العودة إلى لندن . وهكذا فقد حجزنا حجرة في البانسيون الذي ينزل فيه بيل في شارع هايمهود شتراسة ، ودفعنا إيجار شهر مقدماً ، وشرعت أنا في قراءة رواية « من الآن إلى الأبد » .

ولم تكن صديقة بيل في لندن قد أرسلت اليه بعد أي مقالات عن

روايته . ولم أكن أنا قد رأيت سوى ما كتب عنها في مجلة « الكتب وصناعتها » . وفي الصباح التالي لوصولنا ، جاء بيل إلى غرفتنا لشرب الشاي . وقال لي إنني سمحت للهجمات التي شنت على كتاب « الدين والمتمرد » بأن تؤثر فيّ تأثيراً كبيراً . وقال إنه كان لا بدّ لي أن أتوقع هذا في العصر الذي أصبح فيه النجاح مرتبطاً بنجوم السينما وأشباههم . وقال إن أحداً لم يحظ بالنجاح الذي حظيت به في غضون ليلة واحدة منذ استيقظ بايرون صبيحة اليوم الذي نشر فيه ديوانه : « تشايلد هارولد » — ولكن « أنظر إلى ما فعلوه ببايرون ؟ » .

وكانت هناك خطابات تنتظره في الطابق السفلي ، ولكنه قرر ألا يفتح منها واحداً حتى نصل إلى المقهى الذي قررنا أن نتناول فيه طعام الافطار . وفي الطريق إلى هناك استمر بيل في كلامه على نفس المنوال . فقال إن على المرء أن يكون قوياً بما فيه الكفاية لكي يستطيع أن يضحك على الهجمات التي تشن ضده . ثم فتح خطاباً ، وجذب منه بعض قصاصات الصحف . وظل يقرأ في صمت حتى فرغ من تعليق أو تعليقين . ثم احمر وجهه ، واتسعت عيناه ، وفجأة صرخ بصوت أزعج كل من كان بالمقهى ، قائلاً : « الأوغاد ! » وبعد لحظة واحدة ، استطاع أن يرى الجانب الفكاهي من هذا الموقف ، واشترك معنا في ضحكنا .

ولكن المقالات لم تكن مضحكة بالتأكيد . وكان كينيث آلسوب قد قال — ملاحظاً — في مجلة « العقد الغاضب » إنه في هذه الحالة بدا النقاد كما لو كانوا قد تجاهلوا قاعدة الأدب والتهذيب المتبعة، وهي أنه ينبغي أن يُعامل الكتاب الأول للمؤلف بقدر معين من الرقة . ومن الواضح أن كل هذا كان نتيجة الدعاية لـ « عبقري انجلترا الآخر » . لقد عامله النقاد بالسكاكين والمكاشط .

ولم يكن هذا دون سابقة بصورة مطلقة . فإن كتاب ستيوارت

هولرويد « الخروج من الفوضى » كان قد ظهر في فترة باكرة من نفس السنة . وقبل أسبوع من ظهوره . عقد أحد الصحفيين لقاء لنا معاً ، ثم ذهب فكتب مقالاً يحذر فيه القراء من أنهم على وشك أن يخضعوا « لمسيح بارات اللبن » الجديد . الذي كان أيضاً صديقاً لي . ووجهت النصيحة للجمهور ألا يسمح لنفسه بأن يخدع مرة ثانية . وكان كولانز ، بنوع من الخطأ في الحساب غير متوقع منه ولا هو معتاد عليه ، قد كتب على الغلاف الخارجي للكتاب يقول إن القراء الذين استمتعوا بكتاب « اللامنتمي » سوف يجدون أيضاً أن هذا الكتاب يحتوي على الاثارة والمتعة بصورة مشابهة ، ولكن الكتاب كان قد بدأ تأليفه في الحقيقة قبل « اللامنتمي » .

ولم يلق كتاب « الخروج من الفوضى » استقبالاً سيئاً . ولكن ينبغي أن نصف هذا الوضع بأن الكتاب لم يلق أي استقبال أصلاً من أي نوع ، على الاطلاق . وقد تجاهلته واحدة من صحف الأحد الأنيقة تجاهلاً تاماً ، وعلّقت صحيفة أخرى بطريقة ساخرة على هواية مستر كولانز في أرجحة مهود الأطفال (وكانت كلمات الغلاف قد ذكرت أن ستيوارت كان أصغر مني شخصياً) وكان تعليقها معادياً للكتاب . وفي مجلة (الانكاونتر) قال موريس كرانستون إن الكتاب كان أفضل من « اللامنتمي » (وكان هذا أمراً لا مفر منه) ، وفي الصحف الشعبية كانت هناك مناقشات قليلة حول ما إذا كان « اللامنتمي » هو الذي مهد لفكرة « الخروج من الفوضى » أم أن العكس هو الصحيح . وقالت جريدة « الجارديان » ، بطريقة سيئة ، إن هذا الكتاب قد كشف أنني كنت تلميذاً لهولرويد ، وليس العكس كما زعم الكثيرون ، ولكنها لم تنشر حرفاً واحداً مما أرسلته لها لأعرض الحقائق الفعلية عن الكتابين .

وكان كتاب ستيوارت الثاني نوعاً من الترجمة الذاتية في صورة

بيان رسمي ، تحمل عنوان : « الهروب والمطاردة » ، وقد صدر هذا الكتاب بعد فترة من صدور « اللدين والمتمرد » . وكان كولانز ما يزال يأمل في نجاحه ، ووعد بأن يجعل منه واحداً من كتب « النجوم الحمراء » في هذا العام ، التي تسجل أكبر أرقام التوزيع . ولكن المقالات التي كتبت عنه سرعان ما بينت أنه لا يمكن أن يحقق من ذلك شيئاً . وفي هذه المرة ألقى النقاد قفازاتهم ليضربوا بالأيدي العارية . لقد شعر معظم النقاد بالاستفزاز لأن رجلاً في الخامسة والعشرين من عمره يقدم كتاباً قريب الشبه بالترجمة الذاتية . ووجد الناقد في مجلة « نيو ستيتسمان » أيضاً أن نزعته الوجودية الدينية نزعة تثير الاشمئزاز والكراهية ، فقدم مقالاً يستحق أن يصبح نموذجاً كلاسيكياً للنقد المدمر ، أو عملية « ذبح » تم بعبقرية ونبوغ . ولم يكد يوجد ناقد واحد يذكر أفكار الكاتب ، فلم يكن في نية أحد منهم ، ولم يحاول أحدهم ، أن يعالج هذه الأفكار بصورة جدية .

يميل المؤلفون إلى أن تظهر لهم « حدبة » الاشفاق على الذات ؛ ولكني أعتقد أنه يمكن أن ينظر بجدية كاملة إلى القول بأن قليلاً جداً من المؤلفين هم الذين استعادوا قوتهم بعد الهجمات المدمرة الحقيقية التي واجهوها في بداية حياتهم العملية . وقد كان ستريندبرج حالة نموذجية من هذه الحالات . وعلى أي حال ، فإن الحقائق تتحدث عن حالها . لقد نشر بيل هوبكينز رواية « المقدس والمنحط » في عام ١٩٥٧ ولكنه لم ينشر شيئاً منذ ذلك الحين ، ونشر ستيوارت هوليورد كتاب : « الهروب والمطاردة » في عام ١٩٥٨ وهو أيضاً لم ينشر شيئاً منذ ذلك الحين . وقد نجح كلاهما في ميادين أخرى : نجح هولرويد كرئيس لمدرسة اللغات ، ونجح بيل كسمسار للعاديات الأثرية .

كان هذا شيئاً محزناً . ولا يمكن أن يكون هناك شك في أن كليهما قد راحا ضحية للدعاية السيئة التي أحاطت بي . وأنا سعيد لأنهما

لا يحملان لي ضغينة لهذا السبب . وأنا أعتقد أن رواية « المقدس والمنحط » رواية هامة ومثيرة ، رغم ما بها من بعض الأخطاء ، وفيما أظن ، لا يمكن أن يكون هناك شك في أنها لو كانت قد نشرت في عام ١٩٥٥ بدلاً من عام ١٩٥٧ . لكان من الممكن أن تعتبر عملاً لكاتب مثير ، إن لم يكن كاتباً عملاقاً ، يتمتع بقدر من « الأصالة » لا يقل عما يتمتع به مؤلف رواية « ملك الذباب » . ولقد شرحت أسباب هذه الآراء في مقدمة لكتاب « ما بعد اللامنتمي » .

* * *

وبقينا في هامبورج حتى عيد الميلاد — وكانت اقامتنا قد قاربت الشهر . وكانت غربة المدن الأجنبية تولد لدي عادة إحساساً بافتقاد الهوية . وفي خريف عام ١٩٥٧ ، كنت سعيداً بأن أفقد هويتي لما يقرب من شهر .

الفصل الثاني عشر

البدء من جديد

عندما عدنا إلى أولدوولز ، لم يكن شيء قد تغير ، باستثناء أن لرطوبة كانت قد نفذت خلال الجدار وأتلفت أغلفة مجموعة من دائرة لمعارف البريطانية ، كما كانت الفئران قد وجدت طريقها إلى المكان الواقع تحت حوض المطبخ . (وقد استطاع مبيد القوارض أن يقضي عليها بمعجون ممزوج بسم الزرنيخ) . كنت قبل الرحلة أشعر كما يشعر السكران الدائخ ، ولكنني شعرت بعد العودة بالاستعداد لبدء كل شيء من جديد . لقد برزت نزعتي التفاؤلية مرة أخرى إلى السطح . كانت الظروف الجديدة — من سوء السمعة والعداء — قد طال أمدها حتى تعودت عليها ، ولكن الهجمة الأولى كان قد تلاشى ما فيها من ضراوة ، وكان الورم قد خف وضمر . إلى جانب أن بيل كان قد أعطاني فكرة ممتازة لرواية « الطقوس » : بأن أجعل المشهد الافتتاحي في معرض دياجليف لريتشارد باكل الذي كنت قد رأيته مرتين في عام ١٩٥٣ ، وأن أستخدم لكنة دياجليف الغريبة ، لهجة الميتسوكو ، كنوع من المحرك الداخلي في الرواية . وحالما بدأت على أساس الفكرة الجديدة ، عرفت أنني قد خطوت أوسع الخطى وأكثرها أهمية ، كان الكتاب

يتقدم إلى الأمام هذه المرة . ولكن الشيء الأكثر أهمية ، هو أن الفكرة الكلية للكتاب ، كانت قد بدأت تتمدد برمتها في عقلي ، بكل مدلولاتها التي كانت تؤدي إلى مدلولات أخرى . كان الدافع إلى الخلق قد عاد ، ولم أكن قد شعرت به شعوراً حقيقياً منذ كتبت « اللامنتمي » يتطلب هذا الدافع احساساً بالانتباه المركز على موضوع واحـــد وغير المشتت ، بينما كنت أشعر في أثناء كتابة « الدين والمتمرد » شعوراً دائماً بالنقاد كالضواري المفترسة يطلقون أنفاسهم الحارة وراء عنقي .

ولم نفعل إلا القليل في عام ١٩٥٨ . وبقيت هادئاً في أولدوولز ، ماضياً في كتابة « الطقوس » ، وابتعدت عن مجال الأخبار والصحافة بعداً كاملاً .

* * *

ومن اللازم هنا أن أقول شيئاً عن أن هذه النسخة الحديدة من « الطقوس » لم تكن تحمل إلا شبهاً قليلاً بالكتاب في صورته الأصلية . كانت الأفكار الأساسية هي هي ، ولكن نزعتي التفاؤلية الطبيعية كانت قد شرعت في تغيير كل الجوانب الرئيسية .

يميل موقف الكاتب الحديث إزاء عالمه إلى أن يكون موقفاً عدائياً . ولكن كان من الواضح أن ديكنز قد أحب العالم الذي عاش فيه : على الرغم من وجود أصناف من البشر من أمثال « جراد جريند » . « سكويرز » ، « سكروجز »[1] . ولكن ديكنز لم يكن واقعياً . ولم

---

١ جراد جريند – توماس – شخصية من رواية ديكنز « الأزمنة الصعبة » نموذج للإنسان الذي يقيس كل شيء بدقة ولا يسمح بشيء من الضعف الإنساني ، ويتعامل مع البشر كما يتعامل الرياضي مع الأرقام .

سويرز – مستر واكفورد – شخصية من رواية ديكنز « نيكولاس نيكلبي » تمثل المعلم المبتذل السوقي المغرور الجاهل اللص ، وأسرته (زوجته وابنته وابنه) تقدم صوراً أخرى للابتذال والسوقية والقسوة . =

يكن الناس الذين يخلقهم يبدون أكثر من دمى متألقة رسمت رسماً جميلاً . ولكن نغمة العداء العنيف تزحف بقوة إذا اقتربنا من لورنس وجويس ، فنحن نشعر في أي كتاب للورنس ، نشعر بلورنس اللامنتمي المليء بالسخط ، والذي يبغض ما يقرب من ٥٠ بالمائة مما يكتب عنه . وتوضح رواية يوليسيز أن ستيفن ديدالوس كان لامنتمياً مليئاً بالسخط ، فيصل إلى ذروة من الرفض العنيف لكل شيء ولكل إنسان في مشهد الليل في المدينة . ولكن النقطة التي ينبغي علينا أن نلاحظها هي أن « يوليسيز » كانت عملاً يدل على القوة والنبوغ ، ومشهد الليل في المدينة هو ذروة هذا العمل . وبعد رواية « يوليسيز » لم يعد جويس هو المنبوذ المرفوض وإنما أصبح أشهر كتّاب الرواية في أوروبا . وبنفس الطريقة أصبح إليوت هو أشهر شعراء عصره بتعبيره عن « اشمئزاز جيل » .

ولم يقصر معاصرو جويس وإليوت في التعلم من هذا الدرس . فقد بدأ فوكنر كمقلد لألدوس هكسلي ، محاولاً أن يكتب بذكاء من موقع الفنان ومن وجهة نظر الفن ، ولكنه في وقت قصير للغاية كان قد صنع لونه الخاص ومصيره اللامع ورصيده القوي في عالم المهنة . ولا تقل رواياته في بعدها عن الواقعية وفي ميلودراميتها عن روايات ديكنز ، ولكن الميلودراما كانت تستخدم الآن لكي تعبر عن كراهية الحياة . ويصدق الشيء نفسه على جراهام جرين . واليوم ، وصل هذا الموقف إلى حدود معينة من النزعة العبثية على أيدي كتّاب مثل جينيه وبيكيت وويليام بورروز .

= سكروج – إبنزير – الشخصية الرئيسية في رواية ديكنز « كريسماس كارول » يمثل الشخص المعادي للبشر القاسي الذي لا يتعاطف مع أحد ولا يحبه أحد . ولكن تجاربه في ليلة عيد الميلاد مع بعض الأشباح تجعله شخصاً طيباً خيراً لطيفاً .

الآن لا اعتراض من أي نوع على النزعة التشاؤمية أو على بغض الحياة ، على أساس أنها نزعة مخلصة تتسم بالصبر والتعاطف والفهم . إنها على الأقل علامة على الجدية . (في الليلة الماضية قرأت خمسين صفحة من رواية « الغداء العاري » ثم ألقيتها باشمئزاز ، ثم قرأت فصولاً قليلة من الترجمة الذاتية لنويل كوارد فوجدت نفسي أنظر إلى « الغداء العاري » بتعاطف ايجابي) . ولكني أعتقد أنه من الأمور ذات الدلالة أن كثيراً من هؤلاء الكتّاب المتشائمين ، حين نفحصهم عن قرب ، يتضح أن لهم شخصيات غير متطورة إلى درجة عجيبة . كان ديكنز رجل أعمال وصاحب قصص ومغامرات تتمتع شخصيته بجانب عملي قوي ، وقد حدث ذات مرة حين كان موجوداً في حادثة قطار تحطم إثر كارثة تصادم أن قام بنفسه على عمليات الانقاذ . وقد أمضى فوكنر جانباً كبيراً من حياته وهو سكران ، وأكثر الحكايات التي تروى عنه تؤكد قدرته العظيمة على شرب الويسكي . ويصدق الشيء نفسه على إرنست هيمنجواي ، ويصدق مرة أخرى على ديلان توماس وعلى سكوت فيتزجيرالد . ويؤكد كل كتاب كتب عن لورنس على جانب الطفل المدلل الفاسد الموجود داخله . وقد دهش من قابلوا جويس أمام شخصيته الصبيانية العجيبة ، كان يعيش في الماضي ولا يكف عن رواية الفكاهات التي حدثت له في طفولته . ولا يحـاول ويليام بوروز أن يخفي أن رواية « الغداء العاري » قد كتبت تحت تأثير المخدرات .

ويبدو لي أن النزعة التشاؤمية وموقف رفض العالم يكونان مرحلة طبيعية في تطور أي كاتب جاد . وحتى ج . ك . تشسترتون [1] قد مر

[1] تشسترتون – جيلبرت كيث – (١٨٧٤ – ١٩٣٦) ، صحفي وشاعر ومؤلف تراجم انجليزي ، وكاتب روائي ومسرحي ومؤرخ وكاتب قصص بوليسية . تحول إلى الكاثوليكية وعبر عن آرائه الدينية في أعماله الأخيرة ، وهي في الحقيقة قليل القيمة الأدبية إلى حد كبير .

يمثل هذه الفترة في سنوات مراهقته . ولكن إذا ظلت مثل هذه المواقف ثابتة طول الحياة ، فهي دلالة على مراهقة تبقى طول الحياة أيضاً . (وليس هناك من درس حياة دي صاد ، على سبيل المثال ، ثم يمكن الشكّ في أنه كان ما يزال يعيش في سن الخامسة عشرة حينما مات في الرابعة والسبعين من عمره) .

* * *

لقد كانت هذه هي تجربتي الخاصة بالتأكيد . ففي سنوات مراهقتي الأولى تأثرت ببرنارد شو وتشسترتون وديكنز ، وأعتقد أن رواية « تاييس » لأناتول فرانس هي أعظم الروايات التي كتبت في التاريخ . وعندما كنت في السابعة عشرة من عمري ، كانت النزعة التفاؤلية تزدهر وتخفق بصورة سيئة — من توقع للشهرة والاعجاب والحصول على تلاميذ لي وتوقع لليالي الانتصار الأولى . وذات ليلة قرأت قصة مشوشة التركيب بالغة الطول أمام إحدى الجمعيات الأدبية ، فراح المستمعون يتثاءبون ويثرثرون طول وقت القراءة ، فذهبت إلى البيت وكتبت نوعاً من الفانتازيا الكابوسية المريرة على طريقة جويس في مشهد الليل في المدينة . ومنذ ذلك الحين عملت بروح تشبه مفجر الديناميت ، وباختصار عملت بروح حديثة . حفظت إليوت وجويس وفوكنر ، أحبابي ، عن ظهر قلب . وأعجبت بوجه خاص بقصة تسمى « المسيح في دائرة الحواس » كتبها بييترو دي دوناتو ، وهي تصف انهيار مبنى ضخم ، وتصف بالتفاصيل آلام وعذابات الناس وهم يسحقون ببطء حتى الموت (وفي نفس الوقت لاحظت أن دوناتو لم يكتب أبداً شيئاً آخر ذا أهمية من أي نوع . وتتكون مساهمته في الأدب الحديث من هذه القصة الوحيدة الرامزة إلى العنف الحديث) . وكانت النسخ الأولى من « الطقوس » غارقة في الظلمة والعنف ، ولم تبرز فكرة

« جاك الخناق » فيها إلا في فترة متأخرة نسبياً كرمز آخر للعنف والقسوة .

وبعد تجربة السلاح الجوي الملكي كنت قد اكتشفت بالفعل أن موقفي قد تغير ، ولم يعد شعر إليوت يلمس في داخلي أي وتر عميق . وكتبت في نسخة مجموعة قصائده التي أملكها أقول : « عن العقل المخلص ولكنه قليل الحيوية » ؛ ولا شك أنه عقل عبثي ضعيف ، ولكنه ما يزال صادقاً بشكل أساسي . وهكذا ، فعلى الرغم من إرادتي مضت « الطقوس » تزداد تفاؤلاً وحبوراً يوماً بعد يوم . وبدأت ألاحظ أيضاً أنني أستمتع برواية القصص وسرد الحكايات — لقد كنت أستمتع بالحبكة لذاتها ، بصرف النظر تماماً عما ترمز إليه . وقد صدمت النسخة الكاملة الأولى من الطقوس فيكتور كولانز — كما صدمت وكيلي القانوني كورتيس براون — لأنها كانت ما تزال مليئة بالمحاولات المصممة على أن تأخذ بخناق القارئ منذ الوهلة الأولى . ولكن النسخة التالية لم تبدأ كتابتها إلا بعد نجاح « اللامنتمي » ، وفي هذه الفترة كانت نزعتي التفاؤلية الطبيعية قد عادت بكل قوتها ، ولم أعد أشعر بأي ميل إلى أن آخذ بخناق القارئ لكي أهزه أو أقتلعه من مكانه . كنت أستمتع بسرد القصة ، وكنت أستمتع بتطوير الأفكار ، وإذا كان الأسلوب ما زال يدين بالكثير لهيمنجواي وجويس ، فقد كان هذا مما لا يمكن تجنبه ، على اعتبار أن الرواية كانت « تصنع » على مسار تسع سنوات .

وقد احتج أصدقائي دائماً على أن رواياتي بعد « الطقوس » قد فقدت خاصية معينة ، هي خاصية استحواذ فكرة واحدة محددة عليها . وأنا أعرف أن هذا صحيح ، وأشعر به كما ينبغي أن يكون وكما هو على حقيقته ؛ فهؤلاء الأصدقاء إنما يعبرون عن موقفي الطبيعي . إن الامتلاء المطلق ببعض الأفكار والخضوع الكامل لها ما زال قائماً ،

والخضوع المطلق لمسألة الوجود ما زال قائماً ، كان هذا هو هم الحياة أو Lebens Frage ، ولكن الرغبة في صبغ العالم باللون الأسود كانت قد اختفت . ولقد قال كولانز عن روايتي الثانية « ضياع في سوهو » إنها تتمتع بـ « خاصية المحرك الثابت الذي تتسم به رقصة الفالس النمساوية » بينما قال ناقد مرتبك عن كتاب « عالم العنف » : « إنه يبدو في بعض المواضع كما لو كان يهدف إلى أن يكون كوميدياً مضحكاً » . قد بلغ الارتباك الذي أشاعه جو التفاؤل السائد في رواية « الشك الضروري » بين النقاد الأمريكيين إلى درجة أنهم زعموا ان هذه الرواية كانت استعراضاً متعمداً لتراث الرواية البوليسية البريطانية الكلاسيكية . (وفي الحقيقة فإنها تدين لكونان دويل بأقل مما تدين به لدوريمات) .

ولكني أريد أن أعود إلى عام ١٩٥٨ ، قبل أن تنشر أية رواية لي . فقد كان هناك مشروع آخر يشغلني على فترات متقطعة ، وهو مشروع كتاب كان المفروض أن أشترك في تأليفه مع بيل هوبكينز وستيوارت هولرويد حول موضوع « البطل المختفي » . وكان المفروض أن يعالج بيل الجانب السياسي وأن يعالج ستيوارت الجانب الديني ، وأن أعالج أنا الجانب الأدبي . ثم حدث أن عرفتني نيجلي فارسون بكتاب : « الجماعة تشعر بالوحدة » لدافيد رايزمان ، الذي كانت فكرته الأساسة هي أن الإنسان صاحب التوجيه الداخلي ، الذي يسترشد بذاته الداخلية ، يختفي الآن من المجتمع الأمريكي . ورأيت ارتباط هذه الفكرة بفكرتي عن اللامنتمي ، فكتبت كتاب « عصر الهزيمة » في بضعة أسابيع ، حتى رغم أن كتابته بدت نوعاً من إضاعة الوقت بينما كان حسابنا في البنك يبدو وقد نفد تماماً . كانت فكرة هامة قد طرأت لي : ذلك أنني كنت أحاول أن أخلق نزعة وجودية جديدة . فالفلسفة الوجودية كما تبدو عند هايدجر وسارتر وكامو لم تعد أكثر من تقرير فلسفي

عن المشكلة «الاجتماعية»، وهي المشكلة التي عبّر عنها رايزمان في كتاب «الجماعة تشعر بالوحدة»، وعبّر عنها جالبريث في كتاب «مجتمع الوفرة»، وعبر عنها هوايت في كتاب «إنسان التنظيم». ومن ثم فإن أحداً لم يعد يتوقع من عالم اجتماع أن يتقدم بحلول للمشكلة. فإن عالم الاجتماع ليس سوى متفرج. ولكن الفلسفة الوجودية يمكن أن تفهم بالخوف من مسؤولياتها والتخلي عنها. إنها محاولة لخلق نوع من البديل للايمان الديني الذي نسفه عصر العلم وقوض بنيانه، ولكنها في الحقيقة لا تقدّم أي نوع من الراحة. يقول سارتر: «لا معنى هناك لأن نعيش، ولا معنى لأن نموت.». ولم أكن قد اتفقت أبداً مع هذه النظرة أو تواءمت معها. ورغم صور الخراب والخواء، فإنني نظرت إلى الحياة دائماً باعتبارها ذات معنى بصورة أساسية. والمشكلة هي أن الإنسان يبدو بطريقة ما وقد فصل عن «مصدر القوة والمعنى والهدف»، ومشكلته هي أن يعثر على سبب هذا الانفصال. ويتبع هذا بالضرورة أن وجوديتي الخاصة متفائلة بطبيعتها، ومع هذا فإنني إذ أكتب عن الكيفية التي وصل بها سارتر وكامو إلى نتائجهما السلبية، فإنني لا أستطيع أن أرى طريقاً لتجنب هذه النتائج. وكانت مشكلتي هي أن أفكر وأن أستخلص نزعتي الوجودية الخاصة، بكل تفاصيلها.

وأرسلت «عصر الهزيمة» إلى كولانز لكي يقرأه في أثناء عيد الميلاد. ثم عدت إلى العمل في «الطقوس». وفي رأس السنة، كتب إليّ كولانز لكي يقول إن الكتاب قد راق له، وليسألني إن كنت أريد أن أنشره كما هو. وعلى سبيل الاغراء عرض علي مقدماً مبلغ خمسمائة جنيه — وكان هذا بالضبط خمسة أضعاف ما توقعت أن أحصل عليه من هذا الكتاب — كما أشار إلى أن ناشري الأمريكي سوف يدفع بالتأكيد تقريباً مثل هذا المبلغ. وسألت بيل وستيوارت رأياهما، ولم

يكن أي منهما قد بدأ في كتابة الفصول التي كان المفروض أن يكتباها ، فنصحني كلاهما بأن أقبل العرض .

* * *

ورغم هذا فقد بدأت السنة الجديدة بداية مشؤومة . فحينما انتقلنا أول مرة إلى أولدوولز ، كان لويس آدين — الذي كان يستأجر المنزل من المزرعة — قد أبلغنا بأننا نستطيع أن نستأجره عدة سنين ، فإذا لم يتغيّر موقفه من المزرعة حتى ذلك الحين ، فإننا نستطيع أن نبقى في المنزل . وكتب الينا لويس في بداية السنة لكي يذكرنا بأن فترة ايجارنا سوف تنتهي في غضون بضعة أسابيع . وأرسلت اليه خطاباً على الفور أذكره فيه بأنه كان قد وافق مقدماً على أن يمد فترة الايجار . ولكنه كاتب خطابات رديء وكسول ، فلما لم يصلنا منه أي رد في خلال أسبوع ، قررنا أنه من الأفضل أن نشرع في البحث عن مكان آخر . وقد يكون الأحسن أن أقول ، إننا قررنا أن تشرع جوي في البحث عن مسكن آخر . فقد كانت فكرة البحث عن منزل تثير لدي بطريقة ما أمراضاً عصابية قديمة . ولا شك أن هذا كان هو السبب الكامن وراء قرارنا بالبحث عن منزل جديد . فبعدما قضيته من سنوات طويلة في المساكن المؤجرة حيث كانت صاحبة المنزل جديرة بأن تترك مذكرات مزعجة ولا بهجة فيها على المائدة ، بعد هذه السنوات كنت قد أصبحت شديد الحساسية إزاء هذه المشكلة ، وكان أقل شعور بعدم الأمان كافياً لكي يدفعني إلى التفكير في القيام بانتفاضات عنيفة . وفي خلال أسبوع استطاعت جوي أن تعثر على المنزل الكائن بجوران هافين . وحينما وصفته لي ، بدا لي أجمل من أن يكون حقيقياً : منتصباً فوق تل مطل على البحر ، والمنظر أمامه يمتد إلى مسافة تقرب من خمسين ميلاً حتى الأفق ، ولا يصل اليه أحد إلا بعد مسافة طويلة ، الأمر

الذي سيعني أن نكون في مثل عزلتنا في أولدوولز ، دون متاعب أبواب المزرعة الثلاثة والوحول العميقة في الشتاء . وكان رجل متقاعد وزوجته قد شيدا هذا المنزل منذ ثلاث سنوات فقط ، ولكنهما كانا من سكان المدن ، فوجدا أن هدوء الريف أثقل من أن يحتملاه . وذهبت لرؤينه فراق لي . ولكن الثمن كان أكثر مما ظننت أن نستطيع دفعه ، ولكن وصلتني بعض حقوق النشر غير المتوقعة ، وجمعنا هذه الحقوق إلى المقدمات التي دفعت لكتاب « عصر الهزيمة » ، فبلغ المجموع المقدار المطلوب للمنزل .

ومع ذلك فقد كان الوضع ما زال من قبيل المقامرة . كنت قد انتهيت من « الطقوس » ، ولكني كنت أعرف أن كولانز كان ميالاً إلى التشدد إزاء الكتب التي تعالج موضوعات العنف الجنسي ، فلو أنه رفض الرواية لأصبح من الصعب أن أجد لها مكاناً آخر لنشرها . ومع ذلك فقد انتقلنا إلى المنزل ، ودعونا والدي للاقامة معنا — كما سبق أن قلت في الفصل الأول من هذا الكتاب . وفي اليوم التـالي لانتقالنا ، اتصل بي كولانز تليفونياً لكي يقول لي إنه قرأ « الطقوس » على الفور وفي جلسة واحدة ، وأنه يظن أنها ممتازة ، وأنه على استعداد لأن يدفع مبلغاً مقدماً على الفور . وأطلقنا جميعاً أنفاس الراحة ، وتنفسنا الصعداء . ولكن الواقع هو أنه قد طلب مني أن أحذف منها بعض الأجزاء . لقد كان الكتاب يدور حول شخص سادي ، غير أنه ظن أن هذه الأجزاء يمكن أن تقلل من قيمة الكتاب . ولكنني كنت قد شعرت بارتياح بالغ لقبول الكتاب حتى أنني كنت على استعداد للموافقة على أي شيء . بيد اني أشعر الآن بالأسف لأنني سمحت بالحذف . كانت الفقرات المحذوفة صغيرة ، ولم تكن تستدعي الخوف الشديد بصورة خاصة ، ولا كان شعر أحد سيقف منها ، فما كان أكثر القراء سيشعرون بها . ولكنها كانت ستوضح الفكرة الرئيسية

في الكتاب . وحينما كتبت مقدمة للمطبعة النرويجية من « الطقوس » لكي أظهر علاقة الرواية بأفكار كتبي الفلسفية ، وجدت أنه من الضروري أن أذكر مادة الفقرات المحذوفة لكي أظهر بوضوح ما الذي كنت أحاول أن أفعله .

* * *

لم أكن أنتظر بشغف موعد نشر كتاب « عصر الهزيمة » . فإن سنتين كانتا قد مرتا منذ أن تعرض رأس « الدين والمتمرد » للقطع بالفؤوس ، وكنت قد حاولت في هذه المرة أن أتجنب الدعاية قدر المستطاع . ولكن لم يكن هناك أي تغير ملحوظ في لهجة قصاصات الصحف . كان اسمي ما يزال يذكر إذا احتاج شخص ما إلى أن يرمز إلى الادعاء الثقافي ، أو إلى التعميم الذي لا أساس له ، أو أن يضرب مثلاً كيف يمكن للهستيريا أن تصنع شهرة وصيتاً ذائعاً في ليلة واحدة . ووصلت إلى نتيجة صحيحة فيما أعتقد أستخلص منها أن الجمهور لا يهتم بأن يغير آراءه إذا قام شخص بتثبيتها له في وضع مريح . لقد شعرت بأن « عصر الهزيمة » كتاب جيد يحمل بعض الأفكار الجيدة ، ولكن هكذا كان كتاب « اللامنتمي » وكتاب « الدين والمتمرد » . ولم يغيّر هذا من أمرهما شيئاً . فإنهما كانا ما يزالان يوصفان بأنهما ادعاءات فارغة من جانب الصحفيين الشعبيين الذين يمكن أن يجدوا كتاب جود « دليل إلى الفلسفة » كتاباً مرهقاً من الناحية العقلية .

وتبينت في يوم النشر أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى التوتر العصبي — كما لم يكن هناك ما يدعو أيضاً إلى الابتهاج . كانت المقالات قد فقدت حدة عنفها ، ومالت إلى أن تكون مهذبة ولا مبالية . كان هناك سيريل كونوللي ، الذي أثنى بقوة على « اللامنتمي » وتجنب الكتابة عن « الدين والمتمرد » ، فكتب مقالاً ضافياً عن « عصر الهزيمة » ، ولكنه

كان عاجزاً بوضوح عن اخفاء ضيقه بالكتاب ، ووصفه بأنه نوع من الحولة الأدبية التي تهدف إلى « الفرجة » على بعض الأشياء . ويبدو أنه كان هناك نوع من الإحساس المستقر مؤداه أنه كان من الواجب أن تنتهي « قصة كولين ويلسون » بعد كتاب « الدين والمتمرد » ، وكان من المتعب أن يقرأ الناس فصلاً آخر في نفس القصة . ولكن ناقد التايمز قال ، في ملاحظاته ، إنه من الواضح أنني « جئت إلى هنا لكي أبقى » . وهمست لنفسي : « هكذا أنا ، والملعون على صواب » سواء راق لهم ذلك أم لا .

* * *

ولكنه سيكون من الخطأ أن ينطبع في أذهان القراء أنه قد نما لديّ شعور بضرورة اتخاذ موقف اللامبالاة إزاء النقاد . لقد كنت دائم الاحتقار للكتّاب الذين يسمحون للنقاد بأن يؤثروا فيهم إلى درجة إثارة سخط الجمهور . وحتّى شو ، فيما أظن ، كان من الملائم له أن يستمع إلى نصيحة من قالوا له أن يحتفظ بالفقرة المكتوبة تحت عنوان : « مساعدة أولية للنقاد » في مقدمة كتابه « دليل المرأة الذكية » . فهذه الفقرة تكشف عن عجز عن الرؤية الشاملة البعيدة النظر . فلو أن كتاب كاتب ما قد قدّر له أن يعيش ، فإن قراء الجيل التالي سيجدون أن هذه النصائح مزعجة ومجهدة على أي حال . إلى جانب أنها تظهر أن انتباه الكاتب كان مركّزاً على النقطة الخاطئة : على الجمهور وعلى تأثير كتابه بدلاً من أن يهتم بتطوره هو الخاص .

وإنني لأشعر شخصياً بأن قصة ما حدث بعد نشر كتاب « اللامنتمي » هي على الأقل قصة مثيرة ، ولا تقل في ذلك عما حدث قبلها . ولقد حاولت أن أرويها بدقة . ولا بدّ أن أعترف بأنني شعرت في الفترة القائمة بين عامي ١٩٥٦ ، ١٩٥٨ ، بأنني عوملت معاملة سيئة . ومن

الجانب الآخر ، فلقد كنت أتمتع دائماً بمزاج متفائل ، وإحساس أساسي مؤداه أن الآلهة تعنى بي جيداً ، وهذا بالاضافة إلى السنوات الطويلة من التدريب على الاستمرار في العمل دون كلل مع تجاهل الآخرين . والآن إذ أسترجع الماضي ، لا أجدني واثقاً مما إذا كان ما حدث بعد « اللامنتمي » ليس هو أفضل ما كان يمكن أن يحدث لي . ولقد قيل وتردد دائماً أن نجاح « اللامنتمي » كان نوعاً من الحظ السعيد ، طالما أن كتاباً من هذا النوع لا يمكن إلا بصعوبة أن يتوقع لنفسه نوعاً من القبول العام . وأنا لا أوافق على هذا . فقد كانت هناك كتب أخرى من نفس النوع وشديدة الذيوع ، مثل كتاب جالبريت « مجتمع الوفرة » وكتاب كوستلر « فعل الخلق » على سبيل المثال . وثانياً فإنه كان من المفروض أن يصنع لي كتاب « اللامنتمي » بعض الشهرة . وأياً ما كانت أخطاؤه (وأنا شخصياً لا أظن أن به كثيراً من الأخطاء) فإنه كان من المفروض أن يتقبله الناس بصفته كتاباً حياً ويطرح للمناقشة مسائل كثيرة ، وطالما أن مؤلفه كان مجهولاً فإنه كان جديراً بأن يعرف بهذا المؤلف ، على الأقل . ولو أن النقد كان قد تعرض له ببساطة في هدوء ومودة وبيع منه ثلاثة آلاف نسخة ، لكنت قد ظللت شخصاً مرغوباً فيه ومحبوباً من قبل المؤسسات القائمة والقيم المستقرة ، ولأصبح من المؤكد تقريباً ألا أشعر بالاحتياج إلى معاودة البحث عن الذات المرة بعد المرة ، هذا البحث أنتج « الدين والمتمرد » ثم « عصر الهزيمة » . وقد كان ذلك هو ما حدث جزئياً ، فإن الأسابيع القليلة من التأييد التي تلت نشر كتاب « اللامنتمي » مباشرة بدت كما لو كانت ستشل فاعليتي وقدرتي على المواصلة . وحينما أقرأ الفقرة التالية من كتاب إميل رايخ عن الأدب المجري ، أفهم تماماً ما كان يعنيه :

« تشارلس هيجو .... واحد من العمالقة العديدين في العاصمة المجرية الذين لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً قابلاً

للتصديق في منتصف الطريق إلا إذا فشلوا في اكتساب الشهرة . فإنهم ما إن يصبحوا « مشهورين » حتى يكفوا عن الانتاج أو حتى عن إثارة الاهتمام . لقد نال كتاب هيجو : « البنكير والبارون » نجاحاً لا يتصف بالضخامة فقط ، وإنما نال نجاحاً غير عادي فعلاً . إن أغصان الغار لم تنثر تحت قدمي الشاعر فحسب ، وإنما ، بتعبير ليسينج ، عقد الغار نفسه على رأسه كما كان يصنع للغزاة الفاتحين . لقد حمل الجمهور المتحمس المؤلف نفسه من المسرح إلى مقهاه المفضل . وقد أخل هذا بالتوازن العقلي لهيجو المسكين . فاعتبر نفسه فيكتور هيجو ثانياً ، وهكذا فانه لم يكتب أية مسرحية أخرى عظيمة . » . ص ٢١٦ .

* * *

حسناً . لم يحملني أنا أحد أبداً على الأكتاف إلى مقهاي المفضل ، ولكنني أظن أن تركيز الانتباه الكامل من جانب الصحافة والتليفيزيون والاذاعة يجب أن ينتج تأثيراً مشابهاً تخضع له الحواس ويخضع له العقل . فالكتابة عملية داخلية رقيقة ، مثل الهضم ، ومن السهل أن تفسد وتنتكس من خلال الوعي الذاتي بها . وأنا أظن — بصورة عامة — أن الأمور كلها قد سارت على ما يرام . إن الإحساس بأن أحداً لم ينتبه في كثير أو قليل إلى ما كنت أقوم به ، أدى بي إلى أن أولي كل اهتمامي وأن أركز كل طاقتي لمهمة خلق شكل جديد من أشكال الفلسفة الوجودية . وقد ظهرت رواية « طقوس في الظلام » في عام ١٩٦٠ ، وبيع منها قدر أكبر بكثير مما بيع من أي كتاب لي ظهر منذ « اللامنتمي » . وقد رجع هذا جزئياً — فيما أظن — إلى مقال ممتاز

ظهر في جريدة الصنداي تايمز بقلم دام إديث سيتويل ، الذي كان أيضاً قد أثنى على كتاب « اللامنتمي » قبل ظهوره .

كانت هناك علامات تدل على أن جانباً من العداء يتلاشى ويموت . وقد طلب مني أن أتحدث عن الكتاب في برنامج تليفيزيوني يقدمه جاك لامبرت الكاتب في الصنداي تايمز . وحينما وصلت إلى الفندق في برمنجهام ، شعرت بخيبة أمل شديدة عندما اكتشفت أن مقدم البرنامج ، الذي كان سيناقشني ، هو كريستوفر لوج . وقد ذكرت من قبل لقائي مع لوج في باريس في عام ١٩٥٣ ، حينما تطوع لكي يساعدني أنا وبيل هوبكينز . وبعد أن ظهر كتاب « اللامنتمي » قابلته في لندن ، ودهشت حين وجدت أن موقفه قد تغير تماماً ، بدا عليه مظهر الشخص المزعج العدائي . وفي خطاب أرسله إلى مجلة النيوستيتسمان وصفني بأنني « وحش فاشي قذر » ، ولما كان قد أدخل ت. س. إليوت وجراهام جرين في نفس هذه الفئة ، فقد ظننت أنه كان يعني أساساً بأن يربط بين موقف معين معـــاد للإنسانية وبين فرانكو وسالازار . وفيما بعـــد ، حينما قدم ستيوارت هولرويد مسرحية سيئة نوعاً وذات منزع ديني تدعى « الفرصة العاشرة » في مسرح الرويال كورت (في أحد عروض يوم الأحد) ، اشترك لوج في إحداث بعض الشغب في المسرح ثم في مشاجرة معي أنا شخصياً ومع ستيوارت هولرويد في حانة مجـــاورة للمسرح — . أما موضوع المشاجرة فلن أدخل في تفاصيله ، إذ أنه من الموضوعات التي يفضل نسيانها .

وهكذا فانني لم أشعر بابتهاج خاص عندما اكتشفت أن لوج هو الذي كان من المقرر أن يعقد اللقاء معي . ومع هذا فقد كنت ميالاً إلى الهدوء والتسامح لأن بقية الفريق التلفيزيوني (وقد نسيت من كانوا) كانوا — بوضوح — مستعدين لأن يكرهوا لوج حتى قبل وصوله . فقد كانت سمعته كواحد من أكلة النار اليساريين يحاول أن يجعل من

بريحت نموذجاً له ، كانت سمعته هذه قد أصبحت معروفة جيداً . وحالما وصل لوج ، شعر بهذه الموجة العدائية ، وتصرف على هـــذا الأساس ، فأمضى الليلة معتمداً على السخرية وكأنه يريد أن يقول : « أنا لا آبه لكم جميعاً ولا أهتم بما تفعلونه » . وتذكرت عطفه في باريس ، فحاولت أن أجعل نفسي بادي التعاطف معه ، فأصبح أقل ازعاجاً إلى درجة ملحوظة : وفي الصباح التالي شاهدنا تجربة للبرنامج معاً . وكان لوج قد سألني إن كنت راضياً عن رواية « طقوس في الظلام » ، وأجبته بالنفي ، وأنها لا تشبه في شيء تصوري الأصلي عنها ، وأنني أعتقد أنها كريهة ولا تحتمل في بعض جوانبها . وحالما انتهت التجربة ، قبض لوج على ذراعي وقال بحزم وقوة : « والآن اصغ إلي ، إنك لن تقول هذا الهراء عن الكتاب وأنه كريه ولا يحتمل . إنه ليس كذلك . وعلى أي حال ، فحتى لو كان هذا صحيحاً ، فان تصريحك به في التلفزيون سوف يؤثر على مبيعاتك » ، وهكذا فقد حذفنا النقد الذاتي الذي وجهته لنفسي ، وأحسست بأن نوعاً من المودة قد بعثت في نفسي من جديد تجاه لوج .

ولكن رغم أن مبيعات « طقوس في الظلام » كانت جيدة إلى درجة كبيرة ، وكانت أول كتاب لي يظهر في سلاسل الكتب الشعبية ذات الغلاف الورقي ، فإن المقالات النقدية استمرت في نزعتها العدوانية ، باستثناء المقال الذي كتبه دام إديث . وقبل النشر كانت إحدى الشركات السينمائية قد أبدت اهتمامها بالرواية وقيلت أشياء عن دفع مبلغ يقرب الخمسة والعشرين ألفاً من الجنيهات . وكان هذا جديراً بأن يساعدني على العمل في مشروع « وجوديتي الجديدة » دون أن أعبأ بالنشر أو أهتم به . وأعتقد أن المقالات النقدية المضادة قد ثبطت من همة الشركة السينمائية وجعلتها تتراجع عن عزمها . وكان اشمتزازي شديداً ــ واشمئزاز وكيلي المصرفي ــ حينما انهارت الصفقة .

كانت مسائل المال هذه مصدر ضيق شديد . لا شيء اليوم أكثر صعوبة من أن يعيش المرء على الكتابة ، إلا إذا كان اسمك من الأسماء التي تقفز أوتوماتيكياً إلى قوائم أصحاب الأعمال البالغة الذيوع والتي تسجل أرقاماً قياسية في التوزيع . إن الكاتب الروائي الذي يستطيع أن ينتج رواية واحدة كل عام يستطيع أن يعتمد على جمع قدر من المال يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً من الجنيهات في السنة . وهذا المبلغ الأخير كاف تماماً ، ولكن أكثر الكتّاب مسرفون بالفطرة — فهم شغوفون بالطعام الطيب والسفرة المريحة — وليس هذا بالتأكيد هو ما يسمح بحرية العقل الكاملة . أما بالنسبة لنفسي فإنني أجد في السفر باعثاً على الضجر ، ولكنني أتمتع بشهية هائلة للكتب والموسيقى ، وهي أشياء لا تقل فداحة في ثمنها عن الطعام والسفر إذا ما اشتريت بكميات كبيرة . ويطيب لي أيضاً النبيذ الجيد وأستمتع به ، ويطيب لي أن أكون قادراً على تقديمه لأصدقائي حينما يأتون إلي للاستماع إلى تسجيلات الموسيقى . وقد كان بامكان كتاب مثل « عصر الهزيمة » أن يعود — بشيء من الحظ — بحوالي ألف من الجنيهات ، وربما تستطيع رواية مثل « ضياع في سوهو » أن تعود بضعف هذا المبلغ ، وربما أقل . إن كاتباً لا ينتج إلا كتاباً كل ثلاث سنوات (كما يفعل الكثيرون من الكتّاب) فإنه — بوضوح — سيجمع من المال قدراً لا يقل عما يجمعه أي عامل عادي أو جامع للقمامة . هذا بالاضافة إلى ضرورة أن يكون مستمتعاً ببعض الشهرة التي تضمن له حداً أدنى من المبيعات . وإلا فإنه لن يستطيع أن يجمع أكثر من الجنيهات المائة التي تدفع مقدماً في مقابل رواية واحدة . ومن هذا يستطيع الناس أن يكتشفوا لماذا لا يوجد سبب واحد عند أي إنسان لكي يحسد كاتباً ، حتى ولو كان كاتباً ناجحاً نجاحاً معقولاً .

* * *

وأنا أستمتع بالكتابة لحسن الحظ . وكلما زاد المرء من تطوير فلسفة خاصة به ، وخط متميز له في التفكير ، كلما زاد اتساع دلالاته وشمولها . كانت رواية « طقوس في الظلام » كتاباً عن المعنى ، وعن البحث عن المعنى ، وكانت تدور حول التناقض في أن تكون أعظم القوى الدافعة للإنسان هي حاجته إلى الحرية ، وفي إنـــه لا يعرف ما يفعل بها حين يحصل عليها . وبطل « الطقوس » يتملكه إحساس بأن ثمة معنى في الوجود ، وأن العقل قادر على فهمه – ولا شرط لذلك إلا أن يعرف العقل الطريق الصحيح لاكتشافه . إن واحدة من أكثر « خبرات المعنى » شيوعاً تأتي من خلال الجنس ، ولذلك فإن الجنس يقدم « نقطة انطلاق » ثمينة في رحلة البحث عن المعنى . (وأنا أضع خطاً تحت عبارة « نقطة انطلاق » لأنه يبدو لي أنه ما من شيء يمكن أن يكون أكثر عقماً من الجنس إذا مارسه الإنسان كما يمارس مهمة يدعوه الواجب إلى القيام بها – مثلما كان الأمر مع كازانوفا أو فرانك هاريس) .

وفي رواية أحدث عهداً ، وهي « القفص الزجاجي » التي كتبت عام ١٩٦٥ ، أحاول أن أدفع بالمشكلة إلى مرحلة أبعد ، عامداً أن أشيد الحبكة بحيث تتوازى مع حبكة « الطقوس » ، ولكن مع وجود بطل متصوف على طريقة بليك في مكان جيرارد سورم . وقد طرأت لي هذه الفكرة حينما كنت أسير في بورتو بيللورود ، أفكر في « جرائم قتل العاريات » اللواتي كان يعثر عليهن على طول شاطئ التيمز ، وكانت الضحية السادسة قد وجدت منذ قليل (ولم يحل لغز هذه الجرائم حتى الآن – ١٩٦٩) . لقد طرأ لي فجأة أن سورم قد ارتكب خطأ منطقياً أساسياً واحداً . لقد افترض أن موقفه التجريبي والعقلي الصارم إزاء التجربة هو الموقف الأمين الوحيد الجدير بالمفكر . ولكن أكثر أصحاب النزعة العقلية صرامة إنما يعيش على أساس مجموعة معينة من الفروض

غير المستقرة وغير الواضحة . وأكثر هذه الفروض أهمية هو افتراض الاستمرار أو عدم الانقطاع . إنه لا يفترض فقط أنه سوف يزفر الشهيق الذي يوشك الآن أن يتنفسه ، وإنما يفترض أيضاً أنه سوف يكون على قيد الحياة غداً ، وسوف يكون حياً بعد أسبوع . ويمكنك أن تجيب على ذلك « ولم لا يفترض ذلك ؟ إن أحوال الحياة إلى جانبه إلى درجـــة كبيرة » . ولكن ليست هذه هي المشكلة . إنه لا يحسب حسابه اعتماداً على أحوال الحياة . وإنما يقوم اندفاعه إلى الأمام اعتماداً على نوع من « اليقين » الحدسي ، الذي يتخطى احتمال أنه قد يموت بسكتة قلبية في أية لحظة ، بل إنه يتخطى — أو إنه يتخطى حتى معرفته بأنه لا شك « سوف » يموت بالشيخوخة حينما يتقدم به العمر بعد خمسين سنة أو نحوها . أيمكن أن يكون هذا مجرد نوع من العمى والغباء ؟ إن « عقلياً خالصاً » جدير بأن يقول نعم ، أما الصوفي فإنه جدير بأن يقول لا . وربما يكون نوع من الغباء الحيواني — أو الوعي النشوئي بالغرض من الحياة — هو ما يتخطى المعرفة الواعية .

هذا إلى جانب أنه من الممكن الحصول على نوع من المعرفة بالمستقبل . كان صديقي مارك بريدين عازف البيانو اللامع ، يستقل سيارة بالأجرة وينطلق بها على طول باي ووترود بعد حفلة موسيقية . وبينما كانت السيارة ما تزال على بعد مائة ياردة من ميدان كوينزواي ، عرف فجأة بيقين مطلق أن السيارة سوف تصطدم بسيارة أخرى مؤجرة في ميدان كوينزواي ، ولكن فكرة أن يحذر السائق بدت له فكرة سخية تماماً فجلس صامتاً . وفي ميدان كوينزواي ، حاولت سيارة اجرة أن تخترق إشارة الوقوف الحمراء ، فاصطدمت بسيارتهما من الجانب وقلبتها ، تماماً كما كان قد عرف أنه سوف يحدث .

أما أنا فلم أمر بتجربة شبيهة بهذه أبداً . لكنني خبرت أنواعاً من التوقعات اليقينية الغامضة في لحظات غريبة ، وكان يحدث دائماً أن يقع

تبرير هذه التوقعات . وقد حدث تنبوئي الوحيد بوقوع كارثة ذات يوم حين انتويت أن أصحب بعض الأصدقاء (وكان سيدني من بينهم) لكي نخرج في رحلة بقارب سريع . وبعد ساعة من بداية الرحلة ، وكنت أحاول أن أرسو على أحد الشواطئ ، توقفت الآلة ، وقبل أن أتمكن من إعادة تشغيلها ، لحقتنا موجة عاتية وطوحت بنا على الصخور . ولم يصب أحد منا ، ولكن القارب تحطم تقريباً . (وقال سيدني : « أجل يا ولدي العزيز ، إنني شبيه يونس تماماً ، فأنا دائماً أجلب الحظ السيء) .

وهكذا فإنني ميال إلى الاعتقاد بأن احساسنا بالاستمرار ليس وهماً من الأوهام ، إنه نتيجة لعمل نوع من الرادار العقلي . ولكن فاعلية هذا الرادار تموت بالنسبة لأكثرها بسبب تفاهة حياتنا الخالصة ، وانشغالنا المسبق الدائم بما هو فوري وعاجل . وبرسم شخصية دامون ريد في رواية « القفص الزجاجي » أردت أن أقدم رجلاً استطاع أن يطور « الرادار » الخاص به ، ببساطة ، بالتركيز على ما يعتبره هو الحقيقة الكامنة وراء التجربة ، وبالعمل على أساس أن الكون يعنى به جيداً ! إن ريد يعرف معرفة حدسية أن الارادة الإنسانية هي شيء أكثر عمقاً من التأكيد الذاتي الشخصي ، أو من المجهود المحسوب . هذا هو الجانب غير المرئي من وجودنا الكلي ، مثل الجزء المختفي تحت الماء من الجبل الثلجي ، وهو بعيد عن إدراك مطالب الوعي العادية .

* * *

إنني أستمتع بكتابة الروايات . إنها أكثر اشباعاً في كتابتها بكثير من كتابة الفلسفة . وحينما أحاول أن أحلل هذا الاشباع ، فإنني أتبين أنه قائم على أساس من الرغبة في تأكيد الذات . وكل الكتّاب الشبان الناشئين يميلون إلى أن يضعوا أصدقاءهم وأقاربهم فيما يكتبون من أعمال

قصصية ، لأنه مما يرضي الذات أن يخز المرء معارفه كما تخزهم الفراشات . وهناك اشباع آخر شديد الشبه بهذا — وإن كان أقل ذاتية — في تصوير بعض التجارب بنفس الطريقة . ولكن كتابة الرواية ، وفي أفضل أحوالها ، مصدر لنوع من الاحساس قريب الشبه من الاحساس بالألوهية . فالرسام يستمتع بالقبض على شيء من الطبيعة وأسره ، ولو استطاع لكان جديراً بأن يخلق موضوعاً لرسمه من فراغ الهواء . فالرسم هو ما يتلو الخلق ، أفضل الأعمال . وكتابة الشعر أو الروايات طريقة أخرى لإدامة اللحظة العابرة وتخليدها ، ولاعطاء طابع الشمول الكوني لتجربتك الفردية المتميزة . وأنا أجد أن هذا صحيح تماماً ، سواء كنت أكتب رواية من النوع الشخصي ، الشبيه بالترجمة الذاتية مثل « ضياع في سوهو » أو « عالم العنف » ، أو من النوع المخلوق خلقاً خيالياً كاملاً مثلما هو الحال في روايات « الشك الضروري » أو « نفايات العقل » .

أما بالنسبة لي ، فهناك سبب آخر ، لكتابة الروايات ، وهو سبب أكثر أساسية وأهمية . إنه أيضاً أسلوب من أساليب التفلسف . وأنا لا أعني هذا بالمعنى الواضح المباشر — معنى تقديم الأفكار في قلب الرواية . فالوجوديون منذ هامان ، لم يقنعوا بالعقل كأداة للوصول إلى طبيعة الوجود . إن الكلمات تستحضر التصورات ، ودائماً ما تشوه التصورات المستحضرة المتجسدة في كلمات ، الحقيقة ، مثلما تشوه الصورة الرديئة المرأة الجميلة . وإنه لمن السهل أن يتعثر المرء في نزعة كيركجارد التشاؤمية ، وفي الاحساس بأن الفلسفة هي طريقة المثقفين المفضلة في الكذب على أنفسهم . ولكن كيركجارد كان روائياً رديئاً بالغ الرداءة . والفلسفة قد لا تكون سوى ظل من الحقيقة التي تحاول الامساك بها ، ولكن الرواية أكثر اشباعاً في هذا المجال بكثير . وأكاد هنا أن أميل إلى التعميم فأقول إنه ما من فيلسوف يصبح مهيأً للقيام

بوظيفته ما لم يكن روائياً أيضاً . ولقد عرف هوايتهد أن على الفلسفة أن تخلع عن نفسها نير التصورات العقلية وطغيانها ، وأن تحاول النفاذ إلى حقيقة « كل » التجارب الكامنة وراءها ، « تجربة السكر وتجربة الصحو ، تجربة التدين وتجربة اللاتدين » . وهذا هو بالتحديد ما فشلت لغة هوايتهيد الجافة والمجردة في التعبير عنه . وقد قال شو ذات مرة إنه يستطيع أن يتخلى عن أي اثنتي عشرة مسرحية من مسرحيات شكسبير في مقابل واحدة من المقدمات التي كان عليه أن يكتبها . وأنا على استعداد بالتأكيد لأن أستبدل أياً من أعمال هوايتهيد أو ويتجنشتاين في مقابل الروايات التي ينبغي أن تكتب .

الفصل الثالث عشر

الجنس

في هذا الكتاب ، لم أحاول أن أكون صريحاً صراحة روسو [1] ، لأن ما يمكن أن أعترف به أقل بكثير مما كان لدى روسو لكي يعترف به . ولقد تصرفت في حياتي دائماً تصرفاً عادلاً تماماً وملائماً لما تمليه علي أفكاري ، وليس هناك شيء أشعر إزاءه بالخجل بصورة خاصة . وأنا لا أشعر بسعادة خاصة إزاء ما قدمته من معونة قليلة لدوروثي فيما بين عامي ١٩٥٣ ، ١٩٥٦ . ولكن لم يكن أمامي خيار في هذا الموقف . كان علي أن أكتب ، وقد احتل هذا المكان الأول قبل كل شيء . ولقد استخدمت أول مبلغ من حقوق نشر كتاب « اللامنتمي » لكي أدفع ايجاراً مقدماً لمدة طويلة من أجل استئجار منزل لدوروثي .

لقد سارت حياتي إلى درجة كبيرة بدافع مما أسماه شو « شهوة الذهن » . ولكنني أيضاً قد ورثت من الجانب الذي يمثله أبي من

---

١ يشير إلى كتاب جان جاك روسو الشهير « اعترافاتي » الذي كان أول الاعترافات الصريحة في العصر الحديث ويعتبر الآن مرجعاً لتربية الفيلسوف وعناصر التحرر التي كونت موقفه الاجتماعي والفكري والنفسي المتحرر . (هـ. م.)

الأسرة ، ورثت دوافع جنسية قوية ، وقد خلفت هذه الدوافع هي الأخرى آثارها على أعمالي . ولا يمكن لمثل هذا الكتاب أن يكون مكتملاً دون مناقشة هذه الدوافع إلى حد ما .

لقد أثبتت لي ملاحظتي لأطفالي أن الدافع الجنسي يبدأ في الظهور وفي اثبات قوته وتأثيره في فترة باكرة جداً من الحياة ، وقبل أن يستطيعوا الكلام . فإذا تعامل الوالدان مع مثل هذا النوع من الدوافع مثلما يتعاملان مع أمر واقعي وحقيقي ، ودون أن يشعر الطفل أنه دافع محروم وممنوع ، فإنه يصبح جانباً صحيحاً ومتسقاً مع تطور الشخصية . وفي اللحظة التي يظهر فيها إحساس بالحرمان و « المنع » ، يتدخل عنصر خطير وضار . ولقد نشأت في بيئة من الطبقة العاملة ، والطبقات العاملة أساساً طبقات محتشمة أو تتكلف الاحتشام ، واحتشامهم يقوم أساساً على الحسد للناس الذين يعتقدون أنهم يحيون حياة جنسية غير مقيدة : نجوم السينما ، والمغنين الشعبيين والمليونيرات . وهناك صحيفة من صحف الأحد في انجلترا لا تقدم تقريباً إلا ذلك النوع من الناس الذين يستمتعون بأن يشعروا بالصدمة إذا قرأوا حكاية فتاة اغتصبها اثنا عشر رجلاً ، أو إذا قرأوا اعترافات نجمة سينمائية تصف كيف وضع زوجها مجموعة من المرايا العاكسة المتقابلة حتى يستطيعوا أن يروا ضيوفهم وهم يتضاجعون . هذا النوع من الكتابات يؤدي إلى تنمية رغبة جنسية غير صحية . وفي سنوات مراهقتي كنت أعرف وجود هذا الميل في نفسي ، ولكني كنت أتمتع بصحة نفسية كافية لكي أعتبره ميلاً طبيعياً فلا أضيع أي جانب من وقتي في الاحساس بالذنب بسببه أو بازائه .

ولقد سبق أن قلت إنني كنت صبياً صغيراً ذا عقل نظيف نسبياً ، ولم يكن هذا بسبب أي نوع من الاحتشام ، وإنما لأنني شعرت بالتفوق الطبيعي على أمثال هؤلاء الصبية الذين كانوا يخترعون الحكايات الخيالية عما فعلوه بابنة الجيران . ولكنني كنت أشعر بقوة الدافع الجنسي منذ

أن كنت صغير السن جداً . وقد قال أحد النقاد عن رواية « القفص الزجاجي » إن الكتاب « ينضح بالرغبة الفيتشية (رغبة اشتهاء الأشياء المتعلقة بالجنس) وخصوصاً الجوارب والسراويل الداخلية » ، وظن الناشر أن مثل هذا القول يمكن أن يساعد على رواج الكتاب فوضعه بشكل بارز على الغلاف الخلفي للطبعة الشعبية ذات الغلاف الورقي . وأنا أظن أن أكثر الذكور الأصحاء يرمقون الملابس الداخلية النسائية بنوع من الشبق الجنسي . ولا شك أن ثمة عنصراً فيتشياً قوياً في مؤلفاتي ، وهو العنصر الذي يبدو أنه يرجع إلى الزمن الذي تعودت فيه أن أرتدي ملابس أمي عندما كان عمري أربع سنوات ، أما فيما يتعلق بالملابس الداخلية — بدلاً من الفتاة الموجودة داخل هذه الملابس — فلا شك أنه اهتمام تآكل وتلاشى في الثلاثينات من عمري .

وأتذكر الآن حادثة أخرى ترجع إلى عامي الخامس . كانت هناك فتاة جميلة تدعى هازل اعتادت أحياناً أن ترعاني وتعنى بشؤوني ، وكنت أعجب بها إعجاباً شديداً ، وكانت في الحادية عشرة من عمرها تقريباً . وكنا نستطيع أن نلتقي في الحديقة الخلفية لمنزل كل منا . وذات يوم عدت من المدرسة إلى المنزل في وقت الغداء ، وكان اليوم يوم جمعة ، وهو اليوم الذي اعتادت فيه أمي أن تخرج من المنزل لشراء حاجياتها . وكانت هازل في حديقة منزلهم الخلفية ، فخلعت بنطلوني وجريت في ممر الحديقة أصيح بها لكي تنظر إلي وتراني . فقالت إنها مشغولة جداً . فاعدت ارتداء بنطلوني ودخلت المنزل ، وشعرت بالحرج عندما وجدت أن أمي كانت بالداخل ، وكانت تجلس إلى جوار النافذة . ولكنها لم تذكر لي هذه الحادثة أبداً ، ولست واثقاً من أنها لم ترني أم أنها ببساطة قررت أنه قد يكون من الأفضل ألا تثير هذا الموضوع . في هذه السن لم أكن أعرف شيئاً عن الدافع الجنسي ، وكان ما عملته يومئذ عملاً غريزياً خالصاً .

ولقد تعودت أن أصغي بشغف قاتل حينما كان الصبية الأكبر سناً يتحدثون عن الجنس ، أو يغنّون الأغاني القذرة . وكان هناك دائماً عنصر يشبه الأحلام في تلك القصص والأغاني . فهناك فتاة تطير ملابسها في الريح ، فيقترب منها رجل ويجذب سروالها الداخلي إلى أسفل :

ثم يخرج عصاه السحرية
وبحذر يبعد ما بين هاتين الشفتين الورديتين .

وقد كان هذا الجو الشبيه بجو الأحلام الذي تسبح فيه الخيالات الجنسية — وتدور فيه كلها بحركة بطيئة مثل الرقص تحت سطح الماء — كان هذا الجو هو ما يمنح تلك الخيالات سحرها وأسرها القوي .

ولكنني لم أتبين مقدار قوة دوافعي الجنسية حتّى بلغت الثالثة عشرة من عمري وبدأت أخرج مع جلاديس . لم يتضمن تبادل القبلات مع جلاديس أية رغبة جنسية لأنني أعتقد أنني كنت خجولاً . ولكن حدث في ذلك الوقت تقريباً أن جاءت مدرّسة جديدة للغة الانجليزية إلى المدرسة ، وقد تعودت أن تجلس على مقعدها المزود بمائدة صغيرة أمامه ، ثم تضع ساقيها على هذه المائدة . وذات ليلة كنت أرقد في فراشي وأتخيل أنها عارية تماماً وترقد تحتي ، وحينما ضغطت بشفتي على الوسادة ، أحسست فجأة بتقلص دافئ وغريب في منطقة أعضائي التناسلية .

وفيما بعد أدهشني قول ف . أو . ماتييسن في كتابه « منجزات س . إليوت » عن أن الجنس دائماً يقل في مستواه إذا ما قورن بخيال المرء وحده . وبدت تجاربي الأولى مع سيليفيا كما لو كانت تؤكد هذا ، ولكنني اكتشفت فيما بعد أنه ليس من الضروري أن يكون هذا القول صحيحاً . وكان يحدث بوجه خاص إذا ابتعدت عنها لمدة أسبوع ، فإنني كنت أشعر بأن عملية ممارسة الجنس معها كانت تنتج

من البهجة مثل ما يشعر به الرجل الذي يوشك أن يموت عطشاً حينما تنزل على حلقه الجاف أولى قطرات الماء الباردة .

ولقد أثارت دوروثي في داخلي ذلك الاحساس القديم ، احساس تذوق الفاكهة المحرمة ، مع مظاهر الاغتصاب عنوة . وحتى بعد أن تزوجنا فإن رزانتها واحتشامها كانا مثيرين دائماً . ولكنني لاحظت أيضاً أن تجاذبنا الجنسي يشملنا معاً في علاقة من نوع غريب تتجاوز ما هو حسي وجسدي ، حتى انني شعرت في جسدي بآلامها عندما وضعت ولدنا . وبعد شهور قليلة من انفصالنا ، أصبت بحالة مرضية عنيفة ذات ليلة وتقيأت ست مرات قبل طلوع الفجر ، بعد بضعة أيام علمت أنها كانت تعاني من تسمم غذائي في ذلك الوقت ، وأنها بدأت تشعر بالمرض في نفس اللحظة تماماً التي بدأت أنا أشعر به فيها ، وكنت قد لاحظت الوقت .

وقد كانت جوي خجولاً بنفس الدرجة ومحتشمة رزينة ، ولكنها لم تثر فيّ هذه الرغبة الجنسية العنيفة . وفي عطلة الأسبوع الأولى التي قضيتها معها في منزل فلاكس ، رقدت على الأرضية أمام النار معها ، ولم يكن هناك ضوء في الحجرة سوى ضوء النار ، واستمعنا إلى بعض الموسيقى المرحة من الراديو . كنت ملتصقاً بها التصاقاً جسدياً ، وكانت هي ملتصقة بي بضغط خفيف ، ولكننا كنا نرتدي ملابسنا الكاملة . وبينما كنت راقداً في مكاني شعرت في داخلي بحالة غريبة من التوهج الدافئ الجسدي والعقلي . كان إحساساً من اللهفة المستثارة الهائلة ، ومع ذلك كانت هذه اللهفة تمتزج في نفس الوقت بإحساس من الرضا الكامل .

أي قيمة كانت لكل مخاطر العالم
أمام عيني باريس الجبار حين وجد نفسه
نائماً فوق سرير ذهبي
في ذلك الفجر الأول ، بين ذراعي هيلين .

كانت جوي تدفع بي إلى هذه الحالة دائماً . لم يحدث معها شيء من أعراض حالة الاغتصاب العنيفة التي كنت أشعر بها مع دوروثي ، وذلك لأنني شعرت إزاءها بشعور أبوي يوجب علي حمايتها . وبنوع من التفوق الذي يشبه تفوق الوالد على ولده . كانت تمتلك دائماً شيئاً ما نقياً وواضحاً . ولم تكن رؤيتي لها وهي تسير في الحجرة عارية مما يولد لدي أية إثارة جنسية ، لأن جسدها كان نحيفاً جداً لدرجة أنه يصبح موضوعاً للتقدير الجمالي أكثر منه موضوعاً للشهوة . وحتى حين لا تكون مرتدية سوى مشد صدرها وسروالها الداخلي ، فإنها كانت تبدو كما لو كانت تتهيأ في وضع مناسب لصورة توضع مع إعلان عن بعض الملابس الداخلية . كانت تبدو في مجموعها عادية تماماً وصريحة ومستقيمة كشعاع من الضوء . كانت ممارسة الجنس معها ممتزجة دائماً بقدر هائل من الحنان والرقة ، مثلما يحدث حين يقبل المرء طفلاً جميلاً . وكان هذا الجانب أيضاً جزءاً أساسياً من علاقتنا — جانب العلاقة بين الوالد والطفل . لم تكن تشبه دوروثي ، من حيث أنها بدت غير قادرة على أن تتخذ مني موقفاً نقدياً — باستثناء ما كان يحدث عرضاً ، ومن حين إلى حين ، فتنتقدني على إسرافي في شراء النبيذ أو التسجيلات الموسيقية . ولو أنني شعرت في فمي رائحة كريهة وسألتها إذا كان لتنفسي هذه الرائحة فإنها تقول : « كلا ، لا أستطيع أن أشم شيئاً » . كان هذا هو التأييد الصريح والموافقة الدائمة ، وهو النوع من التأييد الذي مارسته فيما بعد ولقيته من أطفالي .

* * *

في أثناء زواجي من دوروثي ، وحتى حينما كنت أشعر بالتزامي بحمايتها وبأكثر مشاعري رقة نحوها ، فإنني كنت أنظر بنوع من الكآبة والحزن إلى الفتاة الجميلة التي تعمل في المكتبة المحلية أو إلى سكرتيرة

رئيس العمل التي ما زالت في سنوات مراهقتها . وأذكر أن جيمس لدنكين ، في ستراسبورج ، أمضى في الكلية سنتين كاملتين قبـــل أن يجد نفسه بالصدفة في فراش واحد مع فتاة . وأن التجربة فاجأته كما لو كانت صدمة مدهشة : « يا إلهي ، أهذا هو ما خلقن لأجله » ! وأنه بعد هذه التجربة كان ينظر إلى الفتيات إذ يتمشين في الحديقـــة الصغيرة وراء مبنى الكلية نظرة العارف المتعاطف المبتهج ، عارفاً أن هذه المخلوقات الصغيرة قد جاءت إلى الدنيا لتمنح اللذة للذكور ، أو أنهن على الأقل يستطعن أن يفعلن ذلك . ويقول موزيل ، وهو يتحدث عن قاتله الجنسي موسبراجر ، إن موسبراجر في الأيام التي قضاها في الصعلكة والترحال المستمر ، كان محروماً من شيء : « يكافح المرء من أجله بدافع طبيعي تماماً مثلما يكافح من أجل الخبز والماء» . ولدى موزيل نقطة مهمة . فالجنس كان يعني لديه شيئاً يستطيع أي إنسان أن يحصل عليه ويتعاطاه كما يحصل على جرعة الماء من الكوب ، وحينما يمارس الرجل الجنس مع فتاة جميلة ويشعر بهذا الاشباع الحلو العميق ، فإنه يمارس شيئاً لا بد أن يشعر به بمثل السهولة والعادية التي يمارس بها رجل صحيح الجسم لذة تناول الطعام الجيد حينما يكون جائعاً جوعاً حقيقياً ، أو شرب كأس من الجعة حينما يكون حلقه جافاً كورقة التجفيف أو في يوم شديد الحرارة . ولا يجب أن يكون الجنس شيئاً لا يمارسه إلا قلة من الرجال المحظوظين :- الفتيان الأغنياء المدللون ، وسائقون سيارات السباق ، والمؤلفون أو الممثلون الناجحون . إنه الحق الطبيعي لكل الرجال .

وماذا عن الحق الطبيعي للنساء ؟ أعتقد أنه لا يمكن أن يظهر هنا أي شك في أنهن جديرات بشكل ما بنفس الشيء . فمن المؤكد أن كل امرأة تتمتع بالحق في عاشق مكتمل الرجولة يتصف بالحنان – إذا كان هذا ممكناً – ويحبها حباً حقيقياً . ولكن أكثر النساء لا يفضلن

وجود عشاق متتابعين من هذا النوع ، لأن هذا جدير بأن يتناقض مع جوهر التجربة . فالدافع الجنسي عند الذكر يختلف بطريقة تؤدي إلى أنه لن يكون هناك شيء من التناقض في أن يعيش الرجل سلسلة من العلاقات مع فتيات شابات جديدات . والأب يستطيع أن يكون أباً لعدد كبير من الأطفال ، والطفل لا يستطيع أن يكون له سوى أب واحد .

إنني أفتح ملحقاً ملوناً لإحدى صحف الأحد وأنظر إلى إعلان عن نوع من السجائر يحدد بوضوح ما أتحدث عنه . هناك رجل وسيم لوحته الشمس يرتدي صداراً صوفياً له « ياقة » مرتفعة أنيقة ، ويقف واضعاً إحدى قدميه على حافة قارب على الشاطئ ، ووراءه ، جالسة على كومة من الحبال وهي تستمتع بسيجارتها ، فتاة سمراء مشرقة ذات أسنان بيضاء ، والوشاح فوق رأسها يتطاير مع الريح . وعلى البعد ، في خلفية الصورة ، يمكنك أن ترى السفن الرياضية ذوات الأشرعة ... فكم من الرجال والنساء قد مارسوا الحلم الذي توحي به الصورة ؟

وقد كان بيل هوبكينز واحداً من الاستثناءات القليلة التي عرفتها . كانت له شقيقتان أكبر منه سناً ، وحينما كان في أوائل سني مراهقته . أغوته صديقة لإحداهما . وحالما اكتشف أن النساء يجدنه جذاباً ، فإنه لم يلو على شيء أبداً ولم يتراجع . كان يتمتع دائماً بهذه الثقة الغريبة في أهميته في المستقبل ، هذه الثقة التي يبدو أنها تظهر بطريقة طبيعية عند ذوي الموهبة من الرجال . كان أبوه وأمه من أكثر الممثلين الشعبيين نجاحاً بين الممثلين الذين يظهرون في ثنائي دائم ، في مقاطعة ويلز . ومنذ بضعة أسابيع ، سألت رجلاً عجوزاً من أبناء ويلز إذا كان يتذكر ممثلاً يدعى هوبكينز فقال على الفور : « تيدوماري هوبكينز ؟ بالطبع ! » . وقد قال لي بيل ذات مرة إنه حينما مات والده ، ظهرت كل الصفحات الفنية في الصحف وهي تحمل الأنباء : « مات تيد

هوبكينز » . ولكن هذا لم يلح له كدليل على شهرة والده ، فقد افترض أن كل إنسان جدير بأن يحصل على مثل هذه الدعاية والشهرة بعد موته . وفيما بعد . وحينما تبين أن الوضع لم يكن على هذه الصورة ، قال إنه قد بدا له أنه من قبيل الاهانة للإنسانية أن أكثر الناس ليست لهم أهمية إلى هذه الدرجة ، حتى أن حياتهم ، مثل موتهم ، لا يلحظها أحد .

ومن المحتمل أن بيل — دون والده — كان سيفكر في نفسه كمقاتل يحارب عالماً معادياً ، وعلى أي حال فقد كان موقفه تجاه لندن ، شديد الشبه بموقف راستينياك عند بلزاك (أحد أبطال « الكوميديا الإنسانية » لبلزاك — المترجم) حينما ينظر إلى باريس من قمة مونمارتر وينذر أن يغزوها ويقهرها . وكان شعر بيل يتمتع بالقدرة على الاستحواذ على القارئ فوراً لأنه كان شعراً شخصياً : فالشاعر يقف بمفرده في مواجهة العالم . ولقد وجدت أن قصيدته « مرثية لفتاة غارقة » قصيدة قوية ومؤثرة لأنها جسدت شيئاً من جوهر موقفه الأساسي ، فالفتاة الغارقة تخاطب النهر :

الآن ، والخريف يظللنا ، فإنك قد تحبني .

ولكن أصابع المياه الموحلة هي التي سوف تلاطف صدرها وتضغط عليه . بيد أن الموقف تجاه الفتاة الغارقة ليس هو موقف الاشفاق الذي أبداه توماس هود في قوله : « واحدة أخرى سيئة الحظ ... ذهبت إلى حتفها » . فالعاشق الذي تخلى عنها وخانها ، ربما كان هو الشاعر نفسه ، وعلى كل حال فإنها ضحية من ضحايا الرجل الصياد ، الذي كان هو نفسه ضحية من ضحايا السحر الأنثوي الذي يجذبه نحوها ثم يحاول أن يطويه داخل خيوط عنكبوت الزواج الحريرية . ولست أظن أن هناك كاتباً آخر استطاع أن يدرك جوهر الجنس كما استطاع بيل هوبكينز ذلك . إن نظرته في جانب منها ، نظرة يجللها الافتتان

والسحر ، مثل نظرة سكوت فيتزجيرالد إلى الثروة ، ولكنها ، بشكل ما ، أكثر تأثيراً وقوة وصحة في هذا المجال ، ربما لهذا السبب . ونظرته لا تبتعد كثيراً عن نظرة شو — وخاصة في أعماله الأولى مثل « الاشتراكي غير الاجتماعي » أو « المغازل » ، والسبب في هذا هو أنه — مثل شو — قد رأى في المرأة سحراً لا يقاوم ، وكانت النساء يقعن في حبه دائماً . ولكن رؤية بيل إلى الجنس تختلف عن رؤية شو من حيث أنها لا تحمل أية رؤيا كوميدية . لقد سحرته هو الآخر تلك الحرب المستعرة بين الرجل الخلاق والمبدع وبين احتياج المرأة الغريزي إلى أن تعثر لنفسها على والد وعلى زوج . ويقول شو إنها تجد في الفنان شخصاً يهدف إلى شيء لا رحمة فيه مثل هدفها : « إنه بالنسبة للنساء نصف مصاص دماء ، نصف سفاح . إنه يدخل معهن في علاقات حميمة لكي يدرسهن ، ولكي يختطف أعمق أسرارهن ، ارفاً بأنهن يمتلكن القدرة على استثارة أعمق طاقاته الخلاقة ، وعلى انقاذه من عقله البارد ، وعلى جعله قادراً على أن يرى الرؤى وأن تطوف بذهنه الأحلام ... » . وهكذا فان المرأة للفنان ضرورية في مثل ضرورة المخدرات للمدمن . وهدفها أيضاً هو أن ترفعه للوصول إلى حالة من الوعي العميق . وهذا هو جذر المأساة ، لأن الفتيات لا يدركن هذا الجانب من أنفسهن إلا إدراكاً معتماً وغائماً وغير واضح . ومن المرجح أن وعي الفتاة الداخلي يشبه — في عمليته وارتباطه بالحياة الدنيا وبالأرض — وعي مسز بلوم (الشخصية النسائية الرئيسية في رواية « يوليسيز » ، وهي أيضاً موللي ، زوجة ليوبولد بلوم — المترجم) . ليس ما يريده الفنان منها هو نفسها ، إنما هو يسعى وراء نوع من المخدر أو العقار الباعث للرؤيا الذي يحتوي كيانها عليه سراً ، وبالصدفة . وحالما يحصل على هذا العقار ، فإنه يريد أن يترك الباقي دون أن يمسه . إنه يريد منها أكثر مما قد يحصل عليه المغتصب الذي قد يغتصبها عنوة في الظلام .

إنه يريد الخضوع الأنثوي ، التسليم ، انفتاح روحها . وهو لا يرغب حقاً في أن يتركها حينذاك ، — ربما لأنه عطوف ورقيق بطبيعته — ولكن في هذه اللحظة ، تظهر فتاة أخرى عند المنحنى ، فتجتذب عينيه وتشغلهما ...

ومن الطبيعي .ألا ينطبق كل هذا بصورة عامة على العلاقات بين الرجل والمرأة . فالفنان يسحر المرأة لأنه من النوع النادر . ويجب عليّ أيضاً أن أشير إلى أنه ليس من الضروري أن يكون فناناً من ينتمي إلى « نوع الفنان » . إنه قد يكون شاباً وسيماً مدللاً يعمل بتحطيم الخزائن الحديدية . وقد يكون ببساطة شخصاً ورث بعض الملامح الجسدية التي ارتبطت في ذهن الفتاة بالمميزات التي تريدها . وهناك فتاة في إحدى قصائد ييتس ، يشير والدها إلى أن حبيبها « يتصف بأسوأ الصفات السيئة » ، فتجيب عليه :

ان شعره جميل
وباردتان كرياح شهر مارس عيناه !.

إن « نوع الفنان » نوع نادر . وأكثر الرجال آباء وأزواج بطبيعتهم . ولكن نصفه الانثوي المقابل أقل ندرة : إنهن من يتميزن عن مجموع النساء العاديات بنوع غريب من الجمال أو الفتنة ، أو حتى الكبرياء . وهؤلاء هن النساء اللواتي يعين وعياً كاملاً باحتوائهن السري العارض على عقار الرؤيا ، ويستخدمنه كسلاح في الحرب الجنسية . ويحب بيل هوبكينز أن يدعو للفكرة القائلة بأن هناك — أو يمكن أن يكون هناك — نساء بعينهن مساويات من كل جانب للرجال الخلاقين المبدعين ، وقوتهن قوة متسامية وخلاقة أكثر منها قوة بيولوجية . وشخصية « كلير مونت » في روايته « المقدس والمنحط » نموذج من هذا النوع من النساء .

المنصة الآن مهيأة للصدام التراجيدي . إن جوهر الدافع الذكري

الخلاق هو الغزو والانتصار ، وهو يريد أن يدخل في الفتاة وأن يمتصها بطريقة ما . أما جوهر الدافع الأنثوي الخلاق ، الطبيعي ، فهو الرغبة في أن تُغزى وأن تُقهر ، أن تُمتص . (وأنا أتجاهل احتمال أن نساء مثل كليرمونت قد يوجدن حقاً ، ربما باستثناء وجودهن كظواهر نفسية شاذة) . وحينما يتطلع الرجل الخلاق حوله إلى عالم من النساء الجذابات اللواتي تقول دوافعهن البيولوجية : « اغزني ، اقهرني ، امتصني » ، فإنه يبدو أنه من غير المعقول بالنسبة له أن ينكر على نفسه هذه المتعة . وحينئذ ، وإذا كان طيب العنصر بأية صورة من الصور ، يجد أنه من الصعب أن يهجرها أو أن يتخلى عنها حينما تقاوم هي هذه الفكره مقاومة واضحة .

وقد صرح بيل لي ذات مرة أنه لم يكن مهتماً اهتماماً عميقاً بممارسة العملية الجنسية ، فقد كانت هذه العملية تعني أن الهدف النهائي قد تحقق ، وأنه لا مزيد من المسيرة يمكن أن يقطع . كانت البهجة كلها تنبع من الحصار ، ومن التسليم التدريجي . وبدا لي أنه لو أن الفتاة سلمت له بعض طوابع التأمين الخضراء بدلاً من أن تخلع ملابسها . فإنه كان يجد في هذا نفس الاشباع والارضاء تقريباً . وفي نفس الوقت فانه كان قادراً على أن يأسف على الفرص الضائعة . وقد قال لي إنه حينما كان يحرر عدداً من صحف لندن الشمالية قبل العشرين من عمره ، حدث أن كان مستقلاً مترو النفق ذات يوم . وبعد مسافة طويلة ، أصبح هو وفتاة جذابة الراكبين الوحيدين في العربة . وسألته الفتاة سؤالاً ما ، وتبادلا الحديث ثم انتقل لكي يجلس إلى جوارها . وكان من الواضح أنها كانت تريده أن يسألها عن رقم تليفونها ، ولكنه قال إنه كان غارقاً في عدد من قصص الحب ، وبذلك فإنه كان مشغولاً من الناحية الجنسية في تلك الفترة ، حتى أنه لم يكن يهتم بالحصول على المزيد . وحينما غادرت الفتاة قطار المترو ، قال لها « وداعاً » ببساطة .

وبعد ذلك . كان يفكر فيها دائماً باعتبارها « الواحدة التي راحت بعيداً وضاعت » . كان يقول : « ليست امرأة واحدة هي ما أريد ، إنني أريد كل النساء » ، إنها الرغبة في ممارسة الجنس مع كل فتاة جذابة في العالم .

* * *

إنني أصف مواقف بيل من الجنس بهذه الاطالة ، لأنها بشكل حتمي ، المواقف التي يتميز بها أي فنان . وكانت هذه المواقف بالتأكيد هي مواقفي أنا قبل العشرين وبعدها بقليل . وقد كنت بالفعل أعي بوضوح كامل صراعي التراجيدي مع سيليفيا . لقد كانت سيلفيا فتاة مشبعة لأنها كانت فتاة جميلة ذات عينين يمكن أن تغللهما الدموع في أية لحظة . وكل موقف لها يشير إلى قولها : « خذني . وافعل بي ما تشاء » . ومن المحتمل أنها لم تكن جديرة بأن تثير اهتمام بيل ، فقد كان نجاحه الجنسي يعني أن مقاييس ما يطلبه عالية ونادرة . كان يحب « الموديلات » الجميلات . والفتيات الشهيرات . ولم يكن هذا نوعاً من التكبر أو الادعاء . ولكنه كان ببساطة جزءاً من نزعته الرومانتيكية ، البحث عن الأنثى التي تمثل الجزء المكمل للذكر — الفنان . وكنت أنا أكثر تواضعاً بكثير في مطالبي . وأعتقد أنني أستطيع القول بأنني أنفقت في الجنس وقتاً أقل بكثير مما أنفقه بيل ، وأن هذا كان هو الاختلاف الأساسي بيننا وكان الجنس هاماً بالنسبة لي ، ولكن العلم والشعر والفلسفة كانت تتمتع بأهمية مماثلة . وقد قال دكتور جونسون لبوزويل إننا نكون قد تعلمنا في سن العشرين كل ما يمكن أن نتعلمه بعدها تقريباً . وحينما قابلت سيلفيا في سن التاسعة عشرة كنت أتلقى « تدريبي الأساسي » وحينئذ حققت الاكتشاف الممتع القائل بأنه لن يكون علي أن أختار بين الجنس والفلسفة ، فقد كان بوسعي أن أحصل على الاثنين معاً . وقد

كان من حسن حظي أنني لا أعاني من أي نوع من القصور الجسماني يواجه قدراتي الذهنية ، فعلى العكس من ألدوس هكسلي ، لم أكن مصاباً بقصر النظر أو الشحوب . لقد كنت صبياً صغيراً وسيماً ، ونموت فتى طويلاً قوي البناء ولست صاحب مظهر رديء . وتحول صوتي في الثامنة عشرة من عمري إلى صوت من درجة الباريتون . ولقد أحببت الجنس الآخر بنفس مقدار حب بيل له ، ولكن مطالبي منه كانت مختلفة . إنه من الضروري أن يظهر دافع الانتصار والغزو في علاقات الذكر الجنسية ، إذا كان الرجل عادياً إلى درجة كافية ، ولكن هذا الدافع قد يتخذ أشكالاً مختلفة . وأنا أعرف أن اهتمامي بدوروثي في أيامنا الأولى كان ينصب أساساً على الرغبة في إذابة جبل الثلج ، وقد قالت لي إنني حينما رأيتها أول مرة – إذ كانت خارجة من مكتبها – نظرت إليها من أعلى إلى أسفل كما لو كنت أحاول أن أخلع عنها ثيابها بعيني . وحتى مع جوي ، كان هناك نوع معين من الرضا عن النفس في اقناعها بفسخ خطوبتها – أي في التأثير عليها . هناك جانب كبير في كل الرجال يتماثل مع صورة « أدولف » التي رسمها كونستانت .

وقد كانت رواية ستاندال « الأحمر والأسود » أحد كتبي المفضلة قبل أن أبلغ سن العشرين ، وكان هذا لأسباب واضحة . ولم أستطع أبداً أن أفهم السبب الذي جعل ستاندال يترك جوليان لكي يعدم في النهاية ، وقد كان المفروض أن يكون الكتاب هو الرواية الأولى في سلسلة من الروايات عن غزو جوليان للعالم . إن راستينياك عند بلزاك ، يبلغ ذرى مرتفعة من المكانة الاجتماعية ، ولكن تقدمه أقل إثارة للاهتمام والمتعة بكثير من تقدم جوليان سوريل .

* * *

في الوقت الذي تزوجت فيه دوروثي ، كنت قد شرعت منذ قليل في اكتشاف أنه من الممكن أن تكون الفتيات ذوات سحر يخلب اللب . وكانت هناك خطيبة لأحد الأصدقاء ، وكانت فتاة ذات بشرة رقيقة وعينين جميلتين ، وكانت تنتمي مثل جوي إلى فئة محترمة تماماً من الطبقة المتوسطة . وفي رواية « حجرة عند القمة » كان جون برين قد اخترع طريقة مسلية لتصنيف الفتيات إلى « الدرجة ا » ، « الدرجة ب » وهكذا ، وكنت جديراً بأن أقترح أن هذه الطريقة تحتاج إلى أن تكون أكثر مرونة . فإن « الدرجة ا » كان يجب تقسيمها إلى « ا — ١ » ، « ا — ٢ » . وعلى سبيل المثال ، كان نوع النساء الذي يثير اهتمام بيل — بصورة نموذجية — هو نوع « ا — ١ » . وفي التطبيق كان عليه أن يقنع غالباً بصاحبات درجة « ا — ٢ » أو حتى درجة « ب » بأنواعها . وكان على صاحبة درجة « ا — ١ » أن تكون جميلة وذكية وأرستقراطية ومعتادة على اصدار الأوامر ، تجعل الرجال يعاملونها باعجاب ممتزج بالولاء والاكبار . ومثل هذا النوع من النساء نادر ندرة غير عادية . ولكن على المرء أن يحتفظ بدرجة « ا — ١ » حتى يضع صاحباتها في مكانهن الملائم عند ظهورهن . وقد يكون لفتاة الموديل الجميلة العادية مظهر جذاب ، ولكن من النادر أن تكون ذكية ، وإذا لم تكن من أصل أرستقراطي فلن تكون ثقتها بنفسها عميقة . إنها لن تحصل على درجة أكثر من « ٢ — ب » . وقد حدث أحياناً أن قابلت بعضاً من صاحبات درجة « ا — ١ » ، وقد حدث بطريقة عارضة أن أشرن إلى أنني شخص يثير الاهتمام من وجهة نظرهن ، ولكنني لم أشعر أبداً بأي جاذبية خاصة نحوهن ، لنفس السبب الذي لا يجعلني أستمتع بشرب بعض الأنواع الغالية الثمن من النبيذ البورجاندي ، مثل الريتشبورج ، فالمذاق يكون أكثر فخامة وثقلاً مما أستطيع احتماله .

وعندي قصة طريفة مسلية عن واحدة من صاحبات درجة « ا — ١ »

كنت قد افتتحت معرضاً للرسم في صالة عرض بلندن ذات مرة . وكان بيل هوبكينز حاضراً ، فقدمني إلى فتاة موديل ذات جمال غير عادي كانت قد هجرت منذ قليل واحداً من طبقة النبلاء . وتصرفت الفتاة بطريقة واضحة تدل على أنها انجذبت نحوي ، فقد بدت على عينيها هذه المظاهر الغائمة الخفيفة التي توحي بأنها تسمح لك بالفعل بأن تعريها من ثيابها في خيالك . وقد وجدتها فتاة ممتعة ، ولكنها كانت من نوع نبيذ الريتشبورج . وحالما أصبحت مع بيل هوبكينز بمفردنا ، سألته عما قاله عني لها . فقال إنها قالت له : «أتسمح بأن تقدمني لكولين ويلسون ؟» فنظر اليها بيل بخطورة ، وقال لها : «إنني لا أنصحك بهذا حقاً .» ، فقالت : «ولم لا ؟» ، فأجابها : «لا أستطيع حقاً أن أقول لماذا . إنه صديق لي . والنساء يجدنه جذاباً إلى درجة كبيرة ، ولكنه يتميز بقسوة غريبة . هل سمعت عن محاولة جيرالدين الانتحار في الأسبوع الماضي ؟ كان هذا بسبب كولين ...» . وكان من الطبيعي أن الفتاة أصرت على مقابلتي ، وصرف بيل عينيه عنها محاولاً ألا يبتسم . هل كانت ماسوشية مغرمة بتعذيب نفسها ؟ لا أظن ذلك ، ولا أظن إلا أنها واحدة من الفتيات الرومانتيكات اللواتي يعشقن الاثارة .

ولقد قلت من قبل إن جانباً من جوانب زواجي لم أكن فيه سعيداً كل السعادة ، كان هو الاحتياج إلى الاقلاع عن مطاردة النساء ، وكان ذلك في سرعة كبيرة بعد اكتشافي لمقدار اللذة التي تتضمنها هذه المطاردة . لقد ظللت مخلصاً لدوروثي طوال الثمانية عشر شهراً التي عشناها معاً ، وقد ذكرت من قبل كيف حافظت على فضيلتي في خلال الصيف الذي تلا انفصالنا بسبب أنني كنت أطارد لورا . وحينما ازدادت وتحسنت معرفتي ببيل ، اكتشفنا أننا فريق جيد متساند ومتكاتف . ولا شك أن تحالفنا الطويل المدى كان جديراً بأن يزود كلاً منا بعدد

هائل من العلاقات والقصص . ولو أن واحداً منا كان مهتماً بفتاة واحدة فحسب ، فإن اهتمامنا معاً كان كفيلاً بأن يقلل من قوة دفاعاتها في أقل من نصف الوقت المطلوب لذلك . فإذا كانت هناك فتاتان ، لا فتاة واحدة ، فسوف ينطبق عليها المثل القائل : « زيادة الخير ، خيرين ! » . وقد استطاع برين أن يستوعب وأن يجسد جانباً من هذا الموقف نحو الجنس في رواية « غرفة في القمة » ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستطيع فيها رجل أن يفعل ذلك بمثل هذه الدقة . لقد أضفى على عملية الاغواء مجداً وبريقاً يماثلان ما أضفاه سكوت فيتزجيرالد على الثروة ، وكان هذا هو السبب في نجاح الكتاب ، رغم أن ناقداً انجليزياً واحداً لم يفلح في النفاذ ببصره إلى هذه الحقيقة : وقد كان فشل برين في رؤيتها هو الآخر ، وفي تطويرها بالتالي في روايات أخرى ، كان هذا الفشل في اعتقادي هو السبب في فشله في أن يحقق المستقبل الذي كان يعد به في هذا الكتاب . (ففي روايته « اللعبة الصارخة » كان الجنس قد فقد ما فيه من شاعرية ، وأصبح خشناً وعضلياً فقط) .

* * *

وعدت إلى لندن مع جوي . ولم يوافق بيل عليها ولم يجد فيها ما يستحسنه ، مثلما يرفض الرجال في العادة كل الحلفاء الدائمين من الجنس الآخر لأصدقائهم غير المتزوجين . ولكن جوي استطاعت أن تشبع احتياجاتي العاطفية والجنسية بأكثر مما كنت أتوقع حدوثه أو احتماله . وكان معنى هذا ، أنني في غضون السنة التي نمت في أثنائها في حدائق هامبستين هيث ، لم أعد أجد نفسي وأنا أتابع بنظرتي في شبق مليء بالحنين كل فتاة جميلة تجلس إلى جواري في المقهى . وفي هذه الفترة ، كان بيل هو الآخر مشغولاً في علاقة شبه دائمة ، وكانت صديقته

الحديدة فتاة جميلة هادئة محبة للعزلة كان قد قابلها في ناد لموسيقى الجاز ، وكانت قد جرحت جرحاً بالغاً في علاقة سابقة . كانت قد قررت أن تعيش بعيداً عن الرجال بعداً كاملاً . واستغرق بيل بضعة أسابيع في تغيير رأيها ، ولكنه في هذه الفترة غرق في حبها بقوة . ولكن لما كان اهتمامه بالنساء أساساً شكلاً من أشكال نزعته المثالية الرومانتيكية – أي اقتناعه بقدرتهن على جعله « يرى الرؤى يحلم بالأحلام المشرقة » – فإن علاقة قوية مستغرقة لم تغير شيئاً من حماسته للجنس الأنثوي بشكل عام . وقد قال لي ذات يوم بجدية إنه يوافق على ما يفعله الشواذ جنسياً ، ويظن أنه يجب أن يكون هناك المزيد منهم ، وسألته عن السبب في رأيه هذا فقال : « لأن كل من سيتركونه من النساء سيكون لنا » ، قال ذلك وهو يحك إحدى يديه بالأخرى ويقهقه .

ولقد كنت أشاركه هذا الحماس للنساء الجميلات ، ولكنني كنت مهتماً أيضاً بالموسيقى والشعر ، وبالعلم والتصوف وبالرياضيات ، مثلما كنت مهتماً بجوي ، ولهذا فإنني لم أحقق أية درجة من درجـات العشق الصوفي للجنس إذا ما قورنت بما كان يكنه بيل عن هذا العشق .

وحينما ذهبت لكي أعمل في المقهى ، كان من الممتع أن أعيش وسط عدد كبير من طالبات الدراما الجميلات ، وكنت أغازلهن دون اسراف . ولكن كان من المحتم أن تكون هناك فرصة للمغازلات البسيطة لكي تتطور وتعمق إذا كان المرء على اتصال مستمر بالفتيات الجميلات يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع . ولقد اعتدت أن أسير مع فتاة حلوة وهادئة ، وأن أصل معها إلى بيتها كل يوم ، وكانت تدرس الفنون الجميلة . وأحياناً كنت أصعد معها إلى غرفتها لشرب القهوة قبل أن أعود إلى منزلي . وحدث ذات مساء ، ولسبب ما ، أن جاءت إلى غرفتي . وكانت تعرف علاقتي بجوي . ولم يكن هناك أي شك في وجود أي نوع من التجاذب القوي بيننا . وباستثناء سيرنا معاً إلى منزلها في

الساعات الأولى من الصباح ، فإنها كانت تنام في سريري ، بين الملاءات ، وبكامل ملابسها ، بينما كنت أنا أنام بين الغطاء ووسادة السرير . ولم يحدث بيننا الكثير ، باستثناء أنني شعرت بأنه سيكون من التعاسة ألا أقبّل مثل هذه الفتاة الجذابة وهي ترقد إلى جواري ، وخاصة أنها لم تكن تبدي أي اعتراض بوضوح . كنا معاً نلعب بالنار ، وكنا نعرف هذا ، رغم أن أياً منا في هذه الحالة ، لم تكن لتحرقه النار . وفي مناسبة تالية ، نامت بين الملاءات ، وفي مناسبة أخرى خلعت أكثر ملابسها . كان ما يزال مفهوماً أننا لن نتحول إلى عاشقين ، أو كان من الممتع – على الأقل ، أن يقول الواحد منا للآخر هذه الحقيقة ؟ ارتدى كل منا سرواله الداخلي ، كنوع من الخط الدفاعي الأخير ، دفاعاً عن الفضيلة . وبعد بضعة ليال ، شعر كل منا بأنه يعبر الخط ويحطم الدفاع . كان هذا شيئاً ممتعاً ، وبشكل ما ، بريئاً تماماً . وبعد ذلك بوقت قصير ، اهتم موظف آخر في المقهى بها اهتماماً أكثر جدية ، فكفت عن المجيء إلى غرفتي .

وقد وجدت لعبة اللعب بالنار هذه مرضية جداً . إن الرجال والنساء الأصحاء يهتمون بالجنس بصرف النظر تماماً عن الرغبة في الارتباطات الدائمة . لقد كان لي ارتباطي الدائم بجوي ، ولم يكن هناك شيء يستطيع أن يقنعني بأن أفعل ما يخرب هذا الارتباط أو يهدمه . ولكنه كان من المؤسف ألا أسمح للمغازلات البريئة بأن تستمر في الفراش . ولم يحدث سوى مرة واحدة أن جاءت إلى غرفتي فتاة على استعداد لأن تصعد إلى فراشي بهدف ممارسة الجنس ، واكتشفت أنني فقدت اهتمامي بها في الصباح التالي . وحينما جاءت إلى الغرفة في مناسبة تالية ، اكتشفت ، باشمئزاز شديد ، أنني كنت أواجه نفس المشكلة التي واجهتها مع كاي ، إن الفعل الجنسي المباشر لم يكن مرضياً مثلما يحدث من خلال علاقة متحضرة ذكية ذات دافع جنسي تمّ السيطرة عليه بعناية .

كان الواضح الآن أنني وبيل نختلف اختلافاً أساسياً في نوع الفتاة التي تجذب كلاً منا . كان أكثر الأمور أهمية بالنسبة لبيل هو أن تكون الفتاة جميلة ، وتتمتع ببعض المزايا التي تتمتع بها صاحبات درجة « ا — ١ » . ومن الجانب الآخر ، وجدت أنا أنني كنت أنجذب إلى الفتيات الهادئات الخجولات وأفضل منهن الشقراوات ، وإن لم يكن هذا ضرورياً . وقد كنت أشعر أيضاً بأن هناك نوعاً من عدم الأمانة في مثل تلك العلاقات . لقد استجابت لي ، أمثال هؤلاء الفتيات من نوع سيلفيا وكما استجابت سيلفيا لي استجابة مليئة بالثقة والولاء ، وباختصار كن يقعن في الحب . ولم أكن أنا أقع في الحب ، ولكنهن كن يملكن القدرة على جعلي أحلم بالأحلام المشرقة ، وأن أحقق الوصول إلى مستوى عميق من الوعي ، والحصول على نوع لا نهائي من القدرة . وحينما كنت أقوم بتقديم القهوة في الطابق العلوي من المقهى بدأت في الانغماس في المغازلات مع الزبائن من الفتيات . وكانت هناك فتاة شقراء بالغة الجمال تدعى كارول آن ، وفي المرة الأولى لتبادلنا الحديث ، كان الأمر بالنسبة لي شبيهاً بعزف لحن موسيقي كنت قد عرفته وتعودت عليه بالفعل . ولم يكن علي سوى أن أنظر اليها لكي أشعر باللحن يتردد بيننا مثل الشوكة الرنانة . وأخبرتها بأنني أعمل في المتحف البريطاني في الأمسيات ، وكانت هي تعمل في محلات لبيع الاسطوانات الموسيقية في المدينة ، وكان اليوم التالي هو اليوم الذي لا تعمل فيه غير نصف النهار . وجاءت إلى المتحف لتراني ، وتمشينا معاً ، وتبادلنا الحديث ، وشربنا بعض الشاي . وحتى هذه المرحلة ، لم أخف أي سر عن جوي ، فقد كان من المهم أن يكون هذا الأمر واضحاً . وحينما جاءت إلى المقهى في اليوم التالي ، دعوتها للمجيء إلى غرفتي في المساء التالي لكي ترى جوى . وقدمتها إلى جوي ببساطة باعتبارها شخصاً قابلته في المقهى . وفي ذلك المساء ، سرت معها فيما بعد حتى محطة مترو النفق

فقالت بجدية : « لقد كنت أشعر بالغيرة الهائلة من جوي قبل أن التقي بها ، ولكنني الآن أعرف السبب الذي يجعلك تنوي أن تبقى معها ... » . ثم ترددت قليلاً قبل أن تضيف : « ولكنني أود أن تكون حبيبي الأول ، على أي حال » . وكانت تتمتع بقدرة على الصراحة لا يستطيع أحد أن يصدقها إلى درجة أنها كانت قادرة على إشعاري بالخوف . وجاءت إلى غرفتي بعد بضعة ليالى أخرى . وكان جديراً بأن يبدو من السخف والبلاهة الشديدة أن أرفض دعوتها . لم أكن قد أخفيت عنها شيئاً . وكانت هي صريحة بنفس الدرجة . كانت في الثامنة عشرة من عمرها وما تزال عذراء . وكانت تقضي أمسياتها في سوهو أو في مدرسة وكانت تعيش في حي « بيتس وود » وهي ضاحية للطبقة الوسطى من ضواحي لندن . وكانت تتمتع بحنين غامض إلى الآفاق أكثر اتساعاً ، كانت تملك ما تحدث عنه شو من « شهية للنشاط المثمر وقابلية سامية للحياة . » . كانت تتمنى أن يكون لها حبيب خاص بها ، ولكن نوع الرجال الذين كانت تلتقي بهم في المقاهي لم يكن يروق لها . وقد رقت أنا لها . ولكنني كنت مرتبطاً بالفعل مع فتاة أخرى ، ولكنها كانت على استعداد لأن تقتسمني معها وأن تكون شريكة في حبيب واحد . وبعد بضعة قبلات أولية ، خلعت عنها قميصها وسروالها وذهبنا إلى الفراش . ولم يحدث ما كانت تتخيله من تصرف مباشر ، على الأقل ليس من الناحية الجسدية . إنني أشعر دائماً بالقلق والتوتر حينما أقرأ الكتب التي يحدث فيها أن يخلع رجل ثياب العذارى ، ثم ما يلبث الجميع أن ينغمسوا في اتحاد مليء بالمتعة الحالمة ، وهذا قد يحدث في مناسبات نادرة ، إذا كان غشاء البكارة قد تمزق من قبل بالفعل ، ولن تكون الفتاة عصبية أو متوترة . وإذا لم يكن أي من هذه الشروط متحققاً فإن الأمر قد يستغرق ساعات أو عدة أيام . وفي رواية « طقوس في الظلام » تظهر كارول آن في شخصية كارولين ، ولكنني حتى لم أحاول

أن أصف المشاكل الجسدية التي ترتبت على ممارسة الجنس معها ، وقد كان من غير العملي أن أصف الأيام الكثيرة التي تطلبها ذلك ، وكان هذا في سبيل الوحدة الدرامية للنظر إلى الموقف .

وكان هناك ارتباط آخر في ذلك الوقت ، مع الفتاة التي تظهر في رواية « ضياع في سوهو » في شخصية دورين . وقد كان اسمها الفعلي دوروثي ، ولكن لكي أتجنب أن تختلط بزوجتي في أذهان القراء ، فسوف أدعوها ببساطة « دورين » . كانت تعمل في محـل للملابس المسرح بالقرب من المقهى . وكانت هي الأخرى جميلة وعلى قدر كبير من الرقة والحياء ، وكان شعرها بني اللون كثيفاً جداً وطويلاً . ومرة أخرى ، استمعت بوضوح إلى صوت الشوكة الرنانة . وكنت قد وعدتها بأن أعيرها بعض الكتب ، والتقينا ذات صباح في موعد سبق تحديده في مقهى هارود لنشرب القهوة ، ثم تمشينا ، وتبادلنا الحديث قليلاً ، ثم عدنا إلى غرفتي لنشرب المزيد من القهوة . وبعد عدة ليال خرجت معها — ربما كان ذلك إلى سوهو لكي نقابل بيل ، وربما خرجنا إلى واحدة من الحانات الممتعة حول الاذاعة البريطانية حيث يستطيع المرء أن يشرب عصير التفاح من البرميل — ثم عدنا إلى حجرتي . وقررت هي ألا تبقى طول الليل رغم أن آخر قطارات المترو كان قد فاتها ، وإنما استقلت أحد الباصات التي تبقى عاملة طول الليل ، عائدة إلى كينسنجتون . وفي المناسبة التالية وافقت على البقاء ولكن على مضض ، ونامت وهي ترتدي أكثر ملابسها . وإذ أحكي هذه الحكاية ، فإنها تبدو كما لو كنت أنا قد خططت حملة لاغواء الفتاة ونفذت خطتي على خطوات بطيئة ، ولكن هذا ليس صحيحاً . فليس من الضروري أن يكون معنى كل هذا أنني كنت أفكر في مسألة الاغواء . لقد فضلت فتيات كثيرات من المقهى البقاء معي طول الليل في مناسبات عديدة ، وفي معظم الحالات لم يحدث شيء باستثناء تبادل بعض القبلات القليلة .

وببساطة كنت آجد نوعاً من السحر في مثل هذه العلاقات التي لا تتضمن أكثر من الجلوس في إحـــدى الخانات ، وتنـــاول شطائر السجق وشرب عصير التفاح ، والسير في حدائق ريجنت في أمسيات أيام الأحد ، وإطعام طيور البط في هايدبارك ، ويحدث كل هذا بالاشتراك مع فتاة جميلة تجتذبني وأجتذبها . ولا يهم في قليل أو كثير أن تجد صديقاً آخر أو تتزوج . ويجب أن تسير الحياة الاجتماعية بمثل هذه السهولة في صورة لقاءات ممتعة بين الجنسين ، عميقة وغامرة ، ولكنها عارضة ومؤقتة . ولا أكاد أكون حصلت على شيء من ذلك في طفولتي أو في سنوات مراهقتي ، ولكنني كنت في تلك الفترة أستمتع بكل لحظة منها .

وفي حالة دورين ، كنت ببساطة أواجه انسياقاً رقيقاً نحو علاقة ارتباط جسدي . وكانت هي تشترك في السكن مع فتاة أخرى في شقة واحدة ، وكنت أنا وبيل نتردد على الشقة لنتناول الطعام ونأخذ معنا زجاجات الجعة أو عصير التفاح . وكنت أنا وبيل نغازل معاً الفتاتين جميعاً . وتعودت أن أصعد إلى سرير الفتاة الأخرى بعد أن تكون هي قد صعدت اليه ، وقد حدث حينئذ أن لاحظت صدق ملاحظات فلاكس عن مقدار البراءة التي تشعر بها المرأة إذا أنزل الرجل حمالات ثوبها المسائي من فوق كتفيها وراح يقبّل نهديها أو يلاطف الحلمتين بين شفتيه .

وذات ليلة ، وبعد أن كانت الفتاة الأخرى قد ذهبت إلى فراشها لتنام ، رقدت أنا ودورين على أرضية حجرة الجلوس ورحنا نتبادل القبل . وكانت هي عصبية إزاء مسألة الجنس ، ولكنها كانت قـــد تعودت علي الآن . وكانت توقفني بطريقة طبيعية إذا أنا حاولت أن أتسلل بيدي تحت قميصها . ولكنها في هذه المرة ، لم تبد أية مقاومة حينما رفعت قميصها ودفعت يدي تحت سروالها الداخلي . ولست أظن

أنها استمتعت بمحاولتنا الأولى في ممارسة الجنس ، ولكن العملية الجنسية — كمجرد عملية ميكانيكية — كانت ناجحة تماماً . وشعرت زميلاتها في السكن وصديقتها بالاثم والفضيحة حينما أخبرتها دورين بما حدث ، ولكنها سرعان ما قبلت هذا الوضع ، حتى حينما بدأت أمضي بعض الليالي الكاملة في شقتهما . وفي صباح يوم من أيام السبت ، وكانت دورين قد خرجت من الشقة ، وكنت أنا وهي ما نزال في ملابسنا الليلية ، حدث تبادل عارض لبعض الملاطفات والعبث بالأيدي ، ولم يكن القصد منها أقل براءة من القبلات التي كنا نتبادلها حينما كنا نرقد معاً على فراشها . ولكن هذه الملاطفات أدت بنا فجأة إلى احتكاك أكثر قرباً وإلى أن نرقد في فراشها ، في حجرتها الخاصة ، لمدة ساعة تقريباً . كانت ببساطة قد أرادت ألا تكون عذراء بعد الآن .

وكنت أعرف أن جوي كانت ستكتشف كل شيء عاجلاً أو آجلاً . ولم أكن أنا أشعر إزاءها بأي إثم . كنت أحبها وأفتقدها إذا ذهبت إلى بيت أسرتها في عطلات نهاية الأسبوع بدلاً من المجيء إلى شارع بيكر . أما ما كنت أحصل عليه من كارول آن ومن دورين فقد بدا منقطع الصلة تماماً بعلاقتي بجوي . كانت تمضية الأمسيات معهما تمنحني المتعة واللذة ، وهكذا كانت الموسيقى ، وهكذا كانت الشوكولاتة وشطائر القشدة . ولكن كان بوسعي أن أدرك أن جوي لن تستطيع بسهولة أن تقتنع بوجهة النظر هذه . وذات مساء ، عدت إلى البيت ووجدتها تبكي بالدموع ، كانت إحدى مذكراتي ملقاة بجانبها على الأرض . وأمضينا عطلة نهاية أسبوع سيئة ، وما زلت أرتعد كلما ذكرتها . لم تكن جوي من نوع الأشخاص الذين تستغرقهم حالة نفسية سيئة ثم تتركني وشأني ، كانت بحاجة شديدة إلى المساعدة . ولم تكن بي رغبة لايذائها ، ومع هذا فقد كان من الواضح أنني أنزلت بها أذى بالغاً . ولكن جوي كانت تتمتع على الأقل بميزة واحدة ، ولم

أكن أنوي بأي شكل أن أتخلى عنها . كانت كارول آن ودورين هما من يجب أن أقلع عن ارتباطي بهما . ومن جهة نظر جوي ، كان الاسراع بذلك الاقلاع هو أفضل الأمور ، لقد كانتا تعرفان كل شيء عن وجودها في حياتي – رغم أن إحداهما لم تكن تعرف شيئاً عن الأخرى . وقد دخلت كل منهما هذه التجربة معي بعيون مفتوحة . وكان هذا حقاً ، ولكنه لم يكن يعني أنهما كانتا تريدان أن أتخلى عنهما في لحظة مفاجئة سريعة . لقد شعرت دورين – بوجه خاص – باليأس . وبذلت أحسن ما لدي من جهد لكي أخفف عنها الأمر بالاستمرار في رؤيتها بأكبر قدر ممكن . أما كارول آن فسرعان ما وجدت معجباً آخر ، فلم تحمل لي أي ضغينة ، وبعد قليل رحلت دورين إلى اسبانيا مع طالب يدرس الفن كان يطاردها منذ شهور . أما بيل ، الذي كانت علاقاته تقوم وتوجه إرادياً على أسس أكثر سطحية وعرضية ، فقد ضحك كثيراً على ما واجهته من ارتباكات ومصادمات .

ولست أملك سوى دفاع واحد عن كل هذا – أقدمه لأولئك الذين يظنون أنني بحاجة إلى دفاع . إن الذكر الصحيح الجسم والعقل ، إذ يكون في العشرينات من عمره ، فإنه يكون على استعداد للاستجابة للفتيات الصغيرات بنفس القدر الذي يبديه الكلب من استجابة لاناث الكلاب الشبقة . وهذه الاستجابة تنبع من خلال نوع ما من حب الاستطلاع . وقد يكون من فضول الكلام أن أقول إن فتاة ترتدي سروالها الداخلي تشبه إلى حد كبير فتاة أخرى ترتديه . ليس الجنس هنا هو الجانب الرئيسي ، فالفتاة عقل أنثوي وروح أنثوية بمثل ما هي جسد أنثوي ، والذكر يريد أن يكتشف كل ذلك بعقله ، لكي يحس بالايقاع المختلف لنبضات العواطف الانثوية ، ولكي يدرك ذلك الدافع الخفي العظيم للأنوثة الخالدة ، دافع الأمومة . إنه يكون أكثر قرباً من هذه الأسرار حين يكون في قلب الطبيعة . وهو نوع من حب

الاستطلاع لا يقل في مشروعيته عن ذلك الذي دفع اسحق نيوتن أو تشارلز داروين إلى انجاز أعمالها . والرجل الذي يفشل في إشباعه يصبح مثل آلة تدور دون زيت ، وربما تكون النتيجة انهياراً شاملاً ، مثلما حدث في حالة نيتشة وفان جوخ . وأكثر الرجال لا يشبعون هذا الدافع اشباعاً كاملاً ، وهكذا لا يفقدون أبداً حب استطلاعهم نصف الآثم والعقيم نحو الجنس الآخر . إن زواجاً يبنى على مثل هذه الأسس لا يمكن أبداً أن يكون زواجاً مستقراً .

وفي مجتمع جيد التنظيم – أو ربما في يوتوبيا في المستقبل – سيمضي الرجال والنساء العشرينات من أعمارهم في علاقات عارضة ممتعة ، ينفقون الكثير من الوقت معاً ، ويمارسون الجنس أحياناً ، ويتعلم كل منهم أن ينفذ إلى أسرار الجنس الآخر ، وأن يدرك طبيعته الجوهرية . وحينما يقابل أحدهم الشخص الذي يستطيع أن يشبع احتياجاتهم بعمق فإنه سوف يتزوج ، وسوف يكون للزواج أساس صلب .

وقد وجدت في جوي على الفور الشخص الذي استطاع أن يشبع احتياجاتي ، وقد كنت عاقلاً بما فيه الكفاية حتى لا أسمح لها بالانصراف عني . ولكن حب استطلاعي العظيم ظل على حاله ، ولم يكن في هذا ما يتعلق بجوي أو يتعارض مع علاقتي بها .

وقد أصبح هذا أكثر وضوحاً حتى بعد نجاح « اللامنتمي » . ففي المقهى كانت الظروف ملائمة للمغازلات المتبادلة ، ولكن الفرص كانت فرصاً لانهائية بالنسبة لمؤلف الكتاب الناجح الذي اشتهر فجأة . وقد وجدت أن هذا الموقف كان مخيباً للآمال . إنني قد أذهب إلى مكتب ناشري ، فأجد أن سكرتيرته الجديدة جميلة جداً . وإنها لجديرة بأن تقبل على الفور دعوتي لتناول العشاء . وبعد العشاء قد تأتي إلى حجرتي ، وقد نتبادل الحديث ونستمع إلى الموسيقى ونشرب بعض النبيذ . ثم قد آخذها إلى المحطة وأقبلها قبلة المساء . وقد يكون من الواضح أنها

ستسعد جداً بأن تفعل هذا عدة أمسيات كل أسبوع ، وفي المناسبة الثالثة أو الرابعة قد تبقى طول الليل ... وفي حفلة أدبية قد تتعرف بفتاة جميلة ما زالت تقرأ في النصف الأول من كتابك . ومن الطبيعي أنها ستحب أن تصحبك إلى حفلة أخرى في وقت متأخر من نفس المساء ... وقد تأتي فتاة من الاذاعة البريطانية لكي تعقد معك لقاء إذاعياً ، إنها تسألك الكثير جداً من الأسئلة ، وفي نهاية ساعة واحدة من الحديث سوف تتبين مقدار ما بينكما من مشاركة كبيرة ... ومثل هذا النوع من الفرص قد يعرض لك اثنتي عشرة مرة كل أسبوع . وحينما ظهرت رواية بيل في عام ١٩٥٧ . وأصبح فجأة معروفاً باعتباره واحداً من « الشبان الغاضبين » استطاع أن يستفيد من هذه الفرصة حتى النهاية ، وفي فترة معينة وصل الأمر به إلى الانشغال بخمس علاقات في وقت واحد ، وكانت أكثر الفتيات يعرفن بعضهن البعض ، وكان يتساءل عن السرعة التي سوف ينفجر بها الموقف كله .

ولم أشعر بأي اغراء لأن أترك جوي . لقد كنت واقعياً بما فيه الكفاية لكي أتبين أنني لو فعلت هذا فسوف أرتبط بفتاة أخرى في خلال أسبوع واحد . إلى جانب أنني كنت أحبها ، وكنت أبادلهـا الحب . لقد كان هذا ببساطة ضرورياً لتنظيم الرغبة العنيفة في التعرف الوثيق بكل فتاة جذابة ألتقي بهـا . ولم أكن أبداً مدمناً على تعاطي المخدرات او العقاقير ، ولكني أتخيّل أنّ من المحتمل ان يكون مـا شعرت به قريب الشبه من أعراض الانقطاع عن تعاطي المخدرات . وما هو أكثر من هذا ، انه كان من الواضح جداً أنني لو انتهزت كل فرصة للارتباط بفتاة جديدة غريبة ، فانه لن يبقى وقت فائض للكتابة . أما بيل ، فقد كان يعيش حياة جنسية ساحرة ، ولكن كان عليه أن يكف عن الكتابة .

وحينما بدأت جوي في الحياة معي ، أزاحت مثل تلك الفرص ، ولكنها لم تقض على الرغبة في وجودها واقتناصها . ثم جئنا إلى كورنوول ،

وأصبحت أكثر مصادر الاغراء بعيدة عني ، هناك في لندن . أقول أكثرها ، وليس كلها . فقد كان علي أن أذهب إلى لندن كل شهر تقريباً للظهور في التلفيزيون أو لأداء بعض الأعمال الأدبية ، أما جوي فكانت تبقى غالباً في كورنوول ، أو تذهب لكي ترى والديها ، فإذا تصادف وكانت سكرتيرة المخرج التليفيزيوني جميلة ، وأيضاً إذا تصادف وكانت غير مشغولة في ذلك المساء لكي تأتي معي إلى إحدى الحفلات ، فانه لم يكن يبدو لي أي سبب يمنعني عن دعوتها والخروج معها . بل إنه حتى في كورنوول ، كانت هناك فتيات جميلات .

قد لا يكون من الصدق أن أقول إنني كنت أمضي الوقت في كورنوول في التفكير في الفرص الضائعة في لندن . ولكنني أبدأ الحديث في هذه النقطة بأن أقول إنه كان لدي الكثير جداً من العمل هنا . وثانياً ، كان لدي مشاغل أخرى أكثر أهمية . كان بوسعي الآن أن أوفر لنفسي الاسطوانات الموسيقية والكتب ، وكان بوسعي أن استقر في مكان واحد لكي أقرأ هيجل أو بلزاك ، وهو الاهتمام الذي كنت أعد به نفسي دائماً — أو لكي أعمل على معرفة كل سوناتات بيتهوفن للبيانو . كان هناك الكثير جداً من الموضوعات التي أردت معرفتها — الرياضيات والاقتصاد ، والايقاع الموسيقي الاثنا عشري ، والتاريخ الروسي — حتى أنه لم يكن هناك ما يكفي من الوقت للوفاء بكل هذا . إن علاقة خفية مع إحدى الفتيات من الاقليم القريب كانت جديرة ببساطة بأن تضيع الكثير جداً من الوقت ، وأن تتضمن الكثير جداً من الخداع . ولكن كان ما يزال هناك منفذ واحد لم يتم سده . فمعظم الكتّاب تصلهم كل أسبوع خطابات عديدة من القراء ، ومن المفروض أن نسبة من هذه الخطابات تأتي من فتيات . فإذا بدا من خطاب إحدى الفتيات نوع من الذكاء ، فان المرء يميل إلى أن يجيب عليه اجابة كاملة وصريحة .

وهذا هو ما حدث في عام ١٩٥٨ . كان اسمها فرانسيسكا ، وكانت في السادسة عشرة ، وكتبت إلي من مدرسة تابعة للراهبات . ووضحت خطاباتها أنها فتاة حيوية وذكية ، وأنها كانت تعرف قيمتها حق المعرفة ، وقالت لي إنها كانت واحدة من أجمل وأمهر الفتيات في المدرسة . وكانت قد رأت صورتي في إحدى المجلات وقرأت واحداً من كتبي وقررت أن تكتب إلي . وقد كنت مراسلاً من نوع سهل وبسيط وممتع ، فثرثرت معها قليلاً حول نظام حياتي اليومية ، وتحدثت هي حول مدرستها وبيتها الذي كان بيتاً ينتمي إلى فئة عليا من الطبقة المتوسطة ، فقد كان والدها مديراً لإحدى الشركات . وبعد ستة أشهر أو نحوها من بداية تراسلنا . كان علي أن أقضي بضعة أيام في لندن . فاقترحت عليها أن نلتقي في المتحف البريطاني — فقد كان علي أن أقوم ببعض البحوث في غرفة القراءة . وظهر لي أنها كانت فتاة باهرة متألقة ، تلميذة بكل معنى الكلمة ، مع شيء من السذاجة والاندفاع كان من المؤكد بصورة واضحة أنها سوف تفقدهما في غضون سنوات قليلة ، وكانت تتمتع بوجه حي وذكي وذات عينين بنيتين وشعر بني ، مع نوع من الثقة المتفائلة والمرحة في نفسها ، وهو نوع الثقة الذي ينمو لدى الفتيات اللواتي تعودن على ركوب الخيل وتمضية العطلات في الريفيرا منذ أن كانت في السادسة من عمرها . وذكرتني فرانسيسكا كثيراً بروبي ، خطيبة أحد الأصدقاء من ليسستر ، التي سببت لي قلقاً شديداً في الأيام الأولى التي عرفت فيها دوروثي . واعترفت لي فرانسيسكا على الفور بأنها كتبت إلي لأنها أحبت صورتي أكثر من أنها أحبت كتابي . وخرجت معها لنشرب بعض الشاي ، ثم مشيت معها لتركب قطارها . والتقينا ثانية في اليوم التالي . لم تكن مخلصة أو بريئة أو متفانية مثلما كانت كارول آن ، ولم تقل لي : « إنك تروق لي كعاشق » ، وفي الحقيقة كانت قد قالت لي بالفعل عدة مرات إنها تنوي أن تظل عذراء

حتى تتزوج . ولكن هذه الكلمات كانت مناسبة صالحة لأن توضح حاجتها إلى قول ذلك في وضوح . أما بالنسبة لنفسي فقد وجدتها فتاة تبهر اللب وتأخذ الأبصار . ومن المحتمل أن تكون لديها الفرصة في خلال خمس سنوات لأن تتحول إلى فتاة من درجة « ا ١ » ساحقة الجمال . أما في هذه اللحظة فلم تكن غير تلميذة مبهورة أرادت أن تعيش قصة حب . وبدا لي أنه من السخف أن أتراجع أو أن ينهار كل شيء . ولم تكن لدي أية نية على التراجع ، خاصة إذا كان في امكاني أن أبعد عن أذنيها أو عينيها أي ذكر عن جوي أو تصور لها . وكنت أعرف أن هذه العلاقة ليست بالارتباط الذي يمكن أن يتطور إلى قصة حب .

وعدت إلى كورنوول وظللنا على اتصال مستمر . كانت حياتي ممتلئة تماماً ، أما حياتها فلم تكن كذلك . وليست هناك طريقة أكثر تأثيراً في الاسراع بقيام ارتباط أحسن من أن يوضع أحد الطرفين في موقف لا يجد أمامه ما يفعله فيه سوى أن يفكر في الطرف الآخر . وكانت تسألني في كل خطاب عن موعد ذهابي إلى لندن . وكنت أعنى بأن أتخلص من كل خطاباتها .

وفي المناسبة التالية التي كان علي فيها أن أذهب إلى لندن ، كانت لورا ديل ريفو مقيمة معنا في كورنوول ، وكانت حجرتها في لندن — وهي حجرة شغلتها أنا ذات مرة — مغلقة وخالية . فأعطتني المفتاح . وفي أول أمسية لي في لندن جاءت فرانسيسكا لكي تراني هناك . وبعد أن قبلتها لبضع دقائق ، تذكرت الجانب السيء الوحيد لاقامة علاقات حب مع الفتيات الصغيرات . فحينما يكون الرجل متزوجاً ، فإنه يتعود على الوصول إلى نقطة معينة في أثناء العناق ، يكون من الطبيعي له فيها أن يبدأ في خلع ملابسه ، فإذا كانت شريكته ما تزال بعيدة جداً عن مثل هذه النقطة ، فمن الممكن أن تكون النتيجة مخيبة للآمال . ووجدت

نفسي أتساءل عن المدى الذي تريد أن تصل اليه في المحافظة على براءة هذه العلاقة . ولم تكن بي حاجة للانزعاج ، فقد كان من الواضح أنها شعرت بأن أي نوع من الملاطفات يمكن أن يكون جزءاً من بند العناق فقط . وقد لاحظت معها ما كنت قد لاحظته بطريقة عابرة في بعض الأحيان : فإذا كانت الفتاة صغيرة وبريئة فإنها قد تغرق في حالة من المتعة الحسية الحالمة التي لا تضع حدوداً تتوقف عندها الملاطفات ، ولكنها لا تبذل أية محاولة لأن ترد عليها رداً ايجابياً من ناحيتها . إنها تكون ممتنة لما تحصل عليه من متعة ، ولكنها لا يطرأ على ذهنها أبداً أن امتنانها ينبغي أن يتخذ شكل التبادل والاستجابة ورد الفعل . ويعني الاحباط أو خيبة الأمل التي تقوى في نفس شريكها أنه منذ هذه اللحظة ، لن يكون أمامه سوى هدف واحد لنظرته : أن يشبع رغباته بنفسه في نفس اللحظة التي يشبع فيها رغباتها .

ورأيت فرانسيسكا في مناسبات عديدة بعد ذلك . وبمعنى ما ، فإنني كنت مبهوراً ومسحوراً بها أكثر مما بهرتني أو سحرتني أية فتاة أخرى ع فتها باستثناء جوي ، ولكنني كنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون هناك أي امتداد محتمل لهذه العلاقة . وكان المفروض أنها ستذهب إلى مدرسة سويسرية ختامية لمدة عام ، ثم تعمل في أحد بلاد القارة الأوروبية لمدة سنة أخرى . فكان من الواضح إذن أن القصة سوف تصل إلى نهايتها حينما ترحل ، سواء كانت العلاقة نفسها قد استهلكت أم لا .

وقبل أسبوع من ذهابها إلى سويسرا ذهبت أنا إلى لندن . وبدا عليها أنها قد قررت أن الوقت قد حان لكي تكف عن أن تكون عذراء . وأمضينا أكثر هذا الاسبوع معاً ، نذهب معاً إلى الحفلات ، ونزور الأصدقاء ، ونتناول الطعام ، ولكن هذه « النشاطات » لم تكن سوى فترات راحة متعبة . ففي كل فرصة ممكنة كنا نعود إلى الغرفة

وإلى الفراش . ثم رحلت بعد هذا . وفي البداية ، كانت الخطابات تصلني من المدرسة الختامية كل يومين ، كانت تقول إن المدرسة تسبب لها الضجر ، ولم يكن هناك سوى شاب جذاب واحد في صفها الدراسي ولكنه كان خجولاً . وبعد أسبوع أو نحوه قررت أن تفعل شيئاً لكي تخلصه من خجله . وبعد ذلك كفت عن ذكر الفتى في خطاباتها ، وأصبحت الخطابات نفسها متباعدة . وأدركت أنها قد وجدت ما يعوضها عني .

* * *

لم ترق لي ولا لجوي أبداً فكرة الاتيان بأطفال . وكانت هي قد قامت ذات مرة بالاشراف على دار للأطفال الصغار حيث كانت تقوم بإحدى عطلاتها أثناء دراستها في كلية ترينتي ، فلم تلاحظ على نفسها أي استثارة لدافع الأمومة لديها ، أما بالنسبة لي فقد كنت أرى ولدي حينما كنت أزور دوروثي من حين إلى حين في لندن . وكنت أجده صبياً صغيراً ممتعاً ، له كل ما للأولاد الصغار من اهتمامات صغيرة — نماذج السيارات والطائرات والبنادق . كنت مغرماً به تماماً ، ولكنني لم ألاحظ على نفسي أي دافع أبوي قوي .

وفي عام ١٩٥٩ ، وبعد انتقالنا من الكوخ وحصولنا على منزل قريب ، قررنا أنه ربما كان الوقت قد حان لكي نأتي بطفل . كنت في ذلك الحين في الثلاثين من عمري وكانت جوي في التاسعة والعشرين ؛ وقالت لي إنها أصبحت حاملاً بعد عيد الميلاد بوقت قصير ، وشعرت بالسعادة ، إذ عرفت أنها سوف تحصل على طفل ، ولكن سعادتي لم تكن كبيرة جداً . وكان المفروض أن يولد الطفل في شهر يوليو (تموز) أو في شهر أغسطس (آب) . وفي شهر يونية (حزيران) من العام التالي ذهبنا في رحلة إلى لينينجراد مع جون برين وعائلة بيتمان ،

وكانت الرحلة عاصفة في البحر ، وكانت جوي ميالة إلى أن تسأل إن كان الروس سوف يسمحون لها بالعودة بالطفل إلى انجلترا لو أنه ولد على الأرض الروسية . ومع ذلك فقد سارت كل الأمور على ما يرام . وكنا قد عدنا إلى انجلترا منذ بضعة أسابيع حينما ولد الطفل — وكانت بنتاً . ولست متأكداً مما إذا كان هذا قد راق لي أم لا ، لقد كانت لي أخت ، وكنت أعرف أن البنات متعبات أكثر من الأولاد . وذهبت إلى المستشفى لكي أرى الطفلة — وقررت جوي أن تسميها سالي — وبدت لي كما لو كانت نفس الشيء المعتاد الذي لا يمكن وصفه والذي يتميز دائماً بأنف صغير كنقطة العجين .

وفي اليوم الذي كان من المفروض فيه أن أذهب إلى المستشفى لكي أعود بجوي والطفل إلى البيت ، اتصلت بي صحيفة الديلي ميل لكي تسأل إن كان من الممكن تصوير الطفلة وأمها . وقلت لهم انني لا أرى سبباً يمنع من ذلك ، وقلت لهم إنني سوف أعود بهما حوالى منتصف النهار . ثم قدت السيارة لكي أعود بجوي . وأذكر أنني دهشت حينما قالت لي جوي : « ضعها في المقعد الخلفي » . وقد كان ضمير الغائبة العاقلة « Her » هو ما أدهشني ، فقد كنت ما زلت أفكر فيها ككائن غير عاقل أدعوه « It » . وفي الطريق إلى البيت ، تذكرت فجأة مصور الديلي ميل ، ودهشت حينما بدا الضيق على جوي عندما ذكرته لها . وكان المراسل الصحفي قد أكد لي أن الموضوع الذي سيكتبه لن يكون أكثر من قصة ذات « اهتمام منزلي » ، ومع هذا فقد انفجرت في البكاء وقالت إنني لم أفكر جيداً في المسألة . وحاولت أن أوضح لها أنني لم أصدق أنه كان ينوي أن يثير من جديد كل الفضيحة القديمة عن الضرب بسوط الخيل وما إلى ذلك —. وقالت لي وكيف عرفت ذلك ، فقلت لها إنني لم أعرف شيئاً . وكانت الحقيقة هي أنني لم أهتم بالأمر كل هذا الاهتمام . وانتهيت إلى الوصول إلى حالة من الغضب

الشديد ، وبأن قلت لها أن تصمت . ووصلنا إلى البيت صامتين ، وجوي تتطلع في عداء حول المنزل بحثاً عن سيارة المحقق الصحفي . ولكنهم كانوا متأخرين . كان اليوم مشمساً ، وكان المنزل مرتباً . وكانت جوي سعيدة بعودتها إلى البيت بعد أسبوعين من البقاء في مستشفى للولادة على شاطئ البحر . وأخذت الطفلة منها ، وجعلتها تتعرض لأشعة الشمس وضوئها ، مداعباً خدها الصغير باصبعي . فابتسمت ساللي ، وأخبرت جوي بذلك ولكنها قالت : « كلا ، انها أصغر من أن تبتسم . لا بد أنها الريح . » ولكنني كنت أعرف الابتسامة عندما أراها . وحينما داعبت خدها ثانية حصلت على ابتسامة أخرى . وفجأة أحسست بشعور غريب يطغى علي ، كما لو كان ذلك قد اجتاحني من قبل . ليس مع رودريك ، ولكن مع فتاة ما .

وحينما وصل الصحفيون بعد ساعة من ذلك ، كانت جوي قد أصبحت سعيدة وغير متوترة ، وكنت ما أزال أحمل الطفلة . وشرحت لهم أن جوي تفضل أن يبعدوها عن الموضوع . والتقطوا لي صورة وأنا أحمل ساللي ، ثم انصرفوا . وفي اليوم التالي احتلت الصورة غالبية مساحة الصفحة الأخيرة ، ولم يكن هناك أي ذكر لجوي أو لقصة الضرب بسوط الخيل .

ووجدت الأمر غير قابل للتصديق اطلاقاً . إن جاك تانر يسأل : « هل هناك قلب للأب يماثل قلب الأم ؟ » . ولم يكن شو جديراً بأن يطرح هذا السؤال لو أنه أنجب طفلاً مرة واحدة ، لأن الجواب واضح وضوحاً كافياً ، وهو بالايجاب ، نعم . كنت متحمساً حماساً وحشياً لابنتي ، وبدأت هي تستجيب لي على الفور تقريباً . كانت تبتسم منذ اللحظة التي جاءت فيها إلى البيت .

ولست واثقاً من زمن اللحظة التي بدأت فيها أتبين أن ساللي قد

بدأت بشكل ما تمتص وتنظم في داخلي كل اهتمام قديم لي بالفتيات الصغيرات . وحينما تطرأ لي هذه الفكرة ، فاني أراها واضحة دون حاجة إلى برهان . لقد كان موقفي تجاه سيلفيا موقفاً أبوياً يهدف إلى رعايتها وبسط حمايتي عليها ، وكان نفس هذا الموقف هو موقفي من دوروثي وجوي وكارول آن ودورين وفرانسيسكا . كان « السحر » هو الشيء الذي أعطينني إياه . وأنا أعتقد – وأعرب هنا عن فكرتي بأقل درجة من التواضع – أن هذه كانت هي استجابة الانثى الوالهة المحبة للذكر . لقد كان لاعجاب جوي غير النقدي تأثير مؤداه تأكيد وتدعيم تصميمي على النجاح ككاتب ، لقد آمنت بي ، وكان علي أن أبرهن على أن ايمانها كان في موضعه الصحيح . ولقد كنت دائماً بالغ الصبر من الناحية الجنسية لأنني لم أكن أمارس أو أشعر باحساس الذكر العادي بالرغبة في اغتصاب الأنثى – باستثناء ما حدث في حالة دوروثي إلى حدّ ما ، ويكاد يكون من الممكن أن يقال إن الجنس لم يكن بكل هذه الأهمية . ولقد اعتاد بيل أن يصف النوع البريء من الفتيات اللواتي كنت أجدهن ذوات جاذبية قوية ، اعتاد أن يصفهن بعبارة « مضيعات الوقت الصغيرات » – ولست واثقاً تماماً من السبب في هذا ، ولكن هذه العبارة كانت تبدو لنا معاً عبارة مضحكة ، واعتدنا دائماً أن نشير إلى « مضيعات الوقت الصغيرات » . وكانت سالي هي النموذج المثالي لمضيعة الوقت الصغيرة . لقد أعربت لي عن ولهها وحبها غير النقدي مطلقاً ، وقدمت قبلاتها التي لا نهاية لها وملاطفاتها ، وكان معنى الاحساس الكلي بالاحتياج إلى الرعاية والحماية الذي أثارته داخلي ، كان معنى هذا الاحساس أنه لا توجد فتاة أخرى تستطيع أن تنافسها فيه . ولم يحدث أبداً أن أردت إيذاء جوي ، ولكنني كنت قادراً أحياناً على إيلامها لأنني كنت أشعر بأنها – في التحليل الأخير – قادرة على العناية بنفسها . لقد كان إحساسي بوجوب حمايتها

قوياً ، ولكنه لم يكن كاملاً .

وقد طرأت لي رؤية داخلية هامة وممتعة في عام ١٩٦٣ ، حينما تعاطيت بعض المسكالين (المخدر المكسيكي) . وقد وصفت هـذه التجربة بشيء من التفصيل في كتابي « ما بعد اللامنتمي » ، وقد كان هذا الوصف دقيقاً دقة كاملة على قدر ما تطلب الأمر ذلك حينئذ . ولكنني في تلك المرة أهملت تفصيلاً واحداً . لقد جعلني المسكالين مجهداً بصور غريبة ، ولكنه تركني ممتلئاً بنوع من اليقين في نوع من الخير الكوني . كان هناك إحساس شبيه بدغدغة الموجة ، كما لو كنت قطعة صغيرة تداعبها يد هائلة ، أو كما لو كانت مياه بحر هادئة تهدهد مرقدي . وقد كان ذلك الخير الكوني بصورة ما وبشكل أساسي ، أنثوياً . ولقد حدث لي أن قابلت ماريلين مونرو في مناسبتين ، وقد بدت لي على الفور إلى جانب شخصيتها ، كما لو كانت تجسيداً آخر لنموذجي المثالي الخاص عن الشقراء البريئة ، لقد أثارت في من فورها ذلك الإحساس الأبوي الساعي إلى بسط الحماية ، وانطبع في ذهني حينئذ أنها عرفت ما أشعر به بغريزتها وانها استجابت لذلك الشعور ، فقد كانت الشوكة الرنانة ترتعش ثانية ويصدر عنها رنينها . وذات مرة ، حينما كنا نغادر مسرح الرويال كورت من الباب الخلفي لكي نتجنب حشداً من الصحفيين ، أمسكت يدها بيدي بطريقة أوتوماتيكية تماماً ، رغم أن زوجها — آرثر ميللر — إلى جانبها من الناحية الأخرى. ثم حدث تحت تأثير المسكالين ، أن تملكتني صورة ماريلين مونرو ، وأيضاً صورة زوجة أحد أصدقائي ، وهو الفيلسوف د . ت . مورفي ، وقد كانت ليندا مورفي تتمتع بنفس هذه النظرة التي تنم عن « الاحتياج إلى الرعاية والحماية » . وظلت عبارة سخيفة خالية من المعنى عـن شخص يدعى بيجلي وبجلي تطوف برأسي . ولم يكن هذا نوعاً من أنواع السير حالماً أثناء النوم ، وإنما كان إدراكاً أو تصوراً بالـغ

الوضوح لشيء ما . وقد عبرت عن هذا الإدراك في الملحق الذي كتبته عن المسكالين بأن قلت إن الغرض من وجود الرجال هو أن يكونوا شرطة الكون . ففي شكل غائم وغامض ما ، ان جوهر الكون هو بصورة ما جوهر أنثوي — دافئ وغامض ومحب ولا سبيل لتغيره وهو لا يتغير ، أما عمل الرجل فهو أن يطور الحذر وأن ينمي اليقظة والدقة وبعد النظر ، وكل الملكات التي تحقق الحماية والرعاية . وقد دخلت سالي إلى الحجرة حينما كنت تحت تأثير المسكالين ، وكان من الواضح الذي لا يحتاج إلى برهان أنها كانت تجسيداً لذلك المبدأ الأنثوي الأول ، تماماً مثلما كانت جوي ، وأن تلك الجاذبية السحرية القاهرة التي كانت بعض الفتيات يمارسنها علي دائماً — وكنت أنا أمارسها عليهن — يمكن أن تفسّر من خلال هذه « الأنوثة الأبدية ewig Weibliche » ، الأم الأبوية ، والزوجة الأبدية عند راما — كريشنا .

لن أسرف في المبالغة فأقول إن اهتمامي بـ « مضيعات الوقت الصغيرات » قد اختفى وتلاشى تماماً مع وصول سالي ، ولكن هذا الاهتمام أصبح أكثر ضعفاً إلى درجة كبيرة . فإذ كنت ألقي بعض المحاضرات في أمريكا في عام ١٩٦١ ، فقد كنت أنجذب بقوة إلى بعض الفتيات من نوع معين . ولكنني كنت أعرف في ذلك الحين أن هذا الانجذاب ليس إحساساً جنسياً بشكل أساسي . أو قد يكون من الأكثر بساطة أن أقلب الآية وأقول — وإن كان هذا القول يبدو سخيفاً — إن هذا الاحساس لم يكن أكثر جنسية من إحساسي بسالي . ذلك أنه كان من الواضح تماماً ان استجابة سالي الحسية نحوي كانت نوعاً من استجابة الانثى للذكر ، لقد كنت والدها ، وكنت أيضاً بمعنى من المعاني ، حبيبها ، وكانت تستجيب لي بنفس الطريقة تماماً التي تستجيب لي بها أمها ، جوي . وأصبح بوسعي الآن أن أدرك السبب

الذي كان يجعل هيمنجواي يدعو من كان يغرم بها من النساء بكلمة « يا ابنتي » . وحينما أصبحت « كاتباً زائراً » ومدعواً للاقامة في كلية للفتيات في ولاية فيرجينيا في عام ١٩٦٦ . تساءلت عما إذا كنت سأشعر بالارهاق النفسي إذا أصبحت موجوداً وسط كل هؤلاء الفتيات المراهقات . ولكن هذا لم يحدث ولم أشعر بذلك الارهاق . لقد استجبت لهم بالتأكيد ، ولكن ربما لا يصح أن أصف هذه الاستجابة بأنها استجابة جنسية . وقد كان من المحتم أن تكون هناك فتيات استجبن لي أيضاً مثلما استجابت لي كارول آن ودورين : وربما كانت الاستجابة أكثر عمقاً ، طالما أن الأستاذ يتخذ معنى شخصية الأب . والفتيات في سن الثامنة عشرة ما يزلن يبحثن عن شخصية الأب متمثلة في شخص آخر . لقد عرفت الكثير من الحالات التي أغوى فيها المعلمون تلميذاتهم الصغيرات . وهذه الحالة تحدث بنسبة أكبر من النسبة المعترف بها في العادة . وأستطيع أن أقول إن شخصية الذكر في مثل هذه الحالة ظلت أسيرة لمستوى بدائي معين ، وهو المستوى العدواني الذي لا يعبر عن أي إحساس بالحماية أو الرعاية . وقد يكون على المرء أن يقول إن هذه الحالة ما تزال تتضمن العنصر الأنثوي . ولكنه سيكون من المستحيل — أو على الأقل من قبيل الصعوبة البالغة — أن نتخيل أن استجابة هذا الذكر لثقة الانثى وإعجابها بسبيل أن تتحول إلى نوع خاص من الدافع الجنسي . إن الموافقة على قبول ما يمكن أن تقدمه مثل هـــذه الفتاة إنما تعني توقيع عقد تتحول بمقتضاه شخصية الرجل ومسؤوليته إلى القبول بدور شخصية الوالد الزوج . أما تقبل العطايا الجنسية التي يمكن أن تقدمها فتاة ما دون العزم على الوفاء بالتزامات الرجل التي ينص عليها العقد ، فسوف يكون نوعاً من الخداع .

* * *

وقد اعتاد بيل هوبكينز أن يرسم لنفسه صورة فكاهية في سن الثمانية والتسعين ، يظهر فيها وهو ما يزال يركض بحماس وراء التلميذات الجميلات ركضاً عاجزاً وهو يتمتم بكلمات الغزل والاعجاب . وكانت له أيضاً عبارة ممتعة يصف بها الذكر الذي يفكر فجأة في احتمال حدوث عملية الاغواء فكان يقول : « ها هو يرتدي من جديد بنطلونه المصنوع من الفراء » ، وكان يقصد بهذا شخصية الساتير الخرافية المكونة من نصف رجل علوي ونصف حصان سفلي ، وكان يجد في هذه الشخصية امكانيات فكاهية هائلة . وأنا أشك في أن أي ذكر يستمر تطوره ونموه إلى ما بعد سن الواحدة والعشرين ، وأنا أعتقد أن هؤلاء يكونون أقلية قليلة بين الرجال . إنما يفقد ببطء كل ميل لأن «يعيد ارتداء بنطلونه المصنوع من الفراء» .

في شخصية الفنان ، يتخذ هذا التطور والنمو شكل الرفض التدريجي للاتجاه الرومانتيكي والأنثوي نحو التراجع ونحو الابتعاد عن المصاعب والهروب من المشاكل . إنه يكتسب ميلاً متزايداً نحو الاستعداد لتحمل مسؤولية مثل هذه المواقف .

وأنا أعرف أن سيلفيا كانت نقطة تحول هامة في حياتي الخاصة . وحتى لحظة حلول هذه النقطة ، كنت أشعر بنوع غامض من رفض الحياة واحتقارها ، وهو إحساس حملني بمسؤولية الشعور بأنها حياة غير مشبعة . وكانت سيلفيا هي بداية الاحساس بالمسؤولية . ولكن الحقيقة هي أن بذور هذه المسؤولية كانت موجودة بداخلي طوال حياتي ، لقد شعرت بأنني مسؤول عن أخي باري ، بل وشعرت بأنني مسؤول عن أمي إلى حد ما . ولكن نزعة « العاصفة والاندفاع » الرومانتيكية في سنوات مراهقتي قضت على هذا الموقف بالتدريج حتى تلاشى .

وأستطيع الآن أن أتذكر بوضوح مناسبتين أدركت فيهما فجأة أنه

كان علي أن أختار بين المسؤولية أو النكوص . وعرفت فيهما هذا النوع من الاختيـــار . وكانت إحـــدى المناسبتين في ليستر حينما عرفت جوي لأول مرة . كانت زميلة جوي في السكن في الشقة التي كان علي أن أنظفها وأزينها ، فتاة كنت أبادلها بعض المغازلات في محل لويس . وكانت مرتبطة بخطبة وقد اقترب موعد زواجها ، ولكنني كنت أعرف أنها لم تكن سعيدة سعادة كاملة بهذا الزواج . وكنت قد دعوت مجموعة من الأصدقاء إلى الشقة للاحتفال في اليوم الذي كان من المفروض أن تنتقل فيه جوي وجون إلى الشقة الجديدة . وحينما اكتشفت جون أنني كنت أنام مع جوي ، بدا عليها النفور فجأة — ومن المحتمل أنها قد أقنعت نفسها بأنها قد صدمت إزاء لاأخلاقيتنا . ووصلت قبل موعد الحفلة ، ولكن جون أعلنت أنها ترفض أن تسمح لنا بأن نقيم حفلة في شقتها . وبدأ الأصدقاء في الوصول . وكان بينهم موريس وفريدا ، وجون كراب الذي كان قد جاء بالجراموفون الخاص به وحمل معه كومة كبيرة من الاسطوانات الموسيقية . وبذلت محاولة أخيرة لاقناع جون ، ولكنها رفضت ذلك بصراحة . وشعرت بالغضب والسخط إزاءها ، كما شعرت بالنفور والامتعاض من الموقف كله ، ورأيت ما أغراني بالانسحاب متسللاً من الشقة والحفلة جميعاً . ولكنني قررت أن من الأفضل أن أفعل شيئاً في الموقف ، وهكذا فقد تظاهرت بالمرح والابتهاج ، ووقفت فوق أحد المقاعد ، وأعلنت أن جون تشعر بشيء من التوعك وأن الأفضل أن ننتقل إلى الحانة القريبة . ونظر الجميع إلى الأمر نظرة طيبة وأمضينا أمسية جميلة ، انتهت بعملية تسلق برج الكنيسة التي وصفتها من قبل .

وكانت المناسبة التالية بعد عدة شهور في لندن . فقد كان أحـــد أقرب أصدقائي من بين الفوضويين رجلاً عاطفياً ومخلصاً ، وكان ضئيل الحجم من مقاطعة ويلز وكان يدعى موري إدج هيل . وكان قد كتب

جزءاً من النسخة الأصلية من « استعراض القرن العشرين » قبل أن تتخلى جماعة الفوضويين عن الفكرة نهائياً . وحينما ذهبت إلى فرنسا فقدت كل اتصال به . ولكن بعد أن عدت إلى لندن ، بعد سنة كاملة ، أعطاني أحد الفوضويين عنوانه وذهبت مع جوي لكي نراه . ولكنه كان خارج منزله مع الفتاة التي تسكن معه . وقالت لنا صاحبة المنزل الذي يسكن فيه أن ندخل لكي ننتظره — فقد كان من المتوقع أن يعود سريعاً . ودخلنا حجرة واسعة ، وبعد خمس دقائق ، جاء موري ومعه سيلفيا . ووقفت مرحباً به وقلت : « أهلاً يا موري ، كم هو جميل أن أراك ! » . ولشدة دهشتي أخذ موري يحدق في وجهي بصرامة ، وفقد وجهه لونه ثم صرخ قائلاً : « أخرج من هنا يا ويلسون ! » ، وبهتّ أنا ولم أستطع النطق . وقلت بعد قليل : « لماذا ؟ » . وعبر الحجرة نحوي ، وهو يتنفس بقوة ويقول ببطء شديد : « هل — ستخرج — من — حجرتي — أم — لا ؟ » ، واتجهت إلى صديقته ولكنها هزت كتفيها . ومرة أخرى كان موقفي يميل إلى أن أهز أنا الآخر كتفي ، وآخذ جوي لننصرف ، فقد كان من الواضح أن أية محاولات أخرى لاستيضاح الموقف كانت ستلقى نفس الاستجابة . ولكن أدهشني مقدار الغضب الذي قد أشعر به فيما بعد إذا خرجت بهذا الهدوء . وأجبرت نفسي ، عامداً ، على اتخاذ خطة أخرى ، فانفجرت ضاحكاً ، واتخذت شخصية جاك تانر ، وقلت : « بالطبع سوف أنصرف ، إذا شرحت لي أنت لماذا تتصرف معي بهذه الطريقة غير العادية . إنني لم أرك منذ سنة كاملة ، وكنا قد افترقنا ونحن على علاقة طيبة . وها أنت تتصرف الآن كما لو كنت أمسكت بي وأنا أسرق طعامك . وضح موقفك وأعدك بأنني سوف أنصرف على الفور . » ورحت أقول كلاماً كثيراً في نفس الاتجاه حتى بدأ هو يتكلم بصرامة قائلاً بعد ان استراح فجأة : « لماذا لم تتصل بي لعام كامل ؟ » . كان من الواضح أنه كان

قد فكر في الموضوع بمفرده طويلاً ، حتى دفع بنفسه إلى حالة تجعله يعتبرني شبيهاً بيهوذا . وشرحت له أنني لم أكن أعرف عنوانه ، وأنني كنت في فرنسا على أي حال . وأصبح من الواضح أنه أخذ يشعر بالخجل من نفسه . وهكذا فقد انتهزت الفرصة لكي أقول له أن يعيد التفكير في موقفه ، وانصرفت . ومرة أخرى كنت أعي أنني أواجه لحظة اختيار حيث كان بوسعي أن أنكص هارباً أو أن أستخدم المزيد من طاقاتي لكي أتحمل الموقف .

وقد لاحظت أن هذا الاتجاه يمكن أن يسيطر حتى على مستوى الأحلام . ففي طفولتي كنت أحلم مثلاً بأنني أسير في دهليز طويل مظلم ويقبض على أنفاسي خوف ما ، ثم أفتح باباً فأجد نفسي أمام كائن مفزع في صورة فرانكشتاين . وفي هذه اللحظة كنت أستيقظ دائماً . وما زلت حتى الآن أرى بعض الكوابيس إذا نمت على ظهري ، ولكنني أتوقف عن الصراخ عند لحظة معينة وأستيقظ على الفور . وقد يحدث أن أندفع بجسدي نحو الكائن الشبيه بفرانكشتاين فيتراجع الشبح ، ثم أستيقظ بعد هذا ، أو أستمر في النوم . وفي الليلة الماضية ، حلمت بأنني في سيارة مع صديق يقودها بنفسه ، ومعنا شخصان آخران ، والسيارة تشبه سيارة نقل صغيرة للمناطق الوعرة ، ولا سقف لها ، وتسير فوق أرض شديدة الوعورة . وكان الصديق يقود السيارة بسرعة كبيرة ، وفجأة ينحرف بالسيارة انحرافاً قوياً لكي يتجنب عائقاً ما ، فتجري العجلات تحت الجانب الذي أجلس أنا فيه من السيارة فوق حافة صدع أرضي عميق . وربما كان من الطبيعي أن تكون هذه هي اللحظة التي أستيقظ فيها . ولكنني في الحلم ، قفزت واقفاً على قدمي ، وملت إلى الخلف نحو مقعد السائق لكي أحاول استعادة توازن السيارة ، وترنحت السيارة قليلاً ثم صححت وضعها المستقيم . واستمر الحلم بعد هذا لبعض الوقت ، ولكنني استطعت أن أتذكره بوضوح بعد أن

استيقظت . ومن الواضح أن هذا الحلم شكل رمزي لنفس هذه اللحظة التي تملي اتخاذ قرار مسؤول . ومن الطبيعي أنه قد يكون من المستحيل ، وربما من غير المرغوب فيه . أن يظل المرء مسؤولاً على الدوام . لأن المسؤولية تعني استمرار الارتباط بشيء محدد بدلاً من التحرر منه ، وهناك لحظات يصبح من الأفضل فيها أن يتحرر المرء من ارتباطه . تشبه اللحظة التي يلعن فيها المرء ويسب « اللاشيء » لأنـــه خبط اصبعه خبطة مؤلمة . إن المسؤولية لا تكون هامة حقاً إلا في الأمور التي تتضمن الحكم على ما يستحق أن يفعل . أو ما يستأهل الفعل .

إن هذا السؤال عما يستأهل الفعل هو الجذر الحقيقي للأمر كله . إنني قد أرفض المسؤولية – إذا راق لي ذلك – باعتبارها شيئاً مضجراً يحاول المجتمع أن يفرضه علي رغماً عني . وسيكون الأثر الفوري لذلك الرفض هو التحرر من التوتر . وعمق متزايد للحياة – وهذا هو ما عناه كيركجارد بقوله : « الحقيقة هي الذاتية » . ولكنني إذا تعودت على أن أنظر إلى « مناخي » العاطفي الداخلي الخاص باعتباره الحقيقة دائماً . فسوف أكون ضحية لتغيرات الطقس في هذا المناخ . وحينما تهبط بعض سحب الضباب الثقيلة . أو حينما أقع في قبضة بعض العواطف التافهة . فسوف تبدو الحياة فاقدة كل معنى على الاطلاق . ولن يكون أمامي أو لدي ما أرتبط به أو أطمح اليه أو أستجيب له . وكل محاولات الانتحار أو جرائم القتل إنمـــا هي النتيجة النهائية لفكرة النظر إلى الحقيقة باعتبارها هي الذاتية . أو بالأحرى . إنمـــا هي النتيجة النهائية للميل الإنساني الغريزي إلى اعتبار الحقيقة هي الذاتية . وأعظم دراسة في الأدب لهذه المشكلة إنما تبدو من خلال شخصية ستافروجين في رواية دستويفسكي : « الممسوس » .

* * *

بعد خمس سنوات من مولد سيللي ، وضعت جوي ابناً جديداً ، جون دامون – الذي أسميناه باسم اشبينه فوستر دامون ، دارس بليك الكبير . وحينما أنبأني المستشفى بأن المولود جاء ذكراً . شعرت للحظة ببعض التعاسة . فطبقاً لنظريتي عن الطبيعة الأنثوية للكون ، فإن الابن جدير بأن يكون أقل أهمية بالنسبة لي من الابنة . ولكنني تبينت أن الأمر لم يكن كذلك حالما وصل الطفل إلى المنزل . ولم يكن الأمر كذلك لأن الاختلاف بين المبدأ الذكري والمبدأ الأنثوي في الكون ليس هو عين الاختلاف بين جسم الذكر وجسم الأنثى ، وإنما هو اختلاف بين طريقتين في النظر الى الكون . وحينما يحدث في نهاية مسرحية شو « كانديدا » أن يخرج الشاعر وحيداً في الليل ، بعد أن تعلم أن « يعيش دون حب » كان قد كف عن أن يكون أنثوياً في غالب تكوينه، أي كان قد تخلص من ارتعاشة الرومانتيكي وانطلق في اتجاه الذكورة . وهذا ما يفسر أيضاً لماذا يصبح الشذوذ الجنسي ممكناً : إنه بصورة أساسية الموقف العقلي للأنثى . إذ يصبح العقل مستعداً للتراجع والنكوص ، وللاستسلام ، ولأن يتفرج بدلاً من أن يشارك .

وأنا أشك في أن المفتاح الأساسي لطبيعتي هو الاحتياج إلى منح العواطف للآخرين . لم تكن المتعة التي حصلت عليها من كارول آن أو من فرانسيسكا متعة جنسية بالدرجة الأولى ، لقد كانت متعة عاطفية. وقد عرّف دستويفسكي الجحيم ذات مرة باعتباره العجز عن الحب ، والعكس صحيح أيضاً ، فالبشر يقتربون من كمال طبيعتهم ومن استكمال تحققها بالقدرة على الحب . وألاحظ أن المتعة التي أحصل عليها من ابني أو من بنتي هي « بالتحديد » نفس المتعة التي أحصل عليها من قصة حب . وإذا لم أكن الآن – كما كنت في الماضي – أتصرف انطلاقاً من ذلك الاهتمام الضاري الشبيه باهتمام الجوارح بفرائسها ، في علاقتي بالفتيات الصغيرات الجميلات ، فإن هذا لا يرجع إلى أنني أفشل

في أن أتصرف إزاءهن تماماً على أساس المستوى الجنسي . إنني لا أزال أستجيب للفتيات الجميلات كما كنت أستجيب في العادة لقطع الشوكولاتة المحشوة بالكريم في طفولتي ، ولكنني لم أعد أملك الكثير من العواطف التي يمكن أن أستغني عنها . إنني ما زلت أشعر بالاحتياج الملح إلى أن أعانق أسرتي وأقبل أفرادها عدة مرات كل يوم . وفي اليوم الماضي . شرخت ضلعاً من أضلاع جوي حينما عانقتها بمزيد من الحماسة المفرطة .

إن البشر يملكون القدرة على تقدير الأنواع المختلفة من الجمال : جمال الموسيقى ، والبحيرات ، والجبال . والسيارات المسرعـة . والرياضيات والعلوم ، واتساع الخلاء الشاسع ، والأزمنة السحيقة من التاريخ . والأطفال السعداء ، والطعام والنبيذ الجيدين . والناس الآخرين ذوي الجاذبية . وإن أكثر الأشخاص تحققاً وامتلاء هو ذلك الذي استطاع – بإرادته – أن يغرس في نفسه حب أكثر ما يستطيع من هذه الأشياء . إنها كلها بوارق لامعة من صورة الإله . وبرهان على ما استطاع الإنسان أن يتقدم إلى ما وراء الأميبة . وإن حب هـذه الأشياء هو ما يحتوي على الزمن وهو الذي يضمر في قلبه الزمن الذي سيقهر فيه الإنسان الموت . إن المهمة الرئيسية هي التخلص من كل نوع من أنواع ضيق الأفق والتزمت . وليس ما علينا فقط أن نحافظ على تفتح أبواب الادراك وخلوها من العوائق . وإنما يجب أيضاً أن نحافظ على « تزييت » تركيباتها حتى يمكن أن تنفتح بسهولة في كل صباح من أيام الربيع لكي تسمح للضوء والهواء بالدخول لكي تنقذنا من غباء أحكامنا الضيقة .

في ذات صباح . وحينما كانت سالي ما تزال صغيرة جداً . تلقيت خطاباً من ناشر كتبي يقول فيه إنني أكتب كثيراً جداً ، وأن هـذا يمكن أن يبخس من قيمة أعمالي وأن يدمر شهرتي ، وأن علي أن أكف عن الكتابة لبضعة سنوات وأن أتولى وظيفة ما . وجلست في

مكاني في حالة من الكآبة العميقة ، أتخيل اليوم الذي لن يقرأ فيه أحد كتبي . فكرت في جورج بورو وفي ميشيل آرلين وفي أشخاص كثيرين عانوا من هذا المصير ، وكنت قد استسلمت لحالة من الانقباض الشديد حينما سمعت سالي وهي تضحك في الغرفة المجاورة . واختفى الكابوس كله ، وبدا لي كما لو كانت الشمس قد أشرقت .

يجعلنا الأطفال ندرك أن الكون لا يتحرك بصورة كلية على أساس القوانين المادية وحدها . وحينما كانت سالي ما تزال رضيعة صغيرة ، كنت أستطيع أن أوقظها في منتصف الليل من نومها إذا فكرت فيها . وحينما كان دامون رضيعاً صغيراً ، لم يكن علي لكي أوقظه سوى أن أنظر اليه وهو مستغرق في النوم في مهده الصغير – حتى ولو كان في الحديقة ونظرت إليه من إحدى النوافذ . فإذا راقبنا الأطفال وهم يتعلمون فسوف نكتشف أن هذه العملية ليست مجرد عملية ميكانيكية يمكن أن يصفها عالم من العلماء ، وإنما سنكتشف أن نوعاً من أنواع التليباثي يدخل فيها أيضاً . إن اقتناعي يتزايد بأن القوانين التي يعمل الكون وفقاً لها هي ما كان جوته جديراً بأن يدعوها قوانين « روحية » أكثر منها قوانين مادية ، وأن عقولنا ليست مجرد نوع من المتفرجين ، مهددين في بحر من المادة ، ولكنهم بطريقة ما يسيطرون على الكون من حولهم . وإنني ما أزال في بداية فهمي لبعض من تلك القوانين الغريبة .

الفَصْلُ الرابع عَشَر

أمريكا

في عام ١٩٦١ ، ذهبت في رحلة إلى أمريكا لالقاء بعض المحاضرات . ولست واثقاً مما كنت أتوقعه ، ولكن الشيء الذي لم أكن أتوقعه بالتأكيد هو أن أجد أمريكا شبيهة بانجلترا إلى هذا الحد . لم يكن هناك أي احساس بأنني في بلد أجنبي ، شعرت بالراحة والتكيف على الفور كما لو لم أكن قد ذهبت إلى أبعد من أيرلندا .

كان كتاب جون برينين عن دايلان توماس قد نشر فكرة أن القيام برحلة محاضرات في أمريكا عمل مثير ومليء بالبريق والمتعة : فالحفلات لا تنتهي ، ومقابلات مع نجوم السينما ، وأمسيات ممتعة في جرينوتش فيليج . وطبقاً لما قاله توماس ، فإنه في كل مرة يفرد المرء فيها يده ، فإن شخصاً سيضع له فيها كأساً من الويسكي ، وفي كل مرة خلع فيها بنطلونه ، وجد فيها فتاة ترقد في فراشه .

وليس هذا صحيحاً . من المؤكد أن هناك ما يكفي من الشرب إذا كنت تريده ، ولكن إذا قبلت حتى نصف ما يعرض عليك من الخمر فان الرحلة سوف تنتهي على الفور . (لقد ذهب نيجلي فارسون في رحلة محاضرات إلى امريكا في عام ١٩٣٧ ، ولكنه حتى لم يبدأ محاضراته ،

لأنه ظل مخموراً في نيويورك منذ لحظة وصوله) . أما بالنسبة للجنس ، فانك نادراً ما تبقى في كلية واحدة لأكثر من يوم واحد ، والفتيات الأميركيات ، في معظمهن ، أكثر تحفظاً من الانجليزيات من الناحية الجنسية .

وفي تلك الجولة الأولى ، كنت ألقي محاضراتي تحت رعاية معهد الفنون المعاصرة في واشينجتون — حيث كان دايلان توماس معروفاً جيداً . ومن الناحية المالية ، فان هذه الجولة ليست مجزية بشكل خاص . كان معهد الفنون المعاصرة قد ضمن لي مبلغاً كلياً يصل إلى خمسة آلاف دولار في جولة تستمر عشرة أسابيع . ومن هذا المبلغ كان علي أن أدفع تكاليف سفري عبر الأطلنطي ، وتكاليف وسائل الراحة في الفنادق في الولايات المتحدة . فمن الواضح إذن أن نصف الخمسة آلاف دولار قد أنفق على التكاليف . ولكنني اكتشفت أن العمل الذي قمت به لقاء مائتين وخمسين دولاراً في الأسبوع كان أكثر مشقة وصعوبة من أي عمل آخر قمت به في المصانع .

وكان خبير ضريبة الدخل الذي استشرته قد قال لي إنه كلما زادت النقود التي أنفقها في أمريكا ، كلما قلّت الضريبة التي أدفعها . وهكذا ، ففي أول صباح لي في واشينجتون سألت كاتب الفندق أين يمكنني أن أجد أقرب محل للاسطوانات الموسيقية ، فقال لي إنه عبر الشارع مباشرة ، وأنه أكبر محل لبيع الاسطوانات في واشينجتون . وذهبت ماشياً إلى شارع كونيكتكت آفنيو إلى محل « ديسك شوب » واشتريت قائمة كاملة من قوائم تسجيلات تشوان . وقفلت راجعاً إلى الفندق ، ونظرت إلى القائمة . وسال لعابي . كانت القائمة تضم التسجيلات التي تمنيت الحصول عليها لمدة سنوات طويلة . ففي هذه الفترة كانت القائمة الانجليزية تميل إلى أن تكون محافظة — كانت تضم الكثير من أعمال بيتهوفن وموتسارت . ولكنها لا تضم الكثير من أعمال أي

موسيقار آخر . فقد كنت على سبيل المثال أحب بروكنر وماهلر ، ولم يكن لكل منهما في القائمة الانجليزية سوى سيمفونيتين . أما في قائمة تشوان فقد كانت هناك سبعة سيمفونيات أو ثمانية لكل منهما ، كما كانت تضم مجموعــة نادرة من مقطوعات هاندل الدينية Oratorios (وكان هذا جانباً من الذوق الذي ورثته عن صامويل بطلر عن طريق شو) ومجموعة من الأوبرات لمؤلفين موسيقيين لم أسمع بهم من قبل ، وسيمفونيات من أعمال تشو سون ولالو وبورودين كنت دائماً قد أردت أن أسمعها . ووضعت علامة الصليب على القائمة أمام كل أسطوانة أردت شراءها ثم أخذتها مرة ثانية إلى المحل . وفي هذه المرة ، أخذ القائمة مني رجل لطيف له ذقن مربعة ولكنة تكساسية ، فأتسعت عيناه عندما رأى كمية ما أطلبه . وقدم إلي نفسه باسم دان نزبجر ، مالك المحل . وحينما سمع أنني كاتب ، وأنني ألفت كتاباً عن الدين ، فقد اهتمامه بطلبي واندفع في مناقشة حول الفلسفة التلمودية والفلسفة القبلانية الصوفية ، فقد كان يهودياً . وانتهت المناقشة بأن دعاني للذهاب إلى منزله لتناول العشاء . وكانت هذه بداية صداقة جعلتني فيما بعد أهدي اليه اثنين من كتبي . لقد كان هذا الرجل نموذجاً لما أحببته أكثر من أي شيء غيره في الامريكيين – لتمتعه بذلك الدفء والصراحة المباشرين ، وبمستوى رفيع من الاهتمام بالأفكار ، وبنوع من الثقة السهلة بالآخرين جعلتني دائماً أتساءل عن كيفية نجاحهم – رغم وجودها – في الأعمال التجارية . وقد اهتممت اهتماماً بالغاً بتفسيره للديانة اليهودية ، حتى أنني ذهبت معه إلى الصلاة اليهودية في المعبد المحلي الذي يؤدي فيه صلاته وكنت أرتدي قلنسوة ضيقة على الطراز اليهودي التقليدي ، ووجدت أن هذا المعبد اليهودي أكثر امتاعاً واثارة للاهتمام بكثير من أي كنيسة مسيحية زرتها في طفولتي .

وكان الاغراء العظيم الثاني هو الكتب . وما تزال غالبية المــدن

الأمريكية الصغيرة تملك محلاً أو صالة لبيع الكتب المستعملة في السوق المحلية . وبوجه عام فان انتاج الكتب الامريكية يتمتع بمستوى أرفع بكثير من مستوى الانتاج الانجليزي . إنهم يقومون بأعمال من مثل نشر كل أعمال أفلاطون في مجلد واحد ، وكل أعمال بروست في مجلدين (وفي انجلترا[1] ما زال عليك أن تشتري أعمال بروست في اثني عشر مجلداً) وغالبية أعمال أكويناس في مجلدين . وتعودت أن أعود مترنحاً إلى غرفتي في الفندق حاملاً صندوقاً كبيراً من الورق المقوى ممتلئاً بالكتب ثم أفردها جميعاً فوق الفراش وأرمقها وأنا أتنهد براحة عميقة . وقد كان علي أن أضعها في لفافة كبيرة ثم أرسلها بالبريد إلى انجلترا في الصباح التالي ، أو على الأقل قبل موعد رحيلي . ولكن الكتب كانت تستحق هذا المجهود .

وكان العمل شاقاً . ولكني وجدت أنني محاضر جيد ، أتحدث بسهولة وطلاقة ودون الاعتماد على أي مذكرات . وكان الأساتذة يتقربون مني بعد محاضرتي ويقولون : « ترى ، أتستطيع أن تتحدث إلى أعضاء ندوتي الانجليزية في الثامنة من صباح الغد ؟ » . وسرعان ما تصبح كل لحظة من لحظات إقامتي مشغولة بالندوات غير الرسمية ومواعيد الغداء والحفلات . وفي أثناء جولة محاضراتي الأولى ، كان من المعتاد أن أقضي عدة أيام في كل موقع ، تصل أحياناً إلى الأسبوع . وكان منظم جولتي ، روبرت ريتشمان ، قد قال لي إن هذا النظام سيكون أكثر راحة وهدوءاً بكثير من نوع الجولات التي تنظمها وكالات المحاضرات التجارية ، وهي الجولات التي تضم أربعة مواقع أو خمسة في كل أسبوع . وفي الحقيقة فإن الاقامة لمدة أسبوع كامل في كل موقع كانت تعني أن يصبح لديك الوقت الكافي لتحقيق ارتباطات لانهائية مع عدد كبير من الناس ، وأنه لن يكون هناك سوى وقت محدود تعيش فيه بمفردك أو تتحرك بحرية . فكنت أهرع في عجلة لكي ألحق

بالطائرة إلى المكان التالي لتوقفي في صبيحة يوم الأحد . وبعد ساعات قليلة ، كنت أجد في استقبالي مساعد أستاذ ودود من قسم اللغة الانجليزية يقول لي إنه هو وزوجته قد اتفقا على إقامة مأدبة عشاء صغيرة لتكريمي في ذلك المساء . ثم أبدأ العملية من جديد .

وكانت المسافات التي علي أن أقطعها شاسعة : من واشينجتون إلى لوس أنجلوس ، ومن لوس أنجيلوس إلى ديترويت ومن ديترويت إلى فلوريدا . وكان الأسبوع الذي قضيته في لوس أنجيلوس أسبوعاً ممتعاً . كان قـد سبق لي التعرف بألدوس هكسلي وكريستوفر إشروود وأمضيت بعض الوقت معهما . وقمت أنا واشيروود باصطحاب هنري ميللر لزيارة هكسلي . وكان هذا اللقاء ممتعاً ومثيراً للاهتمام . كان ميللر أكبر من هكسلي بعدة أعوام ، ولكنه كان يبدو أكثر شباباً بكثير ، يطفر منه نوع من الحيوية السعيدة ، مثل دمية صغيرة ذات وجـه مبتسم . وكان هكسلي طويلاً جداً ، يكاد يكون ضريراً وله صوت رفيع وبطيء . ورغم أنه كان قد وصل إلى تقبل المبدأ الأساسي للدين في السنوات الأخيرة فقد كان ما يزال يحتفظ بأكثر من لمسة من نزعة الشر والتشاؤم القديمة التي يمكن أن يجدها المرء في كتابه « نقطة في مقابل نقطة » . وحكى لنا قصة عن مبنى حكومي ضخم طلبت الحكومة الهندية من المهندس لوكورابوزييه أن يصممه لها لاقامته في دلهي . وقرر المهندس أن يشيد المبنى من الزجاج ، أو أكثره تقريباً متناسياً أن الشمس الهندية جديرة بأن تحيل المبنى إلى مدفأة هائلة ، أو إلى ما يشبه الفرن . وقهقه هكسلي مثلما ينبغي أن يقهقه أستاذ عجوز في فن التهكم وهو يصف الكتبة والموظفين بينما أجسادهم تشوى ببطء بأشعة هذه المرآة المكبرة الهائلة . وعند نقطة معينة ، ذكر إشروود اسم لوب دي فيجا . وسأله هكسلي إن كان قد قرأه ، فأجابه كريس بالايجاب ، وأنه قرأ له مسرحيتين أو مسرحية واحدة . وسأل هكسلي : « أهو جيد بأي شكل ؟ »

فنفى كريس ذلك . فابتسم هكسلي بسعادة وقال : « أنا سعيد جداً . لقد كنت أشعر بالذنب دائماً لأنني لم أقرأه . والآن ، لن أشعر بالذنب مرة أخرى » .

كنت أنا وكريس نلتقي بميللر للمرة الأولى ، وكان قد اتصل بي في كلية الولاية في لونج بيتش ، حيث كنت ألقي إحدى المحاضرات . وبدأت تعارفنا بأن سألته عن السبب الذي يجعل كتبه تجمع بين هـذا المزيج الغريب من تصوير لحظات الجنس المكشوفة وبين الأفكار الجادة ، أيكون السبب ببساطة هو أنه لا بد أن تباع هذه الكتب للسواح الأمريكيين في باريس ؟ . وظهر عليه السخط وقال لي إنني كنت أفكر برأسي بدلاً من أن أفكر بأعصاب معدتي . ولكنه سرعان ما استعاد هدوءه ، وفاض منه طوفان هائل من العواطف الدافئة . كان يملك القدرة على أن يجعل الناس يحبونه بأن يتظاهر بالاعجاب بهم ، وقد لاحظت ذلك أنا وكريس . ومع هذا فقدْ فقدَ أحدنا الاتصال بالآخر تماماً بعد لقائنا الأول . وقد ذكرت هذه الملاحظة فيما بعد لأحد أصدقائه الذي قال : « آه ، أجل ، إن لهنري موقفاً غريباً جداً من أنداده في الثقافة والذكاء — إنه يحاول أن يتجنبهم حيثما كان ذلك ممكناً . إنه يفضل الأتبـاع والتلاميذ ، أو مجرد الناس العاديين . » .

وبعد ذلك في نفس المساء ، أخذني كريستوفر لرؤية جاره الملاصق لمنزله ، تشارلز لوتون ، الذي كان يعاني بالفعل من المرض الذي سيقتله فيما بعد . وظهر لي أنه ينتمي إلى تلك الأقلية النادرة غير العادية من الممثلين الرفيعي الذكاء الواسعي الاطلاع . وقصّ لوتون علينـا طرائف مسلية عن بريخت وتوماس مان وويلز ، وتلا أمامنا خطابا كان سيلقيه في فيلم « النصيحة والقبول » الذي كان يمثله في ذلك الحين .

وفي الأسبوع الذي قضيته في لونج بيتش ، أردت أن أتصـل

بماريلين مونرو ، التي كانت قد انفصلت عن آرثر ميللر ، ولكنني قررت أخيراً أنها ربما كانت محاطة بحشود من الناس يزدحمون حولها . وبعد ذلك بسنوات أخبرني الشاعر نورمان روستين بأن هذه الفترة كانت من أكثر فترات حياتها وحدة وعزلة ، وقد انتحرت بالفعل بعد سنة واحدة .

* * *

قبل أن تنتهي فترة الأسابيع العشرة بمدة طويلة ، كنت في حالة من الاجهاد الشديد . لم يكن لدي ما أشكو منه فيما يتعلق بمن يستمعون إلى محاضراتي . إن المستمعين من الجامعات البريطانية يميلون إلى أن يتصرفوا كما لو ان المحاضر يواجه محاكمة قد يفقد فيها حياته ، أما في أمريكا فكان هناك نفس الاهتمام العميق الذكي الذي رأيته في أوسلو في النرويج . ولكنني اكتشفت السبب في هذا الاهتمام في الحفلات التي كان الطلبة يقيمونها لي . فالطالب الأمريكي يبدو أقل غروراً وزهواً بكثير من الطالب الانجليزي . إنه ليس متعصباً لآرائه ، وهو غير مقتنع اقتناعاً كاملاً بقيمة الدراسة في الكلية . والحياة تبدو أمامه كما لو كانت علامة استفهام ضخمة ، ولذلك فإنه أقل ثقة بنفسه من زميله الانجليزي . هذا الافتقار إلى الثقة بالذات هو ما يعني أن عقله أكثر اتساعاً ورحابة . إنه لا يطلب أكثر من الخبز والمال الذي سيحصل عليه من خلال كل ما يتعلق بمعظم مناهجه الدراسية في الكلية . والمعرفة بالنسبة له سلعة يحتاجها لكي يحصل على وظيفة ، ولكنه يحب أن يحصل على النوع الآخر من المعرفة ، النوع الذي يستطيع أن يثير عقلك وأن يمنحك إحساساً باتساع المعنى الكامن فيما وراء الواقع القائم . وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن أكثر ما تحتاجه الجامعات الأمريكية — أكثر من أي شيء آخر — هو الفلاسفة الوجوديون ذوو الوزن الكبير — رجال

يشبهون سارتر وكامو ويطرحون الأسئلة الحيوية عن الوجود الإنساني ويقتحمون المشاكل الفكرية الهامة .

هذا هو الجانب الذي يهمني أكثر من أي جانب آخر في الحياة الأمريكية . وأعتقد أنني لو كنت جزءاً من هذه الحياة لتعين علي أن أعيش زمناً بالغ الصعوبة لكي أهرب من أصلي العمالي لكي أصبح كاتباً . ولكنه سيكون من المخيف أيضاً أن أكون طالباً أمريكياً اليوم . كانت المشكلة الناشئة من أصلي العمالي هي تباعد الطبقة العاملة ولامبالاتها . ولكن مشكلة الأمريكي الذي يعيش في العام الواحد والعشرين من عمره هي أن المجتمع يمتلك مجموعة محددة جداً من الأفكار عما يريده منه . إنه يطلب منه تقديرات علمية جيدة . ودرجات جامعية جيدة ، فاذا حصل على الاثنين فانه سوف يمتلك منزلاً خاصاً به في سن الثلاثين . ومن ناحية أخرى فان التقديرات العلمية الجيدة لا تضمن شيئاً ، إنه يحتاجها حتى لكي يحصل على وظيفة مساعد مبتدئ في أحد المكاتب . ولا يبدو أن هناك بديلاً حقيقياً لهذه « الطريقة الأمريكية في الحياة » . فإذا كان — أو كانت — يائساً بما فيه الكفاية فانه يستطيع أن يذهب إلى اقليم هيث آشبري في سان فرانسيسكو أو إلى منطقة إيست فيليج في نيويورك ، ويطلق لحيته . ثم يرفض ببساطة أن يتكيف مع الواقع . ولكن هذا الموقف جدير بأن يبدو لأكثرهم في صورة تطرف مبالغ فيه . وليس هناك بعد هذا أي بديل آخر . فمعدل الحياة سريع سرعة بالغة . أما هناك حيث أعيش في كورنوول ، فيوجد عدد كبير من الفنانين والكتاب الذين يكدحون متثاقلين من يوم إلى يوم ، ومن عام إلى عام ، يبيعون كل حين لوحة أو مقالة من انتاجهم ، ويلقون الدروس أياماً قليلة كل أسبوع ، ويعيشون على الاعانة الحكومية جانباً من الوقت . فمعدل سرعة الحياة بطيء على أي حال ، وأكثر صيادي السمك بالقرب من كورنوول يعيشون على الاعانة الحكومية جزءاً من

كل عام ، ولا يعتبرهم أحد منبوذين أو متمردين ، ليس هناك أي توتر نفسي حقيقي . أما في أمريكا ، فمن الصعب أن تجد معدلاً للحياة يمثل هذا البطء ، حتى في بعض المدن الصغيرة في ولايات أوهيو أو ويسكونسين . إنك إذا بلغت العشرين ، فسوف ترمق علامة الاستفهام فوق رأسك محومة بالليل والنهار .

بل إن هناك جانباً آخر من جوانب معدل سرعة الحياة أكثر تدميراً لهدوء النفس بالنسبة للشباب في امريكا : وهو حجم البيئة . فلنأخذ على سبيل المثال عينة صغيرة من الشخصيات الأدبية الأوروبية في القرن العشرين . ولتضم هذه العينة : شو وبروست وجويس وموزيل وكافكا ومان وييتس ، ستجد أن كلاً منهم قد ظهر في بيئة ضيقة تتكون من بلدة صغيرة عملت عملها بالنسبة لهم كنوع من وعاء الطهو بالضغط . ففي دبلن جويس كما في براغ كافكا ، كان كل واحد يعرف كل الأشخاص الآخرين . في هذه البيئة الخانقة — وإن كانت المستقرة — تستطيع الموهبة أن تتبلور ببطء ولكن بثقة وعناية . أما أكثر الجامعات الأمريكية الحديثة فهي مصانع للتعليم حيث يمكن للأستاذ أن يلقي دروسه حتى عن طريق التليفيزيون . ومنذ جيل مضى ، كان بوسع الشعراء الأمريكيين أن يتطوروا ببطء مفعم بالتأمل والاستغراق في الفكر . ولكنه من الصعب أن نتخيل أدباء من نوع روبرت فروست أو والاس ستيفنس أو تشارلز أولسون يظهرون من خلال جامعة مثل جامعة أوكلاما أو جامعة تكساس . إن نوع وقت الفراغ الذي شعرت بأهميته البالغة في سنوات مراهقتي وأوائل العشرينات من عمري لا يكاد يوجد الآن في أمريكا . وكانت ثورة البيت Beat الوجودية الطابع في أواخر الخمسينات استجابة لهذه المشكلة . ولكن هذه الثورة كانت — كما أشرت من قبل — نوعاً من التطرف الذي بلغ من شدته أنه كان عاجزاً عن أن يقدم أي حل حقيقي للمشكلة . هناك الآلاف من الامريكيين

الشبان الذين لا تروق لهم كثيراً فكرة أن يرغموا على الغرق في موجة طريقة الحياة الأمريكية في سن الواحدة والعشرين . ولكنهم لا يحبون أيضاً فكرة الانتقال إلى منطقة هيث آشبري . وأعتقد أنها قد تكون بداية طيبة لو أن رجال التعليم الأمريكيين قد اعترفوا بأن تلك التجمعات الجامعية الضخمة التي يضم كل منها ما يقرب من عشرين ألف طالب ليست هي بالضرورة أفضل الطرق لتعليم أمريكا الشابة أن أسلوب الانتاج الجماعي الضخم قد يفيد في انتاج السيارات ، ولكن الهدف النهائي من التعليم لا يتمثل في انتاج الملايين من المنتجات المتشابهة ، وإنما على التعليم أن يبرز الفردية المتميزة وأن يغرس بذورها . وأمريكا تشرع الآن في انتاج ثقافة سيكون من المستحيل فيها ظهور مفكرين وكتاب من نوع شو وجويس وويلز ، لأنه من المستحيل المحافظة على ذلك النوع الغلاب من الايمان بالنفس الذي تمتع به هؤلاء الكتّاب في مواجهة مجتمع الوفرة والتنميط الهائل . قد تصبح الحياة — رغم كل شيء — أكثر تعقيداً إذا تقيدت الجامعات بعدة آلاف قليلة من الطلبة . ولكن القدرة على معالجة التعقيدات والمشاكل الصعبة هي ، في الواقع ، واحدة من أكثر خصائص الشخصية الامريكية تأثيراً .

* * *

حينما عدت إلى انجلترا مرة ثانية قبل عيد الميلاد مباشرة في عام ١٩٦١ ، لم أكن متعباً من امريكا ، ولكنني كنت أشعر بالتعب . كنت قد وجدت أن امريكا — رغم كل شيء — أكثر حيوية وتأثيراً من كل توقعاتي ، وشعرت منذ البداية أن هذا المكان هو بيتي الطبيعي . وكانت عودتي إلى البيت عودة ممتعة ، محملاً بعشرات الصناديق المليئة . بالاسطوانات الموسيقية والكتب تنتظر من يفتحها . ولم يكن قد بقي معي سوى القليل جداً من الخمسة آلاف دولار ، فقد كنت أنفقت،

أكثر صافي الربح على الكتب والاسطوانات الموسيقية . كان من المبهج أن أعود ثانية إلى بيتي الخاص ، ولكنني اكتشفت أنني أصبحت معادياً لانجلترا وللانجليز بصورة واضحة . كانت « كومة » صحف الأحـــد والمجلات مثل النيوستيتسمان والسبكتيتور قد تعودت أن تثير الغضب في عقلي والاحتقار في وجداني ، ولكنها الآن لم تعد تبدو أكثر من صحف اقليمية جديرة بالرثاء . لقد مر زمن طويل على انجلترا وهي أشبه بالكوخ الثقافي القذر ، وما يسمى بحياتها الأدبية إنما يفوح برائحة « النفتالين » ومبيدات الحشرات في بيت شخص طاعن في السن قائم في حي فقير . ولحسن الحظ ، فانني لا أملك الوقت الكافي لكي أجعل من نفسي صورة نفسية من كلمة جون أوزبورن : « أنا أكره انجلترا » ، لأن مدير المصرف الذي ندخر فيه أموالنا كان يشكو من اسرافنا في سحب النقود ، وكان علي أن أبدأ التفكير بجدية في الكتاب التالي .

* * *

وكانت المرة التالية التي زرت فيها أميركا بعد المرة الأولى بخمس سنوات في عام ١٩٦٦ . ولم يكن شيء قد تغير هناك باستثناء تزايد معدل سرعة الحياة وأن الجامعات كانت قد أصبحت أضخم مما سبق ، بمراحل . وفي حفلة أدبية قال لي الكاتب الروائي كالدر ويلينجهام إنه اضطر أخيراً إلى التخلي عن وظيفة كاتب زائر مقيم في كلية للفتيات في فيرجينيا ، وسألته إن كانت الوظيفة ما تزال خالية وإن كان من الممكن الحصول عليها ، فقال لي إنه سيسأل عن ذلك . ورفع سماعة التليفون ، وبعد عشر دقائق كنت أنا الكاتب الزائر المقيم الجديد في كلية هولينز بالقرب من رون أوك ، بدءاً من شهر سبتمبر (ايلول) . وإذا قورن الأجر بما كنت أكسبه كمحاضر متجول ، فان الاتفاق كان أكثر من أن يكون كريماً . لقد دفعوا تكاليف السفر عبر الاطلنطي لي ولاسرتي ،

ودفعوا لي اثني عشر الف دولار . خالية من الضرائب لقاء تسعة أشهر من العمل . وفي مقابل ذلك كان علي أن ألقي الدروس لمدة ساعتين في الأسبوع . أما في جولة محاضراتي فكنت أربح ما يقرب من خمسمائة دولار لقاء المحاضرة الواحدة . وكنت ألقي أربع أو خمس محاضرات كل أسبوع . ولكن وكيل تنظيم المحاضرة كان يأخذ لنفسه نصف هذا المبلغ ، ثم تستولي الضرائب الأمريكية فوراً على ثلث آخر ، كما كان علي أن أدفع فواتير فندقي وسفري عبر الأطلنطي ، وهكذا كان مبلغ الألفي دولار في الأسبوع ينتهي إلى خمسمائة دولار . ولكنني على الأقل لم أكن أمكث في أي مكان واحد لمدة تكفي لأن أعقد أية ندوات أخرى اضافية . وأصبح توالي غرف الفنادق المختلفة لمدة عشرة أسابيع أمراً مضجراً ، ولكنني رأيت أماكن كثيرة جداً من أميركا — نيو إنجلاند وفلوريدا وسياتل ونيو مكسيكو . وعلى قدر ما رأيت وسافرت في الولايات المتحدة ، فقد كانت أمتع أجزاء الرحلة هي عطلة نهاية الأسبوع الهادئة التي قضيتها مع أسرة دانزيجر في واشينجتون ، ومع روجر ستابلس كاتب ترجمة آليستر كراولي في بلدة آن آربور . أما باقي الرحلة فقد كان كثير الشبه بأن يكون المرء جالساً على مقدمة المنصة في مسرح كبير لعدة ليال دون انقطاع . وكانت راحة عظيمة أن أعود إلى الأسرة — وكان دامون قد بلغ الآن الشهر السادس من عمره ، وأصبح طفلاً هادئاً متزن المزاج . كان يروق له أن يجذب بأصابعه الصغيرة شحمة أذني بينما يمص اصبعه في يده الأخرى .

وفي نهاية أغسطس (آب) . طرنا جميعاً إلى نيويورك حيث أمضينا يومين متتالين نحاول أن نتنفس حرارة أغسطس (آب) — وكنا قد تعودنا على هواء كورنوول ورياحها . ثم أمضينا عطلة نهاية الأسبوع مع أسرة دانزيجر في واشينجتون قبل الطيران مرة أخرى إلى رون أوك . وقابلنا في المطار رئيس قسم اللغة الانجليزية . لويس روبين ، وأقلنا

في سيارته إلى منزلنا في المساكن التابعة للكلية . وشعرت جوي بأن المنزل كان آسراً وأخاذاً . كانت الكلية مجموعة جذابة من المباني ذات الهندسة الاستعمارية الكولونيالية شيدت فوق التلال الخضراء المتماوجة وخلفها تتلألأ قمم سلسلة جبال البلوريدج . وكان منزلنا بيتاً ريفياً من طابق واحد وله سقف منحدر فوق قمة أحد التلال ، زودت أرضياته بابسطة سميكة وزودت حجراته بأضواء خافتة . وكان موقد المطبخ ضخماً حتى ليكفي طلبات فندق كامل . وبدت الثلاجة الكهربائية هائلة الحجم . وكان ويليام جولدنج هو آخر كاتب زائر مقيم . ولسبب ما كان قد اشتهر فجأة في الولايات المتحدة في العام الماضي . وحلت روايته المسماة « إله الذباب » محل رواية « المشبك في صدر الغجري » باعتبارها الرواية الرائجة في الجامعات .

وبدت لي وظيفتي وظيفة خفيفة إلى درجة مضحكة . وكان علي أن أدرس فيهـــا الفلسفة الوجودية لطلبة الموسم الأول ، وكنت حراً بلا عمل في الموسم الثاني . كان بوسعي أن أحصل على عطلات معقولة تماماً — وفي الحقيقة فقد حصلنا على أسبوعين في نوفمبر (تشرين الثاني) لكي نذهب بالسيارة إلى فلوريدا — بشكل عام فقد كنت أتصرف بوقتي كما أحب إلى حـــد كبير . وكان المفروض أيضاً أن أشترك في ندوات لويس روبنز للكتابة الابداعية . ولكنني وضحت لهم أنني لا أعتقد أن بوسعي أن أتحمل هـــذا العمل . فمن وجهة نظري أن الكتّاب المبدعين يحتاجون إلى قدر معين من المعارضة وعدم التشجيع . تماماً كما تحتاج الكلاب إلى بعض العظام في وجباتها ، ومن يستمر منهم في الكتابة يكونون أفضل الجميع . أما اغداق التشجيع على جماعة مجتمعين من الكتّاب تملأ غرفة واسعة ، وهم جميعاً من الناشئين . فسوف يكون شبيهاً بوضع السماد والمخصبات للأعشاب في أرض مهملة . وأدرك لويس ما أعنيه فقال لي إن بوسعي أن أظل بعيداً عن هذه الندوات .

بدت كلمة هولينز بالنسبة لي في صورة الحلم الجميل . كانت جانباً من أميركا لم أره من قبل أبداً — منابع الحياة ومجاريها الهادئة ، حيث لا يحدث الكثير باستثناء أن الأشجار تصبح بنية اللون في الخريف ثم تكتسي بالخضرة من جديد في الربيع . وكانت المحلات على بعد نصف ميل في نفس الطريق ، وكان بوسعي أن أشتري الكافيار وشطائر الفواجهاه والنبيذ البورجاندي الفرنسي الجيد (وفي الحقيقة فقد بدأت في الاعجاب بأنواع النبيذ الكاليفورنية ، وهي أقل رقة من الأنبذة الفرنسية ، ولكنها ممتازة إذا كان المرء يشرب يومياً) . وكان للكلية مخزن جميل للكتب — وسرعان ما تكومت لي حسابات ضخمة هناك — كما كانت هناك سوق عامة في آخر الطريق تضم قسماً للتسجيلات الموسيقية غير الشائعة . كان كل شيء ممتعاً وساراً إلى درجة ضارة بالأخلاق .

وحتى البلدة ، ردن أوك ، بدت لي كما لو كانت تتحرك ببطء وفي سلام ، بطريقة كثيرة الشبه بسوق بلدتنا المحلية في كورونوول . ولكن كانت هناك بعض الاختلافات ، مثل تلك التي اكتشفتها حينما أدرت راديو السيارة وأنا أصحب سالي إلى المدرسة . فتقرير الشرطة يعلن أن محطة للغاز قد هوجمت وسرقت بأيدي اثنين من الرجال المسلحين ، وأن المشرف على إحدى الصيدليات قد ضرب في الليلة الماضية حتى فقد وعيه وأنه الآن في المستشفى . بل لقد كان هنــاك نموذج من جاك الخناق الذي قتل فتاة عاملة بعد ان اغتصبها وعثر على جثتها في الحقل المجاور للكلية . كان العنف يجتاح المنطقة ويدور حول بحيرة الهدوء الساكنة . وذات يوم أدركت السبب حينما كنت أتمشى حول المبنى الخلفي للكلية . كانت هناك « قرية » للزنوج وكان أكثر سكانها ممن يعملون في خدمة الكلية . كانت منازل قليلة فقط بين منازل القرية هي التي تبدو ذات نوافذ زجاجية ، وكانت أكثر المنازل مشيدة من الخيش أو الخشب . وكانت بعض المنازل قائمة بالفعل على قوائم

من العصي ، كالمخيمات الفقيرة . وقيل لي إنه غالباً ما تسكن أكثر من أسرة واحدة في المنزل الواحد من مثل هذه المنازل . وكانت الحفر والقنوات ملأى بكسر الزجاج والقناني المحطمة ، وأجزاء من عربة أطفال محطمة ، وفأر ميت . شعرت بالسعادة حينما عدت إلى الطريق الرئيسي . وحينما سرت عائداً إلى الملاعب والأرض المحلقة بالكلية ، كانت الفتيات في « البيكيني » وقد لوحت الشمس أجسادهن البيضاء يستلقين حول منحدرات التلال ، وكان أطفالي يلهون بالماء المتناثر من بركة صغيرة باردة المياه ضحلة العمق خارج الباب الخلفي . تذكرت تعاسات طفولتي ومراهقتي والحسد الذي كنت أشعر به إزاء الناس الذين يعيشون في المنازل الكبيرة في حي ستوني جيت وأمام المنازل نافورات المياه المزودة بالأسماك الملونة أمام الأبواب الخارجية للحدائق ، وفجأة أدركت السبب في تزايد معدل الجريمة الأمريكية .

وليست هذه هي المشكلة التي يمكن أن تحل عن طريق وصفة أو تركيبة بسيطة — الشيوعية أو القوة السوداء أو سقوط المخابرات المركزية الأمريكية . وقد يلزم ربع قرن كامل من العمل والجهد الحكوميين المتصلين قبل أن يصبح الفقر في امريكا في قلة وجوده في السويد أو الدنمرك . وفي نفس الوقت فان كل من يقرأ كتاب توكفيل « الديموقراطية في أمريكا » ثم يقرأ كتاب جوستاف ماير « تاريخ الأثرياء الأمريكيين العظام » ، ثم رواية سينكلير لويس « بابيت » يستطيع أن يرى المسافة الشاسعة التي قطعتها أمريكا في غضون القرن العشرين . لقد حدثت تغيرات اجتماعية في امريكا في غضون المائة عام الأخيرة أعظم بمراحل مما حدث في انجلترا منذ عصر أوليفر كرومويل . وحينما تحدث التغيرات بمثل هذه السرعة ، يصبح من السهل أن نفهم حالة الأزمة الاجتماعية الدائمة في أمريكا دون أن نشير إلى شرور السياسيين الجنوبيين أو مادية المشروعات الضخمة .

* * *

عدنا إلى انجلترا لكي نقضي صيف عام ١٩٦٧ ، ثم رجعنا مرة أخرى إلى امريكا . وفي هذه المرة ذهبت إلى جامعة واشينجتون في سياتل باعتباري «أستاذاً زائراً» . وهذا اللقب يعتبر فكاهة طالما أنني أحمل أية مؤهلات تعليمية ، ولكن يبدو أن هذا اللقب كان يسلي الأمريكيين ويضحكهم مثلما كان يسليني ويضحكني . وكنت أتوقع أن أجد المكان أقل هدوءاً وراحة من هولينز ، ومن المؤكد أن حجم الحرم الجامعي كان يبلغ عشرة أضعاف حجم الحرم الجامعي في هولينز . ولكن كان ما نسيته هو أنه لا بد من حماية ورعاية الحياة بالنسبة لأي عضو من أعضاء هيئة التدريس في أي جامعة أمريكية ، وخاصة إذا كان أستاذاً زائراً . إنه لا يتدخل أبداً في السياسة الداخلية للجامعة ، ولا أحد ينظر اليه كمنافس . وكان رئيسي ، روبرت هيلمان ، غامضاً وسهل المأخذ بقدر ما كان روبين كذلك ، ولما كان منزلي على بعد حوالى الميلين من الحرم الجامعي ، فإنني لم أكن ألتقي إلا في النادر بطلبتي أو زملائي بعد ساعات العمل التي كانت تبلغ سبع ساعات في الأسبوع . ولكن في مدينة كبيرة – وحتى إذا كانت مدينة منضبطة ومتوسطة الحجم مثل سياتل – فان التناقض بين الحياة المعزولة في الجامعة وحقائق الحياة الواقعية الصاخبة في المدينة الحديثة كان تناقضاً أكثر وضوحاً . كان حي الجامعة في البلدة بعيداً بعداً كبيراً عن أحياء الأكواخ القذرة ، ومع ذلك ، ففي أثناء اقامتنا في سياتل ، حدث هجومان مسلحان كبيران على السوق الكبيرة بغرض السرقة ، كما سرق عدد كبير من الناس في الحديقة المحلية . وكان معدل جرائم القتل مرتفعاً ، فإذا اتخذنا ما كانت تنشره الصحف المحلية مقياساً لهذه الجرائم ، فقد كانت تقع ثلاث جرائم قتل كل يوم في سياتل ، وقبل مغادرتي البلدة بوقت قصير جداً ، اكتشفت الشرطة مؤامرة ضخمة دبرتها منظمة يمينية لنسف عدة مراكز للشرطة بالديناميت في شمال المدينة ، ولكن

عندما اندفعت كل قوات الشرطة تقريباً إلى الشمال ، سرقت المنظمة ستة مصارف في الجنوب .

أما ما بدا لي في البداية كواحدة من أسوأ جرائم ذلك العام ، فقد وقعت في قرية صغيرة بعيدة . كنت قد أدرت مذياع السيارة ذات صباح فسمعت أن إحدى الأمهات قادت سيارتها إلى المحل العمومي المحلي لكي تشتري بعض الأشياء في وقت متأخر وتركت طفليهـــا في السيارة وكان أكبرهما في الشهر التاسع من عمره والثاني في الشهر الثالث . وحينما خرجت من المحل ، كانت السيارة قد اختفت ، وقال عامل في جراج قريب إنه رأى السيارة وأحد الأشخاص يقودها في اتجاه سياتل . وأزعجتني هذه القضية ازعاجاً شديداً ، فأي نوع من المنحرفين الشاذين يمكن أن يسرق رضيعين ؟ وفي المساء قالت الصحف المسائية إن الطفلين وجدا دون أن يمسهما سوء ، وكانت الأم قد نسيت أن تشد كوابح (فرامل) اليد ، فانطلقت السيارة وحدها عبر الطريق ثم عبر حقل مجاور ، واستقرت بعد أن أوقفتها مظلة سيارات قديمة وسط الحقل المجاور . وظل الطفلان هناك طول الليل ، لم يصبهما ضرر باستثناء الجوع والبرد . ورأينا الأم في التليفيزيون في تلك الليلة ، وكانت تؤكد لمقدم البرنامج أن السيارة لا بد أنها قد سرقت ثم تركت في ذلك المكان ، لأنها حين وجدتها كانت تحتوي على قدر من الوقود يزيد عما تركته فيها حينما دخلت المحل ، وشعرت بالرجاء في أن يضربها زوجها أو أن يلكمها في وجهها حتى تسود عيناها . ولكن القصة جديرة بأن تحكى لأنه بدا لي أنه من المحتمل تماماً أن يكون مجنون ما قد سرق السيارة لكي يسرق الطفلين في داخلها . ومن المحتمل أن تكون أمريكا هي البلد الوحيد الذي يمكنني أن أفترض وقوع مثل هذا الحادث فيه .

* * *

ولكن ، بالنسبة لي ، استطاعت سياتل أن تزودني برؤية داخلية ثمينة . لقد كان الطلبة هناك أكثر حيوية وتطلعاً للمعرفة من طالبات هولينز ، كما ينبغي للمرء أن يتوقع . فانني إذ كنت أتحدث إلى الطالبات الجميلات في الثامنة عشرة من أعمارهن عن مذهبي في الوجودية ، كنت أشعر دائماً كمن يريق الماء على الرمال ، ولكن كان هناك إحساس أكثر حيوية بالاستجابة في واشينجتون . كما بدأت في ملاحظة صفة معينة في الطالب الأمريكي لم تظهر لي من قبل أبداً : وهو التناقض الشديد بين ما يتمتعون به من مستوى مرتفع من الاهتمام الحيوي بالمشاكل الفلسفية والاجتماعية وبين افتقارهم الشديد إلى الثقة بالنفس . وبدا لي في ذلك الحين أن أهم صفات الطلبة الأمريكيين وأكثرها اثارة للاهتمام هو أنهم لم يكونوا يدركون أبداً مدى قوتهم . إن أفضلهم – وهم عدد كبير من بينهم – يتمتعون بفهم عميق للحقائق السياسية وهو فهم يزيد بمراحل كثيرة عما تمتع به آباؤهم على الاطلاق ، وهم يفهمون بعمق واتساع أيضاً ، المشاكل الأعرض للثقافة والتاريخ والدين ، هذه المشاكل التي تعتبر الأرضية الحقيقية لكل المشاكل المعاصرة . وفي عام ١٩٥٦ ، كتب دافيد راينزمان مقالاً بعنوان : « جيل العثور » ، حيث قال إن الجيل الجديد من الطلبة لا يريد شيئاً سوى الحصول على سيارة ووظيفة مريحة ، وأنهم قد فقدوا كل اهتمام سياسي . وبعد عشر سنوات ، لم يعد هذا صحيحاً ، ولم تكن حرب فيتنام سوى أحد الأسباب الكثيرة لذلك . ولكن موقف الانغماس الجديد في المشاكل الواقعية يظل موقفاً نظرياً ، فانهم بصورة أساسية ، يظلون مواطنين أمريكيين هادئين حسني السلوك ، يعربون عن رفضهم اللغوي ، ولكنهم لا يشعرون بأنه من الممكن تحقيق أو فعل الكثير . ففي نهاية القرن التاسع عشر ، كانت نسبة كبيرة جداً من الطلبة الروس منغمسة في الأعمال المضادة للمجتمع ، حتى كادت كلمة « طالب » أن تكون

مرادفة لكلمة « ثوري » . وفي العامين الأخيرين ، أثبت الطلبة في باريس وايطاليا واسبانيا والمكسيك ولندن أنهم يمتلكون من القوة قدر ما يملكون من الأصوات . ولكن الطلبة الأمريكيين وحدهم – وهم من الناحية العددية أصحاب أكبر أغلبية بين الجميع – هم الذين فشلوا في التحقق من مدى قدرتهم على أن يجعلوا السياسيين يشعرون بآرائهم . وقد أشار القائد الزنجي ديك جريجوري قائلاً إنه لو أن كل طالب أمريكي امتنع عن شراء السجائر لمدة أسبوع كاحتجاج ضد الحرب ، لكان من المحتمل أن تنتهي الحرب بالفعل ، لأن ملوك التبغ سوف يمارسون أقصى ما يملكون من ضغوط لتغيير موقف الحكومة . ولكن لو أن طلبة باريس قرروا الامتناع عن تدخين سجائر الحلواز (أشهر أصناف السجائر الفرنسية الشائعة) ، ولو أن طلبة اسبانيا كلها قرروا الامتناع عن شرب النبيذ الاسباني ، لما تأثر الاقتصاد القومي في كل منهما أقل تأثيراً ، لأنه ليس هناك العدد الكافي لذلك منهم . وليس سوى أمريكا من تضم العدد الكافي من الطلبة للقيام بمثل هذا العمل المؤثر ، أو أي نوع آخر من الأعمال . وإنني لأتساءل عن المدى الذي سيستغرقونه من الوقت لكي يكتشفوا هذا ، ولكي يكتشفوا نتائج معرفتهم بقوتهم : وهو أنهم إذا كانوا يتمتعون بكل هذا الاهتمام الحيوي بشؤون وطنهم ، فلماذا يستمر هذا الوطن في ترك هذه الشؤون في أيدي سياسيين يزيدون جميعاً عن الخمسين ؟ يمكن للذكاء والفهم دائماً أن يتحولا إلى فعل مؤثر .

* * *

إنني مدين بشيء آخر لجولات محاضراتي في أمريكا . فإذا كان علي أن أكرر نفس المحاضرة الأساسية المرة بعد المرة ، فقد كان علي أن أتعلم كيف أعبر عن أفكاري بأقصى درجة ممكنة من القوة والوضوح .

ولم أكن أريد بشكل خاص أن أكرر نفس المحاضرة ، ولكن لما كنت أحاول أن أعرض خطأ أساسياً من خطوط فلسفتي لم يكن هناك بديل لهذا التكرار . ويشير هوايتهيد إلى أن تحركات الفكر تشبه هجمات الفرسان في المعركة ، فأنت لا تستطيع أن تقوم إلا بعدد محدود من هذه الهجمات وأنت على ثقة من نتائجها . ولا يعتمد عمق التفكير على تعود الأفكار وإنما عـلى الاقتصاد فيها ، وعلى القدرة على أن تكون كل فكرة معمقة بما فيه الكفاية واضحة المعالم غائرة الزوايا مثل ضربة الفأس في الخشب اللين . لقد بدأت أفكاري تتغير تحت تأثير المحاولة المستمرة لضغطها وتلخيصها ، فرأيت حينذاك امكانيات جديدة واحتمالات لم أكن أتوقعها . ففي ذات ليلة وبعد إلقاء إحدى المحاضرات التي أعقبتها مناقشة طويلة ، اكتشفت فجأة أنني قد حققت قفزة جديدة إلى الأمام ، وذلك أنني في جانب أساسي من جوانب تفكيري ، كنت قد تجاوزت فكرة « اللامنتمي » . ففي نهاية كتاب « الدين واالمتمرد » كنت قد اعترفت بأنني لا أستطيع أن أرى أي حل محتمل لمشكلة ما قد يحدث حينما يكف المجتمع عن افساح مكان للامنتمين ، لأن المجتمع يفكر كلياً على أساس الكسب المادي وبمصطلحاته . ولكن الضوء كان قد بدأ يبزغ حينذاك : ورأيت طريقة جديدة تماماً وكلياً لمعالجة المشكلة .

وبطريقة غريبة أخافتني القفزة التي حققتها إلى الأمام . شعرت كما يشعر موظف المصرف الذي أمر بحمل مليون من الجنيهات الورقية في الشارع . أردت أن أهرع مندفعاً إلى المنزل لكي أشرع في تسجيل تلك الرؤى الجديدة بأسرع ما يمكن .

ولكن حينما بدأ العمل الفعلي ، تطلب الأمر أربع سنوات طويلة لنقل هذه الرؤى إلى الورق . لقد كتبت كتاب « مقدمة للوجودية الجديدة » ست مرات قبل أن يظهر في عام ١٩٦٦ . ولقد لقي هذا الكتاب التجاهل التام — حرفياً — في انجلترا ، ثم لم يكتب عنه أي مقال إلا

بعد ستة شهور . وفي أمريكا ، لم تتمتع المقالات بأي فهم للكتاب، ، وكانت معادية وغير ودية ، ولكن الطبعة الغالية ذات الغلاف الورقي ، باعت الكثير من النسخ في الجامعات ، حتى لقد بدأ الكتاب يأتيني بتيار مستمر من المال يزيد عن المبلغ الذي حصلت عليه مقدماً وبالاضافة إلى هذا المبلغ . وأنا لا أملك أية فكرة عمن يشتري هذا الكتاب ، ولم أتلق أي خطاب حوله من القراء . ولكن الواضح أن هناك من يهتم به .

ولكنني لا أستطيع أن « ألخص » كتاباً ، هو بالفعل في صورة ملخص . غير أنني أستطيع أن أحاول تقديم صورة سريعة للسبب الذي يجعلني أشعر بأنني على وشك اكتشاف سيعد واحداً من أخطر الاكتشافات وأهمها منذ تم تفتيت الذرة .

الفصل الخامس عشر

استبصارات

من الواضح أنني كنت مشغولاً دائماً بمشكلة « العالمين » — عالم التجربة والممارسة اليوميتين ، وعالم العقل . ولقد سيطرت علي دائماً فكرة آكسيل التي يقول فيها : « أما بالنسبة للحياة ، فإن خدمنا يستطيعون أن يقوموا بذلك لنا » . وأنا لا أحب « الحياة » حباً خاصاً . إنها تضجرني .

ولقد شعر الرومانتيكيون بنفس الشعور . ولكنهم قفزوا إلى استنتاج يقول بأن رفض الحياة إنما يعني بالضرورة اختيار الموت . وهذا نوع من التفكير المهمل ، أو التفكير بالكمال ، من النوع الذي يهاجمه رايل في كتابه « مفهوم العقل » . وبالمعنى الأكثر صرامة ، ليس هناك عالمان، وإنما توجد وجهتا نظر مختلفتان . فالدودة والصقر يريان نفس العالم ، ولكنهما يريانه من زاويتين مختلفتين لدرجة أنه من المعقول أن نتحدث عن نظرة عين الطائر ونظرة عين الدودة كما لو كنا نتحدث عن عالمين مختلفين .

والإنسان حيوان ، ولكنه حيوان وضع قدمه بالفعل فوق عالم مختلف . وهناك نسبة مئوية صغيرة من البشر ، هي رأس الحربة

الثورية للجنس البشري ، ترفض مجرد « الحياة » — أي أنهم يرفضون الحياة الجماعية المنتشرة في العالم كله للمجتمع الإنساني . إن هذا « العالم الحيواني » عالم عقيم ودائري ، ينتهي إلى حيث يبدأ ، بصورة ما . إنه لن « يتحمل » إحساس الإنسان باستهداف غرض ما ، بأكثر مما سيتحمل سلك كهربي طاقته خمسة فولتات تياراً كهربائياً قوته مائة فولت . فإذا كان اهتمامك الأساسي هو المال ، فإنك تستطيع أن تقضي وقتك سعيداً وأنت تعمل لكي تصبح مليونيراً ، ولكنك بعد ذلك تكون قد وصلت إلى نهاية مغلقة ، ليس لها ما وراءها . إذ ليس هناك أي اختلاف بالنسبة لك ، إذا كان دخلك ألفاً من الجنيهات كل أسبوع ، أو عشرة آلاف جنيه كل أسبوع . فأنت لن تستطيع أن تفعل بالمبلغ الأكبر أكثر مما تفعله بالأقل . وإذا كنت مولعاً بالطعام ، فأنت تواجه الموقف نفسه . فحالما تستطيع أن تأكل مرتين كل يوم في أحسن مطاعم العالم تكون قد وصلت إلى نهاية مغلقة وليس لها ما وراءها . يمكنك أن تملأ غرفة حتى سقفها بالطعام ، ولكنك لن تشعر بالرغبة في أن تلمس شيئاً منها . وإذا كنت من نوع كازانوفا ، فسوف تصل إلى أقصى حدودك وأبعد طاقاتك بعد اثنتي عشرة عشيقة أو نحو هذا العدد . ليس هناك معنى لأن ترفع عدد أهدافك المسجلة إلى مائة عشيقة لأنك لن تستطيع أن تفعل معهن المزيد . إنها مشكلة الاسكندر الذي كان يصرخ مطالباً بعوالم جديدة يغزوها . إن « عالم الحيوان » مثله مثل الأرض التي نعيش فوقها كروي ينتهي حيث يبدأ . ولتبتعد عن نقطة بدايتك أكبر بعد ممكن ، فسوف تعود بالتأكيد لتجد نفسك حيث بدأت .

أما تجربتنا في عالم العقل فتمنحنا بديهية أخرى مختلفة كل الاختلاف . فحالما تدخل عالم العلم أو الرياضيات أو الفلسفة ، فسوف تتفتح من حولك مساحات لا حد لها . وكلما ازداد ما تعرفه ، كلما زاد سحر

الأمر كله وجاذبيته . ويصدق الحكم نفسه على عالم الشعر أو الرسم أو الموسيقى . فالعقل بالعمل في هذا المجال ، يصبح قادراً على الوصول إلى أعماق متزايدة البعد باستمرار . ليس هنا حدود للوصول . فكما قال ويلز ، العقل هو مملكة الإنسان الحقيقية ، تماماً مثلما هو الماء بالنسبة للسمكة والهواء للطائر .

وهنا تبرز المشكلة ، وهي المشكلة التي قهرت الرومانتيكيين ، ثم الوجوديين . وقد لخصت المشكلة في حكاية « فاوست » . فبعد ساعة أو نحوها في عالم العقل هذا ، يرهق الإنسان ويهزم . ويمكنك أن ترى هذا إذا حاولت ببساطة أن تنتهي من قراءة كتاب قبل أن تنام . ليست عيناك وحدهما هما ما ستشعران بالتعب . إنك تشعر بنوع من عسر الهضم الروحي ، بنوع من اهتزاز الإرادة وتفككها ، بنوع من غوص الحيوية في أغوار مظلمة وباردة .

وقد عبّر جوليان هكسلي ذات مرة قائلاً إنه تماماً مثلما أن هناك فجوة « مطلقة » بين المادة الميتة وبين أحط الحيوانات الحية ، كذلك فإن هناك فجوة مطلقة مشابهة بين « المادة الحيوانية » وبين « المادة الإنسانية » . وبكلمات أخرى ، فان بوسعك أن تقارن المادة الميتة بخط مستقيم يمتلك الطول ولكنه لا يمتلك السَّمْك – الوجود ، ولا الحرية . والدودة يمكن أن تقارن بالمربع ، لأنها تمتلك هذا البعد الزائد من أبعاد الحرية ، من أبعاد الحياة . ومع هذا فإن « حرية » الدودة حرية محدودة للغاية ، إلى درجة أنها تكاد لا توجد حقاً ، إنها شيء يزيد قليلاً عن آلة تعيد إصلاح نفسها أو انتاج آلة تشبهها . والإنسان يمتلك – مرة أخرى – هذا البعد الزائد ، وهو بعد العقل . الحيوان مثبت بقوة إلى الحاضر ، وهو بالفعل لا يملك لنفسه ماضياً ولا مستقبلاً . أما عقل الإنسان فيستطيع أن يتأمل الكون ، وأن يبحث عن الحقيقة ، وأن يكرس نفسه للرياضيات .

وأنا لا أستطيع أن أتفق اتفاقاً كاملاً مع سير جوليان هكسلي . فالإنسان « لم يمتلك بعد » هذا البعد الثالث . وتجارب « الغرفة السوداء » تثبت هذه الحقيقة اثباتاً لا يدع مجالاً للشك . ضع رجلاً في غرفة حالكة الظلمة ولا يصلها أي صوت ، وسوف يتمزق عقله ووجدانه في غضون بضعة أيام ، وربما في بضع ساعات . إنه ما زال ينتمي بنسبة ٩٩ بالمائة إلى العالم المادي المحسوس ، ويحتاج إلى استثارته المستمرة لكي يظل دائماً عند درجة العقل المطلوبة . ولو أنه كان حقاً مخلوقاً من العقل وحده لما كان هذا صحيحاً . إنه جدير عندئذ بأن يرحب بالغرفة السوداء كفرصة مثالية لكي يكرس نفسه تماماً لاكتشاف عقله وعالم الأفكار اللانهائي .

ونحن نعلم أن العالم الداخلي للعقل لا يقل اتساعاً عن الكون الخارجي . وليس علينا لكي نتحقق من هذا سوى أن نتناول جرعة من المسكالين . ويوماً ما ، سوف تتحقق للإنسان القدرة على الترحال بحرية في هذا العالم لا تقل عن حريته في الانتقال في أجواز العالم الخارجي الحسي . ولكن هذا العالم الداخلي ، لأسباب عديدة ، ما زال بعيداً عن متناول يده ، غير طيع لرغباته في الوقت الحاضر .

* * *

هـــذه النتائج هي الأسباب الأساسية التي جعلت الوجودية تواجـــه طريقها المغلقة . يقول سارتر إن الإنسان عبد لمصادفة حدوث هذا العالم . إن حرية الإنسان حقيقية ولكنها محدودة للغــاية ، ولا يمكن زيادتها . وعلى ذلك فإن أفضل ما يمكن أن يفعله هو أن يهدف إلى العدالة الكونية ، وحب اخوته في الإنسانية وأن يصلي من أجل ابادة « البورجوازية » .

ولكن ، أمن الحق أن حرية الإنسان لا يمكن زيادتها ؟ لقد أصاب

الرومانتيكيين اليأس لأن لحظات حريتهم بدت لهم وكأنها تأتي وتذهب دون سبب . فإذا كان ذلك حقاً ، لكان مأزق الإنسانية مأزقاً تراجيدياً ومليئاً بالتناقض .

فلنفكر في هذا الموضوع من زاوية أخرى . لقد جرف الحماس لقوة العقل البشري علماء القرن التاسع عشر ، وأعلنوا قائلين : « لقد قهر عقل الإنسان كل العقبات وتغلب على كل المصاعب . فإذا استمر في هذا الطريق فانه لن يفشل في أن يصبح كاملاً ذات يوم — بل وربما في أن يصبح إلهاً . » وأجاب الرومانتيكيون — ثم الوجوديون من بعدهم — في ازدراء : « إنكم تتجاهلون المشكلة الكبرى . إن عقل الإنسان لا يستطيع أن يؤثر في أكثر مشاكله أهمية : هو نفسه ، لقد امتلأ الإنسان بالضجر ، وحب الحرب ، وتناقضه مع نفسه ، وأصبح مضطرباً ومشوشاً إلى درجة لا أمل فيها . ربما كان الفكر كلي القدرة والقوة ، ولكنه ليس سوى مزمار مفكر ، تواجهه على الدوام حقائق ألمه ، وضعفه ، وموته المحتم في النهاية . » . وقد خلق جوته ، في فاوست ، الرمز الكلاسيكي لعدم كفاية المعرفة .

هنا بالتأكيد تكمن المشكلة ، وهكذا انتصب السؤال دون اجابة لما يقرب من مائتي عام . ولكن كل من عرف متعة اكتشاف أبهاء العلم الهائلة لا يستطيع أن يقبل أن هذه الأبهاء كلها من قبيل خداع الذات . ولنبدأ بقولنا : إن العلم نفسه هو أكثر أشكال الدوافع الأساسية للحياة كلها سمواً في التنظيم ، وذلك هو دافع السعي من أجل الغزو والانتصار . إن إنكار العلم يعني انكار الحياة نفسها ، لأنه في اللحظة التي تظهر فيها الحياة ، تبدأ تتقدم إلى الصراع ، لكي تجتث المادة الميتة ولكي تمتصها وتحل محلها . والانكار المنطقي الوحيد للعلم هو نظرة البوذي التي تقول بأن الحياة نفسها شر وأن أفضل ما يمكن للكون أن يفعله هو أن يعود إلى العدم .

وهكذا فان علينا أن نخطو أكثر الخطوات التي خطاها العقل البشري صعوبة : اتخاذ القرار بأن جوانب الضعف والقصور والنواقص في العقل البشري يمكن علاجها ، تماماً مثلما نستطيع أن نعالج الأخطاء القائمة في نظــام عمل المجاري . وهــذا أمر صعب – ويكاد يكون مستحيلاً – بسبب عادتنا الغائرة الاستقرار في النظر إلى أنفسنا من زاوية التسليم بما نحن عليه . إننا نقسم العالم إلى ذات وموضوع . والموضوعات يمكن أن تفحص وأن تكتشف وأن نمارس عليها عملنا ، ولكن الذات هي المكتشف وهي الفاعل وهي لا تستطيع أن تفحص نفسها بأكثر مما تستطيع كرة القدم أن تطوح نفسها في أرض الملعب . ولكنها تستطيع أن تمارس العمل على نفسها بطريقة غير مباشرة ، من خلال الموضوعات ، إنها تستطيع أن تستثير نفسها بالسجائر أو الخمور ، وهي تستطيع أن تنسى نفسها في كتاب أو فيلم سينمائي . بل إنهــا تستطيع أن ترتفع بنفسهاأخلاقياً بأن « تسمو » إلى مستوى نوع من العقيدة الدينية أو النزعة المثالية . ولكن العالم الخارجي ضروري ضرورة مطلقة بالنسبة لكل تلك العمليات ، فالذات لا تستطيع أن تمارس العمل على نفسها بطريقة مباشرة .

ولكن هل هذا حقيقي دائماً ؟ فماذا عن لحظات الحرية ، عن الشعر ؟ هذه اللحظات تنتج تغيراً حقيقياً في الوعي – أجل ، في الوعي ، وهو نفس الشيء الذي تنظر اليه نظرة التسليم باعتباره أساس وجوده . إنه ما يتطابق مع أن تكون حيا .

إذا أصاب بعض التلف سيارتي ، فانني أستطيع أن أصلحها بسلسلة من الأفعال التي هي أساساً من أفعال الفكر . ألا نفترض أنني أستطيع التأثير على وعيي من خلال بعض من أفعال الفكر ؟ في الوقت الراهن أستطيع أن أغير هذا الوعي عن طريق شرب كأس من الويسكي ، أو بتعاطي المسكالين ، أو بأن أحصل على عطلة حينما أشعر بالارهاق

والضجر . ولكن يبدو أن الوعي لا يملك القدرة على تغيير نفسه . إن « تناول الفكر » والاعتماد عليه إذا كنت أشعر بالاجهاد والانقباض ، لا فائدة فيه . فكلما أمعنت في التفكير ، كلما ازددت انغماساً في تلك الشبكة المعقدة المصنوعة من حالاتي العقلية ، وكلما ازددت تعباً وارهاقاً . فأمد يدي لأتناول زجاجة الويسكي ، أو أدير جهاز التليفيزيون . وهذا هو الاعتراف بالهزيمة ، وبالخضوع ، وبعبوديتي المطلقة للعالم المادي الحسي .

* * *

قبل أن أقدم صورة سريعة لاجابتي الخاصة على هذه المشكلة (وربما كان علي أن أقول ، صورة منهجي للوصول إلى اجابة) اسمحوا لي أن أعالج المشكلة من زاوية مختلفة اختلافاً بسيطاً .

حينما تعلمت أن أستخدم هذه الآلة الكاتبة ، فعلت ذلك ببطء وألم ، وكنت أقع في أخطاء كثيرة . ولكن بعد وقت طويل ، كانت كيفية الكتابة على الآلة الكاتبة قد تحولت إلى كائن آلي تلقائي مفيد يكمن في عقلي غير الواعي . هذا الكائن هو ما يقوم الآن بأكثر العمل ، بينما أستطيع أن أركز على التفكير . وهذا الكائن أيضاً هو الذي يتحدث بالنيابة عني بالفرنسية (بطريقة رديئة إلى حد ما) ويقود لي سيارتي .

ولسوء الحظ فانه يتدخل في لذاتي ومتعتي . فإذا استمعت إلى سيمفونية تهزني بعمق أو إذا قرأت قصيدة ، فان « الروبوط » هذا الكائن الآلي يبدأ في الاحساس بأنه قد طرد بعيداً وانني تخليت عنه . ولكن بعد أن أستمع إلى السيمفونية ست مرات ، لا أعود أنا الذي يصغي اليها ، إنه الروبوط الآلي . وإذا خرجت لأتمشى في يوم من أيام الربيع ، يأتي الروبوط معي ويصغي بالنيابة عني إلى شدو الطيور .

وحينما كنت طفلاً ، لم يكن الروبوط يملك كل هذه الفاعلية والكفاءة ، ولذلك كان « كل » يوم من أيام الربيع مصدر بهجة حقيقية لي ، وكانت حواسي أكثر حيوية منها الآن بعشرة أضعاف . ولكنني كنت أيضاً بائساً إلى حد كبير . فدون وجود الروبوط لكي يحميني ، لكانت الحياة (أو العيش والاستمرار على قيد الحياة) عملاً مرهقاً جداً ، ولبدت المشاكل الصغيرة شيئاً لا يمكن التغلب عليه .

وحينما تعاطيت المسكالين منذ عدة سنوات ، كان أول تأثير له هو منع الروبوط من العمل ، ومرة أخرى تصبح الانطباعات الحسية حيوية ومليئة بالمعنى كما كانت في أثناء الطفولة . ولكن هذه الانطباعات أيضاً جعلت العالم يبدو مزعجاً ومخيفاً كما كان الحال في الطفولة ، وحدثت عدة انفجارات متتالية من الحالات العاطفية . وضاعف المسكالين أيضاً من قدرتي كمفكر . فأفضل لحظات حياتي تأتي حينما يستطيع تفكيري أن ينفذ إلى ما وراء الوضوح العادي ويصبح نوعاً من الرؤيا ، نوعاً من سطوع الضوء البارق للبصيرة الداخلية . وهذا جدير بأن يكون مستحيلاً استحالة كلية تحت تأثير المسكالين الذي يجعل احساساتي جميعاً بالغة الحدة والوضوح ، ويشل ذكائي العقلي .

وهكذا فان المسكالين ليس هو الجواب . ولكن ، لم إذن يتاح لتفكيري أحياناً الحصول على ميزة الحرية الخالصة هذه فيصبح نوعاً من الرؤيا ؟ السبب في هذا هو سنوات الانضباط المنظم الصارم ، وتعلم أساليب التفكير الفنية الناجعة المباشرة ، وهي التي تعين أفكاري على تحقيق قدر هائل من الحيوية والقوة كان الحصول عليه في السادسة عشرة كالمستحيل . السبب في هذا هو أن الروبوط ، من بعض جوانبه ، قد تطور بثبات وأصبح أكثر كفاءة وتأثيراً . وحينئذ يصبح على المرء أن يتقدم إلى الأمام .

وباختصار فان الروبوط مسؤول إلى حد كبير عن مشكلة فاوست ،

ومسؤول عن « محنة سانت نيوت » . إلا أن هذا يحدث لأنه لم يصبح كفئاً إلى الدرجة الكافية بعد . فهذه الآلية ما تزال شديدة الفجاجة .

ويصف ت . ي . لورنس خروجه ذات صباح باكر مع العرب بقوله : « حينما تصحو الحواس قبل أن يستيقظ العقل» وكيف يبدو كل شيء جميلاً ومليئاً بالحياة لأن العالم لم يكن قد « تخلله شيء أو جعله الفكر متطابقاً مع شيء آخر » (أي عن طريق الروبوط) . لقد شعر لورنس مثل جميع الرومانتيكيين بأن هذا الموقف لا يمكن أن يتم تغييره إلا عن طريق منع الروبوط عن العمل . وهذا هو الخطأ الرئيسي للنزعة الرومانتيكية ، وهو الخطأ الذي يظهر بشكل جديد عند الوجودية (أي بالحديث عن الإحالة) .

* * *

إن ما حاولت أن أفعله ، في الفقرات السابقة ، هو أن أطرح المشكلة لأظهرها عارية ، حتى نستطيع أن نرى بدقة وبالتحديد ما علينا أن نهاجمه . ولقد استخدمت بوضوح أيضاً منهج الهجوم . لقد بلغ الإنسان مرحلته الحالية من التطور ، بمعونة أنماط معينة من التعوّد أو العادات . والآن ، لا بُدّ من تحطيم بعض هذه الأنماط وأن تتم استعادتها إلى مملكة الحيوية الواعية . لا بُدّ أن تهاجم مشكلة الوعي بواسطة الوعي . ولا بدّ أن يكتسب العقل قدرة جديدة على المناورة المرنة ، قوة فوق الوعي نفسه . إذا كان للفلسفة أن تستمر . إن الوعي في الحالة الراهنة يشبه سيارة قيدت عجلة قيادتها فلا تستطيع أن تسير إلى الأمام إلا في خط مستقيم . ومن هنا يبدو سخف كل « المذاهب » أو الأنسقة الفلسفية ، من النزعة المثالية الأفلاطونية حتى النزعة الوضعية المنطقية ، فالسيارة تنتهي دائماً إلى وسط حقل تنغرز في وحوله .

ولا بد لي أن أتحدث مرة أخرى حديثاً شخصياً . ففي سنوات مراهقتي ، كنت أشعر بحدة بمشكلة فاوست . كانت تمر بي لحظات تمدني فيها قصيدة أو فكرة بالمفتاح المفقود لبوابة عقلي المغلقة. وفجأة ، أصبح العالم الخارجي شيئاً لا أهمية له ولا حساب. لقد أنزل إلى مكانه الملائم ، كمجرد خلفية عارضة لحياتي الحقيقية ، من أجل ممارسة حريتي . وكان المفروض أن يكون هناك إحساس قاهر ومسيطر بضرورة الحصول على « إجابة » على مشكلة ما تعنيه الحياة كلها وما تدور من حوله . وهذا هو ما تعنيه الحياة كلها وما تدور حوله ، تلك البلدان الشاسعة غير المكتشفة للعقل . البلدان التي تظهر معالمها الرئيسية في صورة شومان وآينشتين ، أفلاطون وميكلانجلو ، ووردزورث وداروين ونيوتن وشو .... ولكن العالم الحقيقي بدا كما لو كان قد تملكته الغيرة من أن يعامل باعتباره مجرد خلفية ، وبعد برهة كانت الرؤيا تضيع . وفي المرة التالية التي تحاول فيها أن تهرب إلى بلد العقل ، يمسك العالم الحقيقي بك من ياقتك ويجذبك اليه ويقول : « أوه ، كلا ، لا تفعل ذلك . » وبدلاً من أن تصبح قادراً على الانتقال خفيفاً ودون مساءلة إلى العالم الآخر ، تجد نفسك « مغروساً » بين العالمين . إحدى قدميك في الأول والأخرى في العالم الجديد . وينتابك إحساس بالوهن والضعف ، مثلما يحدث حينما تسمم امرأة غيورة قصة حب عظيمة بدأتها بكتابة الخطابات المسممة واصطناع المشاهد الرديئة .

ولكن بينما رحت أهتم بهذه المشكلة و « أوقوق » حولها ، كان علي أن أعترف بأن هذا كان راجعاً إلى نوع معين من الكسل العقلي والانغماس الزائد في مشاكل الذات . فعلى سبيل المثال ، يكون أمامك يوم لا عمل عليك فيه . الآن ، هو الوقت المناسب للقيام ببعض الأشياء التي نويت دائماً أن تقوم بها : أن تبدأ قراءة هيجل أو هوايتهيد ، أو تستمع إلى كل رباعيات بيتهوفن ، أو أن تسجل حساباتك كلها لكي تعرف ما أنت

مدين به بالتحديد . ولكن حرية المرء نفسها هذه تأتي معها بنوع من الكسل . إنك تلتقط رواية في طبعة شعبية ذات غلاف ورقي وتقرأ بعض فصولها . ولكن هذا العمل لا يؤدي إلا إلى المزيد من انخفاض درجة حرارتك العقلية . وحينما ينتصف النهار أو بعده بقليل ، تشرع في محاولة عاطلة في تذكر إذا كان هناك ما ينبغي أن تفعله في الحديقة .

وأي شخص حاول أن يقوم بالقليل جداً من الملاحظة لنفسه ، سيكتشف مقدار ضآلة القدر الذي تمتلكه من الارادة ، ومقدار السهولة التي نسمح بها لأنفسنا بأن نستسلم لمجرى تيار الزمن بدلاً من أن نحاول الملاحة فيه لكي نبحر إلى وجهتنا التي نريدها . بل إننا نصل إلى القبول بكسلنا باعتباره جزءاً أساسياً من « ظروفنا الإنسانية » ، ولا يستلزم الأمر سوى القليل جداً من التحدي أو التهديد الحاد لكي يدفعنا إلى اكتشاف حقيقة أنه « كان من السهل جداً أن يكون المرء قديساً يتحمل الآلام » .

معرفة هذه الحقيقة بوعي إنما تعني قطع جانب كبير من الطريق إلى العثور على حل . معرفتها تعني أنك ترفض أن تقبل ما يبدو أنه حالة من حالات الوعي . إنك تبدأ في دفعها عن نفسك وركلها بعيداً عنك . وفي سنوات مراهقتي اكتشفت أنني إذا أنفقت يوماً طويلاً في محاولة « الدخول في الحالة النفسية » الملائمة لتلقي الأفكار أو الشعر فلن تلبث الأمور أن تتحسن مع اقتراب المساء . كما أن تفكيري الذي ظل طوال النهار كئيباً ومعتماً وخائراً ، جدير بأن يحقق فجأة اندفاعة قوية إلى الأمام . وحالما يبدأ المرء تحليقه لكي يصبح « مرتفعاً عن الأرض » فان الاحساس بالحرية سرعان ما يتطور لكي يتحول إلى حالة شبيهة بحالة الوجد الصوفي حيث تبدو كل المشاكل والعقبات العادية في صورة سخيفة ولا معنى لها أو قيمة ، وتكاد تصبح وهمية من صنع الخيال . وفي مرة من مرات اجتياز هذه الحالة النفسية ، كتبت في مذكرتي أقول : « ليس هناك حياة ولا موت ، ليس هناك سوى الحمال » .

وفي السنوات الأحدث عهداً ، دفعتني دراستي في فلسفة الظاهرات (فينومينولوجي) وفي مشكلة محنة سانت نيوت ، إلى اكتشاف طريقة تسهيل الحصول على هذه الحالة . وجدت أن الرحلات الطويلة بالقطار وسيلة نموذجية لتحقيق التركيز الضروري ، لأن هذه الرحلات لا تترك للمرء بديلاً غير التفكير .

والمرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى أميركا في جولة لالقاء بعض المحاضرات ، كانت حالة من الحالات التي يمكن أن أستشهد بها هنا . لقد أحزنتني فكرة تركي لأسرتي . وأنا في العادة أنام نوماً سيئاً في الليلة السابقة على الرحيل ، ولذلك فقد كنت متعباً مجهداً . وفي ذلك اليوم البلرد من أيام يناير (كانون الثاني) ، كان القطار مرتفع الحرارة . وأعددت نفسي لرحلة مضجرة وموهنة لمعنوياتي إلى لندن ، وهي رحلة تستغرق ست ساعات . وبعد ساعتين من بداية السفر ، وحينما وصل القطار إلى بلدة تيجن ماوث ، كنت أتثاءب بمعدل مرة كل دقيقة .

ولكنني قبل عدة سنوات في تيجن ماوث ، كنت قد مررت بتجربة الحصول على رؤيا عميقة ، وصفتها في الفصل الثامن من هذا الكتاب . وحينما تذكرت هذا ، خرجت إلى ممر القطار لكي ألقي نظرة على المكان الذي وقعت لي فيه هذه الرؤيا ، وكان من الممكن رؤية المكان من القطار . وفجأة طرأت لي فكرة أنه من السخف أن يكون لزاماً علي أن أسمح لنفسي بأن استسلم لجسدي بهذا الشكل . ولو أن نظرتي كانت نظرة تشاؤمية في أساسها ، فربما كان يبدو بعض المنطق في الاستسلام لهذا الانقباض . ولكن نظرتي لم تكن من هذا النوع . لقد آمنت بأن الكسل والعجز عن التفكير بوضوح كان هو السبب في دمار الرومانتيكيين وبوارهم . فالرؤيا الرومانتيكية لم تكن وهماً ، وإنما

كانت حقيقة كان من الممكن الوصول اليها وتحقيقها بشيء من المجهود الذهني .

وعدت ثانية إلى عربة القطار – وكانت شاغلتها الأخرى معي سيدة عجوز كانت تهوم برأسها وتوشك أن تنام – وشرعت في محاولة وضع عقلي في حالة من التركيز . وحملقت من النافذة لمدة دقائق ، وركزت على فكرة أنني كنت أتعلق بأسفل جانب طائرة محلقة . واستغرقت هذه العملية الذهنية خمس دقائق بالضبط . ثم في نهاية هذه اللحظة ، نبع في داخلي تيار غريب من الحيوية . كان الأمر شبيهاً بتشغيل مضخة صغيرة ، ثم الحصول على أولى قطرات الماء . ومرت بضع دقائق أخرى ، ثم تحول التيار الصغير إلى مجرى قوي ثابت من الأفكار العقلية . وبدا لي فجأة أنه من السخف أن يستسلم المرء للانقباض والحزن . فالحق أنني كان علي أن أبتعد عن أسرتي لمدة ثلاثة شهور ، ولكن الدافع إلى هذا لم يكن القيام بعمل لا معنى له أو أهمية ، وإنما كنت مدفوعاً بالرغبة في التحدث كل يوم مع مستمعين أذكياء ومتحمسين حول أفكار هامة مسيطرة علي . ومن الممكن أن تكون هذه هي الفرصة لكي أبرهن برهاناً قاطعاً على أن العقل يستطيع أن يكون هو الفائز في أي منافسة بينه وبين المادة .

وحينما غادرت القطار بعد أربع ساعات ، كان عقلي أكثر نشاطاً وحيوية ويقظة مما كان عليه حين بدأت الرحلة .

وهناك مثال آخر قد يكون على شيء من الأهمية . لقد قلت دائماً ، في أثناء بعض المحاضرات ، انني أستطيع إلى درجة محدودة ، أن أدفع نفسي عن طريق نوع من التركيز إلى حالة تشبه حالة من تعاطي مخدر المسكالين . وهذا قول خاطئ إلى حد ما ، طالما أن الحالة التي تنشأ عن تعاطي المسكالين حالة وجدانية إلى حد كبير ، بينما ترجع

حالة التركيز إلى نوع من زيادة القصد الإرادي في العملية الذهنية .
ولكن حدثت أخيراً تجربة أنتجت نوعاً مثيراً وهاماً من الاختلاف مع هذا التصور . مرة ثانية ، حدث ذلك في القطار المتجه من لندن إلى كورنوول . وفي هذه المرة كنت قد سافرت إلى لندن في عربة نوم ليلية ، وأمضيت الصباح في انجاز بعض الأعمال وتبادل الأحاديث مع الأصدقاء ، ثم لحقت بقطار بعد الظهر العائد إلى كورنوول . وكان موعد تناول طعام الغداء قد فاتني ، ولكني أكلت شطيرة واحدة .

وفي هذه المرة شعرت بالتعب الجسماني إلى جانب ما شعرت به من نعاس (فأنا لا أنام أبداً في عربات النوم) . وبينما كان القطار يندفع ببطء خارجاً من مدينة بادينجتون ، قررت أنه قد يكون من الأكثر معقولية أن أحاول أن أغفو لمدة ساعة قبل أن أبذل أي مجهود في سبيل استثارة عقلي . ولكن تصادف أن هذا اليوم كان أكثر أيام هذا العام حرارة ، وكان جو العربة خانقاً . ولمدة ساعة غرقت في حالة متزايدة من البلادة الخدرة ، خاسراً معركتي ضد الحرارة ، وشعرت باغراء أن أفتح زجاجة فودكا كنت أحملها في حقيبة الكتف التي معي . كنت ولكنني قد نسيت القدح . ولم يكن هناك في المقصورة سوى شخص آخر ، ولكني لم أحب أن أشرب من الزجاجة . وهكذا ، فقد واجهت بامتعاض استنتاجي الضروري بأنه من اللازم أن أتخلص من خدري وبلادتي . ولمدة عشر دقائق أو نحوها ، رحت أفكر في جانب مثير من مشكلة محنة سانت نيوت ، وجعلني هذا أشعر بأنني أقل خوراً وأكثر تماسكاً ، وبعد ذلك رحت أعمل على تحقيق نوع خالص من التركيز . وكنت أتوقع أن المهمة ستكون أصعب من المعتاد ، بسبب حالة التعب الجسماني التي سيطرت علي . وفي الحقيقة ، فإن خمس دقائق من المجهود المتوتر بدأت في إزاحة سحب الكسل وابعادها ، وفي الحصول على أول ومضات اليقظة العقلية . وعند هذه النقطة

لاحظت صفة أو خاصية جديدة من خصائص وعيي . كانت أكثر قرباً من الحالة التي يولدها تعاطي المسكالين . وأستطيع الآن أن أتذكر بوضوح أياماً معينة من أيام الخريف أثناء الطفولة حينما كان ينزل علي نوع غريب من الهدوء ، ويبدو لي الريف في صورة فائقة الجمال إلى درجة يصعب تصديقها ، كما لو كانت ترى من خلال منشور زجاجي يحيط كل حوافها بخيوط الألوان وحزمها ، أو كما لو كانت ترى من خلال الضباب الذي يضفي على كل شيء لوناً من ألوان عالم الجنيات المسحور . لقد حدث ذلك مرة ثانية في تلك اللحظة . وفجأة سحرتني خضرة الريف ، حتى وجدت نفسي شديد الرغبة في أن أظل أردد كلمة واحدة : «أخضر ... أخضر ... أخضر ...» . وبدلاً من أن يمر الريف بالنافذة دون أثر بأشجاره وحقوله ونهيراته – كانت كل شجرة وكل حقل يثيران في داخلي إحساساً عميقاً وساحراً من الاهتمام والشغف كما لو كانت سلسلة من الرسوم من ابداع رسام عظيم ، واجتاحني إحساس بأن هذا الريف يحمل معنى من معاني التحريم المهلكة . وبدا لي هذا النوع المتألق من الجمال الذي تشع به الأشياء كما لو كان مرتبطاً بعواطف وبمعان معينة ، ولكنني كنت واثقاً إلى درجة معقولة من أنني أنا الذي يمد هذه الأشياء بالعواطف والمعاني . وكانت لهـــذه النعومة التي اجتاحتني خاصية غريبة تجعلها قادرة على الاستيلاء على القلب والاحاطة به . وفجأة تذكرت بيتاً من شعر ريلكه يقول فيه إن الجمال : «هو بداية الرعب الذي ما نزال قادرين بالكاد على أن نتحمله» ، وبدا لي أن الجمال ليس سوى مجرد بداية الألم الذي ما زلنا قادرين بالكاد على أن نتحمله . فكل خلجة من خلجات الجمال وكل قسمة من قسماته كانت تحمل هذه الخاصية المزدوجة التي تجعلك تشعر باللذة والألم معاً ، والتي تشبه ما كنت تشعر به وأنت طفل حينما تضغط على السن المتقلقل في فمك .

واستمرت هذه الحالة ساعات عديدة . ولكنها كانت قد اختفت قبل أن أبلغ البيت بوقت طويل — لأنني سمحت لها بان تختفي — ولكنني مرة ثانية غادرت القطار وأنا أشعر بأنني أكثر حيوية ونشاطاً ويقظة مما كنت عليه ساعة بدأت الرحلة .

* * *

يبدو لي أن هذا المثال الأخير يثبت النقطة التي أقصدها : وهي أن هذه الحالات شبه الصوفية يمكن أن تتحقق بقوة الارادة وحدها . إنني لم أتعاط أي مخدرات على الاطلاق باستثناء جرعة المسكالين الوحيدة التي أخذتها في عام ١٩٦٣ (إلا إذا كان على المرء أن يحسب أقراص الأسبرين التي يتناولها من حين لآخر) . وأنا أشرب كمية متواضعة تماماً من النبيذ — تتراوح بين نصف زجاجة أو زجاجة كاملة — يومياً ونادراً ما أزيد على ذلك ؛ وأنا لم أدخن في حياتي أبداً . فلا يمكن أن يحتج أحد بأن مثل هذه الحالات قد تكون راجعة إلى بعض الأسباب الفيسيولوجية . هذا إلى جانب أنني أعرف جيداً الخطوات التي اتخذتها لتحقيق تلك الحالات ، والحقائق التي كان علي أن أثبتها في عقلي بوضوح . وأعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك شك ، في أنه إلى مدى معين على الأقل ، ينبغي علي أن أثبت ما أرمي اليه : وهي أن الحالات التي طرأت على بليك وتراهيون من خلال مصادفة سعيدة ما من مصادفات المزاج أو الحالة النفسية ، يمكن أن تحقق من خلال المتابعة القوية لمنطق معين .

* * *

ويجب علي أن أؤكد أن استقصاء مثل تلك الحالات يمثل إلى حد كبير ، مشكلة بالنسبة للغة . وقد حدث منذ بعض الوقت أن كنت ألقي بعض المحاضرات في مدرسة للبنات في فيرجينيا عن مذهبي الجديد

في الوجودية . وبعد المحاضرة ، جلست جماعة من المدرسين في دائرة وراحوا يناقشون « التجارب الغريبة » . وظل رجل لطيف صامتاً لا يتكلم إلا قليلاً حتى قالت زوجته : « لم لا تتكلم عن ذلك اليوم الماضي ؟ » فوضح لنا أنه كان قادراً منذ الطفولة على تحقيق بعض التجارب الغريبة المتواضعة . وقال إنه تعلم هذه اللعبة مصادفة . وقال إنه كان يكره أن يرغم على الجلوس ساكناً لأنه كان يشرع في حك جلده إذا جلس ساكناً ، وحالما كان يبدأ في حك مكان معين ، فان الحكة كانت تنتقل إلى مكان آخر . وذات يوم ، وإذ كان يجلس ساكناً في صفه المدرسي ، بدأ يفكر في الحك ، وعلى الفور بدأ جلده يتأكل . ولكنه قرر في هذه المرة ألا يتحرك . وازدادت حاجته إلى الحك إلحاحاً . وبدأ يشعر بها في أماكن مختلفة من جسمه في وقت واحد . وأصبح الأمر مما لا يمكن احتماله . وكان عليه أن يصر على أسنانه ليمنع نفسه من الاستسلام لاغراء الحك . وفجأة تماماً شعر باحساس غريب عند قاعدة عموده الفقري ، ثم غمره شعور دافق باللذة . ولم يكن بوسعه أن يصف طبيعة هذا الشعور ، باستثناء قوله إنه كان إحساساً شبيهاً بالرعشة . ولكنه منذ لحظة اكتشافه لهذه الحيلة ، أصبح بوسعه أن يحصل على هذا الاحساس في أي لحظة . وبعد أن قال ذلك ، ابتسم فجأة ، ثم قال : « ها هي . لقد فعلتها الآن ! » .

ولكنه وجد أنه من المستحيل تماماً أن يشرح ما « فعله » لكي يحصل على هذه التجربة الغريبة . وهذا هو السبب الذي جعلني أقتبس قصته هنا . لقد أصر الصوفيون ثم الرومانتيكيون من بعدهم على أن مثل هذه التجربة كانت دائماً مما لا يمكن وصفه ، وأنها كانت دائماً مما لا يمكن التعبير عنه ولا استجلابه بطريقة عامدة ، أو إرادية . وكانت هذه الفكرة مسؤولة إلى حد كبير عن الشخصية التشاؤمية للنزعة الرومانتيكية .

ولكن عملي الخاص كان محاولة دائبة لاظهار أن هذا المجال كان هو المجال الذي يستطيع فيه الاستخدام الإرادي والمحكوم للعقل أن ينتج بالتحديد نفس التأثيرات والنتائج التي يمكن أن تنتج لدى استخدامهما في مجال العالم المادي . وهذا يعني القول بأن الوعي يوجد في إطار السيطرة الإنسانية . وفي هذه الحالة ، يصبح من المؤكد أن تطورنا إنما يتجه إلى وجود مخلوقات ذات « بعد ثالث » . إنها مسألة من مسائل استخدام علم الظاهرات — « التحليل الوصفي للحالات الذاتية » — من أجل خلق علم نفس حقيقي ، ومن أجل خلق لغة قادرة على تحديد ونقل هذه العمليات الغريبة التي يعمل الوعي على غرارها . (وأنا لا أحسب علم النفس التحليلي عند فرويد وأدلر ويونج باعتباره « علم نفس حقيقياً » . إنه بناء غليظ ، قائم على تعميمات غامضة مستمدة من تجارب كائنات بشرية منحطة عن المستوى الطبيعي ، ثم تم الصاقها الواحدة مع الأخرى على أساس التحيزات الثقافية للمحلل النفسي) .

وقد عرفت من كتاب للبروفيسور باتسون أن وردزورث قد حقق نوعاً من الرؤية النافذة في قلب محنة سانت نيوت ، وكان نفاذه أقرب مما حققته أنا . ويحكي دي كوينسي كيف كان هو ووردزورث ينتظران عربة آتية من كيسويك ، فانحنى وردزورث على الأرض ووضع أذنه عليها لكي يتسمع أصوات عجلاتها المقتربة . وحينما هب واقفاً ، لاحظ نجماً يلمع على الأفق ، فعلق قائلاً لدى كوينسي :

> « لقد لاحظت ... أنه إذا ... إذا كان الانتباه مركزاً بنشاط من أجل تحقيق فعل من أفعال الملاحظة الثابتة ... ثم إذا حدث أن استرخى هذا الوضع من التوتر الشديد فجأة ، حينما يحدث في تلك اللحظة أن ... يقع ... أي شيء جميل على العين ، فان هذا الشيء الجميل سوف يصل إلى القلب بقوة لا يمكن معرفتها في ظل أية

ظروف أخرى . لقد حدث الآن فقط أن كانت أذني
موضوعة على الأرض ، من أجل أن تلتقط أي صوت
يمكن أن يصل إليها ... من طريق كيسويك ، وفي نفس
اللحظة الخاطفة التي رفعت فيها رأسي من على الأرض ،
في نفس اللحظة الخاطفة التي استرخت فيها كل أعضاء
انتباهي من توترها وقعت ... النجمة الساطعة فجأة على
عيني ، فتملكني إحساس باللانهائي ، ما كان يمكن أبداً
أن يتملكني في ظل أي ظروف أخرى . »

(وردزورث – تأليف : ب. و. باتيسون ص ٢٥)

وبكلمات أخرى فان « التجارب الغريبة » شديدة الارتباط بالتركيز ، دون السماح للارادة بأن ترهل وتسترخي وتتقطع أنفاسها . ومثل هذا النوع من النظام الصارم لا يمكن أن يجد الاصرار المستمر جنباً إلى جنب الاشفاق الرخو على الذات الذي انغمس فيه معظم الرومانتيكيين ، الأمر الذي يفسر السبب في أن « روح الجمال » كانت جديرة بأن تهرب طائرة لكي تغادر هذا « الوعاء المعتم الواسع الكئيب المليء بالدموع المهرقة السائبة » . وإذا كنت ستبدأ على أساس أن هذا العـــالم وعاء معتم كئيب واسع من الدموع ، بدلاً من أن تعالج المشكلة بنوع من الجرأة العلمية ، فإنك تمحو كل فرصة لك متاحة للوصول إلى أي نتيجة .

* * *

هذا الملخص الذي قدمته لـ « فلسفتي » يزيفها من جانب رئيسي واحد : إنه يخلف انطباعاً بأنها ليست « فلسفة » وإنما هي مجرد بحث عن التجارب الغريبة . (بل إن قارئاً مخدوعاً لكتاب « مقدمة للوجودية الحديدة » . كتب إلي يقوْل : « ولكن لماذا تسعى وراء التجـــارب الغريبة ؟ ») وهذا هو ما يقلب المسألة رأساً على عقب . إن التجربة

الغريبة (وهذا المصطلح من وضع ماسلو) ليست هامة في حد ذاتها . الجانب الهام هو أن الفلسفة إنما هي محاولة لمد العلم إلى حدوده المنطقية وأن الفلسفة إنما هي محاولة للسيطرة على الوعي . وهذا يصدق على كل فلسفة ، ولا يصدق ببساطة على الوجودية الظاهراتية . هذه الأخيرة محاولة للافلات من نظرتنا الشبيهة بـ « نظرة عين الدودة » ولرؤية الحقيقة ككل . والوعي هو الاداة التي نرى بها . والجانب الثمين من الفلسفة الوضعية المنطقية إنما هو اعتراضها على أن عدم دقة اللغة قد منع الفلسفة من تحقيق هدفها . وحينما تعلن الوضعية المنطقية أنه ليس من الممكن ، ولا من المرغوب أن « ترى الأشياء في كميتها » فإنها لا تفعل أكثر من أن تكذب نفسها بالوقوع في التناقض مع نفسها . إن طبيعة الفلسفة هي الطموح إلى تلك النظرة الشبيهة بـ « نظرة عين الطائر » .

ولقد اقتطفت من قبل كلمة هوايتهيد التي يقول فيها : « كانت حركات الفكر شبيهة بهجات الفرسان في المعارك . ولا يسمح لك بالقيام إلا بالقليل منها ، ولذلك فلا بدّ من الاقتصاد فيها . » . ولقد كنت أفضل تشبيهاً آخر . إننا ما نزال مخلوقات تابعة للعالم المادي ، ولا بدّ بالضرورة أن تكون غزواتنا وهجاتنا لعالم العقل قصيرة ومختصرة ، مثل سباحة السباح تحت الماء . إنك لا تحمل الكثير من الهواء في رئتيك . فإذا كنت مفكراً غامضاً ويفتقر إلى الدقة ، فسوف تتخبط دون هدف واضح ، ثم تبرز برأسك بالقرب من النقطة التي غصت عندها لاستنشاق المزيد من الهواء . ولكن الفكر يحاول أن يجد الوسائل التي يمكن بها تحقيق الاقتصاد في تنفس المرء . والمفكر الجيد يعرف اتجاهه ، فيسبح مع اقتصاد ضرباته إلى أقصى حد . ويتحقق هذا الاقتصاد باستخدام الرموز ، فاذا استطعت أن تجعل رموزك معبرة عن مفهوم هام أو عن قانون — مثل محنة سانت نيوت — فانك تكون قد حققت تركيزاً أعظم بكثير ، فيمكنك بالتالي أن تمضي مسافة أبعد . وكل

المفكرين الكبار يعملون بالحدس ، وليس بالمنطق ، ولكن الحدس – دون الرموز – سيضيع طاقته في تقديم التعريفات لما يريد أن يقول . وبصورة نهائية فان بوسع السباح أن يحقق قوة غير عادية للفكر في مثل قوة المحرك النفاث .

وحتى هذا ليس هو الهدف النهائي . إن علينا أن نتعلم كيف نبقى في حياة الفكر هذه طوال المدة التي نحتاجها للبقاء فيه . علينا أن ننمي في أنفسنا الملكات المساوية لما يتمتع به الغطاس أو الضفدع البشري من تجهيزات ، مع مؤونة الأوكسيجين اللازمة . ولكي يأتي الجانب العملي أولاً وقبل كل شيء : وهو أن نتعلم كيف نسبح بسرعة واستقامة واقتصاد . ويتحقق هذا من خلال تطوير المفاهيم والرموز ، أي بتطوير اللغة .

وليس هدف الفلسفة الوجودية الظاهراتية هو التجارب الغريبة ، إنما هدفها هو السيطرة على الوعي وتوسيع حدوده عن طريق اللغة . ولا يتجه أكثر تفكيري إلى الاهتمام مباشرة بالتجارب الغريبة ، وإنما يتجه إلى الاهتمام بالتعريف الدقيق لمشاكل الموقف الطبيعي – نظرة عين الدودة . إن اللغة في اللحظة الراهنة ، ليست سوى العبء غير الواعي للوعي . وهي تزعم أنها تمتلك نوعاً من الكمال أو الدقة الذي لا تمتلكه حقاً ، لأنها كانت ملزمة بأن تشيد دقتها وكمالها فوق هذا الوعي المتنوع الشبيه بالرمال المتحركة . فإذا كان لها أن تحقق وظيفتها ، فيجب عليها أن تضع في اعتبارها ذبذبات الوعي وتنويعاته .

ولكن لا بد أن يتم تعريف الوعي نفسه ورسم خريطته . فعلى سبيل المثال ، يجب أن نبدأ بالاعتراف بأنه من الظاهر أن للوعي مستويين ، الأفقي والرأسي . مستوى التجربة اليومية العادية هو المستوى الأفقي والمحدود ، ويتحرك تفكيري العادي في هذا المستوى . ومن الجانب

الآخر فإن التجارب ذات العمق تميل إلى النفاذ رأسياً في الوعي ، وتجعلنا ندرك الوعي باعتباره الحرية بدلاً من أن ننظر اليه باعتباره مدركاً سلبياً .

ويشاهد هذا من قضايا جوهر مساهمتي في الفلسفة . تكمن العظمة المتميزة للعقل الإنساني في قدرته على التحرك في شكل تقدم مطرد : وهذا يعني القول بأن الوعي الإنساني حينما يواجه مشكلة معينة ، فانه يعالجها باعتبارها سلسلة من الخطوات ، ويتخطى المشكلة بأن يتسلقها خطوة فخطوة . ولقد أشرت الآن إلى أن مشاكل الفلسفة ، باعتبارها مشاكل متميزة عن مشاكل الحياة اليومية العادية أو مشاكل الرياضيات ، لا يمكن أن تهاجم على أساس هذا المبدأ المنطقي . إنها تبدو كما لو كانت مشاكل لا يمكن حلها أمام الفكر الاستطرادي المتنقل من خطوة إلى خطوة . في هـــذه الحالة سوف تبدو كمن ينهك نفسه دون جدوى . وأنت بالتأكيد سوف تستهلك المشكلة نفسها ، ومع ذلك فان المشكلة ستبقى على حالها دون أن تمس . إنها لا يمكن أن تحل إلا عن طريق تنويع الوعي نفسه . وحينما يحقق الوعي « التجربة الغريبة » فسوف تدرك فجأة أن ثمة طرقاً جديدة تنفذ إلى قلب المشكلة . وهذا يعني أن الفلسفة لا يمكن أن تستخدم بنفس الطريقة التي يستخدم بها العلم — أو على الأقل إنها لا يمكن أن تستخدم بنفس الطريقة التي يلجأ اليها المهندس لكي يحل مشكلة بناء جسر فوق هوة أو نهر . إنها تحتاج إلى ذلك العنصر الآخر ، عنصر الشمول العميق . إن رجلاً محروماً من هذه القدرة لا يكون مهيأً لأن يصبح فيلسوفاً (الأمر الذي يؤدي بالطبع إلى استبعاد ٩٠ بالمائة من كل الفلاسفة) ، ودون ومضة معينـــة من ومضات الشمول العميق ، تبدو الفلسفة مثل سيارة نفد ما بها من الوقود .

ولقد قررت الآن بوضوح أن هذا المبدأ للتقدم المطرد يمكن أن يطبق على الوعي . ولكن التجربة الغريبة ، تجربة الحرية ، لا ترجع

إلى الصدفة أو إلى نوع من المنحة الالهية المقدسة . ولكن من الممكن أن يطلبها المرء وأن يسعى وراء اكتسابها كما يمكن أن تسعى وراء حل أي مشكلة أخرى .

* * *

يمكنني الآن أن أرى أن حياتي قد تكونت من استبصار واحد متزايد باستمرار . وقد أدركت هذا بوضوح لأول مرة في طفولتي في أحد أعياد الميلاد . لقد سألت نفسي أيهما كان الشيء الصحيح — عيد الميلاد أم بقية العام ؟ وإذ عبّرت عن تساؤلي بهذه الطريقة ، فقد بدت لي المشكلة كنوع من سوء الفهم اللغوي أكثر منها سؤالاً حقيقياً . ولكنها لم تكن كذلك . ففي غمرة الاثارة التي يخلقها عيد الميلاد ، يصل الطفل إلى حالة من الوعي حيث يبدو أنه من الواضح أن الحياة طيبة وخيرة ولا يحتاج ذلك إلى برهان ، وأن ما ينتابها من هزائم إنما يكون شيئاً موقتاً ولا أهمية له . وفي منتصف أكتوبر (تشرين الأول) يكون الوعي ضيقاً ورمادياً كئيباً ، ويمكنك هنا أن تفهم بالتحديد ما عناه فرانسيس كورنفورد بقوله : « الضآلة الطويلة للحياة » . فأي حالة من حالات الوعي تقترب أكثر من غيرها إلى الكشف عن حقيقة العالم ؟

ومن الواضح أن الشعراء العظام هم الرجال الذين تمر بهم كثيراً ومضات من « وعي عيد الميلاد » ، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نضفي عليهم كل هذه الأهمية ، إذ يبدو أنهم يشيرون إلى أن هذا النوع من الوعي ، إنما هو شيء أكثر من مجرد حالة نفسية موقتة من الراحة الذهنية التي تفرضها عطلة ما ، وأن هذا النوع من الوعي يمكن أن يكون « طريقة للرؤية » يمكن استزراعها وغرسها ارادياً .

ووجدت أنني ملزم بأن أخترع مصطلحا جديداً حتى أكون

قادراً على مناقشة المشكلة . وعلى سبيل البداية ، كان علينا أن نكف عن التفكير في الوعي اليومي العادي باعتباره « الوعي الطبيعي » وأن نعترف بأنه وعي من مستوى أقل من المستوى الطبيعي ، وأنه جدير بأن يظل تحت المستوى الطبيعي حتى ولو أصيب كل من في العالم بعمى الألوان .

وكانت تجربتي التي أسميتها « محنة سانت نيوت » مفتاحاً هاماً . وقد حدثت لي تجربة غريبة في اسكتلندا عام ١٩٦٤ كانت على نفس الدرجة من الأهمية . كان علي أن ألقي محاضرة في كلية سانت أندروز ، ثم ذهبنا بعد المحاضرة إلى منطقة آوتر هايبرايدز . ولكن الاجازات الطويلة تضجرني ، وحينما كنا نقود السيارة عائدين من بلدة سكاي ، كنت أفكر في مقدار السعادة التي أشعر بها حينما أعود إلى مكتبتي ومكتبي . وتوقفنا في بلدة بيجر لكي نمضي ليلة مع هاف ماكدرميل وزوجته ، ثم استأنفنا الرحلة مرة أخرى في الصباح الباكر من اليوم التالي . كان المطر يهطل بغزارة في الليلة السابقة ، ثم برزت الشمس في هذه اللحظة من بين السحب . وكانت جوي تنظر إلى الخريطة لتعرف الطريق ، ولكي تعرف كم بقي لنا من الطريق قبل أن نجتاز الحدود إلى انجلترا ، ولسبب ما ، فكرت أن المسافة تبلغ مائتي ميل أو نحوها . ولكنها اكتشفت أن المسافة كانت أقل من ذلك بكثير ، وأننا كنا في الحقيقة نستطيع بسهولة أن نبلغ بلدة بلاكبول في تلك الليلة ، حيث يمكننا أن نمضي الليل مع بعض الأصدقاء . جعلتني هذه المنحة المفاجئة ، مع ضوء الشمس الساطع على الطريق المبلل ، أشعر بسعادة هائلة ، وبينما مضيت في قيادة السيارة تطورت السعادة إلى نوع من الاستبصار والنفاذ العميق ، حتى أننا ونحن ننطلق عبر منطقة البحيرات ، كنت قد وصلت إلى تلك الحالة النادرة من اليقين الكلي . وكانت هذه الحالة من الوضوح حتى لقد كان بوسعي أن أحيط بدلالات

معينة ما كنت أستطيع أن أراها من قبل أبداً . وأصبحت هـذه الدلالات أسساً لتطورات هامة في أفكاري . وعبّرت عنها فيما بعد بالطريقة التالية :

إذا تملكني الضجر — وليكن السبب في ذلك هو جلوسي في غرفة الانتظار في عيادة طبيب الأسنان — فإنني سرعان ما أنسى حقيقة الأزمنة والأمكنة الأخرى . ويصبح المعنى الأولي لكلمة « الحقيقة » بالنسبة لي هو « هذه الغرفة » ، أو هذا الضجر . لقد أصبح مجال رؤيتي — الغرفة — هو الحقيقة الوحيدة . وأنا أطلق على هذه الحالة اسم « الوعي الأحادي » طالما أنني لا أدرك إلا حقيقة واحدة . ولكن فلنفرض أن المطر بدأ يهطل ، فلماذا ينتج شكل المطر المتساقط على النافذة تجربة غريبة هادئة في نفسي ؟.. لأنني أتذكر فجأة أن هناك حقائق أخرى « هناك بالخارج » — الأشجار والحقول والمنازل التي يتساقط عليها هذا المطر أيضاً . هناك الآن حقيقتان ماثلتان في ذهني في لحظة واحدة ، وأنا أسمي هذه الحالة بالوعي المزدوج . وكل التجارب الغريبة هي تجارب من الوعي المزدوج . وحالات الوعي المزدوج تتنزل علينا دائماً بهذه الطريقة — بالصدفة العارضة تماماً ، مثلما تنزلت على بروست حينما تذوق قطعة البسكويت المغموسة في الشاي . وأياً ما يتصادف أن تكون ناظراً اليه أو مفكراً فيه ، في مثل تلك اللحظات من الوعي المزدوج ، فسوف يبدو بالضرورة جميلاً . إذا كنت تنظر إلى حبة من الرمل ، فسوف تنظر اليها باعتبارها عالماً كاملاً . في حالة الوعي المزدوج ، سوف تنظر حتى إلى جثة عفنة كشيء جميل .

وحالات الوعي المزدوج تفسر أيضاً السبب في حب الأطفال للجلوس حول النار في عيد الميلاد ، يصغون إلى حكايات الأشباح والعفاريت . ففي الخارج يكون هناك البرد والجليد المتساقط وهناك توجد الأشباح

والأسرار الخفية ، ولكن هنا ، حول النار ، يوجد الدفء والأمان ، إن هي إلا حالة من الوعي المزدوج . أو لماذا تلوح بداية كل عطلة بهذا القدر الكبير من الجمال . لقد تركت منزلك من خلفك ، وهو ما يزال حقيقياً بالنسبة لك ، ولكنك ترحل بالفعل عبر المناظر الجديدة ، فهناك حقيقتان ماثلتان في الذهن في لحظة واحدة . وفي اليوم التالي ، تكون قد نسيته في بيتك وأصبح البيت في ذاكرتك كنسخة معتمة مطبوعة بالكربون من صورة قديمة ، ويصبح منظر العطلة هو الحقيقة الوحيدة . ورغم أنها قد تكون حقيقة جميلة جداً ، فانها تفشل في توليد التجربة الفذة لأنك تكون في حالة وعي أحادي .

وطرأ لي شيء آخر حينما فكرت في تجربتي التي وقعت في أثناء عودتي من بلدة بيجار . لقد بدا لي وعيي كما لو كان قد اتسع بطريقة غريبة ، كما لو كان قد امتد إلى ما وراء التلال من حولي . لم أكن بالطبع واعياً وعياً حرفياً ببحيرات وتلال أخرى تكمن فيما وراء الأفق البادي أمام عيني . وإنما بالأحرى ، بدا كما لو كان وعيي المباشر قد أصبح كعنكبوت يكمن في وسط نسيجه الممتد من حوله ، والنسيج يمتد فوق التلال ، حتى يمكن أن ترتد كل خلجة تحدث في أبعد أطراف النسيج ، ترتد على الفور إلى المركز . ولبرهة قصيرة لهوت بتسمية هذه الحالة « وعي نسيج العنكبوت » . ولكنني عدت فرأيت كل دلالاتها الشاملة . فللوعي دائماً مركز خفيف – كما لو كان منطقة ضيقة صغيرة يضيئها مصباح كشاف – ثم توجد من حولها منطقة ظل معينة ، نصف مضاءة ونصف مظلمة . ومن ورائها تمتد الظلمة . أما ما بدا لي أنه يحدث في حالة وعي نسيج العنكبوت ، فهو أن منطقة الظل تزداد اتساعاً ، حتى تصبح مدركاً لوجود الأشياء الواقعة أصلاً خارج دائرة الادراك الواعي .

ولكن طرأ لي بعد هذا فكرة أخرى : كل حالات الوعي تتمتع

بهذا البناء الشبيه ببناء نسيج العنكبوت . بما يتمتع به من الخيوط التي تكون العلاقات بالأشياء الأخرى . وبالأزمنة والأمكنة الأخرى . وإنني إذا ما تملكني التعب القاتل . حتى لا تستطيع عيناي أن تتركزا إلا على شيء واحد في اللحظة الواحدة . ولا يكاد عقلي يتمكن من العمل على الاطلاق ، فان العالم يصبح بلا معنى . والأكثر من هذا ، فانني لا أرى في هذه الحالة ما أنظر اليه ، تماماً مثلما أستطيع أن أقرأ جريدة دون انتباه ، فأفشل في استيعابها . أو « إدخالها في رأسي » . فلكي أرى الأشياء رؤية حقيقية ، أحتاج إلى أن أراها في علاقتها بأشياء أخرى . أما إذا كنت أراها وحدها وفي عزلتها . فانني في الحقيقة لا أراها على الاطلاق .

إنك قد تعترض على هذه النقطة بأن هذا ببساطة ليس صحيحاً . إنني أستطيع أن أحدق في اصبعي حتى لا أعود أرى شيئاً سوى اصبعي الذي أحدق فيه . إنني أراه وحده « في عزلته » ولكنني أظل واعياً به باعتباره أصبعاً . ومع ذلك ، فان هذا الأمر لا يحدث إلا لأن الروبوط يقوم بعملية ربط الأصبع بالأشياء الأخرى . فإذا أنهك الروبوط الآخر وهده التعب — كما في حالة الغثيان التي يقول بها سارتر — فإنك سوف ترى اصبعك كشيء لا معنى له .

هكذا يكون لكل نوع من أنواع الوعي هذه الخاصية العلائقية . بحكم كونه ، وبطبيعته ، وعياً . إنها ليست مجرد خاصية إرادية كما يقول هوسرل ، وإنما هي خاصية علائقية . ولا تحتاج هذه النقطة إلى برهان حينما نفكر فيها ، فهي تثبت نفسها بنفسها . إنني أظن أنني « أعرف » شخصاً معيناً أراه كل يوم في العمل ، ولكن حينما أراه مع أسرته ، أو وهو يشرب في الحانة القريبة ، أتبين أن هناك جوانب من شخصيته لم أرها من قبل أبداً . إنني أعرفه الآن معرفة أفضل ، ببساطة

لأنني أستطيع أن أربط بينه . أن أقيم علاقة بينه وبين خلفية أوسع وأعرض . وبنفس الطريقة . فانني إذا كنت صحفياً أكتب المقالات الافتتاحية . فانني قد أظن أنني أعرف عصري معرفة جيدة جداً ، وعلى قدر ما يمكن أن يعرف هذا العصر بنفاذ وشمول . ولكنني إذا وقعت في أسر سحر التاريخ . وبدأت في القراءة عن قرون أسبق عهداً . فانني سأكتشف أن معرفتي السابقة بعصري كانت معرفة سطحية ، تشبه معرفة يرقة الذباب بقطعة الجبن .

وكلما زاد ادراكنا بتلك الخيوط الشبيهة بخيوط العنكبوت الممتدة في الهواء لامعة في أشعة الشمس . التي تمتد من ذواتنا لكي تصل إلى أزمنة أخرى وأمكنة أخرى كلما ازدادت رؤيتنا « للحقيقة » صدقاً وحقيقة ومن الواضح أنه كلما زادت الخيوط الممتدة إلى أزمنة أخرى وأمكنة أخرى . كلما ازداد تعقيد بناء الوعي . فيصبح مصطلح « الوعي المزدوج » مصطلحاً غير كاف . ونصبح بحاجة إلى أن نتحدث عن الوعي المتعدد .

إذن فان حالة وعي نسيج العنكبوت التي مرت بي في ذلك اليوم لم تكن تجربة صوفية أو غيبية . وإنما كانت وعياً عادياً تماماً ، وصل إلى هذه الدرجة من النمو بسبب حالة معينة من التفاؤل إننا ندرك بشكل طبيعي آفاقاً من الحقيقة تقع وراء اللحظة الحاضرة . ولكنها آفاق تشبه الجبال التي يغلفها الضباب . ذات أشكال مجردة . ثم ينقشع الضباب . وتبدو الجبال البعيدة واضحة وحقيقية مثل حافة السور في الحديقة الخلفية .

ما هي حقيقة النتائج التي أستخلصها من هذا ؟ هناك نتائج عديدة . أو لا يمكننا أن نقرر السبب الذي جعلني أقرر أن هذه التجارب الفذة ليست هامة في حد ذاتها . ليست التجربة الفذة هي ما تهمني ، وإنما

ما تراه فيها . إنك قد تمر بتجربة فذة حينما يكون عقلك معتماً تماماً – مثلاً ، أن يحدث لك انتصاب جنسي قبل أن تنام ، أو ما تشعر به من لذة لأكلة طيبة حينما تكون بالغ الجوع – وهي تشبه ومضة البرق في الفضاء الخالي ، البرق الذي لا يضيء شيئاً . إنما الشيء الهام هو ما يضيئه البرق .

لقد شب البشر عن طوق النموذج الحيواني لـ « الوعي الراداري » : أو الرادار الذي يعين الطيور المهاجرة على أن تجد طريقها في عودتها عبر مئات من الأميال ، والذي يساعد سمك الحريث المولود في بحر ساراجاسو على أن يقطع طريقه في البحر عبر المحيط الأطلنطي إلى الأنهار التي يعيش فيها . إننا نوسع من المساحات التي نمسك بهـا من الحقيقة بطرق أكثر تجريداً – من خلال اللغات والأفكار . وهذا يعني أن التجارب الفذة عند البشر تستطيع أن تضم نوعاً معقداً من المضمون غير معروف بالنسبة للحيوانات . في لحظات الوعي الشبيه بنسيج العنكبوت نعرف أكثر ، نصبح مدركين لأشياء أكثر مما يستطيع أي حيوان أن يدركها . والأكثر من هذا ، فان العقل في لحظات التجربة الفذة ، يلقي ضوءاً واضحاً كضوء النهار عـلى موضوعات المعرفة ، أما وعي الحيوان فلا يستطيع أن يلقي من الضوء ما يزيد على ضوء « الغسق » الذي يلقيه عقل الإنسان أحياناً حينما يكون مخموراً .

إن الأهمية الحقيقية لتاريخ القرنين الماضيين تنبع من أن هـذه الومضات من الوعي الشبيه ببيت العنكبوت قد أصبحت أكثر حدوثاً وشيوعاً . ويمكن أن يشير هذا إلى أننا على وشك أن نكتسب هـذا الوعي الشبيه بنسيج العنكبوت باعتباره ملكة طبيعية . وقد كانت لحظات الالهام والاشراق عند الرومانتيكيين هي الومضات التمهيدية لهذا التقدم النشوئي .

ما هي الطبيعة الدقيقة لهذه «الملكة» الجديدة ؟ لقد أدرك برلي أن طبيعتها هي أساساً نفس طبيعة الخيال ، ولكن هذا لا يؤدي إلا إلى تغطية النقطة الرئيسية بغطاء كثيف . فليس الخيال في الحقيقة سوى الشكل الخارجي لهذه الملكة . ولكن يمكن تشبيه طبيعتها بالرادار . إن الطيار يستطيع أن يهبط بطائرته وسط الضباب لأنه رغم عجزه عن الرؤية خلال الضباب ، فإن الرادار الذي تحمله الطائرة يستطيع ذلك . والبشر يحيط بهم جدار من الضباب ، هو أمور الحاضر القائم التافهة الكثيرة . وهم مجبرون على أن يعيشوا في هذا الحاضر ، مثلما تجبر ابرة الجراموفون على أن تدور في خطوط الأسطوانة المحددة ، ورغم هذا فانهم يملكون ، في شكل جنيني ، ملكة تخطي هذا الحاضر . إن اهتمام الحيوان بالحياة يجب أن يغذى بالانغماس الفعلي في الحقيقة الحسية . والتطور عملية بطيئة تتجه إلى تحقيق الاستقلال عن هذه الحقيقة المباشرة (التي هي تافهة في معظمها) ، إنه محاولة بلوغ الآفاق الأوسع للحقيقة التي تكمن وراء المباشر والفوري . إن القائد لا يفقد اهتمامه بالمعركة لأنه لا يستطيع أن يراها إلا على الورق . إنه يعرف أنها معركة حية حتى ولو كانت تدور على بعد عشرات الأميال من موقعه . فالخرائط بدبابيسها الملونة ، والرسائل التليفونية ، تحافظ على اهتمامه في مستوى مرتفع كما لو كان موجوداً في وسط المعركة ، كما تعطيه ميزتي الانفصال والأمان الاضافيتين . وهذا هو ما يفسر اتجاه كل أنواع التطور . إننا بحاجة إلى الانفصال . والانفصال لا يكون ممكناً إلا بالانسحاب مما هو فوري ومباشر ، وإلا بالتخلي عن الاحساس بالعجلة . وفي هذه الحالة ، فلا بد لي بطريقة ما من أن أعوض الانفصال باحساس متزايد بالحقيقة ، سوف يولد نفس الاحساس بالعجلة حتى ولو من بعد كبير . لقد اخترعنا التلسكوبات والمناظير المزدوجة المقربة حتى نستطيع أن نربط بين الانفصال الذي يخلقه البعد وبين الادراك التفصيلي الذي يعطينا

القرب على وجوده . ونحن نكتسب بالتدريج مقابلاً عقلياً للمظسار المقرب المزدوج — ملكة أو عضلة — مثلما يكتسب الصياد طول النظر بطريقة عملية .

فهل هنالك أية طريقة يمكن بها أن نسرع بتطور هذه الملكة ؟. أجل . بأن نصبح واعين وعياً كاملاً بهدفنا بدلاً من أن نقتفي أثره بغموض وبطريقة غريزية . يكفينا أن نكون واعين به وعياً كافياً ، وسيقوم الروبوط بالباقي . إن تاريخ النزعة الرومانتيكية والفلسفة الوجودية هو تاريخ هذا الوعي المتزايد بأعمق أهدافنا التطورية . لقد فشل الرومانتيكيون والوجوديون ببساطة في إدراك ما كان يحدث لهم . وليست النزعة العدمية عند سارتر وبيكيت وغيرهما سوى سوء فهم لهذا الدافع . إن اللامعنى وهم . فالمعنى قائم هنالك ، حقيقة موضوعية ، خارجنا . ومشكلتنا هي أن نحسن استخدام الوعي لكي نمسك بهذا المعنى ، مثلما يحسن سائق الرافعة استخدام الذراع لكي يمسك بشيء صغير . وليس كل هذا الحديث عن اللامعنى سوى الفشل في فهم طبيعة الوعي .

ومن الواضح أن الوعي محدود من ثلاثة جوانب : بالنسبة للمكان ، وبالنسبة للزمان ، وبالنسبة للمعنى . والجانب الأول واضح بما فيه الكفاية . فإنك إذا ذهبت فوقفت فوق قمة تل من التلال ، فإن كمية المكان التي أعي بها صغيرة نسبياً ، وأنا أفقد ماضي في خلال عملية العيش ، إنني مغروس في حاضر دائم ، ومع هذا فانني أعرف أن حياتي الماضية حقيقية ، وأنا أعرف أن التاريخ حقيقي . بل إنني أستطيع أن أعيش لحظات خاطفة يصبح الماضي فيها حقيقياً بالنسبة لي ، مثلما حدث لبروست مع قطعة البسكويت ، ومثلما حدث لستيبنولف في الفراش مع ماريا حينما تبين فجأة : « كم كان معرض حياتي خصباً وثرياً » .

ويجب أن تكون الحدود القائمة بالنسبة للمعنى واضحـــة بنفس القدر . إن رؤية الشيء في مجال صغير لا تعني إدراكه في معناه الكامل . تماماً مثلما لا أستطيع حتماً أن أفهم شاعراً أو مؤلفاً موسيقياً إذا لم أكن أعرف من أعماله سوى قصيدة واحدة أو مقطوعة موسيقية واحدة ، إنني أحتاج إلى المجال الأوسع والأعرض لكل أعماله لكي أعرفه فلماذا إذن يعترف وجوديّونا بأن المكان والزمان حقيقيان على الرغم من الحدود التي تحد إدراكنا، ثم ينكرون رغم هذا على المعنى أن تكون له موضوعية مشابهة ؟ لا يمكن أن تكون هناك سوى اجابة واحدة : السبب هو التفكير المضطرب ، والعجز عن الامساك بكل دلالات المشكلة .

هناك نقطة أخرى تم أنتهي من هذا الملخص . من المؤكد أن محنة سانت نيوت هي المشكلة الأساسية — وصورة السخف والعبث الأساسية — للوجود الإنساني . واسمها الآخر هو « فشل الحياة » أو سقوطها ، فما الذي يسببها ؟

لكي نكتشف الاجابة على هذا السؤال ، علينا أن ندرك أن الوعي الإنساني يمتلك جانبين متمايزين . ودافعين متمايزين . أحدهما يمكن أن يدعى « الدافع الخارجي » أو المتجه إلى الخارج ، إرادة الاكتشاف والاستقصاء والبحث . والآخر هو دافع الرغبة في السلام والأمن . هناك لحظات تنفتح فيها الروح الإنسانية مثل فم هائل جائع إلى الكون . ربما يكون هذا الجوع بالفعل جوعاً إلى الخطر والمصاعب إذا كان يشعر بأن الراحة تدفعه إلى النوم . لقد كان المقصود من احتياجنا إلى السلام والأمن هو التخفيف من حـــدة هذا الجوع ، ولكي يصبح أساساً له . وكل مكتشف ، بعد كل شيء ، يحتاج إلى بيت يعود اليه . ولسوء الحظ ، فإن الدافعين في هذه المرحلة ، يجدان نفسيهما مشتبكين

في صراع مشترك .

وهذا هو ما يفسر الشخصية التي دعوتها « اللامنتمي » . لقد كتب آلدوس هكسلي قصة عنوانها [illegible] تدور حول داعية للسلام عدواني شاب يتقمص في الليل شخصية كاتبة روائية أنثوية عاطفية . ثم يجترح كل ما يذمه الليبراليون بالنهار . وعند اللامنتمي ، يصبح كل من « الدافع الخارجي » والاشتياق الملح إلى السلم والأمان شخصية مختلفة كل الاختلاف . فكيف تستطيع الذات « المغامرة » أن ترتب كل شيء حتى تصل إلى إحباط الذات البورجوازية المحبة للراحة ؟ من الواضح أن هذا يتم بأن تربط الذات المغامرة نفسها بتهيج في السلوك يخبط الذات المحبة للراحة . بهذا الشكل يتخلى ويتجنشتاين عن كل أمواله . ويرفض ت . ي . لورنس وظيفة كبيرة في الحكومة ويصبح جندياً « نفراً » في السلاح الجوي الملكي . وقد كان فاوست جوته هو أول تعبير واضح عن هذه المشكلة .

إن ذاته المغامرة وهم جائع يعتبر كل أنواع المعرفة طعاماً سائغاً له . ولكنه يظل جائعاً لأن الذات البورجوازية لا تجد ما يثيرها في الجوانب الذهنية . تماماً مثلما قد يستيقظ قديس ذهب إلى الصحراء في الصباح التالي ، فيتساءل عن كيف أمكنه أن يصبح بهذه البلاهة . وبهذه الصورة يستيقظ فاوست ، فينظر إلى كتبه . ثم يلوي رأسه عنها وهو يهز كتفيه هزة الاحتقار .

وحتى ينمي الإنسان الملكة التي تحدثت عنها — الملكة الشبيهة بالمنظار المقرب المزدوج . الرادار الذي يرى ما وراء الحاضر القائم — فسوف يكون من المستحيل أن يوحد بين الذاتية والموضوعية المتصارعتين . ولا يمكن أن يتم تطوير هذه الملكة إلا بالتحليل الواعي للمشكلة ، بالطريقة التي كنت

أحللها بها هنا . وليست هنا سبل قصيرة قاطعة نافذة ، لا في صورة المخدرات ، ولا بالمذاهب السلوكية الدينية (مثل الزّن أو اليوجا) ، ولا بالايديولوجيات السياسية .

* * *

أعود مرة أخرى باختصار إلى الترجمة الذاتية ، رغم أنها أقل أهمية بكثير إذا ما قورنت بالأفكار .

لقد كتبت اثنين وعشرين كتاباً في عشر سنوات ، بما في ذلك هذه الترجمة الذاتية . ولقد كتبت بهذه السرعة لأنني شعرت بأنه كان لدي الكثير جداً مما أريد أن أقوله ، وانني قد أنفجر إذا لم أقله . لقد كتبت بسرعة تشبه السرعة التي يحك بها الكلب جلده المقروح . ولقد بلغت الآن إلى النقطة التي أرسيت عندها الأساس الضروري ، فأحتاج بعدها إلى بعض الوقت للتفكير والكتابة .

ولا بد لي أن أعترف بأن الحياة كانت دائماً بالغة الصعوبة في أثناء الاثني عشر عاماً الأخيرة . فلقد عشت معظم هذه الفترة بفضل مدير حساباتي المصرفية ، مديناً بمبلغ هائل سحبته من المصرف (وقد بلغ عند لحظة معينة ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه) . وأنا أكتب هذه الصفحات الختامية في سياتل ، حيث (كما قلت من قبل) كنت أعمل كأستاذ زائر في جامعة واشينجتون ، وحيث كنت أعمل في العام السابق ككاتب زائر مقيم في كلية هولينز بفرجينيا . وقد حصلت من هذين الوظيفتين على مرتب جيد ، ولم أكن مطالباً بالكثير جداً من العمل . ومع ذلك فما زلت أفضل أن أكون جالساً بهدوء في البيت في كورنوول ، بعيداً عن الطلبة وأوراق الامتحانات الفصلية وبطاقات الدرجات .

وقد كان ويليام جولدينج في كلية هولينز في عام ١٩٥٩ حينما «ضربت» كتبه فجأة في امريكا وارتفعت أسهمها ، فأصبح شيئاً يشبه البطل في كل حرم جامعي ، جنباً إلى جنب مع سالينجر وتولكين. ويمكن العثور الآن على كتبه في طبعات رخيصة ذات أغلفة ورقية في كل مركز لبيع الكتب في كل مطار . وحينما جئت إلى أمريكا كنت آمل أن يحدث نفس الشيء بالنسبة لي ، ولكن لم تصلني أية إشارة أو علامة تدل على ذلك منذ ذلك الحين . وطالما أنه ليست لدي النية في الاستمرار في اصدار الكتب بمعدل كتابين أو ثلاثة كتب كل سنة ، فانه يبدو أن من المحتمل أن يكون التدريس في الجامعات الأمريكية سوف يظل المصدر الرئيسي لدخلي في المستقبل .

ولا بُدّ لي أن أعترف بأنني أفضل أمريكا على انجلترا . لقد أحببت انجلترا نفسها ، ولكنني لا أستطيع أن أحتمل شعبها . إن انجلترا ، بالمعنى الفني والثقافي : بلد ميت ومن المقدور له الزوال . لقد وقعت حياتها الثقافية تحت سيطرة الجامعات ، والإذاعة البريطانية (الـ B. B. C.) ومثقفي شارع الصحافة (فليت ستريت) — أي أن حياتها الثقافية قد وقعت تحت سيطرة جماعة من المهزومين يفترض أنهم كتّاب . والمثقف الانجليزي ليس مهيأ للتفكير . يكفيه أنه مغموس في الثقافة (الفرنسية في العادة) وأنه خبير في المناقشات التي لا جدوى منها . مجده الرئيسي هو قدرته على أن يقنع نفسه بأن فشله في التفكير فضيلة ، وهذا هو النتاج النهائي للادعاء السفسطائي الشامل . إنه مثقف من الدرجة الثانية بصورة أساسية . وفي الوقت المناسب سوف يختفي نوعه بقوة العملية العادية التي تؤكد أن البقاء للأصلح . لأنه قد يكون أي شيء سوى أن يكون صالحاً ، إنه صاحب عقلية مترددة لزجة وقصير النفس .

انجلترا مقفلة وستاتيكية . وبهذا المعنى فمن المؤكد أن أميركا مفتوحة وديناميكية نشطة . وهي تملك أيضاً عدداً وافراً من الأكاديميين صغار العقول ومؤامراتها الثقافية الصغيرة ، ولكن ليس هناك شيء من هذا الهواء الخانق المتعفن الذي تجده في انجلترا . في شهر فبراير (شباط) من عام ١٩٦٦ ذهبت إلى السينما في بلدة بيتسبرج لكي أشاهد فيلم برين « الحياة عند القمة » ، فأعاد الفيلم إلى ذاكرتي كل ما كنت أمقته في انجلترا : النماذج التي تنتجها الاذاعة البريطانية على طريقة الانتاج الجماعي الكبير وتمجدها الجامعات ، وأدعياء الثقافة الاقليميون المرحبون من أمثال لامبتون ، الذين لا يملكون في رؤوسهم شيئاً آخر غير كراهيتهم المجدبة للطبقات العليا العقيمة . وبدا لي أنه كان من الممكن أن يسمى الفيلم « جعجعة بلا طحن » طالما أن كل من فيه لا جدوى منه ولا بديل له . وخرجت من السينما وأنا غارق في إحساس غير مريح من الكراهية لكل ما هو انجليزي ، جعلني أشعر بما يشبه احتراق الكبد المحزون . وركبت تاكسياً ، وجلست دون كلمة فسألني السائق : « إلى أين . يا أخ ؟ » ، وفجأة اختفى الكبد المحترق وشعرت بالسعادة مرة ثانية . ذلك لأن البشر جميعاً ، بمعنى من المعاني ، إخوة متساوون ، والجنس البشري أسرة واحدة . وقد أشعر بأنه من المستحيل أن أحتمل أكثر اخوتي وأخواتي ، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك في العلاقة القائمة بيننا . وأختتم بقولي إنني شيوعي بالمولد والفطرة : لست شيوعياً ايديولوجياً ، ولكني شيوعي غريزي . ليس هناك من يستحق الاحترام بسبب « وضعه » (الأمر الذي قد يبلغ في انجلترا غالباً إلى وضع لكنته في الاعتبار) وإنما يحترم الإنسان لما هو عليه ، وعلى ذلك فانه لن يحترم حقاً إلا لأنه ليس شديد الاحساس أو الغرور بما هو عليه .

ولأمريكا أخطاؤها — الآلاف من الأخطاء — ولكنها على الأقل تسلم باحترام الشخص بناء على ما هو عليه . طرأت على ذهني كل هذه الأفكار في دفقة واحدة حينما سألني السائق : « إلى أين . يا أخ ؟ » . وفجأة شعرت بتعاطف هائل نحو أمريكا . إنها البلد التي أستطيع فيها أن أشعر بالراحة وأن أقوم بأفضل ما علي من عمل .

* * *

في الثامنة والثلاثين ، أشعر بسحف قصر الحياة الإنسانية ، وأستطيع أن أجد المعاني الأكثر عمقاً في كتاب شو « العودة إلى ميتوشالح » . فالزمن تتزايد سرعته بثبات . ليس حقيقياً أن ثلاثة وعشرين عاماً قد انقضت منذ كنت في الخامسة عشرة ، إنها تبدو خمسة أعوام تقريباً . وفي بعض الأحيان ، حينما أتحدث إلى أشخاص أصغر مني سناً ، أشعر بأنهم يهنئون أنفسهم لأنهم أصغر في السن . فابتسم بسخرية . فمن المستحيل على من كان في السادسة عشرة من عمره أن يتبين أنه في غضون خمس سنوات لن يكون في الواحدة والعشرين . وإنما في الثلاثين . ثم في الخامسة والثلاثين بعد عام واحد . ثم في الأربعين بعد ستة أشهر . إن سرعة الزمن تتزايد لدرجة تخدعنا .

ولكن شو على حق . لا بُدّ أن يتوقف هذا العبث السخيف . فلا بُدّ أن يكون الإنسان قادراً على الاعتماد على أنه سيعيش لمدة مائة وخمسين عاماً على الأقل . على الأقل ، لا بدّ أن يعيش الإنسان الخلاق بهذا القدر . وعلى أي حال فان الإنسان العادي يتوقف عن النمو في العشرين ، وهكذا فان مائة وثلاثين عاماً أخرى من الحياة لن

تكون كثيرة النفع له . ولكن ، كم من صور التقدم يمكن أن تحدث حقاً إذا بدأ جيل جديد وبدأ العودة إلى البداية . إن ما يعتري الفلسفة من ارتباك — حقيقة أنها لم تتطور أبداً إلى علم ، رغم أنها قد حصلت على ألفين وخمسمائة من السنين لكي تنجز هذه المهمة — إنما يرجع إلى هذا القصر المذل للحياة الإنسانية . وإذا تحقق انجاز شيء ما على «المستوى الأفقي» للوعي — لنوع من التقدم في التفكير المعاشي أو البنائي أو العملي فانه يمكن أن يورث للجيل التالي برمته . ولكن المشاكل الكبرى حقاً - المشاكل التي تتحدى التفكير الديني أو الفلسفي — لا يمكن أن تتحقق إلا بنوع من الإدراك والنضوج إلا عبر سبعين سنة متصلة من التفكير الشاق المتصل . فإذا استطاع جسدي هذا وعقلي أن يستمرا بصورة جيدة لمدة مائة عام أخرى أو نحوها لكان من المحتمل أن أستطيع حل كل مشاكل الفلسفة دفعة واحدة . أما في الحالة الراهنة ، فقد ظللت أفكر بدأب واستمرار عبر سنين منذ كنت في الثانية عشرة ، وما زلت أحتاج إلى عشرين عاماً لكي أخلق مصطلحاً أساسياً لنفسي لكي أستكمل الأساس الصالح لفلسفة حقيقية .

* * *

حينما قررت أن أكون كاتباً — بدلاً من أن أكون عالماً — في الرابعة عشرة من عمري أو نحوها ، أحسست بالذنب لاختيار الطريق الذي كنت أظنه لا يحتاج إلا إلى أقل المقاومة . ولكن كان علي أن أعرف أن العالم إذا بدأ كعالم ، فسوف يظل عالماً إلى النهاية . ولكن عشرين عاماً من العمل لم تحملني بعيداً عن نقطة بدايتي (وهذا ليس تواضعاً .

فأنا أعرف أنني قد قطعت طريقاً أطول مما قطعه أكثر معاصريّ .
وسوف أكن غبياً أحمق إذا لم أعرف هذا ، وجباناً إذا خشيت أن
أقوله) . ولكن يبدو أن السنوات على الأقل قد وصلت بي إلى النقطة
التي أستطيع منها أن أجد لنفسي بداية .

الفهرس